سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٩)



سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات منهجية

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ومشايخه

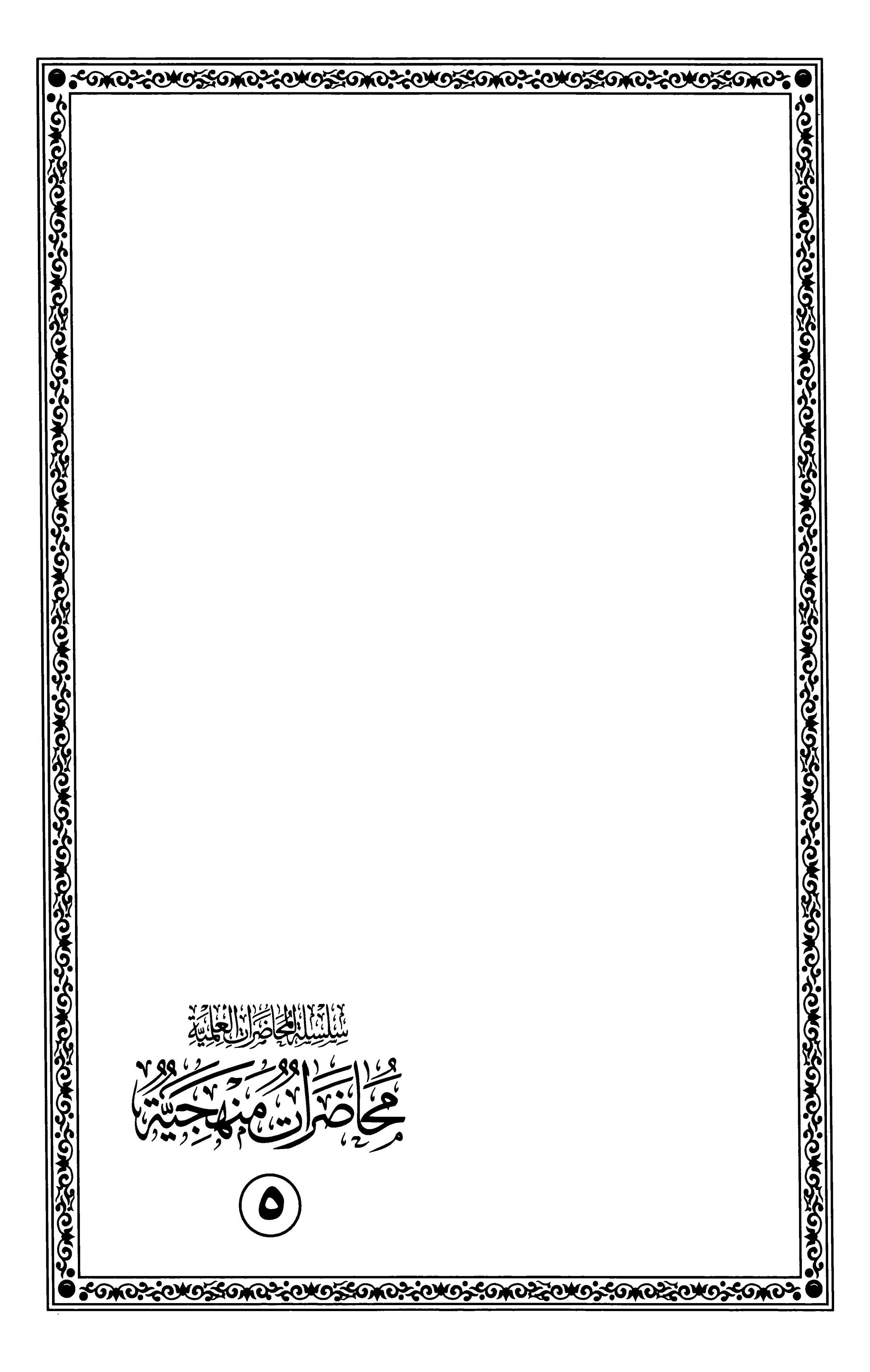


الجزء الخامس



مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع


سلسلة المحاضرات العلمية
محاضرات منهجية
٥

ح عادل محمد مرسي رفاعي ، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل الشيخ ، صالح عبد العزيز محمد

سلسلة المحاضرات العلمية لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
صالح عبد العزيز آل الشيخ ؛ عادل محمد مرسي رفاعي :-
الرياض ، ١٤٣٥هـ
٧ مج.

ردمك : ٦-١-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٦-٤٩٢٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٥)

١ - الاسلام مقالات ومحاضرات ٢ - الاسلام - مجموعات ا. رفاعي ، عادل محمد مرسي (محقق) ب.العنوان

ديوي ٢٥٢,٥٠٨ ١٤٣٥/٣٧٥٨

رقم الإيداع : ١٤٣٥/٣٧٥٨
ردمك : ٦-١-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٦-٤٩٢٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٥)

طبعة عام ١٤٣٦ هـ



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي سلطانة - شارع جنين - بجوار جامع شيخ الإسلام ابن تيمية
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٢٤٣٨١٥٠٩

البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٩)

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات منهجية

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

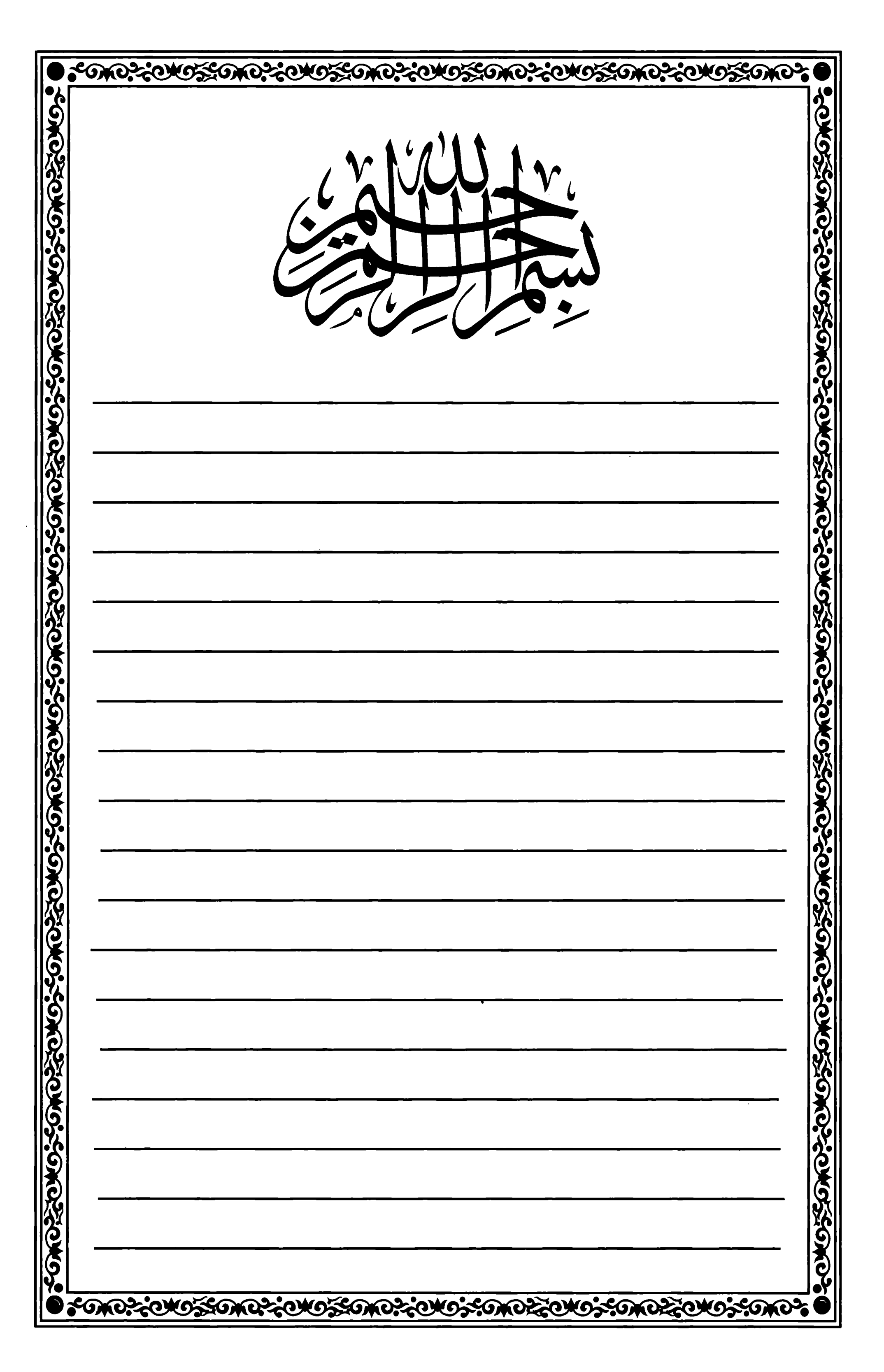
عادل بن محمد مرسي رفاعي

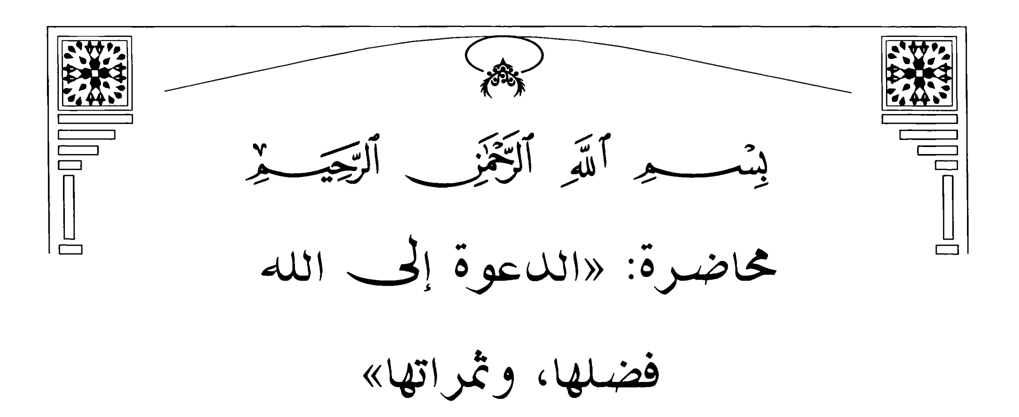
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الخامس

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



محاضرة: «الدعوة إلى الله فضلها، وثمراتها»

١٤٢١/١١/٧هـ جامع الإمام عبد الله بن سعود بالسويدي

الحمد لله، جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يهدون، ويرشدون، ويدعون إلى الله ﷻ، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون به أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أسوأ أثر الناس عليهم! ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد..

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن سخرهم لنشر دين الله ﷻ، ولرفع راية الإسلام، ولتكثير الخير، وتقليل الشر، إنه سبحانه أكرم مسؤول، كما أسأله ﷻ أن يوفقنا جميعًا إلى التعاون على البر والتقوى، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر، نستن بسنة محمد ﷺ، ونتعاون على نشرها، وندعو الناس إلى الله ﷻ، دعوة خالصة من الشبهات والشهوات.

موضوع هذه المحاضرة: «**الدعوة إلى الله ﷻ، فضلها، وثمراتها**».

ولا شك أن من اختار هذا الموضوع أحس بعظم شأن الدعوة إلى الله في الكتاب وفي السنة، وأحس بعظم حاجة الناس إليها في هذا الزمان بالخصوص، صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، خاصًا وعامًا، في هذا البلد بخصوصه، وفي بلاد الله بعمومها.

وذلك أن الله ﷻ ابتلى الناس، لم يخلقهم ليكون الهدى والخير غالبًا دائمًا، أو ليكون الشر والفحش مهزومًا دائمًا، فقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون فيها شد وجذب، تارة وتارة، وذلك لحكم عظيمة، ومن أعظمها: أن يبتلي الله ﷻ الناس؛ ليعلم الصادقين منهم والمجاهدين، وليبلو أخبارهم، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

هذا أمثاله كثير في القرآن؛ ليبين أنه ﷻ أذن كونًا بأن يكون في الأرض شر، وأن يكون في الأرض بُعد عن الله ﷻ؛ ليحتاج الناس إلى الدعوة إلى الله ﷻ، ليحتاج الناس إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليحتاج الناس إلى الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الشبهات، وجهاد الشهوات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذا إذا عُلم، عُلم أن الابتلاء إذا احتاج الناس إلى مزيد من الدعوة،

وإلى مزيد من نشر الخير، الابتلاء حينئذ يكون أعظم في من كان له قدرة على البيان، وعلى نشر الخير، وعلى التعاون عليه.

فالدعوة إلى الله ﷻ مأمور بها في القرآن، ومأمور بها في السنة؛ ليتحقق التدافع الذي جعله الله ﷻ سمة للمكلفين، يدفع الخير الشر، فتعظم الأجور، ويظهر الصادق من غيره، وتعظم الحسنات، وتكفر السيئات.

الدعوة إلى الله ﷻ جاءت في النصوص بهذا الاسم: الدعوة إلى الله، قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال ﷻ في وصف نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١)، والعلماء ورثوا الأنبياء في العلم وفي العمل، وإذا كان الأنبياء أُمروا بالدعوة في كل حال لتبليغ رسالة الله ﷻ، فإن العلماء في مكانهم في نشر دين الله ﷻ وتعليم الناس الخير.

وقال ﷻ في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، قال العلماء من المفسرين ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي: جعلني معلمًا للناس الخير أينما كنت(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٨١)، وزاد المسير (٥/ ٢٢٩)، والقرطبي (١١/ ١٠٣)، وابن كثير (٣/ ١٢١).

وهذه هي حقيقة البركة التي يعظم أثرها، وتنتشر في الناس، البركة: زيادة الخير، ونماؤه، وزيادة الخير، ونماؤه لا يكون إلا بالدعوة، إلا بالتعليم، إلا بفتح أبواب الخير.

ولهذا نرى أنه في القرآن، وفي سنة النبي ﷺ ذكر هذا اللفظ - الدعوة إلى الله -، ومعنى ذلك الدعوة إلى دين الله ﷻ، وحقيقة الدعوة في اللغة أنه طلب للذهاب إلى شيء، دعا فلان إلى مأدبة يعني: طلب منه أن يذهب، أو أن يأتي هذه المأدبة، دعاه إلى القتال يعني: طلب منه أن يمضي إلى القتال، دعاه إلى سفر يعني: طلب منه ذلك. إذًا: دعا إلى الله يعني: طلب الناس أن يسيروا إلى الله ﷻ بطاعة أمره، واجتناب نهيه، وتحقيق الإخلاص له ﷻ، دعاهم إلى أن يفروا إلى الله ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وهذا في الحقيقة تحقيق للغرض من النجاة من الابتلاء؛ لأن الناس ابتلوا بهذه الحياة، ومن ينجُو في هذا الابتلاء هو من يطيع الله ﷻ، ويطيع رسوله ﷺ، يطيعهم بتصديق الأخبار الغيبية، وامتثال الأوامر الشرعية، والانتهاء عن المناهي، فمن صدق بالخبر، وأطاع الأمر، وانتهى عن النهي، فقد أجاب الله ﷻ في دعوته، ومن خَلَّط بين هذه وهذا، فقد خلط.

ومن دعا إلى تصديق الأخبار - وهي: العقيدة، وامتثال الأمر، واجتناب النهي -، فقد دعا إلى الله ﷻ.

فإذًا: حقيقة الدعوة إلى الله هي طلب الداعي أن يمتثل الناس ما أمر الله ﷻ به، أو أن يصدقوا، ويؤمنوا بما أخبر الله ﷻ به، فهذه هي حقيقة

الدعوة، ولهذا نرى أن الدعوة تكون في جميع أمور الدين، ليست الدعوة في باب دون باب، وهذا يتضح من الأمر العام الذي في النصوص، والفضل العام الذي جاء في الدعوة إلى الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، وقال: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، قال ﷻ: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[١].

وهذا وغيره يدل على أن الدعوة إلى الله معناها: الدعوة إلى عموم الدين، فحينئذ من دعا إلى العقيدة، وإلى إخلاص الدين لله، وإلى توحيد الله ﷻ، والبراءة من الشرك، والبعد عن مظاهره، وعن موبقاته، فقد دعا إلى الله ﷻ، من رد الشبهات في التوحيد، والعقيدة، فقد دعا إلى الله ﷻ، من دعا إلى امتثال الفرائض، والإتيان بها - الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، والصدق في الحديث، وأداء الأمانة، وإيفاء الوعد، وصدق العهد، ونحو ذلك -، فقد دعا إلى الله ﷻ.

ومن دعا إلى إصلاح الباطن بإصلاح السريرة، والخوف من الجليل ﷻ، وإصلاح أعمال القلوب بإقامة القلب على حب الله ﷻ، وحسن التوكل عليه، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والأنس به ﷻ، والهرب من غيره إليه،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

فقد دعا إلى الله ﷻ.

ومن أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فقد دعا، ومن جاهد في سبيل الله، فقد دعا.

وهذا يعني أن الدعوة إلى الله ﷻ غير مختصة بباب دون باب، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كلام له حسن: (**إن الدعوة إلى الله ﷻ تتنوع من حيث الوجوب، ومن حيث الوقوع، فمنهم من يدعو إلى العقيدة، ومنهم من يدعو إلى العمل الظاهر، ومنهم من يدعو إلى العمل الباطن، فهي تتنوع من حيث الوجوب، ومن حيث الوقوع**).

وإذا تبين ذلك، فإن الدعوة إلى الله ﷻ، بمعنى طلب انتشار دين الله، وأن يؤمن الناس بهذا القرآن، والسنة، وبهذا الدين، وأن يلتزموا بتلك الأوامر، وأن يجتنبوا تلك النواهي، هذا واجب؛ لأن الله ﷻ أمر به، وما أمر الله ﷻ به، فالأصل فيه الوجوب؛ قال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

قوله ﷻ هنا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾. قال البغوي، وغيره من أهل العلم: اللام هنا للأمر(١)، فمعنى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: أن الله يأمر عباده أن يكون منهم أمة يدعون إلى الخير، وأن يكون منهم أمة يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهذا يعني أن الوجوب وجوب كفائي على مجموع

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/ ٣٣٨)، وزاد المسير (١/ ٤٣٤).

الأمة، فإن قام به من يسد الحاجة، امتثل الواجب، وإلا فإنه يأثم من يقدر على الدعوة، ولا يدعو.

هذا الوجوب الكفائي إذا نظرنا إليه مع كثرة فروع الدين، بل مع كثرة ما يطلب في دين الله ﷻ أن يُدعى إليه، وجدنا أنه لا يمكن أن يقوم بالدعوة إلى الله ﷻ على كمالها واحد في كل باب، أو عشرة في كل باب، أو مائة في كل باب، هذا غير متيسر إلا لمن كان إمامًا في الدين، وتلك رتبة عظيمة لا يبلغها إلا الأفراد في القرون، وإذا كان كذلك، فإن أهل العلم يدور كلامهم على أن الدعوة إلى الله ﷻ بحسب الاستطاعة.

فمن كان عنده علم بتوحيد الله ﷻ، فنشره، فإنه معلم للخير، وداع إلى الله ﷻ، ومن كان عنده علم بالفقه، فنشره، فإنه معلم للخير، وداع إلى الله ﷻ، ومن كان آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فهو أيضًا داع إلى الله ﷻ، ومن كان يرقق القلوب لتقبل على الله ﷻ، فهو داع إلى الله ﷻ، ومن كان يأخذ بالوسائل المفيدة ليستفيد غيره منها، فإنه - أيضًا - يدخل في سلك من يدعو إلى الله ﷻ، وفي فضل ذلك؛ ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: **«نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَمَلَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»**(١)، وقال: **«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»**(٢)، يعني: دعا النبي ﷺ لهذا الذي سمع، ولم يفقه تمام الفقه، لكنه بلغ كما سمع، دعا له بأن ينضر الله

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٨) قال الهيثمي: فيه عيسى الخباط وهو متروك الحديث. والحاكم (١/ ١٦٤، رقم ٢٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢).

وجهه، ومعنى (**نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ سَمِعَ مَقَالَتِي**)، وفي اللفظ الآخر (**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً**)، بدون وجه، (**نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ**)، هذا معناه الدعاء له بأن يزين الله وجهه يوم القيامة، وأن يبعث فيه النور في الدنيا، (**نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ**)، أي: زين الله، ونور وجه امرئ سمع فأدى، فإذا كان هذا الفضل في من سمع فأدى، وهو ليس بعالم فيما سمع، وفيما أدى، فكيف بفضل من وعى بعد تلك المقالة، فعمل بها، وعلمها؟ لا شك أن فضله عظيم.

وهذا يدلك على أن هذا الوجوب الكفائي للدعوة إلى الله ﷻ لا يختص بفئة دون فئة من أهل العلم، أو من عامة المسلمين، بل هو مرتبط بمن علم؛ لهذا في الحديث: «**سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي**»[1] ومعنى سمع فوعى: أنه يكون علم شيئًا من دين الله، فوعاه بدليله، واتضح له بحجته، فحينئذ إذا نقله، ودعا إلى هذا الذي سمعه فوعاه، فإنه حينئذ يحظى بهذا الفضل العظيم، وهذا مما ترى أنه لا يمكن - وخاصة في هذا الزمان -، لا يمكن أن يحصل الانتشار للدعوة، والانتشار للخير إلا بهذا التعاون، إذا كان واحد، أو اثنان، أو ثلاثة يقولون: سنعمل كل شيء، هذا لا يمكن، بل الواجب التعاون على البر، والتقوى، هذا يعلم بما فتح الله عليه، وهذا يحاضر بما فتح الله عليه، وهذا يأمر بالمعروف، وهذا ينشر كتابًا، وهذا يؤلف، فلا يظلم بعضنا بعضًا في ذلك، بل كل من بذل الخير، ونشر دين الله ﷻ، أو أعان على ذلك، فإنه يشكر عليه، ونرجو أن يكون داخلًا في تحقيق هذه الخيرية، وهذا الفضل العظيم؛ ولهذا ندعو الجميع بهذه المناسبة ألا يخلوا أنفسهم من الخير، أن يوطنوا أنفسهم أن يكون همهم

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٦).

الدعوة إلى الله ﷻ، وليس معنى ذلك أن تتفرغ الليل، والنهار، وأن تكون كطلبة العلم المبرزين، أو كالدعاة الذين لهم شأن، لا، لكن تحس به ليلًا، ونهارًا، وإذا وجدت مجالًا، فتبذله، قد تبذله بكلمة، وقد تبذله بالإرشاد إلى خير، قد تبذله بنشر كتاب، قد تبذله بإهداء شيء، المهم أن تفكر دائمًا في بذل الخير وفي انتشار الهدى؛ لأن هذا واجب علينا جميعًا، وليس لنا مناص منه؛ لأن الله ﷻ أمر بذلك.

لهذا نجد أن في سير الأنبياء ما يحرك الهمة؛ كما في كتاب الله ﷻ، وفي سنة رسوله ﷺ، ما يحرك الهمة للدعوة إلى الله ﷻ.

خذ -مثلًا- أول رسل الله ﷻ نوح عليه السلام، في سورة نوح أكثرها في دعوته، في دعوة نوح بلفظ الدعوة، وبطريقة الدعوة، والبذل فيها، وكيف صبر، وكيف أجيب، وكيف حضهم، وكيف رغبهم... إلى آخر ما اشتملت عليه تلك السورة العظيمة.

قال ﷻ مخبرًا عن قول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: ٥ - ٧]

هل انقطع؟ قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ٨ - ١١] إلى آخر الآيات.

فهذا نوح عليه السلام أول الرسل، وصفه الله ﷻ بأنه دعا إليه، وأنه بذل الليل، والنهار، والجهار، والسر، الجهار يعني أن يدعو الناس في ملأ بكلمة

عامة، ويحض بحض عام على اختلاف أنواع الناس، أو سرًا، قال العلماء: معناه: أن يكون بينه وبين شخص واحد إذا لقيه، فإنه يدعو إليه، ليس على ملأ، ولكن بينه وبينه، فنوع ذلك من جهة الزمان في الليل، والنهار، ومن جهة الطريقة الجهر، والإسرار، ومن جهة المخاطبين - أيضًا -، وذكر الفضل[١].

وهذا يحرك الهمة لمن عنده رغب في أن يكون من الدعاة إلى الله ﷻ، أي: أن الطريقة ليست واحدة، وأن هذا للمرء فيه قدوة فيما يأتي، وفيما يذر.

وآخر رسل الله ﷻ محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ، وصفه الله ﷻ بأنه داع: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦] دعا إلى أي شيء؟ دعا - وهو أعظم ما دعا إليه - إلى توحيد الله ﷻ، وإلى البراءة من الأوثان، والأصنام، والشرك، والمشركين، دعا إلى طاعة الله ﷻ، إلى الإيمان بالقرآن، إلى الإيمان بما في هذا الكتاب العظيم، دعا إلى الفرائض، دعا إلى مكارم الأخلاق، دعا إلى الانتهاء عما حرمه الله ﷻ، هذه الدعوة الشاملة هي طريقه، وسبيله، وسبيل من اتبعه إلى يوم القيامة.

وهنا - كما ذكرت سابقًا - الدعوة تتنوع، وليس كل أحد يستطيع أن يعمل كل شيء؛ ولهذا قيل للإمام مالك رحمه الله: «إنك تفرغت للعلم، وتركت الجهاد في سبيل الله». وبعض الجهال يأتيه الشيطان بهذه الشبهة: الناس يحتاجون إلى جهاد، وهذا جالس في مسجده يعلم، ويقرأ كتابًا... إلى آخره،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٣)، وزاد المسير (٨/ ٣٧٠)، والقرطبي (١٨/ ٣٠١)، وابن كثير (٤/ ٤٢٦).

هذه قديمة؛ لأنها من الشيطان.

قيل للإمام مالك: «إنك تفرغت للعلم، وجلست في مسجدك، وتركت الجهاد في سبيل الله». قال الإمام مالك بن أنس - أحد الأئمة الأربعة المشهود لهم من الأمة، وشيخ الشافعي - قال: (يا هذا إن من عباد الله من فتح له باب الصلاة)، يعني: الإكثار من الصلاة النفل، «ومنهم من فتح له باب الصدقة»، يعني: الإكثار من الصدقة، «ومنهم من فتح له باب الصيام» يعني: الإكثار من صيام النفل، «ومنهم من فتح له باب العمرة، والحج، ومنهم من فتح له باب الجهاد، ومنهم من فتح له باب العلم، وأنا ممن فتح الله لي باب العلم، ورضيت بما فتح الله لي»[١].

وهذه الكلمة عظيمة، ونابعة من علم غزير وراسخ، وذلك أنه لايمكن أن يطلب من كل أحد - حتى من أهل العلم - أن يفعل كل شيء، ومن طلب ذلك، فإنه يطلب فوق المستطاع، ولكن المطلوب من هذه الأمة في تحقيق الواجب الكفائي أن تتعاون على الخير، وأن تبذل النصيحة، وأن ترشد، ومن أراد خيرًا تعين عليه، إذا كان على الصواب والسنة، وإذا كان على غير ذلك، يُرشد، ويُبين له؛ حتى يستقيم، وتكون دعوته خالصةً صالحة.

هذه المقدمة - التي درنا، وتجولنا فيها حول حكم الدعوة، وتنوع الدعوة، ومجالات الدعوة، وبعض السير في ذلك - تعطيك أن هذه الدعوة مفتوحة، الدعوة إلى الله ﷻ ليست حكرًا، هي مفتوحة، لكن تحتاج إلى أن تعلم ما تدعو إليه قبل أن تدعو إليه، لا تدعُ بجهل، لا تدع بتقليد، تسمع

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

شيئًا لا تدري حجته، فتدعو إليه، تنشر شيئًا لا تعلم حسنه بشهادة من يوثق بعلمه، ودينه، لكن الدعوة مفتوحة، ومجالاتها كثيرة - ولله الحمد - في أرض الله الواسعة.

فضل الدعوة:

لا شك أن الداعية إلى الله ﷻ، والذي ينشر دين الله ﷻ لا شك أنه في أعلى مراتب الفضل، والفضيلة، والأجر، والثواب من الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وهذه الآية من سورة فصلت يبين فيها ﷻ أنه لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله ﷻ، ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، أي: عظيم جدًا لا حد له، هنا من أحسن قولًا ممن دعا إلى الله.

لهذا الحسن البصري رحمه الله له كلام جميل هنا، وكلام الحسن رحمه الله غالبًا ما يكون حسنًا، قال رحمه الله على هذه الآية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال: (**هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ، هَذَا خِيرَةُ اللَّهِ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، أَجَابَ اللَّهَ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللَّهَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِرَبِّهِ، هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ**)[1]، وهذا يعني أن الحسن البصري رحمه الله

---

(١) انظر: الزهد لابن المبارك (١/ ٥٠٧)، وتفسير الطبري (٢٤/ ١١٨)، والقرطبي (١٥/ ٣٦٠)، وتفسير الصنعاني (٣/ ١٨٧).

يرى أن هذه الثناء على الداعي إلى الله ﷻ؛ لأجل أنه دعا إلى الله ﷻ، ونشر دين الله، وجاهد في ذلك.

فإذا كانت الدعوة أحسن القول، وأفضل القول، فإن معنى ذلك أن الداعية - كما قال الحسن - هو أحسن الناس كلامًا، وأحسن الناس عملًا، إذا صدق عمله قوله.

من فضل الدعوة إلى الله أن الدعوة إلى الله ﷻ هي عمل الأنبياء، والمرسلين عليهم السلام، قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فبين أنه عليه السلام، ومن اتبعه أنهم موصوفون بصفتين:

الصفة الأولى: أنهم يدعون إلى الله.

والصفة الثانية: أنهم على بصيرة، فقال: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وللعلماء هنا وجهان من الوقف:

* منهم من يقول: الأحسن أن تقف على ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، فتقرأها هكذا ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، ثم تقول: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾، وهذه معناها: أن سبيله الدعوة إلى الله، وهو عليه السلام ومن اتبعه موصوفون بأنهم على بصيرة، يعني: على علم نافذ صحيح، لا شبه فيه؛ لأن البصيرة للقلب كالبصر للعين يبصر به الأشياء.

* **الثاني**: أن تصل ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: أنه ومن اتبعه موصوفون بالدعوة وبالبصيرة.

وهذا الثاني أحسن في هذا المقام؛ ليكون من اتبعه عليه السلام موصوفًا بصفتين: بصفة الدعوة، وبصفة البصيرة، وهذا يعني أن الداعية إلى الله ﷻ

معطوفٌ على من؟ معطوف على رسول الله ﷺ، وتابع لمن؟ تابع لرسول الله ﷺ، وناشر دين من؟ دين رسول الله ﷺ، وهذا يعني أنه في المقام والحال، والفضل له أجر الدعاة إلى الله ﷻ.

وهنا في الآية نقف وقفتين:

الوقفة الأولى: قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، في الآيات (أدعو إلى الله) لابد أن يأتي الجار والمجرور (إلى الله) ليختلف الحال عمن يدعو إلى غير الله ﷻ؛ لأن هناك من يدعو إلى الله، وهناك من يدعو إلى غيره، وهناك من يدعو إلى الله، وإلى نفسه، ولهذا قال إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل كتاب التوحيد: (**التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه**)[1]؛ لأن من الناس من يدعو إلى نفسه، يعني: هو يدعو إلى الله، ولكنه يريد شهرة نفسه، يريد أن يدعو إلى نفسه، يريد مالًا، يريد جاهًا، يريد سمعة، وهو يدعو إلى الله، ولكنه خالط هذه وهذا، فهذا على غير السبيل.

من هو على سبيل الفضل، والرفعة من كانت نيته خالصة لله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، وإذا كان كذلك، فننظر إلى أن من يدعو إلى الله يعان على الخير، فمن دعا إلى الله، ويصد الشر عند من دعا - أيضًا - إلى الله؛ لأن الداعي إلى الله غير معصوم، قد يكون عالمًا، وقد يكون داعية، وقد يكون طالب علم، وقد يكون محاضرًا، غير معصوم من الخطأ في قوله، ومن الزلل، غير معصوم من النية المخلوطة، فلذلك يعان على الخير،

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٨١).

ويقلل الشر، وهنا تنتبه أنه لا يقال: نريد أناسًا أطهارًا، وإلا لا تستقيم الدعوة، نريد كاملين، وإلا لاتستقيم الدعوة، نريد ابن باز، وابن عثيمين، أو لا تستقيم الدعوة، هذا غير صحيح، ولو كان الأمر كذلك، لضل الناس بعده ﷺ، لكن الناس - وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون الأربعة - مشوا على هذا السبيل.

إذًا فالمسألة تحتاج إلى تعاون، وإلى تسديد، وإلى إخلاص للنية.

فإذًا: الوقفة الأولى عند قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في التنبيه إلى الإخلاص، أدعو، ولكن لا تدع إلى غير الله ﷻ: تدعو إلى جماعة، تدعو إلى حزب، تدعو إلى فئة، تدعو إلى مكتبة دون مكتبة، تدعو إلى شيء دون شيء، لا، لتكن الدعوة خالصة لله ﷻ، وهذه هي التي يبارك الله ﷻ فيها، وينتشر بها الخير، وكلما ضيقت الدعوة، أو جعلت لها شبهًا، تدعو إلى شيء، وإلى شيء، فإن هذا قد يعاقب العبد عليه، أو يصد من الخير بقدر ما صدف عن الصراط.

الوقفة الثانية: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، هذه وقفة مهمة ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يعني: الداعية - مثل ما ذكرنا - لابد أن يكون على بصيرة، فهل يمكن أن يدعو إلى الله ﷻ من لا يعلم، من ليس على بصيرة في دينه؟ لا يمكن، وهناك فرق بين من يقول: لا يدعو إلا العلماء، وبين من يقول: لا يدعو إلا من علم، لا يدعو إلا العلماء هذا غير صحيح، لكن لا يدعو إلا من علم هذا صحيح، والعلم يتجزأ بالمسائل، فكذلك الدعوة تتجزأ بحسب ما علم.

واحد من الناس حضر، وسمع، يدعو إلى ما علمه بحجته، علم بدليله

من الكتاب، والسنة، تدعو إليه؛ لأنك تكون حينئذ سمعت المقالة، فوعيتها فأديتها، وبلغتها، هذه صفة المدعو له بنضارة الوجه في الدنيا، والآخرة.

من فضل الدعوة إلى الله ﷻ، أو الدعاة إلى الله ﷻ: أن الداعي، ومعلم الناس الخير مثَّله النبي ﷺ بالأرض الطيبة النقية؛ كما جاء في الحديث الذي في الصحيح، قال ﷺ: **«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»**(١).

فلاحظ هذه الفئة. والماء في الكتاب، والسنة إذا جاء على وجه المثال، فإنه يقصد به الوحي، الماء إذا كان على وجه التمثيل بالمثال، فيقصد به الوحي، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] نأخذه مثالًا للوحي. **«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا»**، فهنا الماء هو الوحي، والشرع، والسنة، هناك ناس قبلوا ذلك، وحفظوه، فأنبت فيهم سلوكًا، وعلمًا، وقولًا ينفع الناس؛ مثل الكلأ، والعشب الكثير، وهناك ناس لا ينتفعون.

حتى في الصلاة، هذا يصلي، وهذا يصلي، تبعوا إمامًا واحدًا، وصلوا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

صلاة واحدة، وظاهر عملهم واحد، لكن هل هذا مثل هذا؟ شتان بينهما، الوحي ينزل على القلوب، يختلف هذا من هذا؛ لهذا في قوله ﷻ في سورة الرعد: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فانظر هنا أرض واحدة صحيح؟ الماء واحد، أرض شكلها واحد، والماء واحد، لكن هذه أخرجت تمرًا حلوًا، وبجانبه ماذا؟ شجرة مرة أو سامة، الماء واحد، والأرض ظاهرها أنها واحد، لكن ما الذي اختلف؟ اختلفت الحقيقة، اختلف القلب، اختلف النوى، هذا يسمع الموعظة، والدعوة، فيلين قلبه لذكر الله ﷻ، ويعزم على الصلاح، والتوبة، والإنابة، والمشي في سبيل الأخيار، وهذا يسمعها، فيكون قلبه أصد عن دين الله ﷻ من قبل ما سمع، يرى أنه استثقال، ويرى أنه وأنه، القلوب التي اختلفت، الوحي واحد، والأداة واحدة، لكن القلوب اختلفت؛ ولهذا الأرواح اختلفت، الأنفس اختلفت، ولهذا الداعي إلى الله ﷻ، والذي يعلم الناس الخير مثله النبي ﷺ بالأرض الطيبة، وهذا فضل عظيم للداعي إلى الله ﷻ، ولمعلم الناس الخير.

والدعاة إلى الله مفلحون بنص الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والفلاح فلاحان: فلاح في الدنيا، وفلاح في الآخرة، والفلاح هو الفوز، والنجاة، وأصله في اللغة البقاء، أفلح يعني بقي، وقد يقال: إن الفلاح القطع؛ مثل قول الشاعر: (**الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ**)، يعني: يُقطع، أو يُقص؛ لأنه يقطع، يعني: الفلاح بمعنى يقطع الفناء، فالفلاح هو

البقاء، الفلاح هو الفوز، الفلاح هو النجاة[١].

فالداعي إلى الله، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر موصفون بأنهم مفلحون، والفلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، وهذا أجر عظيم، وفضل جسيم لمن تعرض له.

الدعوة إلى الله ﷻ - أيضًا - عنوان خيرية هذه الأمة، قال ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال العلماء: قدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله قاصر على من آمن، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر مؤمن، وإيمانه تعدى خيرًا، فنشر ما آمن به؛ ولذلك قدم على سائر المؤمنين، وهكذا كان فضل العلماء أعلى من غيرهم؛ لأنهم علموا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، أهل الإيمان مرفوعون، لكن أهل العلم من أهل الإيمان، رفعهم الله ﷻ على غيرهم درجات، وهكذا يشترك أهل الإيمان في كثير من الأجور، لكن من دعا، من أمر بالمعروف، من نهى عن المنكر على مقتضيات الشريعة، وبآدابها، فإنه عنوان خيرية هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، الأمم التي بعثها الله ﷻ كثيرة، والتي أخرجها الله من اتباع الأنبياء كثيرة، لكن هذه الأمة للناس هي خير الأمم، لماذا؟ لأنها تدعو، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، يعني غير قاصرة.

---

(١) انظر مادة (فلح) في: العين (٣/ ٢٣٣)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٦)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٥٠)، ومختار الصحاح (١/ ٢٤٢)، ولسان العرب (٢/ ٥٤٧).

الله ﷻ وصف من قبلنا بأنهم قصروا في الدعوة، وفي الأمر بالمعروف، وفي النهي عن المنكر، لكن هذه الأمة الخير فيها باق إلى قيام الساعة.

من فضل الدعوة، والدعاة: أن الداعية إلى الله ﷻ، ومعلم الناس الخير يصلي عليه الله، وملائكته، ويستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في جوف الماء.

قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**»(١)، وكما ذكرت لك قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، أي: معلما للناس الخير أينما كنت، والداعية إلى الله يعلم الناس الخير، لكن فرق ما بين معلم ومعلم، وما بين داع وداع.

لهذا تعظم صلاة الله ﷻ على العبد، وهي الثناء عليه ﷻ في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة، وأهل السماء، والأرض بالدعاء له بالرحمة، واستغفار الحيتان، والنمل من الكائنات غير المكلفة يستغفرون للعبد، ويلعنون من؟ يلعنون الكافر، ويلعنون المنافق، ويلعنون من ينشر الشر؛ كما في قوله ﷻ في آية البقرة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

العبد قد يذنب، بل هو معرض للذنب: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(٢). من أعظم أسباب مغفرة الذنب أن تدعو إلى الله ﷻ؛ لأن الدعوة إلى الله ﷻ لها حسنات، إذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وقال: هذا حدِيثٌ حسنٌ صحِيحٌ غرِيبٌ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

أخلصت وصدقت، والحسنات يذهبن السيئات: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[١]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

قال علماء الأصول: إن الحسنات يذهبن السيئات قاعدة، فجعل تكفير الصلاة للسيئات تبعًا للقاعدة، وليس مقتصرًا على تكفير الصلاة للسيئات، فالحسنة تذهب السيئة، والدعوة إلى الله ﷻ فيها هذا الفضل العظيم.

من فضل الدعوة - أيضًا -: أن الداعية إلى الهدى، وإلى الخير له مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء؛ كما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[٢].

فإذًا: إذا كنت تدعو شخصًا، تدعو رجلًا، امرأة، بيتك، زوجتك، أولادك، قريبك، تدعوه إلى أن يفعل شيئًا، وفعله، فلك مثل أجره، دعوته إلى الاستغفار، لك مثل أجره، دعوته إلى الأذكار طرفي النهار، لك مثل أجره، علمته كيف يصلي صلاة النبي ﷺ، لك مثل أجره، علمته كيف يقرأ القرآن، لك مثل أجره، علمته كيف يصحح توحيده، وعقيدته، ويؤمن بالله ﷻ حق الإيمان، لك مثل أجورهم. وهذا يبعث الهمة في نفس كل أحد أن يسلك هذا السبيل؛ لأنه بدلًا من أن يكون عملك قاصرًا قليلًا، صار

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

عملك وافرًا كثيرًا، فإذا كنت تصلى صلاة واحدة، وعلمت مئة كيف يصلون الصلاة الصحيحة، فلك أجر هؤلاء المئة.

إذا كنت تذكر الله ﷻ على وفق السنة، دون ابتداع، ولا اعتداء، وعلمت الناس كيف يستغفرون، أو علمتهم الأذكار، نشرت خيرًا: أذكار الصباح والمساء، أذكار دخول المنزل، خروجه، أذكار الأكل، أذكار النوم، أذكار لبس الملابس... إلى آخره، وعملوا بها، فقد علمته أن يكون ذاكرًا لله ﷻ، ودعوته إلى هذا الهدى، والله ﷻ أثنى على الذاكرين والذاكرات بقوله - في آخر آية الأحزاب -: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، لا تنسَ ذكر الله، اذكر الله: لا إله إلا الله، اللهم صلِّ على محمد.

الواحد يفكر، إذا رأى تذكر، فعمل عملًا بسيطًا، لكن كم لفاعله من الأجر. أراد أن ينشر كتيبًا، ويطبعه لوجه الله ﷻ، مخلصًا في ذلك، يرغب الخير، كم ينفع الناس من ذلك؟ وقد قال نبينا ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١)، الصدقة الجارية يدخل فيها كل ما فيه نشر للخير مما يبقى للمرء بعد موته، أو علم ينتفع به؛ لأنه - أيضًا - خصص، وهو يدخل في الصدقات الجارية.

إذًا: فنخلص من هذا إلى أن أثر الدعوة، وتعليم الناس الخير ليس مقتصرًا على الحياة الدنيا، هو للدنيا، وللآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: في حياتهم، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ أحد وجهي التفسير في الآية: أنهم ما آثروه بعد موتهم[١]، فهذا آثر علمًا، وهذا آثر ولدًا صالحًا، وهذا آثر دعوة، وهذا أقام أمةً، الناس يختلفون في ذلك، هم درجات عند الله.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من ذوي المقامات العالية، وأن يغفر لنا ذنوبنا.

وفضائل الدعوة كثيرة: أن الداعية إلى الله ﷻ مجاهد، والأمة الداعية أمة مجاهدة؛ ولهذا في مكة قبل أن يشرع الجهاد بالسنان بالقتال كان الجهاد جهاد دعوة، وجهاد حجة، وجهاد بيان، قال الله ﷻ في سورة الفرقان: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وهو جهاد الحجة والبيان)[٢].

قال نبينا ﷺ: «**لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[٣]، هنا لابد من وجود طائفة ظاهرة، وطائفة منصورة، وهي الطائفة الظاهرة، ما نصرها، وما ظهورها؟

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٥٣)، وزاد المسير (٧/ ٨)، والقرطبي (١٥/ ١٢)، وابن كثير (٣/ ٥٦٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٢٣)، وزاد المسير (٦/ ٩٥)، والقرطبي (١٣/ ٥٨)، وابن كثير (٣/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢١).

قال أهل العلم: نصرها، وظهورها إما بالسنان، أو بالبيان؛ لأن الله ﷻ جعل نبيه ظاهرًا منصورًا في مكة، وفي المدينة، وقبل الهجرة، وبعدها، فالطائفة المنصورة الظاهرة ظاهرة منصورة، حتى ولو لم يكونوا إلا أفرادًا قليلين في بلد من البلاد، لماذا؟ لأن العبرة بالظهور، والعبرة بالنصرة أنهم منصورون من عند الله، ظاهرين بالحجة، والبيان؛ لأن حجتهم أعظم من حجة غيرهم، ولأن الحق الذي معهم يدمغ الباطل بالبيان الذي مع غيرهم، وهكذا من كان داعيًا إلى ما اشتمل عليه القرآن، مهتديًا بهدي نبينا ﷺ، والسلف الصالح، سائرًا على سبيل علماء هذه الأمة الراسخين في العلم الذين جاهدوا بالقرآن، وبينوا ذلك، فإنه مجاهد في سبيل الله، والله ﷻ ضاعف أجر المجاهدين إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، هذا فضل عظيم، لا ينبغي لأحد أن يخلي نفسه منه، وحينئذ إذا قمنا بالدعوة إلى الله ﷻ، فإننا قمنا بنوع جهاد، هل هو جهاد الأعداء؟ أولها جهاد النفس - كما سيأتي في الثمرات -، جهاد الشيطان، جهاد من حولك.

لهذا نقول: إن الداعية إلى الله ﷻ - خلاصة لما تقدم - هو من ينشر دين الله ﷻ، أي مسألة من الدين علمها، فوعاها، فنشرها، فإنه يؤجر على ذلك، ولابد أن يكون على بصيرة، على علم بما ينشر، وأن يكون مقتفيًا فيه السنة، مقتفيًا فيه هدي أهل العلم الراسخين، وما قرره أئمة أهل السنة، والجماعة في آداب الدعوة، وشروطها وما تكمل به؛ لأن هذا فيه الخير للحاضر، والمستقبل.

❀ ❀ ❀

ثمرات الدعوة إلى الله ﷻ

لا شك أن الدعوة إلى الله ﷻ على بصيرة كلها خير، وكلها ثمرات حلوة دانية، فالفضائل التي ذكرنا كلها ثمرات في حق الفرد، فمن دعا إلى الله ﷻ فأثمر عمله أن يكون معطوفًا على النبي ﷺ، ومن اتبعه على بصيرة، قد عظم قدره وشأنه، من دعا إلى الله، فأثني عليه، بل أثنى الله عليه ﷻ بأن قوله أحسن الأقوال، فإنه حاز أعلى الثمرات.

من دعا إلى الله ﷻ، فكان من المفلحين، حاز أعلى الثمرات، من دعا إلى الله ﷻ، فصلى عليه الله، وصلت عليه ملائكته، واستغفر له كل شيء، حاز على أعلى الثمرات، وأعلى الفوائد، والعوائد، وهذا شيء كثير، لله الحمد، وله المنة، والفضل.

لكن ننظر إلى الثمرات من جهة أخرى، من جهة آثارها على السلوك: سلوك الفرد، وعلى سلوك المجتمع، وعلى واقع الدولة بعمومها.

أما الفرد: فإنه إذا دعا إلى الله ﷻ، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر بآداب الدعوة، وشروطها، وبآداب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وشروطه، وبحسب ما أنيط به، فإنه يقوى فيه أشياء إيمانية.

أولها: أنه يضعف تسلط الشيطان على النفس، ويكره الشر، وبالتالي يضعف أثر الشيطان عليه في تحبيب الشر إليه، والإنسان إذا انفرد، فإنه مثل الغنم، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية[1]، يعني: الواحدة

(١) كما أخرج أبو داود في سننه (٥٤٧)، عنْ أبي الدّرْداءِ، قال: سمِعْتُ رسُول اللّهِ ﷺ =

المتفردة البعيدة يتسلط عليها .

أثره عليه من جهة العزة، وخاصة في مثل هذا الزمان الذي انتشرت فيه كثير من الملهيات، والمغريات، والصادات عن الحق، والالتزام به، والمغيرات للفطرة التي جعل الله الناس عليها، هو إذا دعا، وأمر، ونهى، ونشر الخير، فإنه يكون عنده عزة، هذه العزة تبعثه على عدم قبول الشر أن يدخل إليه، عدم قبول أن ينفذ إليه ما يعكر عليه دينه، عزة في قلبه بما يحمل من كلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، عزة في قلبه بما يحمل من دين الله الذي اصطفاه، واختاره لهذه الأمة، عزة في قلبه أن كان مع أهل الإيمان، وأهل الطاعة الذين تتقدمهم الرسل - عليهم صلوات الله، وسلامه -، عزة في قلبه ولو كان واحدًا بأنه ليس بواحد: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في تفسير هذه الآية: (﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ **لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين،** ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ **لا للملوك، ولا للتجار المترفين،** ﴿حَنِيفًا﴾ **لا يميل يمينًا، ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين** ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **خلافًا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين**)[1]، أي: تأتي للإنسان في نفسه أن يقول الناس كلهم على كذا وكذا كيف؟ ولكنه إذا دعا، وأمر، ونهى بالطرق

= يقُولُ: «ما مِنْ ثلاثةٍ فِي قرْيةٍ ولا بدْوٍ لا تُقامُ فِيهِمُ الصّلاةُ إِلّا قدِ اسْتحْوذ عليْهِمُ الشّيْطانُ، فعليْك بِالْجماعةِ فإِنّما يأْكُلُ الذِّئْبُ الْقاصِية».

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب - كتاب فضائل القرآن والتفسير (٢/ ١٨١).

الشرعية، وصابر، واتقى الله، وألان قلبه لله ﷻ، وخضع، فإنه حينئذ يقوى فيه الحب لله ﷻ، ويقوى فيه العزة، وتقوى فيه المنعة من المؤثرات، وإذا حصل منه كذا وكذا، فإنه يعظم ذلك في نفسه، ويعجل بالاستغفار لربه ﷻ.

من أثر الدعوة إلى الله ﷻ على النفس: أن الداعية إلى الله ﷻ يحب أهل الخير، ويعينهم؛ لأنه إذا أحب الدعوة، وأحب نشر دين الله ﷻ، وأحب تكثير الخير، فإنه حينئذ يحب أهل الخير، والمرء مع من أحب[١].

أما إذا كان لا يدعو، ولا يرى للدعوة أهمية، ويكون سلبيًا معها، أو يكون متقاعسًا في هذا المجال، لا يعين، ولا يدعو، فإنه قد يؤول به الأمر إلى أنه يكره بعض أنواع الدعوة، ثم يأتيه الشيطان، يكره أشياء كثيرة من الدعوة، وهذا قد يكون من أعظم تسلطات الشيطان على الإنسان.

لهذا نشر الدعوة، والتعاون عليها يجعل المرء يحب إخوانه المؤمنين الذين ينشرون الخير، ومعلوم أن المحبة، والإيمان عند أهل السنة والجماعة تتبعض، ليست درجة واحدة، تحب بكمال، أو تبغض بكمال، بل قد نحب من وجه، ونكره من وجه، نحب الخير الذي فيه لا شك، ونكره الشر الذي فيه؛ لأننا مأمورون بحب أهل الإيمان بعامة، ومأمورون بحب الخير وكراهة الشر.

فلهذا من ثمرات الدعوة في الإنسان المسلم أنه بالدعوة إلى الله ﷻ

---

(١) كما أخرج البخاري في صحيحه (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠)، قال عبد اللّهِ بْنُ مسْعُودٍ رضي الله عنه: «جاء رجُلٌ إلى رسُولِ اللّهِ ﷺ فقال: يا رسُول اللّهِ، كيْف تقُولُ فِي رجُلٍ أحبّ قوْمًا ولمْ يلْحقْ بِهِمْ؟ فقال رسُولُ اللّهِ ﷺ: «المرْءُ مع منْ أحبّ».

يكون قلبه مع من يحب الله ﷻ، ورسوله ﷺ، فإذا كان في الذي يدعو الآخر، إذا كان فيه وفيه، فإنه يحبه من وجه، ولا يحبه من وجه، وإذا كان لا يحبه من وجه، معنى ذلك أنه يسعى في تسديده، يسعى في النصيحة له، يسعى في بذل الخير له، ونصيحته، وتسديده، وبذل الخير هو - أيضًا - من الدعوة إلى الله ﷻ.

من أثر الدعوة على الإنسان في نفسه: أن الداعية إلى الله ﷻ يشعر بالسعادة، ويشعر بانشراح الصدر، ليس عند الداعية إلى الله ﷻ قلق، ولا ريب في صدره، ولا بعد عن السكينة، والطمأنينة؛ لأنه دعا، وهو عامل يعمل صالحًا، ويدعو، ويعمل بما دعا إليه، فإنه حينئذ نفسه تكون قوية منشرحة، فيكون سعيدًا في هذه الحياة.

وآخرها - ما يتعلق بالنفس -: أن الدعوة إلى الله ﷻ توطن الإنسان المسلم الذي يمشي في هذا السبيل، توطنه على أمر عظيم جلل، وهو حب الآخرة وعدم الركون إلى الدنيا. والركون إلى الدنيا، وحب الدنيا هو رأس كل خطيئة: ما انفتح باب الشهوات على ما انفتح عليه إلا من حب الدنيا، ما انفتح باب الكسب الحرام على ما انفتح عليه إلا من حب الدنيا، من فتح كذا وكذا على من انفتح عليه إلا من حب الدنيا.

الدعوة إلى الله ﷻ توطن نفس العبد المسلم على أن يتعلق بالآخرة، ولا يتعلق بالدنيا، ويكون كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧] الأصل ما هو؟ الأصل الآخرة، وابتغ فيما آتاك الله من المال، ومن الجاه، ومن الرعاية، حتى في

أسرتك قلت أو كثرت، ابتغ فيما آتاك الله من العلم، والعمل، ابتغ الدار الآخرة، القصد هو أن تنجو في الدار الآخرة، لكن هل تنقطع تتبتل: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [القصص: ٧٧]؛ لهذا قال ﷻ في الآيات بعدها -ليكون رابطًا بينها، وبين ما ذكر في قصة قارون-: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، والعاقبة في الدنيا، وفي الآخرة لأهل التقوى.

إذًا: من ثمرات الدعوة إلى الله ﷻ على النفس: أن الداعية إلى الله ﷻ منشرح الصدر، الداعي إلى الله ﷻ مطمئن، الداعي إلى الله ﷻ لايركن إلى الدنيا، بل هو مقبل على الآخرة، لا ينسى نصيبه من الدنيا، لا بأس بالبيع، لا بأس بالتجارة، لا بأس بالوظيفة، لا بأس بكذا وكذا، لكن يكون القصد أن تكون معينة له على الدار الآخرة.

ابن تيميه رحمه الله له كلام طيب في مسألة الزهد، هل الزهد أن بعض الناس يقول: إن الداعية إلى الله هذا غير زاهد، يربطون ما بين صحة الدعوة، وما بين هل هو زاهد، أو غير زاهد، الزهد تنوعت عبارات الناس فيه، الناس يقولون: الزهد هو ترك الدنيا، الزهد التقلل من الدنيا، الزهد تقليل المأكل، والمشرب، ولبس وضيع الثياب، قال بعضهم: الزهد ترك الحرام، عبارات مختلفة.

قال ابن تيميه رحمه الله عبارة جامعة، وهي راجحة؛ لأنها من مقتضى الدليل، ومقتضى هدي السلف، قال: (**الزّهْد الْمَشْرُوع هُوَ ترك كل شَيْء لَا ينفع فِي**

الدَّار الْآخِرَة وثقة الْقلب بِمَا عِنْد الله)[١]، الزهد المطلوب شرعًا ترك ما لا ينفع في الآخرة، فإذا كان ثمة أشياء تنفعك في الآخرة، فليس زهدًا أن تتركها، عرض عليك شيء لتكون به داعيًا إلى الله ﷻ، الزهد في المناصب، الزهد في كذا، الزهد في أن الواحد يحاضر، الزهد في أن يكون كذا، ليس صحيحًا. الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، الطعام إذا كان في حق أحد الناس قوة له بما يعلم من نفسه، قوة له على أمور يعانيها، فإن الزهد ليس ترك الطعام، الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة، ولهذا يتنوع الزهد بتنوع الأشخاص، وتنوع الأحوال، والزمان، والمكان. وإذا نظرت إلى حال صفوة السلف الصالح من الصحابة ﭫ، ومن التابعين، لن تجدهم على مفهوم الزهد عند الصوفية.

لهذا نقول: الداعية إلى الله ﷻ مفهوم الزهد عنده مفهوم أشمل من مفهوم الطرقيين، ومفهوم المتجردين من الدنيا بطريقة غير صحيحة.

من ثمرات الدعوة إلى الله ﷻ على المجتمع:

المجتمع ما معناه؟ الناس في بلد ما. الذين يدعون ويعينون إلى الدعوة إلى الله ﷻ حققوا أولًا الولاية، ولاية بعضهم لبعض: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، ووصفهم الله بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ليس معنى ذلك أن هناك صفين: صفًا صالحًا وصفًا غير صالح، وأن صف الصالحين يأمرون، وينهون غير الصالحين، هذا غلط، ليس بيننا فئة منزهة، هذا ينبغي أن ينتبه له، ولا يدخل الشيطان

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١، ٦٤١، ١١/ ٢٨).

على أهل الصلاح والطاعة من هذا المدخل، ليس بيننا فئة منزهة من الغلط، قال لماذا فلان يتعرض لفلان وهو رجل صالح، إن عنده غلطًا، ليس عندنا إما أن يكون صالحًا، وإما أن يكون طالحًا، ولهذا وصف الله ﷻ المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، يعني: أن بعضهم يحب بعضًا، وينصره، وينصح له، ولا يخذله، وهذا متداخل، فيَّ نقص يسددني بعض الناس.

مثل ما أنا الآن في الوزارة وحدي، يغيب عني أشياء كثيرة، فيأتيني من بعض الإخوة الناصحين - جزاهم الله خيرًا - من طلبة العلم، ومن غيرهم ما يسدد به المرء، وما ينصح به، وما يترك به ذنبًا، أو يسعى في خير، وهذه صفة الأمة، ما عندنا صفة هذا عاصٍ، وهذا صالح، هذا عند الكهنوت عند النصارى، نحن أمة بعضنا يدعو بعضًا، وينصح بعضًا، ويعين بعضًا بالطريقة الشرعية الصحيحة، كل الناس متداخلون في بعض، فإذا تحققنا بهذه الصفة، زالت عنا صفة أهل النفاق.

وهذه من أعظم أثارها، وثمراتها على المجتمع أنه يكون مجتمعًا صالحًا، إذا كان ليست فيه صفات النفاق سارية، الله ﷻ وصف المنافقين بقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾ [التوبة: ٦٧].

من ثمرات الدعوة إلى الله ﷻ على المجتمع: أن الدعوة إلى الله ﷻ يتحقق بها دفع العقوبات، والابتلاءات عن الناس، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، أبو بكر رضي الله عنه تلا هذه الآية على المنبر، وقال أيها الناس - هذا بالمناسبة أول حديث في مسند الإمام أحمد، وهو من فقه الإمام أحمد العظيم -

قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، **وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغيرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»**(١)، يعني: أن الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بطرقه الشرعية المنضبطة هذا فيه رحمة بالأمة، أنه لا يعاقب الله ﷻ الناس كلهم.

فإذًا: الناس إذا دعوا، وتعاونوا، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأعان بعضهم بعضًا على الخير، تحقق لهم دفع العقوبات، وتحقق لهم إفاضة المسرات، وفيوض الخيرات، ورغد الأرزاق، وإذا فرطوا، كانوا كبني إسرائيل، فإنهم يخشى عليهم اللعنة؛ لقوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، نسأل الله ﷻ السلامة والعافية.

إذا قام الناس بالدعوة إلى الله ﷻ، فإنه يرتفع الإثم عن الناس إذا أعان بعضهم بعضًا على ذلك؛ لأن - كما ذكرت - الدعوة إلى الله ﷻ فرض كفاية، ونشر دين الله ﷻ فرض كفاية، فإذا أعان الناس بعضهم بعضًا بما يستطيعون، هنا رُفع الإثم.

التاجر في تجارته قد لا يستطيع أن يكون داعيًا، لكن يمكن أن يسهم بمالة، يسهم برأي، يسهم بالاشتراك في شيء، المعلم يمكن يسهم في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد في مسنده (١).

شيء، طالب العلم يسهم في حلقة، في علم، يؤلف كتابًا. يعني: يكون هذا في الناس، فحينئذ نقوم بأداء هذا الواجب.

أما أثر الدعوة إلى الله ﷻ على الدولة، فإن الدعوة إلى الله ﷻ سبب لتحبيب قلوب الناس بعضهم ببعض، سبب لتحبيب قلوب الراعي إلى الرعية، والرعية إلى الراعي، وهذا من الآثار الواضحة البينة؛ لأنهم يلتقون، يلتقي الجميع، تلتقي الدولة، ويلتقي الناس لهدف واحد، وهو نشر الخير، وتقليل الشر، فإذا مضى هذا، وتعاون الناس عليه، فإنه تعظم المحبة، وإذا عظمت المحبة، قوي الترابط، ومعناه: تقوى الدولة؛ لأن الدولة تمثل الحكومة، والناس بمجموعهم، يطلق عليهم الدولة.

من ثمراتها - أيضًا - أنه يتحقق الأمن، الأمن الذي هو أعلى مطالب الدول، من أعظم المطالب تحقيق الأمن: الأمن النفسي، والأمن الاجتماعي، والأمن المتعلق بالجريمة، وأهم من ذلك كله الأمن العقدي، والديني، فإذا كان هناك تواصٍ بالدعوة، وحض عليها، ونشر لها، فإنه يتحقق الأمن، والله ﷻ قال في ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

وقال نبينا ﷺ: **«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ»**[1]، الظعينة المرأة، الرجال في القوافل يأخذهم

---

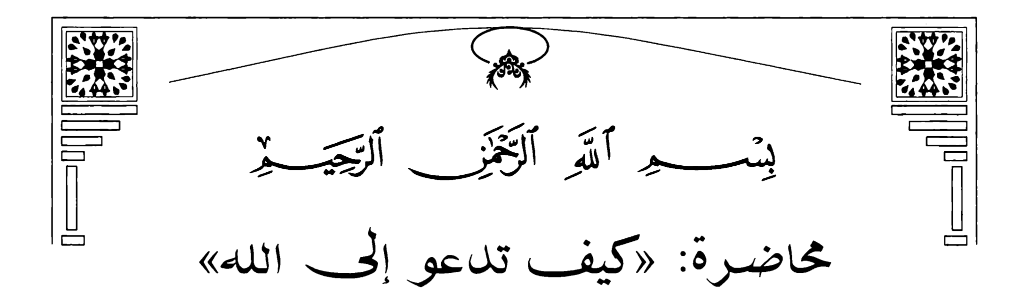
(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ١٩٦).

المعتدون، وقطاع الطريق، فكيف تسير امرأة واحدة آمنة لاتخشى إلا الله ﷻ؟ سببه الأمن، والأمن سببه نشر الدين، وتطبيق الشريعة، وقوة القضاء، والحكم بما أنزل الله ﷻ في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ، ونشر الخير والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هذه جميعًا صمام أمان لحصول ذلك.

ولهذا ترون - ولله الحمد - أن هذه البلاد تحظى بكثير من فتح أبواب الخير، وأبواب الدعوة إلى الله ﷻ، فلا تجد في أكثر البلاد مثل هذه المحاضرات الكثيرة، مثل قيام مكاتب في الأحياء، ومثل هذا النشر الكثير للكتب الدعوية، والدعوة في الداخل، وفي خارجها، لاتجدونها في أكثر هذه البلاد، فهي مما منَّ الله ﷻ به على هذه البلاد، وعلى هذه الدولة.

نسأل الله ﷻ أن يثبتنا جميعًا على ذلك، وأن يجزي ولاة أمورنا خيرًا، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر، والتقوى، وأن يحقق لنا جميعًا ما نصبو إليه من انتشار الخير، وزيادته، ومن قلة الشر، واضمحلاله؛ إنه ﷻ جواد كريم، كما أسأله ﷻ أن يمن علي وعليكم بالثبات على الدعوة إلى الله ﷻ، ومن نشر الخير، وتعليم العلم، وبذل ذلك في كل وقت بحسب الاستطاعة، ونستغفر الله الجليل، ونسأله بأسمائه الحسنى أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يعفو عن تقصيرنا، وأن يرحمنا، ويسترنا، ويستر عيوبنا؛ إنه ﷻ جواد كريم، هو أكرم مسؤول أعطى، ولا يمن بالعطاء، وأكرم، ولا يمن بالإكرام، يعطي من غير سؤال، وينيل ﷻ من غير تعرض سبحانه وتعالى، وتبارك، وتقدس، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊


بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة: «كيف تدعو إلى الله»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فصلوات الله، وسلامه على نبينا محمد، وعلى آل نبينا محمد، وعلى أزواج نبينا محمد، وعلى صحابته، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فموضوع هذا الدرس: **(كيف تدعو إلى الله)**، وسبب اختيار هذا الموضوع ما هو معلوم من أن الدعوة إلى الله ﷻ مهمة عظيمة، وأن كل من رغب في الخير، واستقام على الإسلام، فإنه يروم أن يهدي غيره؛ لأن في ذلك الفضل الجزيل، وفي ذلك الفائدة العظمى عليه، وعلى غيره، وأعظم فائدة على المستقيم على الصراط أن يكون له مثل أجور من هداهم إلى الله ﷻ، فقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: **«من دَعَا إلى هُدًى كان له مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ من تَبِعَهُ لا يُنْقِصُ ذلك من أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إلى ضَلاَلَةٍ كان عليه مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ من تَبِعَهُ لا يُنْقِصُ ذلك من آثَامِهِمْ شَيْئًا»**(١)، وقد قال ﷺ لعلي رضي الله عنه حين بعثه إلى خيبر: **«فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[١]، يعني: من الإبل الحمراء الغالية عند أهلها.

فإن الدعوة إلى الله ﷻ، وأن يهدي الله على يديك واحدًا من الناس، رجلًا كان أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا، إن في ذلك الفضل العظيم عليك، ولأن تعطى كذا وكذا من الأموال الجزيلة في هذا الزمن، ليس بأفضل لك من أن يُهدى على يدك رجل واحد، لكن كما نرى أن كثيرين يريدون أن يهدوا الناس، لكن سبيل ذلك لا تكون ماثلة أمام أعينهم، ربما جربوا تجربات ليست بالمستقيمة، ربما حاولوا محاولات لم تكن مؤصلة، لم تكن عن تجربة، لم تكن عن استرشاد فيمن جرب فنجح، فلهذا تكون خطاهم متعثرة، وهؤلاء ربما فعلوا أشياء، ودعوا، ولكن كان في دعوتهم من الخطأ ما حجز آخرين عن قبول الحق والهدى؛ لأن خطأ الداعية ليس كخطأ غيره، ولهذا أمر الله ﷻ الأنبياء جميعًا بالصبر، وألا يستخفنهم الذين لا يوقنون؛ كما قال ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإن الدعوة أساسها الحكمة، أساسها أن يكون العبد سائرًا على ما أمر الله ﷻ به، وما نهى فيما يأتي، وما يذر في أمر الناس، وإذا كان كذلك، فإن دعوته يرجى أن تؤتي ثمارها، ولو بعد حين.

الدعوة إلى الله ﷻ مطلب للجميع: مطلب من حيث العمل، ومطلب من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

حيث الغاية؛ لأن غاية المجتمع المسلم أن يكون مستسلمًا لله ﷻ، منقادًا له في الظاهر، ومنقادًا له في الباطن - أيضًا -، وهذه الغاية ينبغي للأفراد أن يسعوا في تحقيقها، وللمجتمعات أن تسعى في تحقيقها، وكذلك لدولة الإسلام أن تسعى إلى تحقيقها.

فإن تعبيد الناس لله ﷻ هو الغاية من خلقهم، فإذا أدرك الناس ذلك، فاستقاموا عليه، فذلك فضل، وإلا فإن الناس يدعو بعضهم بعضًا، ويرشد بعضهم بعضًا؛ لهذا كانت هذه المحاضرة، أو كان هذا الدرس (كيف تدعو إلى الله ﷻ) كان مهمًا في إعطاء بعض النقاط، وليس بشمول ما يتصل بهذه المسألة؛ لأنها طويلة الذيول، لكن بما يفتح آفاقًا لدى الذي يحب أن يكون هاديًا للناس، سائرًا على الحق على صراط سوي.

أنواع الدعوة

المتأمل اليوم في أحوال الناس يجد أن الدعوة على أنواع:

منها دعوة فردية، ونعني بالدعوة الفردية: أن يكون الفرد يدعو فردًا آخر، أو أن يكون أفراد يدعون أفرادًا.

ومنها دعوة جماعية، والدعوة الجماعية -أيضًا- من حيث الواقع منقسمة إلى قسمين:

منهم من يدعو جماعيًا على أساس التعاون على البر والتقوى، ويتعاونون، ويجتمعون على أن يهدوا الناس، يرتبون أمرهم في كيفية دعوة

هذا، وما السبيل في نجاح التأثير عليه، أو التأثير على هذه الأسرة، أو نحو ذلك.

وهناك قسم آخر من الدعوة الجماعية، وهي الدعوة الجماعية المنظمة، التي تكون عن تنظيم، بترتيب المهمات، ويكون هناك قيادة، وهناك فروع لهذا التنظيم، وهذه تقسيمات من جهة الوجود، أما من حيث مشروعية كل قسم وتفاصيل الكلام عليه، فسنعرض له - إن شاء الله تعالى - في مكان آخر من هذه الدروس.

الذي يهمنا من هذا التقسيم في هذا الدرس هو القسم الأول، وهو الدعوة الفردية، التي يمكن أن يعمل بها المرء بمفرده.

كيف يمكن أن تكون أنت داعية إلى الله ﷻ؟ كيف يمكن أن تهدي الناس؟ كيف تمشي في هذا الطريق دون عقبات، ودون أن تتردد فيه، وتؤثر على الناس، ويقبل منك ذلك؟

إذا تأملت الواقع الذي تعيشه هذه البلاد - بل واقع الأمة الإسلامية بعامة -، وجدت أن الخير ينتشر يومًا بعد يوم من جهة اهتداء الناس إلى الإسلام، ومحبتهم للالتزام به، ورغبتهم في تعاليمه، وإقبالهم على الخير.

لا شك أن الناس يزدادون إقبالًا يومًا بعد يوم، فإلى أي شيء يُعزى هذا الانتشار العظيم؟ هل هو نتيجة للدعوة الجماعية التنظيمية؟ لا شك أن الذي يقول: إنه نتيجة لذلك. هذا مغالٍ، وليس له في الواقع نصيب. هل هو نتيجة إلى دعوة جماعية فيها التعاون على البر والتقوى -أيضًا - يعني: دعوة جماعية مرتبة، ليس فيها تنظيم وقيادة إلى غير ذلك، يعني: وليس لها

صفة الحزبية؟ أيضًا هذا فيه بعد، ولكن الواقع أن أسباب ظهور، وانتشار الإسلام، وفي زيادة الصحوة، وإقبال الناس رجالًا ونساءً على الخير، وعلى الهدى هو نشاط الأفراد، هذا ينشط في عمله، وهذا ينشط في أسرته، وهذا ينشط في حيه، وهذا الإمام ينشط مع جماعة. . . إلخ، فأكثرها نشاطات فردية، وهذه النشاطات الفردية لاشك تستفيد مما يجرى حولها بأنواع من الاستفادة، منها ما هو جيد، ومنها ما هو ليس بجيد، ومنها ما هو منضبط، ومنها ما هو ليس بمنضبط . . . إلى آخر ذلك. المهم أن سبب انتشار الخير كان هو الدعوة الفردية، دعوة الناس بعضهم بعضًا بدون مؤثرات عظيمة، مؤثرات جماعية، وإنما هذا يرغب الخير، فأثر في أسرته، وهذا يرغب في الخير، فأثر في عمله، تجد أنه قرأ كلمة طيبة، فنشرها . . . إلى آخر ذلك.

فهذا من أكبر أسباب انتشار الصحوة، وزيادة الخير، وجهد الأفراد هو الذي نريد أن يعلق بالأذهان؛ حتى لا يظن الظان أنه لا يمكن أن يدعو، حتى يكون معه أناس، وحتى يكون معه من يساعده، وحتى يكون هناك من يرتبه، وهذا أمر لابد منه؛ لأنه إذا شعر بأنه ممكن أن يعمل بمفرده، يمكن أن يدعو بمفرده، لا شك أنه إذا كان هناك معه غيره، يدعمونه بما فيه تعاون على البر والتقوى، تؤتي الدعوة ثمراتها أكثر في قطاعات كثيرة، لكن إذا كان يشعر أنه إذا عمل بمفرده، فإنه سينتج، ولا يحتاج إلى غيره في أمر الدعوة، فإنه يشجعه ذلك، وهذا الذي ينبغي أن يقر في الأذهان بادئ ذي بدء قبل الدخول في هذا الموضوع الذي نعرض لأطراف منه.

إذًا : فمهمتك أيها المسلم هي أن تحمل أولًا هم هذه الدعوة، أن تحمل أولًا هم مصلحتك؛ لأنك إذا دعوت، فإنك لا تدعو لأجل أن تكون

المصلحة لغيرك، بل تدعو لتكون المصلحة لك؛ لأنك إذا دعوت أحدًا إلى الله ﷻ، فاستقام، وعمل شيئًا من الخير، فلك مثل أجره، فتزداد حسناتك بسبب هداية الناس إلى الحق والهدى، هذا الترغيب الذي يجعلك تقدم لابد له من ضوابط، لابد أن تعرف ما فيه من محاذير، لابد أن تعرف ما له من أحكام، وهذا هو الذي سنطرحه - إن شاء الله - فيما نستقبل من الكلام عن الداعية المفرد.

صفات الداعية

لابد أن يكون نبيهًا ذكيًا من جهة حال المدعوين، بل أقول قبل ذلك لابد أن يكون في دعوته متجردًا مخلصًا لله ﷻ، له رغب في قلبه أن يجعل الناس مطيعين لله ﷻ، ليس له رغب في الدنيا، ليس له رغب في الجاه، ليس له رغب في السمعة، ليس له رغب في السيطرة، ليس له رغب في أن يكون متعاليًا على الناس، مما هي من أنواع الأخلاقيات التي قد تعرض على بعض القلوب التي تدعو إلى الله.

وبذلك تكون الصفة الأولى: أن يكون مخلصًا لله، متذللًا مطيعًا، يرغب أن يهدى الخلق إلى الله ﷻ لا إلى غيره. وهذا الشرط جاء في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨]، في هذه الآية أمر الله ﷻ نبيه أن يقول: هذه سبيلي. قل يا محمد للناس جميعًا، وللكفار بوجه الخصوص: هذه سبيلي، أدعو إلى الله.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في مسائل كتاب التوحيد: (في قوله: ﴿ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التنبيه على الإخلاص)[١]، وهذا أمر مهم مطلوب دائمًا أن يكون في قلبك العمل لله ﷻ، ثم قال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، البصيرة هي العلم الواضح، الذي يكون مع صورة الأشياء العملية أمام القلب في وضوح؛ كما تكون الأشياء المبصرة بالعين أمام العين في وضوح، إذا توجه النظر إليها، ﴿ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، فذكر شرط الإخلاص، وذكر شرط البصيرة، والعلم -مما سيأتي بيانه-، هذا الشرط معروف، ولابد أن يتوطن قلبك أن تكون مخلصًا، لست مسيطرًا، لست طالبًا جاهًا، سمعة. وهذا من الأخلاقيات المهمة، والدعائم المهمة للداعية، لم؟ لأن بعض الناس قد يأتي يدعو، يرى الذي أمامه عنده مخالفات، عنده بلاء عظيم، حتى ولو كان الشرك والبدعة، أو ما هو أقل من ذلك من كبائر الذنوب، أو التفريط في الفرائض، أو الصغائر، قد ينظر إلى أنه متعالٍ عليه، فيأتي، فيدعو من جهة التعالي، من جهة الاستعلاء، فيكون أمره ونهيه ليس صادرًا من قلب مخلص تمام الإخلاص، وإن فيه شيئًا من الاستعلاء، وهذا يفقد القبول.

فإذًا: عندنا الأمر الأول المهم هو أن تكون مخلصًا، وفهمت معنى الإخلاص:

أولًا: ألا تدعو إلى غير الله، يعني: ما تحبب الناس في غير الله، وإنما تريد أن يطيع الناس ربهم ﷻ وحده.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٨١).

كما يجب أن تكون غير متعالٍ على الناس، يعني: أن تكون أنت وهم بمنزلة واحدة، ليس معنى أنه عاصٍ أنك خير منه، ما تدري لمن تكون الخاتمة السعيدة. ولكن تكون أنت حريصًا على أن يكون هذا مقبلًا على الله ﷻ، وأنت مخلص في أن يكون مهتديًا إلى الله ﷻ، هذا الخلق الأول الإخلاص مهم، بل هو شرط من الشرائط، وواجب من الواجبات.

وإذا قيل: خلق، أو أدب في عرف أهل العلم، لا يعني أن يكون مستحبًا، بل قد يكون واجبًا، قد يكون شرطًا، قد يكون مستحبًا.

الثانية: أن يكون ذكيًّا حصيفًا نبيهًا؛ لأن حالة المدعو كثيرًا ما تحتاج إلى تنبه - وهذا يأتينا في الأسباب، يعني: في دراسة حال المدعوين -، ينبغي أن يكون الداعية ذكيًّا، ونبيهًا، وحصيفًا، يعرف كيف يدعو، كيف يرتب النتائج على المقدمات، كيف يعرف الطريق الأحسن للدخول في ذلك، والذكاء هنا ليس أمرًا فطريًّا فحسب، بل يكون - أيضًا - بالتجربة، ويكون بالتدرج؛ ولهذا من جرب الدعوة، اكتسب شيئًا من الخبرة في معرفة كيف يكون الذكاء والحصافة والرأي في التعامل مع الناس.

الصفة الثالثة: أن يكون الداعية محبًا لبذل الخير، راغبًا في هداية الناس عن طريق بذل ما عنده، وألا يحقر شيئًا من الخير، يبذل جميع ما عنده، جميع قدراته التي يمكنه أن يبذلها، يبذلها، إن كان من شيء من المال يستطيع بذله، شيء من الجاه يستطيع بذله، شيء من الحركة والعمل، من الخدمة، من طلاقة اللسان، من بذل بعض الأمور التي يكون

لها أثر، مطلوب من الداعي أن يبذل ما عنده، وهذه قد قال فيها ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[١]، «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا**» هذه كلمة عظيمة؛ لأنك ربما حقرت شيئًا من المعروف، ولو بسمة واحدة حقرتها، لكن أثرها لن تراه أنت، ربما يراه غيرك في انفتاح صدر هذا المدعو في قبوله لما عند صاحب الخير، أما إذا لقي الداعية أو الذي يرغب في هداية الناس للخير، لقي الناس، وهو مكفهر الوجه، أو وهو غير متقدم لهم بنفس طيبة، يحقر المعروف، يحقر الخير، فهذا لا شك يسبب شيئًا من الحواجز أمامه؛ لهذا على الداعية، أن يوطن نفسه أن يكون باذلًا، إذا أردت أن تتحرك بالدعوة، تبذل، توطن نفسك على أن تبذل، إذا كنت شحيحًا لست بذي جود، فلا تصلح للدعوة، الداعية يصلح له أن يكون جوادًا، يعني: أن يكون باذلًا للخير، غير شحيح، والشح ليس في المال فحسب، الشح يكون في اللفظ، في الحركة، يكون في بذل المعروف في أشياء كثيرة، ومنها المال، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، ووصف ابن القيم رحمه الله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عند ذكره في كتاب (مدارج السالكين) بمنزلة الجود، وقال: (**وَمِنَ الْجُودِ بِالْعِلْمِ: أَنَّ السَّائِلَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ: اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا جَوَابًا شَافِيًا، لَا يَكُونُ جَوَابُكَ لَهُ بِقَدْرِ مَا تُدْفَعُ بِهِ الضَّرُورَةُ، كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فِي جَوَابِ الْفُتْيَا: نَعَمْ، أَوْ: لَا. مُقْتَصِرًا عَلَيْهَا.**

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - فِي ذَلِكَ أَمْرًا عَجِيبًا: كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ حُكْمِيَّةٍ، ذَكَرَ فِي جَوَابِهَا مَذَاهِبَ الْأَئِمَّةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

الْأَرْبَعَةِ، إِذَا قَدَرَ، وَمَأْخَذَ الْخِلَافِ، وَتَرْجِيحَ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ. وَذَكَرَ مُتَعَلَّقَاتِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي رُبَّمَا تَكُونُ أَنْفَعَ لِلسَّائِلِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ. فَيَكُونُ فَرَحُهُ بِتِلْكَ الْمُتَعَلَّقَاتِ، وَاللَّوَازِمِ: أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِمَسْأَلَتِهِ)[١]، وهذا ربما انتقد عليه، ولكن هذا من الجود بالعلم؛ لأن مثل ذلك مثل من سئل عن الطريق إلى مكة، فوصف للسائل طريق مكة، وطريق المدينة، وطريق كذا، وطريق كذا... إلى آخره، وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ حينما سُئل عن التوضئ بماء البحر، فقال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[٢]، جواب السؤال: الطهور ماؤه، أما الحل ميتته، فهذا زيادة في الجواب، من الجود الذي ذكره ابن القيم رحمه الله.

إذًا: لابد في أخلاق الداعية أن توطن نفسك على أن تكون جوادًا، جوادًا في بيتك، جوادًا في عملك، جوادًا في السوق، جود الطبيب وهو يمارس مهنته، جود التاجر وهو يمارس مهنته، جود القريب وهو يتعامل مع أقربائه... إلى آخر جود هؤلاء، وكونهم يكونون من أهل الجود هذا من المهم في كل نطاق؛ لأن الجود سبب لانفتاح القلوب، والناس يحبون من أحسن إليهم[٣]:

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ... فطالَما اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

وهذا واقع.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وقال: هذا حدِيثٌ حسنٌ صحِيحٌ، وأخرجه - أيضًا - ابن ماجه (٣٨٦).

(٣) البيت لأبي الفتح البستي، انظر: قصيدة عنوان الحكم (١/ ٣٦).

إذًا : هذه الخصلة لا بد أن توطن نفسك عليها ، تكون جوادًا ، ولو لم تكن كذلك في الداخل ، ولكن درب نفسك أن تكون جوادًا بالكلمة ، جوادًا بالبشاشة ، جوادًا بالبذل ، مثل له من الأمثلة : رجل في بيته يشكو من وضع والده ، يشكو من وضع ولده ، يشكو من وضع إخوانه مثلًا ، ويشكو ، ويشكو ، وهو إذا تعامل معهم في الدعوة ، يتعامل معهم من جهة الأمر والنهى ، لكن لو خالط زملاءه ، لو خالط أصحابه ، وجد أنه معهم بشخصية أخرى غير الشخصية التي يتعامل بها مع أهل البيت ، هذا الانفصال سببه أنه جواد مع أولئك بالكلمة ، بالبذل ، فأثر في من أثر ، وثبت من ثبت بتوفيق الله ﷻ ، أما في بيته ، فهو إنما آمر ناهٍ ، والناس ليست مجبولة على حب من يتسلط عليهم ، من يأمر وينهى ، وإنما مجبولة على حب من يقدم لها ، من يحسن إليها ، فإذًا : في البيت الجود - لو جربته - له أثره العظيم ، فجرب مع أخيك الصغير ، مع أخيك الكبير ، مع والدك ، مع ابنك ، مع بنتك ، مع أختك ، مع قريبك ، جرب هذا ، فتجد أن له أثرًا ، وإن كان هذا الأثر ربما يكون بعد مدة ، لكن له أثرًا .

وأول درجات الدعوة انفتاح قلب المدعو إلى الداعية ، قلب من تريد أن تؤثر عليه أن ينفتح قلبه لك ، ويحب الكلمة التي يسمعها منك ، ويقتنع بالكلام الذي تقوله ، ولو عشرة في المائة ، عشرين في المائة ، خمسين في المائة . في البداية هذا خير عظيم للأمور التي تصل إليها على خطوة واحدة ، ومن الأسباب المهمة ما ذكرته لك ، وهو الجود ، فلا تحقر هذا السبب ، وقد قال لك ﷺ : «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا**» ، أي شيء من المعروف لا تحقره ، «**وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» ، بل إن ذلك فيه تنبيه

على أن تلقى أخاك دائمًا بوجه طلق؛ كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**»[١].

الصفة الرابعة: أن يكون واسع الأفق محللًا لما يجري حوله، أحيانًا يكون الأثر الذي يؤثر في المدعو سالبًا، أو يؤثر في المدعو إيجابًا، يكون هذا أثرًا غير مرئي، يكون هناك أشياء في جوانب حياة هذا المدعو، خاصة من لا تعاشره دائمًا، فهذا كيف تؤثر عليه؟ لابد أن يكون عندك رؤية متسعة للمؤثرات التي تؤثر على هذا المدعو، وهذه الرؤية المتسعة ستستنتج منها الأسباب التي تصد هذا المدعو عن الخير، وستستنتج منها الأسباب التي تجعل هذا المدعو يقبل على الخير، يعني: هناك أشياء تجعل هذا يقبل؛ لأن كل إنسان له عواطف، له محبته، وخاصةً إذا كان مسلمًا، فإن عنده من الخير ما عنده، لكن هذا الخير ربما غطى عليه كثير من الران المنتشر في الناس، وبأسباب أخرى، تارة تكون من نفسه والشيطان، وتارة تكون ممن حوله من الشياطين الذين يصدون الناس عن الحق، لابد أن يكون عند الداعية استيعاب لما حوله، ثم إذا استوعب، وكانت رؤيته غير محدودة، بل رؤيته متسعة. بعد ذلك يدرس هذه الأسباب، ويحاول أن يحصل الإيجابيات، وأن يبتعد عن السلبيات؛ ولهذا جاء مبدأ المشاورة والتطاوع في الدعوة؛ لأن أحيانًا يكون الإنسان لا يدرك الأشياء بنفسه، خاصة من تحليل نفسيات المدعوين؛ ولهذا قال ﷺ لمن أرسلهم إلى اليمن: «**يَسِّرَا**

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٠٧) ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨١٧).

ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا»[١].

الصفة الخامسة: أن يكون معتنيًا بشيء من العلم المتصل بالدعوة، وأن يعلم أن الدعوة إلى الله ﷻ مراتبها كثيرة جدًا، فهناك من الدعوة ما لا يصلح إلا للعلماء، هناك من الموضوعات ما لا يصلح أن يدعو إليه إلا العلماء، وهناك من الموضوعات ما يصلح أن يدعو إليه كل مسلم؛ لأن كل مسلم معه من اليقين، والعلم بأشياء من الحق ما ينبغي له، أو إذا دعا، فهو عنده من العلم في تلك الأشياء ما يجعله يدعو إليها.

العلم ذكرنا دليله في قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ والبصيرة هي: العلم، والعلم مهم، وكما قلنا درجات؛ ولهذا أهل العلم يقولون: لا يجوز لأحد أن يدعو، حتى يعلم ما يدعو إليه، أما إذا كان جاهلًا بالحكم، جاهلًا بما يدعو إليه، فكيف يدعو إلى شيء، وهو يجهل حكمه؟! لكن إذا دعا إلى تحبيب الناس في الخير، إلى تحبيب الناس في الاستقامة، في الصلاة، والطاعة، في مؤاخاة الصالحين... إلى آخره، هذه أمور يشترك في معرفتها، وفي العلم بها جميع المسلمين.

العلم لابد منه فيما تدعو إليه، إذا أردت أن تدعو إلى مسألة ليست من الواضحات، فلا يجوز لك أن تتكلم فيها إلا بعد أن تكون عالمًا بها على ما قاله أهل العلم.

الصفة السادسة: أن يكون مرتبًا للأولويات، وهذا ما يسمى بتقديم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

الأهم على المهم، أو ما يسميه بعض المعاصرين بفقه الأولويات، وهذا صحيح.

تقديم الأولى على ما هو دونه هذا مهم، تقديم الأهم على المهم هذا أصل شرعي؛ كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ**...»[١] قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد: (فيه البداءة بالأهم فالأهم)[٢]، نعم، الأهم يبدأ به قبل المهم، فلابد أن يكون عندك معرفة بالأولويات: ما المهم؟ بعض الناس ممكن أن يبدأ في الدعوة بفرعيات -يعني: بمستحبات-، ويترك الأصول، هذا ما بدأ بالأهم، وترك المهم، بل بدأ بما هو من المستحبات، وترك ربما الواجبات والفرائض.

لابد أن يكون الداعية متمرسًا في معرفة الأولى فالأولى. هل الأولى فالأولى هذا في جميع الناس واحد؟ لا، في جميع المجتمعات واحد؟ لا، المجتمعات تختلف، وكذلك الأفراد يختلفون، بل البيوت تختلف، فهناك أولويات في بيت، ليست هي الأولويات في البيت الآخر، بل نفس الداعية عنده أولويات في بيته، وفي الدعوة، وينتقل قلبه إذا اتجه إلى عمله في أولويات أخر، وينتقل قلبه إذا خالط أصحابًا له في أولويات أخر، فيكون عنده من فقه الأولويات ما يجعله إذا تكلم في كل مجلس يظن الظان أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: (كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد) المسألة الثانية عشرة (١/ ٩٥).

متناقض، يتكلم هنا بكلام، وهناك بكلام، والواقع أنه من فقهه جعل الأولويات التي يتكلم بها مع أهله غير الأولويات التي يتكلم بها مع أصحابه غير الأولويات التي يتكلم بها مع العامة، وهكذا . . .

فإذًا : من فقه الداعية، ومن الأخلاق التي لابد أن تكون معه أن يكون عنده ترتيب للمهمات، ترتيب للأولويات، وهذا يتطلب أن يكون معه الأشياء السابقة، وهي أن يكون ذكيًا، فطنًا، واسعًا ؛ حتى يمكن أن يعرف ما هي الأولويات المتصلة بهذا الفرد، بهذه الأسرة، بهذا البيت. . . إلى آخره.

فإذا رتبت الأولويات، عرفت كيف تبدأ، وأما إذا لم ترتب، فربما أتيت من قبل الغيرة، وأمرت، ونهيت، وأقمت الدنيا، وأقعدتها، لكن هل أثرت في القلوب؟ الجواب: لا .

ربما المرء يحترم في بيته، قد يحترمه أولاده، قد يحترمه إخوانه، لكن المهم أن يحترموه، وبعد الاحترام أن يطيعوه، وأن يقتنعوا بالحق الذي معه، وهذه ليس مهمة الآمر الناهي فقط، بل مهمة أن يكون مع أمره، ونهيه دعوة بشرائطها، ومتطلباتها .

الصفة السابعة: أن يكون متخلصًا من حظ نفسه، دائمًا يكون باذلًا لحق الآخرين، بعيدًا عن أداء حق نفسه، وهذا نبينا ﷺ ربما أتى إليه الأعرابي، وجذبه من وراء ظهره بقوة بردائه، والنبي ﷺ يجيبه إجابة سمحة[1]، وربما قام عليه الرجل، فتكلم عليه، وقام عليه بسيفه، فأجابه

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٧٧٥) «كان النَّبِيُّ ﷺ يجْلِسُ معنا فِي الْمجْلِسِ يُحدِّثُنا ، فإذا قام قُمْنا قِيامًا حتّى نراهُ قدْ دخل بعْض بُيُوتِ أزْواجِهِ، فحدّثنا =

بإجابة يكون فيها البر، والطمأنينة له، في أحاديث كثيرة معلومة ليس هذا محل ذكرها.

المقصود من هذا أن الداعية يجب عليه أن يكون متخلصًا، يعني: وأنت في دعوتك تكون متخلصًا عن نفسك، هذه النفس التي بين جنبيك: احترامها، قوتها، أنفتها،... إلى آخره، تجعلها تنزل مرتبة، أو مرتبتين، أو ثلاثًا، لم؟ لأن الناس - خاصة إذا تعاملوا مع من يدعوهم - إذا رأوا أنه يتسلط، ولو بكلمة فيها شيء من القوة، والغلظة، فإنهم لا يقبلون: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهو النبي ﷺ، وهم صحابته الكرام ﷺ، هكذا الناس مجبولون على أنهم لا يقبلون الذي يخالف ما هم عليه، إذا تأمره بشيء يخالف رغبتك، لا يقبل ذلك، فمتى يكون لك حظ عند المدعوين؟ إذا تخلصت من رغبات نفسك، وهذا يظهر عند النقاش، عند الجدال، إذا أتى أمرته ودعوته، وهكذا...، فتكلم عليك وقال، ربما يكون والدك، ربما ابنك، ربما أخاك، ربما أختك، وهكذا...، ربما يتكلم عليك، فهل معنى ذلك تظهر عندك العزة وأنت تتمثل مقام الدعوة؟ لا، بل ليظهر عندك مقام الداعية رحب الصدر، الذي

= يوْمًا فقُمْنا حِين قام، فنظرْنا إِلى أعْرابِيٍّ قدْ أدْركهُ فجبذهُ بِردائِهِ فحمّر رقبتهُ، قال أبو هُريْرة: وكان رداءًا خشِنًا، فالْتفت، فقال لهُ الْأعْرابِيُّ: احْمِلْ لِي على بعِيريّ هذيْنِ فإِنّك لا تحْمِلُ لِي مِنْ مالِك ولا مِنْ مالِ أبِيك، فقال النّبِيُّ ﷺ: «لا، وأسْتغْفِرُ اللّه، لا، وأسْتغْفِرُ اللّه، لا، وأسْتغْفِرُ اللّه لا أحْمِلُ لك حتّى تُقِيدنِي مِنْ جبْذتِك الّتِي جبذْتنِي» **فكُلُّ ذلِك يقُولُ لهُ الْأعْرابِيُّ: واللّهِ لا أُقِيدُكها، فذكر الْحدِيث، قال: ثُمّ دعا رجُلًا فقال لهُ «احْمِلْ لهُ على بعِيريْهِ هذيْنِ: على بعِيرٍ شعِيرًا، وعلى الْآخرِ تمْرًا» ثُمّ الْتفت إِليْنا فقال: «انْصرِفُوا على بركةِ اللّهِ تعالى».**

يمكن أن يناقش، يمكن أن يتكلم في كل مسألة، وإذا ضاق به الأمر، وأحرج - لأنه ربما يكون المدعو يحرج الداعية في أشياء؛ لأنه مفترض فيه أولًا يكون عنده إلمام بها، إلى أشباه ذلك - يعترف بأنه هنا خطأ، لكن يرتب المهمات؛ لأن المهم إذا وصلت إليه -يعني: الأولى، الأهم - فإنه متفق عليه: المحافظة - مثلًا - على الصلوات، التزام المرأة بحجابها، بسترها، بقلة خروجها، . . . إلى آخره، التزام الرجل بآدابه، عدم مخالطة الأشرار، . . . إلى آخر ذلك. هذه الأشياء يكون متفق عليها، وإنما يأتي الكلام في خلافيات معينة، فالانتصار للرأي يحجب الدعوة، فلهذا على الداعية أن يكون واسع الصدر، أن يكون متخلصًا عن نفسه، وعن الانتصار لنفسه، لا بأس أن يقول: أخطأت. لا بأس أن يقول: أنت معك الصواب وإلا يرتفع؛ لأنه إذا رفع نفسه على غيره، فلن يقبل. الداعية بالذات لابد أن يكون جاعلًا نفسه أقل من غيره، وهو يخاطب الآخرين، إذا جعل نفسه ندًا لغيره، أو متعاليًا، فإن في الغالب يكون كلامه محترمًا، لكن لا يكون محل قناعة وقبول.

القسم الثاني: الميدان

كيف تبدأ العمل؟ كيف تدعو عمليًا في بيتك؟ كيف تدعو عمليًا في مكتبك؟ كيف تدعو عمليًا في المؤسسة؟ في الشركة؟ كيف تدعو عمليًا في المتجر؟ كيف تدعو عمليًا في قريتك إذا رجعت إليها؟ أو إذا سافرت في أي مكان؟ في الطائرة؟ . . . إلى آخره؟

هذا المجال - الذي هو المجال الميداني - لا شك أنه من المصاعب،

ويحتاج إلى تجربة، لكن هو سهل ميسور إذا أخذته بتسهيل.

أولًا: البيت.

البيت مركب من رجل، وامرأة، كبير، أو صغير، الأطفال ليس هذا محل بيان كيف يؤدبون، وكيف تتكلم معهم، لكن مع الكبار البيت يحتاج منك إلى أن تنظر في هذا البيت، في ما فيه من الخير الذي يرغب فيه أهل البيت، وما فيه من الشر الذي يقع فيه بعض أهل البيت، وأنت لا ترضى عنه.

كل بيت من بيوت المسلمين فيه أشياء من الخير، وفيه أشياء من الشر، النظر إلى الخيرات لابد أن يكون مع النظر إلى الشرور، والمنكرات، لم؟ لأن تلك قبلوها، وهذه قبلوها، فأنت تريد أن يقبلوا منك الزيادة في الخيرات التي يمارسونها، وأن يقبلوا منك التخفيف من الشرور، والمنكرات التي يمارسونها، فإذًا: في نظرك إلى البيت حَلِّلْ.

أولًا: الإيجابيات، والسلبيات؛ كما يقال حلل الخيرات، وحلل المنكرات، فانظر إلى أسباب حدوث الخير، وأسباب حدوث الشر، فنرى أن أسباب الخير الإيمان الكامل في نفوسهم، الرغبة الصادقة من أهل البيت في الدار الآخرة، وفي الخير، هذه تحتاج منك إلى تنميتها بأمور تغرس الإيمان في القلب، وأهم ذلك أن يوطن أهل البيت على محبة القرآن، والذكر، هذه أدخلها إلى البيت، ولو بقراءات بينك وبينهم في فترة وجيزة من فترات الزمن - يعني: خمس دقائق، عشر دقائق - يجتمع الجميع على قراءة من كتاب الله، وإسماع له، وحفظ آية، أو نحو ذلك، هذا شيء يشترك فيه الجميع في حسنه، وأظن خمس دقائق، أو عشر دقائق ليس ثمة من يعارض فيها.

مسألة الصلاة فيما يوجد - مثلًا - عند النساء، النساء تجد أنهن في البيت، وهن مغفول عنهن، تجد أنهم يصلون، لكن الصلاة عند كثيرات منهن بدون خشوع، يعني: كثير من النساء ينقرن الصلاة نقرًا، فهذه انظر لها، وحاول أن تعالجها بالطريقة الملائمة، بأن تقول مثلًا: هذه فتوى أهل العلم، وهذه الأحاديث الواردة في ذلك، الصلاة زيدي فيها تسبيحة، زيدي فيها تسبيحتين، ونحو ذلك، لا يصح نقر الصلاة، وبخطاب مودود بين المتكلم، والمخاطبة.

إذا نظرت - مثلًا - إلى الجهة الأخرى - وهي التي قد يعتني بها كثير من الدعاة، أو من الذين يهتمون بإصلاح البيوت - جهة المنكرات الموجودة في البيوت، فالمنكرات درجات، فهناك منكرات كبيرة عظيمة، وهناك منكرات وسط، وهناك منكرات أخف، والجميع يشترك في أنه منكر، ومحرم، فترتيب النظر في هذه مهم، يعني: مثلًا هناك بيت أهله من الرجال لا يحضرون الصلوات، وتجد عندهم - مثلًا - بلاء في شرب دخان، أو رؤية للمنكرات، مثلًا من عندهم أجهزة لرؤية النساء، ونحو ذلك، والمحرمات، أو عندهم ممارسات لأشياء محرمة في البيت، علاقاتهم، واتصالاتهم. . . أو غير ذلك، فكيف ترتب وضع هذا البيت بما يهيئ لك الانتقال إلى المرحلة الأخرى؟ إذا أتيت إلى الشيء الذي هم أكثر تعلقًا به، وكان هو الأخف، وتركت الكلام فيه، ربما قبلوا، وهذا جُرب، ووجد في بيوت كثيرة له نجاح، مثل: وجود التلفاز في البيوت، والتعلق به، وهم عندهم مخالفات أكبر من ذلك، فإذا أتى كلام الداعية في هذا ليل نهار، رجع هناك بحواجز بينه وبينهم، لكن إذا سكت عنه؛ كما سكت العلماء عن

أشياء، وكما أمر النبي ﷺ بأن يأمر أولئك بالصلاة قبل الزكاة، فإذا سكتَّ عنه، ونظرت إلى المصيبة الأكبر، أو المنكر الأكبر الموجود، فاجتهدت في إزالته، وتركت هذا - ولو سنة -، فإن هذا يسبب قبولًا؛ لأنه من عوائد النفس أنها لا تحبذ الانفكاك عن كل ما فيها مرة واحدة، وأن تنظر إلى نفسك في من لم يكن مهتديًا من قبل، ثم اهتدى -، وقد قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٩٤]، هذا ينظر إلى نفسه، لو أتى واحد، وقال له: انتقل في يوم من الحال التي كنت عليها إلى الحال التي أنت عليها اليوم، لا يمكن أن يتصور، ولا يمكن أن يكون واحد يقول له هذا الكلام، ويقبل منه فورًا، ولكن هي مدة من الزمن.

فإذًا: هناك أشياء يمكن أن تسكت عليها، يمكن ألا تغلظ وجهك فيها، ولا الكلام فيها، ولا تنكرها، حتى يأتي زمن يقبل منك ذلك، لكن بشرط أن تكون ساعيًا في نقلهم إلى شيء أفضل، يعني: في إنكار شيء أكبر من هذا الذي يمارسونه، وهذا واقع في البيوت، وكل بيت له تحليلاته، وله أوضاعه الخاصة.

إذا نظرت من جهة أخرى إلى وضع الرجل في بيته، وأنه يعطي البيت القليل، ويرغب من أهل بيته أن يكونوا كما يريد، هذا لا يمكن، فلابد أن تعطي البيت الكثير، سواء كان والدًا، أو كان أخًا، لابد أن يعطي بيته كثيرًا من وقته؛ حتى يقبل منه، أولئك لهم طلبات، يريدون أن يذهبوا هنا وهناك، رجال، ونساء، وأطفال، مراهقون: شباب، وشابات، يريدون من الرجل أن يبذل لهم، أن يذهب بهم هنا وهناك.

النفس لها طبيعة، لابد أن تتسلط عليها أفكار، قد تتولد منها أشياء لا تحبذها أنت.

فإذًا: من وسائل الدعوة المهمة العملية في البيت أن تبذل من وقتك الكثير، وتنقل أهلك إلى ما يحبون، وفي خلال هذه المدة يمكن أن تمرر كثيرًا من الأشياء التي أمر الله ﷻ بها، ورسوله ﷺ.

إعطاء البيت وقتًا في الجلوس في نفس البيت، وأيضًا في الخروج بالصغار والكبار.

أيضًا من المهمات في البيت: أن تنظر إلى نفسية أهل البيت، وكل واحد تعالج نفسيته بما هو عليه، مثلًا - وأنا ربما أركز على النساء - البنت في البيت بدأت في عمر الثالثة عشر، أو الرابعة عشر، الخامسة عشر، هذه السن إما أن يتسلط عليها الخير، وإما أن يتسلط عليها الشر، لا تظن الخير سينغرس فيها بكلمة في خضم هذا المجتمع الذي فيه كثير من التأثيرات بالباطل، والتي توافق نفسية المراهق، أو المراهقة، لابد أن تدخل في نفسيتها، الفتاة تحتاج إلى أشياء، تحتاج إلى المدح - مثلًا - في زينتها، تحتاج إلى المدح في هيئتها، في كلامها، تحتاج إلى أن تلبى طلباتها، تحتاج إلى أن تنقل من شيء إلى شيء، إلى أن تقنعها بقناعات مع التسليم لها في أشياء، أن تدخل معها في المشاركة في اهتماماتها، هي مهتمة بأشياء وهي عندك، لو اهتم بها فلان، واطلع عليه الناس، لعيب ذلك، لكن في الواقع في علاج ما في البيت لا يعاب ذلك، فأن تهتم معها باهتماماتها الخاصة، الاهتمامات التي تجعل هذه تشعر أنك دخلت معها في نفس الاهتمامات، ثم بعد مدة يأتي التوجيه شيئًا فشيئًا، وهذا يجعل هناك

صداقة، وارتباطًا بين الأخ، أو بين الأب في الأسرة، وبين هذه الفتاة التي وصلت سن المراهقة، بعض الآباء في البيوت - ويكون رجلًا دَيِّنًا، وصالحًا، وفيه خير - حصل عنده أشياء في بيته غير محمودة، كان من أسبابها أنه لم يهتم يومًا ما لا بالشاب، والشابة - هذا أحد الأسباب - ما نفذ به، ما تكلم معه في مشاكله، في ما في داخله، كل واحدة عندها رغبات، رغبات أحيانًا تكون محرمة، أحيانًا تكون بعيدة عن العقل، والصواب، لكن لابد أن تستخرج منها ذاك؛ لأنك إن لم تستخرج منها ذاك، فسيستخرجه الأصدقاء، وسيوجه الأصدقاء بتوجيههم، وإذا أتى الأصدقاء الأخلاء بتوجيهاتهم، فربما وقع مالا يحمده.

فإذًا: من المهم أن تعطي البيت وقتًا، وإذا أعطيت البيت وقتًا، فإنه مجال خصب للدخول معهم فيما تحب والدعوة، كما أنك ترى أنه لايمكن أن تؤثر على الآخرين في خارج البيت بدون وقت، كذلك البيت لا يمكن أن تؤثر عليه بدون وقت.

النقطة الثالثة: أن تأتي بكل وسيلة من وسائل الخير، فتدخلها إلى البيت: من شريط مستقيم طيب، ومن كتب - خاصة كتب الأذكار، وكتب المواعظ، والكتب النافعة التي فيها علاج المشكلات - والمجلات المأمونة الطيبة، التي تعالج بعض الأشياء، وتجعلها في البيت، وهم - لا شك - سيقرؤون، وسيكون هناك نوع تأثر بوضعها، بمجرد الوضع، لا بفرض تلك الأشياء.

ثانيًا: العمل.

العمل ميدان آخر مختلف تمامًا عن البيت، معالجة البيوت أسهل من

معالجة زملاء العمل، لماذا؟ لأن هؤلاء قد بلغوا من العمر ما بلغوا، لهم قناعاتهم، لهم شخصياتهم، لكن هؤلاء لا شك أنهم درجات، يختلفون، هؤلاء لا تنظر إليهم نظرًا واحدًا، بل كل واحد له وضعه، له تفكيره، له عواطفه التي في الداخل.

زملاء العمل من أحسن ما يؤثر به عليهم أن يكون هناك اثنان أو ثلاثة يبتدئون بوضع شيء من الزيارات الخاصة، التي يكون فيها حضور لبعض أهل العلم، يعني: يجعل مثلًا لقاءًا أسبوعيًا، أو ما يسميه بعض الناس دورية، ويكون فيها ثلاث مرات في الشهر جلسة عامة، يتحدثون كما يشاؤون، ومرة في الشهر يأتيهم بعض أهل العلم، ويتناقشون معهم في ساعة من الزمان في أمر من الأمور. هذا النوع من الربط الذي معه عدم فرض الشخصيات على أولئك؛ لأن منهم من لا يقبل أن يأتي كل مرة واحد يتحدث معهم في المجالات الدينية، لكن إذا كان مرة في الشهرين، مرة في الشهر، في أول الأمر هذا مقبول، هذه وسيلة من الوسائل.

الوسيلة الثانية: نشر أشياء في العمل من جهة فتاوى لبعض أهل العلم بطريقة مباشرة، وغير مباشرة، من نشر أشرطة نافعة يكون فيها الأثر من قبيل صحبة خاصة، نفع لبعضهم، التوسط لبعضهم، السعي في نفعهم بالأخلاقيات التي ذكرنا، يعني: أن يكون المرء في عمله الذي يخاطب الآخرين، يكون رأى منه ذاك أنه يبذل له ما لا يبذله غيره، وهذه وسيلة مهمة؛ لأنها تدخل الخير في النفوس، ولو بعد زمن، كذلك إذا كان هناك مسؤول العمل رجلًا جيدًا وصالحًا، يمكن أن نعقد لقاءات لكل العاملين، ويؤثر عليهم عن طريقها، يعني: أمامك مجالات لجهد فردي في العمل،

يمكن أن تبذله، ويكون معه أشياء من الخير، ولا يمكن طرق جميع الجوانب، لكن إذا كان هناك من سعى في ذلك، فيجود بخبرته على الآخرين، أو إذا رأى المرء أنه سيبدأ في ذلك يشاور إخوانه، ولابد أن في ذلك تجارب كثيرة في هذا المجال.

ثالثًا: القرية.

من الناس من يأتي - مثلًا - للرياض، أو للمدن، وبعد انتهاء فترة الدراسة أو العمل يريد أن يرجع إلى بلده في إجازة وظيفية. . . إلى آخره، وفي القرى وضعها يختلف عن وضع المدن، وضع الناس فيها يختلف عن نفسيات أهل المدن - كما هو معروف -، كيف يخاطب أولئك؟ وكيف يسعى فيهم؟ أولئك في الغالب أقرب إلى الخير، يعني: أقرب إلى عدم مجادلة أهل الخير من أهل المدن؛ لأن أهل المدن تركزت فيهم أشياء من القناعة ببعض المنكرات، أما أهل القرى، فلازالوا يحترمون أهل العلم احترامًا طيبًا، ويحترمون أهل الصلاح احترامًا جيدًا، هؤلاء تدخل معهم في نطاقات:

النطاق الأول: تنشيط مجال الدعوة في البلد، يعني: أن يكون لك صلة بهيئة الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر في البلد، أن يكون لك صلة بمكتب الدعوة في القرية، أو في المنطقة، تنشيط الكلمات في المساجد، والمحاضرات، والدروس التي تقام في المساجد، أو المواعظ التي تقام بعد الصلوات، هذه لها أثر، ونفسية أهل القرى قريبة، كذلك في الدعوات العامة: وما يسمى - مثلًا - العزائم، أو اللقاءات العامة، هذه الحديث فيها دائمًا يكون متركزًا على رغبات الناس، والداعية إذا نظر إلى هذا المجال، فوجد أن هذه الأحاديث غالبًا ما يتكلم فيها الناس مع أول

متحدث، يعني: إذا فتحت موضوعًا من الموضوعات، فإنه سيمر وقت من الزمن في هذا الموضوع، إذا كنت طرحته بطرح جيد مقبول، يعني: إذا تكلمت - مثلًا - عن شيء من أخبار الصحابة ﷺ، أو أخبار بعض أهل العلم وما هم عليه، أو تحليل لموقف من المواقف، أو نحو ذلك، أو حدث من الأحداث، فإنه سيتكلم هذا المجلس في هذا الموضوع شيء من الزمن - ربع ساعة، ثلث ساعة -، بقدر انتباه الداعية يمكن أن يطيل، ويشقق هذا الموضوع؛ حتى يكون هناك استفادة أكبر من طرح تلك الموضوعات، يعني: أن يكون هذا المشارك مهتمًا في أن تكون الجلسات العامة ليست جلسات كلام، وقيل، وقال، بل يكون الموضوعات المطروحة فيها مدروسة، وهذا لابد أن يكون معه - كما ذكرنا من قبل - دراسة موضوعية لما يكون في تلك البلاد أو القرى من الأمور الإيجابية والسلبية.

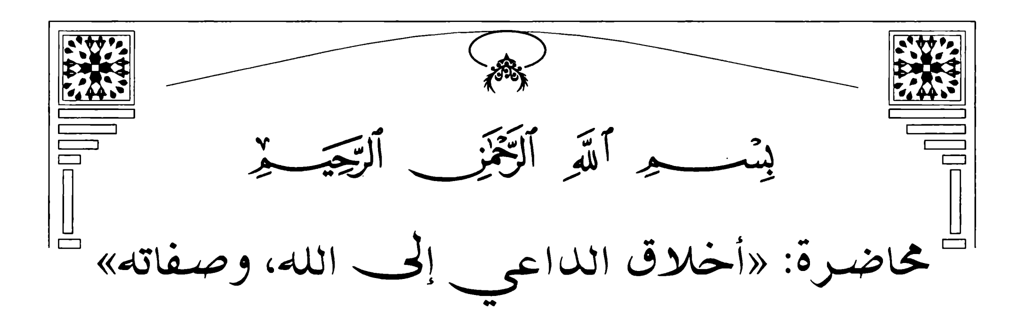
رابعًا: الكبير مع الصغير.

مجال رابع من مجالات الدعوة الفردية - أيضًا - هو: التأثير على من هم أقل منك، يعني: المعلم مع طلابه، كبير الزملاء مع صغار زملائه، وهكذا . . .، هذا نوع من التأثير، أو نوع من المخالطة موجود، والتأثر به كبير، والتأثير عن هذا الطريق سهل؛ ذلك لأن الصغير في الغالب يرى في المعلم، أو الزملاء الصغار يرون الكبير فيهم، يرون له محلًا من الاحترام، ومحلًا من التقدير، وهذا يجعل الفرصة سانحة لكي يمرر، أو يقول ما عنده، ويؤصل الدعوة الصحيحة؛ بما يحصل لهم به من الخير، وينتقلون معه إلى الأفضل.

نكتفي بهذا القدر.

أستغفر الله لي، ولكم من زلل القول، وزلل العمل، وأسأله لي، ولكم التوفيق، والسداد، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊



محاضرة: «أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وتركنا بعده ﷺ على طريق بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك، اللهم صل، وسلم على عبدك، ورسولك محمد ما تتابع الليل والنهار، كلما صلى عليه المصلون، وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون. . .

أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياك ممن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياك أخي من الذين يدعون إلى الله ﷻ على بصيرة؛ إذ هم أولياء محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

موضوع هذه المحاضرة: (**أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته**)، وأخلاق الداعي إلى الله هي دينه؛ لأن الخلق يطلق في الشريعة على شيئين:

الإطلاق الأول: على معنى عام، وهو الدين، فالدين كله خلق، قال ﷻ في وصف نبينا محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وثبت في

صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت في وصف النبي ﷺ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[١]، أي: أنه كان قرآنًا يمشي، يتمثل القرآن في عبادته، وفي توحيده، وفي خلقه، في تعامله مع نفسه، وفي تعامله مع من حوله، فهو وحيٌ يوحى ﷺ، فهذا الإطلاق العام لمعنى الخلق في الشريعة؛ لأن الخلق يشمل كل أحكام الشريعة: من العقيدة، ومن امتثال الأمور العبادية، والمعاملات، والآداب، . . . إلى غير ذلك. وهذا الإطلاق أثره ما يسميه الناس بالأخلاق، فإن الأخلاق التي يسمي الناس من تحلى بها هذا صاحب خلق، هذه من أثار الالتزام بالشريعة، ومن لم يكن خلقه حسنًا، فلم يلتزم بالشريعة، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ مدح ذوي الخلق الحسن، فقال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ**»[٢].

فإذًا: ما يسميه الناس الخلق الحسن، وصاحب أخلاق، هذه من باب التمثيل، ولا يكون صاحب خلق حسن إلا إذا كان قد حكم القرآن، والسنة على نفسه، وأمَّر السنة على نفسه قولًا وعملًا، تأمير السنة على النفس ليس في الأمور الظاهرة - في أمور الملبس، وفي أمور الشكل العام فقط -، لا بل يشمل - وهو من الأمور المهمة - يشمل كل ما فيه صلة بالآخرين، فكل ما فيه نوع من التعامل مع الناس، فإن امتثال الشريعة في ذلك من

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) بلفظ: «**فإنّ خُلُق نبيِّ اللهِ ﷺ كان الْقُرْآن**».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، كما أخرجه البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١) بلفظ: «**إنّ مِنْ خِيارِكُمْ أحاسِنكُمْ أخْلاقًا**».

الخلق، وصاحب الخلق الحسن هو الذي يتمثل القرآن ما استطاع في أقواله، وفي أعماله على نفسه، وفي أنواع تعامله مع الأفراد، ومع المجتمع.

الإطلاق الثاني الذي جاء في الشريعة:

أن صاحب الخلق الحسن هو الذي أعطي ملكة تحلى فيها بما يمدح من تعامله مع الناس فيما يأتي، وفيما يذر، وفي هذا قال ﷺ: «**اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ الناس بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1].

فالخلق الحسن هذا إطلاق خاص في التعامل مع الناس في أن يكون رحيمًا بهم، رؤوفًا بهم، يأتي إليهم ما يحب أن يأتوا إليه، وهذا - كما ذكرنا في النوع الأول - هو الذي يفهمه الناس من إطلاق لفظ الأخلاق الحسنة.

إذا تبين ذلك، فبحث أخلاق الداعي إلى الله ﷻ، وصفاته، وما يتحلى به الموحد المؤمن صاحب السنة من الأخلاق هذا قسم، ونوع، وباب من أبواب عقيدة أهل السنة والجماعة؛ فعقيدة أهل السنة والجماعة تشمل ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تشمل بيان أركان الإيمان الستة، وما يتصل بذلك: الإيمان بالله: توحيده في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته، الإيمان بالملائكة، بالكتب، بالرسل، باليوم الآخر، بالقدر خيره وشره من الله ﷻ، وما يبحث في ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).

وأيضًا القسم الثاني من أقسام عقيدة أهل السنة والجماعة: أن يكون على نهج صحيح في أنواع التعامل، مخالفًا الفرق الضالة؛ ولهذا بحث أهل السنة في العقيدة مسائل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومسائل طاعة الولاة، وعدم الخروج على الوالي، وطاعة الوالي في غير المعصية، وبحثوا مسائل الصحابة، وأمهات المؤمنين، وبحثوا مسألة المسح على الخفين، وبحثوا الحج، والجهاد مع الأمراء أبرارًا كانوا، أم فجارًا، وبحثوا مسائل كثيرة صارت من العقيدة؛ لأنه بها فارق السني أهل البدع.

والقسم الثالث من الاعتقاد: الأخلاق.

وبهذا لو تأمل متأمل «الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية لوجده قسمها هذه الأقسام الثلاثة، فبين فيها أن هذه الرسالة موضوعة لبيان معتقد أهل السنة والجماعة، فقال في أولها: «أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة أهل السنة والجماعة...»، وساق معتقدهم، ثم في آخره ذكر أخلاقهم في أنفسهم، وعبادتهم، وذكر صفات أهل السنة والجماعة، قال: «وهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهم يأمرون بالصلاة، ويقومون الليل، ويصلون الأرحام، ويأمرون بذلك، ويخالقون الناس بخلق حسن...» إلى آخر ما ذكر فيها من موضوعات.

إذًا: فالكلام عن أخلاق الداعي ليس كلامًا أدبيًا، ليس كلامًا في الآداب، ومن رأى الفصل بين هذه الثلاث في عقيدة أهل السنة والجماعة، فلم يفهم عقيدة أهل السنة والجماعة، فصاحب السنة هو الذي يمتثل هذه الثلاث، فتجد أنه في خلقه في دعوته ممتثلًا السنة، كما أنه في أمور التعامل

ممتثلًا السنة، كما أنه في أمور العقيدة ممتثلًا السنة، هذا بعموم يبين أن هذا قد امتثل سنة محمد ﷺ، ولا شك أن القسمين الأولين من العقيدة، والمنهج هذا واجب، والأخلاق منقسمة إلى ما هو واجب، وما هو مستحب، بحسب تفاصيلها في ذلك.

إذا تبين هذا، فالكلام عن أخلاق الداعي إلى الله، وصفات الداعي إلى الله يمكن أن يقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته إذا كان فردًا.

القسم الثاني: أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته إذا كان الداعي جماعة، أو مجموعة.

أما القسم الأول، فنقدم له بمقدمة، وهي أن الدعوة إلى الله ﷻ مهمة، وأنها منوطة بالجميع بما يعلم؛ لأن النبي ﷺ أمر بالتبليغ، فقال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي في السنن: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(٢).

أهمية الدعوة إلى الله، وحكم الدعوة إلى الله تبين لكم في بعض هذه المحاضرات، والمهم أن كل واحد منا ينبغي ألا يخلي نفسه من الخير، والدعوة إلى الله ﷻ ليست أمرًا عسيرًا، هي أمر يسير إذا انضبط المرء فيما يدعو إليه بضوابط الشرع، يمكن أن تدعو المرأة في بيتها، يمكن أن يدعو الشاب في مدرسته، أن يدعو العالم، يمكن أن يدعو إمام المسجد، كل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وقال: (هذا حدِيثٌ حسنٌ صحِيحٌ)، كما أخرجه ابن ماجه (٢٣٢).

بحسب ما عنده، فهي متجزئة، وليست شيئًا واحدًا إما أن يأتي جميعًا، أو أن يذهب جميعًا، فسيأتي في أخلاق الداعي، وصفات الداعي ما ينبغي أن يتحلى به، وما يجب أن يتحلى به، وكيف يدعو إلى الله سبحانه وتعالى.

المقدمة الثانية:

بين يدي أخلاق الداعي الفرد أن أصل الدعوة قائم على التعبد، والدعوة تبليغ، وليست إلزامًا، والإلزام هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولهذا فرق ﷻ بين الدعوة، وبين الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في آية آل عمران، فقال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ففرق ما بين الدعوة، والأمر، والنهي، والفرق ما بين الدعوة، والداعي، والمحتسب الآمر، والناهي أن الداعية لا يلزم، إنما هو مبلغ محبب، ومبشر، وأما الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر المحتسب، هذا عنده سلطة من ولي الأمر، يلزم الناس بالأمر، يلزم الناس بالحق، فمثلًا في الفرق بينهما: الداعي يأتي إلى من لا يصلي، ويقول له: الصلاة حكمها كذا، واجبة عليك، ويرغبه بالأساليب المحببة إلى النفوس؛ لعله أن يستجيب. الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر يأتيه أولًا - أيضًا - بالأسلوب الحسن، ويقول له: صل. ما يعرض عليه، فإن لم يستجب، ألزمه، فإن لم يستجب، عاقبه؛ لأنه مخول بذلك، ولهذا يفرق ما بين من يلي الحسبة (من يلي الأمر، والنهي)، وما بين الداعي إلى الله ﷻ، والآية فرقت بالواو، والعلماء يقولون: تقتضي المغايرة، والمغايرة هنا مغايرة صفات، لا مغايرة حقيقة؛ لأن الدعوة، والأمر، والنهي الجميع دعوة، لكن ثَمَّ مغايرة في

الصفات، كما غير، وفرق ما بين الكتاب، والقرآن: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، فالكتاب، والقرآن شيء واحد، لكن جاء العطف بالواو؛ ليقتضي التغاير في الصفات، لا في الذات، الأمر، والدعوة، والنهي من حيث الذات شيء واحد، لكن من حيث الصفات، والأحوال متغايرة.

ندخل في الأخلاق، فنقول: الدعوة إلى الله ﷻ عبادة، وهذا أمر بين واضح. ما وجه كونها عبادة؟ أن الله ﷻ أمر بها، وأثاب الداعي إلى الله ﷻ، وعظم شأنه، فأمره ﷻ بالدعوة في قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ [الشورى: ١٥] هذا أمر ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وخص عظم شأن الداعي بقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن المتقرر في الأصول أن المسألة، وأن الشيء إذا أمر به، فهو عبادة، وإذا بين الثواب على إتيانه، فهو عبادة، إذا كانت الدعوة عبادة، فلا شك أن العبادة لها شرطان لصحتها، وقبولها، هما: الإخلاص، والسنة، فمن لم يأت في العبادة بالإخلاص، والسنة، فإنه لم يأت بالعبادة على وجهها الصحيح، بل هي غير مقبولة منه، ولهذا ما قبلت دعوة الخوارج، ولا قبلت دعوة الضالين؛ لأنهم دعوا، قد يكونون مخلصين لله، يرغبون ما عند الله، لا يرجون الخلق، ولكنهم لم يتابعوا السنة، فصاروا مأزورين غير مأجورين بل جعل النبي ﷺ الخوارج كلاب أهل النار، فعَنْ أبي غَالِبٍ، قَالَ: «رَأَى أبو أُمَامَةَ رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، فَقَالَ أبو أُمَامَةَ: «كِلَابُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ

﴿وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا - حَتَّى عَدَّ سَبْعًا - مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ»[١]، وقال في وصفهم: «يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ يقرءون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ من الْإِسْلَامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ»[٢]، وقال -أيضًا- ﷺ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ النَّاسِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَمَنْ لَقِيَهُمْ فَلْيَقْتُلْهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ»[٣].

وهم يدعون، ويجاهدون، ويخلصون - يعني: يرون أن فعلهم هذا يقرب إلى الله ﷻ، ولم يعبؤوا بالخلق، لكنهم ما تبعوا السنة، كانوا على خلاف طريقة السلف طريقة الصحابة ﵃، فصار عملهم مردودًا عليهم.

الإخلاص في الدعوة في الفرد - كيف يكون أحدنا مخلصًا في الدعوة إلى الله؟ ضابط الإخلاص العام - أن يكون في جميع العبادات قاصدًا وجه الله ﷻ بالعمل، وألا يقصد غيره؛ كما قال ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[٤]، فالقصد وجه الله ﷻ بالأعمال، والأقوال، فمن قصد وجه الله وحده، يريد ما عنده، فهذا عنده الإخلاص

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٢١٨٨)، وابن ماجه (١٦٨).
(٤) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

العام، والإخلاص العام يشمل كل المسائل، وفي كل مسألة ضابط للإخلاص خاص، الخاص يميزها عن غيرها، نقول: ضابط الإخلاص في طلب العلم: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه، فمن طلب العلم، سواء في المساجد، أو في الجامعات، أو في أي مكان، أو استمع إلى دروس ينوي بذلك رفع الجهل عن نفسه، هذا ضابط خاص مع النية العامة في الإخلاص، وهو أن يقصد بذلك التقرب إلى الله ﷻ، كذلك في الدعوة، مع نيته التقرب إلى الله ﷻ وحده دونما سواه، ضابط الإخلاص في الدعوة أن ينوي دلالة الخلق إلى ربهم ﷻ، وألا يكون مترفعًا بينهم؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال إمام الدعوة في مسائل كتاب التوحيد في قوله (إلى الله): (التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه)[١] يعني: أن الداعي إلى الله يريد بدعوته أن يقرب الخلق إلى ربهم، وأن يجعل هذا العبد الذي أمامه عبدًا حقيقيًا لله ﷻ، أن يدله ليكون قلبه ذليلًا لربه ﷻ، هذا يكون مخلصًا، أما إذا دله ليترفع هو، ليشتهر هو، ليظهر هو، أو دعا ليكون منتسبًا إلى فلان، فهذا خلاف الإخلاص، وما أكثر من يقع في هذا، وهو لا يشعر، وهذا إذا طرأ على النفس، فواجب أن ينطرح العبد بين يدي ربه يسأله أن يكون مخلصًا في أقواله، وأعماله، هذا الإخلاص.

أما الثاني، فهو السنة: أهم الأخلاق، والصفات في الداعي أن يكون

---

(١) انظر كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٩١).

في عبادته بالدعوة مخلصًا على سنة، فلا يدعو إلى شيء يخالف السنة، وأن يكون في دعوته متبعًا طريقة السلف الصالح، فإذا دعا إلى الله ﷻ، يدعو إلى ما يعلم - ويأتينا صفة العلم -، يدعو إلى السنة، يدعو إلى أن يكون من دعي تبعًا لمحمد ﷺ، ما يدعو لأهواء، لفرق، ما يكون لآراء، يدعو إلى شيء يعلمه من الكتاب، والسنة واضح بين جلي، وإذا اشتبهت الأمور، فخذ بالمتيقن، إياك والأمور المشتبهة؛ لأن المرء إذا دخل بالدعوة في أمور مشتبهة، ربما حبط عمله، وهو لا يشعر أنه لا يكون على سنة، وقد جاء في حديث أبي ثعلبة - وهو حديث حسن عند طائفة من العلماء، وهو حديث طويل - قال فيه ﷺ -: **«إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ - يَعْنِي - بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ. . .»**[(١)] إلى آخر الحديث، وجاء في الحديث -أيضًا - أنه قال ﷺ حينما سأله حذيفة بن اليمان ﵁، حينما قال: **«كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤).

قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»(١)، فقوله: (وَيَهْدُونَ) يعني: يدعون «يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ» يعني: عندهم أشياء صواب موافقة للسنة «وَتُنْكِرُ» وعندهم أشياء مخالفة للسنة، قال: «فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟» يعني: إذا وجدت هؤلاء؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

إذًا: فالسنة في الدعوة من أهم المهمات، وإلا يكون المرء في دعوته يسير حسب هواه - وهذا سيأتي في الصفات -، فالاتباع، والإخلاص أن يكون محكمًا على نفسه شرطي الإخلاص، ومتابعة السنة؛ حتى يكون عمله مقبولًا.

إذًا: فالخلق الأول للداعي هو: الإخلاص، والمتابعة.

الخلق الثاني والصفة الثانية للداعي العلم:

فليس ثم دعوة بلا علم، ومعلوم أن العلم يتجزأ، العلم واسع، العلم الشرعي واسع، فالعلم يتجزأ، فإذًا: الدعوة تتجزأ؛ قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

قال العلماء: البصيرة: العلم، وسمي العلم بصيرة؛ لأن العلم للقلب كالبصر للعين، يبين لك الطرق، ما تشتبه عليك إذا اشتبهت على العامي، وعلى الجاهل، أما على طالب العلم، والعالم مهما اشتبهت، مهما جاءت الفتن، تكون واضحة أمامه؛ لأن العلم - بتوفيق الله ﷻ - يبين لك الطريق.

إذًا: العلم هو البصيرة، والعلم متجزئ، فإذًا: الدعوة متجزئة، مثلًا: أنت علمت مسألة من مسائل التوحيد مثل: وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، رد الشرك بأنواعه، رد عبادة الأولياء، والقبور، والأوثان، وعلمت وجوب تحكيم شرع الله، وعلمت وجوب وصف الله ﷻ بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ، تدعو إلى هذا الأصل الذي علمته، وتيقنته، تأتي في أمر الصلاة واحد ما علم هذا بوضوح، لكن يعلم أن الصلاة واجبة، وأن الصلاة حيث ينادى بها واجبة، فإذًا: يدعو إلى ذلك؛ لأنه علمه، ما يقول: أنا لست بعالم، لاأدعو. تحبب، أُتلُ الحديث الذي فيه الحث على ذلك، أُتلُ الآية التي فيها الحث على ذلك، وهكذا...

في أمر الزكاة إذا علمت، كذلك في أمر الصيام، في أمر المبيعات، في أمر الأخلاق، الاجتماعيات... إلى آخره، فكل من عنده علم، فله أن يدعو إلى ما علمه، علمه بيقين، علمه بنص من كتاب أو سنة، ووضح له هذا، وأبانه عالم من العلماء؛ حتى لا يكون النص منسوخًا أو مقيدًا أو مخصوصًا... إلى آخر ذلك.

إذًا: فالعلم لا بد منه، فمن لم يعلم شيئًا لا يتكلم، اللسان يهوي بك في جهنم، فتدعو إلى شيء لا تعلمه هكذا بالرأي، الدعوة بالرأي لا، الدعوة

بالأهواء لا، الدعوة خلافة لمحمد ﷺ، فإن محمدًا ﷺ وإخوانه من الأنبياء ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، والدعوة تكون على بصيرة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

فإذًا: هذه المسألة مهمة للغاية، وهي أنك تدعو، وتنطلق في الدعوة، لكن الشيء الذي لا تعلمه لا تدعُ إليه، ولا تنه أيضًا عن شيء لا تعلم حكمه؛ قد تنهى عن شيء، ويشهر، وينتشر أنه منهي عنه، وهو في الواقع في الشريعة غير منهي عنه، قد تقول: هو محرم. وهو ليس بمحرم، هو مكروه، قد تقول: هو واجب. وهو ليس بواجب، مستحب، ولهذا حبذا إذا دعا الداعي في المسائل التي يدعو إليها ولم يكن طالب علم متمكنًا أن يجتنب الألفاظ الفقهية المحددة، فلا يقل: واجب، مستحب، محرم، مكروه. لأن هذه قد لا يكون مصيبًا فيها، فيقول على الله ﷻ بلا علم، وربنا سبحانه وتعالى حرم القول عليه بلا علم، وإنما يقول: أمر الله بكذا، نهى الله سبحانه وتعالى عن كذا، أمر نبينا ﷺ بكذا، نهى عن كذا، قال لك: واجب؟ قل: أمر. ومن امتثل الأمر، فهو الممتثل، وهذه مهمة في حال الداعية، وفي حال طالب العلم؛ لأنه تأتي أحيانًا أمور مشكلة عنده، وهو يتكلم بالدعوة، هل يقول: واجب؟ يحرجه السائل: هل هو واجب، أم غير واجب؟ فتقول: أمر نبينا ﷺ بذلك.

فإذًا: مسألة العلم مهمة في خلق الداعي، وفي صفته، ولا دعوة بلا علم؛ ولذلك الدعوة الفردية - دعوة الفرد - إذا لم تكن على علم - وكذلك الجماعية فيما سيأتي، مع اختلاف في الضوابط - الدعوة الفردية بلا علم ليست دعوة، وإنما هي إضلال، فلا بد أن يكون المرء عنده علم، ولو كل

واحد منا اقتصر على ما علم، انتشر خير كثير؛ لأن كل واحد منا - ولله الحمد - عنده من العلم ما ينفعه في أن يدعو إليه.

إذا تبين ذلك، فازدياد المرء في العلم به، ازدياده في الدعوة، كلما ازددت في العلم، ازددت في الدعوة على بصيرة، وكلما نقص العلم، نقصت الدعوة على بصيرة.

الخلق، والوصف الثالث من صفات الداعية إلى الله:

أن يكون الداعي إلى الله ﷻ حكيمًا، والحكمة يُعَرِّفُها أهل العلم بأنها: وضع الشيء في مواضعه اللائقة به، الموافقة للغايات المحمودة منه. وضع الشيء في موضعه هذا عدل، وضع الشيء في غير موضعه هذا ظلم، أما الحكمة، غير العدل، الحكمة أن تضع الشيء في موضعه اللائق به، الموافق للغايات المحمودة منه، فقد ينظر المرء في الدعوة إلى أنه يضع الشيء في موضعه الآني الحالي، لكنه لا يوافق الغاية المحمودة، فلا يكون حكيمًا في الدعوة، والله ﷻ بعث نبيه داعيًا إلى الله؛ ولهذا أنزل عليه الكتاب والحكمة، والحكمة هي السنة؛ لأن السنة هي التي فيها وضع الأشياء في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها.

إذا اجتهد المرء في الدعوة، فلا بد أن ينظر بحكمة، مثلًا يأتي في مسألة، وينظر: هل يدعو إلى هذا الشيء، أو لا يدعو؟ إذا دعوت إلى هذا الشيء المعين، ماذا سينتج منه؟ فإذا كان سينتج منه خير، فإن الحكمة أن تدعو به، وإذا كنت ستدعو، لكن سينتج منه شر، فإن الحكمة ألا تدعو، مثال: أن تأتي في مجلس مثلًا، ويأتي آت، ويتكلم بكلام غير طيب، لكن

لو رددت عليه، لانتقل منه إلى ما هو أشد، بعض الناس ما يسلم لك في الدعوة، أليس كذلك؟ ما يسلم.

أنت تظن أنك تنفعه، لا، ما يقتنع، هو يزيد، فإذا كان سيزيد، فالحكمة الصمت، ولا يقال: فلان صمت؛ لأنه صمت عن حكمة؛ لأنه يخشى أن ذاك المرء قد ينتقل من هذا الذي هو فيه إلى ما هو أعلى منه من الشر، ولهذا ربنا ﷻ نهى عن سب آلهة المشركين، مع أن سب الأوثان قربة إلى الله ﷻ، لكن نهى عن سب آلهة المشركين في حضرة من يعبدون تلك الآلهة، لمَ؟ لأجل ألا يسبوا الله ﷻ، هذه حكمة ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، نعم قد يكون في موقع الحكمة أن تسكت، واحد يقول: فلان سكت. نعم، سكت، لكن سكت عن حكمة، ولهذا وصف عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، وصف الصحابة رضي الله عنهم بوصف عظيم: **«فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا»**(١) أي: على علم وقفوا فيما دعوا إليه، وفيما عملوه، وببصر نافذ كفوا عنه، ما كفوا عنه عجزًا، لكن حكمة، ولهذا يختلف الشاب عن

(١) رواه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، (٤٦١٢) مطولًا، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى - كتاب الإيمان [(ح١٦٤) (١/ ٣٢٢)]، وذكره المؤلف في كتابه «ذم التأويل» [(١/ ٣٤) (ح٦٨)]، ورواه - أيضًا - فيه عن عبد العزيز الماجشون (٦٧) قال: **«قِفْ حيثُ وقف القومُ، فإنّهم عنْ عِلْمٍ وقفُوا، وببصرٍ نافِذٍ كفُّوا، ولهُمْ على كشْفِها كانوا أقْوى، وبالفضْل لوْ كان فيها أحْرى، فلئِنْ قُلْتُمْ حدث بعْدهُم، فما أحْدثهُ إلا منْ خالف هَدْيَهُمْ، ورغِب عنْ سُنّتِهِمْ، ولقدْ وصفُوا مِنْهُ ما يُشْفِي، وتكلّمُوا مِنْه بما يكْفي، فما فوْقهُم مُحسِّرٌ، وما دونهم مُقصِّرٌ، لقدْ قصُر عنْهُم قوْمٌ فجفوْا، وتجاوزهُمْ آخرُون فغلوْا، وإنّهُمْ فِيما بيْن ذلِك لعلى هُدًى مستقيمٍ»**.

الكبير، يختلف الجاهل عن العالم في أمر الحكمة، وفي معطياتها، فإذا لم يكن حكيمًا، فلا يصلح للدعوة؛ لأنه ربما أفسد، وربما نقل الأمور إلى ما لا يحمد.

فإذًا: من أخلاق الداعي، ومن صفاته: الحكمة، والحكمة لابد فيها من الموافقة للغايات المحمودة، هذا مثال عام عن الحكمة، نأخذ مثالًا تطبيقيًا: تأتي - مثلًا - إلى شخص تدعوه إلى الله ﷻ، شاب عندك، أو قريب لك أو نحو ذلك، تأتيه - مثلًا - وهو ينظر إلى أشياء عندك في البيت مما لا ينبغي النظر إليه، أو مما لا يجوز النظر إليه، أنت الآن تدعوه إلى شيء، وتأمره، وستحضه على شيء، هنا لابد أن تنظر في فعلك هذا: إلى أي شيء سينتقل؟ فإذا كان - والله - تقول له: والله، هذا أشياء ما تصلح، ويخرج من البيت، وسيذهب مع أصحابه إلى كبيرة من الكبائر، هل يناسب أن تدعوه في هذا الموقع؟ لا، هل يناسب أن تنهاه في هذا الموقع؟ لا؛ لأن ما فيه من الشر أقل مما تتوقع أنه سيذهب إليه، لكن لو أخذت تقول: هيا بنا نزور أحدًا في زيارة، في صلة رحم، نذهب إلى المسجد نتلو القرآن، أو عمل صالح، أو في نزهة مباحة، هذا أمر طيب؛ لأنه انتقل مما هو أدنى إلى ما هو أعلى، وهذا يقدره الداعي إلى الله ﷻ بتقديره، ولهذا القصة المشهورة عن شيخ الإسلام ابن تيمية المعروفة، قال رحمه الله: (**مَرَرْت أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّتَارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِي، فَأَنْكَرْت عَلَيْهِ، وَقُلْت لَهُ: إنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ**

وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعْهُمْ)[١].

فإذا كونهم يقعون دائمًا سكرانين أحسن من أن يصحوا، ويذبحوا المسلمين، أو يتعرضوا لأموالهم، أو لأعراضهم، فهذه حكمة من الداعي، كذلك في مخالطة المرء في تطبيقات الحكمة مع والده، كثير من الإخوان، والشباب لا يحسن دعوة والديه، مع والده لا يطبق قول الله ﷻ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، لا يحسن، يأتي كأنه أعلى من والده، لا. كذلك مع أهله لا يحسن ترقية الأهل من شيء إلى شيء، لا يحسن تحبيب الخير إليهم.

لابد للدعوة من حكمة، أي: أن تنظر في الدعوة إلى الغاية المحمودة منها، ليس كل من يدعو في كل مكان هو الحكيم، لا، قد يكون في مكان تؤخر الدعوة، ولا يقال شيء، يكتفى بالخلق الحسن، يكتفى بالتودد، بالتراحم، بالصلة، ويكون هذا فيه رسالة، وفيه دعوة.

إذًا: الداعي إلى الله ﷻ بعد الإخلاص، والعلم لابد أن يكون حكيمًا، فإذا كان حكيمًا، كان على هدى وخير.

الصفة الرابعة - الخلق والصفات بالمعنى العام شيء واحد - الخلق، والصفة الرابعة في الداعية الفرد: أن يكون الداعية إلى الله ﷻ متنزهًا عن الهوى، الهوى مركب لذيذ، إذا طرأ الهوى، يُحَسِّن، ويأتي الشيطان، ويُحَسِّن للعبد أن يركب الهوى، فمعنى الهوى ما تشتهيه دون نظر في حكم

---

(١) انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢٠٧)، وإعلام الموقعين (٣/ ٧، ٨، ٣/ ١٥١)، وموسوعة كتب ابن القيم (٣٩/ ٣)، والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٩).

الشرع فيه، تهوى هذا الشيء، فتفعله.

الداعية إذا كان صاحب هوى، فإنه لا يصلح للدعوة، ويفسد أكثر مما يصلح.

كيف يكون صاحب هوى؟ عندما لا ينظر في الحكم الشرعي في فعله، بل ما بدا له من الحسن في أمور الدعوة يدعو إليه، وما بدا له من السوء يتركه، بحسب المصالح التي يقدرها، بحسب رأيه الخاص، دون عرض على الشريعة، ولذلك كل صاحب هوى، فهو مفسد في الدعوة، والدعوة لا تصلح مع الهوى؛ لأن الدعوة تعبد، والتعبد رفع لداعية الهوى، والهوى عكس ذلك: إبقاء لداعية الهوى. خذ أمثلة على الهوى الذي يأتي في حال الدعوة، وأنت تدعو في حال الدعوة، أنت تكلم بشرًا، تحتاج إلى إقناع، تحتاج إلى حوار، تحتاج إلى آلات تدعو بها، قد يأتي، وأنت تحاور ذاك، يرد عليك، فإذا رد عليك، أو عاملك معاملة غير حسنة، قد يكون من في بيتك، قد يكون ابنك، وقد يكون والدك، وقد يكون زوجك... إلى آخره، هنا هل تنتصر للشرع، أو تنتصر للهوى؟ فإن خلطت بينهما، صارت المسألة هوى، ولهذا خذ من أمثلة الإخلاص، والتنزه عن الهوى في الأمور قصة تنشط للحافظ ابن رجب عبدالرحمن بن أحمد بن رجب زين الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب كتاب (جامع العلوم والحكم) مرة كان في المسجد في أصحابه، كانوا يقرؤون عليه، فمرت بهم مسألة، ففصل فيها الكلام، وذكر كلام العلماء، ورجح، وأصل، وفصل بكلام بديع حسن، سر به طلابه، وتلامذته. قال أحد تلامذته: فذهبنا مع شيخنا إلى فلان القاضي، وطرحت المسألة، فسكت شيخنا، ولم يتكلم فيها أولئك بكلام حسن، ولم يفدهم

شيخنا بما أفادنا، وكنا نود لو أن تكلم - يعني: من رغبة الطالب، ومحبته لشيخه - أن لو تكلم حتى يظهر فضله على غيره، فلما انصرفنا، قلنا له: يا شيخنا، فصلت لنا في المسألة صباحًا، ولما كان في المجلس، وعرضت لم تتكلم، فقال: أما مجلسنا في الدرس، فذاك يراد به وجه الله، وأما ذلك المقام مع العلماء، فذاك يراد به الذكر، وأخشى أن يغلبني الهوى.

هذه من يتخلص منها؟ هي تحتاج إلى قصر النفس على حكم الشرع؛ ولهذا كثير من الناس ما يقصر نفسه على حكم الشرع، يتساهل في لفظة، يتساهل في عمله، يتساهل في حبه، وبغضه، يتساهل في موالاته بحسب آرائه الشخصية. لا، هذا لم يتخلص من الهوى، وفي أصحابه نوع من تأليه الهوى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

إذًا: الهوى يجب التخلص منه للداعي، والداعي إلى الله ﷻ المتعبد الصالح المخبت المنيب لا بد أن يجاهد نفسه في أن يرفع الهوى عن نفسه، فلا تكن دعوته انتصارًا للنفس، ولا رغبة في الترفع، قد يكون مخطئًا، يخطئه جاهل، ويكون الجاهل مصيبًا في ما رد عليه. اليهود قالوا للصحابة - كأنهم أهل التوحيد - فقالت اليهود للصحابة ماذا؟ قالوا لهم: **نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْرِفُهَا لَكُمْ، قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ»**(١)، اليهود الذين هم أهل الشرك، وأهل عبادة غير الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وابن ماجه (١٠٨٢١)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٦).

انتقدوا الصحابة في مسألة، ولأن الصحابة كانوا يقولون: ما شاء الله، وشاء محمد. يعني: أنتم تنددون يا صحابة رسول الله ﷺ، نقضوهم بعمل، هذا النقد جعل النبي ﷺ لا يأخذ الحق ممن جاء به؟ لا. وفي هذا حكمة، بعض الناس يقول: كيف يقع هذا من الصحابة؟ وقع للتعليم، لتعليم الأمة، ومسائل الألفاظ مرت بمراحل في أحكامها.

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد على هذا الحديث قال: فيه مسائل: (المسألة الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى)[١] المرء إذا كان له هوى أعمل ذهنه، وتأمل، وتدبر ليخرج على المقابل أشياء لماذا؟ لأنه صاحب هوى. صاحب الحق هل يكون مثل الذي أمامه صاحب هوى، أو يستسلم للحق؟ بل يستسلم للحق مثلما قال: «**قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**» بل إذا كان شيء جاءنا ممن هو صاحب هوى، نعرفه ضدنا، صاحب هوى، لكن يجب أن نصحح؛ لأن الداعية إلى الله ﷻ، وصاحب المنهج الحق هو أحق بالحق، فإذًا: الترفع عن الهوى سيجعل المرء لا يترفع عن الحق، ولو جاء به من جاء، ولا يجعل الحق إذا جاءه من صاحب هوى يجعله سببًا في القدح في الآخر، بل يقول: نعمة، جاءني الحق، ولو من عدو؛ لأن القصد التعبد، والقصد التذلل لله ﷻ، وتأمير السنة على النفس قولًا، وفعلًا.

هذه بعض الصفات المهمة، أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته يطول الكلام عنها، لكن هذه بعض الصفات المهمة المتعلقة بالفرد.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ١١٣).

نتتقل إلى القسم الثاني، ما هو؟

أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته :

ويعنى بالداعي: الجنس - جنس الدعاة -، يعني: مجموعة الدعاة، أو الجماعة.

الجماعة أو المجموعة إذا نظر إليها من جهة شرعية، فالأحكام على الفرد تنطبق على الجماعة؛ لأن الجماعة، والفرد الكل مطالب بالعبودية لله ﷻ، فإذًا: الأصل العام في الدعوة في ما يوصف، أو يتخلق به الفرد هو نفسه ما تصف به الجماعة، لكن يختلف في التطبيقات؛ لأن تطبيق الفرد يختلف عن تطبيق الأخلاق، والصفات على الجماعة.

إذًا: فهذا أصل عام في أن الجماعة الداعية إلى الله ﷻ، والمجموعة يجب أن تكون متحلية بالأخلاق، والصفات التي ذكرنا، وأن تكون قاصدة التعبد لله ﷻ. ونقدم بمقدمتين كما قدمنا في الدعوة الفردية بمقدمتين:

أما المقدمة الأولى، فإن ما يسميه الناس الآن بالجماعات الإسلامية، والأحزاب الإسلامية، ونحو ذلك، هذه من جهة الوجود محدثة، يعني: ما وجدت على هذا النحو إلا في هذا العصر، وأما قبل ذلك، فلا توجد جماعة بالمعنى الخاص، بل توجد مجموعات، وفرق ما بين الجماعة، وما بين المجموعات، هذا من حيث الحدوث، إذًا: هي حادثة، وليس لها مثيل في السابق.

المقدمة الثانية: أن الجماعات المعاصرة اتخذت في دعوتها أشياء محدثة - أيضًا -، ومنها - وهو أهمها - التحزب، والتحزب ما معناه؟ معناه

أن يكون، ولاء، وبراء ومحبة، وبغض على مبادئ الحزب - مبادئ الجماعة -، كيف؟ يعني: تأتي - مثلًا - جماعة من الجماعات من وافقها في أقوالها، فهو الحبيب الذي تعطي له حقوق المسلم، ومن خالفها، فهو عدوها، هذا مظهر حزبي مخالف للسنة، وللشرع، حينما قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بوصف الإيمان ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فالمؤمن للمؤمن ولي ينصره في الحق، ويواليه في الحق، وإذا جاء غير الحق، فهو ضده، جاء رجل إلى أحد أئمة السلف من القرن الثاني - أظنه عبدالرحمن بن مهدي، أو وكيع -، فقيل له يا فلان إنك تقع في أناس بكلام عسير، وتحذر الناس منهم، فكيف يكون هذا، والنبي ﷺ نهى عن الغيبة، فقال: (يا هذا إني لهم أعظم من آبائهم، وأمهاتهم ألم تر كيف أحذر الناس منهم؛ حتى لا تجتمع عليهم أوزار الناس، ومن تبعوهم، فتكثر أوزارهم) انظر النية الصالحة.

أيضًا في الرد هنا قال: أنا أرد. لماذا؟ لأن لو تركت المسألة هؤلاء الآن تزداد عليهم الأوزار، هذه نظرة محبة، ليست نظرة حزبية، لكن يأتي النظرة الحزبية في مثل هذه الأشياء، نقول: فلان لا بد يسقط. هذه نظرة حزبية، يسقط فلان، ويرتفع فلان... إلى آخره، هذه النظرة غير شرعية هنا، هذا الإمام نظر نظرة شرعية من محبته، ومن خوفه على المؤمن بمقتضى الولاية العامة، فحذر، فحذر عبادة، لكن دافعه للتحذير ألا يتبع هذا الذي خالف الحق أناس، فتعظم عليه الأوزار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ**

أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[١]، هذه مقدمات.

إذًا: الحزبية لها مظاهر، من مظاهرها الموالاة والمعاداة على الحزب، ليس على الدين، ليس على الديانة، بل على الحزب: وافق فلان، اتركه، فلان من الإخوة، فلان ليس من الإخوة، ما هذا؟ فلان من الإخوان، فلان ليس من الإخوان، ما هذا الكلام؟ هذا مسلم في قلبه توحيد، في قلبه عبادة الله وحده لا شريك له، في قلبه محبة الله ﷻ، ومحبة رسوله ﷺ، بأي حجة تبغضه؟! لأنه منتمٍ، أو ليس داخل الحزب، أو ليس مع الجماعة، أو لأنه يخالفك، لا، هذا مظهر حزبي؛ لذلك أهل العلم الراسخون فيه الصالحون لا يرضون بمثل هذه المظاهر.

من مظاهر الحزبية التي تكون في الجماعات المعاصرة: أن الجماعات تقوم على الطاعة، والشريعة في العمل الدعوي الجماعي، لم تأت بالطاعة؛ لأن الطاعة للإمام، وإنما أتت بالتطاوع؛ كما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ حينما بعث معاذًا، وأبا موسى إلى اليمن قال لهما ﷺ: **«يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا»**[٢]، لاحظ كلمة (تَطَاوَعَا) يعني: يطيع بعضكما بعضًا في الدعوة، لكن الطاعة العامة للأمير، الطاعة العامة للإمام، لكن التطاوع في الدعوة هذا مشروع.

فإذًا: المظهر الحزبي أن ثم طاعة، أن ثم أميرًا يبايع أولا، يبايع، يطاع،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٨).

يأتي هذا، ويقول: انتظر حتى يأتينا توجيه. طيب أمر دعوة الآن نريد أن ننتقل، نريد أن نحضر درس علم، حتى أن بعض الشباب ذكر لنا، حتى في حضور درس علم في صحيح البخاري أو في تفسير ابن كثير في مسجد، لابد أن يكون هناك استئذان، هذا أمر غير شرعي، هذا مظهر من مظاهر الحزبية التي لا تقر في الدعوة إلى الله في الجماعات، إذا كانت جماعة بمظهر حزبي، فلا تقر؛ لأنها مخالفة للأصول الشرعية، ومحدثة، وأنشئت مضاهاة للجماعات العاملة في الحزب الشيوعي، ونحو ذلك؛ كما هو معروف في تاريخ نشأة الجماعات في العصر الحاضر، لكن المشروع أن يكون هناك تعاون على البر، والتقوى، عندنا نصوص شرعية، معلوم أن الناس كثروا في هذا الزمن، وتكثر معهم الإشكالات، فلا بد من تعاون، لابد من ترتيب، لابد من نظام في الدعوة، لابد من اختصاصات؛ حتى يخدم كل واحد في مجاله الذي ينفع له، وينفع فيه.

فإذًا: نقول: الدعوة إذا كانت على شكل مجموعات تتعاون على البر، والتقوى، فهذا طيب، لكن لا يكون لها مظاهر حزبية.

مما ذكرنا الأخلاق، والصفات قلنا: أولًا الإخلاص، الإخلاص في حق الجماعات كيف يكون، أو في حق المجموعات؟ إذا عبرنا بالجماعة يعني: الجماعة التي هي المجموعة، أما الجماعة التي هي حزبية، فإن هذه الأشياء لا تنطبق عليها أصلًا؛ لأنها مخالفة، التحزب يخالف كل الآداب، والشرائط الشرعية.

أولًا: الإخلاص: الإخلاص أن تكون الدعوة إلى الله، لا إلى المجموعة

ولا إلى الطريقة، وتكون الدعوة إلى الحق سواء كان معك، أو مع غيرك من أهل الحق، المسألة واحدة، المقصود أن يكون مستقيمًا على شرع الله ﷻ، أن يكون متعبدًا لله ﷻ، معي، مع غيري، مع فلان، درسي يحضره خمسة، ودرس فلان يحضره آلاف، المسألة واحدة، المهم أن يعبد الخلق لربهم ﷻ، هذا المقصود.

فإذًا: من آثار الإخلاص في الدعوة الجماعية التي يتعاون فيها على البر، والتقوى ألا يحزن بأن يكون المرء معه، أو مع غيره من أهل الحق، لكن ما يكون مع أهل الباطل، أما إذا كان سينصرف لأهل الباطل، فيجب عليه أن يرده لأهل الحق، فالإخلاص هو الخلق الأول الواجب في حق الدعوة التي يتعاون أصحابها فيها على البر، والتقوى، أن يكون المراد من الدعوة هداية الفرد إلى الله ﷻ، وألا يكون المقصود ربط الشخص المدعو بهذه المجموعة؛ لأن ربط الأفراد بالمجموعات هذه تنشئ جماعات، فنقع في الأمور الحزبية المنكرة التي لا تقر شرعًا.

فإذًا: الإخلاص أن يقصد المرء، وأن يجاهد نفسه في أن يكون في دعوته للأفراد، وربطهم بهذه المجموعة لأجل هدايتهم، لا لأجل الربط التبعي، لا شك أن الفرد لا يمكن في الغالب في هذا الزمان أن يستقيم إلا بأن يوجد في بيئة صالحة، إذا وجد في البيئة الصالحة، أمكنه أن ينظر في الاستقامة من واقع العمل، فإذا كان هذا المقصود، فلا بأس، هذا أمر طيب، والوسائل وسائل مشروعة، والوسائل لها أحكام المقاصد، منافاة الإخلاص أن يقصد بالدعوة أن تكثر المجموعة، أن تزيد، أن يكون الربط بفلان وفلان، ونحو ذلك، فهذا ينشئ جماعات، ولهذا قدمت لك قول

إمام الدعوة في مسائل كتاب التوحيد: (التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه)[١].

إن الداعي إلى الله ﷻ المخلص لا يدعو إلى نفسه، ولا إلى شيخه، بل يدعو إلى الله، دعوة مطلقة إلى الله؛ لتعبيد الخلق لربهم ﷻ، أما السنة، كيف تكون السنة؟ ذكرنا أن الجماعات الضالة ضلت ودعت إلى خلاف السنة، وصارت شر المسلمين؛ مثلما ذكرنا الخوارج[٢]، كيف كان ذلك؟ لأنهم دعوا إلى غير السنة. كيف نشأ ذلك؟ لأنهم دعوا إلى غير السنة. كيف بدأت الدعوة إلى غير السنة؟ تبدأ المجموعات في التساهل، وهذا شيء رأيناه فيما مر علينا من الزمن في الخمسة والعشرين سنة الماضية، رأيناه هناك مجموعات كانت صالحة، وبدأت صالحة، ثم تساهلوا مع الذي يخالف السنة، بينهم يخالف السنة في الكلام، يعني: يقع في العلماء، يقع في الأمور السياسية بلا ضوابط شرعية، إذا سمع سُبةً نشرها، دون تثبت، يربي على غير السنة، يربي على قيل وقال، صارت المجموعات بدلًا من أن تكون داعية إلى الله ﷻ على بصيرة، وعلى إخلاص، وعلى سنة، تحولت إلى أهداف أخر في أصحابها، تحولت عن السنة، وهذا صار بالتساهل، ولو أن المجموعة أخذوا على يد المخطئ من أول الأمر، وقالوا: الحق كذا، لا تخالف. ونصحوه، ووعظوه من أول يوم، لما زاد الشر، لكن يتساهل، ويضحك، . . . وإلى آخره، وتزيد الأمور، تزيد حتى تكون أشياء غير محمودة، هذا لا شك يخالف المتابعة؛ لأن المتابعة العامة للسنة

---

(١) سبق عزوه (ص ١٢).

(٢) انظر (ص ١٠)، وما بعدها.

ومنهج السلف الصالح في ألا يخرج المرء في المجموعة عن عقيدة السلف الصالح - عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية -، هذا أمر مقصود شرعًا، أما أن تكون المجموعة مجموعة تدعو إلى الله، ثم يحدث بينها افتتان، فتضل المجموعة، أو يحصل بينها نزاع في مسائل اتباع طريقة السلف الصالح، والعقيدة الصحيحة، لاشك أن هذا يحدث مفاسد كثيرة كما رأينا.

إذًا: من أول الأمر ينتبه للسنة، السنة يبدأ واحد قد يكون لسانه جيدًا، وقد يكون عنده ثقافة عصرية ثقافة سياسية، فيعلل بأشياء غير جيدة، مثلًا: أنا كنت في أمريكا، أحد الإخوة من أحد البلاد العربية ذكر شيئًا، قلت: هذا ما عليه إثبات، قال: أنا آتيك بالإثبات، وأتاني بملف مقالات في مجلات، طيب هل هذا دليل؟ قلت له: نحن تعلمنا في منهج أهل السنة، والجماعة أن وضع الأدلة، والبراهين كيف يكون، البرهان العاطفي ليس برهانًا شرعيًا، البرهان العقلي ليس برهانًا شرعيًا، لابد أن يكون البرهان شرعيًّا، تأتي لي بقول فلان، وفلان مما نشر في المجلات، وهم لم يطلعوا، وإنما سمعوا، هذه ليست براهين.

إذًا: تمر مثل هذه الأشياء على مجموعات، وتصير ثقافة في المجموعة، ثم ينشأ عن المجموعة جماعة، ثم تبدأ تتحزب، ثم تخرج إلى شيء آخر؛ لهذا تجد بعض الجماعات الإسلامية في بعض البلاد كانت واحدة، فأصبحت مئة، أو أصبحت أكثر، لماذا؟ لأن المجموعات الصغيرة، الأسر الصغيرة بدأت فيها الأقوال، حتى أصحاب تلك الجماعات يقولون: لابد من وأد الأقوال هذه، والجيوب في مهدها. ونحن نقول: نعم، لابد

من وأدها في مهدها ، لكن على منهج السلف الصالح ، ليس وأدًا في مهدها بقاء الجماعة الحزبية العام ، لا أن تؤد في مهدها لأجل ألا يخرج أصحاب هذا القول بأقوال جديدة ، وبأفكار . الآن كم عندنا من فكرة؟ كم عندنا من طرح؟ عندنا عشرات الطروح الجماعية الفلانية ، في البلد تكون مجموعات عشرة ، خمسة عشر ، ثم بعدين يبدؤون ، ويزيدون ، يصيرون خمسين ، مائة يبدؤون بفعل شيء يتحدث عنه الناس ، ربما تحدث عنه العالم ، كيف بدأ ذلك؟ لابد من علاجه .

إذًا : فالمسؤول الأول هي المجموعة الأولى ، وعليها التبعة في ألا يخرج من بينها من يخالف النهج الصحيح ، وعليهم حساب أمام الله ﷻ ، يرون المخالف - لأن بداية الأمر إذا كانت سهلة تتوسع ، ثم بعد ذلك يقع في أمور كبيرة - ، وهم ينقدون ذلك ، طيب ، لماذا تساهلتم من البداية؟ كيف نحل الأمر بعدما توسع؟ وهكذا في أشياء كثيرة .

إذًا : فمتابعة السنة ، نهج السلف الصالح ، العقيدة الصالحة لابد منها .

ثانيًا: العلم :

المجموعات لا بد أن تربي أصحابها على العلم ؛ لأنه لا دعوة إلا بعلم ، كيف يدعو إلى غير علم؟ يكون شاب مستقيم ، ويدعو ، ويتنقل ، وحريص ، وهو غير فاهم لمعنى كلام الله ﷻ ، وكلام رسوله ﷺ ، لايصلح ذلك ، وقد قدمنا ما يكفي في هذا .

ثالثًا: الحكمة :

إذا كان الفرد يجب أن يكون حكيمًا ، فحكمة المجموعة أولى وأولى ،

لماذا؟ لأن المجموعة أثرها أعظم، فإذا فقدت المجموعة الحكمة، لم تكن الغائلة على فرد، وإنما يقال: هذا الشباب. ويكونون مخطئين، لكن الخطأ نسب لجميع الشباب، لجميع الدعوة، وهذا لا ينبغي.

طبعًا يجب أن نعرف جميعًا أن بعض الناس يظن أن الشباب الإسلامي الموجود الآن، والالتزام بالشرع أنه نتاج الجماعات الحزبية، هذا غلط.

الجماعات التي دعت لم تنتج هؤلاء الشباب، الصحوة التي تسيء - مع مؤاخذة في اللفظ - تحتاج إلى صحوة، الصحوة هذه، أو الشباب الملتزم أعظم من الجماعات، وأوسع، فلا يصلح - أيضًا - أن يصنف الشخص، يقال: هذا تبع الجماعة الفلانية، الصحوة، أو الشباب أوسع من الجماعات الثلاث، والأربع، والخمس الموجودة، أوسع وأوسع وأوسع؛ ولهذا في الوقت رأينا، ورأى كل محب للدعوة، وكل متفان فيها، وكل راغب أن يعلو منار الإسلام، وأن تعلو راية الإسلام، يرى في نفسه لزامًا أن يكون مع هؤلاء الدعاة، ومع هؤلاء الشباب فيما يصلحهم، وفيما يقوي راية الإسلام، لا فيما يضادهم، ولكن فيما يصلحهم؛ لأن الشباب لا يعرفون هذه الأسماء والجماعات، وإنما هذه فئة قليلة ضمن الصحوة التي تسمى صحوة.

إذًا فنقول: هذه مسألة مهمة في أن الحكمة لابد منها، وكل مجموعة لابد أن تنظر إلى الحكمة في تصرفاتها، أن تنظر للغايات المحمودة منها، الغايات المحمودة من التصرف، كم حرمنا من وسيلة دعوة بسبب جهلة! وكم وكم صارت مفاسد بسبب جهلة! ونصح ونصح ولكن لا سبيل، كيف نصل؟ الواجب على هذه المجموعات، الواجب على من يرعاهم، على الداعية فيهم، على طالب العلم فيهم، على إمام المسجد فيهم، إذا كان

يدعو في حيه، الواجب عليه أن يتقي الله ﷻ في نفسه، وفي من معه في ألا يخرجهم عن مقتضى الحكمة، في أن يكون تصرفهم موافقًا للغاية المحمودة من الدعوة، والأمر في الجماعة، والمجموعة أعظم من الأمر في الأفراد.

أما الكلام عن الهوى، وتطبيقه على المجموعات، فهو كلام طويل، ولنا فيه شجون وشجون وشجون.

قل أن رأيتُ - والله أعلم بالحقائق، وأبرأ إلى الله من القول بلا بينة - قل أن رأيت مجموعة تتخلص من الهوى تمامًا، وهذا سبيل الإنسان، كل إنسان لابد عنده شيء، كل واحد يعرف من نفسه أن عنده نوع هوى؛ لأن الشيطان يغذيه، له هوى في شهوات، له هوى في تصرفات، له هوى، لكن المرء كلما كان أسلم من الهوى، كان صادقًا في دينه، والصدق عماده التخلص من الهوى، فقد سئل بعض السلف: من الصادق؟ قال: من تخلص من الهوى. ولا شك أن الذي يتخلص من الهوى صادق.

فإذًا: التخلص من الهوى في المجموعات واجب، ولابد على من يرعاها أن يجعل نفسه، ومن معه بريئين من الهوى ما استطاعوا.

مظاهر البراءة من الهوى ألا يكون مقلدًا في الأحكام، فلا يقول: فلان من الجماعة الفلانية، فلان ما فيه خير. طيب، كيف حكمت؟ سمعه من فلان.

إذا قال واحد قولًا انتشر في الشباب، وانتشر في الناس، هل هذا من مصلحة الدين؟ هل يجوز شرعًا؟ هل هذا مقتضى الولاية؟ شخص يقول كلامًا ينتشر: فلان فيه كذا، يسبونه مسبات عظيمة، هل هذا يجوز؟ طيب

من حق المسلم على المسلم أنك إذا سمعت فيه عيبًا، أو رأيت منه لا تنشره، أن تنصحه، هذا حقه عليك، من الحقوق العامة أن تنشر الخيرات؛ لأنك إذا نشرت الخير، زاد؛ لذلك إذا قلت: فسد الناس. فأنت أفسدتهم؛ كما جاء في الحديث: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[(١)]؛ لأنك إذا قلت: فسد الناس، والله الناس فسدوا، والله فيه كذا، الحريم فيهم كذا، الشباب صار فيهم. طيب أنت الآن عندك واحد في البيت تزيده، تقول: إذًا: المسألة فاسدة، صار كذا وكذا، وصار كذا، يعني: لا ينبغي، بل لا يجوز أن يعاني المرء في الألفاظ، يجب أن يتثبت منها، فالتقليد في الأحكام، وفي إطلاق الألفاظ هو سبب عظيم من أسباب الهوى.

والهوى يكون في الأحكام، تأتي مجموعة واحدة، يتلقى كلمة، ينشرها في مجموعة، نشر في الشباب، لا أصل لها، وإنما هي ظن، وبعض الناس يظن ظنًا، فيتحدث به، فينقله الثاني على أنه ثابت: «والله حدثني ثقة». وهو أصله ظن، أصله استنتاج، هو استنتاج، والاحتمالات كثيرة، المستنتج ما ينبغي أن يحصل على احتمال واحد، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «**لَا تَظُنَّنَ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي امْرِئٍ مُسْلِمٍ سُوءًا وَانْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا**»[(٢)]، لماذا؟ لأن الاحتمالات كثيرة، تجعل الاحتمال واحدًا بالمقصود بالكلام، ثم احتمالًا ثانيًا، ثم احتمالًا ثالثًا، كذلك في التصرفات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩)، وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (١/ ٥٠)، والمحاملي في أماليه (١/ ٣٩٥).

فإذًا: المسلم المؤمن الصادق في عبوديته لله ﷻ، من يريد أن يتخلص من الهوى يجب أن يبتعد عن التقليد في الأحكام على الأشخاص، هذه مهمة في الأشخاص جميعًا؛ حتى لا تقلد، تسمع كلمة نشرت، سمعت مظهرًا من المظاهر المنكرة نشرته، لا، هذا التقليد يجب أن ينبذ؛ لأنه سبب من أسباب الهوى، بل نشره من الهوى إذا لم يتثبت فيه، ويكون الحكم الشرعي أنه لا بأس بنشره، الأصل ألا تنشر المفاسد، تنشر الخيرات؛ حتى تنتشر، وإلا تضعف قلوب المسلمين بذلك.

هذه كلمات موجزة في هذا الموضوع الكبير العظيم (أخلاق الداعي إلى الله، وصفاته)، وهذه الكلمات أظن على وجازتها، وعلى ضعف مادتها إذا تؤملت ربما تكون نافعة، لكن أرجو من كل أخ منكم يستمع لهذا الكلام أن يقف بينه، وبين ربه بمحاسبة لنفسه؛ لأن المسألة عظيمة، مسألة الدعوة اليوم عظيمة؛ مثل ما جاء في الحديث قال: «**هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»[١].

طالب العلم داع إلى الله، هو قدوة، يجب أن يعرف أنه قدوة، تصرفه لا يحسب على نفسه، وتصرفه على المجموعة، جاء - مثلًا - ذات مرة واحد أوقف سيارته أمام باب، هو شخص ملتحٍ، أثار الصلاح تبدو عليه، هل الشريعة قالت لك: تقف أمام البيت؟! ألم تنهك عن ذلك؟ جاء الرجل ليطلع لعمله صباحًا، وتأخر نصف ساعة، سبب له مفاسد؛ لأجل هذا

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤).

وقف هذا الموقف، قال: أنا بعد قليل سأخرج. هل هذا خلق داع؟! هل هذا خلق مسلم، فضلًا أن يكون ملتزمًا؟!

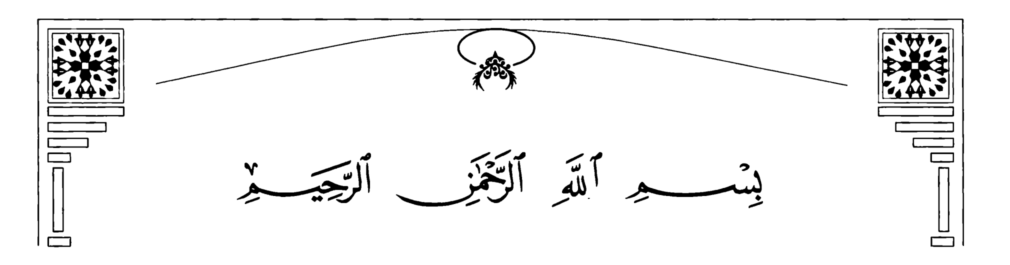
إذًا: فالمسألة قدوة، هذا نظر، طيب هذه صفتهم، هذا فهمهم، هذه سلوكياتهم، الشريعة، والخلق، والدين ليست في مسائل محدودة، المسائل التي تطبقها على نفسك أقل شأنًا في أجرها، وفي ثوابها من الأمور المستحبات، أو الأخلاق مما تعامل به غيرك؛ لأن حقوق الناس على المشاحة، لا يسمح، ويوم القيامة الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر، وهو الشرك بالله، وديوان مبني على المسامحة، وهو ما بين العبد، وبين ربه، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو المبني على المشاحة، وعلى أخذ الحقوق، وهو ما بين العبد وبين الخلق.

إذًا: المسألة فيها حساب، المسألة قدوة، المسألة أنت تنشر الدعوة بقولك، هل كان الصحابة ﵃ أصحاب كلام؟ الصحابة أصحاب مؤلفات مثلنا محاضرات دروس كل يوم وجلسات؟ لا، لكن نشروا الدين، نشروا الخير، لِمَ؟ لأنهم كانوا يمشون بالقرآن، من رآهم ذكر الله ﷻ برؤيتهم، يذكر الله ﷻ برؤيتهم، تراه تذكر الله ﷻ من حسن تصرفه، من حسن معاملته، من رحمته بالخلق، من بذله، ... إلى آخره، من تخلصه من الهوى، وهذا مما ينبغي للجميع العناية به.

أسأل الله ﷻ أن يجعلني، وإياكم من الذين حباهم بالدعوة إليه، وممن أصلح ظاهرهم، وباطنهم، اللهم أصلح ظاهرنا، وباطننا، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، اللهم نور قلوبنا بالإيمان، اللهم نور قلوبنا بالوحي

يا أكرم الأكرمين ، أسألك اللهم أن تجعل أقوالنا ، وأعمالنا على ما تحب ، وترضى ، ونستغفرك اللهم مما تسخط ، وتأبى ؛ إنك سبحانك جواد كريم ، اللهم اغفر لنا جميعًا ، ومنَّ علينا بالقول الصالح ، وبالعمل الصواب النافع ؛ إنك كريم جواد معطاء ذو الفضل والإحسان، اللهم منَّ علينا ؛ فإنك أجود الأجودين ، وأرحم الأرحمين ، ونسألك اللهم أن توفقنا ، أن توفق ولاة أمورنا لما تحب ، وترضى ، وأن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ، ويعافى فيه أهل المعصية ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعى فيه إلى الحق ؛ إنك سبحانك جواد كريم ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد .





محاضرة: «منهج أئمة الدعوة في الدعوة إلى الله ﷻ» وقد قام فضيلته بإلقائها في جامع إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب بالرياض، وذلك في يوم الأربعاء الموافق ١٢/١/١٤٢٥هـ

الحمد لله رب العالمين، هو ولي الصالحين، والمعين على نشر الحق، والهادي إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أُعطي شكر، وإذا أُبتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الثلاث عنوان السعادة، من إذا أعطاه الله ﷻ منحًا ونعمًا في أمر دينه، أو أمر دنياه، قابلها بالشكر، أو ابتلاه في نفسه - إما بابتلاء بدني، أو بابتلاء في ماله، أو بابتلاء في سمعته -، فإنه يصبر، ويحتسب، وإذا أذنب - وكل ابن آدم خطاء -، فإنه يستعجل، ويستغفر: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، أسأل الله ﷻ أن يجعلنا جميعًا ممن

تعلم العلم، فعلمه، وعمل به، وسار على نهج أئمته، وأعلامه.

ثم إن هذه المحاضرات التي تقام في هذا الجامع لاشك أنها تستحق - ممن أعدلها، ورتب لها، وصبر على ذلك - الشكر، والتقدير منا جميعًا؛ وذلك أن الشُبه والطعن في هذه الدعوة التجديدية السلفية الإصلاحية التي قامت في هذه البلاد في القرن الثاني عشر كثر، كثر الطعن، وكثر اللمز فيها بما ليس عند أصحابه من العلم ما يمكنهم من ذلك، ولا من الأناة، والتبصر ما يجعلهم بريئي الذمة فيما يذكرون، ويتحدثون به.

وليس هذا بغريب، فما أشبه الليلة بالبارحة، فأول ما قامت الدعوة كثر الطعن فيها من قِبل خصومها، فيما حول هذه البلاد، وفيما بعد.

واليوم - كذلك - يتكرر الأمر، والطعن فيها عالمي، كما أن الطعن فيها يكون أحيانًا محليًّا، فجاءت هذه المحاضرات، والندوات في هذه السلسة المباركة للقيام بواجب الإيضاح، والبيان عن هذه الدعوة السلفية الإصلاحية المحمدية، التي قام فيها علماؤها باتباع السنة في ما يقولون، وما يتركون في أمر الدعوة، ولم يأتوا في مسألة إلا ولهم فيها دليل على ذلك، ولم يقولوا بقول - لا في أصول الدين، ولا في فروعه -، إلا ولهم عليه في ذلك الدليل.

ولذلك كان من الواجب أن ينبري من يدافع عن هذه الدعوة؛ قيامًا بالواجب، ووفاءًا لهؤلاء الأئمة، الذين نصروا دين الله ﷻ، وجاهدوا في الله حق جهاده.

وقد قام بهذا الواجب من رتبوا لهذه المحاضرات، والندوات، فأسأل

الله ﷻ أن يجزيهم خيرًا، وأن يجمعنا وإياهم جميعًا مع أئمة هذه الدعوة، وعلماء الإسلام، والصالحين مع السلف السابقين في جنات عدن؛ إنه سبحانه جواد كريم، وهو ولي الإحسان، والفضل، اللهم آمين.

سبب تسمية علماء الدعوة بأئمة الدعوة:

وهذه المحاضرة هي في منهج أئمة الدعوة في الدعوة إلى الله ﷻ، وكثيرًا ما يأتي سؤال في سبب تسمية علماء الدعوة بأئمة الدعوة، وهذا سؤال قديم معروف، يتردد بين الحين، والآخر.

والإمام هو - كما هو معروف - المُقتدى به من الناس، سواء أكان الاقتداء في الخير، والهدى، أو كان الاقتداء في ضده، فللحق أئمة، وللضلال أئمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال ﷻ في أئمة الضلال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وكذلك على مر العصور من كان مقتدى به في بلده، أو في عصره، أو في محلته، وأثر ذلك في الناس، فإنه إذا كان على ما كان عليه الأئمة، فإنه يُقال له إمام؛ بحكم الاقتداء، وقد يكون له من الإمامة الحقة أوفر الحظ، والنصيب، أو قد يكون دون ذلك، بحسب الحال.

المقصود بالدعوة:

والمقصود بالدعوة هذه الدعوة الإصلاحية، التي قامت في هذه البلاد في القرن الثاني عشر من الزمان، فـ(ال) فيها للعهد، فأئمة الدعوة ليست (ال) فيها للجنس - جنس الدعوة -؛ لأن دعاة دعوة الإسلام كُثر، وإمام أئمتها محمد بن عبد الله ﷺ، ولكن الدعوة هنا (ال) فيها للعهد الحضوري

المعروف؛ ولهذا يقول بعض العلماء في ذلك: أئمة هذه الدعوة، منهج أئمة هذه الدعوة، يعني: الدعوة المعروفة؛ حتى يوضح الفرق ما بين الدعوة بإطلاق، والدعوة السلفية التجديدية.

أما أئمة دعوة الإسلام، فهم صحابة رسول الله ﷺ، ومن سار على نهجهم من الأئمة - أئمة التابعين، والأئمة المتبوعين -، هكذا إلى زمننا الحاضر، فأئمة هذه الدعوة الإصلاحية الذين سنتحدث عن منهجهم هم بعض أئمة دعوة الإسلام، أئمة دين الإسلام، الذين اقتدى بهم الناس في الخير، ونفعوا البلاد والعباد ممن حولهم، وممن بعدهم.

والمنهج يُحرص عليه دائمًا؛ لأن المنهج أقعد في النفوس، وأقبل في الفهم؛ لأن التفريعات قد لا تكون مستحضرة دائمًا، لكن المنهج يُستحضر، فلذلك إذا كان عند المسلم قواعد عامة يفهمها، ويرجع إليها، فإنها ستكون أسهل له في رد الشبه، وقبول الحق، وفي فهمه؛ لاختصارها، وعظم فائدتها.

ولهذا يُذكر أن أحد العوام الذين فهموا هذه الدعوة ناظره أحد، أو ناقشه في بلد من البلدان، فقال له: الله ﷻ يقول في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فلماذا تمنعون سؤال الشهداء، وهم أحياء؟ قال له - بحكم فهمه للمنهج، والتأصيل العام، وإن لم يكن طالب علم في نفسه - قال: (الله ﷻ قال يُرزقون، ولم يقل يَرزقون، والذي يُرزق يُدعى له، والذي يرزُق هو الذي يُدعى).

وهذا جواب سهل، ورد لهذه الشبهة التي قد يوردها بعض من لم يفهم التوحيد، لكن فهم منهج الدعوة، فهم أصول الدعوة ييسر كثيرًا في رد كثير

من الشبهة، وقبول الحق، وسهولته، وعدم التفصيل فيه.

لذلك كانت هذه المحاضرات فيها عرض لكثير من الجوانب التي يُحرص عليها في مدارستها، وفهمها.

الدعوة إلى الله ﷻ هي سبيل الأنبياء، والمرسلين، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، الدعوة إلى الله ﷻ مأمور بها أمرًا، إما إيجابًا أو استحبابًا، إما عينيًا أو كفائيًا، بحسب الحال، قال ﷻ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ [الحج: ٧٦]، وقال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾ [الشورى: ١٥]، فالدعوة مأمور بها، ومثنى على أصحابها.

المقصود بالدعوة:

والدعوة اسم عام يشمل كل ما فيه إرشاد إلى ما يحبه الله ﷻ، ويرضاه، فالدعوة إلى التوحيد دعوة، والدعوة إلى الفرائض، وأركان الإسلام دعوة، والدعوة إلى الأحكام الفقهية دعوة، والمواعظ دعوة، ورد الشبه دعوة، وتأليف الكتب دعوة، وإرسال الرسائل دعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو - أيضًا - يدخل في الاسم العام للدعوة، وإن لم يدخل في الاسم الخاص عند الاقتران؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وما فيه نصح للناس، وسعي في حوائجهم بإرشادهم، وبيان ما يحتاجون إليه دعوة.

فاسم الدعوة يشمل كل ما فيه تبليغ للدين، كل ما فيه إبلاغ لرسالة الله ﷻ، سواء كان ذلك في أمور الدين العظام، أم كان في تفاصيل الدين؛

ولذلك كان اسم الدعوة من الدعاء إلى الخير، فالدعاء إلى الخير هذا اسم عام، فكل من لديه علم - قل، أو كثر -، فعليه أن يدعو إلى الله ﷻ بحسب ما لديه من العلم التفصيلي.

أركان الدعوة:

ولكن إذا أردنا أن ننظر إلى هذه الدعوة في منهج علمي، فلا بد من تقسيم أركانها؛ حتى يُفهَم تفاصيل طريقة أئمة الدعوة في ذلك.

وفي الدعوة - كما يسمى في لغة العصر - المضمون، أو المحتوى، أو الموضوع، أي: ما يُدعى إليه، وهذا **أَوَّلًا**.

وثانيًا: تحتاج الدعوة إلى داع؛ كما قال ﷻ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]. وتحتاج ثَالثًا إلى مُخاطَب بالدعوة، وهو المدعو، وتحتاج رابعًا إلى وسيلة تُبلَّغ بها الدعوة، وتحتاج خامسًا وأخيرًا إلى منهج للدعوة.

فحقيقة الدعوة - أي دعوة كانت - قائمة على هذه الأمور الخمسة:

* **الأول**: المضمون، أو الموضوع، أو المحتوى.

* **والثاني**: الداعية.

* **والثالث**: المدعو.

* **والرابع**: الوسيلة.

* **والخامس**: المنهج.

وسنعرض لكل واحد منهم بإلماحة سريعة، مع بيان لبعض النقول عن

أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى - فيما يبين هذا المنهج.

أولًا: مضمون الدعوة:

أما مضمون هذه الدعوة، فخلاصته في تحقيق الشهادتين، هذه الدعوة الإصلاحية هي دعوة الإسلام التجديدية، ومضمونها الدعوة إلى تحقيق الشهادتين - شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله -، والعناية بالوسائل الدينية التي تعين على ذلك، ولا إله إلا الله - كما هو معلوم - معناها: لا معبود حق إلا الله، وكل معبود سوى الله ﷻ هو باطل، عُبد بالبغي، والظلم، والطغيان، والاعتداء من البشر، فالدعوة إلى عبادة الله وحده هذا هو مضمون هذه الدعوة، والكفر بالطاغوت، ومعناه: الكفر بعبادة غير الله ﷻ هذا هو مضمون هذه الدعوة.

ثم شهادة أن محمدًا رسول الله، وقد بينها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في قوله: (إن معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع)[١]. فبالتالي جمعت الشهادتان مضمون هذه الدعوة.

فمضمون هذه الدعوة، وما تدعو إليه هذه الدعوة السلفية الإصلاحية التجديدية مشتمل على هذه الأمور الستة:

الأول: الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، ووسائل ذلك المتنوعة، أو ما يؤدي إلى ذلك.

---

(١) انظر: أصول الدين الإسلامي مع قواعده الأربع (١/ ٤٠)، وثلاثة الأصول (١/ ١٩٠)

والثاني: الدعوة إلى الكفر بالطاغوت، والطاغوت هو عبادة غير الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والعروة الوثقى هي كلمة التوحيد.

الثالث: أن يُطاع النبي ﷺ فيما أمر، في جميع الأوامر، ومنها الأركان العملية في الإسلام: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، وسائر ما أمر به النبي ﷺ، أو بلغه من أمر الله ﷻ.

الرابع: تصديق الأخبار، فما أخبر به ﷺ، أو جاء في القرآن خبرًا عن الله ﷻ، فإن التصديق به من مضمون هذه الدعوة، والدعوة إليه من أصول هذه الدعوة.

والخامس: اجتناب ما عنه نهى ﷺ وزجر، فما زجر عنه ﷺ، وأخبر بتحريمه، ونهى عنه نهي تحريم، فإنه يجب الدعوة إلى ذلك؛ لأنه من دين الله ﷻ.

والسادس والأخير: ألا يُعبد الله إلا بما شرعه رسول الله ﷺ، وفي هذا السادس إبطال لجميع أنواع المحدثات في الدين، وأنواع البدع، والخرافات، وما جر إلى ذلك، البدع الاعتقادية، والعملية، والعلمية، وما جر إلى ذلك. والحديث عن ذلك واسع، وقد جاءت إحدى المحاضرات في تفصيل هذه المسائل.

فإذًا: الدعوة في محتواها بسيط، ليست دعوة تخاطب العقل الفلسفي، وليست دعوة - أيضًا - تخاطب السلوك الصوفي، وليست دعوة تخاطب الناس بأمور لا يعقلونها، أو تصعب عليهم؛ ولذلك كانت الاستجابة لها

كبيرة، ومطردة في العالم كله؛ لأنها سهلة وميسورة، وهي دعوة تناسب الفطرة؛ لأنها دعوة الإسلام الصحيح؛ لهذا كان محتوى هذه الدعوة هو تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وكما هو معلوم أن أركان الإيمان داخلة في ذلك؛ لأن أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، هو في معنى شهادة أن لا إلا الله، وبقية الأركان - الإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله... إلى آخره -، فهو داخل في التصديق بما أخبر رسول الله ﷺ، كذلك الإحسان داخل في ذلك، كذلك تفاصيل الدين داخلة فيه؛ لأن الدين إما أمر، فيجب عليك أن تستجيب له، أو أمر يُستحب لك أن تستجيب له، وإما نهي يحرم عليك أن تقتحمه، أو يُكره لك أن تقتحمه، بحسب التفاصيل، وهذا داخل فيما ذكرنا، فيجمع الدين كله.

ولن أخوض في تفاصيل المضمون، والمحتوى؛ لأن هذا سبق الكلام عليه في بعض المحاضرات، وربما يأتي المزيد في ذلك -إن شاء الله ﷻ-.

الثاني: الداعية:

لا شك أنه ليس ثم دعوة إلا وتحتاج إلى دعاة، فما يمكن أن الدعوة تقوم على واحد، أو على اثنين، أو على ثلاثة، لا بد من دعاة يحملونها، والدعوة في احتياجها إلى داعٍ هذا يقتضي أن يُهيأ الداعية ليحمل هذه الدعوة؛ ولذلك كان من أهم مميزات هذه الدعوة، ومنهجها - بخلاف كثير من الدعوات - أنها مستمرة منذ نشأت إلى الآن، وتقوى، لماذا؟ لأن فيها العناية بالداعية، وكثير من الدعوات بدأت، واضمحلت، وربما انحرفت إلى مسير آخر؛ لأن التربية الدينية العلمية الشرعية ضعفت، وصارت إلى

أنحاء شتى، فلم تُكمل المسيرة، وضعفت. حتى بعض الدعوات التي انتسبت إلى الدعوة الإصلاحية، أو للدعوة السلفية، فتجد أنها في بعض البلدان ضعفت، في بعض البلدان دعوة أنصار السنة المحمدية تجد أنها ضعفت؛ لأنها لم تهتم بالداعية، إنما اهتمت بالمحتوى، اهتمت بالمنهج، اهتمت بالأسلوب - كما سيأتي -، لكن الداعية؟ لم يخرجوا أجيالًا من طلبة العلم يحملون هذا اللواء، وإذا لم يوجد هذا الهم في أن يكون هناك من يحمل لواء الدعوة، فإنه حينئذٍ سيأتي يوم تضعف، وتضعف، وتضمحل.

بل شاهدنا أنه في بعض البلاد كان هناك علماء كبار، نفعوا الناس في زمانهم نفعًا عظيمًا، لكنهم لم يتوفروا على تخريج طلبة علم أقوياء يحملون العلم، والدعوة من بعدهم، فثبط الأمر، ورجع حال تلك البلاد كما كانت عليه؛ لذلك كان من الأشياء التي اهتمت بها هذه الدعوة إيجاد الدعاة.

والداعية من هو؟ الداعية هو العالم، الداعية هو طالب العلم، ليس الداعية هو الجاهل، من شروط الداعية أن يكون على بصيرة، أن يكون عالمًا، أن يكون طالب علم، من هم الدعاة؟ الدعاة هم العلماء، وطلبة العلم الذين يعلمون، فيدعون إلى ما يعلمونه، هناك وعاظ، هؤلاء لا يسمون دعاة، أو مرشد، هذا لا يُسمى داعية، واعظ فيما يتعلق بأمر معين في ترقيق القلوب، ونحو ذلك؛ كما كان السلف يسمونهم: القصاص، والمذكرين.

هناك كتاب لابن الجوزي باسم (القصاص والمذكرون)، وهذا كان موجودًا فيما سبق، لكن الداعية ليس هو الواعظ، الداعية واعظ، لكن

الواعظ ليس داعية؛ ولذلك اهتمت الدعوة بالعلم في الداعية، وهذا من أساسيات الداعية أن يكون عالمًا، أو طالب علم؛ حتى يكون ما يدعو إليه من محتوى هذه الدعوة يكون صالحًا صوابًا.

صفات الداعية:

أولًا: الإخلاص.

إذا نظرنا للداعية، فنجد أن رسائل أئمة الدعوة - رحمهم الله -: الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد، وفي مسائله، وفي غيرها، وفي أجوبة المشايخ - إلى وقتنا الحاضر - الاهتمام بهذا الأصل، ومن أهم الأمور للداعية في بنائه في هذه الدعوة أن يكون متوفرًا على الإخلاص؛ لأن من شرط الانتفاع بالدعوة، وانتفاع الداعي بدعوته أن يكون مخلصًا لله ﷻ، والإخلاص معناه: أن يكون القصد بالدعوة وجه الله ﷻ، وتقريب الناس لربهم - ﷻ، وتقدست أسماؤه -.

كما ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد عند حديث معاذ، وهو الحديث الذي في الصحيحين أنه لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»(١)، وفي رواية أخرى عند البخاري في كتاب التوحيد: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»(٢)، وعند مسلم في أول صحيحه: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦، ٤٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

عِبَادَةُ اللهِ ﷻ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ»[١]، قال ﵀ لما ساق هذه بعد الآية التي سبقت: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] قال الشيخ ﵀: (فيها - يعني: في الباب الآية، والحديث - التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه)[٢].

فهنا التنبيه على الإخلاص ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، **«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى»**، لا يكن الهم أن يُعجبوا بك، أو أن ينظروا إليك نظر إعجاب، بل يكون الهم هو تقريب الناس إلى ربهم ﷻ، وهذا فيه التنبيه على الإخلاص.

ادع إلى الله، لا إلى غيره، قد يدعو الإنسان إلى الله، ويدعو إلى نفسه، إلى تعظيم نفسه، كان بعض السلف - رحمهم الله تعالى - من التابعين، كان إذا اجتمع له في الحلقة أربعون قام، وتركهم؛ خشية من أن يُقدح في إخلاصه، وكان كثيرون منهم يهربون من لقاء الناس، وكثرة الناس؛ لأجل أن لا يقدح ذلك، أو يؤثر ذلك في إخلاصهم؛ فهي فتنة للتابع، وفتنة للمتبوع، والإخلاص هو الميزان في هذا الأمر.

ثانيًا: العلم.

الداعية يجب أن يتحصن بالعلم، والعلم هو البصيرة؛ ولذلك كانت مؤلفات علماء الدعوة لطلبة العلم في الأصول -وكذلك في الفروع- كثيرة، ومتنوعة، وخاصة كان هناك نوع خطاب من علماء الدعوة للخاصة من

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٨١).

القضاة، والمفتين، والمعلمين.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله في رسالة له: (ومن عرف قواعد الدين، وأصول الفقه، وما يُطلب من تحصيل المصالح، ودفع المفاسد - في أمر من أمور الأمة العظيمة التي حصلت في وقته من الفتن -، لم يُشكل عليه شيء من هذا، وليس الخطاب - في هذه المسائل، وتقعيد المسائل - ليس الخطاب مع الجهلة، والغوغاء، وإنما الخطاب مع معاشر القضاة، والمفاتي، والمتصدين لإفادة الناس، وحماية الشريعة)[١]. قد كانوا يخصونهم ببعض التفصيلات المهمة؛ لأنهم الذين سيحملون هذه الدعوة، وهذا العلم، والعلم هو الركن الأساسي الذي يحمله الداعي، فإذا كان لديه من التفصيل، والتقعيد، والفهم، فإنه يكون ناجحًا في دعوته.

فكان علماء الدعوة يحرصون على تبصير هذه الفئة من القضاة، والمفتين والمتصدرين للتدريس، والمتصدرين للدعوة، حتى إنهم ربما وضعوا التنظيمات التي تمنع من ليس أهلًا للدعوة أن يمارسها، من ذلك: قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في كلام له - لما كثر الوعاظ، والذين يتكلمون بغير دقة في علمهم -، قال: (حرصًا على المصلحة، ومنع الفوضى، فقد رأينا من الضروري وضع تنظيم كفيل بألا يتولى التدريس، والوعظ، والإرشاد إلا من كان كفؤًا، وأهلًا لذلك)[٢].

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، لفضيلة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ، الجزء الثالث، الرسالة الحادية عشرة (١/ ٧١ - ٧٢).

(٢) انظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله (١٣/ ١٦١).

وهذا لأجل الاهتمام بأن تكون الدعوة محمولة من دعاة عندهم الأهلية الكافية في الدعوة إلى الله ﷻ، فلم يكن الأمر عند الأئمة، وعلماء الدعوة أن يُفتح الباب على مصراعيه، بل كانوا يعتنون بطلبة العلم، والدعاة في تربيتهم، وتأهيلهم، وأن لا يتصدى للناس إلا من كان معتنيًا بهذه الدعوة.

ثالثًا: الامتثال للشرع، ومتابعة النبي ﷺ.

أيضًا اعتنوا بالداعية في أن يكون ممتثلًا للشرع، وتطبيق الدين، والحرص على امتثال أوامره، والتأسي بالنبي ﷺ، وبعد الداعي عن المنكرات في أموره الظاهرة، وأموره الباطنة، وأن يكون قدوة حسنة لأهله، وطلابه، ومجتمعه. وهذا فيه من النقول الكثير؛ لأن القدوة الحسنة لا تكون في قبول الدعوة إلا بالامتثال، فإذا كان هو لا يمتثل، يأمر الناس إلى شيء، ولا يمتثله، فإنه حينئذٍ يكون مضرًا بالدعوة.

رابعًا: تزكية النفس.

كذلك اهتموا بتزكية النفس، وهذه من الأصول المهمة في تربية طلاب العلم، والعلماء في تزكية النفس، والحرص على زيادة الإيمان، وتقويته، فكان قلما تجد من حملة الدعوة من الدعاة طلاب العلم في أول زمان الدعوة إلى وقت قريب أن تجد عندهم فتورًا في العبادة، أو ضعفًا في التدين، أو عدم حصول بعض النوافل لهم، كقيام الليل، والحرص على الصيام، وكثرة تلاوة القرآن، فكانوا يتنافسون في ذلك، بل كان الأكثر منهم إذا أذن المؤذن الأول، وكانوا في المساجد، وقد قاموا قبل ذلك شيئًا من الليل.

لا شك أن الزمان اختلف، وحصل بعض المتغيرات فيما يعين على مثل هذا، لكن كان من الأساسيات عندهم لحمل الدعوة أن يمتثلوا سنة النبي ﷺ فيما أمره الله ﷻ فيه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١ - ٤]، إلى أن قال: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، فالقول الثقيل هو هذا الدين، فهذا الدين، والعلم ليس بالأمر السهل.

ولما سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسألة، فأرجأ الجواب عليها - الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة - قال له بعض طلابه: هذه مسألة سهلة. فالتفت إليه، فقال: (**ليس في العلم شيء خفيف، العلم كله ثقيل، أما سمعت قول الله** ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥])[(١)]؛ وذلك لأجل أن الداعي العالم طالب العلم مُبلغ عن رب العالمين، يحتاج إلى ثبات وقوة وعلم؛ حتى يخلص من التبعة فيما يبلغه من دين الله ﷻ.

فكان من سمات الدعاة، وطلبة العلم العلماء في هذه الدعوة: أنهم كانوا أهل تعبد، وأهل صلاح، وأهل نسك، وأهل متابعة فيما يأتونه من سنة النبي ﷺ؛ حرصًا على الواجبات، وابتعادًا عن المحرمات، وكذلك حرصًا على النوافل.

خامسًا: المناصحة بينهم.

كذلك فيما يتعلق بالمناصحة كان بعضهم يناصح بعضًا، ويعين بعضهم

---

(١) انظر: أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح (ص٨٠)، وآداب الفتوى للنووي (ص١٦) وبدائع الفوائد (٣/ ٧٩٣)، وإعلام الموقعين (٤/ ٢١٨)، والموافقات للشاطبي (٤/ ٢٨٩).

بعضًا فيما يهتمون به من أمر الدين. وقد تُرِك ذلك - كما حصل بين بعض المشايخ في فترة ما -، ولكن لم يكن القصد من ذلك الهوى، بل كان الدين.

سادسًا: عفة اللسان.

كان - أيضًا - من صفاتهم التي ربوا عليها: أنهم كانوا أهل عفة في اللسان، ليسوا بأهل وقيعة؛ لذلك لم يُعرف أن أحدًا منهم وقع في الآخر، أو كان بعضهم يسيء إلى البعض في قوله، ومقاله، إلا ما ندر، فقد كانوا في ألسنتهم عفيفين ممتثلين لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢] ولقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الإسراء: ٥٣] ولقوله ﷺ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[(١)]، فكانوا لا يغتابون بعضهم بعضًا، وكذلك كانوا لا يغتابون غيرهم، فكانت مجالسهم مجالس خير، وتعليم، وهدى، حتى إنه ذُكر أن بعض مشايخ الدعوة - وهو الشيخ محمد بن إبراهيم - جاءه أحد الطلاب عنده في الحلقة، وقال له كلامًا في أذنه من الوقيعة في الناس، من كلام الناس في الشيخ، قال له: يا شيخ بعض الطلاب يقول فيك كذا، ويقول فيك كذا، ويقول فيك كذا، فقال: إذا جاء من الغد في حلقة الدرس، تعال وذكرني.

جاء وقال: يا شيخ أنا الذي قلت لك أمس كذا، وكذا، وكذا. فأمام الطلاب قال له: (ما وجد الشيطان أن يرسل أحدًا إلا أنت؟ هذا يقول: إن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

بعضكم يتكلم، ويقول كذا وكذا، وأنا لا أُبيح أحدًا منكم أن ينقل لي كلامًا فيَّ).

وهذا الأصل فيه السنة أن النبي ﷺ قال: «**لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**»[١].

فمثل هذه الأخلاق، والتربية كانت مهمة في طلبة العلم، والدعاة.

فالداعية العالم طالب العلم يكون عفيف اللسان، ما يُعرف عنه الوقيعة في فلان وفلان، هذا عمل الذين رخصت عليهم حسناتهم؛ لأنه لابد من القصاص يوم القيامة، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» **قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ:** «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[٢].

سابعًا: السمت الحسن.

من سمات التربية في الدعوة، الحرص على السمت - سمت أهل العلم-، والبعد عن الجدال، والمراء، وحرص الداعية على بيته، وأهله، وأبنائه، ومن في محلته، ومسجده، وهذه أمور يضيق الوقت عن بسطها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وقال: غريب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

الركن الثالث: المدعو.

الداعية يتوجه بدعوته إلى شيء، الدعوة متوجهة إلى أُناس، بمحتوى الدعوة عن طريق الداعية، المدعو من؟ الدعوة تخاطب من؟ لا شك أن الدعوات المعاصرة تنوعت تنوعًا كبيرًا بحسب منهج الدعوة، والهدف منها، فإذا كان الهدف من الدعوة هدفًا سياسيًّا، فتجد أن الحرص لا يكون على عامة الناس، ولا على إنقاذ المسلمين، ولا على تبصير عامة المسلمين وإنما على الخاصة، فتجد أن بعض الدعوات تتجه إلى المثقفين، تتجه إلى الطلاب، تتجه إلى الكبار، تتجه إلى الأغنياء، تتجه بحسب هدف الدعوة.

شمول الدعوة كل فئات الأمة:

دعوة الإسلام إنما هي لإنقاذ الناس من النار، والسعي بهم إلى جنة الرحمن ﷻ؛ ولذلك كان الخطاب في الدعوة الإسلامية من أول يوم متجهًا إلى الجميع، إلى الكبير والصغير، إلى الذكر والأنثى، إلى صاحب البادية، وصاحب الحضر، إلى الأعمى والبصير؛ حتى إنه عتب الله ﷻ على نبيه ﷺ أنه تصدى لمن كان غنيًا، وترك الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١ - ٢]، ثم قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٥ - ٧].

هذه الدعوة الإصلاحية أخذت بهذا الأصل، فالمدعو فيها من؟ جميع المسلمين، وغير المسلمين - وليس مخاطبًا فيها فئة من الناس -، طلبة العلم العقلاء الأذكياء؛ لأنها ليست دعوة سياسية، ليست دعوة يراد منها أشياء معينة حتى تختص ببعض أهل العقول، وإنما هي دعوة خالصة لإرشاد

الناس لما يجب عليهم تجاه ربهم ﷻ.

لهذا كان من سمات المدعوين بهذه الدعوة أن هذه الدعوة شملت كل فئات الناس بجميع فئاتهم، فتوجهت إلى المدن، والقرى، وتوجهت إلى البادية.

لهذا تجدون أن من سمات هذه الدعوة أن الخطاب فيها توجه إلى جميع الأصناف، الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسائله، وكذلك تلامذته من بعده خاطبوا العلماء في رسائل معروفة، رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي، وكان من العلماء، ورسالته لفلان، وكان من العلماء، ورسائل كثيرة في هذا الصدد، وكان بينه وبينهم مباحثات.

كذلك توجهت إلى العامة من الناس في مساجدهم، فكان يُدَرَّس في المساجد أصول تلقين العقيدة للعامة، وشروط الصلاة؛ لأن أصل الدين قائم على تصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة؛ ولهذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في رسالة له، يقول: (حصل من الناس ما لا يخفى من الإعراض، والإهمال، وعدم الرغبة، والتنافس فيما أوجبه الرب من توحيده، وفرضه على سائر عبيده، وقل الداعي إلى ذلك المذكر به، والمعلم له في القرى، والبوادي، والواجب مراعاة هذا الأصل، والقيام به، وبعث الدعاة إليه)[١].

---

(١) انظر: المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (١/ ٢٠٣).

كذلك في المساجد كان في كل مسجد مطلوب من إمام المسجد أن يجمع في كل يوم اثنين، أو ثلاثة، ويدرسهم أصول هذا الدين، أصول العقيدة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، إلى آخره.

إذًا: هذه الدعوة من أهم مميزاتها الشمول، ليست دعوة مختصة بفئة؛ لأن الهدف من الدعوة هو تحقيق الشهادتين، وهذا الخطاب فيه عام.

الرفق بالمدعوين:

من سماتها - فيما يتعلق بالمدعوين -: اللطف، والرفق بالمدعوين، وتقدير حالهم في الفهم؛ ولذلك تجد أن رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ورسائل بعض علماء الدعوة تجدها بسيطة سهلة في ألفاظها، ربما تكون ألفاظًا عامية، لماذا؟ هل هو عجز عن أن يأتوا بتصانيف العلماء، وكلام العلماء القوي الرفيع؟ لا. لكن المقصود منها أنها رسائل موجهة لمدعوين، فلابد أن تناسب فهم المدعوين، وأن تناسب قدرهم، وأن تناسب ما هم عليه من الاستقبال، والحال، والفهم.

لذلك تجد أن في بعض الرسائل عبارات من عبارات العوام، وأمورًا سهلة قد يكون الآن الذي في سادس ابتدائي يعرفها، أو الذي في ثالث ابتدائي يعرفها، لكن كان من المهم أن يؤلف علماء الدعوة في ذلك؛ لأن الخطاب في الدعوة عام، وليس خاصًا.

التواصل مع المدعوين:

كذلك من سمات هذه الدعوة: المواصلة مع المدعوين، وكانوا يتعاهدون القرى بالمواعظ بعد الصلاة، والقراءة على جماعة الناس، تجد أن القراءة

كانت متواصلة، ويُعلم القراءة - مثلًا - في رياض الصالحين، القراءة في تفسير ابن كثير، في بعض كتب التفسير، في الكتب النافعة، ثم يُعلق الإمام، أو العالم - إذا كان موجودًا - عنده يُعلق على قراءته، وهذا كان ماضيًا لأجل أن ينتفع كل يوم من يحضر في المسجد، ومعلوم أن الرجال جميعًا في ذلك الزمان يحضرون إلى المساجد، لا يتخلف منهم أحد إلا من كان معذورًا، ليس كحال هذا الزمان؛ فلذلك كان الجميع ينتفع، وكانت الرسائل للجميع، فالمدعوون ينتفعون على اختلاف أصنافهم.

الركن الرابع: الوسيلة.

الدعوة تحتاج إلى وسيلة، قبل أن نصل إلى المنهج، الدعوة تحتاج إلى وسيلة، الوسيلة لا شك أنها هي موصلة الدعوة إلى الناس؛ ولذلك كان لزامًا أن لا تُترك وسيلة مشروعة توصل الدعوة إلى الناس إلا وتُسلك، سواء أكانت وسائل حسية، أو وسائل معنوية.

وإذا استقرأنا الدعوة، ونصوص العلماء فيها، وجدنا أن الدعوة اهتمت بجميع الوسائل، لكن نرتبها:

الوسيلة الأولى: التعليم، والتدريس:

كانت المحاضرات قليلة، المحاضرات على هذا النحو قليلة، ونادرة، لكن كان العلم في حلق العلم، والتدريس، حتى كانوا في الدرعية في وقت علماء الدعوة بعد الشيخ محمد، أو في أواخر الشيخ محمد، جُعلت دار كبيرة جدًا يجتمع فيها الناس؛ ليسمعوا درس العلم؛ لأنه ربما كانت المساجد صغيرة، أو نحو ذلك، فكانت هناك دروس يومية للعلماء،

وهكذا. فكانت الوسيلة الأهم في الدعوة لتبليغ هذه الدعوة هي التعليم، والتدريس، والتعليم، والتدريس لا يُقال فيه: إنه يخاطب فئة من الناس، وهم طلبة العلم؛ لأنه كان يجلس في حلق العلم من ليس متأهلًا أن يكون طالب علم، ولكن يكون مجالسًا، يفهم بعض العلم، ويتأثر به، وهذه مما غابت الآن، الآن تجد أن حلق العلم عند المشايخ، وطلاب العلم جُل من يحضر فيها، أو الكل هم من طلبة العلم المهتمين به، لكن المجالسون لا يوجدون.

سابقًا كانت الأشغال عند الناس قليلة، واهتمام الناس بالدنيا - لأجل عدم وجود ما يُشغل - قليل، فكان الكثير يحضر، ويجلس يستمع، فيستفيدون؛ لذلك كانت حلق العلم، والتدريس مهمة جدًا، وكان من سبب أهميتها في وسيلة الدعوة أنها هي التي خرجت القضاة، خرجت طلاب العلم، والعلماء، خرجت المصنفين، فالدعوة في الواقع حُملت من أول ما نشأت إلى الآن بقوة، ولم يزل العلماء يتتابعون، وهي واضحة قوية، وقل أن تكون دعوة تستمر هذه المدة الطويلة بهذه القوة؛ لأجل توفيق الله ﷻ أولًا، وحمايته، ونصرته، ثم الاهتمام بهذه الوسيلة، وهي: وسيلة بث العلم، والتدريس النافع.

المحاضرات هذه مثل المواعظ، يتأثر بها الشخص، ويذهب، وربما كان تأثرًا إيجابيًا، أو تأثرًا سلبيًا، بحسب الحال، لكن العلم، والصبر، العلم يُنشئ فعلًا جيلًا قويًا، يحمل الدعوة، ويحمل العلم، وينفع به.

اليوم فيما نرى أن الذين أخذوا من هذه البلاد المباركة - المملكة العربية

السعودية حرسها الله ﷻ - أخذوا العلم عن المشايخ في هذا العصر، لما انفتح باب السفر، وذهبوا، ونفعوا الناس في خارج هذه البلاد بالعشرات، بل بالمئات، ما نفعوهم بالمواعظ، ولا بالتذكير، إنما نفعوهم في الحقيقة بالعلم، وتأثر الناس تأثرًا عظيمًا بذلك، وسواء أكانوا من الدعاة الرسميين، أو كانوا من الدعاة المتجولين الذين ذهبوا من طلاب العلم في دورات، أو حلق، أو ملتقيات، أو نحو ذلك، ثم رجعوا، ويذهبون بين الحين، والآخر. هذه نشرت نشرًا عظيمًا، وسبب ذلك أن أعظم ما يكون من الوسائل لنشر هذه الدعوة هو العلم، ولا غير العلم، أما إذا تُرك العلم، فإنها ستضعف الدعوة، وستنحرف؛ لأنه سيكون هناك عقليات، ومصالح، وقيل، وقال، وذهاب عن حقيقة هذه الدعوة إلى آراء أخرى؛ لذلك نؤكد على أن من سمات المنهج عندهم في وسائلهم: الاهتمام بالعلم، والتعليم، وحلق العلم، والتدريس.

الوسيلة الثانية: الوعظ، والإرشاد:

أيضًا كان من وسائلهم: الوعظ، والإرشاد، كان يوجد وعاظ، ومرشدون يُبعثون إلى القرى، والبوادي، ويعظون الناس بعد الصلوات؛ وهذا لأجل أن الناس يحتاجون كثيرًا إلى ما ترقق به القلوب، وتحيا به النفوس من التذكير بحق الله واليوم الآخر وما أعد الله ﷻ فيه.

الوسيلة الثالثة: النصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

كذلك من وسائلهم: معاهدة النصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تعلمون أن وجود طائفة، أو أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف،

وتنهى عن المنكر هي من حسنات هذه الدعوة، وما قامت به الدولة السعودية - من أول الدولة السعودية الأولى إلى الآن -، وهذه وسيلة مهمة في تبليغ الدعوة، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هذا من أهم الوسائل.

الأمر بالمعروف يشمل كل ما فيه خير للناس، والنهي عن المنكر يشمل النهي عن كل ما يضرهم، لكن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر يجب أن يكون في حقه شروط.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الأمر ما نصه - كما في تاريخ ابن غنام، وهو موجود في رسائله أيضًا -: (الإنسان لا يجوز له الإنكار إلا بعد المعرفة، فأول درجات الإنكار معرفتك أن هذا مخالف لأمر الله)[١]، يعني: الاحتياج إلى العلم في ذلك.

ويقول - أيضًا - الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر، يقول: (وأهل العلم يقولون: الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث: أن يعرف ما يأمر به، وينهى عنه، وأن يكون رفيقًا فيما يأمر به، وينهى عنه، وأن يكون صابرًا على ما جاءه من الأذى)[٢].

وهذه الاستفادة من هذه الوسيلة كانت على أشدها في الدعوة، ورُتبت

---

(١) انظر: الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، الرسالة الحادية والأربعين (١/ ٢٨٤).

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ (٨/ ٤٩).

فئات تدعو، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر - كما هو معلوم -؛ امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الوسيلة الرابعة: العناية بالكتب، والتآليف:

من وسائلهم: العناية بالكتب، والتآليف، والتأليف فيما ينفع الناس بحسب طبقاتهم هذا مهم، وتآليف أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى - ليست كتآليف العلماء الذين تصدوا للتأليف العلمي - كالذين فسروا القرآن، وشرحوا كتب الحديث، أو شرحوا كتب الفقه، أو نحو ذلك في المطولات -، لم يكن هذا هديهم في التأليف، وإنما اهتموا بالتأليف الذي ينفع، الذي يحتاجه الناس؛ ولذلك جاء كتاب التوحيد - على اختصاره - ليس له مثيل فيما سبق من مؤلفات العلماء، جمع ما تفرق في كلام العلماء، وما دلت عليه الآيات، والأحاديث في مسائل التوحيد، وكان تأليفًا سهلًا ميسورًا، وشُرح لأجل الحاجة إليه، فلم يكن من منهج أئمة الدعوة لم يكن الهدف عندهم أن يقصدوا إلى التأليف، لماذا؟ لأنهم مشغولون بأمر الدعوة، مشغولون بهداية الناس؛ ولذلك في موضع قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، قال: (وقد كتبت لك هذا الجواب في ليل، وأنا متعكر البال مما يحصل من الأمور، وإذا كان لديك الرغبة في المزيد من البحث، فليكن مشافهة). يعني: لا تكتب لي مرة ثانية، ثم بعد ذلك أجلس أنا فترة أكتب لك، وأمور كثيرة نعانيها، قد لا تهيئ الكتابة الكاملة.

فتأسيس دولة، تأسيس دعوة، ونشر ذلك هذا يتطلب أشياء كثيرة؛ فلذلك

كان اهتمامهم بوسيلة التأليف لنفع الناس بحسب الحال.

الوسيلة الخامسة: المراسلة:

أيضًا من الوسائل التي اعتنوا بها: المراسلة، المراسلة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة؛ لأنه قد يكون هناك مكاشفة في المراسلة ما لايكون في المواجهة، قد تواجه أمرًا، مثلًا تريد أن تدعو إنسانًا، أو تجلو شبهة، في المواجهة قد لا تجمع الحجج، قد لا يجتمع الذهن، وليس كل أحد يحسن المواجهة، والمواجهة - كما قيل - لها مفاجآت تشيب لها رؤوس الرجال؛ كما قاله أحد الأدباء؛ ولذلك كانت المراسلة من الوسائل المهمة، تُبعث رسالة رقيقة، فيها الرحمة بالمدعو والشفقة عليه، وتبيين الحق له.

وفي رسالة - مثلًا - لأحد الأئمة في هذا المجال في عدد من الأمور، منها رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي - لما جلا له كثيرًا من الشبه -، قال: (إني أحبك، وقد دعوت لك في صلاتي، وأتمنى من قبل هذه المكاتيب أن يهديك الله لدينه القيم، ولا يمنعني من مكاتبتك إلا ظني أنك لا تقبل، وتسلك مسلك الأكثر، ولكن لا مانع لما أعطى الله، والله لا يتعاظم شيئًا أعطاه. وما أحسنك تكون في آخر هذا الزمان فاروقًا لدين الله، كعمر ﵁ في أوله، فإنك لو تكون معنا لانتصفنا ممن أغلظ علينا)[1].

---

(١) انظر: الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ﵀، الرسالة السابعة والثلاثون (١/ ٢٥٧).

وهذه الرسائل في مثل هذا ترقق، وهي وسيلة مهمة، وأنا أرى اليوم تُركت هذه الوسيلة - وسيلة الرسالة -، وهي مؤثرة جدًا؛ لأن المتلقي لا يرى تعابير وجهك، ولا يتأثر بتصرفاتك؛ لأنه أحيانًا يحجب الحق، أو يتأثر من تصرفك: رفع صوتك، النظرة الحادة، الكلمة النابية التي قد تخرج، ونحو ذلك، لكن الرسالة فيها تأثير عظيم، فلابد من استثمارها في الدعوة إلى الله ﷻ، سواء أكانت مباشرة في الدعوة، أو فيها إيضاح لمشكلات، أو دفع شبهات، أو بيان الحق لخصوم، وهذا كثير في رسائل المشايخ.

لذلك تجد أن أكثر مؤلفات أئمة الدعوة رسائل، يعني: أكثر الموجود عندهم رسائل؛ مثل: (الرسائل والمسائل)، (الدرر السنية) كثير منها رسائل، سواء كانت نصائح، أو رسائل لأشخاص معينين، أو لولي الأمر، أو لعالم من العلماء في أشياء شتى لاهتمامهم بالرسالة.

الوسيلة السادسة: الاستفادة بالوسائل المباحة المستجدة:

أيضًا كان من وسائلهم: الاستفادة من الوسائل المستجدة إذا كانت وسيلة مباحة، وقد ظهر في أواخر زمن المشايخ - يعني: في الثلاثين سنة الأخيرة، في وقت الشيخ محمد بن إبراهيم، ثم الشيخ عبد الله بن حميد، ثم الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن عثيمين - وسائل كثيرة، اهتموا بهذه الوسائل؛ مثل: المحاضرات، مثل: الأشرطة، مثل: وسائل جمع الناس في المساجد، من مثل بعض الوسائل في النشرات، المطويات، التليفزيون فيما ينفع، الإذاعة، ونحو ذلك في أشياء كثيرة، والآن الكمبيوتر، ونحو ذلك، فهذه كلها من الوسائل المطلوبة في الدعوة.

الوسيلة السابعة: الانتقال إلى الناس:

من الوسائل: أنهم كانوا ينتقلون إلى الناس، ولا ينتظرون الناس أن يأتوا إليهم. لا شك أن الأصل في العالِم أن الناس يأتون إليه؛ ليفقههم في دين الله، ويستفتوه، لكن الناس قد لا يأتون، يحتاجون إلى من ينتقل إليهم، فكانوا يتنقلون في مناطق المملكة وفي البوادي، وحتى في السفر إلى خارج المملكة لنشر هذا الدين.

الوسيلة الثامنة: تولي المناصب، والمسؤوليات:

كذلك كان من الوسائل: تولي المناصب، والمسؤوليات إذا كان توليها سيحقق مصالح شرعية، ويدفع مفاسد، ويحقق منافع للعباد، والبلاد، ورعاية ما يحقق الخير، ويدفع الشر، وذلك في سيرتهم كثير، فإنهم تولوا من ذلك ما فيه النفع والصلاح بحسب النية والحال.

الركن الخامس: المنهج.

الأمر الخامس، والأخير هو المنهج، وما ذكرناه سابقًا يدخل في المنهج، منهجهم في الداعية، منهجهم في المدعوين، منهجهم في وسيلة الدعوة، لكن المنهج هذا المنهج العام للدعوة فيما يتصل بمضمون هذه الدعوة، وموضوعها، والمحتوى.

سمات المنهج:

أولًا: أنها دعوة متبعة، وليست مبتدعة:

من أعظم سمات المنهج: أنها دعوة متبعة، وليست مبتدعة، دعوة اتباع

لكتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون، والسلف الصالحون، وما كان عليه أئمة الإسلام؛ لذلك لايُعرف في هذه الدعوة مخالفة لنص مأثور فيما أجمع عليه الأئمة، وإنما كانوا فيما دل عليه الدليل يأخذون به، ما كان ظاهرًا في هدي السلف يأخذون به، وما اختلف فيه العلماء، فإنهم يُرجحون، ولا يعيبون على أحد الانتساب إلى مذهب معين؛ لأن الانتساب إلى مذهب ليس مذمومًا، إلا إذا كان الأمر تعصبًا لهذا المذهب.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وقاله - أيضًا - غيره من علماء الدعوة يقول: (التمذهب بمذهب من المذاهب الأَربعة سائغ، بل هو وبالإِجماع، أَو كالإجماع، ولا محذور فيه؛ كالانتساب إِلى أَحد الأَربعة، فإِنهم أَئمة بالإِجماع. والناس في هذا طرفان، ووسط: قوم لا يرون التمذهب بمذهب مطلقًا، وهذا غلط. وقوم جمدوا على المذاهب، ولا التفتوا إلى بحث. وقوم رأَوا أَن التمذهب سائغ لا محذور فيه، فما رجح الدليل مع أَي أَحد من الأَربعة، أَو غيرهم أَخذوا به) انتهى كلامه رحمه الله[1]. وهذا منهج عام لهم في الاتباع.

فإذًا: هي دعوة فيها اتباع، وليس فيها ابتداع.

ثانيًا: أنها دعوة تبني على تحقيق المصلحة، ودرء المفسدة:

من منهج هذه الدعوة: أنها دعوة تبني على تحقيق المصلحة، ودرء

---

(١) انظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١٧/٢).

المفسدة، وتحقيق المصالح، ودرء المفاسد أصل من أصول هذا الدين؛ كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، ودوِّن في القواعد العامة لهذه الشريعة، يقول العلماء: الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها. هذا أصل من أصول الشريعة، فمنهج الدعوة أن يُحرص على تحصيل المصالح وتكميلها، وعلى درء المفاسد وتقليلها، فما وجد الداعية سبيلًا إلى تقوية المصالح، وتقليل المفاسد، فإنه يأخذ بذلك.

ثالثًا: البداءة بالأهم، فالمهم:

ومن سمات منهجهم: أن هذه الدعوة رعت البداءة بالأهم، فالمهم، وما يسمى في لغة أهل العصر فقه الأولويات، فقه الأولويات يعني: تقديم ما هو الأولى، وهذا يحتاج - لاشك - إلى علم في أن نعرف ما هو الأولى، وما هو الأهم، هذا العلم أحيانًا يكون مبنيًا على نص، وأحيانًا يكون مسألة اجتهاد؛ لذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀ - في كلامه على حديث معاذ - لما قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فليكن أول ما تدعوهم إليه شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وأنّ محمدًا رسولُ اللّهِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوك لِذَلِكَ** - يعني: فإن هم وحدوا الله - **فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»[١]. ترتيب بالفاء، قال ﵀ في مسائل كتاب التوحيد: (فيه البداءة بالأهم، فالأهم)[٢].

وذلك أن أمور الشريعة كثيرة، فلا يأتي الداعي في دعوته بكل شيء،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: (كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد) المسألة الثانية عشرة (١/ ٩٥).

فكان من سمات الدعوة أنها بدأت بالأهم، وأجلت المهم؛ ولذلك قال الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة له - أرسلها إلى أحد العلماء في وقته، اسمه عبد الرحمن بن عبد الله -، قال: (من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الرحمن بن عبد الله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته) بالمناسبة قال: سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذه سيرة العلماء أنه في الخطابات يكون هناك التسليم الأول، والتسليم الأخير، فأوله يكون بالتنكير (سلامٌ عليكم)، والأخير يكون بالتعريف (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، يعني: ما يُختم به الرسالة يكون معرفًا، وما يُبتدأ به يكون منكرًا. قال بعض أهل العلم: إذا اجتمع سلامان في موضع، فالأول مُنَكَّر، والثاني مُعرف، والدليل في ذلك في سورة مريم؛ حيث إنه لما ذُكر السلام الأول قال الله ﷻ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]، وفي السلام الثاني قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ [مريم: ٣٣]، قالوا: إذا اجتمع سلامان، الأول مُنَكَّر، والثاني مُعرَّف. هذه فائدة عربية.

قال: (أما بعد، فقد وصل كتابك، وسر الخاطر، جعلك الله من أئمة المتقين، ومن الدعاة إلى دين سيد المرسلين. وأخبرك أني - ولله الحمد - متبع، ولست بمبتدع؛ عقيدتي، وديني الذي أدين الله به: مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة، وأتباعهم إلى يوم القيامة. لكني بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء، والأموات من الصالحين، وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبد الله به من الذبح، والنذر، والتوكل، والسجود، وغير ذلك مما هو حق الله الذي

لا يشاركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل)[١]. وهذا فيه ترتيب لما ينبغي أن تكون عليه، خاطبهم بشيء، والأصل العام.

ولما سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع، قيل له: إنكم تكفرون الناس. فقال: لا. نحن لم نُكفر إلا ما أجمع المسلمون، وأجمع أهل العلم على التكفير به. وكذلك في موضع قال: قاتلتم الناس، قال: لم نقاتل إلا ما أجمع العلماء على المقاتلة عليه. وهكذا في مثل ذلك[٢].

رابعًا: الاهتمام بالعلم المؤصل:

من سمات هذه الدعوة، ومنهجها: أنها اهتمت بالعلم المُؤصَّل بالدليل، والترجيح بين كلام أهل العلم في مسائل الفروع، ففي مسائل التوحيد والعقيدة أُخذ ما دلت عليه الأدلة، وأجمع عليه أهل العلم من أئمة الإسلام، الذين يُسار إلى قولهم في مثل هذا. وأما المسائل الفقهية، فيُرجح فيها بحسب الدليل، ومع أن علماء الدعوة على المذهب الحنبلي، لكنهم لا ينكرون على من تمذهب بغيره، وكذلك لا يتعصبون لهذا المنهج. يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونحن - أيضًا - في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة، دون غيرهم؛ لعدم ضبط مذاهب الغير: الرافضة، والزيدية، والإمامية، ونحوهم، ولا نقرهم ظاهرًا على شيء من مذاهبهم الفاسدة، بل نجبرهم على تقليد أحد الأئمة الأربعة)[٣].

---

(١) انظر: الرسائل الشخصية، الرسالة الخامسة (١/ ٣٦).

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١١/ ٣١٧).

(٣) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٢٢٧).

خامسًا: الاهتمام بالواقع، وتضييق مجال التكفير:

من منهج الدعوة: أنها دعوة عملية، اهتمت بالواقع، والحكم على الواقع، وضيقت مجال التكفير، ضيقت ميدان التكفير، وكما هو معلوم أنه ما من مذهب من مذاهب العلماء، وكتاب من كتبهم إلا وفيه باب مستقل في حكم المرتد، وفي كتب الفروع أحيانًا يبلغ خمسين صفحة، وستين صفحة فيما يصير به المسلم مرتدًا، في أنواع من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات، والشكوك، إلى آخر ذلك. هذا توسع فيه أصحاب الفروع، حتى صنف بعض العلماء كتبًا مستقلة في التكفير؛ كابن حجر الهيثمي في كتابه (الإعلام بقواطع الإسلام)، وكغيره من العلماء ممن ألفوا في ذلك، لكن المسألة لم تكن منضبطة في ضوابط التكفير؛ ولذلك جاءت الدعوة، فأصلت في تفصيلات، ونقل أئمة الدعوة عن العلماء ما يتعلق بضابط التكفير، وأنه ليس الأمر بإطلاقه؛ كما هو عند الجهلة.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة بعثها إلى أهل منفوحة: (وقولكم: إننا نكفّر المسلمين، كيف تفعلون كذا؟ كيف تفعلون كذا؟ فإنا لم نكفّر المسلمين، بل ما كفّرنا إلا المشركين)[١]. وقال في رسالة أرسلها إلى رجل من أهل سرمداء، يقول: (وأما ما ذكره الأعداء عن أنّي أكفّر بالظن، وبالموالاة، أو أكفِّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين اللَّه، ورسوله)[٢].

---

(١) انظر: الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب، الرسالة الثامنة والعشرون (١/ ١٨٩).

(٢) انظر: الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب، الرسالة الثالثة (١/ ٢٥).

وما أشبه الليلة بالبارحة، فاليوم الذين يتهمون هذه الدعوة بالتكفير، أو أنها من منهجها التكفير، إنما استغلوا الأحداث التي وقعت في هذه السنوات الأخيرة؛ لينفروا الناس عن دين الله، ورسوله، وينفروا الناس عن هذه الدعوة السلفية التجديدية الصحيحة - بل عن منهج العلماء السلفيين من التابعين، بل من الصحابة - إلى وقتنا الحاضر.

فضيقت الدعوة مجال التكفير، الذي هو مبثوث في كتب أهل العلم في كل كتاب، ووضعت الضوابط، فقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه الضوابط:

أولًا: أنه لا يُكفَّر بالظن إنما يُكفر بما هو مستيقن. . .، فلا يقال عن فلان أنه كذا، أو يقال عن فلان أنه قال كذا من أقوال الكفر، أو سمعنا منه كذا، هذا قُطع فيه، فليس الشأن في أن يُحكم بدون تثبت، أو بمعرفة.

ثانيًا: نحن لا نكفر إلا بما أجمع العلماء على التكفير به.

ثالثًا: إنه لا يُكفَّر المرء، حتى تقوم عليه الحجة الرسالية التي يكفر من علمها، ثم تركها، وتنتفي الموانع.

وهذا التفصيل بإقامة الحجة، وانتفاء الموانع فصله شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وفصله أئمة الدعوة، وهو ميدان يُضَيِّق ميدان التكفير؛ مثل: الحكم بالزنا، الحكم بالزنا في الشرع أنه من زنى، فإنه يُجلد، إن كان غير محصن، ويُرجم، إن كان محصنًا. هذا حكم، والتكفير حكم موجود، الله ﷻ يقول في سورة التوبة: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤].

الردة تحصل للمسلم مثلما يحصل منه الزنا، لكن كيف يثبت ذلك؟ هذا الشأن؛ لذلك الآن في الزنا كم جاء في تاريخ الإسلام من حد أُقيم مع وجود القضاة، ووجود المحاكم، ووجود الدول الإسلامية من وقت النبي ﷺ، ووقت الخلفاء إلى يومنا؟ تعد الحالات على الأصابع، نادرة، لماذا؟ لأن الله ﷻ قال لابد من الإتيان بماذا؟ بأربعة من الشهداء، أو اعتراف مكرر، والشهداء لا يبنون على الظن، يقولون: رأينا كذا وكذا بما ينفي الاحتمال، وهذا أمر يضيق الأمر.

كذلك باب التكفير مُضيق، فقال: (حتى تقوم عليه الحجة الرسالية) ليست حجة عامة، بل الحجة الرسالية، الحجة الرسالية من يقيمها؟ ورثة الرسل، ورثة محمد ﷺ، الذين هم أهل العلم، ما يأتي واحد يقول: والله هذا قامت عليه الحجة، ويكفر هكذا بالحكم العام.

إذًا: الحجة الرسالية تحتاج إلى علم، وفيها دفع للشبهة، قد يكون عنده اشتباه، وفي موضع قال أحد علماء الدعوة: (وجلاء الشبهة يختلف بحسب الشبهة، فقد تكون الشبهة قوية، فيحتاج إلى حجة قوية، وقد تكون الشبهة ضعيفة، فلا تحتاج إلى حجج متواصلة أو قوية).

فالمسائل - أيضًا - في وجود الشبه، ودرء الشبه، ورد الشبه تختلف فيما بينها. فمثلًا: من المعلوم من الدين بالضرورة أن الخمر حرام، هذه مسألة معلومة من الدين بالضرورة، ولكن قد يأتي أحد الناس، ويقول: أنا لا أدري أن الخمر حرام، فيُحتمل أنه غافل، أو أنه كان مجنونًا ثم صحَّ، ويحتمل أنه كان بعيدًا؛ كأن يكون قد نشأ في بادية بعيدة، وقدم إلى الديار، وإن كانت كل هذه الاحتمالات ضعيفة، فإقامة الحجة عليه بأيسر ما يكون،

وليست كما يكون فيما فيه شبهة في بعض مسائل التوحيد، بعض وسائل التوسل، أو بعض وسائل التحكيم، أو نحو ذلك، فالمسائل تختلف.

كذلك مسألة انتفاء الموانع، الموانع جمع ماذا؟ ما الموانع؟ يوجد موانع تمنع من الحكم بالتكفير، وهذه فصلها أئمة الدعوة، لكن في كتب الفقه قبل المشايخ تجدها عامة، الكلام فيه تعميم، لكن العلماء لأجل عنايتهم بتضييق هذا الأمر، وألا يُحكم على أحد إلا وهو مستحق له بحكم شرعي واضح، قالوا: لابد من انتفاء الموانع. الموانع ما هي؟

أولًا: لابد من وجود العلم بهذا الأمر، ما يكون جاهلًا.

الثاني: ما يكون مخطئًا، قال شيئًا على سبيل الخطأ، الذي قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك[1]. هذا قالها على سبيل الاعتقاد، أو على سبيل الخطأ؟ جرت منه على سبيل الخطأ، لابد من انتفاء الموانع.

الثالث: التأويل، أن لا يكون متأولًا، وإلا لو أغلقنا باب التأويل في مسائل التكفير، لكفر المسلمون بعضهم بعضًا، فلو سُبَّ أحدٌ، أو بُدِّع، أو كُفِّر، بدون نظر إلى ما يتأول به المسلم في المسائل، فإنه حينئذٍ لن يكون هناك حاجز، بل سيُكفِّر بعض هذه الأمة بعضًا، والتأويل له تفاصيل معروفة في كلام أهل العلم.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٤٧) «**للّهُ أشدُّ فرحًا بِتوْبةِ عبْدِهِ حِين يتُوبُ إِليْهِ، مِنْ أحدِكُمْ كان على راحِلتِهِ بِأرْضِ فلاةٍ، فانْفلتتْ مِنْهُ وعليْها طعامُهُ وشرابُهُ، فأيِس مِنْها، فأتى شجرةً، فاضْطجع فِي ظِلِّها، قدْ أيِس مِنْ راحِلتِهِ، فبيْنا هُو كذلِك إِذا هُو بِها، قائِمةً عِنْدهُ، فأخذ بِخِطامِها، ثُمّ قال مِنْ شِدّةِ الْفرحِ: اللهُمّ أنْت عبْدِي وأنا ربُّك، أخْطأ مِنْ شِدّةِ الْفرحِ**».

الأمر الرابع: أن لا يكون مكرهًا، إذا كان مكرهًا - إما بالقول، أو بالفعل -، فإنه حينئذٍ يكون معذورًا.

والإكراه له أحوال، ودرجات، ويختلف الناس في مقدار الإكراه، بعض الناس يتحمل إكراهًا عظيمًا، يتحمل لشيء أكبر، وبعض الناس مثله لا يتحمل، وهنا ينظر في الحال بحسبها.

كذلك من تضييقهم لبعض التكفير أنهم لم يجعلوا الحكم بالردة لكل أحد، بل الحكم بالردة هو كالحكم بالقتل؛ لأنه سيترتب عليه إما قتل، أو فسق، سيترتب عليه أحكام، وجنايات، أو الحكم بالحد، أو نحو ذلك، هذه من الذي يحكم فيها؟ يحكم فيها القضاة؛ لأنها تحتاج إلى شروط، وانتفاء موانع، ووجود أشياء؛ فلذلك الحكم بالردة إنما هو للقضاة، أو المفتي الذي اجتمعت فيه الشرائط المعروفة.

سادسًا: محبة المسلمين، والسعي فيما ينفعهم:

من منهجهم في ذلك - المنهج العام -: محبة المسلمين، والسعي فيما ينفعهم، فإن علماء الدعوة حرصوا على الاتصال بالمسلمين، ونفعهم، ورد الكيد عنهم، وحماية البيضة لهم، وهذا فيه النفع العام؛ ولذلك اتصل بهم عدد من علماء الأمصار، فأخذوا هذه الدعوة، ونشروها في بلدانهم، ولأنهم يأخذون معهم الأصل الشرعي، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، والمؤمن للمؤمن كالبنيان، فهم في محبتهم للمسلمين يدفعون عنهم، ويسعون بالخير لهم؛ ولذلك بعثوا إليهم الدعاة، وأرسلوا إليهم بالإعانات، والعطايا منذ زمن الدولة السعودية

الأولى؛ كما هو معلوم.

سابعًا: الاهتمام بلزوم السنة، والابتعاد عن البدع، ووسائلها، ودعوة الناس إلى ذلك:

أيضًا من سماتهم في منهجهم: الاهتمام بلزوم السنة، والابتعاد عن البدع، ووسائلها، ودعوة الناس إلى ذلك. لابد من حماية الدين بالاهتمام بالسنة، والدعوة إليها، والبعد، والحذر من البدع، وأهلها؛ وذلك لأنه لا يمكن أن تُحمى حياض الدين، إلا بتقوية السنة، ورد البدعة، أما إذا تساهل الناس في السنة، وتساهلوا في البدعة، فإنه سيُقتحم الدين، ويضعف الانتصار له.

ثامنًا: مخالفة أهل الجاهلية في خصالهم:

أيضًا من سمات هذا المنهج: أن هذه الدعوة اهتمت بمخالفة أهل الجاهلية في خصالهم، وألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام هذه الدعوة التجديدية الإصلاحية رسالته المعروفة (مسائل الجاهلية)، وكانت الثلاث مسائل الأولى منها: الأولى في التوحيد، والثانية في طاعة الرسول ﷺ، والنهي عن البدع، والثالثة في طاعة ولاة الأمر؛ وذلك أن الزمن الذي عاش فيه الشيخ رحمه الله زمن فتن، وكل أهل قرية، وأهل بلد يقولون لنا أميرنا، والناس في فرقة عظيمة، فعظم الأمر، وشدد على السمع، والطاعة، ولزوم البيعة لولي الأمر، الذي بايعه المسلمون في ذلك، وربي الناس على ذلك تربية شديدة؛ لأنه لن يصلح حال الناس إلا بالالتزام بهذا الأصل، وما يحقق الله عز وجل به من الدين في ظل ولي أمر - مهما كان حاله، مادام مسلمًا - فإنه أعظم من حال الفوضى التي يكون فيها الناس، فلا يأمنون على

دمائهم، ولا على أعراضهم، ولا على أموالهم، ولا تنتشر حتى الدعوة في ذلك.

اليوم في بعض البلاد القريبة - وربما والبعيدة التي فيها فتن ومقاتل - الدعوة فيها ضعفت، أضعف مما كانت عليه في أزمنة سابقة في تلك البلدان، وكان فيها ظلم، وطغيان من قبل حكامها؛ لأن الأمن تنتشر معه الدعوة بحسبها، لكن في الفوضى يكون هناك موبقات تلو موبقات، مع أن الله ﷻ أمر بذلك أمرًا محكمًا، لا لبس فيه، ولا تأويل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

تاسعًا: ملازمة الدولة، ومناصحة ولي الأمر:

فمما تميزت به هذه الدعوة في منهجها: ملازمة الدولة، ومناصحة ولي الأمر، والسمع، والطاعة له، وعدم التخذيل عنه، والمجاهدة في ذلك في النصيحة بحسب الحال، وأن لا تُنزع يد من طاعة، أو يُؤلَّب على ولي الأمر، أو يُسعى في الناس فيما يؤدي إلى إضعاف ثقتهم بولي الأمر؛ لأن صلاح الدعوة، والخير لا يكون إلا بالاجتماع، والله ﷻ قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

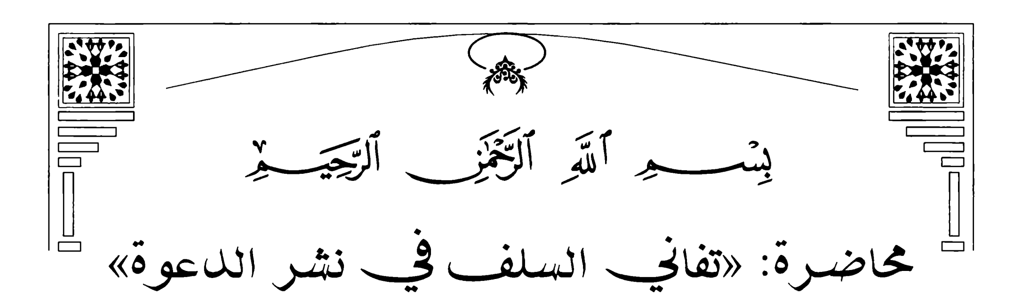
عاشرًا: توعية الناس بلزوم الطاعة:

مما تميزت به الدعوة: العناية الشديدة في منهجها بلزوم الناس للطاعة، فكان هناك التشديد على الحث على لزوم الناس لأداء العبادات، والصلاة مع الرجال في المساجد، تعاهد النساء، والصبيان في البيوت بالصلاة، وكان هذا أمرًا عظيمًا، لا يتخلف عن الصلاة أحد في المساجد إلا من كان

معذورًا، ومن تخلف بغير عذر، فإنه يُعزر بحسب الحال، إما بترك تكليمه، وإما بأخذ شيءٍ من ملابسه، أو نحو ذلك في ذلك الحال، أو بالتشهير به بحسب مقتضى الحال؛ كما دل عليه الحديث الذي في السنن.

حادي عشر: كذلك الاهتمام بحث الناس على الزكاة، والعبادات الأخر:

كذلك الاهتمام بحث الناس على الزكاة والعبادات الأخر، وتفعيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ربما ضاق المقام عن مزيد بسط لذلك، ولاشك أن بسط الكلام عن المنهج يحتاج إلى وقت أطول، لكن هذه خلاصة الاستقراء في هذه الموضوعات، أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم مباركين حيث كنا، معلمين للخير، ناهين عن الشر، مصلحين، ومعينين لأهل الإصلاح، ومجانبين لأهل الفساد، ومنكرين عليهم، ومتعاونين مع ولاة أمورنا على البر، والتقوى؛ إنه سبحانه جواد كريم. اللهم ارحم أئمة الإسلام، وارفع درجتهم في عليين مع النبيين، والصديقين والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، واجعلنا معهم تحت لواء محمد بن عبد الله ﷺ، اللهم إنا مذنبون، فاغفر جمًا، اللهم إنا مقصرون، فاغفر جمًا، اللهم ألف بين قلوبنا، اللهم ألف بين قلوبنا، وانشر الحق، والهدى، وأزل الشر والردى؛ إنك جواد كريم، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.



محاضرة: «تفاني السلف في نشر الدعوة»

وقد قام فضيلته بإلقائها ضمن فعاليات معرض الوسائل الدعوية الثالث بالرياض لعام ١٤٢٣هـ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، هو الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وصلى الله، وسلم على نبينا كلما صلى عليه المصلون، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد كلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وعلى الآل، والصحب أجمعين، أما بعد:

لا شك أن الدعوة إلى الله ﷻ هي مهمة الرسل - عليهم صلوات الله، وسلامه -، وهي وظيفة الأنبياء، والمرسلين، فإن الأنبياء، والمرسلين بُعِثوا بشيء واحد ألا وهو: الدعوة إلى الله ﷻ، الدعوة إلى الله بتقواه، الدعوة إلى الله بتوحيده، الدعوة إلى الله باتباع رسوله الذي أُرسل، الدعوة إلى الله بأن تطلب مراد الله ﷻ، وأن يبتعد عن مساخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا أجمعت الأنبياء، والمرسلون جميعًا من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو: أول الأنبياء، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو: أول الرسل إلى خاتم الأنبياء، والمرسلين محمد

ابن عبد الله ﷺ، أجمعوا على البذل في الدعوة إلى الله؛ امتثالًا لأمر الله، وحضًا على نشر ما يحب الله ﷻ، ويرضاه من الأقوال، والأعمال التي هي سبيل الدعوة؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، وهذا فيه تفضيل للداعي إلى الله ﷻ في قوله إذا أتبع القول بالعمل ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فلا أحد أحسن قولًا ممن يدعو إلى الله ﷻ، يدعو إلى تعظيم الله، يدعو إلى توحيد الله، يدعو إلى ترك الشرك، ووسائله، يدعو إلى اتباع السنة، يدعو إلى أن يطيع الخلق ربهم ﷻ.

ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية لما تلاها: «**هذا حبيب الله، هذا ولي الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله إليه من دعوته، هذا ولي الله، هذا صفي الله**»(١).

وعَنْ عبد اللهِ بْنِ عبد الغَفَّارِ؛ قَالَ: قُلْتُ لِزُهَيْرِ بْنِ نُعَيْمٍ الْبَابِيِّ: أَوْصِنِي قَالَ: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَاللهِ لَأَنْ تَتَّقِيَ اللهَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي وَزْنُ هَذِهِ الأسطوانة ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ جِسْمِي قُرِضَ بِالْمَقَارِيضِ وَأَنَّ هَذَا الْخَلْقَ أَطَاعُوا اللهَ ﷻ**»(٢).

وهذا يعطيك شدة فقه أئمة الدين بالقرآن، وبسنة النبي ﷺ، وبحرصهم الشديد على نشر الدعوة، والبذل في أن يطيع الخلق ربهم ﷻ.

فالدعوة إلى الله ﷻ مقام عظيم، وشرف كبير، ومنزلة رفيعة عالية،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٩)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٠).

(٢) انظر: حلية الأولياء (١٠/ ١٥٠)، والمجالسة وجواهر العلم (٢/ ٣١٢).

اختص الله ﷻ بها الأنبياء، والمرسلين، ومن سار على نهجهم في هذا السبيل؛ لهذا قص الله ﷻ في القرآن سير الأنبياء، وسير المرسلين منبهًا إلى أنهم كانوا دعاة إلى الله ﷻ.

فانظر - مثلًا - إلى قول أول الرسل - عليهم صلوات الله، وسلامه - نوح عليه السلام في سورة باسمه «سورة نوح عليه السلام قال فيها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح: ٥-٦]، فدعاهم مع أنه المؤيد بالمعجزات، والبراهين، دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ليلًا ونهارًا، لم ييأس، ولم يتواكل، بل كان مقبلًا على هذا السبيل ليلًا، ونهارًا، والنتيجة: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

وأخبر الله ﷻ عن نوع آخر من الدعوة في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لما ناظر قومه؛ كما أخبر في سورة الأنعام، في قوله: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤] الآيات؛ حيث قال فيها مناظرًا قومه: ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قال أهل العلم: كان إبراهيم عليه السلام مناظرًا للمشركين بما ذكر، لا ناظرًا في الملكوت، أو في الدلائل[١].

لهذا كان من منهج أهل السنة، والجماعة أن إبراهيم عليه السلام كان في هذه الآيات، وما قاله داعيًا إلى الله بالمناظرة بالمحاجة؛ لهذا قال في آخرها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢).

فإبراهيم عليه السلام دعا إلى الله عز وجل بوجه من أوجه الدعوة، وهو المناظرة، والمجادلة، وبذل في ذلك، ودعا أباه؛ كما في قصته في «سورة مريم» ودعا قومه؛ كما في قصته في «سورة الأنعام»، وفي «سورة الأنبياء»، وفي «الصافات»، وغيرها، ودعا الناس إلى ذلك، فآمن به من آمن، وكان من أعظم من آمن به لوط عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهنا تقف أن الأنبياء، والرسل - عليهم الصلاة، والسلام - كانوا أكثر الخلق بذلًا في الدعوة إلى الله عز وجل؛ لأن الله كلفهم بذلك، وأمرهم به كما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، فالجميع مأمورون بتبليغ رسالات الله، الجميع مأمورون بتبليغ الدعوة إلى الله عز وجل، وهذا السبيل وهو سبيل الأنبياء، وهو هداهم، وهو هديهم، وهو سمتهم الواجب الذي أوجب الله عز وجل عليهم، ونحن مأمورون أن نقتدي بهم، قال عز وجل في حقهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي: اقتد بذلك الهدى الذي منه أنهم كانوا دعاة إلى الله عز وجل.

وخذ مثلًا لذلك يوسف عليه السلام، يوسف عليه السلام في جميع أحواله التي تقلب فيها منذ أن كان في بيت العزيز، وما حصل في بيت العزيز إلى أن مكنه الله عز وجل، وقدم عليه أبوه، وأمه، وإخوانه، وخروا له سجدًا، كان في هذه المقامات جميعًا داعيًا إلى الله عز وجل؛ ولهذا تستطيع أن تسمي «سورة يوسف عليه السلام» سورة الدعوة؛ لأن أسماء السور ليست توقيفية على الصحيح، يمكن أن تسميها سورة الدعوة، أو أن تقول موضوعها الدعوة إلى الله عز وجل.

فهذا يوسف عليه السلام في السجن كان داعيًا إلى الله عز وجل: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ

ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩]، ولما وصل إلى الملك، وقربه كان داعيًا إلى الله ﷻ، ولما أتاه إخوته كان كذلك حتى صارت هذه السورة فيها سيرة الداعية، وفيها خُلُق الداعية، وفيها ما يكابد الداعية من القيل، والقال، والكيد، وفيها - أيضًا - صبر الداعية، وتحمله، وما يأتيه من البلاء في ذلك، فهي محل للاعتبار، والتدبر، والدرس؛ لهذا جاء في آخرها ليُربط موضوع السورة بآخر السورة، جاء في آخرها قول الحق ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] فالإشارة إلى ما ذُكر في السورة، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: ما قُص في السورة من أحكام، ومن سيرة ليوسف عليه السلام، والدعوة إلى التوحيد، والصبر على الأذى، وبذل النفع، والندى، والعفو عن من ظلم، والحرص على النفع، والتعاون مع الناس على البر، والتقوى، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أدعو إلى الله وحده، لا إلى النفس، ولا إلى طريقة، ولا إلى حزب، ولا إلى جماعة، وإنما الدعوة إلى الله وحده خالصة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على علم، وبينة، وبرهان، وحجة ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ فكل من اتبع محمدًا ﷺ هو على هذا السبيل أنه داعٍ إلى الله ﷻ.

لهذا كانت مهمة الأنبياء، ومهمة المرسلين الدعوة إلى الله ﷻ، الدعوة إلى الله بالعلم النافع، الدعوة إلى الله ﷻ بالخُلق الكامل، الدعوة إلى الله ﷻ بحسن السيرة، وحسن السمت، وحسن الهدي، الدعوة إلى الله ﷻ في أي مكان يكونون فيه.

النبي ﷺ كان داعيًا إلى الله في منصب الإمامة، وولاية الأمر، وكان داعيًا إلى الله في منصب القضاء، وكان داعيًا إلى الله في منصب الإفتاء،

وكان داعيًا إلى الله في إمامة الناس في الصلاة.

قال أهل العلم من أهل الأصول: تصرفات النبي ﷺ بحسب ما كان فيه من العمل، ففي التبليغ، والتشريع كان نبيًا ﷺ، وفي تولي أمر الأمة كان ولي الأمر، وكان إمام المسلمين، وفي الحرب كان قائد الجهاد، وفي القضاء كان هو القاضي؛ لهذا قال لما كان يقضي.

فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»(١).

هنا موقع القضاء كان موقع دعوة، وبيان، وإرشاد، وتنبيه للناس بمقاله ﷺ، وأفعاله.

لم يكن يُعطى الوحي في بيان الحق لأي من المتخاصمين، ولكن كان يأخذ بالدلائل، والأمارات، ويأخذ بالبينات على ما هو معروف في هذا السبيل، وكان - أيضًا - إمامًا للناس، فكان يسمع ما يسمع من الناس، فيقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا**»(٢). «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا، لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ**»(٣).

وينبه الناس، ويعظهم، ويدعوهم، ويذهب، ويكون القدوة، إمام

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٨)، ومسلم (١٧١٣)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠١) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

للناس، إذا رأى الفقير المحتاج حث الناس على ذلك، وهكذا، فكان مرشدًا، كان يشفع للناس، أتته امرأة ﷺ، فأمرها أن تستقيم مع زوجها، أي: أن تلزمه، وألا تطلب فراقه، فقالت: يا رسول الله أمر؟ قال: «**لَا، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**» فقالت: إذًا لا حاجة لي به[١].

والمرأة هنا تعرف مقام النبوة، هل هو في هذه الحالة مقام أمر، ووحي تجب الطاعة من الرسول ﷺ، أو هو مقام شفاعة، ومقام إرشاد في مقام المفتي، أو مقام القاضي، أو مقام إمام المسجد، ونحو ذلك؟

سألته، فَقَالَتْ: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْمُرُنِي بِذَلِكَ**»، تعني: من الوحي تأمرني به أن أطيع، أو غير ذلك، قال: «**لَا، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**»، فقالت: لا حاجة لي به.

النبي ﷺ في جميع أحواله كان داعيًا إلى الله ﷻ، والعلماء ورثة الأنبياء؛ كما قال ﷺ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[٢].

فخاصة الدعاة هم أهل العلم؛ لأن الدعوة هي وظيفة الأنبياء، والمرسلين، والذي ورث محمدًا ﷺ هم أهل العلم، وكلما زادت قدم العالم في العلم، وزادت قدم طالب العلم في العلم، كلما زاد حظه من وراثة محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨١، ٥٢٨٢، ٥٢٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، واللفظ له، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

لهذا كان السلف من الصحابة، والخلفاء الراشدين ﷺ، وسادات الصحابة، والتابعين، وأئمة الإسلام، كانوا أحرص شيء على الدعوة إلى الله ﷻ، وعلى الإرشاد، وعلى تبليغ الناس الحق، وحضهم على الخير، ونهيهم عن الباطل؛ ذلك اقتداءً بالنبي ﷺ.

النبي ﷺ في مكة كان داعيًا، وكل المصائب التي ناله منها ما نال، ونال الصحابة منها ما نالهم من المشركين إلا لأنه داعٍ إلى الله ﷻ أرادوا منه أن يترك دعوته، قالوا له: «**فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِينَا فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ - وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّابِعَ مِنَ الْجِنِّ رَئِيًّا - فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَذَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطِّبِّ لَكَ حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ أَوْ نُعْذَرَ فِيكَ**».

فقال النبي ﷺ: «**مَا بِي مَا تَقُولُونَ مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**»[1].

وفي الرواية المشهورة، وإن كان في إسنادها نظر، قال لعمه في قصته المشهورة: «**يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي**

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٨).

عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ»[(١)].

هذا مقام الدعوة إلى الله ﷻ، والنبي ﷺ إمام الأمة، وقدوتها في جميع أحواله ﷺ، وخاصة في أعظم مقام، وهو مقام الدعوة إلى الله، والذي أمره بذلك ربه ﷻ في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فلن أتركها، وقال له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] وقال - أيضًا - له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فربط الدعوة في انتفاعها بإذن الله ﷻ.

وهنا ينظر أهل العلم في هذه الفوائد من الآيات، وسيرة النبي ﷺ في أن الدعوة ليس المراد منها أن تصل فيها إلى هداية الخلق، إنما أن تمتثل أمر الله ﷻ بالدعوة، إذا حصلت نتيجة فالحمد لله، وإذا لم تحصل ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، فالأنبياء، وخاتمهم محمد ﷺ بذلوا ما بذلوا في سبيل الدعوة، وورثه منهم أهل العلم، وخاصة هذه الأمة من الدعاة إلى الله بذلوا في ذلك، لكن لايعني ذلك أن يتحقق المقصود، أو لا يتحقق، يحرصون على أن ينفعوا الناس، وأن يتحقق سبيل الدعوة، لكن إذا لم يتحقق، فالأمر لله ﷻ من قبل، ومن بعد.

وهذان مثالان عجيبان:

الأول: لنوح عليه السلام، فقد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا داعيًا

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٦).

إلى الله، والحصيلة: قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، قال المفسرون[١]: آمن معه اثنا عشر رجلًا، وامرأة، وأكثر الروايات على أنه آمن معه بضع، وسبعون بين رجل، وامرأة، حصيلة ألف سنة هذا العدد، لكنهم امتثلوا أمر الله ﷻ، وعبدوا الله ﷻ ببذل الدعوة.

المثال الثاني: محمد بن عبد الله ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة عامًا، ونتيجة الدعوة في هذه السنين قليل نحو خمسمائة من أهل مكة، وأهل المدينة، لكن في العشر سنين في العهد المدني حج معه مائة ألف ﷺ، أو يزيدون.

فيبين لك ربك ﷻ أن العبرة في الدعوة بالبذل، والعطاء، لكن متى تنفتح القلوب للدعوة؟ ومتى يدخل الناس في دين الله أفواجًا، ومتى يهتدون؟ هذا الأمر لله ﷻ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] أنت عليك البلاغ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] الذي على الرسل البلاغ، وعلى العلماء أن يبينوا ما كان عليه محمد ﷺ، وأن يجتهدوا في بيان الكتاب، والسنة، وما أمر الله به، وما نهى الناس عنه؛ ليتبع الناس، وليحذروا، لكن هل يستجيب الناس، أو لا يستجيبون؟ لا يكون ذلك من مهامهم، إنما عليهم أن يبذلوا في ذلك.

والداعي إلى الله فضيلته عظيمة، وأجره مضاعف، وعمله يُنمى له بقدر من اهتدى به.

كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[١].

قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**» أي نوع من الهدى تدعو إليه، فلك مثل أجر من اتبعك، لا ينقص ذلك من الأجر شيئًا، علمت التوحيد، علمت الصلاة، علمت آداب الإسلام، علمت الغيرة على الإسلام، علمت الدعوة، حثثت الناس، حفظت القرآن، أي سبيل من ذلك لك من الأجر مثل أجور من اتبعك - ولله الحمد، والمنة -.

السلف الصالح رضي الله عنهم نشروا الإسلام في شرق الأرض، وغربها، الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، وأئمة الإسلام في الفتوحات كانوا كما وصفهم ابن مسعود رضي الله عنه: «**كانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حَالًا**»[٢].

نشروا هداية الإسلام بالدعوة إلى الله عز وجل، بذلوا ليلهم، ونهارهم، وتركوا أولادهم، وتركوا ديارهم؛ لينشروا الدعوة، أحب ما عليهم مكة، والمدينة من بلاد الله، ولكن تركوها، وسكنوا غيرها؛ لنشر الدعوة إلى الله عز وجل، كيف انتشرت الدعوة في الشام؟ بهم، كيف انتشرت الدعوة في مصر؟ بهم، كيف انتشرت الدعوة في العراق؟ بهم، كيف انتشرت الدعوة في خراسان، وبلاد السند، وما وراء السند إلى الصين؟ إنما انتشرت بهم.

فتحوا البلاد بالعلم، والدعوة، السير، أو الجهاد هذا يفتح الطريق، لكن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٦٠).

لا يقنع الناس، لا يهدي الناس، لا يعلم الناس، فحينئذ صار الصحابة معلمين.

ذكر أهل العلم في ترجمة ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن عباس كان يغشى الناس في منازلهم يعلمهم السنة، لما كان أميرًا لعلي بن أبي طالب في البصرة، وخاصة في شهر الإقبال على الخير، فإذا كان رمضان دخل المنازل يعلم الناس الخير، ولما رجع إلى مكة كان المرجع للناس في تفسير القرآن، حتى إنه أقرأ القرآن مئات المرات، وعرض عليه أحد طلابه، وهو مجاهد ابن جبر عرض عليه القرآن ثلاث عرضات ثلاث مرات، يسأله عن كل آية ما معناها، وكان خادمه يقف عند الباب، والناس مكتظون خلف الباب فيقول: من أراد أن يسأل عن التفسير فليدخل. فيدخل أمة من الناس، فيسألونه، فيعلمهم، فيذهبون، ثم يقول: من أراد أن يسأل عن السنة، فليدخل، ثم يقول: من أراد أن يسأل عن الفقه، فليدخل، من أراد أن يسأل عن التاريخ، فليدخل، من أراد أن يسأل عن الشعر، فليدخل، من أراد أن يسأل... وهكذا، فكان داعيًا، ومعلمًا، وناشرًا لما علمه[١].

ابن عباس رضي الله عنهما دعا له النبي ﷺ بقوله: «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[٢].

الخلفاء الراشدون كانوا دعاة إلى الله ﷻ، علي رضي الله عنه قال له نبينا ﷺ في قصة فتح خيبر المعروفة: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ**

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[(١)].

أي: الإبل الحمراء، ولا تقل: «حُمُر»؛ لأن الحُمُر جمع حمار، وهي: حُمْر لجمع حمراء، أي: الإبل الحمراء النفيسة، وهي أنفس ما عند العرب.

وعَنْ أبي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ: إلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ **«أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»**[(٢)].

الدعوة إلى الله في فهم السلف ليست فقط دعوة إلى الأخلاق، أو دعوة إلى الأمور العامة، لا . . . أهم شيء في الدعوة إلى الله أن يدعى إلى أعظم حق لله ﷻ، وهو توحيد الله ﷻ، والحفاظ على جناب التوحيد، وحمايته، ثم المحافظة على الفرائض، والمحافظة على الأخلاق، والمحافظة على السيَّر.

عائشة ﵂ كان يغشاها الناس، ويسألونها عن خُلق رسول الله ﷺ، فتخبرهم بما تيسر لها، وجاءها مرة بعض الصحابة في بيتها وقالوا لها - وكانوا علماء من علماء التابعين - قالوا: أخبرينا عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: **«كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»**[(٣)].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠)، واللفظ له، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤١/ ١٤٨).

أي: أن هديه، وسمته، وخلقه، وطريقته هي القرآن بشموله ﷺ.

إذا نظرت إلى سيَّر التابعين وجدت أن التابعين عملوا على أربع محاور، فمنهم من بذل نفسه في الجهاد في سبيل الله، والفتوحات، ومنهم من بذل نفسه في الولايات، أي: تولى إمارة بلد، وصار على ديوان كذا، ومنهم من بذل نفسه في تعليم الناس العلم النافع، ومنهم من بذل نفسه في الوعظ، والإرشاد، والجهاد الناس فيه كثير، جاهد من جاهد حتى دفنوا على أسوار القسطنطينية، ومنهم من مات في البحر، ومنهم من مات في البر.

وإنما انتشر الدين بالبذل، والعطاء، وبُلغت رسالة الله بنفوس، وحياة سنين، وحياة طويلة فيها السنين الكثيرة، بُذلت لله ﷻ ليست للهو، ولا للدعة، ولا للمكث، وإنما فيها بذلوا، ولذلك انتشر الدين، ومنهم من بذل في نشره في الولايات، ما في شك أمر الدين لا يستقيم إلا أن يكون أهل الحق الأقوياء في دين الله، أهل الأمانة أن يكونوا في مستوى المسؤولية، لا يطلبونها، ولكن يستعينون بها على أداء أمر الله ﷻ، فهذا يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] هل قال ذلك رغبة فيها؟ لا، ولكن لأجل أن يفتح الله على يديه ما يقي الناس من المصائب في عهده من الفقر، والعنت.

كذلك السلف لم يكونوا يطلبونها، لكن إذا جاءت استعانوا الله بها، واتقوا الله ﷻ فيها، فنشروا أمر الله، وأعانوا على الخير في جميع الولايات لما كانوا ولاة.

الصنف الثالث: العلماء نشروا العلم كلٌ في مجاله، منهم من نشر علم

التفسير، ومنهم من نشر علم السنة، ومنهم من نشر علم الفقه، ومنهم، ومنهم، وعلماء السلف كثير من التابعين، وتابعي التابعين، وأئمة الإسلام، واقرأ «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي تجد أن فيها جمعًا كبيرًا من أهل العلم من وقت التابعين إلى من بعدهم.

الصنف الرابع: الوعاظ، لكن كان وعظ السلف في سبيل نشر الدعوة، وترقيق القلوب بالعلم النافع؛ ولذلك ذم أئمة الإسلام القصاص الذين يقصون بجهل، ويضربون الأمثلة بجهل، ويحكون على غير هدى، وإنما بما اقتتاته عقولهم بما يؤثر على الناس، هذا مذموم، ونهى عنه السلف أن يُتبع سبيل القصاص، لكن كان هناك في السلف وعاظ مثل عبيد بن عمير في مكة، مثل الربيع بن خثيم من تلامذة ابن مسعود ﷺ في الكوفة، فالربيع بن خثيم كان يبذل نفسه، يذهب، ويجيء في الدعوة إلى الله ﷻ، وفي تعليم العلم، فأراد أن يربي أبناءه، وطلابه مرة على نوع من البذل، فقال لأهله: اصنعوا لي طعامًا، وكان طعامًا سماه كان من أحسن ما يُصنع من الأطعمة، فصنعوا له الطعام، وزينوه ظنوا أن عنده ضيفًا، فلما أتوا به إلى طلابه كان بعض منهم عنده في المنزل قال: احملوه، ظنوا أنهم سيأكلون معه، قال: احملوه، فحملوا به، فطرق باب بيت في الكوفة، فلما طرق قال: أريد فلانًا، فأدخلوه، عرفوه أنه الربيع، والربيع بن خثيم كان إذا أتى لزيارة بعض أهل العلم، أو بعض طلابه كان الخادم، أو الأولاد إذا فتحوا الباب ورددوا الخبر يقولون: جاء الربيع الأعمى، يظنونه أعمى البصر؛ لأنه لم يكن يبحلق في بيت أحد يزوره، لما دخل على هذا الرجل، وأتى بالطعام دخلوا معه، فإذا الرجل الذي أتوا إليه بالطعام لا يتكلم، ولا يسمع،

ولا يبصر، أعمى أصم أبكم، وأخذ الربيع يضع يد هذا الأصم الأبكم الأعمى في الطعام، ويؤاكله حتى سُر ذاك، من أطيب الطعام، ويذهب به إليه، فلما انصرفوا قال أحد طلابه: يا ربيع لو أخذنا في الدرس، أو كلمة نحوها، وأرسلت إليه بالطعام، فإنه أصم، وإنه أعمى، وإنه أبكم، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يرى، فقال له الربيع: - أراد به هذا الدرس العظيم في الدعوة، والوعظ، والإرشاد -قال له: ولكن الله يسمع، ويرى[١].

فلا تكون الأعمال التي تعملها تريد منها أن المقابل يعرف ما بذلت له، إنما تكون هنا التعامل مع الله ﷻ، هذا وعظ رفيع الدرجة، هذا عمل ليس أقوالًا، هذه أعمال رفيعة الدرجة.

الواعظ الآخر الذي في مكة اسمه: عبيد بن عمير، قالت له عائشة رضي الله عنها لما دخل في طول الكلام، وكان واعظًا: (إذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضًا)، فإذا أردت الدعوة، والوعظ فأوجز؛ لأن الكلام الكثير يُنسي بعضه بعضًا، وهذا توجيه من عائشة رضي الله عنها لأحد تلامذتها، والمستفيدين منها عبيد بن عمير.

عبيد بن عمير كان واعظًا صالحًا يؤثر في الناس، دخلت امرأة مرة على زوجها، وكانت من أجمل نساء مكة، فقالت له مدلية بجمالها على زوجها، وكان من التجار من الأغنياء في مكة، قالت: يا فلان أتظن أن أحدًا يرى هذا الوجه، ولا يعشقه، أو لا يفتتن به - من غرورها بنفسها - قال: نعم، واحد، قالت: من هو؟، قال: عبيد بن عمير، قالت: والله لأذهبن إليه،

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ١٨٨).

ولأفتننه، أي: ما يصل إلى الحرام، لكن تريد أن تبين له أنه كذا، فأتت إليه، وهو يعظ في صحن الكعبة، فلما انتهى قالت - وكانت طبعًا لا يظهر منها شيء، وتزينت -، قالت: إن لي إليك حاجة، فاختر أي سارية من سواري الحرم لأعرض عليك حاجتي، فقال: اذهبي اختاري أنت، فذهبت، وذهب إليها، فلما قابلها كشفت عن وجهها، وعن بعض بدنها، فنظر إليها، ثم أطرق، فقالت: يا عبيد بن عمير إني مفتونة بك، وإني أريدك - في الحرم، وهي غير صادقة، لكن تريد أن تبين جمالها، وفضلها عند زوجها -، فنظر إليها عبيد، ثم قال لها: يا فلانة، أو يا أمة الله في الحرم لا يصلح، ولكن أواعدك في مكان آخر، فقالت لك ذاك، قال: أختار المكان؟، قالت: نعم، قال: إذًا موعدنا إذا تطايرت الصحف، فآخذ كتابه باليمين، وآخذ كتابه بالشمال، فهناك أعطيك ما تريدين، فقالت: يا عبيد ما هذا بالمكان، فقال: إذًا إذا وُضِعت الموازين، فهناك من تثقل موازينه، وهناك من تخف موازينه، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣] قالت: يا عبيد بن عمير ما هذا بالمكان، قال: إذًا إذا وضع الصراط على جهنم، والناس يمرون عليه، فمن ماضٍ، ومن مكردس على متن النار، قالت: يا عبيد ما هذا بالمكان، قال: فأين المكان إذًا؟ قالت: يا عبيد بن عمير الموعد الجنة، ورجعت إلى بيتها، فتركت ما كانت عليه، وتبتلت إلى الله، فنظر إليها زوجها بعدما تغيرت في هذه الحالة، وقال: حسبي الله على عبيد بن عمير أفسد عليّ زوجتي(١).

---

(١) انظر: روضة المحبين (٣٤٠)، وذم الهوى (ص ٢٦٥ - ٢٦٦).

صلاح السلف في الوعظ، والدعوة بالقول، والعمل، صلاحهم في البذل، يعلم الله صدقهم في ذلك، لا يخالف ظاهرهم باطنهم، وإنما يفعلون ما يفعلون لله ﷻ، فصلحوا، وصلح الأمر بهم، فالداعية إلى الله، المعلم الواعظ من بذل في أي سبيل عليه أن يكون متبعًا للسنة متقيًا لله ﷻ في ذلك، ينفع الله به الناس.

الإمام مالك سُئل بعيب عيب عليه، وقالوا: أنت مالك الذي تشد إليك آباط الإبل، ويرحل إليك الناس، لا نراك تفعل كذا، ولا تفعل كذا، ولا تجاهد في سبيل الله، فقال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا شمولية النظرة لواجبات الدعوة إلى الله ﷻ، وواجبات الإسلام، فقال: يا هذا إن من الناس من فتح الله له باب الجهاد، ومنهم من فتح له باب العبادة، أو باب الصلاة، ومنهم من فتح له باب الصدقة، ومنهم من فتح له باب الحج، والعمرة - يعني بذلك: النفل -، ومنهم من فتح له باب الصيام - يعني: النفل - ومنهم من فتح له الله باب العلم، وأنا ممن فتح الله لي باب العلم، فرضيت بما فتح الله لي[1].

يعني بذلك: أن سبيل الخير، ونشر الدعوة تكاملي، لا يُتصور أنه لا بد أن نكون جميعًا على شيء واحد، وأن نكون نسخة واحدة مكررة لا يمكن، ولكن كلٌ في مجاله بحسب تنوع السلف في أعمالهم، ويعين بعضنا بعضًا على الخير، وينهى بعضنا بعضًا عن الشر.

الإمام أحمد كان من أئمة الإسلام العظام، بل كان في عصره إمام أهل السنة، والجماعة بلا منازع رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان بذله في ذلك السبيل في الدعوة إلى

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

الله ﷺ بذلًا عظيمًا، رحل لطلب الحديث، ولإقرائه، وكان من تلامذته أبو داود صاحب السنن، في البصرة بعد فتنة الزنج المعروفة في التاريخ قل فيها الناس، رحلوا عنها صار فيها قتل، وهرج، ومرج، فانتدب الخليفة أبا داود صاحب السنن، وقال له: يا أبا داود أريد منك ثلاثًا:

أريد أن تسكن البصرة؛ ليرحل إليك طلاب العلم، وطلبة الحديث، فيملأ الناس البصرة؛ لأن الزنج قد أخرجوا الناس منها. فقال أبو داود: هذه لك. الثانية: قال: إريد أن تجيز أبنائي بكتابك السنن، قال: هذه لك. قال الثالثة: أريد أن تخص أبنائي بدرس في الحديث في بيتنا، فقال: هذه لا، الناس في العلم سواء، ورحل إلى البصرة، وسكن فيها، ونشر علمًا كثيرًا، ورجع الناس إليها، ورحل الناس إليها[١].

الإمام أحمد إذا درست حياته، وجدت أنه في سبيل الدعوة عمل بجميع المقامات، من قبيل نشر العلم: إقراء الحديث، نشر السنة القولية، والعملية، الرحلة، ونشر الدعوة، والخير في أي مكان، الدفاع عن العقيدة، والتوحيد بالقول، والعمل، وبالتصنيف، وبالوقوف في الشدائد، وبالرد على المخالفين للحق من أهل الأهواء على جميع اختلاف أصنافهم، وأيضًا من أراد في الدعوة سبيلًا غير مشروع رد عليه، وأنكر عليه، ومن ذلك:

ما كان يسمى في عصره بالتغبير، التغبير وسيلة من وسائل الدعوة المنكرة، أنكرها العلماء، ماذا يعملون؟

يأتون بطبول، ودفوف، ويأتون بأشعار زهديات، وترقيقات، ويجمعون

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٢٢/ ١٩٩).

العامة، ويضربون على هذه الجلود المغبرة، ينشدون الأشعار؛ ليرققوا الناس، لكن هذه في سبيل سنة، أو في سبيل بدعة؟

هذه من أساليب المخالفة للسنة، ومن أساليب البدع، فنهى الإمام أحمد عنها، وقال: أحدثوا شيئًا يقال له التغبير ليس من دين الله.

ما قال: إذا كان الناس يرققهم، وينفعهم، والناس عندهم مشاكل، وبغداد صار فيها فساد كثير، و. . . و. . . إلى آخره، أي سبيل ينفع، ليس هذا سبيل السلف، وأئمة الإسلام في أمر الدعوة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: أحدثوا شيئًا يقال له التغبير ليس من دين الله. ينهاهم عن أن تُسلك سبيل، ووسيلة من وسائل الدعوة، ليست مشروعة.

وهكذا كان أئمة الإسلام جميعًا في جميع أحوالهم. فالشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ من أهل مكة مطلبي، رحل إلى المدينة، وأخذ منها علم مالك بن أنس، ثم مكث فيها مدة، ثم رحل إلى العراق، وأفتى فيها، وعلم، ودرس، واستفاد، ثم استقر به الأمر في مصر، فنشر هناك علمًا كثيرًا.

التنقل هذا هل هو تنقل لسنين هنا، وسنين هنا؟ أليس صعبًا على النفس؟ يجلس في بلده فيكون مكرمًا معززًا بين أقربائه، وعالم قريش يملأ الأرض علمًا، لكن في سبيل نشر العلم.

شيخ الإسلام ابن تيمية - إذا طوينا الزمن - مضى زمانه كله، وهو ما بين علم، وتعليم، وجهاد، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ونشر للخير، والدعوة في بلدنا هذه، وفي مصر، وفي الشام، وفي فلسطين، وفي الجبل، وهكذا تنقل.

فهمة أهل العلم عالية؛ لأن وراثة الدعوة هي وراثة للنبي محمد ﷺ، لكن أن تكون الدعوة على المنهاج السليم، لا تكون على أي منهاج يحدثه الناس، تكون على المنهاج السلفي الصحيح في سعته، وشموله؛ لأن المفاهيم قد تضيق، فيحصر السبيل، لكن إذا كان العلم واسعًا، فيكون هنا السبيل - أيضًا - واسعًا إذا كان مشروعًا.

وانظر، وتأمل في حال أئمة الإسلام، وعصر السلف الصالح، والصحابة، والتابعين، وتابعيهم، وحال أئمة الإسلام، واقرأ في السيَّر، ستجد من ذلك شيئًا كثيرًا.

إذا تبين هذا بعد هذه الجولة السريعة، فنختم بشيء مهم، وهو أن الدعوة إلى الله ﷻ تحتاج منا إلى بذل، ولو قليلًا، لا يقل أحد: كيف أدعو؟

قال العلماء: الدعوة بحسب العلم. والعلماء هم الدعاة، لكن من علم شيئًا بدليله من كلام أهل العلم يدعو إلى ما علم بحسب ما علم؛ ولهذا جاء معرض وسائل الدعوة؛ لكي يتيح للناس على اختلاف طبقاتهم من الكبار، والصغار، والرجال، والنساء التعرف على وسائل كثيرة للدعوة يمكن أن تحملها معك، يمكن أن تحمل معك كتابًا يسيرًا يناسب طبقات مختلفة، يمكن أن تحمل معك شريطًا، يمكن أن تحمل قرص كمبيوتر، يمكن أن تحمل معك أسماء مواقع في الإنترنت، يمكن أن تحمل معك أشياء كثيرة من وسائل الدعوة لا تعرفها، وأنت في بيتك.

كثير من الناس يرغب أن يكون له بذل، وله عمل في الدعوة خاصة في فترة الصيف، لكن وطن نفسك على أن تكون باذلًا في الدعوة، ولو قليلًا.

أتاني أحد الناس العام الماضي، وقال: أنا أريد أن أسافر في رحلة، أو سياحة إلى بعض البلاد، ماذا تنصح؟ قلت: النصيحة، أولًا: تقوى الله ﷻ في كل حال، ثم احرص على أن تبلغ الدعوة، وأن تنشر الدعوة، ولو ربع ساعة كل يوم. فقال: كيف؟ هيئ زادك، الداعي لابد له من سلاح، ولابد له من زاد، استعد، خذ معك الكتب المناسبة، أشرطة مناسبة، زر مركزًا إسلاميًا في اليوم، مرة في كل أسبوع، انظر تعاون مع الناس اعمل ابذل، إلى آخره.

زارني هذه السنة من ثلاثة أسابيع، وقال: الربع ساعة تلك فكرت فيها، ولكن جعلتني أستعد أكثر، وأكثر حتى أحببت أن أكون من الدعاة إلى الله ﷻ، وهذا واقع الدعوة محبوبة، وتشرح النفس، وتبعث في النفس العزة، والكرامة، وتبعث في النفس القوة، وتبعث في النفس حب الله، حب رسوله ﷺ، والثبات؛ لأنك إذا أعطيت للخير، وفي الدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، انقلب ذلك بإذن الله ﷻ إليك ثباتًا، وعزًا، وتمسكًا بالحق، لكن إذا أخليت نفسك ضعفت.

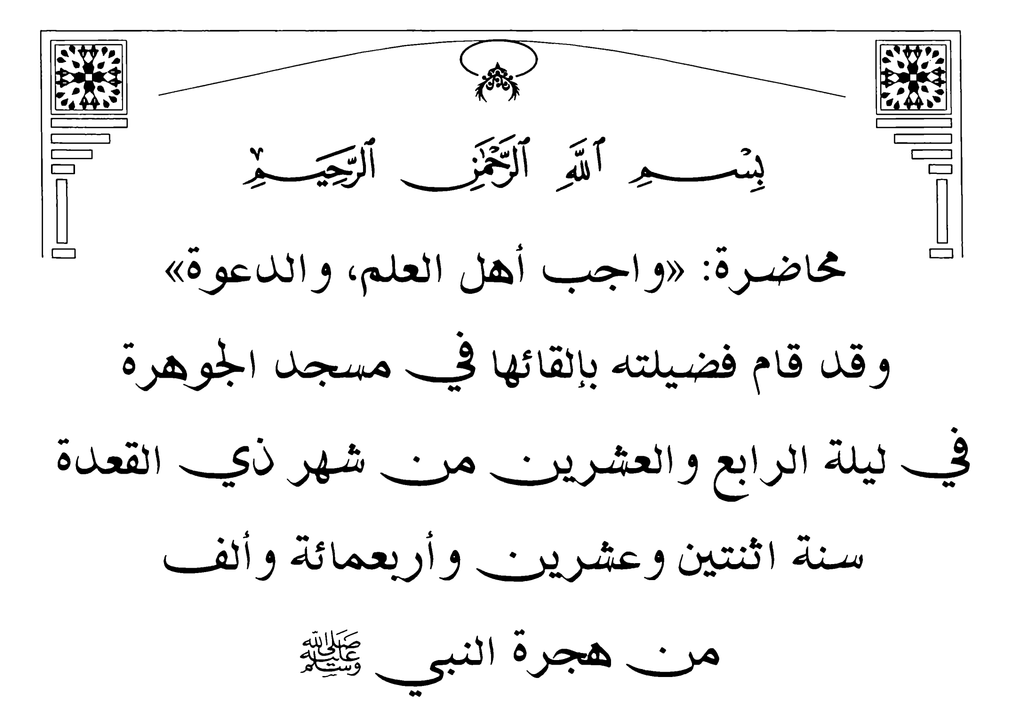
الإنسان يضعف، والمرء يجب أن يحرص على الخير.

ووسائل الدعوة منها ما هو مشروع، ومنها ما ليس مشروع، ولا يلزم أن تكون الوسيلة موجودة في زمن النبوة، أو في زمن السلف الصالح؛ لأن الوسائل أحكامها ترجع إلى المصالح المرسلة - كما قال أهل العلم -، والبدع تدخل في المقاصد، والمصالح المرسلة تدخل في الوسائل، لكن هنا منها وسائل مشروعة، ومنها وسائل غير مشروعة - كما قال الإمام أحمد في التغبير، وفي غيره - فإذا كانت الوسيلة مشروعة، فلنحرص

عليها، وليعد المرء عدته؛ لكي ينشر الدعوة في بيته، وفي مجتمعه، وفي سفره، وفي حضره، فإن ذلك خير لنا جميعًا في ديننا، وفي دنيانا، وأعظم لأجور الجميع.

وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.





محاضرة: «واجب أهل العلم، والدعوة»

وقد قام فضيلته بإلقائها في مسجد الجوهرة في ليلة الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة النبي ﷺ

الحمد لله رب العالمين، أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الإخوة في الله، أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أُعطي شكر، وإذا أذنب استغفر، وإذا ابتلي صبر، فإن هذه الثلاث هي عنوان للسعادة، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن أقامهم لنشر دعوة الإسلام، وهداية من ضل عنها إلى الصراط المستقيم، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالنا صالحة، وأقوالنا صالحة، ونياتنا خالصة له وحده سبحانه وتعالى؛ إنه جواد كريم.

أيها الإخوة المؤمنون، إنه مما يجب على المسلم أن يتحرى الصواب في قوله، وعمله، واعتقاده، وأن يكون موافقًا لما جاء عن الله ﷻ، وعن رسوله ﷺ؛ ليكون عاملًا في سلوكه الصواب، طالبًا مرضاة الله ﷻ.

والأنبياء -صلوات الله، وسلامه عليهم- جاءوا الناس؛ ليُعبد الله وحده لا شريك له، ولتطاع الرسل، وليتقي العباد ربهم ﷻ، ثم جاءوا بلزوم الاستغفار، وورث الأنبياء خاتِمُهم، وخاتَمُهم وآخرهم محمد بن عبد الله ﷺ، كانت رسالته أكمل، وأتم الرسالات، وكانت شريعته أفضل الشرائع، فجعل الله ﷻ لرسالته، وشريعته أكمل الهداية بالقول، والعمل، والاعتقاد.

فأخذها عنه ﷺ من أخذها من الصحابة، ثم أخذها عن الصحابة من أخذها من التابعين من أهل العلم، والعمل، حتى بلغت تلك الشريعة، وبلغت مقتضى الرسالة أهل هذا الزمان بواسطة أهل العلم؛ ولهذا فإن أهل العلم الذين ينقلون الشريعة، ويحفظون معاني القرآن، ويحفظون حدود السنة هم في الحقيقة الورثة للنبي ﷺ، كما قال ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

وبين ﷻ لنبيه أن خاصة عباده هم الذين يصبرون معه على البصيرة، وعلى الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، فقال له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالذين ورثوا النبي ﷺ هم العلماء، والذين ورثوا الدعوة هم الدعاة، وصار بمقتضى ذلك العلماء هم الدعاة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

على الحقيقة، وبقدر اجتهاد المرء في العلم يكون ازدياده في الدعوة إلى الله ﷻ.

والدعوة ليست هي الموعظة فحسب، بل نشر العلم دعوة، تبصير الناس بالحق دعوة، والتبيان لما يحتاجه الناس في أمر عقيدتهم دعوة، وأمر العامة دعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر دعوة، وبيان حكمه، وآدابه، وما ينبغي دعوة، وهكذا؛ ولذلك فالدعاة في الحقيقة هم العلماء، وبقدر ازدياد المرء من العلم يكون نصيبه من الدعوة، أما من دعا، وليس متحليًا بالعلم، فإنه أشبه ما يكون بالوعَّاظ، والقصاص الذين يرققون القلوب، لكنهم ليسوا على إرث كبير من شريعة محمد ﷺ.

فواجب أهل العلم والدعوة أن يكون نصيبهم من ميراث النبي ﷺ في العلم عظيمًا، ولهذا سُئل الإمام أحمد رحمه الله عن الفرقة الناجية التي جاءت في الحديث: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ في النَّارِ وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ في النَّارِ وَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ في النَّارِ**». **قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ «الْجَمَاعَةُ»**[1]، فمن هي هذه الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة؟

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن جاء من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو، رضي الله عنهم أجمعين. =

فسرها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بأنهم أهل العلم[١]، وهذا يقتضي أن ما عليه أهل العلم هو الذي يجب على الناس أن يسلكوه، لكن على أهل العلم والدعوة واجبات بمقتضى النصوص، وأوجب الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم واجبات:

أولًا: أن يكونوا أهل خشية منه؛ لأن خاصة عباده الذين هم الأنبياء، والعلماء هم الذين يتحلون بهذه الخشية، قال عَزَّ وَجَلَّ في وصف النبيين، ومن ورثهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلماء هم أهل الرغب، والرهب، وأهل الخشية.

والذي يأخذ العلم بلا رغب، ورهب من الله، وخشية منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخشى عليه؛ لهذا كانت الملائكة في السماء إذا سمعت الوحي من الله عَزَّ وَجَلَّ ضربت بأجنحتها خُضْعَانًا لقول الرب عَزَّ وَجَلَّ[٢].

= أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧، ٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧)، (١٨/ ٧٠)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨).

وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

(١) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (ص٢)، وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص٢٥، ٢٦)، وتاريخ بغداد (٤/ ١١٨)، وعمدة القاري (٢/ ٥٢)، وفتح الباري (١/ ١٦٤، ١٣/ ٢٩٣)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونصه: «**إذا قضى اللَّهُ الأمْر فِي السّماءِ، ضربتِ الملائِكةُ بِأجْنِحتِها خُضْعانًا لِقوْلِهِ،** =

فواجب أهل العلم والدعوة أن يكون من أخص صفاتهم الخوف من الله ﷻ، والخشية منه سبحانه وتعالى، والاستعداد للقائه، فيما يتكلمون به، أو يعملون، سرًا وعلنًا، أو ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو الذي ينبغي على كل من انتسب إلى العلم، أو إلى طلبه، أو إلى الدعوة إلى الله ﷻ.

وإذا عظمت الخشية، وعظم الرغب والرهب، استقام اللسان، فالمسلم ليس بفاحش، ولا سباب، ولا بذيء، يحفظ حق الله ﷻ، ويحفظ حق العباد، ليس بذي قدح، ولا سب، كما جاء في وصف النبي ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا بِالْفَاحِشِ، وَلَا بِالْبَذِيءِ**»(١) وقال الله ﷻ لنبيه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣] إذا عظمت الخشية، لم يكن اللسان منطلقًا في السوء؛ ولهذا يجب على المسلم أن ينصر الحق فيما يأتي، وفيما يذر، ويتعاون فيما يقول مع من يعلم رشده في العلم، والعمل.

أما الواجب الثاني: فهو أن يكونوا من أهل الإخلاص، وعبادة الله لا شريك له؛ لأن الإخلاص، وعبادة الله وحده لا شريك له هو أخص

= **كأنّهُ سِلْسِلةٌ على صفْوانٍ، فإذا فُزِّع عنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا: ماذا قال ربُّكُمْ؟ قالُوا لِلّذِي قال: الحقّ، وهُو العلِيُّ الكبِيرُ، فيسْمعُها مُسْترِقُ السّمْعِ، ومُسْترِقُ السّمْعِ هكذا بعْضُهُ فوْق بعْضٍ** - ووصف سُفْيانُ بِكفِّهِ فحرفها، وبدّد بيْن أصابِعِهِ - **فيسْمعُ الكلِمة فيُلْقِيها إِلى منْ تحْتهُ، ثُمّ يُلْقِيها الآخرُ إِلى منْ تحْتهُ، حتّى يُلْقِيها على لِسانِ السّاحِرِ أوِ الكاهِنِ، فرُبّما أدْرك الشِّهابُ قبْل أنْ يُلْقِيها، ورُبّما ألْقاها قبْل أنْ يُدْرِكهُ، فيكْذِبُ معها مِائة كذْبةٍ، فيُقالُ: أليْس قدْ قال لنا يوْم كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصدّقُ بِتِلْك الكلِمةِ الّتِي سمِع مِن السّماءِ**».

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٧).

صفات عمل الأنبياء - عليهم صلوات الله، وسلامه -؛ ولهذا قال الله ﷻ لنبيه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالإخلاص في القول، والعمل، والاعتقاد هذا من أعظم الواجبات.

والإخلاص يتفقده المرء في نفسه، ويتفقده في أقواله، وأعماله؛ لأن المرء قد يريد بعمله أنحاء من مقاصد الدنيا، إما لشهرة، أو الظهور، أو صرف وجوه الناس إليه، أو أن يكون قويًا عند الناس بالحق، وهو ليس بمخلص في ذلك، أو يكون عنده غيرة في الظاهر، لكنه يعلم من نفسه في الباطن أنه ليس بمخلص في ذلك؛ لهذا كان الإخلاص لعبادة الله وحده لا شريك له في جميع الأعمال من أخص صفات أهل العلم، والدعوة، ومن واجباتهم التي أوجب الله عليهم أن يتحلوا بها.

ثالثًا: من واجباتهم: أن يكونوا متواضعين للعلم، راغبين في الازدياد منه، وكلما ازداد المرء بالعلم، ازداد من صفات العلم والدعوة؛ لأن أهل العلم متفاوتون في رتبهم في العلم، وفي رتبهم في بذل العلم، وفي الدعوة، والواجب أن يزداد الجميع علمًا، وألا يقول القائل: قد اكتفينا من العلم، والآن أوان الدعوة. ولا يسعى في ازدياد العلم.

والواجب أن يزداد أهل العلم علمًا، وألا ينقطع ذلك فيهم، وقد رؤي الإمام أحمد معه محبرة، وورق، فقيل له: أنت أبو عبد الله، وتحمل المحبرة، والورق؟ فقال كلمته المشهورة: «**مع المحبرة إلى المقبرة**»[1] فهذا مع كونه إمامًا، والناس يسيرون إليه، لكن ما قال: أنا اكتفيت من العلم،

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٣٧).

والآن أدعو، وأعمل، وأدرس، وهو لا يتعلم، ولا يقبل على العلم، فإنه قد فرط في واجب من الواجبات، فما أحسن قول ابن الوردي في لاميته[(١)]:

في ازديادِ العلم إرغامُ العِدا وجمالُ العلم إصلاحُ العملْ

فإذا ازداد أهل العلم والدعوة في العلم، فإنهم يرغمون العدا على جميع أصنافهم؛ لأنهم حينئذٍ يوفقون إلى الصواب.

وازدياد العلم ليس معناه أن يكتفي بعلم نفسه، بل المرء يتعلم، ويأخذ من علم إخوانه، أو أبنائه، أو مشائخه على حد سواء، معنى ذلك أنه لا يترفع عن أخذ العلم ممن صغر منه سنًا، أو قدرًا، فإنه يطلب منه العلم؛ لأن العلم ضالة المؤمن. الهدهد جاء سليمان بعلم لم يحط به، قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] فيأخذ المرء العلم من أقرانه، ويأخذ العلم - وهو الأساس - من مشايخه، فطالب العلم، وأهل العلم والدعوة حريصون على العلم النافع؛ ولذلك لا يصلح أن يستقل أحد بنظر في نفسه أنه صاحب صواب في بحثه، أو في قوله، أو في عمله، دون مشاورة لأهل العلم وأخذ ما عندهم.

رابعًا: من واجبات أهل العلم، والدعوة: أن يبينوا الحق، ولا يكتموه؛ لأن الله ﷻ أخذ الميثاق على أهل العلم، وعلى أهل الكتاب أن يبينوا الحق، وألا يكتموه، وهذا ظاهر في عدة آيات: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا

---

(١) انظر: الكشكول (١/ ٢٣٥)، ونفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن (١/ ١٥٥)، وجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢/ ٤٣٦).

قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وذم الله الذين يكتمون البينات.

فواجب أهل العلم، والدعوة البيان، لكن البيان إنما يكون بحسب المصلحة الراجحة؛ ولذلك جاءت الشريعة بقواعد محكمة في مسألة البيان؛ لأن البيان، والإيضاح يجب أن يكون على وفق المصلحة الراجحة من ذلك، وبقدرها، فقد يكون الحق حقًا في نفسه، لكن يؤخر لمصلحة راجحة؛ كما فعل النبي ﷺ في تأخير بعض الشرائع من مكة إلى المدينة، ومن أول العهد المدني إلى آخره، وقد كان ﷺ يحب في أول ما جاء المدينة أن يوافق أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه؛ وهذا لأجل تحقيق المصلحة.

وأبو هريرة رضي الله عنه كانت عنده أحاديث من أحاديث الفتن، والملاحم، وبعض أخبار الخلفاء، فكتمها، وإنما أخبرها بعد زوال المانع؛ لأجل ألا تذهب عن الأمة، والإمام أحمد حذف من مسنده الأحاديث المتعلقة بالفتن مع الولاة، والسلاطين، ونحو ذلك؛ لئلا يأخذها من لا يفقه في الأحكام، فيجعل ذلك وسيلة للخروج عن المحكمات في الشريعة، والشريعة فيها قواعد شرعية عظيمة دلت عليها النصوص من الآي، والأحاديث، وكلام الأئمة، فلا بد أن تراعى فيما يقوله أهل العلم، فليس كلام أهل العلم مقتصرًا على النظر في الأدلة من حيث هي - أعني بالأدلة: القرآن، والسنة، ليس بمعناها الواسع عند الأصوليين -، وإنما ينظر إلى الأدلة التي منها القواعد الشرعية التي تحكم ذلك.

ومن أمثلة الأدلة التي تُراعى عند البيان، والإيضاح: أن لا يترتب على القول مفسدة أكبر؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن

القاعدة الشرعية تقول: ارتكاب أدنى المفسدتين لتفويت أعلاهما مطلوب شرعًا.

وذلك مما يبين لك ما يصير إليه أهل العلم، والفرق بين كلامهم، وكلام المتعجلين في المسائل؛ لأن رعاية الشريعة ليست هي رعاية البيان دون نظر في جلب المصالح، ودرء المفاسد، فالشريعة جاءت بتحصيل المصالح، وتكميلها، وجاءت بدرء المفاسد، وتقليلها.

فإذا كان العالم يرى أن في بعض البيان ما قد يترتب عليه بعض المفاسد، أو يترتب عليه مفسدة، فإن تأخيره متعين، وأما قول الأصوليين: لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فهذا بضابطه المذكور، وهو ألا يترتب على ذلك مفسدة؛ لهذا تجد أن فعل العلماء من الصحابة، والتابعين، وأئمة الإسلام مبني على هذا في أقوالهم، وأعمالهم، وهذه لها شواهد، ولها أدلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها.

خامسًا: واجب عظيم من واجبات أهل العلم، والدعوة أن يكون بينهم نصح، وأن يكون بينهم تعاون؛ لأن الشريعة جاءت بالتعاون على البر، والتقوى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، سهل أن تذم من شئت بحق، أو بدون حق، وسهل أن تقدح في الناس، لكن ليس سهلًا أن تعمل كعملهم، فأهل العلم والدعوة ربما يبذلون الليل، والنهار لإصلاح العباد، وإصلاح الخلق، وليس من شرطهم أن يكونوا كملة في أقوالهم، وأعمالهم، بل من شرطهم أن يتحروا الصواب الذي يوافق الشرع، قد يكون معهم النقص، لكن بالنصيحة يتكاملون؛ ولهذا من واجبات أهل العلم والدعوة أن

يتعاونوا فيما بينهم على الحق والهدى، وأن يجتنبوا أن يقدح بعضهم في بعض ما داموا على عقيدة واحدة، والاجتهادات تختلف فيها الأنظار، يختلف الناس في اجتهاداتهم، وفي نظرهم في الأمور، فإذا تعاونوا فيما بينهم على الخير والهدى، مشت السفينة، وسلموا، أما إذا كان ربان السفينة فيما بينهم اختلاف، فإن السفينة قد لا تمشي، وتمخر عُباب البحر، فكان من الواجب إذًا على أهل العلم والدعوة أن يحسنوا ظن بعضهم في بعض، وأن يتناصحوا فيما بينهم، وأن يُنصف بعضهم بعضًا، فالإنصاف أمر مطلوب؛ ولهذا قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب القواعد: (**وَالْمُنْصِفُ مَنْ اغْتَفَرَ قَلِيلَ خَطَأِ الْمَرْءِ فِي كَثِيرِ صَوَابِهِ**)[١]، لكن لا يترك من أخطأ، بل يبين له، وينصح بالأدلة، وليس بالأهواء.

سادسًا: من واجبات أهل العلم والدعوة: أن يتحروا السنة، وطريقة السلف الصالح، وأن يبتعدوا عن الأهواء، ما صغر منها، وما عظم، وهذا واجب عظيم يجب أن يتحراه الجميع؛ لأن السلامة في السنة، السلامة في طريقة السلف، السلامة في خصال الفرقة الناجية، السلامة في النظر إلى ما كان عليه السلف الصالح في أقوالهم، وأعمالهم، واعتقاداتهم، في هديهم، وفي تعاملهم مع بعضهم البعض، وفي تعاملاتهم مع ولاة أمورهم، في تعاملهم مع علمائهم، في تعاملهم مع الموافق، ومع المخالف، في تعاملهم مع أهل الأهواء، كيف كان تعاملهم؟ هذا هو الكمال؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أثنى على سلف هذه الأمة، وهم الصحابة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي**،

---

(١) انظر: القواعد لابن رجب (ص٣).

ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[(١)] .

سابعًا: من الواجبات المتأكدة: السعي في السلامة من الأهواء، ليس في حال طالب العلم، والساعي في الدعوة في نفسه فقط، بل - أيضًا - في الناس، وفيما يُقره فيهم، وفيما يكون عليه في أقواله، وأعماله.

الأهواء المختلفة التي لا توافق السنة، ولا توافق هدي السلف هذه يجب أن ترد ممن جاءت به صغيرًا أم كبيرًا؛ لأنه إن لم يُحمَ حمى الإسلام، والسنة وهدي السلف من أهل العلم، والدعوة، فإن النهاية غير محمودة. وما انتشرت الأهواء إلا بسبب التخاذل عن بيان الحق والسنة، والتخاذل عن التعاون في نصرة طريقة السلف الصالح رضي الله عنهم.

الأمة اليوم بحاجة إلى أعداد كبيرة من أهل العلم، ومن الدعاة إلى الله عز وجل، الأمة اليوم فيها الكثير من المصائب، وتواجه تحديات عظيمة جدًا من أعدائها، فاليوم المجال مجال تناصح، وتعاون، وبذل، وإخلاص، وسعي ليلًا ونهارًا في الحق والهدى، وليس اليوم المجال مجال قعود عن العمل، لكن بمقتضيات الشرع، وبالحكمة، والموعظة الحسنة، وبالحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذا مما يجب على أهل العلم والدعوة أن ينظروا إليه.

ثامنًا: من واجبات أهل العلم والدعوة: أن يكونوا قدوة للناس في ألا يستخفنهم أحد، قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فمن صفات الذين ورثوا محمدًا ﷺ أنهم لا يُستخَفُّون، لا يستخفهم العدو، لا يستخفهم الذي لا يوقن أو الذين لا يوقنون، أو الذين ليسوا على بصيرة، بل هم أهل سداد في الرأي، وفي القول، وفي العمل، وليسوا بعرضة للاستخفاف ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ ولهذا جاء في النصوص بمنع الاستخفاف، وبذمه، وبذم أهله، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ وقال - أيضًا -: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] بالمعنى العام للمشي، والنبي ﷺ قال: «**وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[١].

اليوم يواجه أهلَ الإسلام أنواعٌ من القيل، والقال، والتحديات، بل المصائب، والمحن التي تمر بالأمة، فهل نكون طعمة للذين لا يوقنون من أنواع الكفار في أن يستخفونا بذهاب بيضة الإسلام، وبيضة المسلمين، وذهاب قوة أهل الحق؟! هذا لا يقوله من تحقق في العلم والدعوة، وهذا يجب أن يكون من صفات المسلمين جميعًا تبعًا لعلمائهم، بألا يستخفنهم الذين لا يوقنون في الأقوال، أو في الأفعال، أو في التصرفات؛ لأن ضعف الأمة من داخلها، وصار بأسها بينها، ضعفت عن مواجهة الأعداء، فإذا قويت، وتكاتفت، فإنها تقوى في مواجهة أعدائها؛ ولهذا تجدون اليوم هجمة كبيرة بأنواع الهجوم، تارة بالتصريح، وتارة بغير التصريح؛ لكي يختلف المؤمنون، والمسلمون فيما بينهم، وتقع الاضطرابات في بلادهم، ولكي يطعن بعضهم في بعض، ولكي يضطربوا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣، ٦٦٩٥)، من حديث خباب رضي الله عنه.

في تصرفاتهم، والواجب النظر في قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. وأمامنا مثلان عظيمان:

المثل الأول: نوح عليه السلام، وهو أول أولي العزم من الرسل، كم مكث في قومه؟ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥]، هذه المدة الطويلة كم حصيلتها؟ كم حصيلة الدعوة؟ حصيلتها عدد قليل ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، إما اثنا عشر، أو كذا وعشرون، وأكثر الأقوال على أنهم كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة، حصيلة مدة طويلة هذا العدد، لكن الشأن ليس في النتائج، الشأن في أن يسير أهل الرسالة، ومن ورثهم من أهل العلم والدعوة على وفق الأمر، أما النتائج، فهي علمها عند الله متى تكون ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فهذا مثل طويل في الزمن فيمن بذل، وبذل، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦﴾ [نوح: ٥-٦]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح: ٨ - ٩]، بذل كل الوسائل لكن ما النتيجة؟ ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، لم يستعجل، ولكنه صبر ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

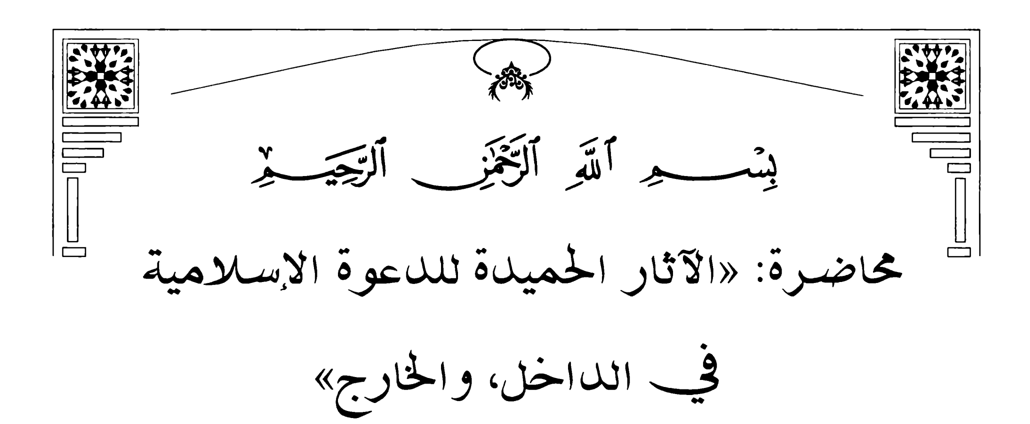
والمثل الثاني: محمد ﷺ الذي هو أقل الأنبياء زمنًا، انظر إلى سيرته في ثلاث عشرة سنة الأولى، كم آمن معه؟ قليل، ولما ذهب إلى المدينة، ازدادوا، وفي المدينة في عشر سنوات، في الست سنوات الأولى إلى صلح

الحديبية كان الذين يسلمون -أيضًا- قليلين، ومن السنة السادسة -وهي سنة الفتح في صلح الحديبية - إلى وفاته ﷺ دخل الناس في دين الله أفواجًا.

فإذًا: الأمور بيد الله ﷻ يمضيها كيف يشاء، لكن الشأن في أهل العلم، وأهل الدعوة أن يوافقوا مقتضى الأمر الإلهي، ومقتضى السنة، سواء رأوا النتائج أم لم يروا، المهم أن يمشوا على الصراط الذي مشى عليه السلف، وأهل العلم.

هذه منزلة عظيمة، وواجب عظيم، الصبر، وأن لا يستخف أبدًا، وهذا يحصل بأن يأتي - مثلًا - بعض المتحمسين، فيتأثروا بما وقع، أو يتأثر بما بث، فيأتي يضغط على طالب العلم، ويضغط على العالم، ويضغط على البعض في أن يقول، أو يتصرف في أشياء، وأحيانًا يستجيب لهم لأجل كثرة القول، أو كثرة الضغط، وهذا ليس بمحمود، المحمود أن يكون أهل العلم قدوة في أن يقولوا ما فيه المصلحة، وليس موافقة الناس، الناس - حتى ولو كانوا أهل خير - قد لا يعلمون المصالح، وكيف تدرأ المفاسد؛ ولذلك واجب أهل العلم والدعوة ألا يسيروا وفق الأهواء التي يشتهيها الناس، فهذه كلمات موجزة في هذه الليلة المباركة، أسأل الله أن ينفع بها، وأن يجعل هذا اللقاء لقاء خير، وبركة على قِصَرِهِ، وأما الإجابة على الأسئلة، نجعلها في وقت آخر مستقل - إن شاء الله -؛ لأنه يبدو أن تغير الموعد جعل الكثيرين من الأخوة لم يحضروا، وأرجو - إن شاء الله - أن نوفق للقاءات كثيرة، وأوصي نفسي وإياكم بتقوى الله ﷻ، والجد في العلم والعمل، والبذل في الخير، والتعاون على البر والتقوى، وأن نكون مفاتيح للخير، مغاليق للشر بحسب استطاعتنا؛ أنه سبحانه وتعالى ولي الصالحين، اللهم

اغفر لنا، ولوالدينا، ولمن له حق علينا، ووفق ولاة أمورنا لما فيه رضاك، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر، والتقوى، هذا ونسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى أن تنصر الإسلام، والمسلمين، وأن تذل الشرك والمشركين، وأن تجعل العاقبة للمتقين، وأن تعلي للحق منارًا، وأن تخمد للباطل نارًا، إنك على كل شيء قدير، وأخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «الآثار الحميدة للدعوة الإسلامية في الداخل، والخارج»

المقدم:

الحمد لله، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، أما بعد.

أيها الأحبة، فإننا نلتقي مع معالي شيخنا، وعالمنا صاحب الفضيلة الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.**

وزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد، للحديث عن موضوع مهم، وعظيم: عن الآثار الحميدة للدعوة الإسلامية في الداخل والخارج، ومعالي الشيخ صالح - حفظه الله، ومتع به - هو رئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، وهو المشرف على مراكز الدعوة، والمكاتب التعاونية، والموجه العام لهذا الأمر، فمنه نتلقى التوجيه، فليتفضل معاليه - سدد الله خطاه، ووفقه للحق -، فليتفضل جزاه الله خيرًا.

معالي الشيخ - حفظه الله -:

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله الذي جعلنا من المستجيبين لدعوته، والمتبعين لنبيه ﷺ، وهذه نعمة

كبرى، أنعم بها على أهل الإسلام، ألا وهي بعثة محمد ﷺ يدعوهم إلى الهدى، ويبصرهم من العمى، ويدلهم على الخير، ويقربهم إلى الجنة، ويباعد بينهم، وبين النار، فله الحمد كثيرًا؛ كما أعطى كثيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله - صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا -، أما بعد:

فيا أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدعوة الإسلامية هي دعوة محمد ﷺ على إرث، وميراث من الأنبياء جميعا - عليهم الصلاة، والسلام -، فدين الأنبياء واحد، وهو الإسلام، وكل نبي دعا إلى الإسلام - أي: إسلام الوجه، والقلب -، والتوجه إلى الله ﷻ بعبادته وحده دونما سواه، وباتباع رسله، وكل رسول أرسل فإنما يدعو إلى الإسلام، الذي هو العقيدة، والتوحيد، والاستسلام لله ﷻ، والشرائع تختلف باختلاف الأنبياء؛ كما قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)، الدين واحد - يعني: دين الإسلام -، وهو الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال ﷻ فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فحين نبئ آدم عليه السلام كان الدين الإسلام، وحين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) بلفظ: «**أنا أوْلى النّاسِ بِعِيسى ابْنِ مرْيم فِي الدُّنْيا والْآخِرةِ، والْأنْبِياءُ إِخْوةٌ لِعلّاتٍ، أُمّهاتُهُمْ شتّى ودِينُهُمْ واحِدٌ**»، ومسلم (٢٣٦٥) بلفظ: «**أنا أوْلى النّاسِ بِعِيسى ابْنِ مرْيم، فِي الْأُولى والْآخِرةِ**» قالُوا: كيْف يا رسُول اللهِ؟ قال: «**الْأنْبِياءُ إِخْوةٌ مِنْ علّاتٍ، وأُمّهاتُهُمْ شتّى، ودِينُهُمْ واحِدٌ، فليْس بيْننا نبِيٌّ**».

أرسل نوح عليه السلام كان الدين الإسلام، وحين أرسل إبراهيم عليه السلام كان دينه الإسلام، وهكذا جميع الأنبياء، والمرسلين؛ موسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، كلهم كان دينهم الإسلام، ولكن كان لكل نبي شريعة - بوحي من الله - يعمل بها، الشريعة يعني: تفاصيل الأحكام، تفاصيل العبادات: كيف الصلاة؟ كيف الصيام؟ كيفية الزكاة، هل يجاهد، أو لا يجاهد؟ تفاصيل أحكام النكاح، تفاصيل أحكام المعاملات، وهكذا، وكانت أكمل الشرائع، ودين الإسلام في دينه، وشريعته العظمى أكملها، لما بعث محمد ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالإسلام هو دين الله ﷻ، الذي كمل ببعثه ﷺ.

وإذا نظرنا، وجدنا أنه ﷺ ابتدأ دعوته إلى الله ﷻ بمفرده؛ حيث نبأه الله ﷻ، وأرسله إلى قومه، ثم إلى الناس كافة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥]، ثم قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ١ - ٤]، وبعث إلى الناس عامة ﷺ، ابتدأ واحدًا، وبدأ دعوته، بدأ الدين غريبًا: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١)، بدأ ﷺ هذه الدعوة وهو واحد بمفرده، ثم انتشرت دعوته - دعوة الإسلام - إلى أن بلغت المشرق والمغرب، في يومنا هذا أصبح أتباع الإسلام أكثر من ألف مليون، فدعوته ﷺ كان لها هذا الانتشار، وهذا الذكر العظيم، ولهذا فإن المؤمن يرى بوضوح قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، لم يكن أتباعه ﷺ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٧).

حين نزلت هذه الآية إلا بالمئات، ثم أصبحوا بمئات الملايين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ من المخبر؟ المخبر هو الله ﷻ، ومن المُرسَلُ؟ المرسل محمد بن عبد الله ﷺ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وكان الصحابة موقنين بحقيقة هذا الأمر؛ ولهذا قال ﷺ: **«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»**[1]، وهنا نقف وقفة، وهو أن بداية الدعوة الإسلامية إذا كان أمرها ابتدأ مع غلبة الكفر، والشرك، وكان الصحابة قليلين ﷺ، ولكن ننظر إلى منتهاها، كيف أنهم دكوا عروش كسرى وقيصر، ونشروا دين الله ﷻ في المشرق والمغرب، نعم، إن النهاية حتمية، وهي انتشار الدعوة الإسلامية، النهاية حتمية؛ لأن الشاهد عليها هو الله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ لكن الشأن في شأن أتباع هذه الدعوة، ولذلك كان من اللوازم أن يكون هناك أسباب كونية، أسباب تقدر ليكون معها انتشار الدعوة الإسلامية، وإلا فإن الله ﷻ قادر على أن يجعل الناس جميعًا مؤمنين برسوله ﷺ، ولكن حكمته العظيمة اقتضت أن يكون هناك مدافعة، ومغالبة، وأن يكون هناك حق، وباطل، وأن يكون هناك خير وشر، وأن يكون هناك مهتد وضال، وأن يكون هناك فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولا بد أن يكون هناك دعوة إلى الله، ولهذا أمر الله ﷻ الأنبياء والمرسلين بأن يدعوا إلى الله، وأن يبلغوا ما

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، والطبراني (٢/ ٥٨)، قال الهيثمي (٦/ ١٤): رجال أحمد رجال الصحيح. والحاكم (٤/ ٤٧٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٩/ ١٨١).

أرسلوا به: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال ﷻ لنبيه ولهذه الأمة: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إذًا: فالدعوة إلى الله هي وظيفة الأنبياء، والمرسلين، والدعوة إلى الله مأمور بها في هذه الأمة أن يكون منا دعاة إلى الله، وأن يكون منا من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وبيَّن ﷻ أن سبيل نبيه هو سبيل الدعوة إلى الله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولهذا قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسائله على هذه الآية: وفيها أن سبيل من اتبعه الدعوة إلى الله ﷻ؛ ولذلك لا ينفك أحد قد آمن حقًا بالنبي ﷺ إلا ويدعو إلى الله ﷻ بحسب ما معه من العلم والهدى، الدعوة إلى الله ﷻ هي ميراث ورثه العلماء، وورثه الدعاة من ميراث الأنبياء، «**وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1]، ومن لديه علم، فإنه سيدعو، سيتكلم، سيبلغ رسالة الله ﷻ، الدعوة معناها الإبلاغ: إبلاغ القرآن، إبلاغ السنة، إبلاغ هذا الهدى، إبلاغ هذا الدين إلى الناس.

وهنا مسألة: هل الدعوة إلى الله ﷻ باسمها تتوجه إلى الكفار، وإلى المشركين، إلى من ليس مسلمًا أصلًا، أم أن الدعوة إلى الله يصح إطلاقها

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

على من دعا غير المسلم، وعلى من دعا المسلم؟ الدعوة ما معناها؟ الدعوة أن تدعو الآخر إلى هذا الدين، وقد تكون الدعوة إلى هذا الدين إلى أصله، وهو توحيد الله ﷻ، وعبادته وحده دونما سواه، واتباع رسوله، والدخول في الإسلام، وقد تكون الدعوة إلى الله إلى شيء من هذا الدين، ولهذا قال ﷺ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»**[1]، وهنا كلمة هدى **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى»** هذه نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة، يعني: إلى أي فرد من أفراد الهُدى، فالدعوة إلى الصلاة هدى؛ لأن الصلاة هدى، والزكاة هدى، والصيام هدى، والنوافل هدى، وطلب العلم هدى، والجهاد في سبيل الله هدى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هدى، وحسن الخلق هدى، والصدق، والأمانة، والبر، والإحسان، والعدل هدى، اجتناب الفواحش بأنواعها - من الخمر، والسرقة، والزنا، وأشباه ذلك - هدى، وكل هذا بأنواعه من الهدى؛ ولذلك كانت الدعوة إلى الله - على الصحيح - تشمل دعوة غير المسلم، ودعوة المسلم، ولذلك إذا قلنا: الدعوة إلى الله، فإنها تصدق على الدعوة في داخل بلاد المسلمين، موجهة إلى المسلمين، وإلى غير المسلمين، وإلى خارج بلاد المسلمين، يعني: إلى من ليس على الإسلام، النبي ﷺ دعا غير المسلمين إلى الإسلام، دعا كفار مكة، وكفار قريش، وكفار العرب، ودعا - أيضًا - اليهود، ودعا النصارى، وهذه تسمى دعوة إلى الله ﷻ، وكذلك دعا أصحابه إلى الثبات على الحق، ودعاهم إلى تعاليم الشريعة، ودعاهم إلى تفاصيلها، وهذه دعوة إلى الله ﷻ، ولذلك: **«مَنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»، فأحدنا إذا دعا في بيته أهله إلى الصلاة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] الدعوة في البيت إلى الخير، ومكارم الأخلاق، وإلى العبادات، بل وأعظم من ذلك إلى الثبات على فهم التوحيد، وعلى البعد عن الشرك، والبدع، ووسائلها، والمحافظة على السنة بتفاصيلها، أو بعمومها، هذه دعوة إلى الله ﷻ، ولذلك هنا نقول: إن الداعي إلى الله ﷻ لا يشترط فيه كمال العلم، بل إن الداعي إلى الله ﷻ يدعو بما علمه، فمن علم شيئًا، وكان حقا، فله أن يدعو إليه؛ لأنه علم حقًا بدليله من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، بهذا كانت الدعوة إلى الله مجزأة، فكل منكم يصلح أن يكون داعيًا إلى الله ﷻ بما علمه من الحق والهدى، وهنا لا يدعو الإنسان إلى ما يظنه علمًا، وإلى ما يظنه من الدين، بل يدعو إلى ما علمه بيقين: إما بنص من القرآن والسنة، أو بسؤال لأهل العلم، وعلم موثق مسند إلى من يصح المصير إلى قوله من أهل العلم، لذلك فإننا هنا نصل إلى أن الدعوة إلى الله فضلها عظيم جدًا: فأولًا: هي مأمور بها شرعًا في الكتاب والسنة - كما ذكرت لكم الآيات، والأحاديث -، ثم فضلها أن من استجاب لك، فلك من الأجر مثل أجور من اتبعك في ذلك، تدعو من يصلي، وليس هو على الصلاة، أو لا يحافظ على الصلاة، فإذا صلى واستقام، فلك مثل أجور صلاته، والحمد لله؛ ولذلك قال أهل العلم: لا يصح إهداء القرب إلى النبي ﷺ، ولا يجوز، يقول: أنا أهدي، أو اللهم اجعل أجر صلاتي للنبي ﷺ، اللهم اجعل ثواب عبادتي للنبي ﷺ، اللهم اجعل ثواب قراءتي للقرآن

للنبي ﷺ. لا يصح، ولا يجوز، ولم يعمله أحد من الصحابة، ولا من السلف الصالح، لماذا؟ لأنه ما من عمل تعمله، يعمله أي مسلم، إلا ومثل أجره للنبي محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي دعانا إلى الهدى، وهو الذي أنقذنا من الضلالة، وهو الذي نور بصائرنا، وهو الذي أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور، فأي عمل يعمله الواحد، فللنبي ﷺ مثل أجره، فإذا قال: اللهم اجعل ثواب قراءتي للنبي ﷺ، كأن ثواب القراءة ليس للنبي ﷺ، فكأنه اعتراض على قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ**»، وإذا كان الأمر كذلك، كان واجبًا علينا أن لا نحقر أنفسنا في الدعوة إلى الله ﷻ، كل منا يوطن نفسه أولًا على أنه يحب الله ورسوله، ويحب دين الإسلام، ويدعو إلى الله ﷻ بما عنده من العلم وبما علمه.

الكلمة هي وسيلة الدعوة الأولى؛ ولذلك إذا كنت في محفل، في مجلس، في بيتك، تكلم بالحق، تكلم بالهدى، وَجِّه، فإن هذا تجده أرضًا طيبة بإذن الله، ويكون لك مثل أجور من اتبعك، أو استجاب لك في ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدعوة إلى الله ﷻ تشمل بلاد المسلمين، وغير المسلمين، الدعوة المجزأة، والدعوة إلى أصل الإسلام، هنا الدعوة لها مضمون، لها محتوى، الدعوة كثير من يؤمن بشيء، بل ما من أحد يؤمن بشيء إلا ويحاول أن يؤثر بهذا الذي آمن به، ولكن الدعوة الإسلامية من أعظم صفاتها أنها دعوة إلى منهاج النبوة، دعوة إلى ما دعا إليه النبي ﷺ؛ ولذلك من أراد الدعوة، فعليه أولًا أن يترسم السبيل، وأن يبحث عن الطريق، فليس كل ما جاء لك أن تدعو إليه يصح أن تدعو إليه، بل لابد أن تترسم الطريق، والطريق كتب ورسم، وبَيَّن النبي ﷺ هذا السبيل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ

سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] السبيل موجود، والبصيرة محتاج إليها، وهي العلم بهذا السبيل، والدعوة، لذلك قال أهل العلم: إن الدعوة إلى الله ﷻ تكون بالدعوة أولًا إلى أعظم مطلوب، وأعظم ما به ينقذ الناس من النار، ويدخلون الجنة، وهو إخلاص الدين لله ﷻ، وتوحيده، وعبادته وحده لا شريك له، فالدعوة إلى التوحيد أساس الدعوة إلى الله ﷻ، إذا كان المرء يأتي قومًا لا يعرفون التوحيد، لا يعرفون دين الله ﷻ، لا يعرفون حقيقة الإسلام، فإنما يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**يا معاذ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»[1]، هذه في رواية للبخاري في كتاب التوحيد، وفي الصحيحين الحديث بعدة ألفاظ، ومنها: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»[2].

فإذًا: أول ما يدعى إليه التوحيد، لماذا؟ لأن التوحيد هو أصل الرسالة، إخلاص الدين لله، كيف يعبد الله على جهل، يأتي يقول: أنا مسلم، وهو يعبد الله، ويعبد معه غيره، لا، ولذلك قال أهل العلم: إذا أراد أحد أن يشهر إسلامه، فإنه لابد في إسلامه أن يشهد الشهادتين، وأن يتبرأ مما كان عليه، إذا كان نصرانيًا، فيقول مع الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، يقول معها: وأن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦، ٤٣٤٧).

ألقاها إلى مريم وروح منه؛ حتى يكون متبرئًا مما كان عليه من الاعتقاد بأن عيسى ابن الله، أو أن عيسى هو الله، ونحو ذلك من أقاويل، كذلك إذا أراد يهوديٌّ أن يدخل، لابد أن يتبرأ من اليهودية، إذا أراد بوذيٌّ أن يدخل، لابد أن يتبرأ من البوذية؛ ليقر في قلبه أن دخوله في الإسلام مبطل لما كان عليه من الديانة.

فإذًا: المدعو إذا لم يكن مسلمًا موحدًا، فإنه يدعى إلى أصل الدين، والتوحيد، لهذا بعض من يدعو إلى الله يدعو إلى الإسلام من جهة الأخلاق، يدعو إلى الإسلام من جهة الرقائق، يدعو إلى الإسلام من جهة اضطهاد المسلمين، يدعو إلى الإسلام من جهة ما يصيب المسلمين من اضطهاد، أو من بلاء ونحو ذلك، وهذا يمكن الدعوة إليه بل مطلوب، ولكنه ليس الأول، أول ما يدعى إليه ما يفرق الإسلام عن غيره، وما يبين الحق من غيره في أصل الدين، ألا وهو التوحيد والعقيدة، أما إذا كان المدعو من أهل الإسلام في بلاد المسلمين، فتكون الدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى ترك الشرك هي للتثبيت؛ حتى لا ينسى هذا الأمر، فيقع الناس فيه، اليوم لاحظتم أن بعض المسلمين وقعوا في بعض البدع، لماذا؟ هل هو حب في البدعة؟ لا، يريدون القربة إلى الله، لكن وقعوا فيها، ولذلك كان من وسائل الدعوة إلى الله، أو من مضامين الدعوة إلى الله أنه يدعى إلى الالتزام بالسنة، ونبذ البدعة في بلاد الإسلام، يدعى إلى المحافظة على التوحيد، وتبين تفاصيل الشرك؛ حتى لا يقع الناس فيه، ولهذا جاء في قصة عبادة قوم نوح أنه عبد قوم نوح ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا، كيف؟ بأن هؤلاء أناس صالحون، أرادوا أن يحيوا ذكرهم، فاتخذوا صورًا؛ حتى إذا

رأوا الصورة، ذكروا فلانًا وعبادته، ذكروا فلانًا وما كان عليه من خير، فتأثروا، فالهدف سليم، لكن الوسيلة باطلة؛ ولهذا الوسائل لابد أن تكون مشروعة في الدعوة، ومشروعة في الخير، قال النبي ﷺ: «**صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ**»(١) العلم ينسى، فلابد من التثبيت، ولا بد من ذكره، هذه المحاضرات في المساجد دعوة إلى الله ﷻ، فإما أن يكون المرء متحققًا بما يدعو إليه، أو أن يكون مثبتًا على هذه الدعوة، في الصلاة ماذا تقول؟ تقول في كل صلاة، في كل ركعة لربك ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، هل أنت مهدي إلى الصراط، أو لست مهديًا إلى صراط الله؟ ألم تصل؟ الله ﷻ قد هداك إلى صراطه المستقيم، إذًا: لماذا نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؟ قال أهل العلم: فائدتها من وجهين:

الوجه الأول: أنها دعاء إلى الله ﷻ بأن يثبتك على هذا الصراط.

والوجه الثاني: دعاء إلى الله ﷻ بأن يهديك إلى تفاصيل هذا الصراط.

فإذًا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ من وجهين، طلب الهداية يعني: طلب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

الهداية إلى الثبات على هذا الصراط؛ لأن المنغصات كثيرة، والصارفات عن هذا الصراط، وعن توحيد الله، وعن العبادات، وعن الالتزام بدين الله كثيرة، فتسأل الله في كل ركعة أن يثبتك على هذا الصراط، والفائدة الثانية: أنك تسأل الله ﷺ أن يهديك إلى تفاصيل هذا الصراط المستقيم، وهو الإسلام، الصراط المستقيم هو الإسلام، هو القرآن، هو السنة، وهذا كله داخل في الصراط؛ لذلك فإن الدعوة إلى الله ﷻ تشمل ما يثبت به أهل الإسلام، فنقول: في بلاد الإسلام الدعوة إلى التوحيد، الدعوة إلى نبذ الشرك، والالتزام بالسنة، نبذ البدع، بعض الناس كتبوا في الصحف، وبعض الناس قالوها في المقالات، وقالوها في المجالس، قالوا: نحن أهل التوحيد فكيف ندعىٰ؟ نعم، دعوة إلى الثبات إليه؛ لأنه أعظم ما ينسى، واليوم وجد ذلك، هذه قنوات السحر وجدت، وتأثر بها كثير من الناس، أكثر الاتصالات التي دونت، وقد محق الله شرهم، وأغلقت هذه القنوات بفضل الله ﷻ، ولهم وسائل كثيرة لإعادتها ولعودة بعض منها، لكنها أسكتت، وأغلقت، أكثر من يتصل بها ممن؟ من أهل هذه البلاد، يتصلون بالقنوات، مع أن الاتصال بالطريقة المعتادة لا يمكن منه، لكن لهم طرق يتصلون بها.

إذًا: نحن في حاجة لدعوة إلى التثبيت على ذلك، فالذي يقول: في بلاد الإسلام بلادنا لا ندع إلى التوحيد، لا ندع إلى السنة؛ لأننا - الحمد لله - أهل توحيد وسنة، نقول: نعم، نحن أهل توحيد وسنة، ولكن نحتاج إلى ثبات.

مضمون ومحتوى الدعوة الإسلامية هي دعوة إلى الشريعة، إلى العقيدة،

والشريعة بأكملها، كلما كان الشيء في حاجة أكثر، كنا ندعو إلى ذلك، لهذا الرسل - عليهم صلوات الله، وسلامه - تجد أن ما أخبر الله به عن دعوتهم مختلف، مع أنهم جميعًا في دعوتهم يدعون إلى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، لكن أخبر الله ﷻ عن لوط مثلًا أنه نهى قومه عن الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، هذه الفاحشة فاحشة ومخالفة كبرى، وموبقة بَيَّن ﷻ أن من دعوة لوط عليه السلام لقومه أنه نهاهم عن الفاحشة، ولذلك تفاصيل الشريعة يدعى إليها بحسب الحاجة، لكن لا يترك أصل الدعوة، وتثبيت الناس عليها، فإذا وجدت الفواحش، كان من الدعوة إلى الله أن ينهى عنها، إذا وجد ظلم، كان من الدعوة إلى الله ﷻ أن ينهى عن الظلم، وأن يؤمر بالعدل، وإقامة القسط، وكذلك إذا وجد انحراف في مسألة من المسائل، فإن من الدعوة إلى الله أن يدعى إلى الرجوع إلى الحق، والشرع في ذلك.

الدعوة إلى الله ﷻ مركبة الأولويات، وكلمة الأولويات كلمة معاصرة، أصلها من قول النبي ﷺ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»(١)، ما معنى الأولويات؟ يعني: أن نبدأ بالأولى فالأولى، أحيانًا تزدحم الأمور، فيكون البداءة بالأولى فالأولى، وهو ما عبر عنه الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد، قال: (وفيه - يعني في الحديث - البداءة بالأهم فالأهم) البداءة بالأهم فالأهم، لا يمكن أن تأتي وتطالب الناس بالشريعة شيئًا واحدًا، أنت تأتي إلى الطفل الصغير،

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٨٤).

وتدخله على المدرسة، هل يمكن أن تأتيه بكل تفاصيل الكتابة مرة واحدة؟ كل تفاصيل القراءة مرة واحدة؟ من كان كذلك، فليس معلمًا؛ لأنه لا يمكن أن يعلم، ولا يمكن للطفل أن يستجيب له وأن يتعلم، ولذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال البخاري رحمه الله في مقدمات أحد أبواب صحيحه: (**الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ**)(١).

إذًا: الأولويات البداءة بالأهم فالأهم، التدرج هذه مسألة مهمة من مسائل الدعوة إلى الله ﷻ، الدعوة إلى الله في داخل البلاد، أو في خارجها، في بلاد المسلمين، أو في غير بلاد المسلمين، لابد أن يراعى فيها هذا الأصل، وهو أن تكون البداءة بالأهم فالأهم، رتب أمورك في الدعوة إلى الله ﷻ، لا تظن أن الناس يمكن أن تقبل كل شيء، لا، وإنما تقبله شيئًا فشيئًا، إذًا: لابد من الصبر، قال ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، حتى الرسل مع أنهم صابرون، ومع أنهم مؤيدون قد يأتي في أنفسهم عدم الصبر، فيحتاجون إلى من يصبرهم، ولهذا قال الله لنبيه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لا دعوة إلى الله بدون صبر، لا أمر بالمعروف بدون صبر، لا نهي عن المنكر بدون صبر، لابد من الصبر في الدعوة إلى الله ﷻ، هذا الصبر يعلمك أن لا تأتي الأمر شيئًا واحدًا، وهذا يعلم به الأفراد، وكذلك تعلم به المجتمعات، وتعلم به الدول، وتعلم به المؤسسات الإسلامية، والوزارات، والدعاة، والمراكز، ومكاتب الدعوة

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٥ فتح).

لابد أن يكون هناك صبر، وأناة في تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ، ولهذا لا يخسر خاسر في الدعوة إلا من جراء أسباب، ومنها: ترك الصبر، والاستعجال؛ لهذا في مقام الدعوة قال الله ﷻ لنبيه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] لابد من الصبر والأناة.

أيضًا: بعد البداءة بالأهم فالأهم، وترتيب الأولويات وننظر، النبي ﷺ قال لمعاذ: ابدأ بالتوحيد، إذا أطاعوك في التوحيد، أعلمهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات، أطاعوك، أعلمهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان من اللوازم أن يكون أهل العلم هم قادة الدعوة، لأنهم هم أهل الصبر، الذي يدعو بدون رجوع إلى من سبق، إلى من مضى في الدعوة، إلى من كان من أهل العلم، والرسوخ فيه، فإنه قد يؤتى، يريد خيرًا، ويأتي شرًا.

الدعوة -أيضًا- تحتاج منها إلى أمر وهو معرفة ما أسميته مرة: فقه القوة، والضعف بحال المسلمين، فقه القوة، وفقه الضعف، فهناك أنواع من الفقه ضرورة أن يهتم بها الدعاة إلى الله ﷻ، ما معنى فقه القوة، وفقه الضعف؟ ننظر إلى سيرة النبي ﷺ، ألم يكن في مكة داعيًا إلى الله ﷻ؟ نعم، كان إمام الدعاة في مكة، وكان إمام الدعاة في المدينة، وهو ﷺ إمام الدعاة في محياه، وفي مماته ﷺ، في مكة كان الأمر في ضعف، ولهذا كان حاله ﷺ في أمر من الضعف عظيم، قال الله ﷻ لنبيه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] هذه يحتاجها بعض الدعاة إلى الله ﷻ في مكان ما، إذا كان لا يستطيع، ليس عنده منعة، ليس عنده قوة، ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وفي مكان آخر تكون الدعوة إلى الله ﷻ فيها قوة، فيبلغ الناس بذلك بعزة، وقوة، ومنعة، كذلك يرعى في الدعوة إلى الله ﷻ فقه الاغتراب والظهور، أنا كنت في الأسبوع الماضي في أحد الجمهوريات التي انفصلت من الاتحاد السوفيتي، الناس لا يعرفون من الإسلام إلا السلام عليكم، السلام عليكم هذه تميز المسلم من غيره، إذا قال: السلام عليكم، عرفت أنه مسلم، يلتقي هذا بعد السلام عليكم، ماذا يعرفون من الإسلام؟ لا يعرفون شيئًا، المساجد فيها أربعة الذين يصلون في هذه المساجد، لا يتجاوزون عشرة آلاف من سكان يعدون في المدينة نحو سبعمائة ألف أو أكثر من ذلك، لا يعرفون إلا أن اسمه مسلم، اسمه من أسماء المسلمين، هناك إذا أردت أن تجعل الواحد منهم في عزة، تأخذ به العزة والانتماء للإسلام، تقول: اسمك مسلم، تأخذه الحمية، تاريخك مسلم، من أين جاءك؟

فإذًا: هناك غربة شديدة، لكن من الغربة ينطلق الحق، تنطلق الدعوة، ويكثر الخير، اليوم الحال كذلك، لكننا سننظر - إن شاء الله تعالى - بعد عشرين سنة، أو ثلاثين سنة، وإلى المساجد بالمئات، والناس في وضع مختلف كأي بلد إسلامي بإذن الله ﷻ، لذلك تذكر «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[١].

تذكر أن العبرة ليست بالقلة، والكثرة، هناك فترات يكون فيها اغتراب، بعض الناس إذا وجد في مكان أنه فيه غربة، وفيه ضعف لا يدعو، لا يحرص

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).

على الخير، يكون مع الناس في غيهم، وفي لهوهم، أو في بعدهم عن الحق، والهدى، ليس الأمر كذلك، إذا وجدت البلد في حاجة، وفي غربة، فتذكر الغربة الأولى، وإمامنا ﷺ، كيف بدأ الإسلام غريبًا، وكان ﷺ إمام الناس، ونبيهم، ورسولهم ﷺ، لكن في بلاد ما فيها غربة، فيها انتشار في الدين، والحق، والهدى، وهناك دعوة مفصلة، هناك دعوة لدين الإسلام بتفاصيله.

من الفقه المهم في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى الذي يناط بالدعاة إلى الله تبارك وتعالى في داخل البلاد، وفي خارجها: الإخلاص في الدعوة، وهو أن الدعوة ليس المراد منها الدعوة إلى الذات، قد يكون الإنسان يأتيه هذا الخاطر بطبيعته، يأتيه أنه يدعو، هو في داخله ما يذكر، أو يعرف إنه داعية، أو يعرف أنه فيه خير، أو يأمر، وينهى، يشكر، يذكر، .. إلى آخره، لكن ليس هذا المقصد المقصد هو الله عز وجل، إذا أتى شيء بعد ذلك، هذا من عاجل بشرى المؤمن، لكن قصده في دعوته أن يحب الخلق خالقهم عز وجل، أو أن يعبدوه، وأن يوحدوه، وأن يلتزموا بشريعته عز وجل.

الدعوة الإسلامية بدأت ضعيفة، ثم انتشرت، لم تنتشر الدعوة الإسلامية بالسيف كما قال بعض المستشرقين الذين أرادوا الطعن في الإسلام، لم يكن كذلك، انتشرت الدعوة الإسلامية، والدعوة إلى الإسلام انتشرت بالقرآن، بهدى الله عز وجل، ولكن إذا كانت هناك قوى، أو كان هناك بعض المتنفذين يمنعون الناس من سماع دين الله تبارك وتعالى، فإنه لابد من مقاتلتهم؛ لأجل نشر الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، ولهذا لم يشرع القتال في مكة؛ لأنه كان زمن حجة، وبيان.

جهاد الأعداء - الجهاد يعني : القتال - لم يفرض في مكة ؛ لأن الجهاد قائم بمجاهدة الكفار بالقرآن، قال ﷻ : ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فالجهاد بالقرآن أول ما كان الجهاد، وأعظم الجهاد الجهاد بالقرآن، والدعوة إلى الله ﷻ إنما تنتشر بمجاهدة أعدائه بالقرآن، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ يعني : بالقرآن جهادًا كبيرًا ، فأكبر الجهاد هو الجهاد بالقرآن؛ فلذلك الدعوة إلى الله ﷻ هي أعظم أنواع الجهاد، وإذا كان السبيل إليها موجودًا ومثمرًا ، فإنك لا تعدل عنه إلى غيره بحال، بل لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

ولذلك نجد أنه في الخمسين سنة الماضية أهل الإسلام لما استوطنوا بلاد غير المسلمين في الشرق أو في الغرب، في أوربا ، أو في أمريكا الشمالية والجنوبية، أو في غيرها ، في أواسط أفريقيا وجنوبها ، وفي أستراليا وغيرها ، وفي اليابان نشروا الإسلام بأي شيء؟ بنشر الدعوة، بالدعوة إلى الله ﷻ ، أقبل من يستجيب لهذه الدعوة، وهم كثر من غير المسلمين.

في أول زيارة لنا لليابان من عدة سنوات قابلنا مجموعة من اليابانيين مسلمين، وهم يابانيون الأصل، كيف جاءتهم الدعوة؟ قالوا : تأثرنا ، استجبنا للدعوة الإسلامية عن طريق المراسلات، من نحو مئة سنة بدأت الدعوة، وأول ما جاءتهم المراسلات عن طريق أناس تأثروا بالشيخ محمد رشيد رضا ، وبدعوته السلفية، جاءتهم بعض المراسلات من إندونيسيا وغيرها ، فاستجاب فئة للإسلام عن طريق المراسلة، وكانت أول فئة تؤمن بالإسلام، كانوا عرفوا الإسلام عن طريق السلفية المحضة، ولذلك هناك رسالة ألفها الشيخ المعصومي الخجندي من علماء مكة، جاءته رسالة من

اليابان أظن سماها (هدية السلطان إلى مسلمي اليابان)، وهي رسالة في كيفية الاستجابة للدين، وهل يتبعون مذهبًا من المذاهب، وكيف يتفقهون في الدين؟ كان عندهم نواة عظيمة لذلك، إذ بدأت الدعوة تنتشر، كيف؟ بالدعوة نفسها، ولذلك يغلط من يغلط من الشبيبة ممن يظنون أن مصلحة الإسلام، ونشر الإسلام إنما تكون بطريق غير الدعوة، الجهاد والمقاتلة ليس وسيلة لنشر الإسلام، وإنما يقوده الإمام، أو ولي الأمر بما يفتي به أهل العلم إذا كانت الدعوة إلى الله ﷻ قد أوصدت لها الأبواب، وكان الطريق إلى الجهاد صحيحًا مصلحته راجحة.

هنا نصل إلى ثمرة الدعوة إلى الله:

أولًا: أعظم ثمار الدعوة إلى الله ﷻ: أنك تنقذ الناس من النار إلى الجنة، **فعَنْ أَنَسٍ** رضي الله عنه، **قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ** ﷺ، **فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ** ﷺ **يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ** ﷺ، **فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ** ﷺ **وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»**(١)، الغرض من الدعوة ليس السلطة، ليس الغرض من الدعوة تكوين دولة، ليس الغرض من الدعوة تكوين مؤسسة، تكوين جماعة، الغرض من الدعوة، وهدف الدعوة هو أن يخرج الناس من النار إلى الجنة، أن تخرجهم من الظلمات إلى النور، أن تجعلهم من أهل الجنة، وهذا أعظم ما يكون من الأهداف؛ لذلك نقول: أعظم الآثار الحميدة للدعوة أنك تكثر أهل الجنة، وتقلل أهل النار، أنك تخرج هذا من

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦، ٥٦٥٧).

النار إلى الجنة، فكم خرج بدعوة المسلمين من الناس من النار إلى الجنة، خرج آلاف بل عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف، والحمد لله.

ثانيًا: من الآثار الحميدة للدعوة: أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى سبب لتكثير الرحمة، فالله عز وجل جعل الإسلام رحمة، وجعل نبيه رحمة، وجعل القرآن رحمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فكلما كبرت الاستجابة لهذا الرسول ﷺ، زادت الرحمة في الأرض، وكانت الرحمة في الدنيا والآخرة متحققة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فإذًا: الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى نشر للرحمة، فأعظم صفات الداعي إلى الله أنه راحم بالعباد، والدعاة إلى الله راحمون بالعباد، وأهل الإسلام راحمون بأهل الأرض؛ لأنهم يدعونهم إلى الله سبحانه وتعالى، يدعونهم إلى الإسلام، ودولة الإسلام راحمة، ورحيمة بغيرها؛ إذ تنشر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فليست الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى سلطة، وإنما هي رحمة، قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[1].

فإذًا: الدعوة من أعظم ثمراتها نشر الرحمة، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإذا انتشرت الرحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده، وجبت لهم الرحمة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: من آثار الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى: أن في الدعوة إلى الله قوة لهذه الأمة،

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٩١)، وقال: صحيح على شرطهما. والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٤٤)، وابن عساكر (٥/ ٤٠١). وأخرجه أيضًا: القضاعي (٢/ ١٩٠).

وتكثيرًا لهذه الأمة، هذه الأمة بدأت ضعيفة، فكثرت وقويت بنشر رسالة الإسلام، كيف قويت هذه الأمة حتى هابها الشرق، والغرب؟ بنشر هداية الإسلام، يعني بالدعوة إلى الله ﷻ، لما قوي المسلمون بالدعوة إلى الإسلام، وكثروا، وقووا، وصاروا حقيقين بالالتزام بدين الله، وبرفع الرأس به، لما كان الأمر كذلك، قويت هذه الأمة، فلذلك من الإعداد للقوة المتمثل في قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] من القوة الالتزام بالدين، من القوة نشر الدعوة إلى الله ﷻ، فلذلك نقول، وبكل حزم، وصدق، ويقين: إن من أراد إضعاف الدعوة إلى الله، أو إضعاف الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو إضعاف نشر هذه الدعوة، أو أسباب نشر هذه الدعوة، من أراد الإضعاف، فيريد في الحقيقة إضعاف قوة هذه الدولة، وقوة الإسلام، وقوة المسلمين، فمن أسباب القوة، أو من القوة الدعوة إلى الله ﷻ، فمن آثار هذه الدعوة أنها قوة للإسلام والمسلمين قوة لدولة الإسلام، فكلما قوينا في الدعوة، قوينا في الحق، قوينا في الهدى، قوينا في كل سبب يرهب أعداءنا منا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ هذه فيها القوة المعنوية، قوة القرآن، قوة الهدى، إلى آخره، كل أسباب القوة ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، رباط الخيل إشارة إلى الوسائل الحربية، الوسائل الحربية بأنواعها، الوسائل الدنيوية بأنواعها، لذلك كان من آثار هذه الدعوة الحميدة أننا نجعل سببًا من أسباب القوة، الماديون يظنون أن سبب الانتصار، وسبب القوة هو الأمور المادية، والانتصار ليس للآلة، الانتصار للإنسان، الانتصار لما يحمله الإنسان، وإذا كان الإنسان لا يحمل خيرًا، ولا يحمل حقًا، ولا يحمل هدى،

ولا يحمل دينًا، ولا يحمل عقيدة، ولا يحمل شريعة، ولا يحمل خلقًا، ولا يحمل عدلًا، فهو في الحقيقة منهزم، وإن ظهر أن آلته العسكرية منتصرة، لأن مآله إلى الهزيمة، بل هو منهزم في الحقيقة؛ ولذلك الدعوة إلى الله ﷻ قوة ويقين في الأنفس، وبالتالي تكون قوة لأفراد المجتمع، قوة للمجتمع، قوة للدولة، قوة لأمة الإسلام، فكل وسيلة من وسائل الدعوة في نشر هذه الدعوة هي قوة لأهل الإسلام.

رابعًا: من آثار الدعوة أن الدعوة: إلى الله ﷻ سبب من أسباب حب الله ﷻ لعباده، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٣٣]، قال الحسن البصري رحمه الله: (**هذا حبيب الله، هذا وليّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبّ الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله**)[1]، الدعوة إلى الله نشر إلى أن يحب الناس ربهم ﷻ، وأن يتبعوا رسوله ﷺ، وبالتالي فهي نشر لأن يحب الله ﷻ عبده، وعباده الصالحين المؤمنين، الذين استجابوا بدعوة الإسلام، ولهذا كان من أعظم الوسائل لجلب محبة الله ﷻ أن تجاهد نفسك في الخير، والدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال بعض أهل العلم: (يدعو إلى الله ﷻ، ويخاطب نفسه بدعوته)، أي: وأنا أتكلم الآن بعض الكلمات أخاطب بها نفسي قبلكم، وهكذا كل من دعا في بيته: تأمر أهلك، تأمر أولادك،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٩)، وابن كثير (٧/ ١٦٥)، والقرطبي (١٥/ ٣٦٠).

استحضر أنك تخاطب نفسك قبلهم، ولذلك أنت تدعو إلى الله ﷻ، تدعو نفسك، وتدعو غيرك، يعني: تجلب محبة الله لك، كما تجلبها لغيرك، وإذا أحب الله عبده، فإنه أصبح وليًا لله ﷿ وحبيبًا إلى الله ﷿ بحسب ما عنده من الخير.

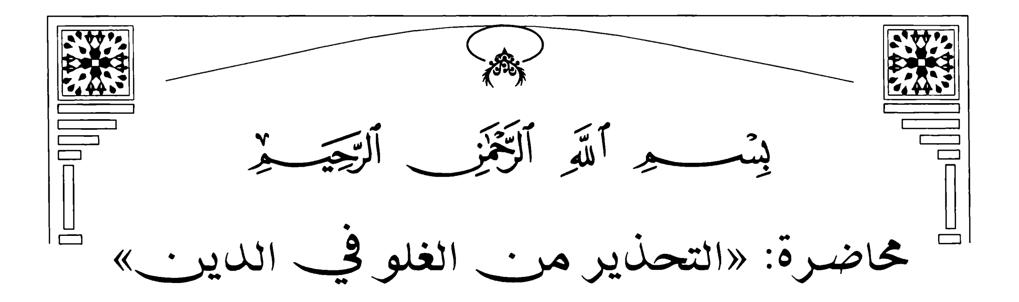
خامسًا: من آثار الدعوة إلى الله ﷻ العملية التي نظرنا إليها بالعمل: أن في نشر الدعوة إلى الله كثرة الخير، ونشر الخير، وازدياد الخير، وتقليل الشر. معلوم أن الإسلام جاء بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نحصل مقصد الشرع - مقصد الإسلام -، كيف نكثر الخير، ونقلل الشر؟ ليس لنا سبيل إلا بالدعوة إلى الله ﷻ، كيف يكثر الشر؟ بالدعوة إلى الشر. الآن الشر في الناس في كل مكان كثر، القوادح في العقيدة كثرت، لماذا؟ للدعوة إليها، القوادح في محبة الشريعة، وفي الالتزام بالشريعة، وفي القناعة بالشريعة، وفي الحكم بالكتاب، والسنة كثر، لماذا؟ لأن هناك دعوة إليها، انتشار الموبقات والفواحش: من السحر، والرشوة، والسرقة، والكهانة - والعياذ بالله -، وأسباب ذلك، أو الربا، والزنا، وأنواع الكذب، والخيانة، والغدر، وأنواع ذلك إنما هي بالدعوة إلى الشر، وهناك أسباب كثيرة، ووسائل تدعو إلى هذا الشر، فانتشار الشر بالدعوة إليه، وانتشار الخير بالدعوة إليه، وإذا كان أرباب الشر حريصين على الدعوة إلى الشر، والدعوة إلى الضلالة، والدعوة إلى الموبقات، والدعوة إلى الفواحش، فأين يذهب أهل الإسلام؟ هل يضيعون أعمارهم في غير سبيل الدعوة إلى الله ﷻ؟! اليوم زمن مدافعة، اليوم نراه بأعيننا زمن مدافعة بين الخير والشر، فأهل الشر

ينشطون، والمجال أمامهم مفتوح، الآن الصراع أصبح صراع كلمة، هذه الفضائيات تجد أن كلمات الخير، وكلمات الشر تتدافع في سماء الله في الفضاء، هذا يرسل إلى الناس الشر، وهذا يرسل إلى الناس الخير، وشتان بينهما: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] الخبيث كثير، ولكن لا يستوي الخبيث والطيب، فقل كلمة الحق، وانشر الهدى، وادع إلى الخير، وادع إلى الله ﷻ بكل وسيلة متاحة؛ فإنها نشر للخير، وتكثير له، الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، وإذا كان الأمر كذلك، فالسبيل هو نشر الدعوة إلى الله.

اليوم تجد أن أهل العلم، والدعاة إلى الله ﷻ استغلوا هذه الوسائل مثل القنوات الفضائية، قبل زمن لم يكن الاختيار أن تكون المشاركة عبر القنوات الفضائية، لكن لما كثر الشر، وأصبح الناس يتلقون في منازلهم، وفي غرفهم، كان من اللوازم أن تكون الدعوة إلى الله ﷻ عبر هذه الوسائل، عبر القنوات الفضائية، عبر الإنترنت، عبر الكمبيوتر، عبر كل وسيلة متاحة مشروعة مأمونة؛ لذلك فإن من الآثار الحميدة للدعوة إلى الله ﷻ - بدعوة أهل العلم، ودعوة أهل الدعوة، كل بحسب مقامه - أن الخير يكثر، والشر يقل، وإذا كان الزمن زمن مدافعة، كل الأزمنة كذلك، لكن الآن ظهر الأمر أكثر، فإذًا وطن نفسك أخي وأختي على الدعوة إلى الله ﷻ، وفي الدعوة إلى الله ﷻ ثبات على الحق، وثبات على الهدى، هذه بعض الآثار الحميدة للدعوة إلى الله ﷻ، التي من أجلها كان فرضًا كفائيًا أن ندعوا إلى الله ﷻ بحسب استطاعتنا.

أسأل الله ﷻ لكم جميعًا، ولنا، ولآبائنا، وأمهاتنا المغفرة، والرحمة، وأن يجعل مآلنا إلى خير، وأن يختم أعمالنا بكل خير؛ إنه سبحانه قريب مجيب، اللهم وفق ولاة أمورنا إلى ما تحب وترضى، اللهم اجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم وفق علماءنا إلى ما فيه الخير والرشد والسداد، واجعلهم هداة إلى الحق، وافتح لكلامهم القلوب والأسماع، واجعل من سمعهم قابلًا لما يقولون، متأثرًا بهم يا أرحم الراحمين، اللهم اجعل لهم مددًا من عندك، تهدي بهم إلى الحق، والرشد والسداد، وتقيهم من العثار والزلل، إنك على كل شيء قدير، اللهم اجعلنا جميعًا من المرحومين، واغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنك جواد كريم، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة: «التحذير من الغلو في الدين»

الحمد لله حق الحمد وأوفاه. وأشهد إلَّا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، ومصطفاه، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فأسأل الله ﷻ لي، ولكم العلم النافع، والعمل الصالح، والقلب الخاشع، والدعاء المسموع. أعوذ بالله أن نزل، أو نزل، أو نضل، أو نضل، أو نجهل، أو يجهل علينا.

هذه المحاضرة بعنوان (التحذير من الغلو في الدين)، ومن المعلوم أن الله ﷻ رحيم بعباده عظيم الرحمة، رؤوف بهم كثير الرأفة عظيمها؛ ولهذا جعل هذا الدين يسرًا، وما أنزل القرآن ليشقى به العباد، قال ﷻ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]، قال المفسرون: قوله ﷻ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ يعني: لم يكن إنزال القرآن لعلة أن يشقيك ذلك، بل لعلة أن يسعدك[1]؛ لأن القرآن يسر، ولأن القرآن يدعو لليسرى؛ كما قال ﷻ في الآية الأخرى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨]، قال المفسرون - أيضًا -:

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٣٥)، وزاد المسير (٥/ ٢٦٨)، والقرطبي (١١/ ١٦٧)، وابن كثير (٣/ ١٤٢).

يعني: نيسرك للطريق، والسنة، التي هي أيسر، وأحب، وأبعد عن التكليف[١]؛ ولهذا قال الله ﷻ في خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولما دعا المؤمنون بهذا، قال الله ﷻ: «**قَدْ فَعَلْتُ**»؛ كما رواه مسلم في الصحيح[٢].

فهذا الدين مبني على التيسير؛ كما ثبت في الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[٣].

وهذا يعني أن الدين الذي أنزله الله ﷻ، ورضيه لعباده، وقام به المصطفى ﷺ قولًا وعملًا، وظهرت سنته فيه ﷺ، أن هذا الدين الذي كان عليه المصطفي ﷺ يسر، وسعادة، وراحة، وطمأنينة، ولن يشاده أحد إلا غلبه، وهذا من بشائر الخير، ومما يجلب غير المسلم للدخول في الدين؛ لأن الديانات فيما قبل بنيت على كثير من التكاليف، ودين الإسلام - ولله الحمد والمنّة والفضل والرحمة - جاء يسيرًا، ميسرًا سهلًا، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ، ولا ظَهْرًا أَبْقَى**»[٤]، من حديث

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٥)، وزاد المسير (٩/ ٩٠)، والقرطبي (٢٠/ ١٩)، وابن كثير (٤/ ٥٠١).
(٢) أخرجه مسلم (١٢٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩).
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد(٨/ ٤١٨)، والبيهقي في الكبرى(٣/ ١٨)، والقضاعي في مسنده (٢/ ١٨٤)، وانظر: مجمع الزوائد(١/ ٦٢).

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وهو حسن بمجموع طرقه.

وإذا تبين هذا، وأن ديننا بني على اليسر، وبني على السماحة التي كان عليها رسول الله ﷺ، تبين لنا كيف جعل الله ﷻ هذه الأمة عدلًا خيارًا، عدلًا في شهادتها على الأقوام، وخيارًا يعني: أحسن الأمم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فجعل الله هذه الأمة أمة وسطًا، ومعني كونها وسطًا أي: أنها عدل خيار؛ لأن الوسط هو العدل، وهو الخيار المصطفي؛ لأن العرب كانت تمتدح الشيء بكونه واسطة الشيء، وبكونه وسطه؛ لأنه أحسنه، وأفضله، فجعل الله هذه الأمة أمةً وسطًا. لم؟ ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وقد جاء في صحيح أبي عبد الله البخاري عند تفسير هذه الآية قول النبي ﷺ: «**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ**»(١).

وهذا فيه بيان أن هذه الأمة -بعلمائها، وفقهائها، ومن عقل الدين عن المصطفي ﷺ - أنها شاهدة على الناس، ولا يزال في هذه الأمة طائفة ظاهرة بالحق؛ كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩، ٤٤٨٧، ٧٣٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره من أهل العلم: (ظهور هذه الطائفة إما أن يكون ظهورًا بالسيف والسنان، وإما أن يكون ظهورًا بالحجة والبيان)[(٢)]، فلابد أن يكون في هذه الأمة طائفة ظاهرة بالحق، إما أن يكون ظهورها على غيرها من الأمم بالسنان، وأنها تكون هي القوية، وهي الغالبة المنتصرة، وإما أن يكون ظهورها بما هو أعظم، بالحجة والبيان؛ لأن ظهور السيف والسنان كان بعد ظهور الحجة والبيان، ألم ترَ العهد المدني بعد العهد المكي؟!

إذا تبين ذلك، فإن مقتضى كون هذه الأمة وسطًا أن يكون هناك طرفان: طرف يفرط، وطرف آخر يغلو، ويفرط؛ فلهذا كانت أقسام الناس ثلاثة:

* وسط، وهم الخيار، الذين اتبعوا المصطفي ﷺ، وأصحابه، وأهل العلم الراسخون.

* وطرف يجفو، وهم أهل الجفاء، الذين فرطوا في أوامر الله، فلم يتبعوا أمر الله، وارتكبوا منهياته، ولم يرفعوا رأسًا بكل أوامره ﷺ، وما جاء في القرآن العظيم.

* والطرف الآخر هو الذي يغلو، وهم الذين غلوا، فجاوزوا الحد؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٢١).

معنى الغلو مجاوزة الحد في تحقيق الشيء، أو في ما يوصل إليه.

فغلا بمعنى: جاوز الحد، تقول - مثلًا - عن السعر إذا جاوز المعقول، وجاوز المعروف: غلا، يعني: جاوز الحد الذي أذن به، فهؤلاء غلوا في الدين، يعني: جاوزوا الحد الذي أذن لهم به، فلم يكونوا مع الأمة الوسط العدل الخيار، وإنما زادوا عليهم؛ رغبة في التعبد، ورغبة في رضى الله ﷻ، لكن ليس كل من أراد رضاء الله ﷻ يحصل عليه حتى يأتي بالبرهان، وهو اتباع المصطفي ﷺ في قليل الأمر، وكثيره من جهة تحكيمه على الهوى، وعلى ما تريده النفس، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ لهذا جاء في القرآن النهي عن الغلو، والنهي عن الطغيان، فقال ﷻ مخاطبًا أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷻ أيضًا في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وقال ﷻ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢]، والآيات في هذا المعنى متعددة، فدلت الآيات على أن الطغيان، ومجاوزة الحد، والغلو منهي عنه، قال ﷻ لأهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ومعلوم أن القاعدة المقررة أن النهي لأهل الكتاب في هذا نهي لنا؛ لأن الغلو في الدين أمر مذموم لكل من اتبع رسالة من رسالات أنبياء الله - عليهم صلوات الله، وسلامه -، فدلنا قوله ﷻ: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ على أن الغلو في الدين محرم؛ لأن النهي للتحريم، بل هو من أشد المحرمات؛ لأنه يبعث على

ارتكاب كثير من المحرمات، وهو وسيلة لآثار، ومحرمات كثيرة، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، بِمَ غلا أهل الكتاب في دينهم؟ جعلوا عيسى عليه السلام ابنًا لله، جعلوا له بعض خصائص الألوهية؛ كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عبد اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»[١]، يعني: لا تجاوزوا الحد في مدحي؛ كما تجاوز النصارى الحد في مدحهم لعيسي، فبلغ بهم ذلك أن عبدوه وألّهوه، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله، وما أعظمها من مكانة أن يكون رسولًا لله ﷻ.

إذا تبين ذلك، فإن هذه الأمة نهيت عن الغلو، وخاف عليها المصطفى ﷺ أن يكون فيهم الغلاة، **فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «الْقُطْ لِي حَصًى» فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ، فَارْمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»**[٢].

قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»، حتى في حجم الحصاة، حجم حجر الجمار الذي يرمي به قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**»، يعني: لا تظنن أن الخير، والتعبد، والقربة من الله، وكثرة الحسنات يكون في تكبير الحصاة، وإنما بمثل هذه فارمِ، وإياك أن تغلو في دين الله؛ لهذا خاف النبي ﷺ على الأمة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٩).

الغلو، والسبب قوله: «فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»، فالغلو سبب من أسباب الافتراق، وسبب من أسباب ضرب الأمة بعضها رقاب بعض، وسبب من أسباب الافتراق الوخيم، ومن القواعد المقررة ما قاله ﷺ: «الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»[(١)]، لهذا كان أوائل الغلو في عهده ﷺ فعَنْ أبي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: «بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَرْبَعَةِ: الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ المُجَاشِعِيِّ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزَارِيِّ، وَزَيْدٍ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ العَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ، وَالأَنْصَارُ، قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ». فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ؟ أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَلاَ تَأْمَنُونِي» فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ، - أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ - فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا، أَوْ: فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[(٢)]، يعني: أن الغلو كان عند هذا الرجل، وكان من آثار غلوه أنه سيتبعه أقوام على غلوه، قال: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا، أَوْ: فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمًا»، يعني: جماعة يتبعونه فيما يقول، أو فيما يفهم، قال: «يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» الحديث.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٢/ ٩٥، ٩٦)، كما أخرجه ابن أبي الدنيا في فضيلة الشكر (١/ ٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

كذلك جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)]، هذا من جهة العبادات.

بعد وفاة النبي ﷺ حصل بالأمة أنواع من الاضطرابات، والخلافات، خاصة في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه، ثم في عهد علي رضي الله عنه، حتى بدأت فتنة الخوارج، وكان سبب بدايتها مسألة التحكيم حيث دعا علي رضي الله عنه ومعاوية جميعًا أن يختار من يحكم في القضية من ذوي العلم والفهم، فدعي إلى التحكيم، فانفصلت فرقة من جيش علي وسموا بالخوارج، قالوا: كيف يحكم الرجال في دين الله؟ لم لا يحكم القرآن؟ والله عز وجل يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فخرجوا على عليٍّ رضي الله عنه، وكفروه، وكفروا الصحابة معه لأجل مسألة التحكيم، فذهب إليهم ابن عباس رضي الله عنهما، وجادلهم بالتي هي أحسن، حتى رجع معه ثلث الجيش في قصة معروفة[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٦٤، ٤/ ٢٠٢)، والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٠٩).

فكان أول غلو في التكفير في الأمة غلو الخوارج، وقد وصف النبي ﷺ الخوارج بقوله: «**يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١)، فحصل غلو الخوارج في التكفير، كفروا الصحابة، لم؟ قالوا: لأنهم لم يحكموا القرآن، وحكموا الرجال، والله ﷻ يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فلا حكم إلا لله ﷻ.

فهذا مبدأ الغلو، وكان من أسباب ظهوره اختلاف الوضع، وحصول القتال بين علي رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

بعد ذلك حصل - أيضًا - غلو آخر، وهذا الغلو جاء في إثبات الصفات. نظر قوم في صفات الله ﷻ، وقالوا: القرآن فيه إثبات الصفات، والسنة كذلك، فجاوزوا الحد في إثباتها، حتى جعلوا صفات الرحمن ﷻ دالة على التجسيم. فقالوا: إن الله ﷻ جسم، وله وجه كوجه الإنسان، وله عينان كعيني الإنسان... إلى آخره. فغلوا في الإثبات -والإثبات مشروع- فزادوا فيه، حتى جعلوا الإثبات تجسيمًا. والإثبات الحق الذي جاء في الكتاب والسنة على قاعدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إثبات بلا تجسيم، وتنزيه للمولى ﷻ عن النقص بلا تعطيل.

قابلهم فرقة أخرى غلت في ذلك، فجعلت تنزيه الله ﷻ فرضًا، وقالوا: لا يصلح أن ننزهه إلا بأن ننفي عنه الصفات. كما قاله الجهمية، والمعتزلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

فغلوا في التنزيه مقابلة ببدعة المجسمة وغلوهم، فغلوا حتى قالوا: إنه لا صفة للرحمن ﷻ، إلا صفة الوجود، أو إلا ثلاث صفات... إلى آخر ما هنالك. فكان سبب غلوهم أنهم أرادوا تطبيق القرآن في أنه ينزه الله ﷻ عما لا يليق بجلاله وعظمته، فغلوا في إثبات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فجعلوا ذلك دليلا على أنه ﷻ ليس له صفة - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا-.

أيضًا: نظرت طائفة في القدر، فوجدوا أن القرآن فيه إثبات القدر، فذهبوا إلى الجبر، وأن الإنسان ليس بمسير أصلا، وإنما هو كالريشة في مهب الريح؛ لأن الله ﷻ هو الذي يخلق الأفعال، وهو الذي يقدر الأشياء، ومعني القدر أنه سابق - هذا بحسب قولهم -: أن الإنسان مجبور عليه، والله ﷻ قدر الأشياء، وكتبها في اللوح المحفوظ؛ ليظهر علمه في خليقته، وأنه ﷻ بكل شيء عليم، أما الإنسان، فهو مخير فيما هو مناط في التكليف، وهذا أمر معروف. فغلوا في إثبات القدر، حتى جعلوا الإنسان مجبورًا، لا اختيار له.

أتى طائفة - أيضًا - بالغلو في التعبدات، قالوا: لا نَصِلُ إلى صفاء القلب، والي تزكية القلب حتى ننقطع عن الناس بالكلية، فخرجوا عن المدن، وسكنوا بعض الأديرة، وبعض الكهوف، واعتزلوا، حتى ظهر بعد فترة لهم طريقة جديدة، وهم الذين سموا بالصوفية، أو ما أشبه ذلك. من أجل اختلاطهم بالنصارى غلوا في طلب التعبد، فأتوا بتعبدات جديدة، أتوا بألبسة جديدة، ليس عليها هدي المصطفي ﷺ، ولا هدي صحابته، وهم يريدون رفعة الدرجات عند الله ﷻ، غلوا في الانقطاع عن الناس، والرغبة

في الخلوة، في التعبد لله ﷻ، وتسخير القلب لأن يجتمع على ذكر الله ﷻ، وعلى التفكر في ملكوته، فتركوا السنة في ذلك، وخرجوا عما أذن لهم به، فبلغ بهم الغلو أن أحدثوا طريقة جديدة في العبادات، وفي الأذكار، وأنواع التعبدات، فصاروا أهل فرقٍ، وأهل ضلالات كثيرة، توسعت مع الزمن، كل هذا في قسم العقائد، وفي قسم العبادات.

كان منشأ هذا الافتراق، ومنشأ هذه الأمور، وظهور هذه النحل والفرق، كان منشؤه الغلو في الدين، ولو أخذوا بالسنة، ولم يزيدوا عليها، لما حصل هذا الافتراق العظيم، ولما حصل هذا التضليل والتكفير بالأمة، ولبقيت الأمة قلبًا واحدًا، ولكن هكذا اقتضت حكمة الرحمن الرحيم، أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وهذا الذي خشي منه المصطفى ﷺ؛ حيث قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١)، ووقع هذا في هذه الأمة.

إذا نظرنا إلى أسباب ظهور الغلاة، وهذا مهم، لا بد أن ننظر إلى أسباب ظهور الغلاة؛ حتى لا نقع فيما وقعوا فيه؛ لأن كلًا منا يريد الخير، ويريد التقرب إلى الله ﷻ، فإذا عرف أسباب ظهور أهل الغلو، فإنه يجتنب تلك الأسباب، ويأخذ بالحزم في دين الله؛ حتى لا يساق إلى نوع من الغلو من حيث يشعر، أو من حيث لا يشعر.

فأسباب ظهور الغلو متعددة، لكن نذكر منها أشياء بما يوافق مدة هذه

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٠٦).

المحاضرة. فمن الأسباب:

أولًا: عدم فهم القرآن على طريقة الصحابة رضي الله عنهم، وأخذنا هذا من قول النبي ﷺ في وصف الخوارج - وهو وصف عام لكل أهل البدع -، قال: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»(١)، يعني: أنه لا يجاوز كونهم يتلفظون به، وآخر الأحرف خروجًا من الحنجرة، فإذًا: هو لا يدخل إلى القلوب على وجهه الصحيح، ولو دخل إلى القلوب، فإنما يدخل على فهمهم الذي أخطؤوا فيه، وضلوا فيه، وهذا لا يعني أن القرآن دخل إلى القلوب؛ لأن القرآن إذا دخل إلى القلب على حقيقته، فإنه يهدي ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]. فحقيقة هذا السبب أن أولئك لم يتدبروا القرآن التدبر الصحيح على فهم الصحابة رضي الله عنهم، بل كما ظهر في الخوارج أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا لهم معنى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]: كذا، فأبوا، قالوا لهم: معنى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]: كذا، فأبوا. فإذًا: ما أخذوا بفهم الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فأُتوا من جهة عدم تدبرهم للقرآن. والله عز وجل أمر عباده أن يتدبروا القرآن، فقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، أي: أن من لم يتدبر القرآن التدبر الصحيح، فإن على قلبه قفلًا - شاء أم أبى - حجزه عن تدبر القرآن التدبر الصحيح: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء: ٤٦]، فهذا هو السبب الأول: ترك تدبر القرآن التدبر الصحيح، والأخذ بما يعن

(١) سبق تخريجه (ص ٢٠٧).

للذهن، والفهم من غير تأهيل، لا أن يكون مفسرًا، أو مستوعبًا لمعاني القرآن. فيترك التدبر الصحيح، ويأخذ بما يعن لذهنه، مع عدم تأهله لذلك، فلايسأل أهل العلم عما أشكل عليه، فإذًا: ترك فهم القرآن الفهم الصحيح هذا أول أسباب ظهور الغلو في هذه الأمة، والله ﷻ ابتلى الأمة بذلك.

السبب الثاني: وجود المتشابه في الكتاب والسنة؛ فإن الله ﷻ قال في أوائل سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فالقرآن منه محكم، ومنه متشابه، معنى المحكم: البين الواضح، الذي يفهمه كل أحد. وهناك متشابه يشتبه معناه إلا على الراسخين في العلم، وخاصة في مسائل الغيبيات، وفي مسائل الأحكام، فهذه يشتبه معناها إلا على من رسخ في العلم، فيرد المتشابه إلى المحكم، فيتبين المعنى.

فأهل الزيغ الذين وقع في قلوبهم الزيغ يذهبون إلى القرآن، فيتبعون المتشابه؛ ليخرجوا الحجج لهم، وليس لهم حجة فيما ذهبوا إليه، فتأمل قول الحق ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧]، فجعل وجود الزيغ في القلب أولًا، ثم جعل أن هؤلاء الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه، فوجود الزيغ سبق، ثم بعد ذلك أولئك تتبعوا المتشابه؛ ليبحثوا لهم عن حجة، وهذا خلاف التسليم لأمر الله ﷻ، فالتسليم للأمر أن تأتي

القرآن، وليس في قلبك اعتقاد إلا ما دل عليه القرآن، أما أن يأتي بشيء في قلبه، ثم يبحث في المتشابه من القرآن عن الحجة، فإنه قد يجد الحجة في القرآن بحسب فهمه على أشياء كثيرة.

النصارى احتجوا على خصوص بعثة النبي ﷺ للعرب بقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وبقوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقالوا: هذا دليل على أن الرسالة خاصة، لكن هل هذا فيه حجة؟ ليس كذلك. أين قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]، والآيات الأخر.

إذًا: فوجود المتشابه في القرآن ابتلى الله به هذه الأمة، ومنه الآيات التي فيها الكلام على التكفير، أو الآيات التي فيها الصفات، والغيبيات، ونحو ذلك، وبعض الأحكام، فهذه متشابهة، بمعنى: يشتبه علمها إلا على أهل العلم الراسخين، فينزلون كل آية منزلتها الصحيحة، يعني: يجعلون لها معناها الذي يجعل القرآن مؤتلفًا غير مختلف، فماذا نعمل؟ الواجب أنه إذا جاءنا شيء من الحجج من القرآن، ونحن لا نعلم معناه، لا نجتهد في تفسيره على ما يعن لنا، بل نسأل فيه أهل العلم الراسخين؛ لأنه بذلك السؤال نرجعه إلى المحكم، ونخرج من الزيغ؛ لأن الله وصف الذين يتبعون المتشابه بأنهم أهل زيغ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

أيضًا: السنة فيها متشابه؛ لأن الله ﷻ جعل من كلامه متشابهًا، فكذلك جعل من السنة متشابهًا، أحاديث ما نعرف معناها، لو نأخذ معناها

بمفردها، لوقعنا في أمر منكر، فجعل الله ﷻ هذه الأمة مبتلاة بأن يكون هناك أحاديث مشتبهة، لا يتضح معناها إلا لأهل العلم: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١]، هل بكلمة لا إله إلا الله يكتفي، أم لا بد من الشهادة وتمام الشروط؟ إلى آخر ذلك.

فإذًا: هناك أحاديث متشابهة، يعني: يشتبه معناها، فيتضح المعنى بردها إلى غيرها. إذا كان كذلك فمن باب أولى أن يوجد المتشابه في كلام الصحابة ﷺ، أو في أفعالهم، وأن يوجد المتشابه في كلام العلماء، وفي كتبهم، وفي تصرفات بعض أهل العلم في التاريخ.

فإذًا: ليست الحجة قائمة بوجود نوع احتجاج لمن يذهب أي مذهب من مذاهب الغلو، لا. الذي يكون حجة هو أن تكون الحجة صحيحة في نفسها محكمة، وأن يكون قول العالم له دليله من الكتاب والسنة، أو من إجماع أهل العلم، أو من عقائد أهل السنة والجماعة، أما أن يذهب المحتج، فيحتج بقول عالم، ويترك أقوال العلماء الآخرين، أو يحتج بما وجد في الكتاب، ويترك ما وجد في كتب علماء المسلمين المحققين، فهذا يحدث الغلو، الآن من أسباب ظهور الغلو الذهاب إلى المتشابهات، وترك المحكمات، أو عدم العلم بالمتشابهات، والمحكمات.

إذا نظرنا اليوم وما قبله في ظهور أهل الغلو، تجد أنهم يحتجون، هل الذي ظهر عنده غلو ليس عنده أي كتابة، ولا أي دليل، ولا أي حجة؟ لا،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٣٢٨)، وأصله عند البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤) بلفظ: «**ما مِنْ عبْدٍ قال: لا إله إلّا اللّهُ، ثُمّ مات على ذلِك إلّا دخل الجنّة...**».

عنده كتابات، ربما ألف كتابًا، أو أكثر، وعنده نقول، لكن ليس الحجة في وجود النقول، الحجة في أن تكون هذه النقول صحيحة، يعلمها أهل العلم، أما وجود النقل من حيث هو، فيوجد كثير من الشبهات من المشتبهات في الكتاب والسنة، وفي أفعال بعض الصحابة، وفي أفعال بعض التابعين، وفي أفعال العلماء، وأقوالهم، وما هو موجود في الكتب، وهذا ابتلاء عظيم، إذا لم يلحظ سبب ظهور الغلو.

فإذًا: الواجب على المسلم أنه إذا أُتي بشيء من المتشابهات التي لا يعلم أن أهل العلم يقولون بها، فلا بد أن يردها إلى أهل العلم، فيسْلَم؛ لأنهم يبينون له المعنى، ففي وقت الصحابة ﭫ يرد إلى الصحابة ﭫ، وفي وقت التابعين يرد إلى علماء التابعين، وفي كل زمن يرد ما أشكل إلى علماء ذلك الزمن؛ لأن هذه الأمة يوجد فيها علماؤها؛ لأنه من القواعد المقررة أنه لا يجوز أن يخلو زمان من قائم لله بحجة؛ لأن معنى ذلك اندثار الدين، وهذا ليس في الإمكان؛ لأنه لا بد أن يكون هناك عالم راسخ في العلم يقوم بحجة الإسلام، ويرشد إليه، ويدل عليه، ويحتج له، ويبرهن، ويدلل عليه.

إذا أشكل عليك شيء من الأوضاع، والأحوال، والأحكام، والأحاديث وكلام العلماء، أو هو موجود في الكتب، فلا تأخذه، وتتدارسه أنت وصاحبك، ثم تخرجون بآراء، بل لا بد أن ترجعه إلى أهل العلم، فيبينون لك المعنى، فإذا نصحوك، فانتصح؛ لأنهم أشفق هذه الأمة على الناس ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٧]

السبب الثالث من أسباب ظهور الغلو: ظهور أوضاع، وأحوال

لا ترضي من ذهب إلى الغلو، ففي عهد النبي ﷺ قسم المال ﷺ، فلم يرض ذاك الرجل، فقال: يا رسول الله اعدل[١]. يعني: ذلك الحال لم يرض ذاك الرجل، فجره عدم رضاه إلى الغلو.

كذلك ما حصل في عهد عليٍّ رضي الله عنه من ظهور الخوارج بسبب عدم رضاهم بحكم علي وبما حصل، أداهم ذلك إلى الغلو.

ظهور أوضاع سياسية مختلفة، أو ظهور تغير في الأحوال، أو فتن سبب من أسباب الغلو. فما الذي يجب هنا لندرأ هذه الأسباب؟ بعض الناس يقول: الغلو سببه فساد الأوضاع. وهذا ليس بصحيح مطلقًا، بل ظهر الغلو في عهد النبي ﷺ، وهو أعدل من يعدل ﷺ، وهو رسول الله ﷺ، ظهر الغلو بسبب أوضاع الصحابة بعضهم مع بعض، وعلي رضي الله عنه محق فيما ذهب إليه، فظهر غلو الخوارج لا بسبب فساد في الصحابة، ولكن بسبب فساد في فهم الخوارج.

إذًا: تغير الأوضاع قد يكون صوابًا، أو الحال والوضع الذي نشأ عنه الغلو قد يكون صوابًا، فنظرة هذا الذي غلا إليه، لم تكن النظرة الصحيحة، فغلا بسبب نظرته الخاطئة، هذا قسم.

القسم الثاني: تغير في الأوضاع، وفي الأحوال بسبب ذنوب الناس. الناس خالفوا الشريعة، وظهرت أوضاع مخالفة للشريعة، فهذا الذي غلا نظر إليها بغير النظرة الشرعية الصحيحة، فغلا في الحكم عليها، فأداه إلى الغلو.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٠٧).

إذًا: ننتبه إلى أنه إذا رأينا تغيرًا في الأحوال، والأوضاع، وظهورًا في الفتن، أو جاء شيء لا نعلم وجهته، فلا بد أن نحذر؛ لأن هذا أحد أسباب ظهور الغلو في التاريخ كله من عهد النبي ﷺ - بل وما قبله - إلى زمننا هذا.

إذا تغيرت الأحوال والأوضاع، لا بد أن يظهر نوع من أنواع الغلو؛ لأنه ليس كل أحد يرجع إلى الشريعة، بل لا بد أن يوجد عصاة، وأن يوجد خارجون على الشريعة.

فإذًا: ننتبه عند تغير الأحوال والأوضاع، فقد يكون سبب الغلو تغير الأحوال والأوضاع، وليس دائمًا سبب الغلو فساد الأوضاع، بل تغير شيء، قد يكون التغير صحيحًا في نفسه، لم يفقهه الذي غلا، فغلا، أوقد يكون التغير ذنبًا، وجرمًا، أو كبيرة، أو نحو ذلك، فيجره إلى الغلو؛ لأنه ما وضعه في الميزان الصحيح للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو لأحكام الشريعة.

سؤال: هل الذي غلا يريد عناد الشريعة، ويريد البعد عن الله ﷻ؟ لا، بل الغالب أن يكون الذي غلا يريد زيادة في التعبد، زيادة في القرب من الله ﷻ، من أين أخذنا ذلك؟ من قوله ﷺ في وصف الخوارج: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصَوْمَهُ مَعَ صَوْمِهِمْ**»[1]، يعني: أنهم عندهم زيادة في التعبد، فالذين يغلون لا يدل على أنهم ليسوا غلاة أنهم كثيرو التعبد، لا، بل قد يكون صالحًا في الظاهر، من جهة كثرة العبادات،

(١) حديث الخوارج المشهور، أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٣٦١٠، ٤٣٥١، ٤٦٦٧، ٥٠٥٨، ٦١٦٣، ٦٩٣١، ٦٩٣٣، ٧٤٣٢، ٧٥٦٢)، ومسلم (١٠٦٤، ١٠٦٦).

والصيام النفل، والطاعة، وملازمة المساجد، والغيرة على دين الله، والأمر، والنهي. . . إلى آخره، ولكنه يكون على باطل؛ لأنه هو يريد التقرب، ولكن أراد التقرب بالغلو في دين الله، مثل: الخوارج قتلوا عليًا رضي الله عنه، عبد الرحمن بن ملجم تقرب إلى الله بقتل أفضل رجل على الأرض في ذلك الزمان، ولما أُتي به ليقتل قال: قطعوني، ولا تقتلوني مرة واحدة. لِمَ؟ قال: حتى تطول مدة ذكري لله عز وجل، وهو مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وهو من كلاب النار، ومع ذلك انظر هذا الشغف بالعبادة.

فإذًا كونه يتعبد، أو عليه مظاهر الصلاح، أو نحو ذلك، لا يعني أنه ليس بذي غلو، بل الذي يغلو يريد مزيدًا من التقرب إلى الله عز وجل. بل هناك خارجي آخر مدح عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل عليًا بعد عقود من الزمن بقوله:

يَا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

إنّي لَأَذكُرُهُ حينًا فَأَحسبُهُ ... أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللَهِ ميزانا[(١)]

فبلغ بهم الحال إلى أنهم يعتقدون أن هذا الذي قتل عليًّا أنه أفضل الناس في زمنه، وهذا - والعياذ بالله - من أسباب الضلال، أن يكون التقييم على الظاهر: رجل صالح، وصاحب صلاة. . . إلى آخره، هذا ليس هو التقييم، التقييم: هل هو على السنة، أم لا؟ هل هو على اعتقاد أهل السنة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٤).

والجماعة، أم لا؟ هل هو على طريقة السلف الصالح، أم لا؟ هذا هو الميزان، أما الصلاح الظاهري، ونحو ذلك، فهذا يشترك فيه الغالي والوسط، وهو في حق الغالي مذموم؛ لأنه ما أداه إلى الحق.

إذا تقرر هذا وتبين، فنذهب إلى مظاهر الغلو. ما مظاهر الغلو في الوقت المعاصر، وهي موجودة - أيضًا - في تاريخ الأمة؟ نقول: الغلو يكون في بابين عامين:

الأول: في العقائد.

والثاني: في العبادات.

فيما يتصل بالعقيدة الغلو أقسام، فمنهم من غلا في حبه، وتعظيمه لبعض بني آدم، غلا بعضهم في الأنبياء، والمرسلين، فجعلوا لهم بعض صفات الإلهية، غلا النصارى في عيسى، غلا اليهود في عزير، غلا بعض هذه الأمة في محمد بن عبد الله ﷺ، كيف غلوا في محمد ﷺ؟ قالوا: إنه ﷺ يملك أن يغيث من استغاث به بعد مماته، يملك أن يجير من استجار به بعد مماته. اذهب. . . ؛ لأنه لا يرد له طلب. جعلوا النبي ﷺ له علوم مختصة بالله ﷻ؛ كما قال: شاعرهم:

فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيا وضَرَّتَها وَمِنْ عُلُومِكَ عِلمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ[1]

من جوده الدنيا وضرتها - يعني: الآخرة -، هذه كلها للنبي ﷺ، ومن علومه علم اللوح والقلم، يعني: يعلم ما في اللوح المحفوظ. هذا غلو في

---

(١) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٥٢).

وصفه ﷺ، بل بلغ بهم الغلو في المصطفى ﷺ أن قالوا: القرآن في الحقيقة لا يناسب أن يكون معجزة للنبي ﷺ، وقالها - أيضًا - البوصيري في مفهوم كلامه في نونيته؛ حيث ذكر بعض معجزات النبي ﷺ، فقال:

لو نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمًا   أَحْيَا اسمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ(١)

يعني: لا يناسبه شيء من الآيات التي أوتيها، لا القرآن، ولا شق القمر ... إلى آخره، لو ناسبه شيء، لناسبه شيء واحد، وهو أنه حين تذكر اسمه ﷺ على ميت دارس الرمم قد صار رميمًا، لحيا لك، وصار يتحرك هذا الذي يناسب قدره ﷺ، أما غير ذلك، فلا يناسبه، وقاله بعض الشراح، لما ساق هذا الكلام، قال: وهذا هو الواقع، فإن قدره ﷺ لا يناسب المعجزات التي أعطيها، حتى القرآن المتلو.

هذا نوع من الغلو، أداهم هذا الغلو إلى أن يجعلوا النبي ﷺ يعبد، ويطلب منه، ويستغاث به، له صفات الألوهية.

كذلك غلا طائفة في الأولياء والصالحين، فجعلوا الأولياء والصالحين يُذهب لهم، ويُنذر لهم، ويُذبح لهم، ويُدعون، ويُستشفع بهم، ويُستغاث بهم... إلى آخر مظاهر الشرك الأكبر. هذا من جراء الغلو فيهم، لم؟ قال: هذا له مقام عظيم عند الله ﷻ. فغلا، يعني جاوز بالعبد الصالح الحد، فجعل له بعض صفات الألوهية، والنبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(٢)، وقال ﷺ: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ**

---

(١) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٤١).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢٢٣).

مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عبد اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»[١]، كذلك غلا طائفة في العلماء، وجعلوا قول العالم مقدمًا على قول النبي ﷺ، تقول لهم: قال رسول ﷺ، يقول: لا أترك قول الإمام فلان. الإمام فلان ربما ما بلغه هذا الحديث، والحجة واضحة، ما بلغته السنة، فيقول: لا أتركه. ووجد في بعض الكتب أن المؤلف قال: وقال إمامنا: كذا، وفي صحيح مسلم: كذا، فالله أعلم أيهما الصواب. هذا غلو، جعلوا العالم له التشريع، والعلماء في هذا الدين - دين الإسلام - إنما هم وسائط لإفهامنا الكتاب، والسنة، وطريقة سلف هذه الأمة، هذه وظيفة العلماء، أما العالم، فلايستقل، يشرع شيئًا من عنده، لم يكن له أساس، إلا في المسائل الاجتهادية التي لا نص فيها، فيجتهد بإلحاق هذه المسألة المجتهد فيها بأصولها من الأدلة، أو القواعد. . . إلى آخره مما هو معلوم في أبواب الاجتهاد من أصول الفقه.

كذلك الغلو في الولاة والأمراء، مثلما بوب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إمام هذه الدعوة بقوله: باب من أطاع العلماء، والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله. الوالي يطاع في غير المعصية، أما إذا أمر بمعصية، فلا يطاع، فإذا تُجُوِّزَ به الحد، فجعل يطاع في كل شيء، ويجعل أمره صراطًا مستقيمًا، هذا نوع من أنواع الغلو في حقه، فحقه أن يطاع في غير معصية الله، وأما إذا جعل يطاع في الطاعة، ويطاع في المعصية، وفي كل شيء، كان المطيع له قد تجاوز الحد به.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٠٦).

هذه أمثلة في طاعة الأشخاص، أيضًا من مظاهر الغلو - الموجودة اليوم وما قبله - الغلو في مسائل التكفير، مثلًا الغلو في الحكم بغير ما أنزل الله، الحكم بغير ما أنزل قال الله ﷻ في شأن الحاكم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد قال لنا علماء السنة، ومن الصحابة، فمن بعدهم: إن الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله كفره كفر أصغر، إلا إذا اعتقد أن حكمه مساو لحكم الله، أو أن حكمه بغير ما أنزل الله جائز، أو أنه أفضل... ونحو ذلك، أما إذا حكم، وهو يقول: حكم الله أفضل، لكن غلبتني شهوتي، أو هكذا الزمن، أو نحو ذلك، وإلا فإنه لا يجوز لي أن أفعل ذلك، فلا يكفر الحاكم بغير ما أنزل الله إذا حكم في قضية وأشباه ذلك. فهناك من جاوز الحد، فقال: يكفر الحاكم بغير ما أنزل الله مطلقًا، ما نستفصل منه، ولا نستفسر، ولا يجوز لنا أن نقول له: كذا، وإلا ربما كان كذا، بل إذا حكم، فيكفر. وجعلوا الآية في الكفر الأكبر، ونصوص الصحابة ﷺ واضحة - كابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما -، وهي موجودة في تفسير ابن جرير، وفي غيره. يقول: هؤلاء الذين في البلاد التي تحكم بغير ما أنزل الله، الذين يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله كفار، حلال الدم، لم؟ قال: لأنه يحاكم إلى غير ما أنزل الله. هذا غلو، ومجاوزة في الحد؛ لأن الله ﷻ جعل لنا الحد الذي يكفر به المتحاكم: ابتغاء حكم غير الله، والرضا به، وإرادته، واختياره. بهذه الشروط، قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] فقال: ﴿يُرِيدُونَ﴾ فجعل الإرادة شرطًا، فإذا تحاكم وهو كاره، أو وهو مضطر، أو وهو مكره، أو ما أشبه ذلك، فهنا لا يكفر المتحاكم؛ لأن الآية نصت على الإرادة،

والإرادة هنا قيد: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] في مسائل كثيرة تتعلق بالحكم والتحاكم... إلى آخره.

فإذًا: مسائل الحكم بغير ما أنزل الله يجب درءًا للغلو فيها أن ترد إلى أهل العلم؛ لأنها هي ظاهرة هذا الزمن في أنهم يكفرون بأي صورة من صور الحكم أو التحاكم، وهذه فيها تفاصيل، ولها أحوال، ولها شروط، فلابد من ردها إلى أهل العلم؛ حتى لا نكون جاوزنا الحد فيما أنزل الله ﷻ.

من مظاهر الغلو التي شاعت في هذا الزمن -أيضًا- عند طائفة التكفير بالقاعدة: (من شك في كفر الكافر، فهو كافر مثله)، فيأتي يقو: فلان كافر. لأنه تحاكم. ومسألة التحاكم فيها مثل ما ذكرنا لها قيود، وشروط، فيجعلها أصلًا ثم يقول: من لم يكفر فلانًا، فإنه كافر مثله. لأن القاعدة، من لم يكفر الكافر، فهو كافر مثله، ومن شك في كفر الكافر، فهو كافر مثله. والقاعدة صحيحة لكن الفهم، فهم غلو، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نص في الفتاوى بقوله: (وحيث قال العلماء: من لم يكفر الكافر، فهو كافر مثله، أو من شك في كفر الكافر، فهو كافر مثله. فمرادهم من نصَّ الله، ورسوله على كفره؛ لأن في عدم تكفيره تكذيبًا لله، ولرسوله ﷺ في تكفير الله، ورسوله لذلك المعين).

ومن مظاهر الغلو في هذا الزمن: جعل المجتمعات الإسلامية جاهلية بعموم، فيقولون: إن المجتمعات اليوم ليست بإسلامية، وإنما هي جاهلية. ويترتب على ذلك أن الفرد في داخل هذه المجتمعات الأصل فيه أن يكون جاهليًّا، فيتوقف في شأنه، حتى ولو كان ظاهره الإسلام، ويصلي،

يتوقف في شأنه، حتى يعلم أنه على اعتقاد صحيح، يوافق اعتقاد أولئك الغلاة، فلا يحكمون بإسلام من أظهر الإسلام، وإنما يقولون: الأصل في الناس الكفر والجاهلية. وهذا - والعياذ بالله - غلط وباطل؛ لأنه يصح أن نقول: الأصل في الناس اليوم الجهل بالإسلام، والأصل فيمن أظهر الإسلام أنه مسلم، فلا ينقل عن هذا الأصل إلا بشيء بين واضح، أما الحكم بالعموم هكذا، فإنه من مظاهر الغلو؛ لأنه لا برهان عليه، والجاهلية العامة لا تعود؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن هذه الأمة لا تزال منها طائفة على الحق ظاهرة ببيان حكم الله، وحكم رسوله ﷺ[1].

نتج من ذلك أنهم يعتبرون الناس اليوم، والتعامل معهم كما يتعامل مع المشركين في العهد المكي مثلًا، فيتعامل الرجل، أو المرأة مع الوالد والوالدة كما يتعامل مع الوالد المشرك والمشركة في العهد المكي، ويجعلون الآن العهد عهدا مكيًّا، وأما العهد المدني - حيث تكون الأحكام، ويكون المجتمع مجتمعًا مسلمًا -، فلم يأت بعد - على حد زعمهم -، وهذا - كما ترى - غلو في مسألة التكفير، غلو جاء من جهة أنهم جعلوا لوازم للأشياء، فطبقوها، حتى خرجوا بأن المجتمعات جاهلية، ومن المعلوم أن هناك قواعد عند أهل العلم تضبط حكم المجتمع، حكم الدار، حكم الفرد فيما إذا أظهر حكم غير المسلم في دار المسلمين... إلى آخره، فهذه كلها لها أحكام، ينتج من هذه المظاهر أنه يستباح الدم، ويستباح المال، وقد رأيتم فيما سبق، وسمعتم في هذه البلاد، وفي غيرها

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢١٧٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه، ونصه: «**لا تزالُ طائِفةٌ مِنْ أمتي على الْحقِّ ظاهِرِين لا يضُرُّهُمْ منْ يخْذُلُهُمْ حتّى يأتي أمْرُ اللّهِ**».

مظاهر من مظاهر استباحة الدماء، واستباحة الأموال، وهي راجعة إلى مسألة الغلو في التكفير، مسألة الغلو في التكفير باللوازم، وفي التكفير بالحكم في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله، وأشباه ذلك، فلهذا يجب على كل أحد أن يحرص على أن يكون علمه بهذه المسائل علمًا سنيًا واضحًا سلفيًا، على طريقة السلف الصالح ﷺ، هذا أولًا.

والثاني: أنه من كانت عنده شبهة فليذهب إلى من يحاوره فيها، يجلو عنه الشبهة؛ لأنه لابد أن يكون ثم قائم لله بالحجة، أما أن يكون عامة علماء المسلمين على الضلال، ويكون هناك من يأتي، ويكفرهم، ويقول: إنه على الحق، فهذا لا شك أنه باطل؛ لأن ما بني على باطل، فهو باطل، إذا تبين هذا، فينبغي لكل من عرف من عنده مظهر من مظاهر الغلو أن يسعى في مناصحته، أو أن يدل أهل العلم عليه؛ حتى يحاوروه، ويردوه إلى الحق، ويناصحوه، ويقيموا عليه الحجة، ويبينوا له المحجة.

هذا يتعلق بالقسم الأول، وهو ما يتصل بالغلو في العقائد، أو فيما يتصل بالعقيدة.

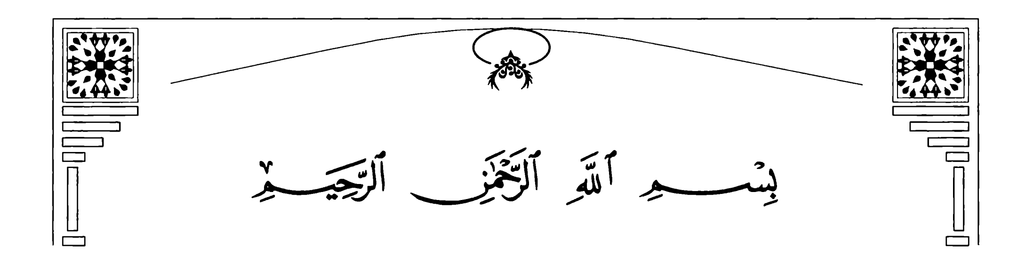
القسم الثاني: الغلو في العبادات.

وقد ذكرنا لكم أمثلة على ذلك: من جهة الغلو في الأذكار، ومجاوزة الحد فيها بالذهاب إلى البدع المحدثات، أو الغلو في الصلوات، أو إحداث أنواع من التعبدات، والطقوس، وأشباه ذلك مما لم يأت في السنة، أو أنواع الغلو في المحبة، وإحداث الاحتفالات، وأشباه ذلك البدعية، فهذا كله داخل في أنواع الغلو التي سببها مجاوزة الحد

المشروع مجاوزة تؤدي إلى غير المشروع.

أسأل الله ﷻ أن يلهمني، وإياكم الرشد والسداد. وهذه المحاضرات في هذا المسجد - ولله الحمد - كثير منها في إرشاد أهل الجفاء، ومنها ما فيه إرشاد لأهل الغلو، ومنها ما فيه تسديد لأهل الوسط، وتثبيت لهم، وبيان الحق، فهي - ولله الحمد - منقسمة لكل فئة، وما يصلح لها؛ ولهذا الاهتمام بهذه المحاضرات التي تقام في هذا الجامع المبارك، وبالندوات، وبالتعليق عليها من أصحاب السماحة المشايخ هذا مما يجعل صاحب الدين في ازدياد من الخير، وفي بصيرة من أمره، أسأل الله لي ولكم النور في القلب والسداد في القول والعمل، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها، وما بطن، وأن يعيذنا من الزيغ، وأن يجنبنا كل ما فيه خروج عن الهداية، والصراط المستقيم. اللهم احفظنا بالإسلام، اللهم احفظ ولاة أمورنا، ودلهم على الرشاد، وباعد بينهم، وبين سبل أهل الفساد، وألهمهم اللهم الرشد والسداد، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر، والتقوى، اللهم وفق علماءنا إلى ما فيه مزيد بيان للحق، وإيضاح للحجة، والمحجة، واجعلهم من المجاهدين في سبيلك، الذين تقبلت سرهم، وعلانيتهم؛ إنك على كل شيء قدير، وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.

❀ ❀ ❀



أيها الأحبة أنتم على موعد مع تعليق مبارك من صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، بالتعليق على محاضرة صاحب الفضيلة الشيخ صالح آل الشيخ، التي كانت بعنوان: «**التحذير من الغلو في الدين**» فليتفضل جزاه الله خيرًا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، اللهم صل، وسلم، وبارك على سيد الأولين والآخرين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، نبينا محمد صلى ربي عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وكرمك يا أرحم الراحمين، وبعد: فلقد استمعنا جميعًا إلى المحاضرة القيمة، التي عنوانها: «**التحذير من الغلو في الدين**»، والتي قام بإلقائها معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ نائب وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد. الواقع أن هذه المحاضرة القيمة عن قضايا الغلو، وأصل الغلو وأساسه، ومَنشَئِه وأسبابه، وأسباب الوقاية منه، فأتى بما لا حاجة إلى المزيد عليه، ولقد وفّى المقام حقه، وتحدث حديثًا صحيحًا صريحًا مبنيًا على الأدلة من الكتاب والسنة، فوفقنا الله وإياه

لكل خير. الله ﷻ بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، وجعل شريعته شريعة اليسر، قال الله ﷻ لما فرض الصيام وبين حكم المسافر وغيره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فأخبرنا أنه يريد بنا التيسير علينا، ولا يريد ما فيه عسر علينا، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، وقال ﷻ في حق محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فمحمد ﷺ وضع الله به عنا الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، إما عقوبة لهم، وإما هكذا شريعتهم، فالله ﷻ وضع بمحمد عنا الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، فصارت شريعتنا يسرًا وسهولة، يقول ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(١)، ويقول: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(٢)، ويقول: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**»(٣)، إذا تأمل المسلم شريعة الإسلام، وجدها بعيدة عن مظاهر الغلو، ووجد مظهرها مظهر اليسر في كل أحوالها، سواء في معتقداتها، أو في عباداتها، ولكن هذا لمن وفقه الله، وبصر قلبه، وشرح صدره للحق، فعرف الحق على حقيقته، والباطل على حقيقته، ولم تلتبس أمامه الأشياء.

أولًا: لننظر إلى قضية الإيمان، فأهل السنة والجماعة يقولون الإيمان: أقوال وأعمال: قول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح، يزيد

---

(١) أخرجه الطيالسي (ص٣٤٠)، والطبراني (١١/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٠، ٦١٠، ٦١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩).

وينقص: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، فالإيمان عندهم يزيد وينقص، والناس متفاوتون في هذا الإيمان قوة وضعفًا.

ويرى أهل السنة - أيضًا - أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وفسق: إيمان طاعة ومعصية، صلاح وفساد، فهو من جهة بعض الأشياء مؤمن، ومن جهة الإخلال ببعض واجبات الإيمان قد يفسق، ففسقه ومعصيته لا تسلب عنه مسمى الإيمان، فإن الله وصف المؤمنين بالإيمان مع وجود بعض المخالفات، قال ﷻ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وهو قاتله، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]، فجعلهم مؤمنين مع وقوع هذا الأمر منهم، يدل على أن العبد يوجد فيه إيمان ومعصية، طاعة ومعصية، وأنه يكون مؤمنًا ناقص الإيمان، ولا يرفع عنه مسمى الإيمان إلا الكفر، والعياذ بالله.

جاءت الخوارج الذين غلوا في دين الله، فقالوا: الإيمان جزء واحد، إما أن تعمله كله، فتكون مؤمنًا، إن أخللت بشيء منه، فأنت كافر، فقالوا: كل من خالف الإيمان بأدنى مخالفة، قلنا: أنت كافر، وأنت مخلدٌ في النار، فبنوا على هذا أن مجرد المخالفة يستباح بها الدماء والأموال، وحتى على رأيهم الباطل عندما كفروا الصحابة، وحكموا بكفرهم، فهم يكفرون عثمان وعليًا وطلحة والزبير، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وسائر أصحاب رسول الله ﷺ، يقولون: هؤلاء أذنبوا، ففسقوا، فكفروا، فلا دين لهم، وبنوا على هذا أنهم لا يقبلون السنة، يقولون: حملة السنة كفار، لا دين لهم، هكذا مذهبهم الباطل؛ ولهذا في عهد علي لما حُكِّمَ الحكمان،

قالوا: أنتم بين أمرين: إما أنكم كفار؛ إنكم حكمتم الرجال في كتاب الله، فأنتم كفار، فتوبوا من كفركم، وإلا قاتلناكم. فناظرهم علي رضي الله عنه، بعث ابن عباس رضي الله عنهما لهم يناظرهم، فرجع من رجع منهم، وأصر من أصر منهم، فقاتلهم علي، وكان الخوارج سيوفهم مسلولة على أهل الإيمان، مغمودة عن أهل الكفر والأوثان، ولهذا في الحديث: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»[1]، فأي معصية عندهم يحكمون بكفر صاحبها، ويقولون: الإيمان لا يتجزأ، ولا يمكن أن يجتمع إيمان ومعصية، ولا إيمان ومخالفة هو إما إيمان، وإما كفر، وهذا على هذا القول الضال، رووا نصوص الكتاب والسنة، وعارضوها بما وقع في قلوبهم من الزيغ والضلال، وهم عُبَّاد، أهل صلاة وتلاوة للقرآن وتعبد، لكن - والعياذ بالله - زاغت قلوبهم عن فهم الحق، فلم يستطيعوا، ولم تنشرح صدورهم لأن يجمعوا بين سعة رحمة الله وفضله، وبين قصور الإنسان ومخالفته، ثم من هذا الغلو - أيضًا كما أشير إليه - أن بعضهم تشاءموا في الناس، تشاءموا من كل المجتمعات، وغلب عليهم هذا التشاؤم، حتى عدّوا الناس جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وحكموا على الناس بما حكموا عليه.

ومن آثار هذا الغلو الذي استبيحت به الدماء والأموال التأويلات الخاطئة، والأفهام الزائفة، حتى استحلوا بها دماء - أما مسلمين، أو دماء معاهدين ومستأمنين -، وغلطوا حيث لم يفهموا نصوص الكتاب والسنة في احترام الدماء والأموال لأهل الإسلام، وأهل الذمة ومعصوم الدم والمال،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

هذا الغلو ينشأ عن الإنسان حتى في وضوئه، فكم من موسوس في وضوئه، وكم من معتد في طهارته، ولهذا يقول ﷺ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»(١)، في الوضوء اعتداء بألا يكتفي بثلاث مرات، بل ربما غسل العضو عشر مرات، وربما بقي في دورة المياه في إزالة النجاسة، أو غسل أعضاء الوضوء ساعة كاملة، كلما توضأ رأى أنه نجس، وكلما أزال النجاسة، رأى أنها باقية، فغلا في دينه غلوًّا خرج به عن المشروع.

وبعضهم غلا حتى في صلاته، ففعل فيها فعلًا ربما سبب له الذهول والسهو الكثير والنسيان والغفلة، وكل هذا من الخطأ، فالصلاة المعتدلة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ﵃، فلا نقر، ولا غلو، ولكن صلاة باعتدال.

غلوا في الصيام، ولهذا النبي ﷺ نهى عن صيام الدهر، وقال: «**لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الدَّهْرَ**»(٢)؛ لأن صيام الدهر يجعل الإنسان لا يشعر، ولا يفرق بين الفطر والصيام، ولا يذوق حلاوة الصيام، فقال: «**لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الدَّهْرَ**».

ومن الغلو - أيضًا كما سبق - الغلو في التحرز من النجاسة، التحرز الذي يشابه بعضهم اليهود، فإن اليهود معروف عندهم التشدد، فكانوا لا يُآكِلُون الحائض، ولا يجالسونها، ولا يضاجعونها، والنصارى

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٩)، ومسلم (١١٥٩).

بخلافهم، لا يبالون بالنجاسة. ودين الإسلام جاء وسطًا بين طريقة اليهود والنصارى، وسطًا في الأمور، واعتدالًا في الأحوال.

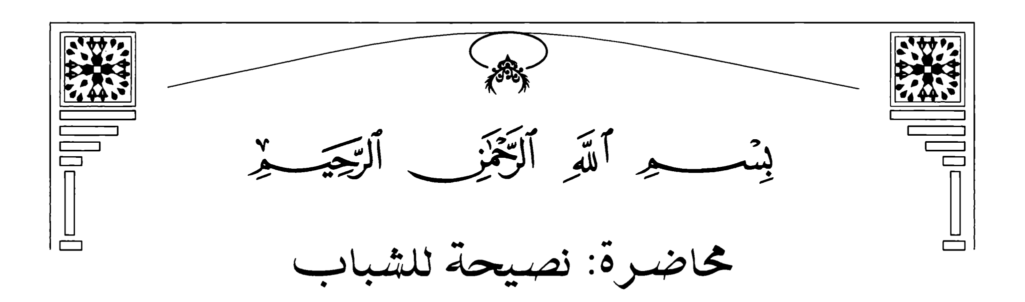
كذلك في باب الورع، والبعد عن الدنيا لا بد من الاعتدال، والتحذير من الغلو في كل الأحوال؛ حتى يكون المسلم على بصيرة من دينه، يسير على منهج مستقيم؛ لأن هذه الشريعة شريعة وسط وعدل؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فهي صراط مستقيم في كل الأحوال.

ثم - أيضًا كما أشير إليه - قضايا التكفير والتفسيق والتبديع والتضليل، يجب على المسلم أن يتقي الله، ويقف عند ما حد له، فلا يُفَسِّق، ولا يُكَفِّر، ولا يُبَدِّع إلا عن علم ويقين، وعن هدى، ولا يغره أقوال القائلين، وإرجافات المرجفين، ومن لا يبالون بما يقولون، ولا يحسبون لما يقولون حسابًا، بل يكون معتدلًا في أموره كلها، يتبع نصوص الكتاب والسنة، ويعمل بهما، ويحكمهما.

الخوارج أخذوا آيات الوعيد وأحاديث الوعيد، وغلوا فيها، وتجاهلوا آيات الوعد وأحاديث الوعد، وجاء أهل السنة، فوفقوا بينهما، وجمعوا بينهما، فلم يسلكوا مسلك الخوارج، ولا مسلك المرجئة، وإنما كان مسلكهم مسلك الاعتدال في كل الأحوال.

أسأل الله أن يحفظني وإياكم بالإسلام، ويقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ويرزقنا السير على ما عليه محمد ﷺ وأصحابه. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊



محاضرة: نصيحة للشباب

الحمد لله حق الحمد وأوفاه، وأشهد أن لا اله الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ومصطفاه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

أرحب بالأخوة أكمل ترحيب وأجمله، ويسرني أن يكون هذا اللقاء المقصود منه التواصل وتدعيم المحبة، وأن يكون هناك فوائد من اللقاء؛ لأن اللقاء يستفيد منه الطرفان، فأستفيد منه، وربما تستفيدون - أيضًا -؛ وذلك لأن التقاء الشباب وطلبة العلم، والتقاء الحريصين على الدعوة في البلاد الإسلامية، والبلاد العربية، وأهل الجوار بخصوصهم فيه فوائد كثيرة غير الفوائد الشرعية المعروفة، ففيه تقوية الصلة بما فيه تكاتف الجهود في الدعوة الواحدة، وأن يكون هناك معرفة بمن يقوم بالجهد؛ لأن الأصل في المؤمنين أن يكونوا جسدًا واحدًا، وهذا الجسد الواحد يقوم بالمهمة فيه كل عضو من أعضائه، ونحن ننظر إلى الدعوة إلى الله ﷻ على منهج السلف الصالح أن أهلها فيها سواء، في المملكة، أو في الكويت، أو في الهند، أو في المغرب، أو في الشمال، أو في الجنوب، فالكل فيها سواء، من جهة وحدة الهدف، ووحدة المنهج، وأن العمل لشيء واحد، وبالتالي فالتنسيق في الجهود، والعمل، وأن يكون المنهج واحدًا، والطريق واحدًا، ييسر أن

يكون الجميع على تواصل مستمر، وعلى أن لاتتكرر الجهود؛ لأننا نرى أن المشكلة اليوم في الذين يعملون في الإسلام على منهج صحيح أنهم غير مرتبين، جهودهم مكررة وأعمالهم، ربما كرر بعضهم بعضًا، وربما تنافسوا في غير مجال التنافس؛ ولهذا نقول: في هذه اللقاءات فتح باب التنسيق، وفتح باب التواصل، وأن يكون العمل مرتبًا، وأن يكون أصحاب الدعوة السلفية الحقة على طريقة واحدة، غير متنازعين، ولا مختلفين، ولا متنافسين في غير ما يكون التنافس المأذون فيه.

مما ينبغي التواصي به في هذا الباب أن الأصل في الشريعة أنها جاءت بإخراج المكلف عن داعية هواه؛ كما قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموافقات: (**الْمَقْصِدُ الشَّرْعِيُّ مِنْ وَضْعِ الشَّرِيعَةِ إِخْرَاجُ الْمُكَلَّفِ عَنْ دَاعِيَةِ هَوَاهُ**)[1]، يعني: أن يكون فيما يأتي وفيما يذر - ويعظم الأمر بعظم القضية التي يأتيها - أن يكون على وفق الشرع، وأن يطرح هواه جانبًا - والهوى بمعنى: الرغبة - أن يطرح رغباته جانبًا، وأن ينظر فيما تدل عليه الشريعة في النص من الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو كلام الصحابة الذي لا خلاف فيه، أو ما عليه أئمة أهل السنة والجماعة، ودوّنوه في عقائدهم، وهذا يجعل المنهج منهجًا واحدًا؛ لأن تعاطي ما ذكرت - بإخراج نفسك عن داعية الهوى - يجعل الطريق واحدًا؛ لأن الكتاب والسنة وإجماع السلف وهدي الصحابة المتفق عليه وما قاله أئمة أهل السنة والجماعة لا يختلف، هو شيء واحد، وإنما يأتي الاختلاف من دخول الرغبات، التي ربما خرج بها أصحابها عن

(١) انظر: الموافقات (٢/ ٢٨٩).

ما دلت عليه النصوص في الكتاب والسنة، وهذا هو مدلول قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقول النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لَمَّا جِئْتُ بِهِ**»[١]، وهذا أمر معروف، فإن الشريعة لا تستقيم في القلب، حتى يوطن المرء نفسه على تحكيم الشرع في نفسه، قبل أن يطالب الآخرين بأن يحكموه.

والشريعة - الكتاب والسنة - فيها وصايا تهمنا في هذا الأمر، ونأخذ منها ثلاث وصايا:

الأولى: وحدة السبيل، وهي في قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والثانية: في قوله ﷻ: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١].

والثالثة: في قوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

أما الأولى، فإن السبيل - سبيل الحق والإيمان - واحد، غير متعدد في أصوله، الأصول واحدة غير مختلفة. وما يسوغ الاجتهاد فيه هذا

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٨)، وقال: «تفرد به نعيم بن حماد»، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧، ٣٨٨).

لا يخرج المجتهدين عن الطريق الواحد، فقوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، يعني: اتبعوا هذا الصراط الواحد، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا السبيل الواحد ميادينه شتى كثيرة، كل واحدٍ منا لو عمل بواحدٍ منها، لاستغرق جهده.

وسبيل الله ﷻ التي هي في داخل ذاك السبيل - من الطاعات، والعبادات، والأعمال الصالحة - متعددة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال العلماء: «قوله ﷻ: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. يعني: السبل التي في السبيل الواحد، وهي سبل الطاعات والاستباق في الخيرات، فهي متعددة، وكل يأخذ بما فتح الله ﷻ عليه فيه؛ ولهذا لما قيل للإمام مالك ؒ: أأنت مالك بن أنس الذي إليه يرنو الناس بأبصارهم، ونراك مقتصرًا على العلم، ونراك ضعيفًا في غيره، فلست من أهل الجهاد الذين يرابطون في الثغور، ولست كذا، ولست كذا؟! فقال مالك ؒ في فقهه وعظم علمه: (يا فلان إن الله ﷻ فتح لبعض عباده سبيل الصلاة، فتعبدوا بها -يعني: النفل-، وفتح لبعض عباده سبيل الصدقات، فتعبدوا بها، وفتح لبعض عباده سبيل الجهاد، فتعبدوا به، وإن الله ﷻ فتح لي باب العلم، ورضيت بما فتح الله لي)[(١)].

وهذا يجعل كل من يروم نصرة هذا الدين أن يكون في تكامل مع إخوانه، لئلا يُظن أن الجميع من المسلمين يجب أن يكونوا شيئًا واحدًا، أن يكونوا جميعًا طلبة علم، أو أن يكونوا جميعًا أهل حركة، أو أن يكونوا جميعًا أهل

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

أسفار، أو أن يكونوا جميعًا أهل كذا، هذا غير متهيئ.

والشريعة - كما نعلم - حضت على أنواع كثيرة من العبادات، ومن أتى ببعض النوافل، لا يلام إن ترك بعضًا؛ لأن الله ﷻ قسم بين الناس أخلاقهم وأرزاقهم؛ لهذا نقول هذه الآية فيها فوائد:

الفائدة الأولى: فيها أن سبيل الحق واحد غير متعدد؛ كما قال ابن القيم ؒ في نونيته[1]:

فَلِوَاحِدٍ كُن وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أعنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَان

وهذا السبيل الواحد نحن نتكامل فيه، بعضنا يرتبط ببعضٍ فيه، ولا يلوم بعضنا بعضًا فيه، إذا كان على السبيل الواحد، الذي هو سبيل الحق والإيمان.

فمن كان على منهج السلف الصالح وعلى سبيل السنة، فإنه من أتى ببعض ما يجب عليه، ببعض ما يستحب له، وببعض الواجب الكفائي، وترك بعض الواجب الكفائي لغيره، فإنه لا يلام، وكذلك من أتى بما يستطيع وما فتح له فيه - من أنواع الجهاد، أو الدعوة، أو الخير - فإنه يعان على ذلك، ونحن نتكامل في هذا، ونسعى فيه.

هذا يرتب أن يكون هناك معرفة بطاقات الشباب، وما يتميز به كل واحد، فمنهم من يكون متميزًا في العلم، فيحث عليه، ويشجع فيه، حتى ينشره في الأمة، ومنهم من لم يفتح له باب العلم، فيحث على ما يتميز فيه؛ لأن

---

(١) انظر: النونية وشرحها لابن عيسى (٢/ ٢٥٨).

الله ﷻ يحب إذا عمل أحدنا عملًا أن يتقنه؛ كما جاء في الحديث الحسن: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»(١).

والوصية الثانية: هي في قوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١]، وهذه اشتملت على ثلاثة عوامل:

الأول: تقوى الله ﷻ. وأعظم ما تكون به التقوى الإخلاص، أن يكون الله ﷻ هو المقصود وحده، وأن تخرج الدنيا بأنواعها - من المال، والجاه، والذكر، حتى السمعة بين الإخوان - أن تخرج من القلوب، وأنه إذا رضي الله ﷻ عن العبد، فإن هذا يكفي، وإذا علم الله صنيع العبد، فإن هذا يكفي، لو لم يطلع عليه أحد. فالتقوى تحصل بإخلاص القلب لله ﷻ، فمن وطن قلبه على الإخلاص، حصلت له التقوى تبعًا، يعني: حصل له اتقاء العذاب بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقد فسر طلق بن حبيب التقوى - كما هو معلوم -: (**التَّقْوَى عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، خِيفَةَ عِقَابِ اللَّهِ**)(٢)، لكن أهمها الإخلاص أن لاترائي أحدًا، وأن لا تطلب الثناء من أحد، وإنما تعمل لله ﷻ، ولو لم يعلم بك أحد. وما أحسن فعل الربيع بن خُثيم التابعي المعروف العالم الجليل الفقيه الزاهد تلميذ ابن مسعود رضي الله عنه؛ حيث جَاءَ

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٣٣٤). وأخرجه أبو يعلى (٧/ ٣٤٩)، قال الهيثمى (٤/ ٩٨): فيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة. والطبرانى فى الأوسط (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٤٧٣)، وحلية الأولياء (٣/ ٦٤)، ومصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٢)، والإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٩٢).

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْم إِلَى أُمِّ وَلَدِهِ فَقَالَ: (اصْنَعِي لَنَا طَعَامًا، وأَطْيِبِي فَإِنَّ لِي أَخًا أُحِبُّهُ أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَهُ" فَزَيَّنَتْ بَيْتَهَا وَصَنَعَتْ مَجْلِسَهُ وَصَنَعَتْ طَعَامًا وَأَطَابَتْهُ ثُمَّ قَالَتِ: ادْعُ أَخَاكَ، فَذَهَبَ إِلَى سُلَالٍ جَارٍ لَهُ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَجَاءَ بِهِ حَتَّى أَجْلَسَهُ فِي كَرِيمِ مَجْلِسِهِ ثُمَّ قَالَ: قَرِّبِي طَعَامَكِ، فَقَالَتْ: فَمَا صَنَعْتُ هَذَا الطَّعَامَ إِلَّا لِهَذَا قَالَ: وَيْحَكِ قَدْ صَدَقْتُكِ هَذَا أَخِي وَأَنَا أُحِبُّهُ فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْ طَيِّبِ ذَلِكَ الطَّعَامِ فَيُنَاوِلُهُ)[1]. وفي رواية: أَنَّهُ قَالَ لِأَهْلِهِ: «اصْنَعُوا لَنَا خَبِيصًا» فَصَنَعَ، فَدَعَا رَجُلًا كَانَ بِهِ خَبَلٌ فَجَعَلَ يُلْقِمُهُ وَلُعَابُهُ يَسِيلُ، فَلَمَّا أَكَلَ وَخَرَجَ، قَالَ لَهُ أَهْلُهُ: تَكَلَّفْنا وَصَنَعْنَا ثُمَّ أَطْعَمْتَهُ، مَا يَدْرِي هَذَا مَا أَكَلَ، قَالَ الرَّبِيعُ: لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي»[2]، يعني لا يريد ثناءً من هذا ولا ذكرًا به، لكنه أراد به ما عند الله ﷻ، والعمل الصالح المخلص يبقى، ولو لم يعلم به أحد، يخرجه الله ﷻ، وهذا تجده في الكثير في الناس، تجد أن العمل الخالص الصادق يخرجه الله ﷻ، ويثني العباد على العبد بعمله الصالح الخالص، إذا اطلعوا عليه، وأخرجه الله ﷻ في ذلك.

فإذًا: صلاح القلب هو أساس ما نقوم أنفسنا عليه؛ لأن القلوب إذا كانت مريضة من جهة الإخلاص، ما يرجى منها خير، إذا كان فيها نزعات الجاه، والشهرة، والدنيا، والمال، والثناء، والرياسة، فإنها لا يرجى منها خير، بل الواجب أن يوطن الخاصة أنفسهم قبل أن يطالبوا العامة بأن يخلصوا من قلوبهم حب الدنيا، إذا خرجت الدنيا من القلوب، حصل

---

(١) انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٣٠٠)، والزهد لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: شعب الإيمان (٥/ ١٤٦)، وحلية الأولياء (٢/ ١٠٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (٥/ ١٤٢).

للعبد فتوح من الخير - العلمية والعملية -، والله ﷻ رقيب على العباد، مطلع على الأنفس.

والثانية في الآية هي: الوصية بإصلاح ذات البين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وكما هو معروف سبب نزولها، أنه لما اختلفوا على الأنفال في غزوة بدر، وحصل بين بعضهم وبعض كلام، وهذا يخطّئ هذا، وهذا يخطّئ هذا، فأمر الله ﷻ بتقواه وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ في قسم الأنفال، وتركها لله ﷻ ولرسوله ﷺ، فدل هذا على عظم هذا الأمر، وهو إصلاح ذات البين، فإن المرء أعظم ما يتقرب إلى الله ﷻ به في الحقوق العامة للناس أن يسعى في إصلاح ذات البين، وقد ثبت في صحيح مسلم بن حجاج رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[1]، يعني: أخروا هذين، فلا تغفر لهم الذنوب، حتى يصطلحا، ولهذا من أسباب مغفرة الذنوب إصلاح ذات البين، وأن لايكون بينك وبين أحد من أهل الدنيا، أحد من المسلمين شحناء بسبب الدنيا، أما إذا كانت بسبب حق الله ﷻ، هذا فيه تفصيل - كما هو معروف في باب الهجر -. وأما أن يتخاصم اثنان، ولا يسلم هذا على هذا، ولأجل هذا غمزه مرة بكلمة، وهذا مرة قدح فيه في مكان بكلمة ونحو ذلك، فهذا ليس من صنيع أهل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

الإيمان أن يتهاجروا في الدنيا، بل إذا حصل الهجر الشرعي، فإنه يكون بشروطه ودواعيه المأذون بها شرعًا، والمسلم لا يحل له أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث[١]، يعني: لأمر من أمور الدنيا لك، إذا اعتدى عليك في عرضك، أو أخطأ عليك في نفسك، وسمعت هذا منه، أو حصل بينك وبينه خصومة أن تهجره لحق نفسك ثلاثًا، إلى ثلاث فقط، ومن عفا وأصلح، فأجره على الله.

أما ما هو أكثر من الثلاث، فلا يجوز، يحرم، ومن فعله -يعني: هجر أخاه فوق ثلاث بحظ من حظوظ الدنيا- فإنه داخل في من هجر المسلم لغير حق، وممن لم يصلح ذات البين.

وأمر ﷻ بطاعة الله ورسوله فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١]، هي عامة، تدخل فيها الواجبات والنوافل.

أما الوصية الثالثة في آية الإسراء فهي: قوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ومعلوم أن المسلم مع المسلم يسعى في نصحه؛ كما قال تميم الداري - رضي الله عنه ورحمه - أن النبي ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» **قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ:** «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[٢].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠) «**لا يحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يهْجُر أخاهُ فوْق ثلاثِ ليالٍ، يلْتقِيانِ فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخيْرُهُما الّذِي يبْدأُ بِالسّلامِ**».

(٢) أخرجه مسلم (٥٥).

والنصيحة لعامة المسلمين أن تخلص قلبك من الغش لهم، وإذا خلصت القلب لهم، فإنك تبذل لهم النصيحة الخاصة: من أمرهم بالخير، وحثهم عليه، لكن أصل النصيحة أنْ تخلِّص القلب من الغش لهم؛ يعني: خلاف ذلك من ترك قلبه في حق إخوانه المسلمين لا يروم لهم أن يكونوا أفضل ما يكون؛ يفرح بزلته، فإذا زل، قال: أحسن. هذا يخالف النصيحة، وإذا أخطأ، قال: طيب، إنه أخطأ. وهذا يخالف النصيحة، والله ﷻ بين لنا في المقال وفي الفعال ما يجب من حق المسلم على المسلم، ومعلوم أن أفضل عباد الله هم الصالحون، والله ﷻ أثنى على بعض الأنبياء بأنهم صالحون، والصالح من هو؟ الصالح هو القائم بحقوق الله وبحقوق عباده، فمن كان تقيًا في حق الله، لكن في حقوق العباد ليس بتقي، فإنه ليس بصالح، وإن كان أثر السجود في وجهه، وريقه ناشفًا من أثر الصيام، فإن من قام بحق الله وحق عباده، فهو الصالح، فمن فرط في حق الله، فليس بصالح - يعني: بشروطه المعروفة -، ومن فرط في حق العباد، فليس بصالح - بشروطه المعروفة -.

ومما أمر الله ﷻ به في حق المؤمنين فيما بينهم أن يقولوا التي هي أحسن في هذه الآية - آية الإسراء -: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] وهذه الآية جاءت بعد ذكر قصة الشيطان، وأن الشيطان أغوى المشركين، حتى صاروا إلى الشرك، وأنهم جعلوا لله ﷻ شركاء وأمثال ذلك. والله ﷻ حين أمر بذلك بحقوق العباد المؤمنين فيما بينهم، أمر بأمر عظيم، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]. قال العلماء: لا يكفي بامتثال الأمر بأن يقول كلمة حسنة، حتى يقول: أحسن ما يجد: ﴿وَقُل

لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: يقول أحسن ما يجد[(١)].

أما إن ترك ذلك في موطن الحاجة إليه، فإن الشيطان يدخل، ولهذا قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وهذا عند علماء الأصول والتفسير يجري مجرى التعليل؛ فإنّ علة الأمر أن الشيطان ينزغ بين الناس؛ ولهذا يجب علينا أن نسعى في أن نقول القول الحسن، ولهذا لا يحسن فيما بين المؤمنين أن يكثروا المِزاح، وأن يكثروا المراء، وأن يكثروا رمي كلام بعضهم على بعض، وهذا يستهزئ بهذا، وهذا يقول بهذا كذا، ونحو ذلك، وهذا ليس من أخلاق من يرجى أن يرفعوا الدعوة، وأن يجاهدوا في سبيل الله، وليس من أخلاق المؤمنين بعامة كثرة المراء والمزاح والاستهزاء، حتى الاستهزاء بأصله لا يجوز.

إذا تقرّر هذا، فمما يجب أن تسعى للقول الأحسن في مقالك مع كل مؤمن، سواء أكان موافقًا أو كان مخالفًا؛ لأن الحق لا يكون ظهورُه بالقول السّيئ إلا في حالة واحدة، وهي في حالة المظلوم، قال ﷻ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] فمن ظلم بخصوص، فله أن يجهر بالقول السيئ انتصارًا لما أخذ من حقه. وهذا خلاف الأفضل، والأفضل أن يعفو، وأن يصفح؛ كما كانت عليه حال المصطفى ﷺ.

فإذًا هذه الآية فيها وصية عظيمة في أن نقول القول الذي هو أحسن، ما نجد مع الموافق ومع من لا يوافقنا، إلا في حال الأمر والنهي، وفي بعض الأحوال الشرعية التي يتطلب الأمر فيها إغلاظ للحق، فهذا ليس داخلًا في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٠٢)، وزاد المسير (٥/ ٤٦)، والقرطبي (١٠/ ٢٧٧).

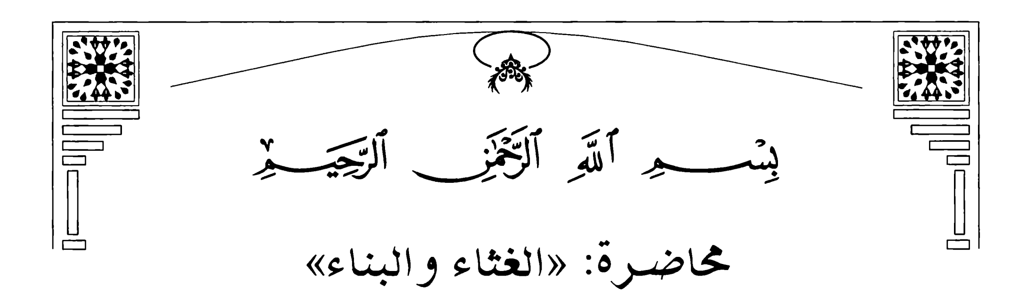
الباب؛ لأن هذا له أصوله الشرعية.

أما فيما يجري فيما ترون وتمارسون فيما بين الناس، هذا يجتمع مع هذا، وهذا يرمي كلمة، وهذا يرمي كلمة، هذا يوغر الصدور، ويفرق أهل الإيمان؛ حتى غدت الطائفة الواحدة طوائف بسبب اللسان، بسبب المقال، ونحن كيف نرجو اجتماعًا، ونرجو قوة، ونرجو هيبة عند مخالفينا؟ ونحن لم نثق فيما بيننا، بل لم يعط أحدنا أخاه حقه الواجب عليه، فهذا يقدح، وهذا يقول، بل العجب ما حكى لي بعضهم أنه قل أن تجتمع فئة قليلة، إلا ونقدوا، أو لمزوا بعض إخوانهم، وهم لم ينصحوهم فيما بينهم، أو لم يلتمسوا العذر لهم، أو إلى آخره، وهذا خلاف ما أمر الله ﷻ به في هذه الآية: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، فيجب علينا أن لا نجعل للشيطان علينا مدخلًا ونصيبًا في التفريق وفي إيغار الصدور بعضها على بعض؛ لأن هذا من أسوأ ما يكون بين المؤمنين: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١).

نسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن صلح وطاب قلبه، وصلح وطاب سمعه، وصلح وطاب بصره، وصلح وطاب لسانه، اللهم اجعلنا من الصالحين المخبتين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).



محاضرة: «الغثاء والبناء»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين،

الحمد لله الذي قال في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨]، له الثناء كله، وله الحمد كله على هذا الوعد الصادق، وعلى هذه البشارة العظيمة، التي هي أن هذا الدين غالب جميع الأديان، وأن أهله مرفوعون على غيرهم، والشاهد بذلك ربنا ﷻ، وكفى بالله شهيدًا، هذه المحاضرة اختير لها هذا العنوان، وهو الغثاء والبناء.

وإذا ذكر البناء في أي ميدان من ميادين الحياة، فإنه لا بد وأن يكون لذلك البناء من عوائق تعوقه، أو من أشياء لا تصلح له، ولاتناسبه في أمور الدنيا، وكذلك فيما يتعلق بنشر الإسلام والسنة والدعوة إلى الخير والصلاح، وتعبيد الناس لربهم ﷿، لا بد في ذلك الطريق من دعوة وإصلاح وبناء، ولا بد وأن يوجد شيء من الغثاء، ونعني بالغثاء: ما يدل

عليه معناها اللغوي، إلا وهو المذكور في نحو قوله الله ﷻ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: ٥]، والغثاء هو الزبد الذي يطفو على السيل من أشياء متكسرة: من ورق الأشجار، وأشياء متفرقة، وصهيل، وصوت، وزبد، ورغوة، ولكنها لو جمعت، لا تنفع، وتحت الرغوة اللبن الصريح، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧][١]، لكن الشأن هو كيف يتعامل الخاصة - فضلًا عن العامة - مع هذه المتغيرات ومع هذه الأحداث الكثيرة المتوالية، التي كثيرًا ما مرت بها مجالس الخاصة والشباب والدعاة و طلبة العلم والعلماء، إما أن يتعامل معها بنظر صحيح، فتكون مثمرة الخير، وإما أن ينظر المرء إلى هذه المسيرة، وكأنها لا شيء، لا يرى إلا ذلك الغثاء، وأما السيل، وأما الماء الذي ينفع، فإنه لا يكاد يرى عند الباقي.

لهذا ينبغي أن ننظر فيما يجب وما ينبغي في هذه المسألة العظيمة، وهي التي تداولتها مجالس كثيرة بكلام منضبط تارة، وغير منضبط أخرى، جاشت فيها عواطف، وتكلم فيها أناس بتعصب، وتكلم فيها آخرون بغير علم، وتكلمت فيها فئة قليلة بعلم وهدى، وهم الناجون فيما أحسب؛ لأن المرء مؤاخذ بما يقول؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ حين سأله: **يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ،**

---

(١) انظر في كتب التفسير: الطبري (٣٠/ ١٥٣، ١٣/ ١٣٤)، وزاد المسير (٩/ ٨٩، ٤/ ٣٢١)، والقرطبي (٢٠/ ١٧، ٩/ ٣٠٥)، وابن كثير (٤/ ٥٠١، ٢/ ٥٠٩).
وفي كتب اللغة: تهذيب اللغة (٨/ ١٥٨)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤١٢)، ولسان العرب (١٥/ ١١٦).

وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١)، وقد قال ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] قال بعض أهل العلم: الأمر بالشيء داخل في فعله، بل هو من الفعل، فإنه إذا أمر بالصدقة، فقد فعل؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٤].

هذه المحاضرة نتناول فيها بعض ما ينبغي أن يؤكد عليه، وإن كان كثيرًا مما سيأتي قد سمع، لكن نحتاج إلى ضبط هذه المسألة؛ لأننا نرى هذا الزمن، نراه زمنًا عجيبًا من جهة أن الفساد فيه قد كثر في بلاد المسلمين، وأخذ في الكثرة والازدياد والظهور في هذه البلاد، التي هي البقية الباقية، ظهر الفساد في أنواع كثيرة في حياة الناس الشخصية، وفي حياة المؤسسات، وفي قطاعات كثيرة، من جهة فساد عقدي، ومن جهة فساد في السلوك والأخلاق، ومن جهة فساد في المال والاقتصاد، ومن جهة فساد آخر - وهو خطير يبلغ تلك الأمور في خطورته، بل ربما زاد - وهو أن تقلب المفاهيم، وأن تقلب الأصول الشرعية، فيصبح المعروف منكرًا، ويصير المنكر معروفًا، بل قد يبلغ إلى أن المرء لا يعرف المعروف ولا المنكر إلا ما سمعه وأدركه، أنواع من المتناقضات، أنواع من البعد

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (١١٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩).

عن الإسلام الصحيح في مجالات شتى، فمن المصلح لهذه؟ من الذي ينبغي ويجب عليه أن يتولى هذا الأمر، ألا وهو أمر الإصلاح، ألا وهو أمر هداية الناس، ألا وهو المحافظة على إسلام هذه الأمة وعلى إسلام الناس، وأخلاقهم، وأعراضهم، وتصرفاتهم، وأن تكون جميعًا على وفق الشريعة، من يتخاطب بذلك؟

لا شك أن هذا الواقع المؤلم علاجه يجب أن ننهض به جميعًا، وعلاجه تارة يكون من جهة الفرد في نفسه، وتارة يكون من جهة الفرد في أسرته، وتارة يكون من جهة الفرد مع زملائه وأصدقائه وجماعته، وتارة يكون علاجه من جهة أهل العلم، وتارة يكون علاجه من جهة ولاة الأمر، وهكذا في أنواع شتى، وإذا نظرت إلى حال كثيرين، وجدت أن اليأس دب في قلوبهم، وهذا اليأس الذي دب في قلوب كثيرين سببه إرجاف الشيطان؛ لأنهم ما نظروا في سنن الله ﷻ وما جرى لأنبيائه، هذا نوح عليه السلام كم مكث في قومه؟ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقال ﷻ عنه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ترى العجب ولا تقضيه، لا تنقضي من العجب أن ترى الأنبياء الذين أُيدوا بالبراهين والآيات الدالة على صدقهم، المؤيدون من الله ﷻ ترى أنهم خولفوا، ترى أنهم أوذوا، ترى أنهم لم يقبل ما جاؤوا به، فكيف الحال إذًا بمن هم دونهم، بل بمن ليسوا بمؤيدين بما أويدوا به؛ لهذا نقول: طريق الإصلاح وطريق الدعوة يجب أن لا ينظر فيه إلى ما يحصل من بعد الناس عن الحق، بل من أنواع الفساد، بل يجب أن ينظر فيه إلى عملنا: ماذا يجب علينا أن نعمل؟ وماذا يجب علينا أن نتحرك به؟ لأننا إذا نظرنا إلى حال

الناس، أو إلى العوائق الموجودة، أو إلى البعد عن الحق والهدى، ونظرنا، ثم نظرنا، ثم نظرنا، فقد يعظم ذلك في النفس، حتى يصير الأمر إلى أنه لا يتحرك متحرك في مجابهة الباطل، والله ﷻ وسع علينا، فقال ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإنك تنظر اليوم إلى أن مجابهة دعوة الإسلام ليست محلية في بلد أو في منطقة أو في قطاع؛ لأنها تخالف أهواء الأكثرين، بل إن حرب الدعوة من جهات متعددة، بعضها كافر، وبعضها منافق، وبعضها من ضعاف الإيمان، الأعداء متكالبون على هذه الدعوة، والناس ربما ساعدوهم في أن يبعدوا الناس عن الاقتناع بالحق والهدى، وعن الاقتراب منه، من جهة تصرفاتهم التي لا يقرها العلم الصحيح، إذا نظرت إلى هذا الواقع، فهناك تجارب كثيرة جدًا، وهناك خطوات كثيرة جرت في الدعوة والخير والإصلاح: في هداية الناس، وفي إلزامهم، ونصحهم، وإرشادهم. يأخذ هذا شكل دعوات فردية، ويأخذ هذا تارة أخرى شكل دعوات جماعية، ويأخذ تارة ثالثة شكل دعوات تنظيمية، والكل يريد العلاج، الكل يريد الإصلاح؛ لأن الأصل في المسلمين الذين يدعون إلى الله ﷻ، الأصل فيهم أن نياتهم صالحة، إلا إذا ثبت غير ذلك، تنظر إلى هؤلاء بأصنافهم وإلى هذه الاتجاهات المختلفة، وكل يحمل هذا الهم، وهو أن يدعو إلى الله، وأن يصلح.

والدعوة إلى الله ﷻ شأنها شأن أي عبادة، لا بد أن تنضبط بضوابط الشرع؛ ولهذا نجد أن المسلمين الذين يسعون في البناء، يسعون في الدعوة والإصلاح، نجد أنهم لا يصححون مساراتهم، خطوات ومرحليات الدعوة كما هي، بل ربما تفاجأت الدعوة ببعض الأوضاع، فجعلت

مرحلياتها وفقًا لذلك التجدد في الأوضاع، وهذا قصور، بل هو نوع من عدم معرفة سنن الله ﷻ الكونية والشرعية، نجد أن من الناس من يريد الإصلاح والدعوة على شكل فردي، وهؤلاء مشكورون؛ ذلك أنهم رغبوا، وأدوا بحسب ما في وسعهم، ومنهم من يريد الدعوة، ولكنه لا يستطيع الدعوة بنفسه، وهذا لا بد أن يكون داعيًا مع غيره؛ لأنه ليس كل أحد يستطيع أن يؤثر بنفسه، لا من جهة الكلمة، ولا من جهة العمل، ولا من جهة التفكير لما يصلح الناس، والمؤمن قليل بنفسه كثير بإخوانه؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال ﷻ هنا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ووصفهم بأنهم أمة، بل أوجب أن يكون ثم أمة؛ لأن أثر الأمة في الدعوة والأمر والنهي أعظم بكثير من أثر الفرد، ولهذا كان لزامًا في الإصلاح لزامًا في الدعوة أن يكون الجهد جهد متعاونين على الحق والهدى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

الرسول ﷺ عندما بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»[1]؛ لهذا كانت الدعوة الجماعية - وهي النوع الثاني - من الضروريات، بل ينبغي لكل أحد يرعى هم الدعوة أن يعمل مع إخوانه؛ لأن الصلاح في هذا المجتمع والإصلاح لا يمكن أن يكون على ما ينبغي إلا بتعاون، والله ﷻ أمر بذلك حيث

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ ولهذا جاء في الأخبار الكثيرة أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعاونون في أمر دينهم ودنياهم، والجهة الثالثة التي فيها البناء وفيها الدعوة والإصلاح: جهة العمل الجماعي والتنظيمي، يعني: التنظيمات الدعوية المختلفة في الجماعات المختلفة، وهذه من جهة النظر الواسع - لا شك - أنها أثرت تأثيرات في أنواع وقطاعات مختلفة من المجتمعات الإسلامية، وهذه الدعوات التنظيمية من الغلط أن يظن أن ما يصلح في بلد يصلح في بلد آخر، وأن ينقل كل شيء بحذافيره، وأيضًا من الغلط أن يظن أن الدعوة التنظيمية ينبغي أن تبقى هكذا أبد الآبدين، أو حتى تقوم دولة يرضى عنها أولئك الذين يرومون العمل التنظيمي، لم؟ لأن هذا النوع من البناء - فيما جربنا وعلمنا من جهة من ذكروا ذلك، ومن جهة تجربة المجتمعات - وجد أنه يضيق بأصحابه، يضيق بالعاملين، فالدعوة التنظيمية هذه أصحابها في الغالب يكونون منطوين غير منفتحين، يعني: أنه لن يعمل إلا بمكان يكون مرتبًا، ولن يتحرك إلا بما يكون منظمًا، ومن البراهين على ذلك أن من الناس من ترك تلك الدعوات التنظيمية، ثم لما تركها لم يعمل شيئًا، ترك العمل، وترك الدعوة إلا في محيط نفسه وأسرته ومن حوله؛ لأنه لم يتعود العمل إلا في إطار معين، وهذا نوع من الأمور التي ينبغي علاجها، بل ينبغي النظر فيها من جديد؛ لهذا قال العلماء: إن فقه قول النبي ﷺ: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»، إن فقه هذا الحديث فيه أن التطاوع مطلوب، والتطاوع ينتج عن العمل الجماعي غير المنظم، أما العمل الجماعي المنظم - يعني التنظيمي -، فإنه - كما هو معروف، وكما هو واقع - فيه الطاعة، والطاعة

لا تنتج الإصلاح المطلوب؛ لأن النظر يكون محدودًا، والتوجه يكون مقتطعًا، وليس بواسع، والمجتمعات اليوم لا تحتاج إلى فئة معينة تحمل شيئًا معينًا خاصًا بها، ويفرض على الناس، بل الذي يجب أن تؤخذ دعوة الإسلام إلى الجميع، وأن يجعل المرء كل همه وحركاته أن يحمل الدعوة، فهو يحملها إن وجد من يعينه أو لم يجد من يعينه.

لهذا نقول: إنه من البناء الصحيح الذي تتوجه إليه الدعوة أن يكون هناك عمل فيه تعاون على البر والتقوى، أما العمل الجماعي المنظم، فإنه إن كان على شكل تنظيمات وأطر، فالزمن يفرض أن لا يعمل فيه، بل ينبغي - إن كنا نريد أن نستدرك الزمن - أن نعمل عملًا فيه التعاون على البر والتقوى، ولكن العمل الجماعي المنظم - يعني بالتنظيم الذي فيه القيادة، وفيه القاعدة، وفيه المسؤول، وفيه المتابعات الخاصة، وفيه تقييمات خاصة، إلى آخر ذلك - هذا ينبغي أن يذهب اليوم لمصالح كثيرة، ويبقى العمل الجماعي الذي فيه النظام، وفرق بين النظام في الدعوة وبين التنظيم؛ لأنه ما من دعوة جماعية يرجى لها الأثر، إلا ويكون بين أصحابها تطاوع وتشاور، وأن يكون هناك نظام يحكمها، ولكن ليس ثم طاعة، وليس ثم تنظيم؛ لأن الطاعة والتنظيم - خاصة في بلد الإسلام وفي دولة الإسلام - له مآخذ، وعليه مآخذ.

ومن جهة النظر في المصالح والمفاسد الدعوية يرى من هو خارج تلك الأطر أن العمل التنظيمي الدعوي غير ناجح في المرحلة المقبلة، ومن كان في داخل إطار معين قد يخالف في هذا، لكن من كان خارج الشيء يرى الصورة بكمالها إن كان من أهل العلم والإخلاص.

لهذا نقول: إن خطوات البناء والبعد عن الغثاء والغثائية في العمل لا بد

أن تكون في المرحلة المقبلة بنظر عميق جديد، وهذا يفرض نفسه، ولا نريد أن نتحدث بمثل هذا الحديث في غرف مغلقة، ليس فيها إلا الخاصة، بل نتحدث بهذا حديثًا عامًا؛ لأن الحق لا مؤاخذة عليه في أي مكان قيل فيه إذا كان منضبطًا بضوابط الشرع.

هم البناء هم عظيم، هم الدعوة والإصلاح هم عظيم، كيف نصل إلى أمثل طرق ذلك البناء، وذلك الإصلاح، وتلك الدعوة؟ لاشك أن هذا يتطلب رؤىً مختلفة، ويتطلب طرحًا جديدًا لمرحلة دعوية مقبلة، ولابد أن يكون هم المخلصين والدعاة إلى الله ﷻ في دعوتهم هو إرضاء الله ﷻ، وأن يكون نظرهم وهم يدعون في نشر الإسلام، وفي نشر السنة - التي نعلمها من النصوص -، سواء أرضي من رضي، أم سخط من سخط؛ لأن الناس لن يتفقوا على شيء، حتى خاصة الخاصة لابد أن يختلفوا، ولكن النظر يجب أن نتوجه به إلى أن تكون دعوتنا فيما نأتي وفيما نذر، والتوجه بالبناء وبالبعد عن الغثائية، يجب أن يكون متوجهًا لقصد إرضاء الله ﷻ، قد يكون من الناس من تختلط عنده الأمور لأجل عدم فقهه وعلمه، فيقصد بالدعوة من دون شعور منه يقصد إرضاء جهة معينة، أو إرضاء فئة معينة، أو إرضاء مرجع معين، أو نحو ذلك فيما يأتي وفيما يذر، سواء من ذلك الجهات الرسمية، أو الجهات الدعوية هذا وهذا، وهذا لاشك أنه من الغثاء الذي تجب إزالته في الصعيدين جميعًا.

فالواجب أن نتجرد في النظر إلى هذا الموضوع المهم، والنظر إلى هذا المجتمع، بل ومجتمعات المسلمين، وما يزيد فيها من الفساد والشر يومًا بعد يوم، ونحن نبقى ننشغل بأمور في غثائية عجيبة، لاشك أن هذا

لا يرضى به غيور على دين الله، والأمر عجيب عجيب، ومن سمع وخالط وقيم ما يتداوله الشباب أو يتداوله الناس، وجد عجبًا أن تكون الأمور على هذا النحو من السعي في الإفساد والشر، وأن يبقى الخاصة في أحاديث عجيبة، وفي أقوال يرددونها، ليست بسبيل إلى رفع أو تخفيف ذلك المنكر وذلك الفساد.

البناء الذي نرومه، البناء الذي ينبغي، بل نقول: يجب أن يكون همًا لكل واحد منا.

أولًا: بناء النفس، وإصلاح النفس وتزكيتها: والله ﷻ أمر عباده بأن يصلحوا أنفسهم، وأن يصلحوا غيرهم، وأمرهم ﷻ، بل حثهم على أن يزكوا النفس، فقال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠]، لا يمكن أن تؤثر في الآخرين، وأنت ما بينك وبين الله ﷻ ليس بموصول أو ضعيف الصلة، لن تستطيع أن تنطق بكلمة قوية فيها حق، وفيها أمر بمعروف، وفيها نهي عن منكر، وأنت تتذكر نفسك وما أنت فيه من القصور، وما أنت فيه من الموبقات؛ لأن اللسان يغرف من القلب، وإذا كان القلب من القلوب التي فيها مداد خير، وفيها مداد باطل، فإنك لن تقوى على الدعوة والإصلاح؛ لهذا قال الحسن البصري رحمه الله في كلام له: **(إِذَا نَظَرَ إِلَيْكَ الشَّيْطَانُ فَرَآكَ مُدَاوِمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَبَغَاكَ وَبَغَاكَ، فَرَآكَ مُدَاوِمًا مَلَّكَ وَرَفَضَكَ، وَإِذَا كُنْتَ مَرَّةً هَكَذَا وَمَرَّةً هَكَذَا طَمِعَ فِيكَ)**[1] وقال الحسن - أيضًا - فيما صح عنه -

---

(١) انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٧).

مخاطبًا قراء البصرة: (ياملح الأرض لا تفسدوا).

يعني بكلمته الأولى: أن المتذبذب في الطاعة يطمع فيه الشيطان، وكل منا يعرف هذا في نفسه، فإنه قد قال عروة بن الزبير: «**إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا، وَإِنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا**»[(١)].

فإذًا: إصلاح النفس هذه هي الخطوة الأولى، وقوله: (يا ملح الأرض لا تفسدوا)، الفساد هنا الذي نهى عنه ليس فسادًا من جهة الأخلاق فحسب، ولكنه فساد بمعنى أن لا يصلح لتبيين الدين، يا ملح الأرض، لأن الملح به يستطاب الطعام، ولا يستطيب الطعام بلاملح إلا مريض، والملح به يستطاب الطعام، فكذلك الدين يستطاب بأهله، فإذا كان أهله لا يمثلونه لا من جهة القدوة، وصلاحهم في أنفسهم، ولا من جهة أنواع معاملاتهم وتعاملهم، فأين ومتى يكون نقلهم للصلاح والخير، تجد أن كثيرين من العامة، بل تجد أن كثيرين من النقاد الذين ينقدون بعض الناس ينقدون الأفعال، يقول: خذ هذا يزعم أنه مهتم بالسنة، وانظر إلى أفعاله كذا وكذا من الأخلاق، التي ليست هي أخلاق أهل السنة، وليست هي الأخلاق التي أمر بها في الكتاب والسنة، ينظر آخر، يقول: خذ هذا المتدين فيه كذا وكذا من الأفعال، فالناس صار لهم حديث في أهل الخير؛ من جهة تفريط

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٧)، وابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٢٦٩)، عن عروة رضي الله عنه.

الناس في أمور الخير، وإذا نظرت في هذا الزمن، وجدت أن الناس - وهذا من الأمور التي ليست بمرضية، بل منكرة، لكن هكذا صار أهل الزمن - يريدون من أهل الطاعة أن يكونوا أولياء، يعني: أن يكونوا مطيعين، ليس فيهم نقص، ولا معصية، فإذا عصوا، جعلوا الناس يتكلمون في أهل الدين جميعًا، أو بأن الدين نفسه كذا وكذا، فإذا حملك هم الدعوة والإصلاح والخير، يجب أن تنظر فيه إلى أن حركاتك وسكناتك في هذا الزمن محسوبة من كل أحد، فإن كنت من أهل الخير، فحذارِ أن يصد عن الدين وعن الدعوة إليه بسبب فعل لك أو قول، مثل: أن تغضب فتنتصر لنفسك، والناس يسيئون الظن بأهل الخير لأجل أفعالك، أو تفعل فعلًا في بيتك أو مع أقاربك، أو مع رحمك أو مع الناس، ولا تنظر إلى أن هذا قد يصد النظر في الإقبال على الدين، ويصد عن التمسك بالهدى؛ لأن هذا الزمن زمن الناس فيه يقيسون وينظرون، فالشيء القليل يقربهم، والشيء القليل يبعدهم، هذا البناء الذي نريده بناء النفس في مجالات:

أولًا: البناء العقدي، وهذا ينبغي أن يسلك، بل يجب أن يسلك الفرد فيه في بناء نفسه، وكذلك في بناء المتعاونين على الخير والحق في بناء بعضهم بعضًا البناء العقدي؛ لأنه بلا عقيدة فإن الفرد متداع إلى السقوط، ونعني بالعقيدة: ما يصلح القلب من أمور الاعتقاد، بل أمور الاعتقاد الواجبة كلها صلاح للقلب، فما يتعلق بتوحيد الربوبية والعلم به وما يثمر ذلك من أنواع العبوديات في القلب: من التوكل على الله ﷻ، ومن التبرؤ من الحول والقوة إلا به ﷻ، ومن عظم العلم بالدار الآخرة؛ لأن من تأمل في الربوبية، علم يقينًا بهداية القرآن أنه لا مناص له من أن يكون مطيعًا مقبلًا على ربه

غير هارب منه ﷻ من جهة توحيد العبادة، وبناء القلب، والعمل على توحيد الله ﷻ توحيد الألوهية في العبادة وإخلاص الدين له، وأن تعمل العمل في إخلاص، كلمة الإخلاص كثيرًا ما تردد، وينصح الناس في الإخلاص وبالإخلاص، لكن هل كان هناك تقييم فردي لكل واحد منا لنفسه من جهة الإخلاص، أو تقييم جماعي: هل أولئك مخلصون أم لا؟ أظن أن الإخلاص عجيب وعسير، ولهذا لما جاء أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث صاحب السنن، وقدم كتابًا من تصنيفه للإمام أحمد أو من جمعه، فقال له الإمام أحمد: لم جمعت هذا؟ أو قال: لأي شيء جمعت هذا؟ فقال أبو داود - وهو تلميذ الإمام أحمد -، قال: جمعته لله، أو قال: لله أريد. فقال الإمام أحمد: (أما لله فعزيز، ولكن شيء حبب إلي ففعلته)[1]؛ لأن الذي يعلم قيمة الإخلاص وعظيم أمر الإخلاص ومعناه، وكيف يحقق، إنما هم أهل العلم الخاصة، ولكن كثيرًا من الذين يسلكون الدعوة يظنون أن كلمة الإخلاص كلمة معناها كما يتصورون، وتصورهم يكون ناقصًا، والإخلاص عزيز، لابد من إخلاص في التوجه والدعوة، وإذا أردنا البناء والبعد عن الغثاء، فلابد من النظر في هذه الكلمة.

الإخلاص في الدعوة كيف يكون؟ لأن الله ﷻ أمرنا بإخلاص الدين له، فقال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤]، ونحو ذلك من الآيات: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ومن ذلك أمر الدعوة، فمسألة توحيد الألوهية والعلم به ينبغي أن يكون في بناء الفرد راجعًا إلى إخلاص العبادة له، وكيف

(١) انظر: روضة المحبين (١/ ٦٩).

تكون العبادة مخلصة.

أحيانًا ينظر بعضنا في عمل عمله، فيكون معه ربما نصرة لخير يعمله هو، لكنه ما أراد به إلا شيئًا من أمر الدنيا: إما مال، أو جاه، أو سمعة، أو التقرب من فلان أو فلان، أو نحو ذلك، وكيف تصلح دعوة ليست مخلصة وليس أصحابها بمخلصين؟! لابد أن يكون هناك بناء من جهة فردية ومن جهة جماعية للفرد على إخلاص الدين له، وعلى أن يكون كل تصرف يتصرفه المرء يريد به وجه الله ﷻ، فإن كان ثم تقصير، فالاستغفار والعلم بعظم المخالفة.

أيضًا من جهة العلم بما يتصف الله ﷻ به بأسمائه وصفاته، والبناء العقدي المتكامل الذي يراد بالفرد، الذي نريده أن يصلح، وينقل، ويدعو، ويكون قاعدة عظيمة في بناء الدعوة الصحيحة.

ثانيًا: بناء المسلم من جهة العبادة ومعناها العظيم، بناء النفس وبناء المسلم في فرد أو في جماعة متعاونة على البر والتقوى بشروطها الشرعية على العبادة، وعلى التعبد لله ﷻ، يذكر أهل السنة في عقائدهم - كما في عقيدة أهل الحديث للصابوني المحدث الذي كان في القرن الخامس الهجري[1]، وكما في العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية - أن أهل

---

(١) هو إسماعيل ابن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني النيسابوري (٣٧٣هـ - ٤٤٩هـ) الواعظ المفسر المحدث، الأستاذ شيخ الإسلام، إمام المسلمين، أوحد وقته، شهدت له أعيان الرجال بالكمال في الحفظ والتفسير وغيرهما.
انظر: معجم الأدباء (٢/ ٢٩٧)، ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٨٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤/ ٢٧١)، وطبقات المفسرين (١/ ٣٦).

السنة من خصائصهم أنهم يوصون بقيام الليل، وبإتيان الفرائض، والبعد عن المحرمات، وأمور العبادة في الخاصة وفي الدعاة ما لم يكابدوا فيها، فإنهم لن يصبروا على ما يرون، وستخلص تصرفاتهم إلى غير ما ينبغي شرعًا، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ١ - ٢]، وقال فيها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦]، فكان من فقه أهل العلم في فرض قيام الليل في مكة أن قيام الليل فيه مكابدة عظيمة، ولن يدعو ويصبر على الجهاد وعلى الدعوة، ويصبر على أمر الشرع، ويتخلص من هواه، إلا من كابد العبادة، ونحن نرى اليوم أن فيمن يرومون الدعوة، ويسعون في ذلك من يفرط في واجبات، وتجده أحسن الناس كلامًا، أين هذا من هذا؟! لابد أن ننظر إلى بنائنا من جهة العبادة في أفرادنا وفي الجماعة المتعاونين على البر والتقوى.

من العجب أن يمضي أناس يظنون أنهم يصلحون في أحاديث عجيبة متناقضة غريبة - منها ما هو صواب، ومنها ما هو غلط، ومنها ما هو مخالف للشرع - إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم لا هم يتنفلون، ولاهم يؤدون الفرض، هذا خلل في البناء، وإذا قام الخلل في البناء، فإن مكابدة الدعوة أمر فيه الخلل - أيضًا -.

ثالثًا: بناء المسلم في الأخلاق: هناك تناقضات، وكثيرًا ما أتاني من يقول: إن طلبة العلم - يعني: الشباب الذين يحضرون دروس العلم، ويطلبون العلم - ليس عندهم أخلاق طيبة، ليسوا بأهل صلة في بيوتهم، في بيوتهم تجد فيهم الغلظة، ربما تجد الكذب، ربما تجد إخلاف

الوعد، تجد أخلاقًا كثيرة من سجايا المنافقين أو من شعب النفاق، أو من الأخلاق التي لا تجوز، تجدها في المنتسبين للخير، والمنتسبين للدعوة، بل ولطلبة العلم، وهذا لا شك أنه مشاهد من عبوس الوجه، ومن عدم تطبيق قول النبي ﷺ: «**وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**»(١)، الإعانة على الخير، تقف تعين، بذل الماعون - وهو ما تحتاجه ويحتاجه غيرك -، ومن البر، وصدق الحديث، وصلة الأرحام، والسعي فيه على الأرملة والمسكين، والسعي في حاجات الناس، أخلاق كثيرة فقدها الناس، ففقدوا جوانب كثيرة من الدعوة، جوانب صامتة، قد نلقي خطبة، أو نلقي محاضرة، أو كلمة، لكن لا تبلغ في النفوس مبلغ صنيعة من صنائع الخير؛ لأن صنائع الخير تتغلغل في النفس فتؤثر.

رابعًا: بناء المسلم في معرفة مراجعه الدينية:

إذا أردنا البناء الصحيح، فلابد أن ننظر إلى المراجع الدينية، التي يوجه إليها الداعية أو الشباب أو طالب العلم أو المسلم، إلى أي مرجع يرجع إذا داهم عليه أمر، وتخبطته الآراء، وصارت الرؤية عنده فيما يريد أن يأتيه وما يذر غير واضحة شرعًا، إلى أي جهة يرجع؟ إن تحديد المرجعية هذه ضرورة من ضروريات قيام الدعوة، والتخبط في توجيه الشباب أو توجيه المهتمين بالدعوة والصلاح في تحديد المرجعية هذا يجعل الرأي متخبطًا، ثم الفرقة تكثر؛ لأن المرء إذا كان عنده مرجع والثاني عنده مرجع آخر،

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣/ ٢٢٠). وأخرجه أيضًا: البخارى فى الأدب المفرد (١/ ٣٠٧)، ومحمد بن نصر فى تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨١٧).

والثالث عنده مرجع ثالث، والعاشر عنده مرجع عاشر، والخمسون عنده مرجع رقمه خمسون، فإذًا يكون بالتالي هناك فرقة في الساحة، وإذا كانت الفرقة، انشغل المتفرقون في ميدان واحد بأنفسهم؛ لأنهم يعانون شيئًا واحدًا، فمن الطبيعي أن ينشغل بعضهم في بعض؛ لأنهم اختلفوا، وهذا يريد شيئًا، وذاك يريد شيئًا في نفس الموضوع، ولهذا يختلفون.

إن من الأمور العظيمة الأهمية في البناء - بناء الدعوة - أن تحدد المراجع الدينية، أن تحدد المراجع التي يرجع إليها الداعية، يرجع إليها المسؤول، يرجع إليها كبير المجتمعين على الحق والهدى، يرجع إليها الشباب، يرجع إليها الكبير والصغير، يرجع إلى من؟ هل يرجع إلى ما ألفه؟ هل يرجع إلى ما تربى عليه؟ هل يرجع إلى من أثر فيه؟ يرجع إلى من؟ لابد أن يكون الجواب يقينيًّا، والجواب اليقيني في القرآن، ولن ينجو عبد ذهب إلى غير ما أمر الله ﷻ به حين يسأل العبد المسألة العظيمة: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦ - ٧]، من المرجع؟ قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، كلمة أو آية عظيمة يحفظها الجميع، لكن من جهة التطبيق هل امتثل أمر الله، أم لا؟

إن البناء الذي نريده للدعوة في السنوات المقبلة وفي العقود المقبلة يجب أن يكون - إذا أردنا البناء والبعد عن التفرق والبعد عن الغثائية - يجب أن يكون بتحديد المرجعية الدينية، من الذين يرجع إليهم، إذا حددت الذين ترجع إليهم كفرد أنت أو كمجموعة، فإنه إذا اختلفتم، فسترجعون إلى من أمر الله ﷻ بسؤاله واتباعه. فإذًا لن تكون قد حكمت هواك، أو سعيت

في غير ما أمر به شرعًا.

لهذا نقول: إن بناء المسلم في شخصه ينبغي أن يكون متوازنًا على هذه الأربع.

الجهة الثانية في البناء الذي نريده: بناء المجتمعات، وبناء المجتمعات أمره عسير؛ لأن إصلاح الفاسد منها يتطلب فقهًا في المجتمعات، وفقهًا في أمراضها، وفقهًا في الناس، ويتطلب أيضًا فقهًا في الوسائل، وهذا يحتاج إلى بحث طويل وكلمة خاصة، لكن بناء المجتمعات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإصلاح كلٌّ يريده، كل عامل للدعوة يريد ذلك، لكن هل يكون ذلك بلا ضابط؟ إننا في المرحلة المقبلة ينبغي أن يكون ذلك بضابط أهل السنة والجماعة، وقد قال علماء أهل السنة والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية في وصف أهل السنة: (**وهم يَأْمُرُونَ: بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**)[1]؛ لأن من الناس من يأمر وينهى على ما يريد هو، ولا ينظر إلى الأمر والنهي؛ لهذا ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكر أن أهل العلم مجمعون - بلا ذكر الإجماع للاحتياط -، ذكر أن من أمر بمعروف أو نهى عن المنكر، ولم يعلم حين أمر وحين نهى أن مصلحة الأمر راجحة، وأن مصلحة النهي راجحة، فهو آثم، لم؟ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، فإذا كان أمر، وهو لا يعلم أن

(١) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٢٩).

أمره راجح على ما دونه، أو أن نهيه راجح على ما دونه، فلا يكون قد أصلح على وفق ما تأمر به الشريعة، ولهذا قال شراح الواسطية: «إن قوله: (على ما توجبه الشريعة) فيه إخراج لطريقتي الخوارج والمعتزلة»(١)؛ لأن الخوارج أمروا ونهوا، لكن لا على ما توجبه الشريعة، بل على ما جعلوه لأنفسهم من الدين والعقيدة، وكذلك المعتزلة من أصولهم الخمسة الأمر والنهي.

فإذًا: إصلاح المجتمعات وبناء المجتمعات بأن تجعل هذه المجتمعات مجتمعات على وفق الشرع، وإذا قلنا: مجتمع، فنعني به الأرض والناس، قد يدخل في ذلك الدولة، كيف يبنى هذا المجتمع؟ كيف تصلح هذا المجتمع؟ لابد أن يكون على وفق الشريعة، هل أنت مطالب شرعًا، أو الدعوة مطالبة بأن يكون الإصلاح في المجتمع سريعًا؟ ليس ذلك بشرعي، وليس له أصل في الشرع، بل الناس مطالبون بأن يكونوا متمثلين لأمر الله في إصلاحهم، وأمرهم، ونهيهم، وفي مجابهتهم للباطل، وفي دعوتهم إلى الحق والهدى، أنت مطالب بامتثال أمر الشرع، لم؟ لأن في الإصلاح هناك حكمًا تكليفيًا، أنت مخاطب به، والدعوة أو المجموعة مخاطبة به، فإذا تعدت ذلك إلى ما تريد أن تصل إليه، أو أن يصل إليه المجتمع باجتهادها، فالاجتهاد قد يصيب، وقد يخطئ، وإذا أخطأ الاجتهاد في مسألة المجتمعات، كانت النتيجة مريرة، وقد تكون المسألة غير قابلة للاجتهاد؛ لأن فيها نصوصًا، أو لا يكون من اجتهد فيها أهلًا للاجتهاد

---

(١) انظر: شرح عقيدة الإمام المجدد للشيخ صالح الفوزان - حفظه الله - (١/ ١٤١)، والتفصيل الممتع لشيخنا صالح آل الشيخ - حفظه الله - في اللآلى البهية في شرح الواسطية (٢/ ٤٦٣) على هذا المبحث.

فيها، لهذا نقول: إن بناء المجتمعات لا شك أنه مطلب، وبناؤها بالدعوة واتخاذ جميع القنوات التي يمكن أن تتخذ بأن يوصل إلى الناس، ويرشدوا إلى الحق والهدى والصلاح، هذا يتطلب جهودًا عظيمة، الواقع الذي تراه أن الناس - أعني: الخاصة - يتذمرون كثيرًا من واقع المجتمعات، هذا مجتمع واقعه كذا، وهذا فيه كذا، وحصل عندنا كذا، وينشغلون أيامًا وليالي عددًا في ذكر ما استجد من أنواع الشرور في مجتمعاتهم، لكن لا يمضون أيامًا وليالي عددًا في وسائل نشر الدعوة ووسائل الخير والهدى، هذا مدخل من مداخل الشيطان وأحبولة من حبائله؛ لأن الزمان يلد كل يوم عجيبًا، فأنت ستتابع كل ما يحدث، فتقول: حدث، وحدث. ونصبح متحسرين كل يوم على ما حدث بالأمس، ليس هذا هو المطلوب شرعًا، إنما المطلوب أن تعمل، وإذا حصل شيء أن تعلم ما حكمه - إن كان جديدًا -، وإذا كان من أنواع الشرور، فتحذر ذلك، وتحذر عنه، لكن المهم العمل، لا شك أن إلقاء التبعة على الآخرين والتذكر بأن هذا حصل وهذا حصل لذيذ، ونستأنس، ونمضي أيامًا، ونتكلم: وحصل كذا. لذيذ، لكن اعمل، وأنت مهمتك كذا، وأنت تقول: كذا. هذا صعب، والناس من أخلاقهم - إلا من قوى الله ﷻ - أنهم يحبون أن يلقوا باللائمة على غيرهم: حصل كذا، العلماء فيهم كذا، الولاة فيهم كذا، الدعاة فيهم كذا، هؤلاء...، لكن هو ماذا أصلح؟ ماذا قدم للأمة؟ ماذا قدم للمسلمين؟ تجد أن هذا في حقه ضعيف، أولا يوجد.

إذًا نحن بين بناء يجب أن نسعى فيه، وما بين ظواهر غثائية أو ظواهر من الزبد يجب أن نتلافاها، وكل عليه واجب، والمسألة عظيمة، ولابد

أن تنظر إليها بجد.

إذًا في بناء المجتمعات لاشك أنه مطلب، لكن نحتاج فيه إلى أن تضبط بالضوابط الشرعية، إذا أشكلت علينا الضوابط في أمور نظنها اجتهادية، فنرجع إلى المرجعية الدينية، التي جعلها الله ﷻ مرجعية دينية، وهم أهل العلم الراسخون فيه، الذين علموا العلم، وفقهوا في دين الله بالكتاب والسنة وبأقوال أهل العلم والسنة.

هناك هدف مرحلي في البناء فيما نريد من الدعوة، وهناك هدف بعيد. أما الهدف المرحلي الذي نريده، فهو أن نحافظ على رأس المال، والمحافظة على رأس المال لابد منها، ولا أحد يقول: لا تحافظ على رأس مالك، واسْعَ في الربح، مع تعريض رأس المال للخسارة. المحافظة على رأس المال مهمة؛ لأن الله ﷻ أمر نبيه بأن يستقيم هو ومن معه، وأمره بأن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، المحافظة على رأس المال أن نحافظ على الصالحين، لاشك أنه يحزننا أن نرى صالحًا ضيع صلاحه، الذي لو عقل، لكان هو أعظم ما يحافظ عليه؛ لأن به سبب الدخول إلى رحمة الله ﷻ، المحافظة على الشباب، المحافظة على الدعاة، المحافظة على ملح الأرض، كيف تكون هذه المحافظة؟ إنه لا طريق يرتجى إذا كان رأس المال يُبدد، أو يُسعى في تبديده، ولا يحافظ عليه.

إن إصلاح رأس المال أمر مطلوب، ولكن إصلاح بلا تضييع، وقد يكون كما قال الأدباء: إن من الحفاظ تضييعًا، ومن النصح تقريعًا، بعض الناس يريد أن يحافظ، حتى يكون ثمرة ذلك أن يضيع؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن: «**إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ**»[١]، الريبة إذا ابتغيتها في قوم، قد تكون من جهة محافظتك عليهم، وتسأل أسئلة، وهي من جهة الريبة، وتريد أن تحافظ، لكن ترجع إلى إفسادهم.

كذلك من جهة فقه المحافظة على رأس المال كيف نحافظ؟ قلنا هناك هدف مرحلي، وهناك هدف بعيد، الهدف المرحلي هو الذي يهمنا الآن، وهو أن تكون المحافظة على رأس المال بأن نسعى في إصلاح الأفراد وفي إصلاح الجماعات، بما نريد من الإصلاح الذي دلت عليه النصوص، وأقره الراسخون في العلم، وهذا الإصلاح يكون مع المحافظة، لاشك أن كل واحد معرض إلى أن يكون مخطئًا، معرض إلى أن يكون مفرطًا، معرض أن يكوِّن رأيًا من وجهة نظر واحدة، لا من وجهة نظر متسعة، قد يكون هناك أُطر معينة عاشها هو، فجعلته ينظر دائمًا من هذه الوجهة، ولا ينظر من وجهة أخرى، وقد يستغرب من ينظر الوجهة الأخرى، ولكن هذا النصح أو هذا الإصلاح لرأس المال يجب بأن يكون مع المحافظة عليه؛ لأن هؤلاء هم الزينة، هم زينة الأرض، وإصلاح ما في بعضهم من المخالفة يجب أن يكون بطريقة لاتفسدهم بها؛ لأنه من النصح تقريع، ومن المواجهة ما يؤول إلى مقاطعة، وإذا تفرق الناس، تفرق الخاصة، وقعت

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩).

الخصومة بينهم، حتى تصل دينًا يتدينون به، إلى أن يكون أعدى الأعداء هو هذه الفئة، وهذا حصل، ونعوذ بالله ﷻ من الشيطان، ومن وسائله، ومن طرائقه.

إذًا فالهدف المرحلي لابد أن نسعى في المحافظة - كما ذكرنا -، ولكنها محافظة مع الصبر عليها: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، لابد من الصبر والمصابرة، وهذا الصبر صبر على ما فيهم من مخالفة الحق، أو ما فيهم من أمور ليست بحميدة، وإذا اختلفنا: هل هذا مُرضٍ أو ليس بمُرضٍ؟ عندنا المراجع، لابد أن ننظر إلى مشاكلنا الدعوية، التي نريد إذا تغلبنا عليها أن نجتمع في مواجهة هذا الفساد العظيم، الذي ينشر في الناس، والبعد عن الدين والديانة، الذي الآن يكثر في الناس، لابد أن يكون عندنا سعة في النظر إلى أعظم واجب، وهو تعبيد الناس لله ﷻ، لاشك أنه من المحزن أن يكون هناك ظواهر، نسميها ظواهر غثائية، لاتخدم البناء، وتضره، ولاشك أن ما يضر البناء أصحابه لا يعودون على الدعوة بخير ولا بصلاح.

وسائل المحافظة على رأس المال: قد يكون من الوسائل المتاحة الآن أنواع الاتصالات، التي فيها بحث الأمور بوضوح، لم يعد شيء خفيًا فيما يتعلق بالدعوة والدعاة، قبل الأزمة كان هناك أمور كثيرة خفية، لكن اليوم كثر الكلام، وأصبح من له هم في الدعوة ومن لاهم له يعرف أشياء كانت مغيبة، هذا لابد أن نستفيد منه، وهو أن تبحث، يعني: كيف نستفيد من هذا؟ بأن تبحث الأمور بوضوح، لا داعي للانغلاق اليوم، لابد أن ينفتح بعضنا على بعض، بحيث نناقش كل القضايا، نناقش جميع الأمور التي

تهمنا، نناقشها، ونسمع وجهة النظر الأخرى، ويكون الحكم فيها الأخير المرجعية العلمية الدينية، التي أمر الله ﷻ بالرجوع إليها.

التأثر - كما يقال - أو أن نسعى في أطر معينة، لا نتعداها، وألا نحدث الآخر لأنه كذا وكذا، هذا يفقدنا البناء الداخلي والمحافظة على رأس المال؛ لأن الفرقة وقعت، وإذا وقعت، فلابد من الاختلاط، الذي معه إصلاح هذا الشعب، كيف يكون الإصلاح؟ بالمناقشة، بالمحاضرة، بطرح جميع القضايا، ليس ثم قضية الآن يمكن أن يقال: لاتناقش. نعم، هناك بعض الدعوات عندها قضايا لم تطرح إلى الآن، ولكن الخاصة يعلمونها، لابد من طرح جميع القضايا، إذا كان ديدننا الحق، أما أن تفجع الناس بين حين وآخر بآراء، أو أن تكون آراؤنا حديث لأطر معينة، لاشك أن هذا ليس من وسائل البناء، وهذه الكلمة ربما يفقهها من يفقهها، ويسعى في تحقيقها.

من الوسائل المهمة توسيع القاعدة، الملاحظ أنه منذ سنين قاعدة الصالحين، أو قاعدة الملتزمين كما يقال، أو قاعدة الشباب، أو النساء الملتزمات أرى الازدياد فيها محدودًا، لم؟

قبل الأزمة كانت الدعوة، وكان اقتناع الناس وقربهم من أهل الخير والتزامهم وتمسكهم بالهدى كان كثيرًا وعظيمًا، وفي كل سنة ازدياد للخير، بعد ذلك جاءت عوائق مختلفة، عوائق منها أنفسنا، وعوائق أخرى موضوعة، بعض العوائق قد تكون عقوبة، وبعض العوائق قد تكون من جراء عدم النظر الصحيح فيها، لكن هل ننظر في هذه الأمور، ونبقى كما نحن

بدون توسيع القاعدة؟ ما الدعوة؟ الدعوة هي أن تنتشر، وهذا الانتشار كيف يكون؟ وما وسائله؟ لابد أن يطرح في مجالسكم، وأن ينظر في كل مجموعة عمل، مجموعة في أسرة معينة، جماعة مسجد. . . إلى آخره، لابد أن توسع القاعدة، هذا التوسيع للقاعدة ضروري، وهذا التوسيع للقاعدة يجب أن يكون مبنيًا على أطر بعيدة عن الخلافات؛ لأن الأمور التي فيها الخلاف لا ندخل فيها من لم يعايشها، الأمور التي فيها الكلام الآن وفيها الخلافات كانت لها أسباب ولها نتائج، لكن من لا يعي شيئًا، ولا يرى هذه الخلافات يجب أن نبعده عنها؛ لأنها تشوش القلب، وتشوش العبودية لله ﷻ، والقصد من الدعوة أن تعبد الناس لرب العالمين، إذا كان المقصود أن تحذرهم، يعني أن تقصد بالدعوة أن تحذرهم من فلان وفلان، أو من الجهة هذه، أو من الفئة تلك، فهذا باطل من القول وزور؛ لأن القصد من الدعوة أن يجعل من هذا المدعو صالحًا متعبدًا لله ﷻ، وتخلصه من هوى نفسه، وتكون قد أعظمت له المثوبة، وأعظمت له النعمة إذا هديته لما به سعادته في الآخرة، ليس كل ما يعلم يقال، كما يقول طائفة: ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال يقال لكل الرجال، ولا ما يقال لبعض الرجال يقال في كل الأحوال، لابد أن تكون المسألة مرتبة.

فإذًا: توسيع القاعدة والدعوة هذا ضرورة من الضرورات، لا ندخل الناس في خلافات الخاصة، أو في المعلومات، ليست مسألة الغثاء في الدعوة والزبد والمشاكل الموجودة ليست هي مقصودة، وإنما هي هكذا حصلت، فينبغي أن توضح بقدرها، وأن لا يشغل الناس بها، من أي جهة كانت، فأن تأتي إلى رجل تدعوه، أو إلى إمرأة تدعوها، ويصبح الكلام في

قيل وقال، وأمور ليست من صميم الدين، هذه جناية على البناء الصحيح، وجناية على الدعوة، وأثر من آثار التعصب لأشياء المرجو أن تزول، وأن يعقل أصحابها ما يجب شرعًا.

المستقبل كيف ننظر إليه؟ المستقبل ننظر إليه إلى أنه لا امتداد أو لاتوسع في الصلاح إلا ببناء القاعدة الصالحة القوية، المدن توسعت، والمناطق كبرت، والناس كثروا، من سيخاطب الناس، وسيرشدهم ويدعوهم؟ لابد من توسيع القاعدة التي ستحمل الدعوة، وهل القاعدة في هذا البلد بخاصة؟ يعني: هل الدعوة في هذا البلد بخاصة الذي ستنتشر فيه هذه القاعدة، أم أنه في هذا البلد وفي غيره؟ لا شك أنه فيه وفي غيره، هذا يتطلب نشئًا كثيرًا وتربية قوية، وتربية مركزة؛ حتى يمكن أن تحمل الدعوة صحيحة بدون مفاسد إلى الناس، دعوة ينظر فيها إلى المستقبل، ونقعد فيها عن أخطاء ارتكبت فيما مضى من الدعوات والتجارب الماضية، التي لم تنجح، وربما يأتي التنبيه على بعضها.

هذا الكلام الذي أقوله ربما يمر من فوق بعض الرؤوس - كما يقال -، لكن لابد من الاهتمام به؛ لأن الواقع اليوم مرير وصعب، وكل مخلص أو كل من يرجو رفعة هذا الدين يتألم كل يوم مائة مرة؛ لما يرى من هوان أهله وفرقتهم، وانشغال بعضهم في بعض، ولما يرى من ضعفهم وبعدهم عن الانتشار والدعوة، لابد من علاج الأمور بوضوح، ولابد من الكلام بقدر ما يفهم المرشد، أو بقدر ما ينظر إليه طالب العلم، لكن لابد أن نصل في دعوتنا وفي بنائنا المستقبلي ومشاكلنا إلى حل واضح، والناس لم يعد عليهم شيء يخفى، بل الأمور واضحة، بل يتسامعون ويتكلمون فيها،

فلا بد من طرقها علانية.

هناك ميادين للدعوة والبناء نعود إليها باختصار.

أما الأول: فهو العمل التربوي، بأن يكون البناء والدعوة من جهة التربية، ومن أصول الداعين أنهم يسعون في تربية الناس، لكن إذا نظرت اليوم، وجدت أن جهات المجتمع مختلفة، وطبقاته مختلفة، كيف نخاطب الناس؟ هل نخاطبهم على وتيرة واحدة؟ منهم الموظفون، منهم المنشغل بوظيفته جل يومه وبأهله، منهم الأطباء، ومنهم المهندسون، منهم التجار، منهم العامة، منهم الشباب، منهم المثقفون، منهم الصحفيون، منهم الكتاب، منهم، منهم، إلى فئات كثيرة من المجتمع، لا بد من عمل لهؤلاء، ولا يسوغ أن ننظر إلى الدعوة إلى أنها تخاطب جهة معينة، أو تخاطب فئة معينة، فنطلب من الجميع أن يكونوا طلاب علم، لا يمكن. نطلب من الجميع أن يهتموا بنوع معين، أو بشيء معين من العلم الشرعي، أو من أمور الإسلام، وإذا لم يهتموا به، فمعنى ذلك أنهم كذا وكذا، هذا غير ممكن، يجب أن ننطلق في الدعوة إلى أن تناسب الجميع، لكن هنا في الدعوة التربوية هناك أصول، هذه يجب أن تحكم الجميع، فكل واحد يجب أن يعتقد المعتقد الحق، وأن يأخذ بالأصول الثابتة، لكن هناك أشياء يختلف فيها الناس: قراءات مختلفة، قناعات معينة، أعمال مختلفة، وعمل يختلف من فلان إلى آخر، هل نسعى في الدعوة إلى أن يكون مخاطب بها شريحة معينة؟ هذا لا يناسب دعوة الإسلام؛ لأن دعوة الإسلام تخاطب الأمة جميعها، والله ﷻ وصف هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

﴿بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال أهل العلم: معنى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ معناه: كنتم للناس خير أمة أخرجت[1]، خير أمة أخرجت من الأمم للناس هي هذه الأمة، فهي تخاطب جميع الناس: دعوة لغير المسلمين، دعوة للمسلمين بأنواع شرائحهم، مخاطبة لجميع طبقات الناس، هذا يتطلب منا أن ننظر في الدعوة إلى أفق واسع وإلى ميادين متعددة، لكن هناك أصول ثابتة في الدعوة، هناك أصول عقدية ثابتة، العقدية: أولًا التوحيد، أولًا البناء على تحقيق القلب في عبوديته بالتوحيد لله ﷻ، هذا أصل من الأصول، ولن تقوم الدعوة وتوسع الدعوة والقاعدة إلا على هذا الأساس: تحديد المرجعيات، العلم الواجب، أنواع الاهتمامات، حد كل اهتمام - كما سيأتي -، هذا لابد أن يضبط، ولا بد أن تخاطب جميع الشرائح.

العمل الثاني: العمل الاجتماعي، وهذا ميادينه مختلفة من جهات، قد يكون من قبل كل أسرة في محيطها، أو كل أهل بلد في محيطه، وفي محيطهم، وغير ذلك. هناك الاهتمامات السياسية، مطروق في الدعوات ومطروق في مجالس الناس والشباب اهتمامات سياسية متنوعة، الاهتمام بالسياسة تجاوز أن نقول: مهم أو غير مهم، فالناس يهتمون بطبعهم، وقد قال بعضهم: إذا تكلم الناس في الرؤى والأحلام أو في الجن أو في السياسة، فلن يسكتوا. وهذا صحيح. الاهتمامات السياسية عند الناس متنوعة، وعند الدعاة والشباب - أيضًا - موجودة، وتختلف ما بين الغلو فيها وما بين البعد عنها تمامًا، هناك من لا يهتم بالسياسة أصلًا، ولا بما

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٤٣)، وزاد المسير (١/ ٤٤٠)، والقرطبي (٤/ ١٧٠)، وابن كثير (١/ ٣٩٢).

يحدث، فإذا تكلمت معه عن شيء حدث، ربما يعرف الشيء أنه حدث بعد سنة أو سنتين أو عشر سنين، هذا واقع لا يهتم بشيء من ذلك، هذا قصور في مخاطبة الناس، قد لا أهتم أنا، أولا يهتم الثاني والثالث، لكن من يواجه الناس بالدعوة ينبغي أن يهتم، لكن الاهتمام بالسياسة هل هو اهتمام على ما ظهر أو هو اهتمام منضبط بأصول الشرع؟ لابد من أن نضبط كل شيء بالشرع، هناك غلو في بعض الاتجاهات في الاهتمامات السياسية، ترى أن حديث من معهم في أكثر يومه في القضايا السياسية، في الحكام في الولاة، فيما حصل، في السلام، في الخطوة هذه، في الخطوة تلك، وهكذا . . . ، هل هذا يتقدم ببناء الشخصية المسلمة؟ هل هذا يتقدم ببناء المجتمع أو بناء المجموعة؟ كل شيء يؤخذ منه بقدر المأذون به شرعًا، وإذا نظرت إلى ما كان في عهد الصحابة ﷺ، وجدت أن ثمة اهتمامًا بما كان يجري، لكن كان اهتمامًا لم يعد على أصل الدعوة بالانحراف؛ لأن الدعوة التي لا تهتم بما حولها لا تصلح للمجتمعات الحالية، والدعوة التي تغرق في هذا الأمر - في السياسة -، أو لا تنضبط فيه بضابط الشرع، لا شك أنها لا تصلح للدعوة، والذي تلاحظ أخي، وألاحظه أنا، ويلاحظ كل ناظر أن الشباب في الاهتمامات السياسية عبارة عن نقلة، تجد أن منهم مثلًا عشرة يجتمعون في مجلس، واحد منهم يلقي خبرًا، أو يحلل حادثة سياسية على نحو ما، تلاحظ بعد مدة التسعة الباقين يرددون الخبر، ولو كان غير دقيق، ويرددون التحليل نفسه، من أين أتى هذا؟ أتى بأنه ليس ثم وعي، يعني: جُعل تقية للتقليد، وكثير من الشباب - بل الأكثرون - في هذا المجال مقلدة، مقلدة من جهة نقل الخبر، ومقلدة من جهة تحليله،

منهم من يزيد على ذلك بأن يكون الخبر إذا كان في صالح جهة ما، فهو غير صحيح، وإذا كان في ضد جهة ما، فهو صحيح، وهذا لاشك أنه ضعف ونزول في المستوى الثقافي السياسي، الذي إذا اهتم الناس بالسياسة ينبغي أن يكون منضبطًا بما يجب شرعًا.

فما الذي يجب في تلك الاهتمامات؟

أولًا: أن يكون الخبر متأكدًا من صحته، لا تنقل الخبر عن فلان وهو غير دقيق فيما يأتي، وإذا أردت أن تنقل ما قاله فلان، فلابد أن تتأكد أنت من مصدره، وإذا أتى التحليل، فلابد أن توازن أنت، تحلل بما أعطاك الله ﷻ من العقل. إن مصيبتنا اليوم في الدعوات التقليد، الشباب كثير منهم مقلدون، لا يفكرون، إذا نقد طائفة طائفة أخرى جاء التقليد، إذا تكلموا في السياسة وفيما يتعلق بها أو في الأحوال أو في الواقع أو المنكرات التقليد؛ ينقل بعضهم عن بعض، أين الفكر؟ أين العقل؟ أين بناء المرء بنفسه البناء الصحيح الذي به يقيم الأمور ويحلل لنفسه أو لرأيه؟ هذه الأمور ليست شرعية، نقول: الأمور فيها محصورة على جهة معينة، هذه الجميع يخوضون فيها، فالتقليد فيها من عيوب العقل الجديدة، وإنك ترى في بعض المجالس من يردد كلمة قيلت ربما قبله بدقائق، ينسى أن الذي قالها فلان قبل ساعة من المجلس، ويقول: أنا سمعت كذا، ويقال قبل قليل: قيلت. هذه موجودة كثيرة، حتى في الناس يردد بعضهم كلام بعض، ويردد بعضهم تحليل بعض، إشاعات تأتي، وهذا إذا كان مقبولًا في صفوف العامة، لكن في صفوف بناء الدعوة الصحيحة إنه غير محمود وغير مرضٍ.

الاهتمامات السياسية لابد فيها من الوسطية، وإذا كان أهل العلم وسموا أهل السنة والجماعة بأنهم وسط في الفرق المختلفة، ووسط بين هذا وهذا، بين الغالي والجافي، وسط في باب الصفات، ووسط في باب الإمامة، ووسط في باب القدر، ووسط في مسألة الأسماء والأحكام ووسط، ووسط نقول: أيضًا في هذه المسائل وسط، فإنهم لا يخلون أنفسهم من الاهتمام، ولكنهم لا يغرقون في الاهتمام، وإذا اهتموا، فليسوا بمقلدة، فإما أن يتحدثوا بعقلية ناضجة، أو يتركوا؛ لأنه من العيب في العقل أن تكون مقلدًا في مسألة يشترك في معرفتها وتحليلها الجميع.

يضيق الوقت عن بعض الأشياء التي كانت في الذهن، لكن ننتقل إلى خاتمة.

وهذه الخاتمة شق ثان لهذه المحاضرة، نعرج فيها لبعض المظاهر تزيد من الزَّبد، وتزيد من ظهور الغثاء، وإذا كان المفسرون واللغويون قالوا لنا: إن الغثاء والزبد أشياء تراها متفرقة كثيرة وظاهرة بيّنة لك، لكنها - وإن كانت تظهر للعين، أو تأخذ بالعين من جهة النظر - لكن لا قيمة لها، لكن أيضًا تحتاج إلى إزالة، إذا أردت أن تستفيد من ماء فيه زبد وفيه غثاء، فلابد أن تزيل ما علق به من الشوائب.

ولهذا نقول: لابد أن ننظر إلى هذه المظاهر.

أول مظهر من تلك المظاهر: النظر إلى الأمور من جهة واحدة، كيف يكون ذلك؟ من طبيعة بعضهم أن يرى هم الدعوة، أو يرى الإصلاح من جهة واحدة فقط، ذهنه تربى عليها، أو أكثر من السماع في هذا

الموضوع، فيرى أن الإصلاح في هذه الجهة فقط دون غيرها، وهذا من نتائج الضعف في البناء والتقليد؛ لأن هذه المجتمعات اليوم وهذه الأمور المشتبكة المتخالفة ننظر فيها إلى الأمور من جهات متعددة، فالذي ينظر إلى الأحوال من جهة واحدة، لابد أن يخطئ. أسباب النظر من جهة واحدة: قد يكون من أسباب ذلك أن يكون المرء عاش مع من يملي عليه هذا الفهم، فينظر إلى الأمور بهذا الفهم، سنوات وهو لا يسمع إلا هذا التصور، معه مجموعة من الشباب، أو يخالط مجموعة يرددون هذا التصور، حتى أصبح بعد مرور السنين عنده حقيقة لا تقبل النقاش، هذا من نتيجة أن يكون في إطار واحد، وهذا خلل في البناء، ومظهر من المظاهر التي ينبغي علاجها.

من مظاهر الزبد: لا شك أن الدعوة التي يمارسها أولئك مطلوبة، وما هم عليه من الخير لا يجحد، لكن الذي يكون فيه النظر من جهة واحدة، ويحكم على الأمور من جهة واحدة، بل ويلزم الناس بهذا النظر، لا شك أن هذا غير مرض؛ لأن وجهات الأمور مختلفة، والله ﷻ أمرنا بأن نزن بالقسطاس المستقيم.

من مظاهر الزبد: ومن المظاهر التي تزيد من الغثائية الاستعجال، الدعوات لا تقاس أعمارها بالسنين، والإصلاح والدعوة لا يقاس كم مضى من سنة، ذكرت لكم كم مكث نوح عليه السلام من سنة، ألف سنة إلا خمسين عامًا، والنتيجة ما آمن معه إلا قليل، محمد بن عبدالله ﷺ مكث ثلاث عشرة سنة في مكة، ومكث عشر سنين بعد الهجرة، وكان حصيلته في الدعوة في العشر سنين أعظم من ثلاث عشرة سنة، بل وكانت أعظم وأعظم وأعظم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] جاءته الجموع والوفود مسلمة، أول

الرسل نتيجة دعوته قليل، قال بعض المفسرين كانوا اثني عشر، ما بين رجل وامرأة، وأكثر ما قيل أنهم بضعة وسبعون، والنبي محمد ﷺ مكث ثلاثًا وعشرين سنة، ولكن كانت النتيجة أعظم من ذلك بكثير، كانت النتيجة أعظم وأعظم وأعظم، هذا يعطينا أن النظر في الدعوة إلى ما يجب، لا إلى النتيجة، ولهذا من المآخذ على الدعوات المعاصرة الاستعجال، جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ، وهو في منى، فقالوا له: **«وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ»**[1]، لكن بما نعلم من السنن وبهذه الظروف الحالية لا بد من الصبر على الدعوة، والاستعجال له صور كثيرة متعددة، تختلف ما بين بلد إلى آخر، فمن عوائق البناء الاستعجال، من عوائق البناء أن يتحمس المتحمس الداعية أو الشاب، ثم ينقض ما في نفسه بتصرف أو بقول أو بفعل، ثم تكون النتيجة ضده وضد مجموعته، وضد الإسلام وضد الدعوة. هذه من مظاهر الاستعجال، ويمارسها بعضنا في كل يوم في دعوته للأفراد وغضبه لنفسه، أو استعجاله في تحصيل النتائج.

من تلك المظاهر التي تزيد من الغثائية: التعصب، الشباب اليوم الدعاة والمصلحون يعيب بعضهم التعصب للمذاهب الفقهية، التي ينتمي أصحابها إلى أئمة: مذهب أبي حنيفة، مذهب الشافعي، مذهب مالك، مذهب الإمام أحمد، وهؤلاء أئمة في الإسلام، ومع ذلك من يتعصب لأقوالهم يعيبونه، ويعيبون المقلد، لكننا نرى تعصبًا لأقوال بعضهم لبعض،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ٨٩).

تعصبًا لأفكار بعضهم لبعض، فكيف يتفق هذا مع هذا؟ نرى تقليدًا، نرى التعصب على مصراعيه، بحيث إنه لا يقبل كلمة حق إلا إذا جاءت ممن يرضاه، واعجبًا! قال يهودي لأحد الصحابة: نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**أَمَا وَاللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْرِفُهَا لَكُمْ، قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»[1]، يهودي عاب على المسلمين كلمة يقولونها، والنبي ﷺ ما رفض هذا القول لأنه من يهودي. قال إمام هذه الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في مسائل كتاب التوحيد، لما ساق هذا الحديث، قال فيه: فهم الإنسان إذا كان له هوى، الذي له هوى في شيء يريد أن ينقد شيئًا، له هوى في ذلك، يحتد به؛ حتى يخرج شيئًا، لكن الجهة المنقودة هل تتعصب لنفسها، وتقول: لا أقبل الحق إلا من جهتي؟ لا شك أن هذا من غير الشريعة، بل الشريعة جاءت بقبول الحق ممن جاء به، ونحن نرى اليوم أن الجهات المتعددة التي تعمل للإسلام، ويدعون على اختلاف ما بينها وعلى قربهم وبعدهم من السنة، نجد أنهم لا يأخذون بهذا التوجيه، فالذي هو من الفئة الأخرى وضد ذلك لا يقبل منه صرفًا ولا عدلًا، لا يقبل منه كلمة، لا يقبل منه نقدًا، بل إذا نقد قدح، والنبي ﷺ ما قدح في اليهودي، بل قبل ما قاله، وقال: «**قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»، فيه - كما قال شيخ الإسلام -، فيه فهم الصحابي. نريد أن نأخذ من هذه الظاهرة الصحية عندنا في البناء الدعوى المستقبلي، من أن النقد الموجه بين الدعوات، أو ما بين الفئات، أو على الأشخاص، أن نتجاوز التعصب للفرد، أن نتجاوز التعصب للداعية، أن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد في مسنده (٣٤/ ٢٩٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٦٥).

نتجاوز التعصب للعالم، أن نتجاوز التعصب للدعوة وللفئة وللجماعة، أن نتجاوز ذلك إلى ما هو أعلى وأهم، ألا وهو التعصب للحق، نبحث عن الحق، الله ﷻ أعطانا عقولًا، أعطانا مدارك، والبناء إذا كان فيه التعصب هذا وعدم الانفتاحية فيه، الانغلاقية الموجودة الآن، فإنه لن يكون بناء الدعوة بناءً صحيحًا، بل لابد أن نفتح الأمور، وأن نقبل النقد ممن جاء به إذا كان صحيحًا، ونناقش في قنوات مفتوحة على أوسع مجال من جميع الجهات؛ لأن هذا فيه صلاح وإصلاح، والنظر والمناظرة والمحاجة والمجادلة بالتي هي أحسن كلها لها أصولها الشرعية المعلومة.

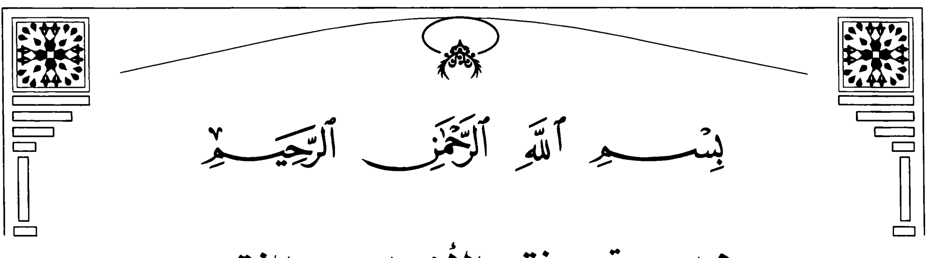
من المظاهر: طلب الكمال، من المظاهر التي تزيد الغثائية طلب الكمال في الأشخاص، أو طلب الكمال في الدعوات، أو طلب الكمال في أنواع التربية، مثلًا أن لا يقتنع بأحد، أو أن لا يرضى بفعل، لو كان في نفسه خير ومصلحة شخصية لا يرضى به إلا إذا كان كاملًا لا نقص فيه، وهذا غلط، بل النقص يسدد ويكمل، إذا كان ثم نقص، نرضى بأصل العمل، بشرط أن يكون الأصل العملي على وفق طريقة السلف الصالح، أن لا يكون عملًا بدعيًا، أن لا يكون عملًا مخرجًا عن طريقة أهل السنة، أن يكون العمل في أصله صحيحًا، فإذا كان العمل في أصله صحيحًا، فإن طلب الكمال في العمل الدعوي غير واضح، بل لابد أن يكون ثم وثم وثم من الثغرات، الذي ينبغي أن نتكامل، بمعنى أن ينصح بعضنا بعضًا، وأن نفرح بالنقد، هناك من العيب أو النقص كذا، في دعوتك كذا وكذا وكذا، طيب ندرس هذه الأمور ونرى، فما كان فيها من خطأ نزيله، وأن لا نربي أنفسنا وشبابنا على التعصب، وعلى البعد عن قبول غير ما نقتنع به، لا شك أن

الإيمان يتبعض، وكذلك أمور الإيمان تتبعض، ومن دعاكم إلى خير، فأجيبوه، ويقول الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢] فلهذا ترى من طريقة الراسخين في العلم في هذه البلاد أنهم يسدون النقص إذا كان موجودًا، وإذا وجدوا من يدعوهم، مثلًا أحد دعاهم إلى بلد، وطلب منهم محاضرة، أو طلب منهم لقاء، ونحو ذلك، ورأى عليهم بعض النقص، أو سمع منهم بعض النقص، يفاتحهم، ويقول لهم كذا وكذا، أما أن يتصور واحد منا أنه لا دعوة إلا على وجه الكمال، أو لا يقبل دعوة مطلقًا، هذا ينتج عنه أن نقبل بتسلط أهل الباطل، أن نقبل بانتشار الفساد؛ لأنه إما هذا أو ذاك، أو نتخلص إلى ما يجب، وهو أنه من كان مصيبًا في شيء نصوبه فيه، ومن كان مخطئًا في شيء ننصحه عليه؛ حتى يتخلص من أنواع الشرور، أو أنواع الخطأ في دعوته، وفي أسلوبه، أو في آرائه، ونكون أكثر واقعية في عملنا الدعوي، طلب الكمال في الأشخاص، طلب الكمال في المجموعات، طلب الكمال في ما تراه هذا غير واضح، ولكن المرء يوازن فيما يأتي وفيما يذر، ويوافق في تقييمه للأمور، فيما يراه من أحوال ومجتمعات، وإذا كان الناس قريبين إلى الحق والهدى، أو كانوا أعظم اتصالًا بالسنة وبالتوحيد، فهم على خير، وما كان فيهم من نقص، فإنه يسدد.

هناك بعض المظاهر الأخرى، لكن نرجئها إلى لقاء آخر، هذا وأسأل الله ﷻ أن يبصرني وإياكم، وأن يجعلنا من الدعاة إلى دينه، وأن لا يجعلنا ممن يتخلفون عن الدعوة بأسباب موهومة، وأن يجعلنا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، اللهم أصلح قلوبنا، اللهم أصلح لنا

ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، اللهم أصلح قلوب أحبابنا وقلوب ذرارينا ، وأصلح قلوب أقاربنا ، وأصلح قلوب المسلمين، اللهم وفق ولاة أمر المسلمين إلى الأخذ بالدعوة إلى دينك على ما تحب وترضى، اللهم وألف بين قلوب المؤمنين، واجعلهم متعاونين على البر والتقوى، اللهم نسألك أن تعيذنا من مضلات الفتن، وأن تعيذنا من الفساد، وأن تعيذنا من المنكر، وأن تعيذنا من كل ما لاترضاه، اللهم أعذنا، وأعذ أحبابنا، وأعذ من دعا لنا، وأعذ جميع المسلمين، اللهم واحفظ مجتمعاتنا من كل سوء، اللهم من أرادنا أو أراد المسلمين بسوء في ديننا، أو في أعراضنا، أو في أخلاقنا، أو في أي أمر من أمورنا، اللهم فأشغله بنفسه اللهم لا تجعل له طريقًا علينا، اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك، ويعافى فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





محاضرة: «فقه الأزمات والفتن»

الحمد لله، حق حمد وأوفاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإني في فاتحة هذا اللقاء لأشكر لمعالي مدير الجامعة - الدكتور/ محمد السالم - الدعوة الكريمة للالتقاء بكم، كما أشكر لوكلاء الجامعة، وفضيلة عميد هذه الكلية على الترحيب والعناية.

ولا شك أن بذل العلم الشرعي وبذل النفس فيه بما يناسب المقام والحال من أعظم القربات إلى الله ﷻ، فطالب العلم في علمه وتعلمه وتعليمه - حتى في نَفَسِهِ - يؤجر على ذلك، ويعظم الأجر بحسب المقاصد واللوازم المترتبة على ذلك.

ولهذا جاء هذا الالتقاء بهذه الثلة الكريمة من حملة العلم الشرعي من طلاب الجامعة، وخاصة طلاب كلية الشريعة، الذين هم حملة مشاعل العلم ونور العلم إلى الناس، وما أحسنَ قول الحسن البصري رحمه الله وهو يخاطب القرَّاء - يعني: طلبة العلم في البصرة -، وهو يقول لهم: (**يا مِلْحَ الأرض لا تفسدوا**). يعني بذلك: أنهم هم الأمل في حمل اللواء، وهم

الذين سيصلون الحاضر بالماضي، وهم الذين إذا صلحوا في العلم والعمل، فإن الناس سيتأثرون بذلك، وبقدر النقص في القراء في طلبة العلم يكون النقص في الناس.

ولهذا فأنا مسرور كثيرًا بهذا اللقاء؛ لأنه لقاء مع الحملة للعلم والدعوة وهم نشر هذا الدين، والدفاع عنه، والبذل في سبيله.

وقد دار في ذهني عدة موضوعات لأتحدث معكم عنها، وكان لمناسبة المكان -كلية الشريعة التي هي كلية الفقه والاجتهاد - أن ظهر موضوع (فقه الأزمات والفتن)، ومعلوم أن الفقه هو: العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية[١]، وهذا ممكن أن يتنوع، فنحتاج إلى فقه أكبر، وهو التوحيد، ونحتاج إلى فقه في العبادات، وفقه في المعاملات، وفقه في الأحوال - يعني: ما يسمى بالأحوال الشخصية -، وفقه في النكاح والطلاق، والأسرة، والوصايا، والأوقاف، وما شابه ذلك. وهذا الزمن أظهر الحاجة إلى نوعين من الفقه، يجب أن يؤصل لهما؛ لحاجة الأمة، وليكون طلاب العلم على معرفة بذلك، فإنه من الأهمية بحيث لا يجوز أن يغفل، ولا أن يترك الكلام عنه، وهذا هو فقه الأزمات والفتن، وفقه الدعوة.

أما فقه الدعوة، فلن نتحدث عنه؛ لأن المجال يضيق، وهو بحاجة إلى الكثير من الحديث؛ لأجل شدة الحاجة في هذا الزمن لفقه صحيح في

---

(١) انظر: المختصر في أصول الفقه (١/ ٣١)، والقواعد والفوائد الأصولية (١/ ٤)، والتعريفات (١/ ٢١٦).

الدعوة إلى الله ﷻ، وأما الحديث، فهو عن فقه الأزمات والفتن، وكما هو معلوم من يتحدث عن شيء في أول الأمر، فإنه قد لا يستوعب أطرافه، ولكن هي محاولة لفتح الباب لأهل الاجتهاد والعلم بالفقه، الذين هم أنتم يا حملة العلم من طلاب هذه الكلية، وإذا لم تحملوا أنتم الفقه الصحيح، فمن يحمل ذلك؟! وإذا لم تكونوا أنتم أهل النظر والتجديد والاجتهاد، فمن يكون كذلك؟! فأنتم الأمل في هذا؛ لأنكم حملة الفقه الذين درسوا أصوله وفروعه، ودرسوا ماضيه، ودرسوا حاضره.

اليوم - كما ترون - لا شك أن الأمة بجميع فئاتها - فئاتها السياسية، وفئة العامة، فئة المثقفين، وفئة طلبة العلم، وفئة الدعاة، وفئة المتحمسين للشأن الإسلامي العام - نجد عندهم الكثير من الإشكالات المتعلقة بهذا الواقع الإسلامي المرير الذي نعيشه.

فنحن ما بين دوائر التفجير إلى دوائر التكفير، وما بين التخدير -تخدير المشاعر، تخدير الغيرة - إلى الحماس والاندفاع، فما هو المخرج من ذلك؟ وما الفقه الذي يتناول هذا الأمر؟ هل الحكمة في المخدرات العلمية كما يقال؟ أو الحكمة في الحماس وإثارة العواطف في هذا الزمن؟ وهل الفقه الصحيح أن يتساهل مع التكفير الذي أدى إلى التفجير؟ وهل الفقه الصحيح يؤدي إلى ترك الأمور دون رعاية؟ ما الذي يجب على طالب العلم الفقيه في هذا الزمن من جهة التأصيل ومن جهة التطبيق، من جهة تأصيل هذا الفقه -فقه الأزمات والفتن -، ومن جهة تطبيق هذه الأصول على الواقع؟ وهذا الذي سنعرض له في هذه الكلمة بشيء من الاختصار، الذي

أرجو ألا يكون مؤثرًا على مقاصد الكلمة.

أول ما يأتينا النظر في هذه النوازل، هل يتعامل معها الناس بتعاملهم مع الأحكام العامة المعروفة؟ أو يكون هناك نظر في الأزمة وفي الفتن، ما لا يكون من النظر في زمن الأمن واستقامة الأحوال؟

والناظر في حال السلف يجد أنهم اختلفت أقوالهم بحسب الحال، هناك رعاية لأشياء في زمن الفتن ما لا يكون ربما في زمن غيره.

وقد ذكر عن العلامة ابن القيم رحمه الله أنه قال: ينبغي للمفتي أن ينظر في حال الناس بحسب الزمان، فإما أن يشدد عليهم، وإما أن ييسر عليهم.

في زمن علي رضي الله عنه لم تكن سيرته في رعيته هي سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الرعية؛ لأجل أن الأمور لم تستقم له على حال.

وإذا نظرنا في الزمن - زمن الفتن - كان للصحابة رضي الله عنهم من الكلمات المضيئة ما يكون نبراسًا لسبر الطريق، وهذا يحتاج منكم إلى البحث عن هذه الكلمات في توازن وشمول.

أصول النظر في فقه الأزمات والفتن:

أولًا: فقه المرجع:

أول ما يظهر لنا في أصول النظر في فقه الأزمات والفتن العناية بفقه المرجع، فلابد أن الناس لهم مرجع يرجعون إليه، وهذا الأصل فيه قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، دلت الآية على أمور:

الأول: أن أمر الخوف هو زمن التقلبات والفتن والأزمات، يجب ألا يذاع كل ما يتعلق به: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾، وهذا استنكار وكراهة لهذا الأمر؛ كما في سياق الآية، ما المرجع في زمن الخوف وزمن الفتن؟ قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، والرسول ﷺ ذكره في هذه الآية هو لأجل منصب الإمامة، وليس لأجل الرسالة؛ لأن ما يرجع فيه في النص أو في فعل الصحابة إلى النبي ﷺ تارة يتعلق بكونه ﷺ نبيًا رسولًا، المبلِّغ عن ربه الموحَى إليه، وتارة يتعلق بكونه الإمام الأعظم للمسلمين، وحقوق الإمام، وتارة يتعلق بكونه ﷺ قاضيًا فاصلًا في الخصومات، وتارة يتعلق بكونه ﷺ مفتيًا لا يُلْزِمُ بفتواه، وتارة يتعلق به بكونه ناصحًا ومرشدًا، وتارة يتعلق بكونه ﷺ بشرًا، وتارة بكونه إمامًا لمسجده ﷺ.

هذه قد ذكرها القرافي[1]، وذكرها غيره ممن صنفوا في تصرفات وأحوال النبي ﷺ، المقصود من هذا أن أفعال النبي ﷺ وما ينسب إليه وما يضاف إليه يتنوع بتنوع الحال.

وفي هذه الآية المقصود منها الرجوع إلى الإمام، ثم قال: ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، قال أهل التفسير: أولو الأمر في هذه الآية هم أهل العلم[2]؛ وذلك لأن ولي الأمر الذي هو الإمام

---

(١) انظر: الفروق للقرافي (١/ ٢٠٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٤٩)، والدر المنثور (٢/ ٦٠١).

المقصود به ذكر المقام في قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ هذا يعني: أن المرجعية في أحداث الخوف والأزمات والفتن كما هي في حال الأمن، لكن لابد من وضوح المرجعية، وأنها لأهل الاختصاص: ولي الأمر الذي هو الإمام فيما يختص به من الأمر العام، وحال المسلمين، والدفاع عنهم، والنظر في ذلك. وأهل العلم الشرعي فيما يتعلق باستنباطهم من النص، وما يتعلق بإيضاحهم للشرع.

وهذا ظاهر بين، لكن الخروج عن هذه المرجعية نبهت الآية على أثره، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فإنه لولا حصول هذا التوجيه، لكان هناك خروج باتباع الشيطان، والعياذ بالله.

هذا النظر المرجعي لابد منه؛ لأنه من المقاصد الكلية البينة للشريعة؛ لأن الشريعة جاءت بحفظ اجتماع الناس، واجتماع كلمتهم، واجتماع سوادهم، وعدم تفرق بيضتهم، وهذه من الأشياء العامة التي أعاد فيها القرآن وأبدى، وكذلك أبدى فيها النبي ﷺ وأعاد في النصوص، حتى جعلها إمام الدعوة - الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله - ثالث المسائل التي خالف فيها النبي ﷺ أهل الجاهلية، وهي: اجتماع الكلمة[1]؛ لأن أهل الجاهلية لا يقرون باجتماع الكلمة، بل يهتمون بما يرونه صوابًا وقوة بحسب عصبيتهم، أو بحسب ما يرون أنه أصلح لهم.

فجاء الإسلام بمقصده العظيم، وهو جمع الكلمة: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، هنا فقه المرجعية هذا من الضروريات،

---

(١) انظر: المسألة الثالثة من مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١/ ٧).

فإذا جاءت الأزمات والفتن، هنا لابد من وجود المرجع، فإذا اختلف أهل العلم -مثل ما يحصل أحيانًا في بعض المسائل المتعلقة بالأزمات والفتن- فأي الأقوال يؤخذ في هذا الأمر؟ هنا يؤخذ باليقين؛ لأن اليقين لابد من استصحابه، وهو الأصل. وأما الأمر الذي هو غير يقيني، أو يطرأ عليه الاعتراض، أو يطرأ عليه عدم رعاية المصالح ودفع المفاسد، أو يطرأ عليه عدم رعاية الأولويات، أو يطرأ عليه عدم العناية بجمع الكلمة، أو يطرأ عليه شيء من الطوارئ التي تؤثر في القواعد التي سنذكرها في فقه الأزمات والفتن، فإنه حينئذ يجب الأخذ باليقين، واليقين هو الذي أخذ به الصحابة رضي الله عنهم لما حلت الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه في آخره، وفي عهد علي رضي الله عنه وفيما بعده.

هنا لابد من تأصيل هذا النظر، وإذا لم نؤصل هذا النظر في فقه المرجع، في فقه من يُصارُ إلى قوله، في فقه القول الذي يُتَّبَع، فإنه لابد أن تحدث فُرْقَة أخرى وفتن أخرى، فإنه ما من تغير في الأحوال وحصول فتن في تاريخ الإسلام، إلا ما ندر، ما تحصل فتنة ولا تغير في الأحوال إلا ويكون بعدها تفرق، ولابد، والله عز وجل وصف من جانب نفسه عن الفرقة بأنه من المرحومين، قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] فأهل الرحمة الذين جعل الله عليهم الرحمة الخاصة، وهي رحمة الخروج من المأزق والفتنة هم الذين لا يحدثون فُرقة واختلافًا.

خذ التاريخ جميعه، لما حدث الخلاف أو الاختلاف في وقت عثمان رضي الله عنه، وحصل المقتل، تنوع رأي الناس في ذلك، وظهرت الخوارج بقوة،

في عهد علي رضي الله عنه لما ظهرت الفتن بعده، خرجت الفرق، خرجت عدة فرق: السبئية، والمرجئة، والخوارج استمروا... إلى آخره. بعد ذلك لما حصلت الفتن عند الأمويين في بعض الأزمنة، خرجت فرق أخرى من المعتزلة وغيرها، بعدها في زمن الإمام أحمد فتنة خلق القرآن، حصل خروج فرق جديدة... وهكذا.

ففي الأزمات السياسية أو الأزمات الدينية إذا لم يرجع فيها إلى فقه صحيح مؤصل، فإنه يحدث ما نهى الله عز وجل عنه، وهو حصول الافتراق وزيادة الفُرقة في الأمة.

الثاني: فقه الأولويات:

وهو الذي يسميه بعض العلماء: فقه البداءة بالأهم فالمهم، ويسميه بعض أهل العصر: فقه الأولويات.

وكلمة الأولى موجودة في كلام أهل العلم وكلام الأصوليين: (وهذا من باب أولى)، ونحو ذلك.

فقه الأولويات مهم؛ لأنه من لا ترتيب عنده في أي وقت - خاصة في وقت الأزمات والمحن وتغير الأحوال -، من لا ترتيب عنده للأولويات - ما الذي يقدم؟ ما الذي يؤخر؟ وما الذي يهتم به؟ وما الذي لا يهتم به؟ وما الذي يجب أن يُجمع الناس عليه وأن يسيروا فيه؟ وما الذي يكون فيه الخلاف مقبولًا؟ - هذا إذا لم يكن بينًا عند كل طالب علم، وكل فقيه، وكل طالب في الشريعة، وكل إمام، وكل خطيب، وكل داعية، وكل متحدث، فإنه يحصل خلل كبير جدًا في الخروج من المآزق والفتن، بما يُحْدِث

ما لا تحمد عقباه.

فقه الأولويات عُرِّف بأنه: العلم بالأحكام الشرعية التي لها الحق في التقدم على غيرها، بناء على العلم بمراتبها، بحسب الواقع الذي يتطلبها.

وفقه الأولويات موجود في النصوص، فالنصوص هي التي دلت على هذا الأمر، ففي قول الله ﷻ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، في رعاية الأولى فالأولى.

وقال ﷻ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، والأولوية قد تستفاد من ذكر اسم التفضيل صراحة، أو عن طريق الإيماء، أو عن طريق الموازنة بين شيئين، دل الدليل على ترجيح أحدهما على الآخر، أو دل النظر الصحيح المبني على الدليل أو على المقاصد الشرعية بترجيح أحدهما على الآخر.

وفي السنة النبوية رُعِيَت الأولويات، رُعِيَت البُداءة بالأهم فالمهم، منها ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبي ﷺ لما بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ**

أَمْوَالِ النَّاسِ»[١]، ففيه ذكر كلمة أول، ورعاية الأولويات.

ولهذا ذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في مسائل كتاب التوحيد، قال فيه - أي في الحديث -: (فيه البداءة بالأهم فالأهم)[٢].

ومن الأدلة في السنة على هذا الفقه - فقه الأولويات - قول النبي ﷺ عندما جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ، فَقَالَ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»[٣]، فراعى أولوية المجاهدة في ذلك الوقت، برعاية الوقت، أو برعاية الأبوين، أو برعاية الحال؟ بتقديم الجهاد ببر الوالدين على الجهاد الكفائي الذي يطلبه ولي الأمر.

من ذلك - أيضًا - أن التيسير أولى من التعسير، والسعة أولى من الضيق؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري في صحيحه، قال ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[٤]، . . . إلى آخر الأدلة في هذا الباب.

هنا فقه الأولويات مهم في هذا الزمن ودائمًا، فما الذي يقدم؟ هناك من ينظر إلى أن الحق يجب أن يقال في كل زمان ومكان وفي كل حال بنفس المرتبة وبنفس القوة، وأنه لا يقدم شيء على شيء، ولا يؤخر شيء إلى

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: (كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد) المسألة الثانية عشرة (١/ ٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٩).

وقت آخر، ومعلوم أن التشريع في نفسه، نزول الشريعة في الأحكام كان فيها ترتيب في النزول في الأولويات.

فالصلاة فرضت كذا، ثم صارت كذا، الصدقة فرضت، ثم تحولت إلى زكاة، والجهاد كان في أول أمره في حال الضعف: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ثم في حال قوة الدولة واستعدادها لمجابهة الأعداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، هنا اختلاف الحال في التشريع نفسه، فكذلك في النظر فيما نأتي وفيما نذر، ليس المعيار هو أن يكون ما نقوله أو ما يناسب المقام، يناسب المرحلة، أن يكون حقًا في نفسه فقط، بل لابد من شيئين:

الأول: أن يكون حقًا في نفسه من حيث الدليل والحجة والبرهان.

والثاني: أن يكون في القول به في الناس من جهة الفتوى أو من جهة الإرشاد أو من جهة البيان، أن يكون المصلحة منه راجحة على المفسدة، وأن يكون في مقامه هو الأولى على غيره؛ لأن في بعض الأحوال قد يكتم العلم للمصلحة، قد يؤخر البيان لأجل المصلحة؛ وذلك من رعاية فقه الأولويات والبداءة بالأهم فالأهم.

هنا نأتي إلى شيء مهم في هذا الأمر، وهو من ينظر إلى الترجيح؟ يعني هنا دخلنا في فقه عميق متعلق بالاجتهاد، وهو ترجيح أن يكون هذا أولى من هذا، هذا يحتاج إلى علم راسخ بالفقه في نفسه، فقه النص، وكلام أهل العلم، وكذلك إلى نظر راجح في التاريخ - وهذا هو الذي يغيب -:

التاريخ العام القديم، وكذلك التاريخ الحديث؛ لأنه ما أشبه الليلة بالبارحة، وإن اختلفت الصور والأشكال.

فإذًا: هنا لابد من نظر في ما مضى وفي ما سبق، من ينظر نظرًا صحيحًا، لابد أن يكون استقرأ، ونظر ما الذي يحدث فيما إذا قال، بعض الناس - سواء كان من طلبة العلم، أو كان من عامة الناس الذين عندهم غيرة، أو من الشباب، أو نحو ذلك - ينظر للمسألة نظرة واحدة: هذا حق، لابد أن نقوله في كل زمان أو في كل مكان بحسب ورود هذا الحق.

هذا ليس هو النظر الصحيح لا في الوقت العام، ولا في وقت الأزمات والفتن من باب أولى؛ ولذلك جاء في سنن ابن ماجه بإسناد لا بأس به: «**مَن أَعَانَ على قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ ﷻ مكتوبٌ بينَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ من رحمةِ اللهِ**»(١)، بشطر كلمة، يعني: دل دلالة على هذا الشيء، وهو القتل، هذا وأشباهه يكون أحيانًا في زمن الفتن، أو في زمن المحن والأزمات، هذا يكون أحيانًا بالتشجيع - تشجيع العامة -، أو بالتبرير، أو بحصول بعض الكلمات، أو النظرات، أو البسمات، أو نحو ذلك، التي تغري بعض الناس بفعل هذا الشيء، وقد لا يكونون يقصدون حصول الغاية، لكنه كان سببًا في ذلك، والمتسبب في القتل له حكمه بقدره.

هنا رعاية هذا الفقه مطلوبة، خاصة منكم أنتم أهل الفقه الشرعي، وأهل الاجتهاد والنظر، وكذلك مطلوب من كل من هو على شاكلتكم في هذا الطريق - من حملة العلم، من طلبة العلم، والخطباء، والدعاة، وأشباه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠).

هؤلاء - أن يرعوا النظر أن الكلمة الواحدة في زمن الفتن والأزمات لها أثر عظيم، إما في تحقيق المقصد الشرعي الذي أمر الله ﷻ به، وإما في مضادته، دون شعور من صاحبه، فإذا كان هناك فقه صحيح، وأُصِّل ذلك، وكُرِّر، وصار هناك نظر فيه، فإنه يكون ترسيخًا لهذا النظر الصحيح.

من الأمثلة الواقعية على هذا الأمر الموضوع الذي يتكرر دائمًا، يأتي من يقول: الجهاد، الدعوة للجهاد. لا شك أننا في زمن نحتاج فيه إلى الجهاد في سبيل الله ﷻ، تحتاج فيه الأمة إلى ذلك، وهناك عدد من ديار المسلمين فيها احتلال بغيض من عدو للإسلام والمسلمين، هذا يجب مجاهدته بحسب الحال.

هذه القضية أو هذا الأمر الشرعي هذا متفق عليه بالنص والواقع، ولا إشكال فيه، لكن الدعوة إلى ذلك في كل بلد، هنا يأتي النظر في الأولويات، وما تحدثه هذه الدعوة من أمور ليست في حسبان من دعا إليها.

فهناك من دعا للجهاد، وكانت النتيجة أن ذهب بعض الناس يطلب ميدانًا للجهاد، فصار إلى التكفير، ثم صار إلى التفجير؛ لأنه من احتضنه؟ احتضنته فئة معينة دلته على أن الجهاد بقتال في ديار الإسلام، التي ليس فيها احتلال، وليس فيها أصلًا مدعاة للجهاد، بل فيها خروج عن الدين فيما إذا كان الجهاد في ديار المسلمين، مثل ما حصل من التفجيرات السنة الماضية كلها من ربيع الأول ١٤٢٤هـ وما قبله إلى ربيع الأول ١٤٢٥هـ، إلى حادث أمس، كل هذا بالنظر إلى أي شيء؟ النظر إلى التحمس في ميدان الجهاد.

الجهاد في نفسه حق، لكن هل يُحدَّث الناس به؟ ما المخرج؟ بعض طلبة

العلم أو بعض المشايخ يتحدث عن هذا، وهذا صحيح، أو يتحدث عن هذه الأمور بأدلتها، وهذا حق في نفسه، لكن هنا المتلقي إذا تحمس للجهاد، فأين سيجد المجال؟ ما هو المجال الذي سيحتضنه؟ أين الفئة التي ستحتضنه؟ لن يجد، فسيأتيه من سيأخذه باسم الجهاد إلى التكفير والتفجير، وهناك أناس معروفون كانت نيتهم سليمة حينما أرادوا الجهاد، لكنهم أُخذوا - والعياذ بالله - إلى فعل الخوارج ومحاربة المسلمين. هذا مثل من الأمثلة الماسة التي تحتاج إلى التمثيل بها؛ لأنه فقدت رعاية الأولويات وفقه الواقع بالنظر الصحيح.

الثالث: فقه الاجتماع والاختلاف

من أصول النظر في فقه الأزمات والفتن أنه يجب النظر إلى فقه الاجتماع والاختلاف، وأن الاجتماع مطلوب والفرقة والاختلاف مذموم، إذا كان كذلك، فإن الاجتماع وعدم التفرق هذا مطلوب دائمًا، لكن في حال الأمن لا نشعر بأهميته؛ لأنه لم تظهر بوادر الاختلاف والفُرقة، لأن الحال أن الناس مجتمعون، ولم يوجد من الأقوال ولا من الأعمال ما سيؤدي إلى الاختلاف والفرقة والشتات وعدم اجتماع الكلمة.

هنا في وقت الأزمات والفتن لابد أن يجتمع الجميع؛ لتحقيق مراد الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ أراد بالشريعة في نفسها أن تكون مصدر اجتماع الكلمة للناس وعدم التفرق، فمن مقاصد الشريعة في نزولها، وفي تشريعاتها، وفي تفصيلاتها أن يجتمع الناس وألا يتفرقوا، وألا تكون بينهم خصومات، سواء في الشأن العام، أو حتى في الأمور الفقهية.

مثلًا : البيع الذي فيه جهالة لماذا منع؟ لأنه يؤدي إلى الاختلاف، ويؤدي إلى الخصومة فيما بين المسلمين، وهنا ما دام أنه يؤدي إلى الخصومة، فلابد أن يسد الباب، حتى في التفصيلات الفقهية المتعلقة بالأسرة: في عقد النكاح لابد أن تذكر الشروط، يذكر كذا، لو كان فيه، يذكر المهر، لو قال: تعاقدنا على مهر. . . ، مثل ما يقول بعض الناس: كم الصداق؟ قال: مائة ريال! والحقيقة ليست كذلك، الصداق يكون مائة ألف، أو يكون خمسين ألفًا، أو يكون مئتي ألف أو أكثر، فهنا الذي يعقد ما يرضى بأن يقال: الصداق مائة ريال، لماذا؟ لأنه قد يحصل خلاف، فلابد من أن يوصد الخلاف من البداية في مجلس العقد بذكر الأمر صحيحًا، قد يكون هناك طلاق قبل الخلوة، فتترتب عليها الأحكام، قد يكون هناك خلع بعد ذلك، فيترتب عليه أحكام.

إذًا: فالشريعة راعت في أحكامها الفقهية بين اثنين: ألا يكون هناك خلاف، أن يوصد باب الخلاف، إذا كان في حكم سيكون هناك خصومات فتجد أن الحكم الشرعي يرعى ذلك بدرئه، وأن يبنى على ما لا يحدث خصومات.

الشفعة في تشريعها وأشياء كثيرة أنتم أعلم بها؛ لأنكم أهل الاختصاص، كذلك في الشأن العام - الذي ليس هو الشأن بين اثنين متعاقدين -، في الشأن العام في الأمة رعاية اجتماع الكلمة، وعدم التفرق من أهم وأهم المطالب، أهم من الخصومات التي تحصل بين اثنين؛ لأن الشأن العام هذا يُحدث -إذا حصلت الفرقة والخلاف- يحدث من أنواع الخصومات بين الناس ما قد يؤدي ليس إلى الشحناء فقط، بل إلى إسالة الدماء؛ كما هو واقع

في كثير من الأحوال التاريخية وفي زمننا الحاضر.

لذلك لابد من رعاية اجتماع الكلمة وعدم التفرق، وهذه من خصال أهل الإسلام، وأما عدم الاهتمام بالاجتماع والتساهل في أمور الفرقة، فهي من خصال أهل الجاهلية، التي جاء الإسلام بنقضها وطردها؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، الحظْ هذا. الرب ﷻ يقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، الفرقة ما تمثيلها قال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، شفا الحفرة هذا بشيئين:

أولًا: بما كانوا عليه من الشرك، فأنقذهم الله بالتوحيد.

ثانيًا: شفا الحفرة بما كانوا عليه من الفرقة والاقتتال، ثم أنقذهم الله ﷻ منها باجتماع الكلمة بالإسلام، بشريعة الإسلام وبنبيهم ﷺ.

قال الله ﷻ في زمن القتال وزمن الاختلاف: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، الحظْ هذه الأمور: قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ إذا تنازعتم، هل سيحدث قوة؟ يقول أحد: أنا معي الحق، الحق هو كذا، أنا صاحب الحق، فنازع الأمر أهله لاعتقاده بأن الحق معه، قال: ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ ما يترتب على التنازع والفرقة الفشل، ليس القوة، القوة تكون في الاجتماع، ولو كان على أمر مرجوح؛ لذلك قال الفقهاء - كما تعلمون - في مسألة رفع اليدين في المواضع الثلاثة غير تكبيرة الإحرام، إذا كان في بلد لا يرفعون أيديهم، فعلماء السنة هنا قالوا: لا يرفع يديه رعاية للاجتماع، هناك فتوى للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في فتوى أرسلها أحد

طلبة العلم من الهند، قال: أنا في أناس أدعوهم إلى الخير، لكن لو أظهرت الخلاف في مسألة رفع اليدين، وفي مسألة كذا، وفي مسألة كذا، ما قبلوا مني، ولحصل فرقة فماذا أفعل؟ قال: لا تفعل[١]. يعني: هذه أمور غيرها أولى منها فيما ترجوه، هكذا هناك أمور أكبر.

فإذًا: هنا رعاية الاجتماع أهم وأهم، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، إذا وقعت الفتن، فإنها ستأخذ الجميع، فقوة الاجتماع، وقوة الكلمة، وقوة الوحدة هذه هي التي تغيظ العدو، وتقوي الصف في مواجهة الأزمات، وفي مواجهة تغير الأحوال.

هنا نقول في هذا الأمر: إن قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ رتب عليه، يعني: إن تنازعتم، فالنتيجة: ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾.

واحد يقول: أنا أعتقد أن هذا حق، هؤلاء فعلوا، وفعلوا....، إن هناك أمورًا يجب أن نذكر فيها، قال الله ﷻ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾، لماذا جاء ذكر الصبر مع ذكر عدم التنازع؟ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ ما الحاجة إلى ذكر الصبر هنا؟ لأنه فعلًا الصبر هنا على أن يكون قولك، وأن يكون عملك، وأن يكون مذهبك في زمن الأزمات أن يكون عدم التنازع، وطرح قولك الذي قد يكون في ذهنك؛ رعاية لاجتماع الكلمة، وحفظًا للمقاصد العامة، هذا هو الذي أمر الله ﷻ به. ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ يحتاج إلى صبر، تعرفون الصبر، الصبر على الطاعة، وهذا الصبر على أمر الله ﷻ مطلوب.

---

(١) انظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (٢/ ١٩٨).

الرابع: فقه القوة والضعف:

حال الأمة الإسلامية يختلف بين ضعف وقوة، أول ما بدأت الأمة الإسلامية ببعثة النبي ﷺ كانت ضعيفة، فيها ضعف، وإن كانت قوية بالله وبما جاءها به النبي ﷺ، لكنها من حيث التمكين وقيام الدولة، أو من حيث تحقيق ما تريد كان فيها ضعف، لكن هذا الضعف كانت هناك أحكام شرعية منزلة على هذا الضعف.

في العهد المدني في أوله - أول تأسيس الدولة - كان هناك أحكام فقهية - أيضًا - منزلة على هذه الحال المتوسطة، وفي آخره بعد فتح مكة وفتح خيبر، وبعد زمن الوفود، لما نزلت براءة، ونزلت سورة المائدة، كان هناك حالة القوة، فهل نقول هنا: إن ما لم يذكر في سورة براءة، فليس دليلًا على شيء؟ أو إن الأدلة الشرعية مذكورة في جميع سور القرآن لكل حالة من هذه الحالات، ولهذا ذهب أهل التحقيق من أهل العلم - كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وجماعة من أهل العلم منهم من المعاصرين - إلى أن الفقه يتنزل بتنزل الأحوال، ويختلف باختلاف الأحوال، إن كان كذلك، فإن من الفقه المطلوب في الأزمات والفتن أن نفرق ما بين فقه القوة، وفقه الضعف، وفقه الحالة المتوسطة بينهما؛ لأن النبي ﷺ في الأحكام الشرعية كان عنده هذه الأنواع الثلاثة من الفقه.

ففقه الضعف كان له الكثير من الأحكام في مكة، وفقه التوسط، وفقه القوة، هناك من يقول من أهل العلم: إن الأحكام هذه نسخت إلى الحال الأخيرة؛ كما يقول بعض أهل العلم: هذه نسختها آية السيف، وهذه نسختها آية السيف.

والمحققون من أهل العلم - كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره - لايرون النسخ في ذلك، بل يربطون هذا بحال المسلمين، فإن كانوا في ضعف، نزلت عليهم أحكام الضعف، إذا كانوا في غربة من السنة، نزلت عليهم أحكام غربة السنة، إذا كانوا في قوة، تنزل عليهم أحكام القوة. ويدل على ذلك عدة أدلة، منها قول النبي ﷺ: «**بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا وسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا**»[١]، وفي قوله: «**إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهذه الأُمَّةِ على رأسِ كلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دِينَهَا**»[٢]، رواه أبو داود في سننه وجماعة بإسناد قوي. . . ، وهكذا في غيرها من الأحكام.

فإذًا: لما جاءت بعض الأحكام الشرعية المتعلقة ببعض المسائل قال ابن تيمية رحمه الله: (إذا رجع حال الأمة كما كان أولًا، رجع الحكم السابق)، ولا يحتاج أن نمثل لذلك؛ لأنها معروفة لديكم.

الآن يأتي بعض الناس في زمننا الآن الذي فيه ضعف في أمور كثيرة، ويريد أن يطبق الآيات التي فيها فقه القوة في زمن النبي ﷺ لما مُكِّنَ من الجميع، وهذا ليس فقهًا صحيحًا.

إذًا: طلابَ العلم، أنتم حملة العلم، لابد أن تنظروا إلى الأحكام الفقهية بحسب الحال، فالحكم معروف، والفتوى تتغير بتغير الأحوال والأحكام والعوائد والأمكنة والأزمنة. . . إلى آخره.

ابن القيم رحمه الله حينما قال في كتاب (إعلام الموقعين عن رب العالمين):

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩١).

(فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال)[١]، وهذا الكلام له معنى؛ فالمكان والزمان يتغيران.

لما تكلم ابن القيم رحمه الله عن الهجر - هجر المبتدع.. إلى آخره -، قال: إن هجر المبتدع إذا كان في بلد سنة وبلد قوة ينفع معه الهجر، أما إذا كان في بلد فيها غربة من السنة، فهجر المبتدع لن يؤثر، وهذا فيه أمثلة كثيرة عندكم من كلام أهل العلم في ذلك.

إذًا فعلى مستوى الأفراد، وكذلك على مستوى المجتمعات، أو على مستوى الدول هناك فرق ما بين فقه القوة وفقه الضعف.

الخامس: فقه الضرورة:

كذلك يتعلق بهذا الأمر فقه الضرورة المرتبط بالقوة والضعف، هنا فقه الضرورة، هل الضرورة المتعلقة بالأفراد هي الضرورة المتعلقة بالمجتمع، هي الضروة المتعلقة بالدولة؟ فقه الضرورات مختلف، وإذا أنزلنا الضرورات منزلة واحدة، بأن الضرورة المتعلقة بالشخص هي الضروة المتعلقة بالدولة، أو بالضرورة المتعلقة بالأمة، فإننا حينئذ نجني على الفقه الإسلامي كله، بل نجني على استمرار هذه الأمة بقوتها وهيبتها واستمرار عطائها.

الضرورة تقدر بقدرها - كما هو معروف لديكم - من حيث الشخص - أيضًا - المتعلقة به الضروة، فهل الضرورة المتعلقة بالفرد هي الضرورة المتعلقة بالدولة؟ لا. الضرورة المتعلقة بالدولة من يقدرها؟ يقدرها المنوط

(١) انظر: إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٥).

به الأمر، وهو ولي الأمر، أهل الحل والعقد، أهل المشورة في ذلك، هؤلاء هم الذين يقدرون الضرورة العامة، إذا كان هناك صيرورة إلى الضرورة.

الضرورة المتعلقة بالفرد لها حالها، قد يمنع الفرد من أشياء، ولاتكون ضرورة في حقه مقبولة، وتكون ضرورة في حق غيره مقبولة، كذلك قد يكون هناك ضرورة مقبولة في حق مجتمع أو في حق دولة، ولا تكون ضرورة مقبولة في حق دولة أخرى. . . ، وهكذا.

فإذًا: إذا نظرنا إلى فقه القوة والضعف وفقه الضرورة المرتبط بفقه القوة والضعف، سواء في الأحكام العامة السياسية أو الأحكام الشرعية العامة، أو ما يتعلق بالولايات أو ما يتعلق بالتصرفات العامة، فإنه حينئذ يكون عندنا نظر شامل وقوي في هذه المسائل، لا شك أن هذا الموضوع يحتاج إلى الكثير من التجديد في النظر الفقهي في هذه المسائل المهمة جدًّا.

المسلمون اليوم إذا كانوا في بلد من البلاد، على سبيل المثال أمريكا: هل يطبقون الأحكام في التعامل مثلما نطبقها هاهنا؟ أو يخاطبون بنفس الخطاب الذي نخاطب به هنا؟ لا شك يختلف، فهناك يحتاجون إلى العمل بقول الله ﷻ: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، يحتاجون إلى كثير من الأحكام المتعلقة بزمن الضعف وزمن التمكين ونحو ذلك.

في بلد آخر يختلف، يكون أقوى، فلابد من رعاية الأحكام، الآن يأتي من يأتي، فيقول: نعود إلى مسألة الجهاد، يجب على الأمة أن تجاهد أعداءها، يجب على الدول أن تعلن الجهاد، هنا هل الحكم هذا صحيح

الآن؟ الغرض من القتال هو إعلاء كلمة الله ﷻ أولًا، ثم الدفاع عن الحقوق، ثم يكون غلبة الظن أن يكون فيه نصر، لكن إذا كان غلبة الظن ألا يكون كذلك بحسب رأي أهل الاختصاص، أو تكون مفاسده أعظم، فإن الفقه هنا يختلف عن غيره.

النبي ﷺ في صلح الحديبية جاءه المشركون، وطلبوا منه أشياء غاظت عددًا من الصحابة، منهم عمر رضي الله عنه وغيره، حتى قال عمر رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا**»[1]، عمر رضي الله عنه رأى ما ذهب إليه النبي ﷺ فيه الدنية، يعني: فيه ذلة، قال: علام نقبل الدنية في ديننا؟ فالنبي ﷺ كان مع النظر الصحيح في ذلك؛ لأن نظر المصالح والمفاسد، نظر فقه القوة والضعف، نظر فقه الاجتهاد هذا متعلق به ﷺ في ذلك المقام، لا من حيث كونه ﷺ رسولًا يوحى إليه، لكن من حيث كونه إمامًا يُصار إلى قوله.

الآن - خاصة في القنوات الفضائية - يأتي بعض الناس، ويطلقون الكلمات الكبيرة، دون رعاية للفقه الصحيح، فيطلبون مطالب أكثر مما يمكن تحقيقه، وإن ما لا يمكن تحقيقه شرعًا يُنزل منزلة المهمل، فإذا كان لا يمكن أن يُعمل أو أن عمله لا يوافق المصالح المرجوة، فحينئذ نعلم أن الشريعة لم تأت به؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥).

المفاسد وتقليلها؛ كما سيأتي في القاعدة التي تليها، وهي الأخيرة.

إذًا: من المهم أن تبحثوا -وأنتم أهل الاختصاص في كلية الشريعة- عن موضوع فقه القوة والضعف، هل نطالب أنفسنا جميعًا بنفس الحال دائمًا على نفس المنوال؟ لم يقل أحد من أهل العلم بذلك، ومن رأى هنا أن المجال واحد دائمًا، فإنه لم يرع الأحكام الشرعية؛ كما هو معلوم.

السادس: فقه السياسة الشرعية:

الأصل الأخير في ذلك أو الفقه الأخير هو فقه السياسة الشرعية، والسياسة الشرعية مطلوبة شرعًا، والنظر في السياسة الشرعية مختلف، منهم من ينظر إلى السياسة الشرعية أنها هي السياسة التي يتبعها القاضي في قضائه وأحكامه، هناك كتب مؤلفة في هذا الأمر معروفة فيما يتعلق بالتقاضي عند القاضي والنوازل وما يتصل بذلك، ومؤلفات ألفت في السياسة الشرعية المتعلقة بذلك.

هناك من نظر في السياسة الشرعية إلى ما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يجب أن تعمل فيه الأمور الشرعية، والسياسة الشرعية في قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما نظرنا اليوم، فهو فقه السياسة الشرعية فيما يتعلق بالأزمات والفتن، والسياسة الشرعية أصلها مبني على قاعدة أجمع عليها أهل العلم، وهي أن الشريعة جاءت بالمصالح ودرء المفاسد، وجاءت بتحقيق المقاصد.

هذان أمران:

الأمر الأول: نقدم المقاصد، النظر المقاصدي، هذا من أهم أنواع

النظر التي يحتاج إليها المجتهد، هناك طالب علم بعامة، يتكلم بعامة، يعني: يُسأل عن مسألة، فيُفتي فيها بما يعلمه من الأحكام التي درسها، أو الأحكام التي اطلع عليها، أو من حيث الدليل، أو بحسب الحال.

لكن المجتهد ينظر في الأحكام إلى مقاصد الشريعة؛ لأن الشريعة جاءت بتحقيق مقاصد، الأعرابي الذي جاء يبول في المسجد، الصحابة أتوا ينكرون عليه، لماذا؟ لأن بوله في المسجد خطيئة، هذا لا شك فيه، لكن نظر النبي ﷺ - وحكم النبي ﷺ هو حكم مستقى فيه النظر المقاصدي - قال: «**لاَ تُزْرِمُوهُ» ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ**[1]، والحديث معروف لديكم، لماذا؟ لئلا يترتب على نهيه عن ذلك انتشار أوسع للبول في المسجد، هذا نظر مقاصدي، نظر سياسة شرعية، وإن كان في مسألة متعلقة بالطهارة.

كذلك المسائل المتعلقة بالأمة، المتعلقة بالدعوة، لابد فيها من النظر المقاصدي، الشريعة جاءت بمقاصد، ما من تشريع إلا وله مقاصد، له غايات، ويطول الكلام إذا أتينا إلى التعريف بالمقاصد، وما يتصل بذلك، ولكن ترجعون إليها في مظانها.

فهنا أحكام كثيرة متعلقة بالمقاصد، لابد أن ترعى، يعني: مثلًا الجهاد ما مقاصده؟ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما مقاصده الشرعية؟ الدعوة إلى الله ﷻ ما مقاصدها - المقاصد الشرعية المطلوبة منها -؟ الشريعة نفسها لماذا جاءت؟ تعلمون الكلمة العامة (أن الشريعة جاءت بالمحافظة على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٤).

الضروريات الخمس؛ الدين، والنفس، والمال، والعقل، والعرض).

حسن هذه الضروريات الخمس، التي هي مقصد الشريعة، هناك مقصد آخر من الشريعة، وهو ما يتعلق بالأمة، وهو ما يترتب عليه - هذه من مقاصد الشريعة - المحافظة على الأمن - أمن الناس -، هل المحافظة على الأمن حكم ثانوي، أو هو أصل في الشريعة؟ هو أصل، بل علق الله عليه عدة أحكام، قال الله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وهذا متعلق بالوعد بالتمكين والاستخلاف والأمن، فهل هو وعد بتحقيق التوحيد؟ هل هو وعد بتحقيق الشريعة - يعني: الأحكام -؟ هنا الاستخلاف والتمكين والأمن جاء أصل في ذلك، ثم قال ﷻ: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، لماذا؟ لأن عبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية من بعث الرسل، والمقصد من بعث الرسل هو التوحيد، وطاعة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - هذا لن يكون إلا في مظلة وجود الولاية، وهي الاستخلاف، وجود التمكين، وجود الأمن، إذا غاب الاجتماع على الولاية، وغاب وجود الأمن أو ضعف، فإن كل الأحكام الشريعة ستختل.

فإنه إذا عبد غير الله ﷻ، فإنه لن يمكن منه، فإنه إذا صار هناك اضطرار، فستجد أن كل أحد سيفعل ما يريد، بخلاف حال القوة والاجتماع والأمن، فإنه يكون هناك قوة وهيبة، وكما ترون في كثير من الأحيان أول ما تختل الأمور، كل واحد عنده مذهب وبدعة، عنده نحلة، يظهر، لماذا؟ لأن حال الأمن والقوة هي التي تقوي السنة، وحال الاختلاف هي التي تضعف

السنة، هذه لمحة في نظر المقاصد.

النظر الثاني: متعلق بالمصالح والمفاسد، وكما قال العرب، وقال أهل الحكمة: كل إنسان يعرف الخير من الشر؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، طريق الخير وطريق الشر، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] يعني: الخطوط العامة، هذا حق وهذا باطل، هذا صح وهذا غلط، أكثر الناس يشتركون في ذلك، خاصة طلبة العلم أمثالكم، الحكماء، العلماء، هم الذين يعرفون خير الخيرين، وشر الشرين؛ كما قال أحد السلف: **(ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين)**[(١)]، هذا هو الصحيح.

فإذًا: الفقيه العاقل هو الذي يعرف الحكم الأكثر خيرية؛ ليُحكم به، ويُدعى إليه، والأكثر شرًا؛ ليُنهى الناس عنه.

وهذا الفقه هو الذي نحتاجه اليوم أكثر، ليس حاجة إلى بث فقط، بل إلى تدريسه وإلى ترسيخه؛ لأنه إذا لم يؤصل مبدأ السياسة الشرعية وفقه السياسة الشرعية، وكيفية رعاية المصالح ودرء المفاسد، فإنه لا نظر صحيح في الشرع أصلًا.

لهذا نقول هنا: إن طلبة العلم يجب عليهم أن يأخذوا بالقاعدة الصحيحة المتفق عليها، وهي: أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٢٠/ ٥٤).

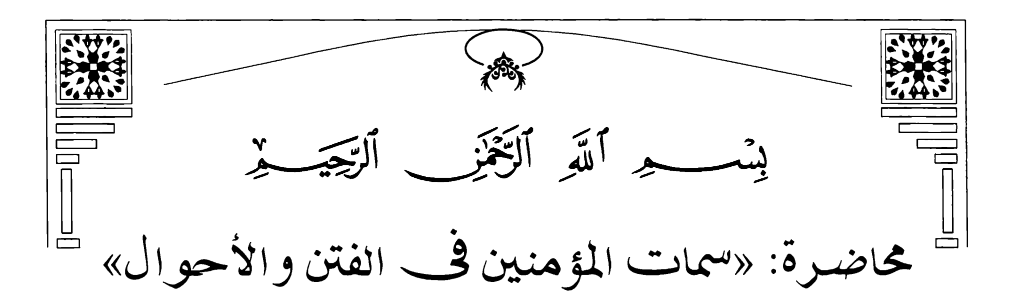
فالباب الذي فيه مصلحة موجودة أو مصلحة يُرجى تكميلها، فهذا نجزم أن الشريعة جاءت به، والباب الذي فيه مفسدة موجودة أو مفسدة نخشى أن تكثر، فنجزم أن الشريعة جاءت في وصده في ذلك. وبحسب الحال قد لا نستطيع فتح كل المصالح، وقد لا نستطيع درء كل المفاسد، لكن نجتهد في أن نفتح ما نستطيع من المصالح، وأن ندرأ ما نستطيع من المفاسد، وهذا هو الذي يوافق الأصول الشرعية، هذه من القواعد العامة المتفق عليها، وهي أن الشريعة جاءت برعاية المصالح ودرء المفاسد.

على كل حال هذه كلمات موجزة في فقه يحتاج إلى دراسة وتأصيل وطول. فقه الواقع من جهة التأصيل لقواعده وضوابطه في فقه الأمة، فقه النوازل، فقه الفتن، فقه الأزمات؛ حتى يكون نظرنا صحيحًا، ونكون قد بلغنا عن الله ﷻ رسالته وكلامه. أما النقل المجرد بما في الفقه، أو بما يقوله فلان وفلان، ونحو ذلك، فهذا لا يتميز به الفقيه عن غيره، ولا المجتهد على غيره، فإننا نحتاج إلى تجديد وإحياء لكثير من أنواع الفقه الغائبة. وذكرت أمثلة لذلك متعلقة بفقه الأزمات والفتن، أسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم إلى الرشد والسداد، وأن يجعلنا من حملة العلم ومحصليه الذين تبعوا سلفهم الصالح، وأخذوا بالدليل وبالنظر المتفِق مع ما عليه أهل السنة والجماعة في عموم أقوالهم وتفاصيلها؛ إنه سبحانه وتعالى جواد كريم.

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يوفق ولاة أمورنا إلى ما فيه الخير والسداد، وأن يجعلنا معهم من المتعاونين على البر والتقوى؛ إنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

وأكرر شكري لجميع إخواني الطلبة على هذا الحضور وعلى هذا الإنصات، أسأل الله ﷻ أن يجعلكم جميعًا حاملين لراية الإسلام، مدافعين عنه، وعن هذه العقيدة، وعن هذه السنة ضد موجات التكفير والتفجير والخلل في النظر فيما يصلح الأمة؛ إنه ﷻ هو المسؤول أن يصلح الأحوال، وأن يعود علينا بالعوائد الجزيلة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

❊ ❊ ❊



محاضرة: «سمات المؤمنين في الفتن والأحوال»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

والحمد لله كثيرًا على ما أنعم علينا كثيرًا من العلم الذي لا ينقطع عن هذه الأمة.

والحمد لله على ما أنعم علينا بحفظ هذا الدين وبحفظ أسسه وأصوله.

وأشكره ﷻ، وأسأله ﷻ أن يمنحني وإياكم العلم النافع عند حلول الشبهات، والبصر النافذ عند إقبال المشتبهات.

وأشكر أصحاب الفضيلة والخطباء على حرصهم على ما يقضي به العلم الصحيح، والمنهج السليم، وما يقوله أهل السنة والجماعة بما فهموا، واتفقوا عليه من نصوص الكتاب والسنة.

والله أسأل للجميع المزيد من العلم والفقه، وأن يثبتنا على ذلك، ولا سيما في مثل هذه الأحوال التي تتقلب.

تمهيد

هذا التمهيد يقوم على ثلاثة محاور:

أولًا: الرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه.

احرص على النظر الصائب الذي يوافق نظر السلف عند الاشتباه وعند تغير الأحوال.

وصف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ الصحابة وسادات التابعين بما وصفهم به، ومنه قوله: «**فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا**»[1].

قال: «**فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا**»، فإنه يجب على المرء - وبخاصة أهل العلم والتوجيه - أن يقفوا على العلم.

والعلم قسمان:

(١) علم لايدركه المرء، ويتعلمه قبل حلول الحدث، فيحيط به بما أعطاه الله ﷻ، وقد لا يحيط به.

(٢) علم لم يبحثه إلا وقت الحدث.

وهذا في الأغلب أنه لا يحيط بكلام أهل العلم فيه؛ لأنه لم يتعلمه من قبل.

---

(١) رواه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، (٤٦١٢) مطولًا، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى - كتاب الإيمان [(ح١٦٤) (١/ ٣٢٢)]، وذكره المؤلف في كتابه ذم التأويل [(١/ ٣٤) (ح٦٨)]، ورواه أيضًا فيه عن عبد العزيز الماجشون (٦٧).

فمن علم من نفسه حينئذ أنه إنما اطلع على بحوث المسائل حين حلول الأحداث، فيجب عليه ألا يثق بجودة نظره، عليه أن يطلب براءة الذمة بالرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه.

ثانيًا: المسجد في الإسلام للعبادة والعلم.

ومهمة المسجد في الإسلام مايلي:

(١) أنه مكان عبادة الله ﷻ.

(٢) أنه أعظم ما يجب أن يحقق فيه دين الله ﷻ بكماله.

(٣) تقام فيه الصلوات المفروضة.

(٤) يكون فيه نشر الخير.

(٥) يكون فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وفق ماتقتضيه الشريعة.

(٦) تقام فيه الخطب النافعة، والخطيب قائم فيها مقام النبي ﷺ؛ ولهذا تعظم التبعة بعظم المنصب والمسؤولية، ومن أشد من يعذب يوم القيامة - كما جاء في حديث البخاري - فيمن رآهم ﷺ ليلة عرج به الخطباء الذين لم يوافقوا أمر الله تبارك وتعالى وأمر رسوله، فرآهم يعذبون بأنواع من العذاب[1].

(٧) الإمام يقوم فيه مقام النبي ﷺ في أداء هذه المهمة؛ لأن أصل الإمامة

---

(١) أورد ابن حجر في فتح الباري في شرح (كتاب مناقب الأنصار -باب حديث الإسراء) (٧/ ٢٠٠)؛ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط (٣/ ١٧٠) والبزاز قال: «ومرّ بِقَوْمٍ تُقْرضُ أَلْسِنَتُهُمْ وشِفاهُهُمْ كُلّما قُرِضتْ عادتْ، قال: هؤُلاءِ خُطباءُ الْفِتْنةِ».

للنبي ﷺ ولمن أنابه ﷺ أو كلفه، والإمامة لولاة الأمور في ذلك عند كثرة المساجد.

فإذًا الواجب على الأئمة والخطباء أن يحققوا منهج السلف، وأن لايعرضوا أنفسهم والمسلمين إلى مافيه العقوبة.

ثالثًا: الحذر من البغي والتأويل.

أحذركم وأحذر جميع المسلمين من البغي والتأويل؛ لأنهما الأساس في الفرقة والفتنة والبغضاء بين أفراد الأمة الإسلامية.

ويجب السمع والطاعة لولي الأمر؛ لما في ذلك من سد للذرائع.

سمات المؤمنين الواجبة

وبعد فيا أيها الأخوان، فإن للمؤمنين سمات عليهم أن يتخلقوا بها، وهي:

السمة الأولى: الابتعاد عن الغضب والاستعجال.

إن المرء إذا غضب في حال الأمن، فإنه قد لا يدرك الصواب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»[1].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه على هذا الحديث: (إن هذا الحديث يشمل القضاء في المسائل العلمية، وفي المسائل العملية،

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) بلفظ: «**لا يقْضِينّ حكمٌ بيْن اثْنيْنِ وهُو غضْبانُ**».

فالغضب ومثله الحال التي تقلق الذهن وينفعل معها المرء لا ينبغي له بل هو منهي أن يقضي في المسائل العلمية وهو على هذا النحو من الغضب).

فإذا كان القاضي كذلك في مسألة بين متخاصمين، فالكلام في المسائل العملية أبلغ، وإن الكلام في المسائل التي تهم الأمة حينئذ أبلغ؛ ولهذا كان من سمة منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أئمة الإسلام أنهم لم يستعجلوا حين استعجل الناس فيما ليس لهم.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف الصحابة والتابعين: (**فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا**)[1].

السمة الثانية: التأني في الفتيا ودفعها إلى أهلها.

إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تدافعوا الفتيا[2]؛ لأنهم على علم وقفوا، وتدافعوا الفتيا في مسائل يسيرة، فكيف إذا جاءت المسائل الكبيرة العظيمة؟ فهل يكون من منهجهم الإسراع في الفتيا والإسراع في الكلام؟

الجواب: ليس هذا من شأنهم؛ لأنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا.
البصر المراد به البصيرة التي قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها آمرًا نبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟

---

(١) سبق (ص ٣١٢).

(٢) قال داود: (سألْتُ الشّعْبِيّ كيْف كُنْتُمْ تصْنعُون إذا سُئِلْتُمْ؟ قال: على الْخبِيرِ وقعْت، كان إذا سُئِل الرّجُلُ، قال لِصاحِبِهِ: أفْتِهِمْ، فلا يزالُ حتى يرْجِع إلى الْأوّلِ).
انظر: سنن الدارمي (١/ ٦٥)، وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ٣٦٥)، والإنصاف للدهلوي (١/ ٤٧)، وقواعد التحديث للقاسمي (١/ ٣٣٦).

إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، ويعاوض بينهما في الاستعمال.

قال: (**وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا**)، فحين كفوا في زمن الفتن - في زمن قتل عثمان رضي الله عنه، وفي زمن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وحين كفوا في الفتن لما حصل ما حصل -، إنهم ببصر نافذ كفوا، هناك نفاذ حين كفوا، وليس الكف عجزًا أو هربًا، وإنما هو طلب للسلامة حين يلقى الناس ربهم عز وجل.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، هذه الآية تبين شدة خطر القول بأن هذا حلال وهذا حرام؛ لأن المرء لا يجزم بموافقة حكم الله عز وجل في المسائل الاختلافية، أو في المسائل المجتهد فيها، وقد كان منهج السلف في هذه المسائل هو الورع والاحتياط للدين، فلا يقولون: هذا حلال، إلا لما اتضح دليله من أدلة الشرع، ولا يقولون: هذا حرام، إلا إذا اتضح دليله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [يونس: ٥٩: ٦٠].

قال العلماء في تفسير هذه الآية: (**كفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يسأل من الأحكام وباعثه على وجوب الاحتياط فيها وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إتقان وإيقان ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله تعالى**)[1].

---

(١) انظر: فتح القدير (١/ ١٥٨).

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وقوله من شديد الوعيد، وهذا يوجب الخوف من الدخول في الفتيا في كل ما يسأل عنه الناس.

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»[١].

وينبغي على المرء أن يربأ بنفسه أن يعرض دينه للخطر، أو أن يعرض حسناته للذهاب بذنب يحدثه في الأمة.

السمة الثالثة: الرفق والأناة والحلم.

إن من سمات الصحابة ﷺ الأخذ بما يحب الله ﷻ ويرضاه، ومن ذلك الرفق والأناة والحلم.

قال النبي ﷺ - فيما جاء في الصحيحين -: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ...**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٥)، وابن ماجه (٥٣)، والدارمي (١/ ٢٥٩)، كما أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٣٨٤)، وأصله عند مسلم (٣) بلفظ: «**مَنْ كذب عليّ مُتعمِّدًا، فلْيتبوّأْ مقْعدهُ مِن النّارِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢١٦٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٧٨)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠). من حديث أبي هريرة ﷺ، وأصله عند مسلم (١٧١٥) بلفظ: «**إنّ الله يرْضى لكُمْ ثلاثًا، ويكْرهُ** =

قال نبينا ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[١].

وقال ﷺ: «مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ»[٢].

وكما قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ»[٣].

السمة الرابعة: اجتماع الكلمة عند الفتن.

من سمة السلف - لمن درس منهجهم في القرن الأول حين كثر الخلاف، وكثرت الفتن - أنهم يأمرون بالاجتماع، وينهون عن الافتراق.

وقد قرر أهل العلم أن الاجتماع نوعان:

(١) الاجتماع في الدين.

(٢) والاجتماع على ولي الأمر.

والافتراق نوعان:

(١) افتراق في الدين

(٢) وافتراق في الجماعة.

= لكُمْ ثلاثًا، فيرْضى لكُمْ: أنْ تعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا، وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللهِ جمِيعًا ولا تفرّقُوا، ويكْرهُ لكُمْ: قِيل وقال، وكثْرة السُّؤالِ، وإِضاعةِ الْمالِ».

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٧).

والله ﷻ قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والنبي ﷺ حض على الاجتماع والجماعة بقوله: «**أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[(١)].

قال أهل العلم: «معنى الجماعة هنا: ما يشمل الاجتماع في الدين، والاجتماع على من ولاه الله الأمر من المسلمين».

وقال ﷺ: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[(٢)].

وهذا ظاهر بين في أن منهج الأئمة الحرص على الجماعة. حتى إنه لما ظهر القول بخلق القرآن، وحصل من الناس ماحصل من التسارع لنشر هذا القول، ودعا إليه ولي الأمر في ذلك الزمان، قال أحد طلاب الإمام أحمد - وهو إمام أهل السنة والجماعة - قال له: ألا ترى ما الناس فيه؟ ألا تقول قولا يغير الله به مافعل؟ كأنه يشير إلى مافعله ولاة الأمر، أو ماهو مشهور.

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما. أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧، ٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧)، (١٨/ ٧٠)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨).
وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٢/ ٩٥، ٩٦)، كما أخرجه ابن أبى الدنيا في فضيلة الشكر (١/ ٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٢).

فجعل الإمام أحمد رحمه الله ينهى عن ذلك، وينفض يديه شديدًا، ويقول: (إياكم والدماء، إياكم والدماء)؛ لأنه يعلم أن شدة الافتراق تسبب في النهاية الافتراق في الأبدان، ثم وقوع ما يخشى منه من سفك الدماء، أو منازعة في الأمر.

ويتحتم على الأمة الإسلامية أن تعي تمامًا ما بيَّنه الكتاب وكذلك السنة أن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا، وضرب بعضهم بعضًا، لا لنقص العلم عندهم، بل من البغي والتأويل.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤].

ولذلك قال العلماء في كتب العقائد: إن أعظم ما حصل الافتراق والفتن والبغضاء في هذه الأمة من شيئين: البغي والتأويل.

فإذا حصل البغي بأن زاد الناس على ما أذن الله به، أو حصل التأويل بغير مستند شرعي صحيح، وقعت الفتنة، والعياذ بالله تعالى.

السمة الخامسة: السمع والطاعة لولاة الأمور.

مما دلت عليه النصوص وتظاهرت لزوم السمع والطاعة لولي الأمر المسلم؛ لأن السمع والطاعة أمر عظيم، خالف به رسول الله ﷺ أهل الجاهلية.

وقد ذكره إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «مسائل الجاهلية» في أوائل المسائل مع التوحيد، وذكر التوحيد، والنهي عن الشرك فيما خالف به رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، وذكر الاجتماع، وعدم

الافتراق، وذكر الطاعة[١].

وهذا أصل عظيم، نقل به النبي ﷺ الأمة عما كان عليه أهل الجاهلية؛ ولهذا قال: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[٢].

وإذا كانت النهاية في أمر ما هو هذا، فإن سد الذرائع الموصلة له واجب شرعًا، بل من أعظم الواجبات.

وينبغي على الأمة التسليم لولي الأمر في الوفاء بالعهد والميثاق، فإذا أخذ ولي الأمر بالعهد والميثاق بينه وبين غير المؤمنين من الكفار أو من المشركين، فإنه يتحتم إمضاؤه؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وهذا الاستثناء لايخالف الولاء والبراء؛ لأن القرآن حق كله، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما)[٣].

---

(١) انظر: المسألة الثالثة في كتاب مسائل الجاهلية لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٠).

وهذا ما فعله النبي ﷺ في صلح الحديبية.

كان في الصلح أن من أتى النبي ﷺ من مكة من المسلمين، فإنه يرجعه إليهم، ومن ذهب من المسلمين من المدينة إلى مكة، فإن المشركين لا يردونه إلى المسلمين، وأمضى النبي ﷺ هذا العهد والميثاق.

قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا»**[1].

ومسائل الولاء والبراء عظيمة ومهمة، فإذا تكلم فيها أحد من العلماء، فإنه يقصد بها ما يشمل عموم أحكامها؛ لأننا نستدل بالقران والسنة.

وإن مسائل الولاء والبراء، والخوض في العهود والمكاتبات، وما يحصل من قضايا كبيرة هي لأهلها، وليس لعامة الناس.

وليس من منهج الخطباء وأئمة الدعوة أن يتحدثوا في ذلك مع العامة.

قال الإمام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب: (وخضتم في مسائل من هذا الباب، كالكلام في الموالاة والمعادة، والمصالحة والمكاتبة، وبذل الأموال والهدايا، ونحو ذلك من مقالة أهل الشرك بالله، والضلالات، والحكم بغير ما أنزل الله عند

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥).

البوادي ونحوهم من الجفاة، لا يتكلم فيها إلا العلماء من ذوي الألباب، ومَن رزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب). ا. هـ[(١)].

كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أيضًا - بعدها: (والكلام في هذا: يتوقف على معرفة ما قدمناه، ومعرفة أصول عامة كلية، لا يجوز الكلام في هذا الباب وفي غيره لمن جهلها وأعرض عنها، وعن تفاصيلها، فإن الإجمال، والإطلاق، وعدم العلم بمعرفة مواقع الخطاب، وتفاصيله، يحصل به من اللبس والخطأ، وعدم الفقه عن الله، ما يفسد الأديان، ويشتت الأذهان، ويحول بينها، وبين فهم السنة والقرآن، قال ابن القيم في كافيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]:

فعلَيكَ بالتَّفصِيلِ والتَّبيينِ فالـ إطـلاقُ والإِجـمَـالُ دُونَ بَـيَـانِ

قَد أفسَدَا هَذَا الوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ أذهَـانَ والآراءَ كُـلَّ زَمَـانِ[(٣)]

انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إن فهم منهج أئمة الدعوة متكامل، والأخذ به أخذ بما قامت به هذه الدعوة، وقامت به الدولة منذ الدولة السعودية الأولى، من تحقيق للإسلام بفهم شامل للنصوص، وهذا يترك لأهل الشأن من ولاة الأمر وأهل العلم؛ لأن هذا هو الحق في هذه المسائل.

والعامة لا يمكنهم فهم التفصيل والتبيين في مسائل أقل من ذلك، فكيف في هذه المسائل العظيمة؟ ولهذا لم يكن أئمة الدعوة في خطبهم الموجودة

---

(١) انظر: مجموع الرسائل (ص١١).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٣٢٥).

(٣) انظر: مجموع الرسائل (ص١١).

يفصلون الكلام في هذه المسائل؛ لأن ذلك - كما قال الشيخ عبد اللطيف - إنما هو لأهل العلم الذين يفتون بموجب ما يعلمون لولي الأمر وللناس.

السمة السادسة: توقير العلماء ومعرفة مكانتهم في الدين.

إن لأهل العلم في الكتاب والسنة منزلة عظيمة، لابد أن ترعى، قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وخص أهل العلم عن سائر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لأنهم حين يتكلمون أو يعملون، فإنهم ينطلقون من الخشية.

ونحن مأمورون بأن نقتدي بأهل العلم، وأن نرجع إليهم، والذمة تبرأ إذا استفتيت أهل الذكر، فأفتوك في ذلك بما يحقق مقاصد الشريعة.

فليس من الدين الطعن في أهل العلم، وليس من الدين الانتقاص من أقدارهم، بل ذلك من عمل الجاهلية.

وقد قال أهل العلم - كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشارح الطحاوية، وجماعة -: (لم يكن الصحابة يريدون القتال، وإنما وجدوا أنفسهم يتقاتلون بسعي الخوارج فيما بين الأطراف).

وعلى الأئمة والخطباء وكل طلاب العلم أن يأخذوا العبرة من قصص السابقين، وأن يقرؤوا التاريخ بعناية تامة.

قال الله ﷻ في الحث على الاعتبار: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، أي: في قصص الأنبياء السالفين وتاريخ الأمم الخالية عبرة.

ومن أعظم العبر أن ينظر في كيفية حصول القتال بين الصحابة ﷺ، كيف حدثت الفتنة؟ وما مبعثها؟

قتل عثمان ﷺ كان بسبب النقمة عليه في أمور المال والولاية التي ولاها، وقد ثار بسببها الخوارج، فحصل ما حصل، وإنما فعلوا ذلك بالتأويل، ولم يكونوا يكرهون الدين، ولكنهم تأولوا على خلاف منهج الصحابة.

والذي حصل بين علي ومعاوية ﷺ من القتال لم يكونا يريدانه، ودخلت عائشة ﷺ في ذلك، ولم ترد إلا الصلح.

السمة السابعة: الاعتبار والعظة بتاريخ الأمم السابقة.

من قرأ كتب التاريخ، وجد أن الفتن إذا ظهرت، فأول ما يلجأ إليه الناس الذين اشتبهت عليهم الأمور هو أن يطعنوا في أهل العلم، وسارعوا في ذلك، وهذا مالا يحمد، وهذا ماحصل من الخوارج مع علماء الصحابة، وهذا ماحصل من أهل البغي لما استبيحت المدينة المنورة، وضربت مكة المكرمة بالمنجنيق. . . ، إلى غير ذلك مما حصل في أزمنة كثيرة.

وقد طفحت كتب الجرح والتعديل في من يرى السيف في الأمة - وهذا ظاهر بين -، وأن الذي يرى السيف في الأمة يكون من وسيلته أن يطعن في من يرجع إليه المسلمون؛ كيلا يرجعوا إليه.

ولا يلزم أن كل من طعن، فإنه يرى السيف، ولكن يحذر ممن رأى السيف، ولا يلزم أنه من طعن فإنه يرى السيف؛ لأنه قد يطعن لتأويل، وقد يطعن لنقص في العلم، ونحو ذلك.

السمة الثامنة: عدم الركون إلى الإعلام المغرض.

أما الأمر الذي يتعلق بالأحداث المعاصرة، فإن الجميع يتابعها، والذي نخشاه أن نأنس بما نسمع، ويكون مصدر هذا الإعلام اللوبي العالمي الصهيوني.

ومعلوم أن هذا لا يخدم قضايا الأمة، بل يخدم قضايا أعداء الأمة.

فالتأثر بذلك والركون إلى الإعلام، والإقبال عليه، وكأنه منقول بالتواتر، أو بنقل العدل الثقة المصدق عن مثله، وهذا ليس من منهج العقلاء، ولا من طريق الفضلاء.

ومعلوم أن منهج هذه البلاد هو منهج أهل السنة والجماعة، وهذا ما درجت عليه الدعوة التجديدية دعوة الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله، ورحم من آواه، ومن نصره، ومن أيده -، وهذه الدعوة لم تقم من فراغ، وإنما أسست على الفقه والكتاب والسنة.

فالفقه في هذه الدعوة أن يؤخذ بكلام علمائها ومنهجهم، وهم متواصلون - ولله الحمد - من وقت الإمام المجدد إلى هذا الوقت، نقله الحاضر من الماضي بفقه وبصيرة.

السمة التاسعة: الالتزام بأمر الإمام في الدعوة إلى الجهاد.

إن الجهاد في سبيل الله ﷻ لتكون كلمة الله هي العليا أمر نافذ شرعي، دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، ودون في كتب العقائد.

لكن الجهاد - كغيره من مسائل هذا الدين - له شروط، وأركان، وواجبات، وله أحكام تفصيلية، فصلت في كتب الجهاد وأبوابه، ومن كتب الفقه، أو الكتب المستقلة.

فالأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر أحكام الشريعة لايعني أنه ليس لها شروط.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن أول أحكام الجهاد، وأول شروطه: أن الذي يدعو إلى الجهاد هو ولي الأمر، وليس لأحد من الناس أن يفتئتوا على ولي الأمر بالدعوة إلى الجهاد، وهذا ظاهر بدليله من القرآن والسنة، ومن إجماع أهل السنة والجماعة، ومن كلام أئمة الدعوة رحمهم الله.

وإجماع أهل السنة والجماعة على أن الجهاد **ماض مع كل إمام بر أو فاجر**. وقولهم: «مع كل إمام» يعني: أنه لابد للجهاد من راية، تحت إمام يسمع له ويطاع، ويكون له الأمر.

ومما يدل على ذلك قول جمع من مشايخ الدعوة في نصيحة عامة وجهوها إلى الناس في وقت يشابه هذا الوقت، منهم الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ عبد الله العنقري، والشيخ عمر بن سليم، والشيخ محمد بن إبراهيم، ذكروا في نصيحتهم بعد سياق النصوص الدالة على وجوب السمع والطاعة لولي الأمر، قالوا ما نصه:

(إذا فهم ما تقدم من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العلماء المحققين في وجوب السمع والطاعة لولي الأمر وتحريم منازعته والخروج

عليه وأن المصالح الدينية والدنيوية لا انتظام لها إلا بالإمامة والجماعة تبين أن الخروج عن طاعة ولي الأمر والافتيات عليه بغزو أو غيره معصية ومشاقة لله ورسوله ومخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة)[١].

وهذا منهج متكامل، يجب علينا أن نرعاه؛ لأن أهل العلم وولاة الأمر أدرى بما يكون بعد الإذن بالجهاد. ليس الأمر أن تقول: نعم، ولكن ما الذي يكون بعده؟ وليس الأمر أن تقول: لا، ولكن ما الذي يكون بعده؟ وهذا إنما يراعى فيه درء المفاسد، وتحصيل المصالح؛ كما جاء في الشريعة.

السمة العاشرة: سلامة ألسنتنا من الطعن في الصحابة رضي الله عنهم.

إن من عقيدتنا سلامة ألسنتنا من النيل في أصحاب رسول الله ﷺ، وأن لا يكون في قلوبنا غل للذين آمنوا.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال الرسول ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»[٢].

قال أبو محمد البَرْبَهاريُّ رحمه الله: (وإذا رأيت الرجل يطعن على أحد من

---

(١) انظر: الدرر السنية (٩/ ١١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٠).

أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه صاحب قول سوء وهوى؛ لقول رسول ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**»[١]، فقد علم النبي ﷺ ما يكون منهم من الزلل بعد موته، فلم يقل فيهم إلا خيرًا.

وقوله: «**ذَرُوا أَصْحَابِي، لَا تَقُولُوا فِيهِمْ إِلَّا خَيْرًا**»[٢].

ولا تحدث بشيء من زللهم، ولا حربهم، ولا ما غاب عنك علمه، ولا تسمعه من أحد يحدث به، فإنه لا يسلم لك قلبك إن سمعت..»[٣].

ثم قال رحمه الله: (ولا تذكر أحدًا من أمهات المؤمنين إلا بخير)[٤].

ولا بد أن نقرأ التاريخ بِرَوِيّة، وأن ننظرَ في مبادئ الأمور، وكيف صارت إلى ما انتهت إليه.

---

(١) أخرجه الطبرانى (١٠/ ١٩٨)، قال الهيثمى (٧/ ٢٠٢): فيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وابن عدى (٧/ ٢٤، ترجمة ١٩٦٣ النضر بن معبد)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٠٨).
قال المناوي (١/ ٣٤٨) قال الحافظ العراقي: فى سنده ضعيف. وأخرجه أيضًا: الديلمي (١/ ٣٣٦).

(٢) انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٣٥، ٣٦).

(٣) انظر: شرح السنة (١/ ١١٢).

(٤) انظر: شرح السنة (١/ ١١٤).

الخاتمة

إن الاتفاقَ على اجتماع الكلمة يحصلُ به من الاجتماع، وتحصيل الدينِ، وردِّ الشرِّ ما لا يحصل بالافتراق.

وإنَّ تركَ ما يُرِيبُ الإنسانَ إلى ما لا يريبُه أصل أصيل؛ كما في غير واحدٍ من الأحاديث التي عليها مدارُ الدينِ، وهو: «**دع مَا يُرِيبك إلَى ما لا يُرِيبك**»[1].

وعلينا أن نلتزم بتقوى الله ﷻ في كل حالٍ، وأن نحرصَ على التوازنِ والحكمةِ وموافقةِ الشرعِ، وأن نبرئ ذمتنا في موافقةِ منهجِ السلفِ الصالحِ.

ولا تتأثَّرْ فيما إذا لم يوافِقْكَ الكثيرونَ ممن يريدون الحماس، ولكن لا بدَّ أن تقولَ ما عليه منهجُ الأئمةِ والسلفِ الصالحِ؛ لأنَّ في الكتاب والسنة وهديِ السلف الصالح نجاةً عند حلول الفتن.

واللهَ ﷻ أسألُ أن يوفِّقَ الجميعَ إلى ما فيه رضاه، وأن يُخَلِّصَ قلوبَنا من الغشِّ والغلّ، وأن يجعلنا ممن يحقق الموالاةَ للمؤمنين، والمعاداةَ للكافرين، وأن يجعلنا ممن رضي عنه، وأرضى عنه.

وأن لا يحرمَنا ﷻ توفيقَه وتسديدَه بسوء أعمالنا، ولا بذنوبنا، ولا بتقصيرنا.

وأسألُ الله ﷻ أن يوفّقَ ولاةَ أمورِنا إلى ما فيه الخيرُ، وأن يجعلَهم هداةً

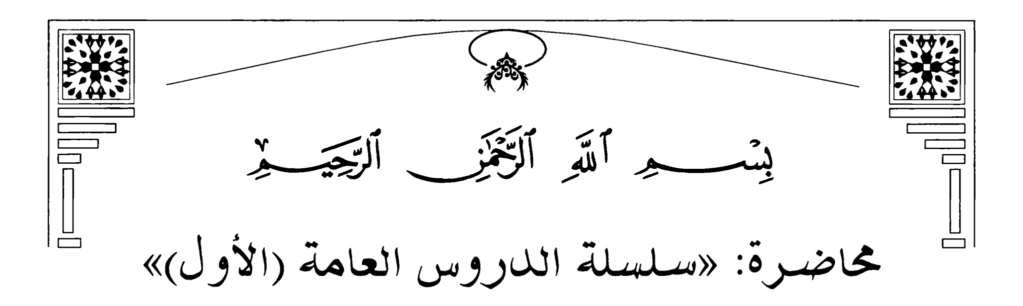
---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: حسن صحيح، والنسائي (٥٧١١).

مهتدينَ غير ضالينَ ولا مضلّين.

وأن يبرِمَ لهذه الأمة أمرَ رشدٍ، يُعَزُّ فيه أهل الطاعة، ويُعَافَى فيه أهلُ المعصية، وأن يوفّق علماءَنا إلى ما فيه الهُدَى والسدادُ، وأن يجمع كلمةَ الجميع على البرِّ والتقوى، وأن ينيلَنا رضاه يوم نلقاه.

وصلى الله وَسَلَّمَ على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.



محاضرة: «سلسلة الدروس العامة (الأول)»

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى أهله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فأسأل الله ﷻ لي ولكم العفو والرضوان، والمغفرة للذنوب والآثام، وأن يجعلنا في هذه الحياة الدنيا ممن يقيمون بالحق، ويقيمون للحق، وأن نكون ممن جعلهم الله ﷻ من الدعاة إلى سبيله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، قال الحسن البصري رحمه الله عند هذه الآية: (**هذا حبيب الله هذا ولي الله هذا صفوة الله هذا خيرة الله هذا أحب الخلق إلى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحًا في إجابته وقال إنني من المسلمين فهذا خليفة الله**)[1]، وهذا هو ما دلت عليه الآية، فإنه لا أحسن قولًا ممن دعا إلى الله ﷻ وكان عاملًا بما دعا، متبعًا للمصطفى ﷺ، فأعلى المقامات في الدين هو مقام الدعوة؛ ولهذا كان الأنبياء هم سادة الدعاة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٩)، وابن كثير (٧/ ١٦٥)، والقرطبي (١٥/ ٣٦٠).

إلى الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله، وأجزل له المثوبة، وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء - عند هذه الآية في مسائل كتاب التوحيد: (**التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه**)(١)؛ لأن كثيرين لو دعوا إلى الله، فإنهم ربما يدعون إلى أنفسهم، أو إلى شيخهم، أو إلى طريقتهم، ولهذا في مقام الدعوة إلى الله - الذي هو أعلى المقامات - فيه التنبيه على الإخلاص، فيه أن يكون الداعي إلى الرب ﷻ مخلصًا في قوله، مخلصًا في عمله، يروم هداية الخلق إلى الحق ﷻ، ويروم أن يكون قوله حقًا، وفعله حقًا، ودعوته حقًا، وهذه إنما تكون بعد العلم النافع، وبالتمرس في العلم ومعرفته، ومعرفة كلام أهله؛ حتى تكون الدعوة إلى الله ﷻ صائبة.

هذه الدروس - التي هذا الدرس فاتحتها - الحاجة إليها ماسة؛ وذلك لأننا نرى أن كثيرًا من الناس ليسوا - بل أكثر الناس - ليسوا طلبة علم، وليس همهم أن يكونوا من أهل العلم، ولا طلبة العلم، ولا الذين يعلمون معاني الكتاب والسنة، وإنما الأكثر من المستقيمين همهم أن يكونوا على معرفة بأمر الله، على معرفة عامة بما يرشدهم ويدنيهم من الخير، وبما يباعدهم من الشر، فهذه الكثرة الكاثرة تتمثل في طبقات كثيرة من

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيدلإمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١/ ٨١).

المجتمع، تتمثل في أكثر الطلاب، وحتى طلاب الكليات الشرعية، تتمثل في طلاب العلوم المدنية، تتمثل في طلاب الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء، تتمثل - أيضًا - في طلاب المدارس الثانوية والمتوسطة، تتمثل في الموظفين، تتمثل في المدرسين تتمثل في جهات شتى وطبقات شتى من المجتمع، تتمثل في كثيرٍ من كبار السن، ومن الآباء، ومن الإخوان الذين ليسوا من الطلبة، وليسوا من الموظفين، بل هم من التجار الذين يتسببون في هذه الحياة.

فإذًا: ليس من المنطق، وليس من أداء الواجب الشرعي أن يكون الجهد منحصرًا في مخاطبة طائفة قليلة من الناس، نعم، العلم هو الأصل، ونشر العلم، وأداء رسالته، وتعليم طلبة العلم العلم النافع، وتأسيسه فيهم، وتأصيل العلم فيهم هذا من تكوين رأس المال، وتكوين القاعدة واللبنة التي يقوم عليها أمر الدعوة، وانتشارها، ولكن لا بد - أيضًا - من مخاطبة الناس جميعًا بما جاء في الكتاب والسنة، ومن مخاطبة الناس جميعًا بما قرره علماؤنا، بما قرره أئمة السلف الصالح رضي الله عنهم؛ لأن الناس أحوج ما يكونون إلى الدعوة وإلى العلم، بل قد قال الإمام أحمد رحمه الله: **(الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج اليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس)**[1]؛ لأنهم إن فقدوا الطعام والشراب، فإن غاية ذلك هلاك البدن والموت، أما إن فقدوا العلم النافع، وفقدوا الدعوة الصالحة، فإنه

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٦١).

ربما هلكت قلوبهم، وفسدت أرواحهم، فكانت عاقبتهم بعد الممات شر عاقبة، هذا معنى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا صحيح.

إذًا: لا بد أن يكون هناك خطاب، وأن تكون هناك دعوة وحركة إلى فئات المجتمع جميعًا.

إنه من الخطأ البين أن يسعى الناس إلى مخاطبة فئة معينة، أن يسعوا إلى مخاطبة الشباب فحسب، أن يسعوا إلى مخاطبة المستقيمين فحسب، بل إن الدعوة للصغير والكبير، إن الدعوة تخاطب الرجل والمرأة، تخاطب الأمير والمأمور، تخاطب جميع طبقات المجتمع، وهذا هو الذي ينبغي أن يحمله طالب العلم، وأن يحمله الداعية، وأن يحمله كل من يروم الاستقامة في أن يخاطب فئات المجتمع جميعًا، إذا خاطب أحدًا أو خالطه، فليستحضر أنه يرغب في أن يكون داعيًا إلى الله، وأن ييسر الخير، ويحبب الخير إلى ذلك المدعو، خاطب كبيرًا أو صغيرًا، خاطب فاسقًا أو صالحًا؛ ليستحضر ذلك، وليخاطب كلًا بما يناسبه، فإن في ذلك الصلاح والإصلاح، وإن الصلاح والإصلاح مما يرغب فيه المستقيمون جميعًا؛ لهذا كانت هذه الدروس، التي هي متنوعة في أبوابها، متنوعة في موضوعاتها، متنوعة فيمن تخاطب، متنوعة - أيضًا - في القضايا التي تعالج، منها أشياء واقعة، ومنها كتب تحلل، ومنها أخلاق تدرس، ومنها حَثٌّ على خير، ومنها تحليل لمواقف معينة... إلى آخره.

ونريد أن نكون ممن يوصِّلون ما يرغبون من الخير، وما معهم مما علموا من الكتاب والسنة إلى الناس جميعًا، لأنه من عيوب طائفة من الناس أنهم

قصدوا الحق وقَصَرُوا الدعوة على فئة معينة، فتراهم أكثر مَن يخالطون الشباب، وتراهم أكثر من يخالطون أصحابهم، وأكثر من يخالطون من يميلون إليهم نفسيًا، ولكن لا تجد لديهم من المجاهدة أن يخالطوا من ليس بمستقيم، حتى يهدوهم، أو يسعوا أن يتعلموا كيف يقنعون من لديهم شُبَه من الناس في مسألة من المسائل.

فكثيرًا ما يأتي بعض الشباب، ويقول: عندي قريب مني حاله كذا وكذا، ويورد من الشُّبَه كذا وكذا، إما شُبَه في المال، وإما شبه في الدين، وأحيانًا في العقيدة، كيف يردون على أولئك؟ فتجد هؤلاء منزويين لا يتعلمون كيف يردون على أولئك، وكيف يهدون هؤلاء.

ومن هؤلاء من يكون لديه حالة انفصام في الشخصية، فتجده في معاشرته لأهله متجهمًا قاسيًا، أما إذا خالط الشباب وخالط الزملاء، وجدته داعيًا، وجدته حبيبًا، وجدته ذا خُلُق عظيم، ولكنه في بيته على العكس من ذلك فإذا خاطب والده، لم يخاطبه مخاطبة الداعية، فكيف تكون تلك الأنواع من المخاطبات؟

هذه لا بد لها من تأصيل، ولا بد لها من عرض؛ حتى يتمكن الناس من نشر الدعوة في صفوف المجتمع جميعًا، ومن القيام بالحق الذي أوجبه الله ﷻ على هذه الأمة، فإن هذه الأمة ميزها الله وفضلها بأنها داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، قال ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالدعوة إلى الله ﷻ هي خصيصة هذه الأمة، فالأمة ما استقام فيها هذا الإسلام - مع كثرة المجابهات، وكثرة الهجوم عليه وعلى أهله، ومحاولة نزعه من الصدور ومن المجتمعات - إلا بقيام الدعاة، وبقيام أهل العلم في وجه كل من حاول أن يصد الناس عن الدين. هذا لاشك أنه يحتاج إلى تقعيد وإلى تأصيل؛ لأن كثيرًا ربما دعوا، ولكن دعوا على غير الطريقة الشرعية، ولقد قال الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ذكر لطبقات ثلاث من الناس الذين لا يرغبون في الخير، أو الذين ليسوا من أهل اليقين، هم على أحد هذه الطبقات الثلاث، قال ﷻ في مخاطبة أهل الدين الذين يدعون إلى الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾، وهذا خطاب يناسب طائفة من الناس، فإن من الناس من لا يناسبه الوعظ -يعني: التخويف والترغيب الشديد-، ولكن تناسبه الحكمة، أن تكون معه حكيمًا فيما تأتي، والحكمة هي وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، فالناس يختلفون في خطاباتهم، لا يخاطب الصغير مثل ما يخاطب به الكبير، لا يخاطب المتعلم بمثل ما يخاطب به الجاهل، لا يخاطب الذكي بمثل ما يخاطب به المتوسط أو البليد، لايخاطب العامي بمثل المثقف أو المثقف المتوسط لا يخاطب بمثل ما يخاطب به عالي الثقافة، وهكذا. . . ، من عنده شبه لا يخاطب خطاب من ليس عنده شبه في أنواع من الناس، قال بعض أهل العلم في هذه الآية: تُضاف الدعوة بحسب فئات المجتمع.

قال ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهناك من يحتاج إلى أن يدعى بالحكمة، بالترغيب، بمخاطبة حكيمة، بكلمة حكيمة، بدعوة حكيمة، تجد أنه يقبل، يريد الرفق، يريد اللين، يريد الحكمة، وهو بعد ذلك يقبل، ويكون من أهل الخير.

ومنهم من يحتاج إلى الموعظة، وهذه الموعظة وصفها الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، فمن الناس من يحتاج إلى الموعظة - الموعظة هي: الترغيب والترهيب، وصف الجنة، وصف النار، وصف مآل من أطاع أمر الله ﷻ، وصف مآل من خالف أمر الله ﷻ - إذا أتى على رأسه قوارع الوعد والتهديد، فإن قلبه يصلحُ، ويقبل على الخير؛ لأنه لايحتاج إلى الوعد.

منهم من يحتاج إلى الترغيب، إذا رغبته في الخير، أقبل، وإذا خوفته وشددت عليه في التخويف، ربما أصابه شيء من القنوت، ولا بد في طائفة من الناس أن يسلك معهم هذا المسلك، وهو الموعظة الحسنة، والطائفة الأخيرة الذين يعلمون، وعندهم من الشبه ما عندهم، قال ﷻ في شأنهم: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الدعوة إلى سبيل الله تكون في طائفة من الناس بالمجادلة بالتي هي أحسن، والمجادلة هي لمن عنده شبهات، لمن عنده آراء، لمن يخالفك في الطريقة، يخالفك في المنهج، كيف يكون المخاطبة له؟ قال ﷻ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ليست مجادلة حسنة فحسب، ولكن ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، يعني: أحسن ما تجد، أحسن ما عندك من اللفظ، أحسن ما عندك من البيان، أحسن ما عندك من الحجة والبرهان،

فيكون الخطاب للناس به لهذه الطائفة؛ لأنهم بمجادلتهم بالتي هي أحسن يكون القرب، ويكون البيان، ويكون الإقبال على سبيل الله وإلى سبيل الله ﷻ.

هذه الدروس - التي هذا فاتحتها - ستعرض فيها - إن شاء الله - إلى مواضيع متنوعة، ستتعرف فيها إلى موضوعات مختلفة، موضوعات تتعلق بالعلم - كما هو ظاهر في عنوان هذه الدروس -، دروس عامة في العلم والتربية والدعوة، والعلم لا نعني به العلم الذي يؤخذ في الحلق بقراءة كتب وشرحها، وتقرير المسائل وتقعيدها، وإنما في العلم من جهة آداب العلم وآداب المتعلم، كيف تقرأ الكتب؟ كيف تقرأ كتب السنة؟ كيف تقرأ كتب الحديث؟ وكيف تقرأ كتب الفقه؟ وما الفرق بين كتب الفقه وكتب الحديث؟ ما ميزات كلام أئمة السلف في العقيدة؟ ما ميزات كلام ابن القيم؟ كيف نقرأ الكتب في السيرة؟ كيف تلخص الفوائد؟ إلى آخر ذلك مما تحتاجه فئات متنوعة من القراء؛ لأن القراء في هذا الزمن ليسوا مخصوصين لطلبة العلم، بل نجد - ولله الحمد - في هذه البلاد وفي غيرها الكثرة الكاثرة من الناس - وخاصةً المستقيمين - تقرأ، ومنهم من يقرأ الكتب العامة الثقافية المختصرة التي في ورقات، ومنهم من يقرأ الكتب المتخصصة في أنحاء شتى من أنواع القراءة، هؤلاء يحتاجون - أيضًا - إلى تقعيد وتأصيل، فأتى هذا القطاع من هذه الدروس، التي سنتكلم فيها - إن شاء الله تعالى - عن العلم، وكيف تتعلم، وكيف تقرأ، وكيف تلخص، وكيف تتعامل مع الكتب، وما هي مكتبتك التي ينبغي أن تكون عندك دائمًا، ما هي الكتب النافعة والكتب غير النافعة، مما يخاطب فيه طبقات كثيرة متنوعة من

المجتمع، كذلك خطاب في التربية.

إن هذه الدروس - أيضًا - تعني بالتربية، والتربية لا شك مطلب مهم، والتربية الجادة ضرورة - كما هو ظاهر ومعلوم -؛ لأننا نحتاج إلى أن نربي الناس، لا تربية لهو، ولا تربية ضياع للأوقات، ولكن تربية جد، من يعلمون أن الحياة دقائق وثوان، وإذا كانت الحياة، فلا حياة بعدها، ولا بد أن نسعى إلى الخير؛ لأن «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[١].

فالتربية بجميع طبقاتها: تربية الرجل لنفسه، تربية الرجل لإخوانه في بيته، تربية الرجل للصغار، تربية المرأة لأولادها، تربية المرأة لنفسها، تربية الرجل لزوجه، بل وتربية الزوجة لزوجها؛ لأن من النساء من تشكو زوجها، وتقول: فيه وفيه. ولا تدري ما السبيل إلى علاج ذلك.

لا شك أن التربية - تربية المرء لمن حوله - أن هذا مطلب مهم، وكما ذكرنا أنه من المفارقات العجيبة ومن المتناقضات أن يكون ثم شخصية لطالب العلم شخصية متنوعة، في بيته شخصية، وفي خارج بيته شخصية أخرى، وكذلك كثير من الناس ممن ليسوا بطلبة علم نجد أنه ربما كان مستقيمًا في نفسه، لكن لا يستطيع أن يؤثر على أحد، هل لأنه ليس عنده القدرة على التأثير؟ أظن ذلك ليس بصحيح في كثير من الناس، بل السبب أنه لم يتعلم الطريقة التي يخاطب بها هؤلاء، وكيف ينشر فيهم ما يحمله من الحق والهدى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

التربية التي نريد أن نناقش بعض موضوعاتها تتصل -أيضًا- بتربية طلبة العلم، وبالخطاب الموجه لبعض الدعاة، بالخطاب الموجه لقادة بعض الدعوات، الخطاب الموجه لدعوات عامة في هذه البلاد، في خارجها، لا شك أن هذا نوع من التربية مطلوب؛ لأن المرء لا يخلو في هذه الحياة في كل لحظة إما أن يكون مربى أو مربيًّا، بل إن المرء في نفس اللحظة يكون مؤثرًا ومتأثرًا في الجهتين معًا، وهذا لا شك أنه يحتاج إلى أن يحمله كثيرًا، وأن يكون نظره بعيدًا، ليس نظره مختصًا بطائفة في تربيتهم دون طائفة أخرى، بل لا بد أن يكون حاملًا لهذه الدعوة، حاملًا لهذه التربية، مخاطبًا جميع الفئات بها، فنعرض - إن شاء الله تعالى - إلى موضوعات مهمة في التربية، التي تكون في قطاعات كثيرة: لتربية الأستاذ لتلاميذه في الفصل، تربية طالب الابتدائي، تربية طالب الثانوي، تربية طالب الجامعة، هل نخاطب طالب الجامعة الذي عنده آراء وعنده شبهات وعنده مفاهيم مختلفة؟ منهم من يكون مستقيمًا، ومنهم من لا يكون مستقيمًا، كيف يخاطبه الأستاذ؟ هل هو بخطاب المعلم العادي؟ خطاب من في المسجد يحضر؟ هل هو كخطاب من لايحضر المسجد؟ لا شك أن هذه متنوعة، وتحتاج إلى رسائل خاصة إلى فئات كثيرة من هؤلاء، وكيف يربون من حولهم كذلك.

في قطاع من هذه الدروس ومجموعة منها نعرض إلى موضوعات متصلة بالدعوة، والدعوة أمرها متوسع وشائك، والدعوة الناس يختلفون في فهمها، وكيف تكون الدعوة؟

والذي ينبغي تقريره أنه لا يجوز أن يحصر شخص الدعوة في نفسه،

أو يقول: إن الدعوة فيَّ، ويجب على من سواي أن ينساق إلى ما أقول، فلا يجوز له أن يتكلم إلا بما أريد.

إن الدعوة يجب أن يكون الحكم فيها كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ وما قرره أئمتنا من أئمة السلف ومن علمائنا وفقهم الله ﷻ.

إن هذه الدعوة التي سنعرض إلى موضوعات متصلة منها متنوعة المشارب ومتنوعة الطرح، ونخاطب فيها فئات كثيرة، ونرى أن الحاجة ملحة إلى ذلك؛ لأننا نرى في هذا الزمن أنه مع انتشار الفساد، وانتشار الموبقات، وانتشار الفواحش، وتيسير سبل ذلك للناس في هذه البلاد وفي غيرها، نجد أن الناس المستقيمين اختلفوا فيها، بل إن الناس على جميع طبقاتهم اختلفت نظرتهم لمعالجة ذلك الفساد ومعالجة تلك الموبقات، وقد قسمنا من قبل بالاستقراء فئات الناس فيما يحصل من فساد وما يحصل في المجتمعات من موبقات ومخالفة لشرع الله ولدينه، قسمناهم إلى طبقات، فمنهم أهل العلم، فئة من المجتمع أهل علم، ومنهم طائفة كبيرة ليسوا بأهل علم، ولكنهم أهل غيرة على دين الله، وأهل حمية في الدين، ومنهم طائفة أهل علم وأهل غيرة جميعًا، ومنهم طائفة -أيضًا- ليسوا بأهل علم، ولا بأهل غيرة، فهذه الطائفة الأخيرة الذين ليسوا بأهل علم ولا بأهل غيرة هم أرباب الشهوات، الذين لا تهمهم إلا دنياهم، وقلوبهم معلقة بالأرض، وقلوبهم معلقة بالدنيا، والمال، والجاه، والسمعة، وملذات هذه الحياة الدنيا، وقلبهم لم ينتقل إلى الآخرة، ولم تحركه الآخرة، ولم تشوقه الجنة، ولم تخوفه النار، فهؤلاء أتباع كل ناعق، فليس الحديث معهم.

والدعوة - أيضًا - تحتاج إلى تقسيم هذه الفئات، وإن من مجتمعنا من صار في علاج تلك الموبقات وعلاج ذلك الفساد بالعلم دون الغيرة، فنجد أنه يقنن القوانين، ويقعِّد القواعد العلمية، ولكنه غير متحرك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير متحرك لمجابهة أهل الفساد، غير متحرك لمجابهة العلمانيين، غير متحرك لمجابهة المشركين، غير متحرك لمجابهة أهل البدع، غير متحرك لنصرة دين الله في ميادين كثيرة، مع أنه كثير علمه، نافع في نفسه وفيما ينشره من العلم.

لكن ينبغي أن يكون تقعيد هذا موافقًا لتقعيد الطائفة الذين اتسموا بالعلم والغيرة جميعًا على دين الله؛ لأن من لم يكن قد عاش شر الشرور، ومن لم يكن قد رأى هذه الشرور، وعاش المشاكل في نفسها، فإنه قد لا يتحرك في تقرير المسائل العلمية، لا يتحرك فيها تحركًا صحيحًا، ولا يقعدها بفقه في النصوص بالفقه الصحيح.

ولهذا في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ما يميزها؛ حيث أنه جعل آيات القرآن في زمنه منصبة على الواقع الذي عاناه وعاشه، ومن الناس - حتى من أهل العلم في زمنه - من لم يوافقه على ذلك؛ وذلك أنه ما عاش ما عاشه الشيخ، ولا تحرك بالهم الذي تحرك به إمام هذه الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ من الناس، وهو قطاع كبير من الناس أهل غيرة، عندهم غيرة على المحرمات، أن توجد عندهم غيرة على الفساد، غيرة على وجود بعض أنواع الظلم، غيرةٌ على وجود أهل الشر بطبقاته المختلفة، لكن هذه الغيرة حملتهم على أن يتحركوا بها، بغير ما يقتضيه العلم الشرعي الصحيح، فتحركوا بالغيرة، وجاوزوا الحد الذي يمليه العلم على الغيرة، والغيرة لا بد

لها من قائد، إن الغيرة محركة، ولكن قائد الغيرة هو العلم، فإذا كانت غيرة بلا علم، فَقَدَ صاحب الغيرة السبيل إلى النجاة والسبيل إلى تصحيح هذه الغيرة.

كثير من الشباب وكثير من الناس تحركوا بغيرة، حتى إنهم أحيانًا حرموا ما أحلَّ الله ﷻ، تحركوا بغيرة، فذكروا أشياء لا يسوغ الإنكار فيها، تحركوا بغيرة، فوصف بعض من ارتكب شيئًا من المعاصي بأنهم مبتدعة، أو كفار، أو مارقون من الملة، والعياذ بالله.

نعم إن الغيرة مهمة، وكما قال ابن القيم رحمه الله: **(إن القلب بلا غيرة قلب ميت)**؛ لأن الغيرة هي التي تجعل المرء يحافظ على ما عنده من الإيمان والتقوى والصلاح، أما الذي لا يغار على حرمات الله، فإنه لا يحمل المحافظة على رأس ماله، وإيمانه ودينه.

طائفة كبيرة في هذا البلد وفي غيره أيضًا من المسلمين في كل مكان تحركوا بالغيرة، ولكن هذه الغيرة منها ما كان وفق موجب العلم، ومنها ما لم يكن وفق موجب العلم، وما لم يكن وفق موجب العلم من الغيرة، فإنها غيرة مذمومة.

ولهذا ترى أن من أهل العلم من يقول: إن الغيرة ليست محمودة في نفسها، فالخوارج حينما خرجوا أو قتلوا عثمان رضي الله عنه إنما حركتهم الغيرة على مكافحة الظلم، والغيرة على التصرف في الأموال، ولكن آلت بهم هذه الغيرة المذمومة إلى ما آلت إليه؛ لأنهم لم يهتدوا بهدي الصحابة إلى أن قتلوا عثمان رضي الله عنه.

أيضًا من أصناف الناس في هذا المجتمع في هذا التقسيم الرباعي أهل العلم، منهم أهل العلم والغيرة، وهؤلاء هم الراسخون في العلم، الذين علموا حدود ما أنزل الله ﷻ، وفقهوا الكتاب والسنة، وسعوا في الإنكار على ما يقتضيه العلم، لم يكن العلم عندهم منعزلًا عن الغيرة، بل الغيرة تحركهم على الإنكار، وهؤلاء يصلحون ولا يفسدون، وإن كان إصلاحهم إنما يكون على إصلاح الطويل، لكنه إصلاحٌ كمثل الغيث الذي ينبت الأرض، وينفع الناس، ولكن من الناس ما لايشاهد؛ لأنك ترى الأرض، وقد أمطرت في نفس اللحظة، ولم ينبت منها النبات، ولكن تأتيها بعد مدة زمنية طويلة - شهر أو شهرين -، فتراها أنبتت بإذن الله، والدعوة لا يظن أنها تقاس بالزمن، فهذه أول الدعوات إلى دين الله ﷻ دعوة رسول، هي دعوة نوح عليه السلام؛ إذ هو أول المرسلين، دعا قومًا مخالفين، قومًا مشركين إلى دين الله ﷻ، فهذه الدعوة مكثت في الأرض ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومع ذلك ما استجاب لنوح عليه السلام إلا قليل؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، قال المفسرون: هم بضعة وسبعون رجلًا وامرأة، وقال آخرون: بل لم يزد عن اثني عشر رجلًا وامرأة(١)، هذا لا شك أنه

---

(١) قال الطبري (٨/ ٢١٤): «فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح عليه السلام ثلاث عشرة فيما حدثني به ابن حميد».
وقال السمرقندي (٢/ ١٥١): «قال ابن عباس هم ثمانون إنسانًا، وقال الأعمش: كان نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين إمرأة».
وقال البغوي (٢/ ٣٨٤): «واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية: نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم. وقال الأعمش: كانوا سبعة: نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن له. =

غريب؛ إذ الدعوة تمكث في الأرض هذا الزمن الطويل، رسول مؤيد بالمعجزات ومؤيد بالبراهين، ولا يكون معه إلا هذا العدد القليل.

إذًا: هذا برهان على أن الأمر في الدعوة لابد أن يكون الصواب، وليس المدة، وليس كم المستجيبين، إن نوحًا عليه السلام مكث تلك المدة، وكانت دعوته صوابًا؛ لأنه رسول من عند الله، وفي دعوته ما ينبغي، بل ما يجب أن نأتسي به.

إذًا: لابد أن نصدق المرسلين، ونتبع المرسلين.

إن الدعوة لا شك أنها لا تقاس بزمن، بل الأمر في الدعوة أن تكون دعوتك على صواب، إن استجاب الناس في سنة أو في عشر أو في مائة، فإن الأمر ليس هو ذاك، وإنما الأمر أن تكون داعيًا إلى الله على صواب، إذا أذن الله عز وجل بانتصار الدين، وألا يبقى بيت من حجر ولامدر إلا واستقام أهله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن إذا لم يكن كذلك، فلله الحجة البالغة؛ كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وقال عز وجل: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥].

هذه الدروس أقيمت سدًا لنقص في الحلقات العلمية؛ لأن الحلقات في المساجد - كما ذكرت - تخاطب طائفة من الناس، وفئات كبيرة في

= وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به أزواجهم جميعًا. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفرًا رجلًا وامرأة وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت سفينة نوح ثمانين رجلًا أحدهم جرهم».

المجتمع تحتاج إلى تواصل أن تخاطب دائمًا ودائمًا؛ لأنها إن لم تخاطب دائمًا، فإنها ستضعف في الإيمان، ستضعف في الغيرة، ستضعف في معرفة ما يجب وما يحرم، وما ينبغي وما لا ينبغي، الناس تعودوا أن يكون عندهم ما يسمعون، وأن يكون عندهم ما يقرؤون، ولو ترك ذلك لضعفوا، ولما ثبتوا، أو لقل إيمانهم.

فإنك قد ترى المرء بين الحين والآخر، وإذا به قد تغير، ومن هنا فإننا نرى أن كثيرًا من الشباب - ولله الحمد - انطلق بالدعوة من الشباب والكبار، انطلق بالدعوة في جلسات عامة، في مجالس، في أسرهم في رحلات في عمرة أو في حج، إلى غير ذلك من أنواعها، لكن ما الذي يُطرح في تلك الجلسات؟ ما الذي يُطرَح في تلك الرحلات؟ ما الذي يطرح في تلك الأسفار؟

لاشك أنه يحتاج إلى توجيه، وإلى تثبيت، وإلى تأييد، وإلى تقعيد - أيضًا - فيما يأتون وما يذرون، من أجل ذلك - أيضًا - كانت هذه الدروس، التي نسأل الله ﷻ أن يعيننا على الاستمرار فيها.

إذا نظرت من جهة أخرى، نظرت إلى أن هناك قطاعًا عظيمًا في المجتمع، بل هو نصف المجتمع - كما يقال لهم - يهتم به في الدعوة الاهتمام الصحيح، ألا وهم النساء، والنساء - كما ثبت في الحديث الصحيح - شقائق الرجال[1]، ترى أن كثيرين من الشباب استقاموا،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (١١٣) من حديث عائشة ﵂: «... **إِنَّ النِّساء شقائِقُ الرِّجالِ**».

واهتدوا، لكن ما نسبة المستقيمات في النساء؟

المرأة مغفولٌ عنها، تسلط عليها أدعياء الشر، ففتنوها عن دينها، إلا من رحمه الله ﷻ، وحببوا لها الشهوات، وحببوا لها التفريط في الواجبات، وحببوا لها عصيان والدها، وعصيان زوجها، . . . إلى غير ذلك من المشكلات التي تستمعون وتُسمع، لابد من مخاطبة المرأة - أيضًا -، ومخاطبتها بنشر الدعوة فيها، والتعرف على مشكلات النساء.

لا شك أنه مجال من المجالات المهمة في الدعوة؛ إذ المرأة هي الأم، وهي الأخت، وهي التي تقوم في البيت، هي التي تتحرك.

نشكو كثيرًا من منظر النساء في الأسواق، من منظر النساء في الشارع، من حديث النساء إذا اجتمعن مع بعضهن، لكن نسأل عن أسباب ذلك، وكيف السبيل إلى معالجة هذا الأمر في النساء، إنه من الغلط - ولا شك - أن نحصر الدعوة في الرجال، وأن يحصر الانطلاق في الخير في الرجال فحسب، فالمرأة هي المرأة، وهي التي يرجى إذا صلحت أن يكون معها صلاح المنزل، وصلاح البيت، واستقرار نفسية الزوج، واستقرار نفسية الأب والأخ، . . . إلى غير ذلك.

إنها موعودة بالجنة، ومتوعدة بالنار؛ كما أن الرجل موعود بالجنة، ومتوعد بالنار.

إذا نظرت اليوم في مجتمعنا، وجدت أن هناك انفصالًا بين طلبة العلم وبين عامة الناس، هذا الانفصال في مشارب شتى:

أولًا: أن كثيرًا من الناس لديهم من الأفكار، ولديهم من التجارب التي

مارسوها في الدعوة، فنفعت، ولكنهم لم يحتفظوا بها لأنفسهم، ولم ينقلوها إلى غيرهم، ونريد أن تكون هذه الدروس منبرًا وصوتًا لنقل مثل هذه التجارب، ومثل هذه الآراء ممن جرَّب، فنقل إلى غيره ممن لم يجرب.

هناك من الشباب ومن المثقفين ممن عنده أفكار متنوعة، وهذه الأفكار حبيسة لذهنه، هو ليس من المؤهلين للإلقاء، ولا من المؤهلين للخطابة مثلًا، ولا من المؤهلين للدعوة، إما تورع منه، وإما أن يكون الواقع كذلك، فهذا هل يسوغ له أن يحبس ما عنده من الأفكار ومن الآراء المهمة في نشر دعوة الحق في الناس جميعًا؟ هل يسوغ أن تحبس هذه الدروس التي جاءت لنقل مثل هذه الأفكار والآراء؟ فمن الناس من يكون عنده رأي وفكرة، لن يوصلها في شريط يسمعه المئات، بل الآلاف، بل عشرات الآلاف، لكن ربما لو أعطاها أحد طلبة العلم، أو أحد الدعاة، ووزن هذه الفكرة بميزان الشرع، وحكم عليها بالعلم، فإنه ربما تكون فائدتها لفئات كثيرة من الناس، لآلاف، بل ربما لمئات الآلاف، لا نريد أن نكون محدودين في الدعوة، وننظر إلى بلدنا فقط، إن هذه الدعوة التي مشى عليها أئمة السلف الصالح، فنجحت، وأثمرت، وثبت أهل الإسلام على الدين إلى وقتنا هذا، منذ ذلك الزمان إلى هذا الزمان إنها لم تكن هكذا، وإنما كانت بجهود بفضل الله ﷻ وتوفيقه أولًا، ثم بجهاد أهل الجهاد وأهل العلم، فنقلوا ذلك، نقلوه في كتب، نقلوه بالرواية، نقلوه بأنواع من النقل، حتى وصلنا.

إذا كنا محدودين في هذا البلد، فمن المسؤول عن إيصال الدعوة الصحيحة - دعوة أئمتنا أئمة السلف الصالح إلى شتى بقاع الأرض، من

المسؤول؟ هذه البلاد لاشك عليها المسؤولية العظمى؛ لأن الله ﷻ منّ عليها بأنواع من المن، منّ عليها بهذا الصفاء في العقيدة، فنشأ الناشئ منا، وهو لا يعرف إلا العقيدة الصحيحة، نشأ الناشئ منا، وهو على الفطرة، لم تغير فطرته؛ وكل مولود يولد على الفطرة[١]، نشأ الناشئ منا، وهو لا يرى فيما حوله الموبقات الكبيرة، لا يرى الخمور، لا يرى تيسير سبيل الزنا، لا يرى تيسير سبيل الفواحش، ثم الذنوب ومعاص كثيرة ومتنوعة، لكن ما يخاطب به، أو ما يتوجه به ذاك إلى الفرد قليل أو ضعيف، فالاستقامة هنا سهلة، وكون أهل هذه البلاد ينطلقون بالدعوى أحرى من أن ينطلق بها غيرهم؛ لأنهم تميزوا بأشياء كثيرة.

أهل هذه البلاد أنعم الله عليهم ومنَّ عليهم بالمال، والناس مُحتاجون إلى أن يُنْتَقَل إليهم، وقد تبين بالتجربة ووُجِد أن مخاطبة فئات كثيرة من المسلمين في أنواع شتى من الأرض بالكلمة بالدعوة أنتج النتائج الباهرة.

هذا لابد من أن ينقل إلى أولئك، وهذا لابد أن يكون من واقع التجربة؛ لهذا أدعو من كان عنده فكرة من الإخوة ومن الحضور، وممن يسمع، أو عنده رأي، أو عنده موضوع محاضرة أو درس يطرح في أي مجال من المجالات، بعلاج تربوي، بعلاج دعوي في مسألة علمية، في كتاب يحتاج إلى النقد، يحتاج إلى التقييم، إلى غير ذلك أن يقدمه لإمام هذا المسجد؛ حتى نتدارس هذا، ويكون في ضمن هذه السلسلة من الدروس؛

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولدُ على الفِطْرةِ، فأبواهُ يُهوِّدانِهِ، أوْ يُنصِّرانِهِ، أوْ يُمجِّسانِهِ، كمثلِ البهِيمةِ تُنْتِجُ البهِيمة هلْ ترى فِيها جدْعاء»**.

لأنه لا شك أن الواحد لا يمكن أن يعمل إلا شيئًا قليلًا، والذين عملوا وعملوا إنما عملوا بفضل الله ﷻ أولًا عليهم، ثم بجهود إخوانهم؛ لأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، والمرء يهتم بنشر الحق والهدى، وهذا يكون عن تلاقح الأفكار وإبداء الآراء، ولا يحتقر أحد من المعروف شيئًا؛ كما قال ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[١]، ربما كلمة أو وريقة نقدمها، فيكون فيها فتح لباب فكرة لن تكون بالبال ولا بالحسبان، عرض لمشروع مثلًا من مشروعات الدعوة وكيفية القيام بالواجب في مجال معين، هذا يقدم؛ حتى نرى كيف يعالج ويوزن بالعلم الشرعي، فإن كان مناسبًا، ترك ذلك للناس.

لا شك أن هذه الدروس سيكتنفها قصور شديد؛ لأن المتحدث جديد في هذا الميدان، وإن كنا نحسن بعض العلم، فإن مثل هذه المجالات تحتاج - حتى تنضج فيها، وحتى تقوم فيها بالواجب - إلى وقت، وإلى زمن، ولكن بالتسديد وبالمشورة يحصل من ذلك شيء إن وفق الله ﷻ؛ لهذا ما كان فيها من قصور، فإنه طبع القاصر، وما كان فيها من تسديد، فإنه بفضل الله ﷻ أولًا، ثم بما بذله إخوان لنا في هذه المقترحات، التي نسأل الله ﷻ أن يصل إلينا منها ما ينفع عامة المسلمين.

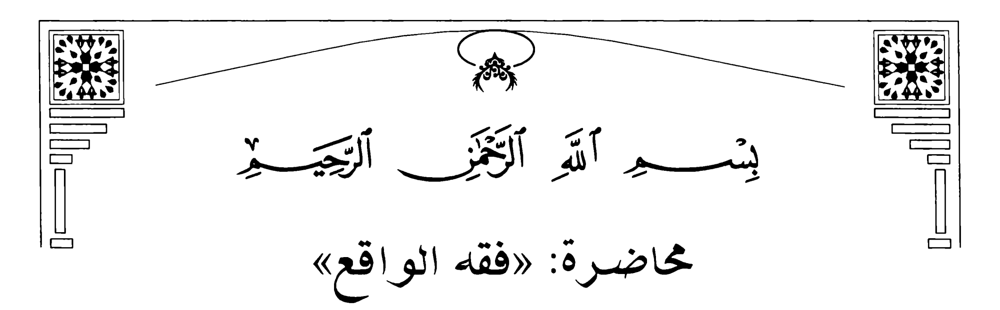
هذه كلمات مقدمة لهذه الدروس، أسأل الله ﷻ لي ولكم الهدى والسداد، والتوفيق والرشاد، وأن يجعلنا من القائمين بالحق للحق إلى الحق ﷻ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وألا يؤاخذنا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

بما فعل السفهاء منا، نسأله ﷻ أن يصلحنا، ويصلح قلوبنا، ويصلح ولاة أمرنا، وأن يوفق ولاة أمرنا وعلمائنا إلى ما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يمن علينا بالبعد عن مهاوي الهلاك، وأن يوفقنا إلى كل خير، وأن يجعلنا من الدعاة إلى دينه، حتى نلقاه وهو راضٍ عنا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





محاضرة: «فقه الواقع»

وقد قام فضيلته ببسطها كتعليق أثناء قراءة فتح المجيد في يوم الأربعاء ٢٦/٦/١٤١٦هـ

عندما تكلم عن أثر ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب «فتح المجيد» في قوله رضي الله عنهما: (لقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا . . . إلى آخره)، قال -حفظه الله - في قول ابن عباس رضي الله عنهما: (قد صارت عامة مؤاخاة الناس على الدنيا): فهم الصحابة رضي الله عنهم في حال الناس، قد عبر الشيخ رحمه الله إمام هذه الدعوة في المسائل عن ذلك بقوله: (وفيه فهم الصحابي للواقع)[1]، ويعني بالواقع: واقع الناس وصلتهم بالشرع؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما حكم على الناس بأن عامة مؤاخاتهم أصبحت على أمر الدنيا، ومعرفة العالم ومعرفة الفقيه بحال الناس من حيث ارتباطهم وصلاتهم - من حيث علاقة بعضهم ببعض - هذا لابد منه؛ لأنه لا سبيل إلى إصلاحهم إلا بذلك، كيف يؤثر في أناس لايعرف طريقتهم؟ ولهذا بين الله جل وعلا لنبيه طريقة المشركين وحالتهم وعلائقهم وصلاتهم، فقال جل وعلا بعد أن بين ما بين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٣٤٢).

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، فمن مقاصد الشرع أن تستبين سبيل أهل الباطل بأنواعهم؛ وذلك لأن استبانة سبيل الناس هذا ينفع الداعية في بيان دعوته وكيف يدعو، لهذا نستفيد فائدة مهمة، وهي أن فهم الواقع الذي فهمه الصحابي رضي الله عنه - وهو ابن عباس- كغيره من الصحابة الذين عانوا العلم والفقه، ونشروا الدعوة، وبينوا الكتاب والسنة للناس، كانوا يعلمون أحوال الناس وما هم عليه: من إقبالهم على الدين، ومن مخالفتهم له، فيكون كلامهم مؤثرًا؛ لأجل معرفتهم بحال الناس، فابن عباس لما رأى أن عامة مؤاخاة الناس صارت على الدنيا، قال هذا الكلام، وهو قوله: (**من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا**)[1]، يعني: أن سبب قوله: (**من أحب في الله وأبغض في الله**) هو أنه رأى أن الناس عامة مؤاخاتهم صارت لأمر الدنيا، فنبه لهذه القاعدة العامة العظيمة، التي أخذها من عموم الأدلة من الكتاب والسنة، وبالمناسبة فإن فهم الواقع هذا الذي ذكره الشيخ هو الذي يعتني به العلماء الفقهاء في كتبهم، وهو فهم الواقع المؤثر في الأحكام الشرعية؛ لأن الواقع - أي: الحال - قسمان:

- قسم مؤثر في الأحكام الشرعية.
- وقسم غير مؤثر في الأحكام الشرعية.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٣٤٠).

فما كان منه مؤثرًا في الأحكام الشرعية -يعني: تبنى الأحكام الشرعية عليه -، فهذا لابد للعالم من معرفته قبل أن يحكم، وأما القسم الذي لا يؤثر في الأحكام الشرعية، فإن هذا إن عرفه أو لم يعرفه، فإنه ليس بمحمل الاجتهاد؛ لأنه غير مؤثر في الحكم الشرعي، والعالم إنما يهتم بما يؤثر في الأحكام الشرعية، وما لا يؤثر، فهو مزيد تفصيل، لايهتم به الاهتمام المؤثر في الأحكام الشرعية؛ ولهذا يتكلم الفقهاء وأصحاب القواعد الفقهية عن أن الأحكام تدور مع عللها، وأن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والأحوال، وهذا لا شك - جميعًا - مبني على المعرفة بحال الناس، كذلك القاعدة المشهورة عندهم: أن الحكم على الشيء فرع عن التصور، وقد يكون الحكم على واقع، والتصور لابد أن يكون لذلك الواقع، لكن لذلك الواقع المؤثر في الحكم الشرعي، أما الواقع غير المؤثر في الحكم الشرعي، فإن معرفته ليست مشترطة في العالم؛ لأن العالم يجب عليه أن يعلم ما يؤثر في الأحكام، أما ما لا يؤثر في الأحكام، فلا يجب عليه، قد يكون ذلك من الثقافة، قد يكون من زيادة العلم، قد يكون من النافلة، هذا باب آخر، لكن الوجوب لا يجب على العالم أن يتعلم أو يعلم قبل حكمه وقبل كلامه إلا ما يؤثر من الواقع في كلامه، فإذا تكلم بكلام مبناه على واقع أخطأ في تصوره، فيكون مخطئًا؛ لأنه ما فهم الواقع الذي ينبني عليه أثر الحكم الشرعي، مثلًا لو أتى ليحكم على شخص بأنه يستوجب الحد، رجل زنى، وأتوا به، فقالوا له: أيها العالم أو الشيخ، هذا زنى. فلا يقول العالم أو القاضي: اذهبوا به فاجلدوه، أو اذهبوا به فارجموه. لابد من معرفة واقع هذا المعين؛ حتى يصدر الحكم عن فهم

لواقعه، فيسأل أولًا ؛ ليرى : هل هو محصن، أو غير محصن؟ هل هو عالم بالتحريم، أم غير عالم؟ هل يعذر بالجهالة، أم لا يعذر؟ يعني : لابد أن يستفصل منه ؛ حتى لا يقع في ذلك.

كذلك يأخذ بها العلماء في مسائل كثيرة ؛ لأنهم يشترطون للحكم معرفة الحال - سواء الأحكام عند المفتي، أو الأحكام عند القاضي - لابد من معرفة الحال، وهذا هو معرفة الواقع.

وبالجانب الآخر ما شاع في الزمن الأخير في هذه السنين الأخيرة من الكلام عن فقه الوقع وما يتعلق به، هذا يراد به أعم من الكلام الذي ذكرناه ؛ لأن فقه الواقع عندما أطلقه طلبة العلم يريد به ما ذكر وزيادة عليه فقه الواقع السياسي في الأمة أو في العالم، ومما تقرر - وقد كتب فيه وبين - أن فقه الواقع السياسي هذا غير مشترط في العالم أن يفقه الواقع السياسي، بمعنى أن يعلم ما يدور، وإن يفهم ويفقه ما يدور في السياسة ؛ لأن السياسة أمر لا يعرف، ولا يدرك غرضه، وإنما الذي يتعاطى الأخبار في ذلك غايته أن يعلم ما يجري، أما أن يفقه حقيقة يجري، فهذا في الواقع غير ممكن، ولهذا تجد أن كثيرين ممن تصدوا لمثل هذا يصيبون بعضًا، ويخطئون بعضًا، وقد يكون الخطأ أكثر من الصواب، وذلك لأن مبناه على الحدث والظن، فإذا هو علم بالخبر، وليس فقيهًا، ولهذا نقول : إن الأحوال السياسية تعلم، أما تفقه، فهذا صعب المنال، حتى الساسة أنفسهم لا يفقهونها على حقيقتها، يمكننا أن نفقه من الواقع السياسي ما فقهنا الله ﷻ به، وهي الأصول الثابتة لعلاقة المؤمن بأعدائه، هذه أصول ثابتة نفقهها فقهًا جيدًا مثل معرفة أعداء المسلمين قال الله ﷻ : ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] ومعناه أن المشركين جميعًا أعداء لنا، وأن اليهود أعداء لنا، وأن النصارى أعداء لنا، وأن المنافقين أعداء لنا، فهذا الأصل العام فقهه يكون بفقه الكتاب والسنة، وليس بفقه شيء زائد عليه، فيكون المؤمن يأخذ حذره بالفقه المستنبط من الكتاب والسنة؛ لأن هذا الفقه الخاص الذي يسمى فقه الواقع هذا لا يدركه علمًا، وليس فقهًا، لا يدركه معرفة إلا الخواص جدًا، ومعلوم أن من القواعد الشرعية التي قررها الشاطبي وغيره في كتاب الموافقات -وقررها غيره- أن شريعة الإسلام أمية[١]، يعني: أنها في تشريعاتها وفيما يطلبه الشارع من أهلها رعى فيها حال الأكثرين، وهم الأميون؛ كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ**»[٢]، وإذا علقت الأحكام بما لا يدركه إلا الخواص، كان هذا قدحًا في الشريعة؛ لأن الأحكام التي يحتاجها الناس جميعًا هذا لا يعلق بها معرفة الخواص، ومعلوم أن حال المسلم مع أعدائه هذا يحتاجه كل واحد؛ ولهذا بينها الله ﷻ في القرآن مفصلة جدًا.

فإذًا: القدر الواجب من ذلك الذي يسمى فقه الواقع السياسي قدر الواجب منه، الذي يجب على كل مسلم أن يعلم من ذلك الواقع، الواقع الذي أخبر الله ﷻ به في كتابه، أو أخبر به النبي ﷺ في سنته وما هو أبعد من ذلك، فإن هذا قد يكون من فروض الكفايات، وقد يكون من المستحبات، وقد لا يكون ممدوحًا في بعض الحالات إذا كان معه التفريط في أصول شرعية؛ لأن هذه المسألة حادثة، وأول من أطلقها - حسب علمي - في

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (١/ ٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠).

هذا العصر هو سيد قطب في تفسيره في كتاب (في ظلال القرآن) في سورة يوسف، فإنه عند قوله تعالي - فيما أذكر، ربما أكون نسيت - : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥] قسم الفقه إلى قسمين: فقه الأوراق، وفقه الحركة، وقال: إن فقه الحركة مبني على فقه الواقع، ولابد للحركة -يعني: للجماعة الاسلامية المنظمة - أن تعتني بفقه الواقع؛ لأن مبنى حركتها على معرفتها لفقه الواقع. وقدَّم معرفة فقه الواقع على ما سماه بفقه الأوراق، وذلك أنه قال: إن فقه الأوراق - وهو فقه الكتاب والسنة - يُحتاج إليه إذا قامت الدولة المسلمة، وأما إذا كانت الدولة المسلمة أو الجماعة المسلمة ليس لها سلطة سياسية تحكم، فإنه كيف يعتنى بفقه الأوراق قبل أن تقوم؟ فيكون العناية بفقه الأوراق في فراغ - على حسب تعبيره - في فراغ، يعني: ليس منزلًا على واقع معين، ثم ركز على الاهتمام بفقه الواقع هذا، حسب علمي هو أول من وزع هذا التوزيع، وذكره، ومسألة فقه الواقع إنما اشتهرت في الزمن الأخير، يعني: في الثلاث سنين الأخيرة، لكن هي معروفة بين الدعاة وبين الشباب من عقود من الزمن، من نحو عشرين سنة أو قريب منها، ولكن كونه منظمًا ونحو ذلك هذا صار في الزمن الأخير، المقصود أن الفكرة هذه أول من طرقها هو سيد قطب، وطرقه لها كان مبنيًا على نظرة وهذه النظرة غير صائبة في أصلها، وهي أن فقه الأوراق - يعني: فقه الكتاب والسنة - لا يحتاج إليه إلا إذا قامت الدولة المسلمة، وهذا غلط حتى في البلاد التي ليس فيها دولة مسلمة، فإن الدعوة التي لاتقوم على فقه الكتاب والسنة، فإنها دعوة لا تمت إلى الإسلام بصلة، بل هي دعوة مبتدعة إذا كانت لا تهتم بفقه

الكتاب والسنة، فبماذا يهتم الناس إذا لم يهتموا - في دعوتهم - بفقه الكتاب والسنة؟.

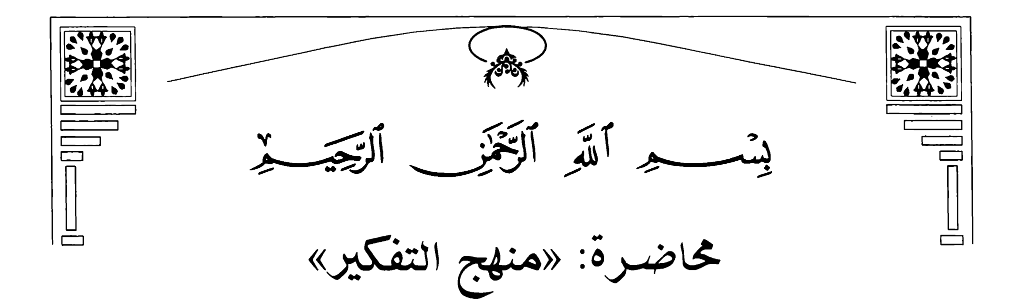
نعم، قصد سيد قطب فيما ذكر هو الإغراق في فهم فقه الأوراق - كما ذكر هو عن بعض من يستفتى في مسائل عظيمة جرت على المجتمعات الإسلامية - يقول: (لم تكن من صنع المجتمع الإسلامي، وإنما ولدها خليط من أخذ الأفكار الغربية وتطبيقها على المجتمعات الإسلامية، ثم ولد هذا المولود المشوه، فسأل الإسلام عن حكمه، هذا الكلام ليس فيه، الكلام في فقه الأوراق وإطلاقه لم يكن صائبًا، ففقه الأوراق يحتاج إليه كل داعية؛ ولهذا ترى دعوات كثيرة قائمة اليوم في المجتمع الإسلامي لا تهتم بتربية أفرادها على الفقه - فقه الكتاب والسنة -، وهذا يسبب ضررًا من جهة أن الشباب أو أفراد الدعوات أو الأفراد الذين يدعون - سواء كانوا في دعوات مخصوصة، أو دعوات غير منظمة - هؤلاء كيف يدعون الناس؟ كيف يلتزم هو إذا ما فقه الكتاب والسنة؟ لهذا تجد في خارج هذه البلاد - لو منكم من ذهب - تجد غرابة كثيرة في أن منهم من يتصدر للدعوة، ويكون عنده ضعف في العلم شديد، بل يكون بعض صغار العلم يعرف مسائل في عبادته في صلاته بل في أمر عقيدته أعظم من ذلك، وقد يكون ذلك رئيسًا في جماعة أو مسؤولًا لفئة أو نحو ذلك.

المقصود من هذا أن هذا الإطلاق الذي أطلق ليس بصواب، بل يجب أن ينظر إلى هذه المسألة نظر إنصاف ونظرًا شرعيًا، وذلك بنحو ما فصلت، وهو أن الواقع قسمان: واقع مؤثرة في الأحكام، وواقع غير مؤثر في الأحكام، فالواقع المؤثر في الأحكام هذا يجب على العالم رعايته، كذلك

على الداعية رعايته، أما الواقع الذي لا يؤثر في الأحكام، فهذا لا يجب على العالم أن يعرفه، ولا على الداعية أن يعلمه، إنما هذا إذا كان في الأمة - في مجموعها - حاجة لذلك، فقد يكون في بعض الأحوال فرض كفاية، وقد يكون في بعض الأحوال مستحبًا وقد يكون مباحًا، وقد يكون مذمومًا في بعض الأحوال كما فصلت لك سابقًا.

إذًا: في هذه المسألة جرها ذكر الشيخ رحمه الله من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله في المسائل وفي فهم الصحابي للواقع، الشيخ رحمه الله إذا تأملت دعوته - كيف دعا الناس؟ -، تجد أنه عالم بواقع الناس وأحوالهم والارتباطات التي في وقته يعلمها، ولهذا تجد أنه رحمه الله بدأ الناس بما يصلحهم، ما ابتدأهم بشيء بعيد عن واقعهم، بل نقلهم رحمه الله خطوة فخطوة معه، حتى كتب الله عز وجل له ما كتب من انتشار الدعوة وقوتها، هذه دعوة الشيخ رحمه الله محتاجة منكم إلى دراسة عظيمة لأنها دعوة سلفية نجحت في هذه البلاد، ولابد أن يتفرس الدعاة فيها، وينظروا في أسباب نجاحها، ونظر الشيخ كيف كان واهتماماته، وما كان عليه من النظر العام وأصول الدعوة، وما ينبغي في ذلك؛ لأن كل مخلص في دعوته يحب أن تنجح الدعوة الصحيحة التي يدعو إليها، وهذا يحتاج إلى النظر في الدعوات السالفة الناجح منها وغير الناجح؛ لعل الله عز وجل أن يكتب النجاح لكل مخلص في دعوته.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من المخلصين في قولهم وفي عملهم، المقتصدين المنصفين المعتدلين، وأسأله عز وجل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يميتنا على الإسلام غير مغيرين، ولا مبدلين، وصلِّ الله وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «منهج التفكير»

«كيف تفكر على وفق منهج السلف؟»

وقد قام فضيلته ببسطها في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، يوم الاثنين ١٤٢٤/١١/١٣هـ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد كفاء ما أرشد وعلم، وكفاء ما هدى من الضلالة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإني في فاتحة هذا اللقاء - الذي تاقت إليه النفس منذ زمن - لأشكر لمعالي أخي الكريم الدكتور/ صالح العبود، مدير الجامعة على دعوته الكريمة لإلقاء هذه الكلمة لطلاب الجامعة، ولاشك أن الوقت - أعني وقتكم - مشغول بأشياء، ولكن هي إشارات لأمور مهمة في هذا الوقت بالذات.

نظرت فيما أتكلم عنه، فوجدت أن المسائل والعلوم كثيرة، والدعوة والتوجيهات متنوعة الجوانب، فتأملت، فإذا أمثلها أن نتدارس في منهج التفكير في القضايا والواقع المصطفى من كلام السلف وسيرتهم، أو لك أن تقول: كيف نفكر على وفق منهج السلف؟

ومن المعلوم أن العلوم الشرعية الأصلية - كالتفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية، والسيرة النبوية، وأشباه ذلك، والتوحيد، والعقيدة - لكل منها أصول، من سار عليها، أمن من الزلل في ذلك العلم، فمن عرف مصطلح الحديث، أمن من الزلل في تناوله للأحاديث النبوية من حيث الرواية والدراية، ومن علم أصول التفسير وعلوم القرآن، أدرك الطريقة التي بها يُفسر القرآن، ومن علم النحو والبلاغة - وهما علمان يُفهم بهما الكلام العربي - فإنه يضمن ويصل إلى الصواب في فهم اللغة العربية، وكذلك أصول الفقه، وكذلك مصطلح التأريخ، وهكذا في علوم كثيرة.

ومما تأملته ورأيت أن الحاجة ماسة له أن يكون هناك تدارس للتفكير؛ لأن الناس اليوم أكثر ما يكونون يفكرون في أمورهم، وفيما حولهم، وفي واقع الأمة، وفي واقع الناس، وفي الواقع العلمي، والواقع الدعوي، والواقع السياسي، والواقع الحركي، والواقع كذا وكذا وكذا، وأكثر ما تكون مجالس الشباب في هذا الصدد؛ ولهذا كان من العلوم المهمة التي ينبغي أن تُؤصل اليوم لإدراك الصواب وللوقاية، والعلاج أن يوضع منهج للتفكير، وكما كان الأوائل يقولون: إن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح، والعقل الصريح يؤدي إلى الصواب في الفهم، أو كما قال اليونان - لما ذكروا المنطق -: هو علم أو قواعد السلوك، عليها يعصم العقل من

الغلط في تناول العلوم، فكذلك التفكير يحتاج إلى منهج وقواعد يكون فيها على بينة، ويُعصم معها من الزلل في التفكير أكثر وأكثر؛ لأن منه تُتبنى المواقف، وتُتخذ الأمور ويحصل أشياء كثيرة في حياة المسلم في نفسه، وكذلك في حياته في أسرته، وفيما حوله، وفي مجتمعه، بل وفي أمته.

لذلك كان لزامًا أن أدعو عبر هذه الجامعة العريقة المتميزة أن يكون هناك تدارس من ذوي العلم والحكمة والدعوة لهذا العلم - إن صحت التسمية -، وهو: منهج التفكير لدى المسلم في واقع الأمور. لماذا نبحث في المنهج؟ أولًا: لأن التقعيد يسهل معه إدراك الصواب دائمًا؛ حتى لا يحدث افتراق وسؤال: كيف نعمل كلما وقع شيء؟ ما الموقف الصحيح؟ ماذا نعمل؟... إلى آخره، فإنا نحتاج إلى منهج؛ لتكون مواقفنا متقاربة دائمًا، وعلى وفق العلم النافع وهدي السلف. فإذًا من فوائد وضع المنهج:

أولًا: أن يكون هناك ثبات في المواقف وتقارب فيها.

ثانيًا: أن يقل الخلاف في الأمة تجاه القضايا والوقائع، ومعلوم أن العقول كثيرة؛ ولذلك صارت الاتجاهات كثيرة، والفئات كثيرة، والجماعات كثيرة، والمواقف كثيرة، وهذا منذر بشر؛ لهذا قال النبي ﷺ فيما صح عنه لحذيفة في الحديث الطويل المعروف، قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا**»[1]؛ لأن هناك عددًا من الأقوال والآراء والأفهام، وجود المنهج يجمع.

ثالثًا: أنه يقيم التصور الصحيح الذي هو غاية المسلم، غايتنا أن نكون

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٤٨)، ومسلم (١٨٤٧).

على بينة فيما نأتي وفيما نذر، وأن يكون التصور والحكم على الأشياء صحيحًا، نزدلف به إلى مرضات الله ﷻ؛ لأن القصد ليس إبراز النفس، وليس القصد من هو أقوى، فلان أقوى من فلان، أو أبلغ من فلان، القصد القربى إلى الله ﷻ بأن يكون العمل والقول والموقف صوابًا في نفسه على وفق السنة، ومعلوم أن الاختلاف وقع؛ ولهذا قال النبي ﷺ مبينًا ضرورة وجود الهدي والطريقة والمنهج: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**»[1]، فبين بقوله: «**عَلَيْكُمْ**» - وعليكم هنا من ألفاظ الوجوب - «**بِسُنَّتِي**»، وهو هدي وطريقة النبي ﷺ، فإن السنة: الهدي والطريقة «**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**» كذلك.

الرابع من فوائد وضع المنهج: أن تقل الفتن في الأمة، معلوم أن الفتن إنما ظهرت لكثرة الآراء التي لا مستند لها أو لا حجة راجحة مع أصحابها، فإذا كان هناك منهج للتفكير والوصول إلى الحق، فإنه يكون حينئذٍ بعد عن الفتن.

خامسًا: إنه بوجود المنهج نُفرق بين الحقيقة وضدها، وما بين المحق والمبطل، وما بين المسارع في الفتنة وما بين الحكيم الذي يطلب نجاة نفسه ونجاة من حوله، نرى أن السلف ﷺ من الصحابة ومن تبعهم بإحسان

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

تقلبوا في أمور كثيرة من الأحوال والفتن والأقوال والحروب والقتال. . . إلى آخره، لكن كان المنهج متقاربًا؛ لأنهم صدروا عن منهج في التفكير متقارب؛ لهذا نطوي بعض التفاصيل، ونذكر شيئًا من المعالم المؤثرة في هذا المنهج:

أولًا: الأصل في هذا المنهج هو الحرص على الاعتصام بالكتاب والسنة وهدي سلف الأمة، الكتاب والسنة كل فئات الأمة تدعيها، كلٌ يقول: نحتج بالكتاب والسنة، لكن الشأن فيمن فهم فهمًا، فاحتج بفهمه، فنقول له: هل كان هذا الفهم معروفًا عند السلف؟ فإذا لم يكن معروفًا، دل على اطراحه؛ ولذلك لما جاءت مسائل في العلم من مثل مسألة التبرك بالصالحين في حياتهم، عرض لها عدد من أهل العلم، منهم الشاطبي في (الموافقات)، وفي (الاعتصام)، وذكر أن مقتضى الإيمان أن يكون في المؤمن بركة؛ كما قال أسيد بن حضير رضي الله عنه في الحديث: «**مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أبي بَكْرٍ**»[١]، وكما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ**»[٢]، فمع ذلك التبرك قال الشاطبي: إلا أنه عارض ذلك متن مقطوع به في نفسه، وهو أن الصحابة لم يكونوا يفعلون بأبي بكر ولا بعمر ولا بعثمان ولا بعلي ولا بالعشرة المبشرين بالجنة شيئًا من ذلك، فدل على أن التبرك بالذوات أو بالجسم بعد رسول الله ﷺ مقطوع بهدي السلف له، أو بعدم استعماله له، فدل على أنه ليس من الدين، هذا المنهج في التفكير.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤، ٣٦٧٢، ٤٦٠٧)، ومسلم (٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٤٤).

كذلك في النظر للواقع تأتي قضايا كثيرة نعتصم فيها بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، جاءت الفتنة في وقت عثمان ﵁ وفي وقت علي ﵁، فجاء الخوارج واحتجوا، هل كان هناك كتب من كتب أهل العلم؟ ما كان، هل كان هناك مؤلفات؟ لم يكن، إنما كان عندهم الاحتجاج بالقرآن أو بحديث النبي ﷺ، فاحتجوا بالمتشابه منه، وتركوا الرجوع للصحابة في ذلك، فضلوا، وكما شهد النبي ﷺ بأنهم كلاب أهل النار(١)، كيف وقد قتلوا عثمان وعليًا ﵄.

فإذًا: في المواقف التي حصلت ضلوا بأنهم رجعوا إلى القرآن والسنة بالاستدلال بالمتشابه لا بالمحكم، ولم يستضيئوا من العلم الموروث لدى الصحابة بنور، ولم يأووا إلى ركن وثيق.

وهكذا في حالنا اليوم المنهج قائم، لابد من الاعتصام بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، والعلماء الربانيون يدلون على هذا الفهم.

المعلم الثاني: إن الله ﷿ يبتلي الأمة بالفتن والشبهات - الشبهات العلمية والشبهات - أيضًا - العملية -، وكذلك الفتن العملية، وهنا ما الموقف من الشبهات العلمية، وكذلك من الفتن العملية؟ يجب أن نعلم أنه كما جاء في الكتاب والسنة متشابه، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: ٧ - ٨]. فإذا كان

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦)، عنْ أبي غالِبٍ، عنْ أبي أُمامة، يقُولُ: «**شرُّ قتْلى قُتِلُوا تحت أدِيم السّماءِ، وخيْرُ قتِيلٍ منْ قتلُوا، كِلابُ أهْلِ النّارِ، قدْ كان هؤُلاءِ مُسْلِمِين فصارُوا كُفّارًا**» قُلْتُ: يا أبا أُمامة، هذا شيْءٌ تقُولُهُ؟ قال: بلْ سمِعْتُهُ مِنْ رسُولِ اللّهِ ﷺ.

كلام الله ﷻ فيه محكم وفيه متشابه، فكذلك كلام النبي ﷺ فيه محكم وفيه متشابه، ضلت الخوارج، المرجئة، القدرية، المعتزلة، الفئات ضلوا؛ لأنهم استدلوا بالمتشابه، وتركوا المحكم في ذلك.

كذلك كلام أهل العلم فيما دونوه في الكتب من باب أولى - لعدم إحاطتهم وعلمهم بكل شيء - أن يكون في كلامهم محكم ومتشابه.

فليس الشأن حينئذٍ في الخروج من الشبهات العلمية والمآزق التي ترى اليوم، الكثير ممن يأتي ويؤلف ويقول وينشر بأقوال يستدل فيها ربما بالقرآن والسنة، وربما استدل بكلام السلف، وربما استدل بكلام العلماء في كتبهم، لكن هل الشأن وجود النقل أو الشأن في دلالة النقل على المراد، وإرجاع المتشابه من كلام أهل العلم إلى محكمه؟ أما إذا أتينا في كل مسألة، وأخذنا كلام العلماء، في أي مسألة تريد نملأ عددًا من الصفحات، ونؤلف نقولًا عن أهل العلم، فإذًا منهجك في التفكير إذا جاءت الشبهات العلمية أو المسائل المختلفة هي أن لا تنظر إلى وجود النقول فحسب، بل تنظر إلى أن هذه النقول في فهمها قد دل الراسخون في العلم على أن هذا هو فهم السلف لها؛ لأن للتعبد يجب علينا بأن نكون مجتنبين للشبهات في كلام الله ﷻ، ولهذا في القرآن تجد أن الله ﷻ بيَّن أن الشبهات ليست هي سبب الزيغ، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧ - ٨].

فإذًا الشبهات هي سبب الزيغ أم الزيغ وُجد أولًا، ثم صاحبه بحث عن الشبهات؟ قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، وهكذا

اليوم في النقول من كلام أهل العلم نجد أن الذي عنده زيغ في الأصل؛ لأنه لم يستق علمه الصحيح من مصدره الصحيح، ويتبرأ من الهوى في العلم، ويأخذ من معدنه، ويصبر على ذلك، فتجد أنه وُجد الزيغ عنده والاشتباه وهوى النفس، فبحث عن ما يستدل به، فتجده ينقل عن الإمام أحمد، ينقل عن الصحابي كذا، أو ينقل عن الفقيه الفلاني وعن ابن تيمية وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو عن فلان وفلان.. إلى آخره.

الشأن في هذا الأمر في أن يكون ما تنقل محكمًا، أو المتشابه يُرد إلى المحكم بفهم أهل العلم، فهذا منهج للتفكير مهم في أنك تنتبه ألا تقع في مشتبهات كلام أهل العلم.

أيضًا الفتنة العملية تقع، الفتنة منها الاختلاف، اختلف الناس في أقوالهم، اختلف الناس في مواقفهم، اختلف الناس، تقاتلوا، ووقعت أمور الفتنة، فهنا إذا حدثت هذه الفتن، فما المنهج فيها؟ كما قال النبي ﷺ لما سأله حذيفة رضي الله عنه، قال: **«وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»**[1]، لزوم جماعة المسلمين يعني: القول العام في المسلمين؛ لأن يد الله مع الجماعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٦٣).

فإذًا: هذا منهج عام: لزوم جماعة المسلمين، جماعة أهل العلم؛ لأن الشاذ من الأقوال مطرح، وكما هو معلوم لا يزال هناك طائفة تقوم بالحق، وتبينه، وهي المنتصرة بالحجة والبيان؛ لموافقتها لكلام السلف.

الثالث من المعالم: إن الواقع في الأمة اليوم يحمل بعض النفوس على أن تسير في اتجاه يضر بها أو مخالف لمقتضى العقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة؛ وذلك بسبب ضيق النفس من هذا الواقع المظلم الصعب، فمن منهج التفكير لدى المسلم أن يُغلب جانب التفاؤل، ويحذر من القنوط واليأس الذي يحمله على عمل أشياء منكرة، التفاؤل والإيجابية هذه تعطيك انطلاقة، فإذا نظرت إلى الواقع اليوم، ثق أن الإسلام سينتصر، وسيعود عزيزًا كما كان؛ لأن الله ﷻ يقول لنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]، من الذي شهد بهذه الشهادة؟ الله ﷻ.

فإذًا: الزمن لا ننظر إليه، مر خمس سنين، عشر سنين، عشرون، خمسون سنة، ما تهمنا، ولا أكثر، المهم أن يوافق عملنا الصواب: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

لو كان النصر والفتح ينزل على أحد لما معه من الحق، لنزل مباشرة على نوح عليه السلام، لكن نوحًا عليه السلام كم مكث في قومه؟ تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنة إلا خمسين عامًا، هنا انتصر بعد ذلك بالله ﷻ، فهنا الحق في سورة العنكبوت، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ

وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥]، هنا سؤال: لماذا ذُكرت قصة نوح في آيتين في سورة العنكبوت؟ هذا مأخذ لابد لطلبة العلم أن يتأملوه، وورود قصص القرآن في سور القرآن مرة طويلة، مرة مختصرة، مرة قصيرة، مرة لغرض واحد في آية، مرة في آيتين، مرة في خمسين آية، لماذا؟ هذا له أسبابه المعروفة عند أهل العلم، ومنها: أن إيراد القصة والقدر المورود منها إنما هو لعبرة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لتوافق المقصد من السورة؛ لأن كل سورة من سور القرآن لها مقصد، سورة العنكبوت ما المقصد منها؟ التحذير من الفتنة ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، فتنة الإنسان بوالديه ذكرها، ثم فتنته بمن حوله، نوح عليه السلام أي فتنة في قصته؟ الفتنة في الزمن، تطاول الزمن، كيف يقدر واحد يريد الحق، يُضايق، يرى ما فيه، يصبر ألف سنة إلا خمسين عامًا؟ نعم، إن لم تصبر، فقد أدركتك الفتنة، بل لابد أن يكون المنهج صحيحًا، والطريق صوابًا، وإلا فالزمن لا عبرة به: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، هنا تأمل في أنه لا نستعجل، ولا يستخفنا الذين لا يوقنون، انظر لما جاء الأمر بالصبر، جاء معه التحذير من الاستخفاف، قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، يعني: مهما عملوا، اصبر إن وعد الله حق، اصبر حتى يأتي إذن الله ﷻ، ثم قال بعدها: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، والآية مكية، المشركون في مكة حاصروا النبي ﷺ في الشعب سنة، هل هناك أعظم من هذا؟ يصلي، ألقوا عليه سلا الجزور، ضايقوه

مضايقة نفسية، حرب، وضعوا الشوك، كل أنواع الأذى، ومع ذلك قال: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، بعض الصحابة قال: «**وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**»[1]، لاحظ أثر الاستخفاف. قال النبي ﷺ لهم: «**لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**».

فإذًا: التحذير من الزمن، والزمن يؤثر وواقع الأمة أو الواقع المظلم، أو الذي يعمل ضنكًا، يؤدي إلى أي شيء؟ يؤدي إلى الاستخفاف، من الذي يستخف الآن الناس؟ الذين لا يوقنون، يريدون أن يعملوا أعمالًا، ولكن الصبر نصف الإيمان؛ لأن الإيمان قسمان أو نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

فإذًا: التفاؤل مطلوب، تفاءل دائمًا، ادعُ، أثر في الناس بالدعوة إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كن متفائلًا، لابد أن تُحَسن الظن بربك ﷻ.

قال النبي ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[2]، وهذا يعطيك أوسع أبواب التفاؤل الذي له الأثر في الطمأنينة النفسية، وله الأثر في العمل الإيجابي المثمر في الناس؛ لذلك تجد هدي السلف كيف كان؟ حصلت فتن وأمور وقتال، هل وقفوا عن التأثير النافع

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥/ ٣٩٨)، وابن حبان (٢/ ٤٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣١٨).

في التعليم في التأليف في الدعوة؟ لا . وقعت الدولة الفاطمية في مصر وما فيها من البلاء وما أصاب العلماء فيها من أفعال، انظروا المؤلفات التي ألفها العلماء في وقت وجود الدولة الفاطمية في مصر، تجد أنهم أقبلوا على العلم والتعليم والدعوة والخير بحسب الممكن لهم.

إذًا: فالتفاؤل يعطيك حسن الظن بالله ﷻ، وحسن الظن بالله ﷻ يحملك على أن تبذل ما فيه الخير.

المعلم الرابع من المعالم للتفكير الصحيح في الواقع، واقع الناس، واقع الدول، واقع الدعاة، من المعالم: أن تنظر أنه ما من أحد من المسلمين يعمل عملًا إلا وعنده خير يُحمد عليه وذنب يُذم به، حسنات وسيئات، ذنوب وأعمال صالحة، هذا مما دعا في قصة معاوية رضي الله عنه أحد الصحابة الذي كان يذم معاوية رضي الله عنه كثيرًا في مجالسه، فدعاه معاوية، قال: يا أخي بلغني أنك تقول كيت وكيت. قال: نعم، قال: يا أخي أليس لك حسنات؟ قال: بلى. قال: فما ترجو فيها؟ قال: أرجو القبول. قال: أليس لك سيئات؟ قال: بلى. قال: فما ترجو فيها؟ قال: أرجو فيها العفو، وأخاف على نفسي. قال: أفلا رجوت لأخيك ما رجوت لنفسك؟!

الخيال أنه سيكون الشيء صوابًا كاملًا لا غلط فيه، حسنات كاملة بدون سيئات، في مجتمع أو في دولة أو في عالم أو في إنسان أو في صديق أو في نفسك، غير ممكن؛ ولذلك من المنهج الحسن أننا نشيع الخير والحسنات في الناس؛ ليتأثروا بها، وتعظم في أنفسهم، ونقلل من الشر في الناس بذكر السيئات؛ حتى لا يزيدوا شرًا، لذلك ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِذَا قَالَ**

الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»، قَالَ أبو إِسْحَاقَ: لَاأَدْرِي، أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ، أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ[1]. لأنك إذا قلت الناس فسدوا، وهؤلاء فسدوا، وهؤلاء فيهم وفيهم، سيزداد الفساد، لن ينقص؛ لذلك هناك كثير من الأمور السيئة إذا تداولها الناس تزيد، لا تنقص، بخلاف الحسنات، فإنك إذا ذكرتها، فإنها تزيد أيضًا من الخير، ولهذا فإننا نرجوا هنا أن يكون النظر صوابًا في وجود الحسنات والسيئات.

فإذا كان كذلك، فموقفنا مع وجود السيئات في مكان، في مجتمع، في فئة... إلى آخره أن نناصح، نبذل الدعوة، نبذل النصيحة، نبذل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الشريعة، لكن نكتم وجود هذه الأشياء، أما الحسنات، فننشرها؛ لكي يتأثر الناس بذلك.

المعلم الخامس من المنهج في النظر إلى الواقع واختلافات الناس: تحري العدل في الأقوال من المبالغات. اليوم إن استقرأت أحوال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٣).

(فهو أهلكهم) روى أهلكهم على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين: الرفع أشهر، ومعناه: أشدهم هلاكًا، وأما رواية الفتح، فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو في من قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، قالوا: فأما من قال ذلك تحزنًا لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين، فلا بأس عليه، وقال الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك، فهو أهلكهم، أي: أسوأ حالًا منهم، بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه، ورؤيته أنه خير منهم.

الناس فيما يذكرونه في الواقع، فتجد أن العدل والإنصاف قليل، والمبالغة والكذب كثير، تجد أن فلانًا - أنا أو أنت أو الثاني أو الثالث - إذا أراد أن يذكر شيئًا لا بد أن يزيد فيه، ما يتحرى اليقين فيما نقل، والمبالغات هذه نوع من الكذب، بل هي كذب، ربما تكون افتراء؛ ولهذا في مقدمة صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»(١).

يأتي واحد، يقول للثاني: ما الأخبار؟ والله حصل كذا وعمل كذا. سمع صحيح؟ ليس صحيحًا، وهذا الثاني يُصدق قليلًا، ويمشي، ويزيد عليها، تنتشر أشياء لا حقيقة لها.

وفي الحديث الآخر في مقدمة صحيح مسلم: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**»(٢)، حدَّث حديثًا، والله أنا ما أتوقع أنه صحيح، لكن تقوله، فحينئذٍ أنت أحد الكاذبين بنص كلام النبي ﷺ؛ لذلك في الحديث: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٣).

تقول الحكماء: «**مَا شَيْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ**»(٤).

اللسان هو سهم، اللسان يرفع مقامك بالتوحيد وذكر الله ﷻ وعبادته، أو يجعلك تهوي في النار سبعين خريفًا والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه مسلم (٥).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٧٩٧٣).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦٤)، وأبو داود في الزهد (١/ ١٥١) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

لذلك المبالغات الحذر منها، فإذا كان منهج التفكير عندنا التصديق بالمبالغات أو أن ننقل كل شيء، فحينئذٍ يكون المنهج فيه خلل، وحينئذٍ الحكم على الأشياء سيكون خللًا محضًا ولا شك؛ لأن الله ﷻ أمرنا بالعدل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، فإذا أمرنا الله ﷻ أن نكون قوامين بالقسط - يعني: بالعدل - في الأقوال والأعمال والأحكام، فالمبالغة أيضًا تُضل وتؤثر، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

العدل سبيلك أن تكون قليل الكلام متجنبًا للمبالغات، ما تحدث بكل ما تسمع.

المعلم السادس: من معالم المنهج في التفكير الصحيح في الواقع: أن يكون لدى المسلم محبة الخير لإخوانه المؤمنين، ولا يدخر عنهم خيرًا، بل يحب لهم الخير، ويسعى في ذلك أشد السعي، ومن أجمل ما يُروى في ذلك قول زُهَيْرِ بْنِ نُعَيْمٍ الْبَابِيِّ: (**لَوَدِدْتُ أَنَّ جِسْمِي قُرِضَ بِالْمَقَارِيضِ وَأَنَّ هَذَا الْخَلْقَ أَطَاعُوا اللهَ ﷻ**)[1] انظر محبة الخير لأهل الإيمان، يعني: لو كان أنهم أطاعوا الله ﷻ بتعبي بمرضي، فإن هذا مما أوده وأحبه. الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

فإذًا: المنهج العام للتفكير المستقيم وسطٌ بين الذين لا يهتمون بالأمة ولا بالمسلمين، ولا يرعون لهم بالًا أصلًا، وبين أولئك الذين يكرهون

---

(١) انظر: المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٣١٢).

أهل الإسلام، ويكرهون المسلمين، ويقولون: هؤلاء أهل المصائب، فتُفكر بأنك تحب الخير لهم، وإذا أحببت الخير لهم، فإنك ستسير فيهم على ضوء القواعد التي ذكرنا أولًا، أو الضوابط، أو المنهج، في أنك تدعوهم للاعتصام بالكتاب والسنة على وفق منهج السلف، تحذرهم من الفتن، تنتبه لما ينفعهم ولما يضرهم، تنشر حسناتهم، تستر سيئاتهم، محبة الخير للمسلمين تعطيك اندفاعًا، وعملًا صالحًا، وانشراحًا في النفس، ونورًا في الصدر، وتوفيقًا في القول والعمل.

من معالم المنهج: أن الواقع - كما ترون اليوم وكما سيأتي، مضى وسيأتي - أنه مضطرب، ويكون فيه أمور منكرة في الحال، وربما في المآل، فهنا لابد من وجود الغيرة على الدين؛ لأن الغيرة على الدين تحمل المسلم على أن يستمسك بالذي أوحي إليه، وإذا لم يكن عنده غيرة على توحيد الله، لم يكن عنده غيرة على العقيدة الصحيحة، لم يكن عنده غيرة على منهج أهل السنة والجماعة، لم يكن عنده غيرة على دماء المسلمين التي تُسفك، على أموالهم، على أعراضهم، لم يكن عنده غيرة على علماء المسلمين، لم يكن عنده غيرة على أمة الإسلام، لم يكن عنده غيرة على حرمات الله وعلى شعائر الله، إذًا سيكون باردًا ضعيف الإيمان، وربما لا يثبت على الإيمان -يعني: على إيمان كامل -، فالغيرة سبيل للثبات، لكن الغيرة قد تعصف؛ لذلك نحتاج إلى غيرة منضبطة بضوابط الشرع، الغيرة التي تحمل على التقدم والعلم والعمل والحمية، لكن منضبطة بضوابط الشرع، غيرة لا تحمل على سلوك منهج الفرق الضالة في الموقف من الدول، أو من ولاة الأمور، أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

أو ممن خالف المسلم، فإذًا هنا معالم، هذه الضوابط والغيرة يضيق المقام عن بسطها.

من معالم المنهج في التفكير: أن الأمور تشتبه، فيكون فيها معضلات، أمور سياسية صعبة، أمور علمية مشكلة كبار، أمور دعوية، ترجيح بين المصالح، أولويات: ماذا يُقدم؟

هنا كيف نفكر في حال وجود هذه الأشياء العظام؟ نجد أن حال الكثيرين أنه لا أحد يَقول عن نفسه: إنه قاصر عن تناول هذه المسائل العظام في الأمة، بل كل أحد يقول: أنا أفهم فيها، أفهم في العلم بجميع أنواعه، أفهم في السياسة، أفهم في الأمور، أعرف مكائد الأعداء، أعرف المصالح والمفاسد، أعرف الأولويات، أعرف ماذا يُقدم، كل شيء يعرفه كل أحد.

وهذا من الخلل الكبير في التفكير، فإذًا: منهج التفكير في هذه الأمور أن نقتنع بأن لكل فن أو علم أو تخصص أو ميدان أهله وخاصته، وهذا في القرآن في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣] أولو الأمر كلٌ في ميدانه، في ميدان الولاية العامة وقيادة الأمة وولاة الأمر الحكام، في العلم الشرعي وما يأتي الإنسان وما يذر، والقضايا العلمية في العقيدة، في الجهاد، في الأحكام، أهل العلم الراسخون فيه، في القضايا العملية في التخصصات، فهنا نرجع ونؤمن بضرورة مثل هذه التخصصات.

أما إذا كان الشاب - مثلما نرى اليوم ست عشرة سنة، عشرين سنة،

اثنتين وعشرين سنة - يُسفه من هم أعلم وأحكم منه في هذه الأمور، فهذا خلل في المذهب. هنا لكَ أن تستشكل، تسأل، تطلب الصواب، وهذا يعطيك ملكة مع المستقبل مع الزمن لتكون عالمًا حكيمًا تدرك الأمور، لكن أن تعارض من أول الأمر، ولا تُعطي كل أهل اختصاص اختصاصهم، فإنه حينئذٍ يقع الخلل في التفكير، ومن أعظم ذلك الرجوع إلى أهل العلم والثقة في أقوال الراسخين في العلم، وأنهم أعلم بالمصالح والمفاسد في الأمور الشرعية، وما يأتون وما يذرون من التوجيه للأمة.

هناك معالم بالمقابل لهذه المعالم سلبية، تؤثر سلبًا في تعاطي المنهج السليم في التفكير والنظر في الواقع، ذكرناها فيما سبق، لكن أعيدها باختصار:

* المبالغات ذكرناها.

* تصديق الشائعات ذُكرت.

* الثالث من المؤثرات السلبية على التفكير السليم: التأثر بالشعارات والألفاظ الرنانة، يأتي واحد بشعار جميل: إنقاذ الأمة، برنامج لإنقاذ الأمة، الإصلاح، الجهاد، إصلاح مناهج التعليم، التحذير من كذا، في ألفاظ مختلفة. هنا المنهج السليم في التفكير يقول لك: العبرة بما تحت الألفاظ، لا بالألفاظ، هنا لا تغتر بشعار لا تدري ما تحته، وواحد يقول لك: الإصلاح. حسن الإصلاح كيف؟ أحد يقول - مثل الآن -: إصلاح مناهج التعليم. بأي شيء؟ ما تفاصيل ذلك؟ إذا كان تعديلًا بما يوافق الصواب، ويقوي الحق، ويعصم من الفتن والانحرافات، فهذا حسن، إذا

كان المراد شيئًا آخر، فإذًا يكون في حذر؛ لذلك يقول بعض الحكماء: كم نفذت أمور هي من الخرق بمكان في ظل ألفاظ حسنة الانتقاء. يعني: الواحد الذي يجيء، يريد أن يصرف الإنسان إلى شيء، لابد أن يأتي بلفظ جميل يجعله شعارًا له؛ حتى يتبعه الناس؛ لأن أكثر الناس ما يفكر بالتفاصيل، وليس أكثر الناس برهانيًا يتبع الدليل، ويفكر تفكيرًا منهجيًا صحيحًا، إنما يصدقون بالشعار، هذا كذا. نعم، فيأخذه. فإذًا يقول: كم نفذت أمور هي من الخرق بمكان في ظل ألفاظ حسنة الانتقاء. فإذًا نحذر، حتى ولو كان اللفظ صحيحًا، لكن ربما يكون تحته أشياء فسرها أصحابها بتفسير مخالف للصواب فيقودون الناس إلى تفسير مخالف للصواب.

* من المؤثرات السلبية على التفكير السليم: اعتقاد أن الأشد والأغلظ والأقوى من المواقف هو الدين والحكمة في كل حال، وليس الأمر كذلك، فيأتي الآن بعض الناس كيف يفكر؟ ويؤثر على تفكيره الصحيح أنه يرى هذا الموقف أقوى، يقول: ما دام أقوى هذا الحق، يرى القول هذا أشد، يقول: ما دام هذا القول أشد في الدين معناه أنه هو الأصح، وهكذا. ولو كان الأمر كذلك لكان الحكم واضحًا حينما قال عمر ﵁ للنبي ﷺ في الحديبية - لما قالوا: امح الرحمن الرحيم، ولا تقل كذا، للنبي ﷺ - قال: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟»**[1]، فهنا كان عمر ﵁

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢).

في هذا الموقف هو الأشد، وعنده العزة التي يُعجب بها الإنسان، لكن لم يكن الصواب معه، كان الصواب مع قول النبي ﷺ فيما كشط وفيما عمل، فيما طلب منه المشركون، فأجابهم إليه، لماذا؟ لأن الحكمة تقتضي ذلك، والله ﷻ سمى هذا الفعل من النبي ﷺ الصلح سماه فتحًا مبينًا، فكانت الشدة في هذا المكان مخالفة، بل تؤدي إلى عدم حصول هذا الفتح المبين. يأتي اختلاف الفتاوى للعلماء، يأتي هذا يقول: نعم، الحق كذا، ويأتي بالقول الأشد، يأتي الواحد يفكر فيه، وما ينظر للدليل، ما ينظر للقواعد العامة، يقول: ما دام أنه الأشد، هو الصواب. ليست قاعدة، النبي ﷺ كما صح عنه في سنته أنه ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا[(١)]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**»[(٢)].

* أيضًا من المؤثرات في التفكير: تصديق القنوات الفضائية، اليوم توجد فتنة أخبر بها النبي ﷺ - كما في صحيح البخاري -، وهي فتنة القنوات الفضائية، قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا**»[(٣)]، الجهل اليوم في الناس، ومن أسباب تثبيته أن يُجعل هناك خلل في تفكيرنا، كيف نتلقى الأمور؟ لم يعد

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦، ٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧) عنْ عائِشة ﵂، زوْجِ النّبِيِّ ﷺ أنّها قالتْ: «**ما خُيِّر رسُولُ اللهِ ﷺ بيْن أمْريْنِ إِلّا أخذ أيْسرهُما ما لمْ يكُنْ إِثْمًا**».

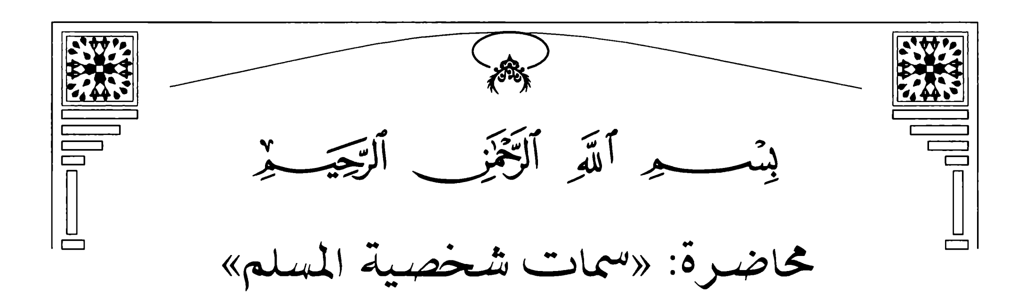
(٢) أخرجه البخاري (٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

هناك مرجعية، الواحد ما يسأل، ما يكون ملازمًا للجماعة مع علمائه، يسأل ويستفسر، لا. أصبح هناك بث للجهل بأن الإنسان يكون مجتهدًا في كل شيء، ويختار ما يشاء، ويترك ما لا يشاء، وهلم جرة. فإذًا وجود القنوات الفضائية فيما تبثه من أخبار وإشاعات وأقوال، ما تستطيع أن تميز الصحيح منها وغير الصحيح، لا من جهة الأخبار السياسية، ولا من جهة الفتاوى الشرعية، ولا من جهة كذا وكذا، ولا من جهة البحوث، ولا اللقاءات ولا الحوارات. فإذًا: تحذر من هذه أن تجعل عندك خللًا في التفكير، وأن تكون مستفيدًا منها عند الحاجة بشرط ألا يؤثر ذلك على منهج التفكير الصحيح المقرر بالاستقراء في منهج السلف.

على العموم المسائل كثيرة، ولدي ثلاث عشرة نقطة لم نتحدث عنها، وقد تحدثت عن ست عشرة نقطة، بقي ثلاث عشرة، الجميع تسع وعشرون يمكن يضيق المقام - وأنتم في أيام اختبارات - عن التفصيل في كل ذلك، لكن لعله يكون هناك ميدان للتفصيل في هذا المنهج (منهج التفكير)، هناك أمور بقيت في تفاصيل فقه المنهج وكيفية تعاطيه، وكيفية دراسته، وأصوله عند السلف، ونحو ذلك.

أسأل الله ﷻ لي ولكم التوفيق والسداد، وأن يجعلنا مسددين فيما نأتي وفيما نذر، وأن يجعلنا ممن رضي عنهم، فأصلح لهم القول والعمل، اللهم اغفر لنا ولولاة أمورنا ولوالدينا ولمن له حق علينا، اللهم وفق علماءنا وارحم الأموات منهم، ووفق الأحياء واجعلنا جميعًا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى؛ إنك على كل شيء قدير، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.



محاضرة: «سمات شخصية المسلم»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده الذين أصلح لهم سرهم وعلنهم، وظاهرهم وباطنهم، واستعملهم فيما يحب، وجنبهم مساخطه وما يأبى، كما أسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر.

وإني مسرور بهذا اللقاء في هذه الليلة؛ لتناول بعض ما يهم المسلم بصفته مسلمًا، قد أسلم لله ﷻ وجهه وقلبه، وتخلى عن هوى نفسه إلى ما يحب الله ﷻ ويرضى؛ ولذلك فإن أعظم المطالب التي يبحث عنها المؤمن: ماذا يريد الله ﷻ منه؟، وما هي صفة المسلم التي يحبها الله ﷻ ويرضاها؟.

ولا شك أن الكتاب والسنة مملوءان من الصفات التي يجب على المسلم أو يستحب أن يتحلى بها ليكون محبًا لله ﷻ، ولكي يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ.

نجمل ذلك في أمور، وأقدم قبلها بمقدمة يسيرة؛ لأن هذا الزمن الذي

نعيش فيه نرى أن الأمور اختلطت كثيرًا، فلم يعرف الكثير ما الذي يجب عليهم، الأمور مدلهمة ما بين نقص في الدين، وقلة في الرغبة فيه على مستوى الأمة، وما بين إقبال عند طائفة من المسلمين على الدين، ورغبة في الخير، واستجابة لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

وكان ما بين هذا وهذا ظهرت أمور نعرف منها وننكر، منها ما نعرف حسنه في الشرع، فنؤيده، ونعين عليه، ونسهم في إنجاحه، ونتعاون على البر والتقوى في شأنه.

ومنها أمور لا يعلم المسلم حسن مطابقتها للدين الصحيح؛ فلذلك ينبغي أن نتطرق لهذا الموضوع، وهو شخصية المسلم في ظل هذه الظروف، وفي ظل هذه التقلبات الشديدة، ما بين غلو في الدين، وانحلال من الدين.

الصفة الأولى: الإخلاص.

من أعظم صفات المسلم التي تتميز بها شخصيته الإخلاص، فإن الإخلاص معناه: نزع الهوى من أن يكون مؤثرًا في التصرفات. وهذا الأمر عزيز، لكن لابد منه؛ لأن ما نفعله من أمور الدعوة، أو من أمور الخير، أو الغيرة على الدين، أو ما نأتيه من أعمال الإحسان والبر ونحو ذلك، هذه لا شك أنها من دين الله ﷻ، وإذا كانت من الدين، فشرط قبول ذلك أن يكون هناك الإخلاص - الإخلاص لله ﷻ - في هذا الدين.

قال الله ﷻ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، وهذا شرط، فلا يمكن أن ينفعنا التدين، أو ينفعنا الإقبال، إلا بأن نوطن القلوب على الإخلاص.

وإن كان كذلك، فما هو الإخلاص المطلوب في شخصية المسلم؟ الإخلاص المطلوب أن يكون القلب خالصًا من رؤية غير الله ﷻ في الأعمال؛ لأن الإنسان بطبيعته وفطرته خلقه الله ﷻ ظلومًا جهولًا، قال الله ﷻ في الأمانة: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ لهذا قال أهل العلم: الأصل في الإنسان أنه ظلوم جهول؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾، ظلوم: بمعنى عنده رغبة في التعدي والزيادة عن العدل في الأمور، سواء كان في التصرفات الفعلية، أو في القولية، أو في الأحكام، وجهول: عنده جهل، إذا انبنى على هذا الجهل، فإنه يكون عمله سيئًا.

لهذا من صفة المسلم في شخصيته أن يكون مخلصًا؛ الإخلاص في طلب الحق، وطلب ما عند الله ﷻ يخلصه من صفة الإنسان الملازمة له، وهي الظلم والجهل، فإنه إذا رجع إلى نفسه اجتهد أنه في تصرفه يبتعد عن الجهل، ويبتعد عن الظلم، وإذا كان كذلك، فابتعاده عن الجهل يحتم عليه في إخلاصه لله ﷻ أن يحرص على العلم النافع، الذي يجعل أعماله موافقة لمراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ، ويحرص على معرفة الشر؛ حتى يتجنب الظلم، وأن يتعدى على أحد في الأقوال وفي الأعمال.

واليوم ترى أن كثيرًا من الأمور صار فيها تجاوز، وسبب ذلك قلة الإخلاص، وليس زيادة الإخلاص، كون المسلم يكون عنده غيرة زائدة، وحب للخير زائد لا يعني أن يكون مخلصًا في نفسه؛ لأنه قد يكون عنده غيرة، لكن ضعف إخلاصه جعله يسيطر عليه الظلم أو الجهل؛ لهذا كان من أعظم أسباب تحقيق الإخلاص هو عدم رؤية غير الله في الأقوال

والأعمال، وأن يكون حريصًا على تحقيق مراد الله، أن يرفع عن نفسه صفة الإنسان الملازمة له - المسلم والكافر عامة -، وهي الظلم والجهل، الجهل لابد فيه من العلم، والظلم لابد فيه من أن يوطن نفسه على العدل، واليوم نرى أن كثيرًا من التصرفات العملية فيها خير، وكثيرًا من التصرفات العملية فيها ظلم بشكل عام في الناس.

كذلك في الأقوال، نرى اليوم هان القول، وكأن ليس أعظم ما يدخل الناس النار اللسان، سُئل النبي ﷺ عن أعظم ما يدخل الناس النار قال: «**الفَمُ وَالفَرْجُ**»(١)، اللسان شأنه عظيم.

اليوم نرى الأحكام على الأوضاع، على الأشخاص، على العلماء، على الدول، على المسلمين، على الدعاة، على الجماعات، على الجمعيات الخيرية، على، على. . .، أشياء كثيرة نرى فيها مجازفة في القول، بحيث إنه يقل الحلم والأناة والرفق والعدل في مثل هذه الأحكام.

ترون اليوم في الإنترنت أشياء كثيرة لا يرى أصحابها حقيقة الأمور، لكن عندهم مجازفة في الأقوال والأعمال، وهذا لأجل سمة الإنسان الملازمة له، وهو أن يحب أن يتعدى، فيكون ظلومًا جهولًا.

لذلك الإخلاص لله ﷻ، وهو طلب ما عند الله ﷻ، طلب رضى الله ﷻ بموافقة الشرع، أما أن تطلب رضى الله ﷻ بما تحلو له نفسك، فهذا كل أحد يدعيه؛ ولذلك قال بعض علماء السلف: «**لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ إِنَّمَا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ»[1]، ليس الشأن أن تحب الله، تقول: أنا أحب الله ﷻ، فسأعمل كيت وكيت. هذه مسألة كلٌ يدعيها في جميع الملل والنحل، والفرق الإسلامية وغير الإسلامية، والديانات... إلى آخره، كل يقول: إنه يحب الله، وربما بكوا إذا تذكروا الله، لكن هذا ليس هو الشأن، الشأن أن يحبك الله؛ بموافقة أمر الله وأمر رسوله، وهذه حقيقة الإخلاص أنك تتخلص من رؤية غير الله ﷻ في الأعمال: أمور الدعوة، أمور الأحكام، أمور العمل، أمور الصلات، إذا وطن الإنسان نفسه على الإخلاص، فإنه سيكون منتجًا.

الصفة الثانية: حسن الظن بالله.

من سمات شخصية المسلم - التي هي سبيل لقوة المسلمين في هذا الوقت المعاصر - أن يكون المسلم حسن الظن بربه ﷻ، حسن الظن بالله ﷻ، وهو أنه ﷻ لن يضيع دينه، ولن يمكن غير المسلمين من المسلمين، بل حسن الظن بالله ﷻ يجعلنا نوقن بأن هذا الدين منصور، وأن الإسلام غالب مهما حصل، وإذا نظرنا إلى سيرة النبي ﷺ وجدنا أنه ﷺ - وهو الرسول الخاتم، المؤيد من الله ﷻ بالمعجزات، بالآيات، والبراهين - ابتلاه الله ﷻ بأنواع من الابتلاء، فصبر، واحتسب، حتى أنه حُوصِرَ في شعب سنة كاملة، سنة كاملة محصورًا، كان الصحابة معه يأكلون الخبط من الأشجار، لا يجدون أكلًا.

---

(١) انظر: النبوات (١/ ٧٣)، وروضة المحبين (١/ ٢٦٦)، ومدارج السالكين (٣/ ٣٧)، وتفسير ابن كثير (آل عمران: ٣١).

فإذًا: وجود العداوة من المشركين والكفار للمؤمنين هذه قديمة، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، كفى بربك هاديًا ونصيرًا، هو الذي يهدي لو طلبنا الهداية من عنده على وفق العلم الصحيح، وكفى به نصيرًا، لو أحسن الظن به والتوكل عليه ﷻ.

ولهذا ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[١]، ونحن نجزم، ونوقن بأن الله ﷻ لن يضيع دينه، ولن يضيع ملته، ولن يضيع المسلمين، بل العاقبة للمسلمين، والذي شهد بذلك هو رب العالمين، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]، كفى بالله شهيدًا، إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعطي النفس أنواعًا من الطمأنينة، وأنواعًا من عدم الاندفاع؛ لأنه إذا أحسنت الظن بالله، وأيقنت بأن وعد الله ﷻ حق، فلن يكون عندك استعجال للأعمال، أو النتائج، لن يكون عندك اضطراب وتخبط، مما يحمل بعض المسلمين - وخصوصا الشباب - على أن يعملوا بعض الأعمال المنكرة.

والسبب في ذلك عدم وجود الصبر الواجب؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠]،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، والدارمى (٢/ ٣٩٥)، والطبراني (٢٢/ ٨٧)، والحاكم (٤/ ٢٦٨)، وقال: صحيح الإسناد. وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله (ص ١٥)، والحكيم (٣/ ٩٩)، وابن حبان (٢/ ٤٠١)، وابن عدي (٦/ ٣٢٦)، ترجمة (١٨٠٧) معروف بن عبد الله الخياط).

ولا يستخفنك الذين لا يوقنون، لاحظ الآية، جمع الله ﷻ فيها - وهي آية مكية - بين أمرين، قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، وقال: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لأن سبب عدم الصبر ما هو؟ هو الاستخفاف، إن الذين لا يوقنون من الكفار والمنافقين يستخفون أهل الإيمان، يستخفون أهل الإسلام؛ حتى يعملوا أعمالًا ليست هي في المصلحة، بل هي خلاف الصبر؛ لذلك المؤمن يعمل العمل على وفق المصلحة المرجوة، المصلحة ما هي؟ المصلحة الموافقة للحكمة، المصلحة هي: أن تتحقق الغايات المحمودة برجحان على المفاسد، إذا تحققت غايات محمودة والمفاسد ضعيفة أو ملغاة، فهنا تحققت المصلحة، وتحقق أمر الله ﷻ، أما أن تكون المفاسد أكثر في الأعمال والتصرفات، هذا - لا شك - نعلم يقينًا أنه ليس مرادًا في الشرع، وليس مطلوبًا.

ولذلك شيخ الإسلام رحمه الله في رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال: من ظن أنه إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن المنكر يزيد أو يتساوى فإنه لا يحل له أن يأمر وينهى حتى يتيقن أن المنكر لا يزيد لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح[1].

الصفة الثالثة: أنه طيب.

السمة الثالثة من شخصية المسلم التي دلت عليها الأدلة: أن المسلم دائمًا طيب، المسلم طيب، يحب الطيب من الأقوال والأعمال والأشخاص والأحوال، والطيب هو الذي طاب، فلم يخالطه سوء أو

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص١٠).

ضعف ذلك عنده؛ ولذلك يقال: طعام طيب، ويقال: إنسان طيب، ويقال: رائحة طيبة؛ لهذا من صفات المسلم أنه طيب، والنبي ﷺ رحب بأحد الصحابة ؓ فقد جَاءَ عَمَّارٌ يَسْتَأْذِنُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**ائْذَنُوا لَهُ، مَرْحَبًا بِالطَّيِّبِ الْمُطَيَّبِ**»[(١)]، المسلم من صفته الملازمة له - لما معه من الإيمان والتوحيد والإخلاص - أنه طيب، فإذا أتيت إلى قوله، وجدت أن قوله طيب، لا يذهب إلى الأقوال السيئة، يقول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، فإذا أتيت تختار الألفاظ والأقوال، لا تأتِ بلفظ يمكن أن يدخل الشيطان منه، فيؤجج النفوس، ويفرق في الناس، ويجعل المسلمين يتعادى بعضهم مع بعض، حتى على مستوى مسجد صغير، فضلًا عن مستوى الأمة.

المسلم طيب في أقواله وأعماله، ولا تظنن أن الأقوال والأعمال القليلة أنها لا تؤثر، قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ يعني: ولو هالك كثرة الخبيث، فليست المسألة هي مسألة قوة أعمال، وكثرة أعمال، وكثرة أقوال، نعتقد أن هذه الكثرة والقوة أنها هي المؤثرة، لا.

المؤثر في الناس بإذن الله ﷻ هو ما طاب من الأقوال والأعمال؛ ولهذا تجد أن المسلم الطيب طيب الأقوال، طيب الأعمال، لاتجد عنده من الأقوال ما يسيء له في دينه من الآثام، ولا ما يسيء إلى غيره من المسلمين، أو غيرهم من الاعتداءات بغير وجه حق، أو العمل بغير وجه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٨)، وابن ماجه (١٤٦).

حق؛ لذلك تجد أن المسلم طيب في علاقته بكل من حوله، إذا أتى البيت، فهو طيب في كلمته، طيب في أعماله، طيب في علاقته بوالديه، في علاقته بأهله، ما يرى بنفسه أنه أفضل؛ لأن بعض الناس قد يأتي في ذهنه - من الشيطان، من مداخل الشيطان - أنه ما دام أنه مستقيم وظاهر الاستقامة على دين الله ﷻ، فهو أفضل من الناس، وهذا من الشيطان، الشيطان قد يعجز أن يأتي إليك في معصية، فيأتيك من جهة الإعجاب بالنفس وازدراء الآخرين، وأنت لا تعلم الحال.

فلذلك من طيب المسلم في أقواله وأعماله وطيب قلبه أن يكون مخَلِّصًا نفسه من رؤية الذات، يصبر على الأذى، ومن قدح فيه، أو من تكلم عليه، أو من أساء الظن به، أو من قال له: أنت كذا، يصبر، ويعمل الذي ينفع؛ لأن الذي ينفع - ولو كان قليلًا -، فإنه يبقى بإذن الله ﷻ.

الصفة الرابعة: أنه إيجابي.

من سمات المسلم، وهي السمة الرابعة: أنه - كما يقال بلغة العصر - إيجابي، وليس بسلبي، معنى إيجابي: أنه مصلح، وليس بمفسد، الله ﷻ وصف المنافقين بأنهم يفسدون، ولا يصلحون، المسلم يصلح، ولا يفسد، وهذا معنى الإيجابية في حياة المسلم.

المسلم يكون إيجابيًّا، بمعنى أنه إذا انفتح باب خير، أعان عليه، إيجابي دائمًا، أعماله ليست سلبية، بل هي أعمال إيجابية خيرية، لا يكون محفوظًا عليه أنه عمل عملًا يضر بمسلم، أو يضر بالأمة، وليس انطوائيًا يقول: أنا لا يعنيني الناس، أنا في نفسي، وليس لي علاقة بما يحصل. لكن من صفته

أن يكون إيجابيًّا، يعين على الخير، ولا يعين على الشر، ولا يدخل في مجال يكون معه العمل الذي يعمله خبيثًا أو سيئًا.

فإيجابية المسلم هذه ضرورة، إيجابية المسلم في أقواله، في أعماله، في تصرفاته، في علاقاته، في آرائه، أن يكون أريحيًّا كما يقال، عنده أريحية، صدره واسع، يرى أن الخير كثير، وأنه يؤثر هنا، ويؤثر هنا، ويؤثر هنا.

إذا كانت النفس سلبية، يفكر تفكيرًا سلبيًّا، لا يرى خيرًا، إنما يرى كثرة الشرور.

وإذا نظرنا النظرة العامة، هل ينظر المسلم إلى كثرة الشر، أو ينظر إلى كثرة الخير؟ أو ما سيتحقق من الخير، أو ما يعمل فيه؟ أو ينظر إلى كثرة الشر، فيقعد؟ أو يتصرف تصرفات غير محمودة؟

نرى أن سنة الأنبياء والمرسلين هي أنهم كانوا ينظرون إلى الخير، فيحملهم على الإقدام والتضحية والعمل والبذل. هذا نوح عليه السلام كم مكث في قومه؟ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يوجد شرك، لكن عنده الفأل، عنده الأمل، عنده الإيجابية، حتى جاء أمر الله، هل قعد؟ الواحد منا عشر سنين أو عشرون سنة ما تأثر منه ولا واحد، يقول: أعوذ بالله أنا . . . خلاص، إما يمشي مع الناس فيما هم فيه، أو يقول: أنا ما أنفع، فيذهب إلى تصرفات كيت وكيت، وكذا وكذا.

لكن المسلم ليس كذلك، المسلم إيجابي في نظرته للأمور، يرى الخير، ويوسع نظرته للخير؛ حتى يكون صدره متفائلًا، فيعمل أكثر؛ لأن

الإشكالية - أيها الإخوة - إشكالية نفسية، فإذا نظرت إلى أن الشر كثير، ويحاصرك، فإنك ستصاب بشيء من الضغط النفسي، وهذا شيء يقع على الإنسان في بعض الأحوال؛ ولهذا جاء ميدان الصبر، وجاء حسن الظن بالله، جاءت عبادة التوكل، عبادة حسن الظن بالله، كل هذه لتسلي المسلم، وتفتح له باب الخير الواسع.

إذا نظر إلى الشر: هذا شر كثير، إذا كيف المخرج، يقول: أنا سأعمل كذا وكذا وخلاص، يصير الذي يصير، أنا وبعدي الطوفان.

هذا ليس تفكيرًا شرعيًا دينيًا إسلاميًا، وإنما هذا تفكير الهوى والخروج من المشكلة بمصيبة أخرى على الإنسان في نفسه، في دينه، وفي غيره.

إذا نظرنا إلى النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، كيف كان عمله في مكة؟ قال الله ﷻ له: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٦ - ٨٨].

لاحظ الآية في آخر سورة ص: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، يعني: محاصر، ومضايق، ويتكالبون عليه، يتكالب عليه المشركون، ويقول لهم كلمة واضحة حقيقة واضحة: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: أنا ما أريد أجرًا، ما أريد دنيا، ما أريد أن تعطوني شيئًا كفاء هذه الدعوة، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لست متكلفًا متنطعًا، إذا كنتم أنتم في شك من هذا الأمر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ بعد حين، هذه كانت سنوات، الله أكبر كيف كان الأمر على هذا النحو؟! سنوات وتحقق أمر الله ﷻ.

في مكة لما أتاه الصحابة، وقالوا: «**وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ**

عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ»[١]، الحظ هنا: «**لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**»، ثم اطوِ صفحة السنين، وائتِ إلى صلح الحديبية، حيث قال عمر رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُم اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا**»[٢].

فالنبي ﷺ لما عمل الصلح ظاهره الدنية بحسن النظر، لكن بالنظرة الشرعية فتح، سماه الله ﷻ فتحًا، الحظْ فترة الضعف في مكة قال: «**لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**». والقوة في المدينة، النبي ﷺ انتصر على المشركين، انتصر عليهم في بدر، وانتصر عليهم في الأحزاب، حتى أحد كانت نصرًا، وإن كان ظاهرها المصيبة للمسلمين، هي مصيبة، ولكن حقيقتها النصر، ومع ذلك هو في موطن القوة، ومع ذلك... ؛ لأن هناك مصلحة، المقصود من هذا أن النظرة دائمًا إذا كانت إيجابية واسعة في الخير، تحمل على العطاء والبذل وانتشار الخير، أما إذا كانت ضيقة، فسيتصرف الإنسان تصرفات غير سليمة، تضر به وبمن حوله، والنهاية هو الذي يقول: أنا المسؤول عن ذلك.

لهذا كثير من الأعمال لو رأينا الأمور، وجدنا أن كثيرًا من الناس، ليس الأكثر، كثير نسبة كبيرة، ليس معناها الأكثر، لكن كثيرًا من الناس يحتاج

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥).

إلى أن يكون منشرح الصدر، إيجابيًّا في نظرته للخير، فيتسع الخير.

الخير إذا تعاونا عليه، وسعناه، كل واحد في مجاله انتشر، وانتشر، وانتشر، حتى غلب بإذن الله ﷻ.

الصفة الخامسة: أنه يحب الله ورسوله والمؤمنين.

من صفات المسلم - وهي الأخيرة؛ لأن الوقت لا يتسع لأكثر من هذا - الملازمة لشخصيته أنه صاحب حب لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولأهل الإيمان، قال الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]، آيتان عظيمتان، الولاية هذه ما مقتضياتها؟ الولاء لله ﷻ، الولاء لرسوله ﷺ، الولاء للذين آمنوا.

الولاء لله: الإخلاص له، أن تعطي الولاء -بمعنى: المحبة، والنصرة، والقوة - لله ﷻ، معناه: لدينه، لأمره، لكتابه، لدين الرسول ﷺ، لسنته ﷺ، لأمره، ولنهيه، وللذين آمنوا.

الذين آمنوا لهم المحبة والموالاة والنصرة، وهنا يقول أهل السنة والجماعة في عقائدهم: إن الولاية - بمعنى المحبة والنصرة - تتبعض، يعني: تزيد بحسب مقتضى الإيمان، إذا كان كذلك، فليس عندنا -كقول بعض أهل الفرق - أن الولاء واحد، إما أن أوالي هذا، أو أعاديه! هذا غير موجود في عقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما هي متبعضة؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الإيمان). متبعضة، ما معناها؟ يعني: أنها تزيد وتنقص، تجد أن محبتك لفلان محبة إيمانية، لكنها زائدة؛ لما هو عليه

من الإيمان، وآخر محبة إيمانية موجودة، لكن أقل من الأول.

فإذا: لا يكون موجودًا بين المؤمنين الكره، الذي لا حب معه، الحقد، الغل، وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يخلص النفس من الغل؟ قول النبي ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**»(١)، يعني: لايكون لمن تحققت فيه أن يكون في قلبه غل لامرئ مسلم، ما هي؟ قال: «**إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنُّصْحُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ**»، هذه ثلاث مهمة، تنزع الغل في هذه الأشياء. الإخلاص مهم جدًا؛ لأن الإخلاص يجعل المرء متخلصًا من هواه، فيسعى بإيجابية، هنا ننظر: هل من شرط الناس أنك إذا تحب المؤمن أن لا يكون عنده سيئات؟ هل هذا من شرطه؟ ليس من شرطه؛ لأن ما من مسلم إلا وعنده حسنات وسيئات، وفلان وفلان، بل إن الله ﷻ قال في الصحابة، أن الله غفر لهم في آخر سورة الفتح.

إذا كان كذلك، فإذا تصور إنسان، سواء كان مسلمًا عاديًا، أو كان إمام مسجد، أو كان داعيًا، أو كان مسؤولًا في إدارة، أو كان حاكمًا، أو كان أو كان، تتصور أنه مسلم بلا سيئات، هذا تصور خيالي، لا يدخل في ذهن التفكير الصحيح.

فإذا كان كذلك، إذا هناك أمور تجعل المسلم يتخلص من الغل؛ ولذلك ينظر إلى أنه دائمًا يغلب الحسنات على السيئات؛ لأن الحسنات أعظم أثرًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، وابن ماجه (٢٣٠).

هنا اختلف أهل العلم: ما الذي هو أعظم، هل هو إتيان المأمورات أو اجتناب المنهيات؟ يعني: في أمر الله ﷻ، هل هو إتيان المأمور الذي أمر الله به أو اجتناب ما نهى عنه؟ ما هو الأعظم؟ الصحيح الذي عليه المحققون من أئمة الإسلام - وهو الموافق للدليل - أن شأن الأوامر أعظم من شأن النواهي، لماذا؟ لأن الله ﷻ يحب من عبده أن يمتثل أوامره، وأن يجتنب نواهيه، لكن بالأمر سجد الملائكة، وإبليس لم يستجب للأمر، فكان مغضوبًا عليه إلى يوم الدين، وبالنهي عصى آدم في الجنة، فتاب الله ﷻ عليه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، الأوامر أعظم.

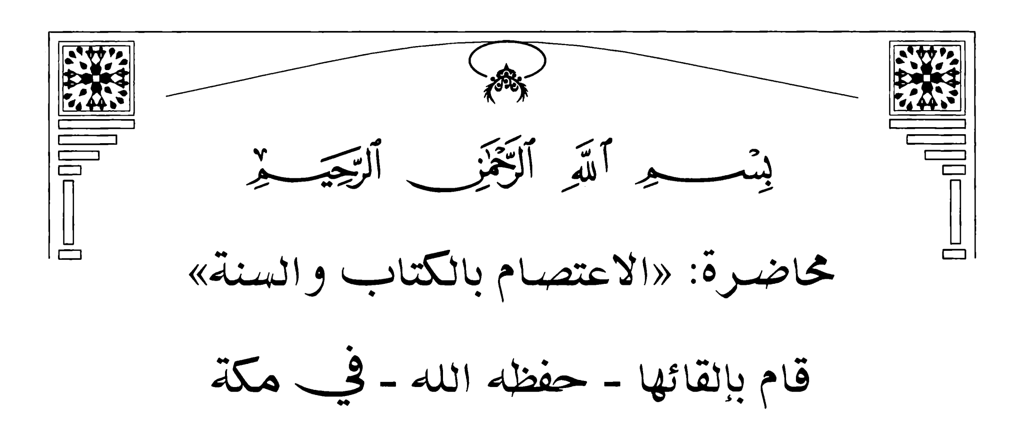
فإذا كان كذلك، فينظر المسلم إلى الأحوال ومن حوله إلى أنه إذا كان المسلم الآخر يعمل الأوامر، فأنت تزيده، يؤدي الفرائض، يأمر بها، يعين عليها، فهذا معناه له مكانة في النفس، إذا كان في مسألة النواهي عنده مقترفات، يُدعى له، يُنصح، يُواجه، ونحو ذلك... إلى آخره، فشأن تنفيذ الأوامر، وامتثال للأوامر، والاستجابة للفرائض أعظم من اجتناب المنهيات، وكلها مهمة، هذه فرائض وهذه محرمات، كلها في الدين، منزلتها عظيمة، لكن من حيث الجنس ما هو أعظم، ما يترتب عليها بعض الأحكام الفقهية.

إذًا: - أيها الإخوة - في هذا الزمن نحتاج إلى أن نعيد التفكير، المسلم دائمًا ينظر إلى ما فيه نفع وصالح، ويكون طيبًا، يحرص أن يكون طيبًا في أقواله وأعماله، وألا يكون أداة لهوى نفسه والشيطان، بل يكون مُسْتَعْمَلًا بشرع الله ﷻ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

هذه بعض الصفات، والحديث لو استطردنا فيه، لاقتضى صفات كثيرة.

أسأل الله ﷻ لي ولكم التوفيق والسداد، اللهم وفقنا إلى ما تحب وترضى، اللهم أعنا على الحق والهدى، واجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا؛ إنك أكرم مسؤول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





محاضرة: «الاعتصام بالكتاب والسنة»

قام بإلقائها - حفظه الله - في مكة

الحمد لله الذي برحمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضل الضالون، لايسأل عما يفعل، وهم يسألون، الحمد لله الذي أضل وهدى، وأسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وأغنى وأقنى، سبحانه من إله حكيم عليم قادر، أجرى حكمته البالغة في كونه وفي شرعه بما حارت معه الألباب، فسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سلامًا هو كالعهد بين المسلم والمسلم، أن لا يأتيه منه إلا ما فيه السلام له في ذاته، وماله، وعرضه، فمن ألقى السلام، فقد عاهد أخاه أن لا يأتيه منه إلا ما فيه السلامة له، ومن خالف ذلك في عرض أو مال أو ذات أو تعدٍ، فقد خالف مقتضى هذا السلام، الذي هو من علامات المؤمنين الفارقة بينهم وبين الكافرين في الدنيا، وهو تحية أهل الجنة يوم القيامة، ثم إني أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من المنيبين إليه حقًا، ومِمنْ اجتهدوا في النجاة من

الغفلة، والنجاة من الفتن والابتلاء، والله ﷻ أقام الحياة على الابتلاء، بل وأقام الموت -أيضًا- على الابتلاء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فهذه الحياة عصيبة وليست بالأيام السهلة اليسيرة في معناها، بل هذه الحياة إما بعدها إلى نعيم سرمدي أبدي، وإما إلى عذاب سرمدي أبدي.

فأهل الإيمان والإسلام مصيرهم إلى الجنة، وأهل النفاق والكفر والشقاق مصيرهم إلى النار، والعياذ بالله.

ولأجل عظمة هذا الأمر، لأجل عظمة هذا الابتلاء بعث الله ﷻ رسله مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة، فجاءت الرسل، وبينوا للناس أنه لا نجاة إلا بالاعتصام بحبل الله المتين، وصراطه المستقيم، الذي هو دين الإسلام العام، وبعد بعثة محمد ﷺ دين الإسلام الأخص، الذي هو عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام.

فالمسألة عظيمة؛ ولهذا أجمعت الرسل بوحي الله ﷻ لهم أن هذه الحياة فيها الابتلاء والفتنة، ولا نجاة فيها إلا بالاعتصام بحبل الله ﷻ.

فكل رسول أمر بالاعتصام بحبل الله ﷻ، وحبل الله ﷻ هو كتابه المنزل، ورسوله الذي أمر باتباعه، وحبل الله هو صراطه المستقيم، الذي يكون في كل زمان وفي كل مكان، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

موضوع هذه المحاضرة: (الاعتصام بالكتاب والسنة)، وهنا يأتي سؤال: لم يختار مثل هذا الموضوع؟ هل الكتاب والسنة الناس منها في

شك؟ هل القرآن وأحاديث النبي ﷺ الناس في اتباعها في تردد؟ أم لم يختار مثل هذا الموضوع الذي يُظن أنه واضح عند الجميع؟

هذا الموضوع إذا عرض، وهو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن معناه جواب سؤال، وهو: ما المخرج من الفتنة؟ ما المخرج من التفرق؟ ما المخرج من الاختلاف في الدين وبين الناس؟ ما المخرج من كل ما يسوء الناس؟ المخرج جوابه: الاعتصام بالكتاب والسنة، ولهذا لو كرر هذا الموضوع في كل مجلس، وفي كل منتدى، وفي كل جريدة ومجلة، لم يكن كثيرًا، ولو قيل لك كل يوم؛ لأنه به تحصل البصيرة، ويحصل الثبات؛ لهذا أمر الله ﷻ عباده بالاعتصام بحبله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي هذه الآية التي هي الأصل في هذا الباب أمر الله ﷻ أن يعتصم بحبله، وحبل الله هو الطريق الموصل إليه - سبحانه -، وهذا من جهة التمثيل؛ فإن الحبل هو ما يوصل، ما يكون متدليًا يوصل بين شيئين، والله - سبحانه - أمرنا بالاعتصام بحبله، يعني أن نستمسك بهذا الحبل كما يستمسك الغريق إذا وجد ذلك الحبل، وهو يخشى الغرق.

ولفظة الاعتصام في الكتاب والسنة، جاءت على الحقيقة اللغوية فيها، غير منقولة من الحقيقة اللغوية إلى الحقيقة الشرعية، وهي أن لفظ الاعتصام راجع إلى ما تحصل لك به العصمة، ما يحصل لك به النجاة، ما يحصل لك به دفع الشر عنك؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن

رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣]، وقال ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةًۚ﴾ [الأحزاب: ١٧].

وهذه الآيات وغيرها مما فيه لفظ الاعتصام والعصمة ينبغي أن تُتأمل من جهة أن لفظ الاعتصام فيه تحقيق ما به العصمة، ولاحظ في الآية أن الله ﷻ أمر بالاعتصام بحبله، وأضاف الحبل إلى نفسه الجليلة ﷻ، فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله هو صراطه المستقيم، وهو القرآن، وهو السنة - يعني أحاديث النبي ﷺ -، وهو طريق المؤمنين؛ لأن هذا من الألفاظ التي تختلف عند اجتماعها، وتجتمع عند افتراقها؛ كلفظ البر في القرآن، ولفظ التقوى، ولفظ الصراط المستقيم، والحبل - حبل الله -، وأشباه ذلك، معناها السير على كتاب الله ﷻ وسنة رسوله الله ﷺ، فرجع ذلك إلى قوله ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، الذي هو القرآن وسنة النبي ﷺ، ولأجل أن الاعتصام تعظم الحاجة إليه عند حصول الفرقة قرن الله ﷻ في آية آل عمران ما بين الأمر بالاعتصام بحبله والنهي عن التفرق، فقال ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والتفرق الذي نُهِيَ عنه هنا عام؛ لأنه من المتقرر في علم الأصول أن النكرة في سياق النهي تعم، والفعل المضارع (تفرقوا) منسبك من حدث وزمن، والحدث نكرة، فصار الفعل المضارع في سياق النهي نكرة في سياق النهي، فتعم أنواع التفرق، فنهى الله ﷻ هنا بعد الأمر بالاعتصام بحبله، نهى عن التفرق، فهل التفرق أنواع؟ لأن الآية عمت بنهي الله ﷻ أنواع التفرق. والجواب: نعم، التفرق في الكتاب والسنة نوعان: تفرق في

الدين، وتفرق في الأبدان.

ولهذا فسر أهل العلم الجماعة في قولهم: أهل السنة والجماعة - أو الجماعة التي أُمروا بها - فسروها بمضادة التفرق، ففسرت الجماعة بأنها الاجتماع في الدين والاجتماع في الأبدان؛ لأن التفرق الذي نُهي عنه في الكتاب والسنة تفرق في الدين وتفرق في الأبدان.

قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فبهذا التمثيل ظهر أحد نوعي التفرق، وهو التفرق بالأبدان، تفرق النفوس، تفرق المعاداة بين أهل الملة الواحدة؛ إذ قال ﷻ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، والنوع الثاني من التفرق لم يُذكر في هذه الآية تنصيصًا، وإن كان داخلًا في عموم قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ذُكر في آيات أخر كقول الله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فإذًا: الاعتصام بالكتاب والسنة مخرج من التفرق في الدين ومخرج ومنجاة من التفرق في الأبدان، يعني أن الاعتصام بالكتاب والسنة هو الذي شرعه الله ﷻ لجميع الأنبياء، سنة كل نبي في أمته؛ لأنه قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ومن المتقرر عند أهل العلم من أهل السنة والجماعة أن الذي أوحي إلى النبي ﷺ نوعان:

القرآن، والسنة، فالقرآن وحي الله ﷻ، والسنة وحي - أيضًا - أنزل على محمد ﷺ في أحوال مختلفة.

قال بعدها: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، أي: الذي أوحي إليك، وأُوحي إلى من قبلك ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، فحصل من ذلك قاعدة عظيمة، وهي أن الاعتصام بالكتاب والسنة هو الدين، الاعتصام بالكتاب والسنة أعظم فرائض الإسلام، وأعظم أركان الإسلام؛ لأن حقيقته تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وقد قال ﷻ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، التفرق في الدين والتفرق في الأبدان يضادهما - كما ذكرت لك - الاجتماع في الدين، والاجتماع في الأبدان.

ومن العجائب الكونية التي أجراها الله ﷻ في كونه بحكمته أنَّ ثم تلازم ما بين الاجتماع في الدين والاجتماع في الأبدان، وأن ثم تلازمًا ما بين التفرق في الدين والتفرق في الأبدان، فإذا حقق العباد الأول - وهو الاجتماع في الدين -، حُقق لهم التوفيق في الاجتماع في الأبدان، والله ﷻ هو الذي يؤلف بين القلوب؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فإذا استمسك العباد بالاجتماع في الدين وعدم التفرق فيه، مُنَّ عليهم، ووفقوا، وسددوا إلى الاجتماع في الأبدان بألا يكون للشيطان عليهم مدخل.

ولهذا عوقب النصارى بعقاب عظيم، وهو أنهم ضربت بينهم الفرقة والخلاف؛ كما قال ﷻ في سورة (المائدة): ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤]، أخذنا ميثاقهم، بم؟ بالاعتصام بما أنزل الله ﷻ، وبما جاءهم به عيسى عليه السلام، ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ ما الذي حصل؟ قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا

بِهِۦ﴾ نسوا يعني: تركوا، والنسيان هنا بمعنى الترك، ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ يعني: تركوا نصيبًا مما ذُكِّروا به مع علمهم، فهم يعلمون، ولكنهم تركوا.

قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المحققين المفسرين: (دلت الآية على أن الإغراء بينهم بالعداوة والبغضاء كان نتيجة لتفريقهم الدين وتركهم نصيبًا مما ذكروا به)[١].

فالاجتماع على الدين بعدم التفريق فيما تتبع فيه الكتاب والسنة بين مسألة ومسألة، أو ما بين علم وعلم، أو ما بين مذهب ومذهب، هذا إذا اجتمع عليه العباد، ولم يرضوا بغيره، أثابهم الله ﷻ بالاجتماع ويسر عليهم سبله. وأولئك الذين نسوا حظًا مما ذُكروا به - مع علمهم -، وتركوا ما أنزل الله ﷻ وما جاءت به سنة رسولهم، عوقبوا بالإغراء بالعداوة والبغضاء.

ولهذا تأخذ قاعدة: أنه لا تحصل فرقة في الأبدان بعد اجتماع في الأبدان، إلا والعباد قد فرقوا الدين، وتركوا بعض أمر الدين، فلم يجتمعوا عليه، وإلا لو اجتمعوا عليه، واعتصموا بحبل الله جميعًا، ولم يتفرقوا لا يأتيهم الشيطان.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٦٠)، والبغوي (٣/ ٣٢)، وابن كثير (٣/ ٦٤)، ومجموع الفتاوى (١/ ١٤).

ولهذا جاءت الفرقة في عهد الصحابة ﷺ متى؟ لما ظهرت الخوارج في عهد عثمان، وحصل مقتل عثمان ﷺ، بدأت الفتن في الأمة؛ لأن أناسًا كثيرين أتوا إلى المدينة، وناصروا الخوارج، إلى غير ذلك.

حتى قاتل علي - عبد الرحمن بن ملجم، الخارجي المعروف - كان في عهد عمر من خيرة الناس، حتى قال عمر لواليه على مصر: إني مرسل لك رجلًا آثرتك به على نفسي، هو عبد الرحمن بن ملجم، فافتح له دارًا يعلم الناس فيها القرآن. فلما حمل عبد الرحمن الرسالة إلى والي مصر من قِبل عمر، ﷺ، قرأ، اتخذ له دارًا وأصبح يعلم الناس القرآن. فأتاه الخلل من جهة من اختلط به، حتى آووه، فأصبح من الخوارج[1].

حصلت الفتنة لأنه لم يعتصم بنصوص الكتاب والسنة، ولو اعتصم الناس بنصوص الكتاب والسنة، وعند الاختلاف يرجعون إليها، ويأخذون بمحكم هذه النصوص، لرجعوا إلى أمر بين واضح وصراط مستقيم.

والله ﷻ تركنا على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعد النبي ﷺ إلا هالك. ترك هذه الأمة نبينا على بيضاء نقية.

فإذًا نقول: الاعتصام بالكتاب والسنة يأتي معك في الدين بألا تتفرق في الدين، وألا تأخذ قول الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون. ونأخذه في الاعتصام بالائتلاف والجماعة الواحدة.

إذا تبين ذلك، فنأتي إلى تاريخ الأمة الطويل العجيب، الذي بدأ فيه الانحراف، وترك الاعتصام بالكتاب والسنة من ظهور الخوارج.

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ١٧٢).

وأول ما ظهرت الخوارج في عهد النبي ﷺ، حيث قال له رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «**دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، - وَهُوَ قِدْحُهُ -، فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ**»[١].

حصل الافتراق في الأمة بترك الاعتصام بالكتاب والسنة. الخوارج يقولون: ما في القرآن نقبله، وما جاء في الأحاديث عن هؤلاء الصحابة الذين نقاتلهم لا نقبله. ففرقوا دينهم، فقبلوا بعضًا، وتركوا بعضًا، حتى فيما قبلوه من القرآن استدلوا بالمتشابه، وتركوا المحكمات. خرجت المرجئة، والطريق نفسها، لم يعتصموا بالكتاب والسنة بالنصوص في الدين، خرجت القدرية، خرج المعتزلة، خرج الجهمية، خرج غلاة الصوفية، خرج المتكلمون، إلى آخره. لم ظهرت هذه الفرق؟ لتحكيم العقل، وعدم الرجوع إلى الكتاب والسنة.

فإذًا من أصول الاعتصام بالكتاب والسنة وقواعده العظام: أن يُترك العقل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

عند ورود النص، فالعقل تابع للنص، مفسر للنص بما يسوغ فيه الاجتهاد. وأما أن يكون العقل حاكمًا على النص، فهذا أول طرق الضلال، ويكون تحكيم العقل حاكمًا على النص ومقدمًا عليه بأنواع، تارة - كما عند المتكلمين - بقولهم: الدليل العقلي قطعي، والدليل النقلي ظني، فلا نقدم الظني على القطعي. وهذا باب من أبواب الضلال، به قدموا العقليات بحسب أهوائهم على ما جاءت به النصوص: كلام الله ﷻ، وكلام نبيه ﷺ.

أهل الأهواء في المصالح المختلفة الذين يقولون: المصلحة في كذا. وهم ليسوا من فقهاء الكتاب والسنة، ويعارضون بالمصالح المتوهمة ما جاء في النصوص؛ كما قال قائلهم: حيثما وجدت المصلحة، فثم شرع الله. يعني: انظر أين توجد المصلحة، فحيث وجدت المصلحة، فثم الشريعة!!!

فجعل الشريعة تابعة للمصلحة التي يتوهمها هو، مع أن الاعتصام الصحيح بالكتاب والسنة يقضي بأنه حيث وجد النص من الكتاب والسنة، أو حيث وجد الحكم الشرعي، فثم المصلحة، وليس العكس، وهذا من أصول الاعتصام بالكتاب والسنة أن المصالح تبع للنصوص؛ لأن النصوص من الله ﷻ ومن رسوله ﷺ، ولا أحد أعلم بالله وبخلقه من الله ﷻ، فهو سبحانه وتعالى العليم بالناس وبأدواء النفوس.

إذا تبين لك ذلك، فتاريخ الأمة الطويل حصل فيه افتراق في أبواب كثيرة من أبواب الاعتقاد، وهذا الافتراق في كل مسألة من مسائله ارجع به إلى ترك نص من النصوص؛ لأن العقيدة والتوحيد لايجوز أن يظن ظان أنه

تركت هذه الأمة من غير بيان في العقيدة والتوحيد، بل هذا أصل الأصول، هذا العلم بالله ﷻ، وهو أعظم العلوم وأنفعها، هو العلم بكتاب الله ﷻ وما جاء فيه من وصف الله ﷻ، وذكر الأحكام الشرعية وأمور الغيب. . . إلى آخره.

ولهذا ابن القيم ذكر أنفع أنواع العلوم، فقال رحمه الله في نونيته، في أبياته المشهورة التي يحفظها العلماء، ويرددونها، قال:

وَالجَهـلُ دَاءٌ قَـاتِـلٌ وَشِـفَـاؤُهُ   أمـرَانِ فِي التَّـركِـيـبِ مُـتَّـفِـقَـانِ

نَـصٌّ مِـنَ الـقُـرآنِ أو مِـن سُـنَّـةٍ   وَطَـبِـيـبُ ذَاكَ الـعَـالِمُ الـرَّبَّـانِـي[1]

يعني: ما يأتي أحد يأخذ من الكتاب والسنة بلا عالم؛ كمن يذهب إلى الصيدلية، ويقول: أنا والله مريض بمرض كذا، أعطني الدواء هذا اللون، وأعطني هذا، وأعطني هذا، هو لا يصلح إلا لعالم؛ كما قال ابن القيم هنا: وشفاؤه أمران في التركيب متفقان.

وَالجَهـلُ دَاءٌ قَـاتِـلٌ وَشِـفَـاؤُهُ   أمـرَانِ فِي التَّـركِـيـبِ مُـتَّـفِـقَـانِ

نَـصٌّ مِـنَ الـقُـرآنِ أو مِـن سُـنَّـةٍ   وَطَـبِـيـبُ ذَاكَ الـعَـالِمُ الـرَّبَّـانِـي

وَالـعِـلـمُ أقـسَـامٌ ثَـلاَثٌ مَـا لَـهَـا   مِـن رَابِـعٍ وَالحَقُّ ذُو تِـبـيَـانِ

عِـلـمٌ بِـأوصَـافِ الإلَـهِ وَفِـعـلِـهِ   وَكَـذَلِـكَ الأسـمَـاءُ لِـلـرَّحـمَـنِ

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

وَالأمرُ وَالنَّهيُ الذِي هُوَ دِينُهُ وَجَزَاؤهُ يَومَ المَعَادِ الثَّانِي

وَالكُلُّ فِي القُرآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي جَاءَت عَنِ المَبعُوثِ بالفُرقَان

وَاللهِ مَا قَالَ امرُؤٌ مُتَحَذلِقٌ بِسِوَاهُمَا إلا مِنَ الهَذَيَانِ

وهذا حق؛ لأن حصول أي اختلاف، وحصول أي ضلال سببه ترك الاعتصام بالكتاب والسنة، ترك الالتجاء إلى النصوص من الكتاب والسنة، فإذا جاءت مشكلة، إذا جاءت معضلة، إذا اختلف الناس في شيء من ترك الاعتصام، أن يأتي كل واحد بفهمه، مع أن المسألة يكون فيها نص، يكون فيها سنة، يكون فيها حديث عن النبي ﷺ، تكون فيها آية، وفيه تفسيرها الذي يبينها، فيأتي الناس بأهوائهم، ولا تظنن أنك إذا قدمت رأيًا قبل الرجوع إلى الكتاب والسنة أنه لا يؤثر؛ لأن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، بل الواجب أن تحبس لسانك عن الكلام إلا فيما تعلم أنه صواب؛ كما قال ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

تفرقت الأمة في توحيد الإلهية، يعني: في معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وجاء التفرق من جهة أعداء هذه الأمة من الباطنية والإسماعيلية والرافضة، فجاؤوا بظنهم أن التقرب إلى الله ﷻ بأرواح الصالحين أن هذا أمر سائغ، مع أن النصوص من الكتاب والسنة تنهى عن ذلك. قالوا: إن إرشاد الناس إلى التعلق بالأموات - التعلق بالقبور وبناء المشاهد عليها - هذا يقوي إيمانهم، يدلوهم على هؤلاء لتقوى صلتهم بالله، فعارضوا النص بعقل وقياس، والنبي ﷺ في مرضه الأخير في وصيته، التي لو كانت وصية

لأبي واحد منا لنفذها حرفيًا، فكيف برسول الله ﷺ؟! قال في مرض موته ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١).

فجاءت الأمة في افتراق عظيم، هذا الافتراق لم يزل ينمى بالأهواء، ويترك الاعتصام بالكتاب والسنة في مقابل الاستمساك بالعقول والآراء في هذه المسألة، وتساهل الناس في هذا الأمر حتى صار في القرون المتأخرة قد شاع في كثير من بلاد المسلمين - كما هو ظاهر لكم -، وتعلق الجهال، وجني على كثير من جهال المسلمين بمثل هذه الأمور.

الاعتصام بالكتاب والسنة - كما ذكرت لك - يأتي معك في كل أمر من أمور الدين، إذًا: التفرق الذي حصل هو بسبب ترك الاعتصام، فإذا أردت أن تجعل نصوص الاعتصام بالكتاب والسنة دليلًا على رد قول الخرافيين بعامة، فهذا واضح على رد قول نفاة الصفات والمعتزلة وأشباههم، فهذا صحيح، إذا أردت أن تستدل بنصوص الكتاب والسنة في الرد على من قدم العقل على النص، فكل هذا داخل في الاعتصام بالكتاب والسنة.

فإذًا: كل شبهة في الدين طرأت عليه، وجاء بها إبليس ومن تبعه، فهذا راجع إلى القدح في الكتاب، والقدح في الاستدلال بسنة النبي ﷺ.

نأخذ مسارًا آخر في ذلك، وهو مسار الاجتماع، وهو النوع الثاني من أنواع التفرق، الاجتماع أمر الله ﷻ به في كتابه، وأمر به النبي ﷺ في سنته في أحاديث كثيرة، فقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه المشهور، الذي في السنن: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا**،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٠).

فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، وقال ﷺ في التشديد في البيعة والأمر بالطاعة لولي الأمر المسلم الذي بايعه أهل الحل والعقد من المؤمنين، قال في التشديد على ذلك: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[2]، وقال: «**إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ**»[3].

إذًا: فالأمر بالاجتماع نهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق معناه: الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، فالذي يدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، ولا يدرك أن كل ما حصل فيه الافتراق في الأمة راجع إلى عدم الاعتصام بالكتاب والسنة، فهذا لم يفهم معنى الاعتصام بالكتاب والسنة؛ فأي افتراق حدث عن طريقة الصحابة وعن ما قرره أئمة أهل السنة والجماعة في كتبهم، فإن سبب ذلك راجع إلى عدم الاعتصام بالكتاب والسنة.

فلهذا نقول: كل مسألة يجب أن يستدل عليها أولًا بنصوص الاجتماع ونصوص الاعتصام بالكتاب والسنة؛ لأنه ما من مسألة إلا وإرجاعها إلى دليل من الكتاب والسنة. والله ﷻ بين أن خصلة المنافقين أنهم إذا دُعوا إلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥١).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٢).

الله ورسوله ليحكم بينهم، تولوا: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء: ٦٥]، أي: في الأمور الاجتهادية، في الأمور العملية وفي أمور الاعتقادات لابد من تحكيم الكتاب والسنة.

إذا تبين لك ذلك، وظهرت لك العلاقة ما بين الاجتماع والافتراق والاعتصام بالكتاب والسنة، ننتقل إلى مسألة أخرى متعلقة بهذا العصر الذي نعيش فيه، وهي حصول افتراق جديد لم يعهد مثله في الأزمنة الماضية، ألا وهو ترك تحكيم شريعة الله ﷻ في الحكم والتحاكم والفصل بين المتخاصمين وتطبيقها في جميع مناحي الحياة.

لاشك أن هذا نوع من التفرق عن دين الله، ومما يدخل في قول الله ﷻ: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤].

فما ترى من الافتراق بين هذه الأمم والدول... إلى آخره، وعدم الاجتماع والائتلاف تُدخله ضمن أنهم فرقوا دينهم، ولم يقبلوا شريعة الله كاملة، فعاقبهم الله ﷻ بالتفرق والاختلاف، حتى لا يكاد الناس يجتمعون على قول، لو تجتمع مع عشرة من بلاد مختلفة، وجدت أن لكل واحد منهم رأيًا مختلفًا، وهذا لأجل الأهواء وعدم الرجوع إلى الكتاب والسنة.

هذه المسألة العظيمة نوع من التفرق الحادث الجديد، ولاشك أن الواجب على الناس والواجب على العباد أن يعتصموا بالقرآن وبالسنة، وأن يحكموا شرع الله ﷻ في الأمور الكبيرة وفي الأمور الصغيرة؛ لأن

الله ﷻ أمر عباده بذلك، فقال لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩]، وقال ﷻ لنبيه - أيضًا -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال -أيضًا- ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، والآيات في هذا ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

فإذًا: هذه المسألة من المسائل الحادثة التي يجب تنبيه الناس إليها، وكل واحد ينبه إليها؛ حتى لا تستقر في النفوس، وأنها شيء لا إشكال فيه - كما يُروج له -، بل الواجب على العباد جميعًا أن يتواصوا بالحق، وأن يتواصوا بالصبر، وأن يبينوا أن معنى الشهادتين راجع إلى تحقيق التوحيد (توحيد العبادة)، وإلى الحكم بشرع الله ﷻ، وأن الأمة إذا أرادت أن تجتمع في أبدانها وأن تجتمع على أعدائها، فلتبدأ بالاجتماع في دين الله ﷻ؛ لأن هذا هو الأساس. وأنتم ترون في بلاد مختلفة أقاموا في بعض البلاد الجهاد، وصار وصار، لما لم يجتمعوا في الأصل على الكتاب والسنة، لم يجتمعوا على منهج واحد يقاتلون عليه، ويجاهدون عليه، حصل لهم ما حصل، والواجب أن يجتمع الناس على نهج واحد واضح واعتصام بالكتاب والسنة، ثم بعد ذلك تأتي القضايا الأخرى.

فإنما يقوم بالجهاد من كان صفه واحدًا، أما إذا كانت الصفوف مختلفة، فكيف يقام بجهاد؟ لا شك أنه سيحصل فرقة، وسيحصل خلاف. والشيطان يَنْزِغ أو يَنْزَغ بين العباد.

هذه المسألة منهج سلفي واضح بين، وهي أن كل مسألة يدعى إليها، فيجب أن يرجع فيها إلى الكتاب والسنة، في الأمور العامة للناس جميعًا وفي الأمور الخاصة، في أمور الدول، وفي أمور الجماعات العاملة في الإسلام، وفي أمور الأفراد المتعاونين على الدعوة، لابد أن يُرجع إلى النص من الكتاب والسنة، وإلا فلا نكون فعلنا شيئًا، سوف تكون مجرد محاولات يعود أصحابها من حيث بدؤوا، والشواهد على ذلك كثيرة.

من هنا نصل إلى كلمة للدعاة إلى الله ﷻ، وهم الدعاة إلى الكتاب والسنة، يأتيهم في كل حال - سواء أكانوا مجتمعين أم كانوا أفرادًا - يأتيهم في أن الدعوة ميدان لمزلة الأقدام، والتفرق الحاصل بين الدعاة في بلاد كثيرة.

ذهبنا إلى أمريكا وإلى بعض البلاد في الشرق، وجدنا أن المسلمين في مسجد واحد لهم عدة آراء، ربما يصلي خمسة، كل واحد له جهة في تفكيره، حتى في الأمور الحادثة، ولا شك أن هذا شيء يؤسف.

إذا دخلت إلى مسجد من المساجد ويصلون فيه الفجر - مثلًا - سبعة ثمانية أو عشرة أو صف، ورأيت الخاصة منهم، وكل واحد له رأي، هذا ناتج مم؟ هل الكتاب والسنة فيهما اشتباه؟ ليس فيهما اشتباه، الاشتباه حاصل في المنهج، والاعتصام بالكتاب والسنة يوحد المنهج في الرؤية لما حولك من الأمور.

فما حولك من الأشياء المنهج في النظر إليها واحد؛ لأن من حولك إما أن يكونوا مسلمين، وحق المسلمين معروف في النصوص في الكتاب

والسنة، وإما أن يكونوا كفارًا، والكفار معروف حكمهم وكيف التعامل معهم في الكتاب والسنة، بتفصيل الكافر المحارب، والكافر المستأمن، والمعاهد. . . إلى آخره مما هو واضح في القرآن وفي سنة النبي ﷺ، كيف يعامل العاصي، موجود في النصوص كيف يعامل المبتدع، موجود في النصوص كيف يعمل الجاهل، موجود في النصوص. والذي يحصل من كثير ممن يريدون الخير أنهم لا يرجعون إلى الاعتصام بالكتاب والسنة في نهج الدعوة. والدعوة إذا لم ينهج فيها بالكتاب والسنة، فإن الأقوال والآراء ستختلف. وهل اختلاف الآراء والأقوال طبيعي؟ لا . . إنما جاء من جهة ترك نصيب مما ذُكر به العباد - كما ذكرنا لكم في أول المحاضرة - ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فإذًا الاعتصام بالكتاب والسنة يوصى به الخاصة، يوصى به الدعاة، يوصى به الشباب الذين يدعون إلى الله ﷻ، يوصى به المعلمون، يوصى به أهل البلاد في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، إذا رجعنا إلى شيء واحد ائتلفنا واجتمعنا، وكنا قوة على أعداء الإسلام، أما إذا اختلفنا، وجاء الشيطان لينزغ بيننا في أمور مختلفة، لا شك أن هذا سوف يكون تفرقًا في الدين وتفرقًا في الأبدان.

منهج الدعوة إلى الله ﷻ أعظم ما يحتاج فيه إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وذلك في مسائل:

* **المسألة الأولى**: مسألة ترتيب الأولويات في الدعوة. الدعاة رجعت كثير من اختلافاتهم إلى ما هي أولويات الدعوة؟ ما الذي ندعوا

الناس إليه أولًا؟ ما الذي يبث في الناس؟ الناس يجمعون على أي شيء؟ ما الهدف من وراء ذلك؟ وما وسائله؟ هذه قضية يختلف فيها الدعاة كثيرًا، ومن اختلافهم نشأ اختلاف في جماعات مختلفة في عدد من بلاد المسلمين. لم حصل الاختلاف؟ له تاريخه، ما سبب الاختلاف؟ عدم الاعتصام بالكتاب والسنة في ترتيب الأولويات - وهي المسألة الأولى -، عندنا الأدلة واضحة، كيف ترتب الأولويات في الدعوة؟ فهناك مقاصد وهناك وسائل، ولا شك أن المقاصد هذه إذا كانت شرعية، فالوسائل لها أحكام الغايات، والنبي ﷺ بين لنا كيف نرتب الدعوة في قوله ﷺ لمعاذ: **«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»** أهل الكتاب رُتب لهم هذا أولًا. والمسلم إذا جهل أو نسي أو غفل أو صارت له شبهة في معنى الشهادتين، في التوحيد وتحكيم شرع الله ﷻ لابد أن تكون هذه هي الأولوية الأولى؛ لأن معنى الشهادتين هو توحيد الله ﷻ في عبادته والحكم بما جاء به النبي ﷺ. **«فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. . .»**. الحديث[1].

فإذًا: الأولويات في الترتيب أن كل بلد تختلف عن البلد الأخرى فيما يُنشر فيها، فيما يدعى أهل البلد إليه. فهناك بلد يكون الغالب عليهم الجهل بالتوحيد، فهنا تكون الأولوية الدعوة إلى هذا، وتعليم الناس توحيد الله؛ حتى ينقذوا من النار.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

هناك بلد يكون عندهم وضوح في التوحيد، لكن عندهم تهاون في الشهوات، فهنا تكون من الأولويات أن تصد هذه الشهوات، وأن ينبه عليها، مع بقاء الدعوة إلى التوحيد بقدر ما ؛ حتى يثبت في القلوب، وهكذا . . . هذا مقصد. وسيلة هذا المقصد ما هي؟ وسيلة تحصيل هذه الدعوة ما هي؟ هل يجوز تأخير الناس في أمر الدعوة لهم على هذا الأصل وهو توحيد الله ﷻ وتحقيق الشهادتين إلى أن تقوم دولة في بلد ليس فيه دولة إسلام؟ فالدولة تنفذ هذه الأشياء في الناس. هذا طرح موجود في بعض الدعوات، يقولون: لابد أن ندعو للتوحيد أولًا، لكن متى؟ إذا قامت دولة الإسلام، هنا حصلت الوسيلة لإلزام الناس بذلك.

وهذا طرح غير صحيح لم؟ لأن الناس حتى يصلوا إلى الدولة في بلد ليس فيه دولة إسلام يموت آلاف، يموت عشرات الآلاف، يموت مئات الآلاف، إذا مات على الجهل بالتوحيد، إذا مات على غير عقيدة سليمة، فهو على خطر، إذا مات على الشرك، فمن يمت وهو مشرك، فهو من أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

لهذا من أخر الدعوة إلى توحيد الله وإنقاذ الناس من الجهل بحق الله ﷻ وبالتوحيد، ومن الوقوع في الشركيات، حتى تقوم الدولة، هذا لم يعتصم بالكتاب والسنة حقيقة في ترتيب أولويات الدعوة، وجنى على الناس؛ حيث جعل فئامًا كثيرين يموتون، وهم جهلة بهذا الأمر.

أصبح عند الناس في عقود من الزمان - كما هو في بعض البلاد - عندهم

فقه سياسي؛ لأنهم يقرؤون في المجلات يوميًا وأسبوعيًا وفي الجرائد يوميًا، وكتابات إسلامية وتحليلات إسلامية سياسية، إلى آخر ذلك، مر عقد، عقدان، ثلاثة، أربعة، خمسون سنة، ستون سنة، ما حصل؟الأفواج التي ماتت هذه أليست مسؤولية الداعي إلى الله ﷻ؟ لاشك أن من لم يدع الناس إلى ما يجعلهم من أهل الجنة برحمة الله ﷻ، ويقيهم عذاب النار، فقد خانهم؛ ولهذا كل من دعا إلى غير ما رتب النبي ﷺ الأولويات في حديث معاذ، فإنه لم يعتصم بالكتاب والسنة كما أمر الله ﷻ، بل فرق الدين، وجعل الوسائل مقدمة على الغايات.

الوسيلة وسيلة لتحقيق الغاية، لكن أن تنقلب الوسيلة غاية، ويموت مئات وآلاف وعشرات الآلاف وأمم وأجيال حتى ننتظر ما يُقال أنه إذا حصل، فإنه يُلزم الناس بشرع الله! هذا ليس إلا من أماني الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

* **المسألة الثانية**: من المسائل المتعلقة بالاعتصام بالكتاب والسنة في الدعوة: أن الداعية يجب عليه أن لا ينظر إلى المصالح التي تعارض ما دلت عليه الأدلة، فالدين مبني على فقه بالنصوص، والأمناء على الشريعة هم الفقهاء بالكتاب والسنة، والله ﷻ جعل لنا مثلين عظيمين ببعثة أول الرسل نوح عليه السلام، وببعثة خاتم الرسل محمد ﷺ. فنوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، والحصيلة: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] أكثر ما جاء في روايات المفسرين أنهم كانوا قريبًا من سبعين أو ثمانين ممن آمن معه، حصيلة ألف سنة إلا خمسين عامًا! تسعمائة وخمسين سنة في الدعوة إلى أصل واحد وبيان واحد.

والمثل الآخر: محمد ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى توحيد الله، وفي المدينة عشر سنين بعد ذلك، وفي خلال هذه الثلاث والعشرين سنة آمن معه إذ حج معه حجة الوداع أكثر من مائة ألف، في ثلاث وعشرين سنة.

ونوح عليه السلام - وهو أول الرسل ومن أولي العزم من الرسل، وهو أولهم - بذل كل مجال في الدعوة، لكن ما أذن الله ﷻ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: ٥-٧] لاحظ القصد من الدعوة: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٧ - ٩].

ألف سنة إلا خمسين عامًا هذا مثل، والمثل الآخر ثلاثة وعشرون عامًا الحصيلة مائة ألف.

فإذًا: في هذين المثلين يظهر لك أن الدعوة في اعتصام الداعي بالكتاب والسنة أن ينظر إلى دعوته، إلى أي شيء يدعو، أما هدى الناس، فليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء؛ لهذا من أصول أهل العلم أن الاغترار بالكثرة هذا من وسائل الشيطان. أن يغتر بالكثرة في مدح ما عليه الكثرة، قد تكون الكثرة على باطل، وقد تكون الكثرة على حق إذا كانوا على الكتاب والسنة، وقد تكون الكثرة على باطل.

الأمر الثاني: أن تحصيل الكثرة بدون تأسيس الدعوة إلى الكتاب والسنة بالاعتصام بهما، وبما جاء فيهما، وترتيب أولوياتها، هذا يجعل

الناس يذهبون إلى وسيلة، ويتركون الغاية.

وانظر في سورة يوسف عليه السلام، إذ قال الله عز وجل في آخرها، وهي سورة تسمى سورة الدعوة والداعية؛ لما اشتملت عليه من قصة دعوة يوسف عليه السلام، قال عز وجل في أخرها: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وهو نبي ﷺ، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾؛ لأن هذه حكمة الله عز وجل. والآية الثانية: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] في آخر سورة الدعوة والداعية في سورة يوسف عليه السلام قال فيها - لما نهى عن الاغترار بالكثرة -، قال عز وجل: ﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمد، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف:١٠٨]، يعني: المذكورة في السورة، فسبيل محمد ﷺ في الدعوة هي سبيل الأنبياء والمرسلين جميعًا، خذها من سورة يوسف عليه السلام؛ كما قال عز وجل في أثناء السورة: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، هذه هي الدعوة، دعا إليها يوسف في السجن، ودعا إليها لما قابل الملك، ودعا إليها لما أتى إخوته، وهكذا. . . ، حتى دعا الله عز وجل بالدعاء الأخير ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ﴾ يعني المذكور في السورة ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة هي الاعتصام بالكتاب والسنة، فمن كان فقيهًا بالكتاب والسنة، فهو على بصيرة من دعوته ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

وفي السورة نفسها بعد هذه الآية قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ

﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]؛ لأن الداعي إلى الله ﷻ يرغب ويميل، بل ويسأل الله ﷻ أن يأتي نصره الذي وعد بظهور الحق على الباطل، وظهور التوحيد على الشرك، وظهور الشريعة على غيرها، يرغب إذ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، ثم قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ [يوسف: ١١١].

نأخذ من ذلك أن الداعية إلى الله ﷻ، في أموره، يجب عليه أن يعتصم بالكتاب والسنة، قبل الناس ما قبلوا، لا يستعجل، لا يترك الصبر والاستمساك بالكتاب والسنة لأجل عدم قبول الناس، الناس يستخفون؛ لأن أكثر الناس لا يُوقنون، والله ﷻ نهى نبيه - وهو المصطفى ﷺ - بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] الذين لا يوقنون يستخفون: لو عملت كذا، صار أحسن، ولو عملت كذا، صار أحسن، وصار أحسن من انتشار، وهي أوهام. هنا ننظر إذا كان أحسن مع تأييد الكتاب والسنة، فهذا مبارك، إذا كان أحسن مظنونًا، وهو مضاد للكتاب والسنة، فليس ثم قبول له.

* **المسألة الثالثة في هذا الأمر**: أن الاعتصام بالكتاب والسنة يأتي معك في أنواع التعامل - كما ذكرت لك -؛ ولهذا يجب علينا أن نضع منهجًا واضحًا في أنواع التعامل، وكنت ألقيت كلمة، في محاضرة عن أنواع التعامل المختلفة، وقسمت الخلق إلى عشرة أقسام، كل قسم منها - ابتداء من نفسك - له نصوص تحكم التعامل معه، فإذا تعاملت في موضع بما لم يكن الفقه الصحيح أن تتعامل فيه بهذه الطريقة، فربما أفسدت

وصددت عن دين الله وأنت لا تشعر؛ لهذا من حمل على نفسه، وألزمها الصبر والالتزام بالكتاب والسنة، فإنه هدي إلى صراط مستقيم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، لابد أن تفقه، تارة يأتي الشيطان للإنسان، ويجعله يغلب جانبًا مأمورًا به في الجملة على جهة أخرى مأمور بها -أيضًا- في الجملة، لكن في غير هذا الموضع، فمثلًا يأتيه بعزة المسلم، فيأتي يعامل الكافر بغير المعاملة الشرعية، يظن أن العزة هنا، أو البراء في هذا الموطن سائغ، ويكون مخطئًا، والكفار - كما هو معلوم - في ديار الإسلام على قسمين: كفار معاهدون، وكفار مستأمنون. والكافر الذي يكون خارجًا حربيًا، أو من الرسل التي تأتي للملوك، ونحو ذلك، فالكافر المظهر للعداوة، هذا له حكم، الكافر العادي الذي لم يظهر العداوة للإسلام وأهله، وإنما أتى لطلب الرزق، أو يريد أن يعيش ونحو ذلك، هذا له حكم، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: «**كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ**: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

كان ﷺ يتعاهد جيرانه، حتى جيرانه من غير المسلمين بأنه إذا طبخ لحمًا فيه مرقة، أرسل إلى جيرانه.

قد يأتي الشيطان، ويقول في هذا الموطن: أظهر عزتك، اغضب، انه عن المنكر، ويكون الموطن ليس موطن نهي عن المنكر، وإنما هو موطن

---

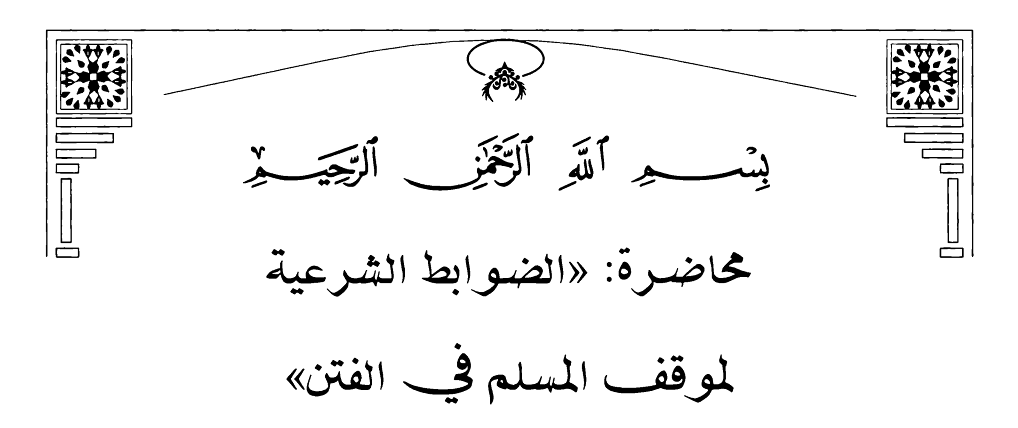
(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

دعوة، فيغلط من جهة جهله بما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

أوصيكم بالفقه، الفقه في الشريعة، الفقه في الكتاب والسنة؛ لأنه بالفقه يحصل الاعتصام، الاعتصام بالكتاب والسنة، اعتصام إجمالي، بما تقر به وتعتقد، وهناك اعتصام تفصيلي، وهذا لا يكون إلا بالعلم، ولذلك أحرى الناس بالكتاب والسنة أهل العلم بالكتاب والسنة.

في الختام أسأل الله ﷻ، أن يجعلني وإياكم من المؤمنين حقًا، وممن اعتصموا بكتاب الله ﷻ وبسنة رسوله ﷺ، وكما ذكرت لكم في بداية المحاضرة أن كل مسألة من مسائل الشبهات، أو من مسائل الشهوات يمكن أن تدرج ضمن هذا الموضوع (الاعتصام بالكتاب والسنة)، كل نصوص اتباع الرسل واتباع محمد ﷺ في القرآن تأتي في هذا الباب، ولا شك أن هذا يطول تفصيله، فأسأل الله أن يعفو عني وعنكم، وأن يجعل عاقبتنا إلى خير، وأن يرحمنا ويرحم آباءنا وأمهاتنا، وأن يرفع درجاتهم في الجنة، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد.





محاضرة: «الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن»

الحمد لله الذي قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: ٦٧ - ٦٩]، والحمد لله الذي قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٧]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من خالطت كلمة التوحيد قلبه وفؤاده، فعلم منها ما يحب الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، هو البشير النذير، بشر وأنذر، وقال وعلَّم، فطوبى لمن أخذ بسنته، واقتفى أثره، واهتدى بهداه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الإخوان، تعوذوا بالله ﷻ من الفتن، تعوذوا بالله ﷻ من الفتن التي تحرق الدين، وتحرق العقل، وتحرق البدن، وتحرق كل خير، تعوذوا بالله منها؛ فإنه لا خير في فتنة أبدًا، فإن النبي ﷺ كان يتعوذ بالله كثيرًا من

الفتن، وكان ﷺ يحذر من الفتن؛ ولهذا لما ذكر البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه) كتاب الفتن، ابتدأه بقوله: باب قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وما كان رسول الله ﷺ يحذر من الفتن؛ وذلك أيها الإخوان أن الفتن إذا أتت، فإنها لا تصيب الظالم وحده، وإنما تصيب الجميع، ولا تبقي إذا أتت لا تبقي لقائل مقالًا، وإنما يجب علينا أن نحذرها قبل وقوعها، وأن نباعد أنفسنا بعدًا شديدًا عن كل ما يقرب إلى فتنة أو يدني منها، فإن من علامات آخر الزمان كثرة الفتن؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ**» قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ**»[1]؛ وذلك أيها الإخوان لأن الفتن إذا ظهرت، فإنه سيكون معها من الفساد ما يكون لقيام الساعة، وذلك -أيضًا- من رحمة نبينا ﷺ بنا أن حذرنا من الفتن كلها، والله ﷻ قد حذرنا بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: هذه الآية وإن كان المخاطب بها هم صحابة رسول الله ﷺ، لكنها عامة لكل مسلم؛ لأن النبي ﷺ كان يحذر من الفتن[2]، قال الألوسي - أيضًا - في تفسيره لهذا الآية، قال: فُسرت الفتنة في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] فُسرت بأشياء، منها المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها التفرق والاختلاف، ومنها ترك الإنكار على البدع

---

(١) أخرجه البخاري (٨٥، ١٠٣٦، ٦٩٣٥)، ومسلم (١٥٧)، واللفظ له.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٠).

إذا ظهرت، ومنها أشياء غير ذلك[١]، قالوا: ولكل معنى بحسب ما يقتضيه الحال[٢]، يعني: أنه إذا كان الزمان زمان تفرق واختلاف، فليحذر بعضنا بعضًا بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] أي: اتقوا تفرقًا واختلافًا لا يصيب مآله ولا تصيب نتيجته الذين ظلموا منكم خاصة، وإنما يصيب الجميع، ولا يخص ذلك الأثر للتفرق والاختلاف مثلًا، لايخص الظالم وحده، ولهذا فإننا في هذا المقام أحببنا أن نذكِّر بهذا الأمر؛ لأننا نرى صحوة إسلامية راشدة بإذن الله في هذه البلاد، التي هي القائمة بشأن التوحيد، والقائمة بدعوة التوحيد في هذا الزمان، الذي لا نرى فيه قائمًا بدعوة التوحيد إلا ما شاء الله ﷻ، فكان لزامًا أن نذكر هؤلاء، وأن نذكر أنفسنا جميعًا بلزوم الاعتناء بالعلم النافع، بلزوم الاعتناء بعقيدة السلف الصالح، بلزوم الاعتناء بعقيدة أهل السنة والجماعة، فإن هذه الصحوة المباركة، الصحوة التي نرجو منها أن تنشر دين الله، وأن تحبب الشريعة والاستقامة للناس، نرجو منها - كما هي عليه - أن تكون ثابتة على العلم النافع؛ لأن شبابنا اليوم يحرصون كثيرًا على العلم النافع، يحرصون كثيرًا على كلام أهل السنة والجماعة، ولهذا أجد لزامًا عليّ أن أنقل لهم، وأذكرهم، وأبين لهم ما أعلمه من كلام أئمتنا، ومن كلام أهل السنة والجماعة، الذي بنوه على مقال المصطفى ﷺ، بل وعلى كلام المولى ﷻ، فإن الفتن إذا لم يُرع حالها، ولم ينظر إلى نتائجها، فإنه سيكون الحال حال سوء في المستقبل، إن لم يكن عند أهل العلم من البصر

(١) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (٩/ ١٩٢).
(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٤١).

النافذ والرؤية الحقة ما يجعلهم يتعاملون مع ما يستجد من الأحوال أو يظهر من الفتن، على وفق ما أراد الله ﷻ، وأراده رسوله ﷺ، فإن الضوابط والقواعد لابد أن تُرعى؛ فإن الضوابط بها يعصم المرء نفسه من الوقوع في الغلط، فالضوابط الشرعية والقواعد المرعية إذا أخذنا بها، ولزمناها، واقتفينا أثرها، فإنه عند ذلك سيحصل لنا من الخير ما لا نندم بعده أبدًا بإذن الله ﷻ.

فمثلًا الضابط في كل أمر لابد من معرفته؛ حتى يتسنى لك أيها المسلم، يتسنى لك أن تعصم نفسك من أن تنساق أو تسوق نفسك إلى ما لم تعلم عاقبته الحميدة، أو ما لم تعلم ما يؤول به ذلك الأمر من مصلحة أو مفسدة، فبهذا نعلم أنه لابد من رعاية الضوابط ورعاية القواعد التي بينها أهل السنة والجماعة، فالضابط ما تعريفه؟ الضابط في المسألة: هو ما به نعرف ما تُحكم به مسائل الباب الواحد، وترجع إليه مسائل الباب الواحد، وأما القاعدة، فهي أمر كلي ترجع إليها المسائل في أبواب مختلفة، ولهذا كان لزامًا علينا أن نأخذ بتلك الضوابط والقواعد التي كان عليها أهل السنة والجماعة، فالنبي ﷺ قال: **«أُوصِيكُم بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١)، نعم، وقد رأى الصحابة بعده ﷺ، الاختلاف، وما نجوا إلا بما تمسكوا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).

به من القواعد الواضحة التي كان عليها المصطفى ﷺ، وكان عليها الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ.

للأخذ بتلك الضوابط وتلك القواعد فوائد متعددة، فأول تلك الفوائد: أن رعاية تلك الضوابط ورعاية القواعد تعصم تصور المسلم من أن يقع تصوره فيما لا يقره الشرع، تعصم ذلك التصور وتضبط عقل المسلم في تصوراته، ومعلوم أن تصور المسلم إذا تصور مسألة ما دون ضابط ودون قاعدة يرجع إليها، فإنه سيذهب عقله إلى أنحاء شتى في تصرفاته في نفسه، أو في أسرته، أو في مجتمعه، أو في أمته، فعند ذلك نعلم أهمية رعاية تلك الضوابط وتلك القواعد؛ لأنها تضبط عقل المسلم في تصوراته التي ينشأ عنها تصرفه في نفسه أو في أسرته أو في مجتمعه، ثم إن لرعاية تلك الضوابط والقواعد فائدة أخرى ألا وهي أنها تعصم المسلم من الخطأ؛ لأنه إذا سار وراء رأيه فيما يجد أو في الفتن إذا ظهرت وحللها بعقله، ونظر فيها بنفسه دون رعاية لضوابط وقواعد أهل السنة والجماعة، فإنه لا يأمن أن يقع في الخطأ، والخطأ إذا وقع فيه، فإن عاقبته ليست بالحميدة؛ لأنه يتدرج ويتفرع، وربما زاد وزاد، فللضابط وللقاعدة إذا التزمنا بها فائدة أيما فائدة، وذلك أنها تعصم من الخطأ، لماذا؟ لأن تلك الضوابط وتلك القواعد من الذي قعدها؟ ومن الذي ضبطنا بها؟ هم أهل السنة والجماعة، وفق ما جاء في الأدلة ورعاية تلك الأدلة، ومن سار خلف الدليل، وسار خلف أهل السنة والجماعة، فإنه لن يندم بعد ذلك أبدًا.

ومن الفوائد للقفو خلف تلك الضوابط، والقواعد: أنها تسلم المسلم من الإثم؛ لأنه إذا سار وفق رأيه، أو سرت وفق رأيك وما تظنه صوابًا، دون

الرعاية لتلك الضوابط والقواعد، فإنك لا تأمن الإثم؛ لأنك لا تعلم ما سيكون عليه مستقبل الحال في مقالك أو فعلك، إذا سرت وراء رأيك أو سرت وفق ما رأيته صوابًا، وأما إذا أخذت بما دل عليه الدليل من الضوابط والأصول العامة، فإنك ستنجو - بإذن الله ﷻ - من الإثم والله ﷻ سيعذرك؛ لأنك سرت وفق الدليل، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

ولهذا أيها الإخوان يتبين لنا بتلك الأمور الثلاثة ضرورة الأخذ بتلك الضوابط والقواعد التي سيأتي بيانها، هذه الضوابط والقواعد التي سنبينها مأخذها ودليلها أحد شيئين:

الأول: التنصيص على تلك القاعدة أو ذلك الضابط في الأدلة الشرعية، إما في القرآن، أو في السنة، وأخذ أهل السنة والجماعة بما دلت عليه تلك الأدلة التي في القرآن، أو في سنة المصطفى العدنان ﷺ.

الأمر الثاني: أن يكون مأخذها من السنة العملية المرعية التي عمل بها صحابة رسول الله ﷺ، فصحابة رسول الله ﷺ والتابعون بعدهم وأئمة أهل السنة والجماعة كان لهم سيرة عملية في الفتن إذا ظهرت، وفي الأحوال إذا تغيرت، رعوها، وأخذوا بالأدلة، وطبقوها، ورعوها عمليًا؛ لهذا لم يزغ بصرنا، ولم تزغ عقولنا إذا أخذنا بما عملوا به، وبما أخذوا به من الأدلة، وبما ساروا فيه بالسيرة العملية.

وهذا أيها الإخوان من رحمة الله ﷻ بنا أنه لم يتركنا دون قدوة نقتدي بها، فعلماء أهل السنة والجماعة هم الذين يُرجع إليهم في فهمهم، وفي رأيهم، وفي كلامهم؛ لأنهم علموا من الشرع، وعلموا من قواعده الكلية

ومن ضوابطه المرعية ما يعصم من الخطأ، وما يعصم من الانفلات، ولهذا يتبين لك وجوب الأخذ بهذه الضوابط والقواعد التي سأذكرها لك الآن، ويتبين لك أيضًا فائدة الأخذ بها، ولزوم الأخذ بها، والمصلحة المترتبة لك في نفسك وفي مجتمعك إذا أخذت بها، وإذا راعيتها، ومن سار خلف مهتد ووفق ما دلت عليه الأدلة، فطوبى له في سيره، وطوبى له في هداه، فإنه لن يندم بعد ذلك أبدًا.

الضابط الأول: من تلك الضوابط والقواعد أمر مهم، وهو: أنه إذا ظهرت الفتن أو تغيرت الأحوال، فعليك بالرفق والتأني والحلم، ولا تعجل، هذه قاعدة مهمة: عليك بالرفق، وعليك بالتأني، وعليك بالحلم، ثلاثة أمور:

أما الأمر الأول، وهو الرفق، فإن النبي ﷺ قال فيما ثبت عنه في (الصحيح): «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»[1]، قال أهل العلم: قوله: «**لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ**» كلمة (شيء) نكرة أتت في سياق النفي، وعلم الأصول يقضي بأنها تعم جميع الأشياء[2]، يعني: أن الرفق محمود في الأمر كله، وهذا قد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[3]، قاله ﷺ لعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، وبوب عليه البخاري

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) انظر: روضة الناظر (٢/ ١٣٢)، وبدائع الفوائد (٤/ ٢، ٣)، ومذكرة الشنقيطي (٢٠٤ - ٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٧).

في (الصحيح) قال: الرفق في الأمر كله[١].

في كل أمر عليك بالرفق وعليك بالتؤدة، ولا تكن غضوبًا غير مترفق، فإن الرفق لن تندم بعده أبدًا، ولم يكن الرفق في شيء إلا وزانه، في الأفكار، وفي المواقف، وفيما يجد، وفيما تريد أن تحكم عليه، وفيما تريد أن تتخذه، عليك بالرفق، ولا تعجل، لا تكن مع المتعجلين إذا تعجلوا، ولا مع المتسرعين إذا تسرعوا، وإنما عليك بالرفق امتثالًا لقول نبيك المصطفى ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ**»، فخذ بالزين، فخذ بالأمر المزين، وخذ بالأمر الحسن، وإياك ثم إياك من الأمر المشين، وهو أن يُنزع من قولك أو فعلك الترفق في الأمر كله، ثم عليك بالتأني، يقول المصطفى ﷺ لأشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»[٢]، أما التأني، فإنه محمود، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١]، قال أهل العلم: هذا فيه ذم للإنسان؛ حيث كان عجولًا[٣]، لأن هذه الخصلة من كانت فيه كان مذمومًا بها، ولهذا كان النبي ﷺ غير متعجل، كان رفيقًا يحب الرفق، والله ﷻ رفيق يحب الرفق في الأمر كله؛ كما ثبت أنه ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[٤].

---

(١) انظر: البخاري (٨/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧)، وزاد المسير (٥/ ١٣)، والقرطبي (١٠/ ٢٢٦)، وابن كثير (١/ ٧٦، ٣/ ٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

ثم الخصلة الثالثة: الحلم، والحلم في الفتن وعند تقلب الأحوال محمود أيما حمد! ومثنى عليه أيما ثناء! لأن بالحلم يمكن رؤية الأشياء على حقيقتها، ويمكن بالحلم أن نبصر الأمور على ما هي عليه؛ ولهذا ثبت في (صحيح مسلم) **قال اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُلَيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ**[١].

قال أهل العلم: هذا الكلام من عمرو بن العاص لا يريد به أن يثني به على الروم والنصارى الكفرة، لا، ولكن ليبين للمسلمين أن بقاء الروم وكونهم أكثر الناس إلى أن تقوم الساعة؛ لأنهم عند حدوث الفتن هم أحلم الناس، ففيهم من الحلم ما يجعلهم ينظرون إلى الأمور ويعالجونها من أجل أن لا تذهب أنفسهم، ويذهب أصحابها، وتذهب رعاياهم، هذا قاله السنوسي والأبي في شرحهما على (صحيح مسلم) وهذا تنبيه لطيف؛ لأن النبي ﷺ بيَّن أنه لن تقوم الساعة حتى تكون الروم أكثر الناس، لماذا؟ قال عمرو بن العاص؛ لأن فيهم خصالًا أربعًا، الأولى - وهي التي تهمنا من تلك الخصال -: أنهم أحلم الناس عند فتنة، يعني: إذا ظهر تغير الحال،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

وظهرت الفتن، فإنهم يحلمون، ولا يعجلون؛ ليقوا أصحابهم ومن تحتهم القتل، ويقوهم الفتن؛ لأنهم يعلمون أن الفتنة إذا ظهرت، فإنها ستأتي عليهم جميعًا، فلأجل تلك الخصلة فيهم بقوا أكثر الناس إلى قيام الساعة، ولهذا فإننا نعجب أن لا نأخذ بتلك الخصلة التي حمد بها عمرو بن العاص الروم، وكانت فيهم تلك الخصلة الحميدة، ونحن أولى بكل خير عند من هم سوانا، الحلم محمود في الأمر كله، ولهذا فإنه يُبصر عقل العاقل في الفتنة بحلمه وأناته ورفقه، فيدل على تعقله وعلى بصره، هذا هو الضابط الأول، وهذه هي القاعدة الأولى التي رعاها أهل السنة والجماعة عند ظهور الفتن، وعند تقلب الأحوال.

الضابط الثاني من تلك الضوابط والقواعد - وهذه القواعد والضوابط بعضها ضابط، وبعضها قاعدة، دمجتها لأجل اشتراك البعض مع البعض الآخر في المعنى -: أنه إذا برزت الفتن، وتغيرت الأحوال، فلا تحكم على شيء من تلك الفتن أو من تغير الحال إلا بعد تصوره رعاية للقاعدة: الحكم على الشيء فرع عن تصوره. وهذه القاعدة رعاها العقلاء جميعًا قبل الإسلام وبعد الإسلام، ودليلها الشرعي عندنا في كتاب الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، أي: أن الأمر الذي لا تعلمه، ولاتتصوره، ولا تكون على بينة منه، فإياك أن تتكلم فيه، أو أن تكون فيه قائدًا، أو أن تكون فيه متكلمًا، أو أن تكون فيه حكمًا، الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وهذه القاعدة أنتم تستعملونها في أموركم العادية، وفي أحوالكم المختلفة، العقل لابد له من رعاية تلك القاعدة، ولا يصلح تصرف ما إلا بمراعاة تلك القاعدة؛ لأنه إن لم يرعَ تلك

القاعدة، فإنه سيخطئ ولا شك، والشرع قررها أيما تقرير، وبين تلك القاعدة أيما بيان، ومن ذلك أضرب أمثلة لكي تتضح تلك القاعدة، فمثلًا: لو سألت واحدًا منكم، وقلت: ما حكم الإسلام في بيع المرابحة؟ قد يأتي، ويقول قائل: الربح مطلوب، الربح لا شيء فيه في الشرع، فلا بأس في بيع المرابحة، فيكون حكمه على هذه المسألة غلطًا صرفًا؛ لأنه لم يتصور المراد بقول القائل: ما حكم الإسلام في بيع المرابحة؟ وظن أن معنى المرابحة هو الربح في البيع، ولأجل تصوره الذي غلط فيه أخطأ في الحكم الشرعي، والحكم الشرعي لابد أن يُبنى على تصور صحيح، والمرابحة نوع من البيع الذي لا يجوز، تستعمله بعض البنوك الإسلامية وغير الإسلامية تحايلًا على الربا، وصورته أنه مبني على توكيل للغير، وبعد التوكيل يكون هناك إلزام بالوفاء بالوعد، فالوعد الذي وعده الموكل لوكيله هو ملزم بالوفاء فيه، وهذا لا يجوز في الشرع، فكان بيع المرابحة غير جائز.

مثال آخر يبين لك هذه القاعدة (الحكم على الشيء فرع عن تصوره): لو سألت واحدًا منكم: ما حكمنا على جماعة شهود يهوه؟ ماذا سيقول أحدكم؟ إذا كان مطلعًا، فسيقول: هذه جماعة كيت وكيت، وحكم الإسلام فيها كذا وكذا، وقد يكون قائل يقول: لا أعلم هذه الجماعة، جماعة شهود يهوه، ولم أسمع بها قبل، ولهذا لا تستطيع أن تحكم عليها، ولا أن تبين حكمًا شرعيًا فيها؛ لأنك لم تتصور هذه الجماعة ما هي، وما هي مبادئها، وهل هي إسلامية أو نصرانية أو يهودية؟ فلن تحكم عليها إلا بعد تصورها.

إذا تبين لك ذلك، فإن الحاكم أو المفتي أو المتكلم في المسائل الشرعية لا يجوز له أن يتكلم؛ رعاية لحقه لنفسه، ورعاية لخلاص نفسه من الإثم،

ثم رعاية لحق المسلمين جميعًا، وتبريًا على القول على الله بغير علم، إلا إذا حصل له أمران:

الأمر الأول: أن يتصور القضية المطروحة تمامًا، بحيث لا تلتبس عليه بقضية أخرى، ولا تشترك في تصوره وفهمه بمسألة أخرى؛ لأنه أحيانًا تشترك بعض المسائل، وتقترب صورة مسألة من صورة مسألة أخرى، فينتقل ذهنك إلى مسألة مشابهة، فعند ذلك تقع في الخطأ.

الأمر الثاني: أن تعلم حكم الله وحكم رسوله ﷺ في هذه المسألة بعينها، لا في المسألة التي تشابهها، وإذا ثبت ذلك، فها هنا سؤال مهم، يقول أحدكم: كيف يحدث لي هذا التصور؟ كيف أتصور هذه المسألة؟ وممن أتصورها؟ فإن المسائل مشتبهة ومتشابهة، وبعضها يشكل، وبعضها قد لا أجد من يبينه لي ويصوره لي التصوير الصحيح، فنقول: إن التصور الذي ينبني عليه الحكم الشرعي هو ما كان:

أولًا: من المستفتي، فإن المستفتي هو الواقع في المسألة، إذا سأل، وإذا شرح مسألته، حصل التصور، فالمفتي يبين له ذلك الحكم على وفق استفتائه.

ثانيًا: يمكن حدوث التصور، ويكون التصور بنقل العدول الثقات المسلمين الذين لا يشوب نقلهم شائبة تجعلهم يخطئون في النقل، من ثم نخطئ في الحكم على الشيء، لابد من نقل عدل ثقة في المسألة، فمثلًا عند ظهور الفتن واختلاف الأحوال لا يجوز أن نعتمد على كلام كافر مثلًا، ذكر تصوره، أو ذكر تحليله في إذاعة ما، أو ذكر تصوره وتحليله في مجلة ما، أو في تقرير ما، هذا لا يجوز شرعًا أن نبني عليه حكمًا شرعيًا، وإنما

الحكم الشرعي ينبني على نقل المسلم العدل الثقة، فأحاديث رسول الله ﷺ لا تُقبل ممن جاء بها إلا إذا كان الإسناد بنقل عدول ضابطين عن مثلهم إلى منتهاهم، إذا كان في الإسناد فاسق، فإنه قد انخرمت مروءته، فإذا كان في الإسناد من ليس بضابط، من يأتي بشيء ويخلطه مع شيء آخر، فإنه لا يُقبل، ولا ينبني على ذلك الحديث حكم شرعي؛ ولهذا فإنه لابد من رعاية هذه المسألة.

تلخص من هذا أن هذه القاعدة (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، وهذا التصور لا يمكن أن يكون مقبولًا في الشرع إلا إذا كان من مسلم عدل ثقة، أو كان من المستفتي نفسه، ولو كان فاسقًا.

الضابط الثالث من تلك الضوابط والقواعد: أن يلزم المسلم الإنصاف والعدل في أمره كله، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقد بُينت هذه المسألة بيانًا شافيًا، بُينت بيانًا كافيًا من أنه لابد من العدل في الأقوال، ولابد من العدل في الأحكام، وأن من لم يعدل في قوله أو يعدل في حكمه، فإنه لم يتبع الشرع اتباعًا يرجو معه النجاة، ما معنى العدل؟ وما معنى الإنصاف في هذه القاعدة؟ معناه: أنك تأتي بالأمور الحسنة وبالأمور السيئة، تأتي بهذا الجانب الذي تحبه، وذلك الجانب الذي لا تحبه، ثم توازنه، وتعرض إليهما عرضًا واحدًا، وبعد ذلك تحكم؛ لأنه -وجزمًا- حصل من عرض الجانبين معًا ما يعصم المرء من أن ينسب إلى الشرع، أو ينسب إلى الله ﷻ، أو إلى سنة من سننه الكونية ما ليس موافقًا لما أمر الله ﷻ به، فلابد من عرض الحسن والقبيح على

الذهن؛ حتى تصل إلى نتيجة شرعية، وحتى يكون تصورك ويكون قولك أو فهمك أو رأيك في الفتنة منجيًا - إن شاء الله تعالى -.

وهذه مسألة مهمة وقاعدة لابد من رعايتها؛ لأن من لم يرعَ هذه القاعدة، دخل الهوى إلى قلبه من مصراعيه، ولم يأمن أن يفتح باب الهوى على غيره، ومن ثم يكون داخلًا في قول النبي ﷺ: «**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[1]، وتكون المصيبة أعظم إذا كان هذا الفعل ممن ينتسب إلى العلم والهدى؛ لأنه يقتدي بفعله الجاهل، ويقتدي بفعله نصف المتعلم.

إذًا: لابد من أن نرعى هذه القاعدة في أمرنا كله، ومن سلم من الهوى، فإن الله ﷻ ينجيه في الآخرة والأولى.

الضابط الرابع: من تلك الضوابط والقواعد: ما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وبين النبي ﷺ هذه الآية، فقال: «**عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ**»[2]، وثبت أيضًا في الحديث الذي رواه عبد الله بن أحمد في زوائد مسند أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[3]، الفرقة بجميع أنواعها - في الأفكار، أو في الأقوال، أو في الأعمال - عذاب يعذب الله ﷻ به من خالف أمره،

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٠)، والقضاعي (١/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٥).

وذهب إلى غير هداه، لهذا من لزم جماعة أهل السنة والجماعة، واقتدى بأئمتهم وعلمائهم، فإنه قدم إلى الجماعة، ومن تفرق عنهم، فإنه لا يأمن على نفسه أن يكون ممن ذهب إلى الفرقة، وعُذب بعذاب من عذاب الله في الحياة الدنيا، نسأل الله ﷻ أن يسلمنا وإخواننا جميعًا من ذلك كله، ولهذا قال ﷺ: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»، الجماعة بجميع أنواعها وبجميع صفاتها إذا كانت على الهدى والحق، فهي رحمة يرحم الله ﷻ بها عباده، يرحم الله ﷻ بها المسلمين، والفرقة عذاب، لا خير في التفرق، لا خير فيه أبدًا، ولهذا لما قال ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال في الآية بعدها: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، نعم الذين تفرقوا في أقوالهم وفي أعمالهم من بعد ما جاءتهم البينات والهدى أولئك لا يُؤمن عليهم الزيغ، وأولئك لا يؤمن عليهم الاختلاف، ولا يؤمن عليهم سلوك غير سبيل الهدى؛ لهذا كان لزامًا أن نلتزم بجماعة أهل السنة والجماعة، وأن نلتزم بأقوالهم، وأن لا نخرج عن قواعدهم، ولا عن ضوابطهم، ولا عما قرر علماؤهم؛ لأنهم يعلمون من أصول أهل السنة والجماعة ومن الأدلة الشرعية ما لا يعلمه كثير من الناس، وما لا يعلمه كثير من الذين ينتسبون إلى العلم؛ لأن لهم علمًا راسخًا، ونظرًا صائبًا، وقدمًا راسخة في العلم، انظر إلى ما فعل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أتدري ماذا فعل حين كان في الحج مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان عثمان يتم الصلاة، يصلي في منى أربع ركعات، والسنة

أن يصلي في منى ركعتين قصرًا لكل رباعية، عثمان رأى أن يصلي أربع ركعات بتأويل شرعي تأوله، مع ذلك ابن مسعود ﵁ كان يقول: سنة المصطفى ﷺ أن يُصلى في منى ركعتين لا غير لكل صلاة رباعية، قيل له: يا عبد الله بن مسعود، تقول هذا، وأنت تصلي مع عثمان بن عفان أربع ركعات لماذا؟ قال: «**الْخِلَافُ شَرٌّ**»(١)، وهذا لأجل فهمه للقاعدة الصحيحة، للقاعدة التي من أخذ بخلافها، فإنه لا يأمن على نفسه الفتنة ولا عن غيره، قال ابن مسعود: «**الْخِلَافُ شَرٌّ**».

الضابط أو القاعدة الخامسة منها: أن الرايات التي ترفع في الفتنة، سواءً رايات الدول، أو رايات الدعاة، لابد للمسلم أن يزنها بالميزان الشرعي الصحيح، ميزان أهل السنة والجماعة الذي من وزن به، فإن وزنه سيكون قسطًا غير مجحف في ميزانه، وكما قال ﷻ في ميزانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]، فكذلك أهل السنة والجماعة لهم موازين قسط يزنون بها الأمور، ويزنون بها الأفكار، ويزنون بها الأحوال، يزنون بها الرايات المختلفة عند اختلاف الأحوال، وتلك الموازين تنقسم عندهم - كما بين ذلك أئمة دعوتنا، وكما بين ذلك أئمة أهل السنة والجماعة -، تنقسم تلك الموازين إلى قسمين، فاسمعها:

القسم الأول: موازين يُوزن بها صحة دعوى الإسلام من عدم صحتها، الرايات التي تُرفع وتنسب إلى الإسلام كثرت، فلابد أن تزن تلك الراية، فإن كانت راية مسلمة، ترتب على ذلك الميزان أحكام شرعية، لابد لك من

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٦٠).

رعايتها؛ استجابة لما أمر الله به، وما أمر به النبي ﷺ.

القسم الثاني: موازين نعرف بها كمال إسلام المرء من عدمه، والاستقامة الحقة على الإسلام من عدم الاستقامة.

فإذًا: الميزان الأول ينتج منه الكفر والإيمان: هل الراية مسلمة مؤمنة أو هي غير ذلك؟ الميزان الثاني ينتج منه أن هذه الراية أو تلك الراية هل هي مستقيمة على الهدى كما يحب الله ويرضى أم عندها نقص في ذلك؟ ثم إذا تبين ذلك، فإنه ترتب الأحكام الشرعية على ذلك الميزان، أما الميزان الأول الذي يُوزن به الإيمان من الكفر، فثلاثة أمور:

الأول: أن تنظر هل هناك إحقاقٌ لعبادة الله وحده لا شريك له أم لا؟ لأن أصل دين الأنبياء والمرسلين هو أنهم بعثوا لأن يُعبد الله وحده لا شريك له، التوحيد أساس الأمر وأول الأمر وآخر الأمر، فمن رفع راية التوحيد، وأقر عبادة الله وحده لا شريك له، ولم يقر عبادة غير الله ﷻ، فالميزان هذا ينتج أنه مسلم، وأن تلك الراية مسلمة مع توفر الميزانين التاليين الذين ستسمعهما بإذن الله:

الميزان الأول: أن نرى هل الراية التي ترفع الإسلام يطبق أهلها التوحيد أم لا؟ هل هناك عبادة لغير الله ﷻ أم أنه لا يُعبد تحت تلك الراية إلا الله وحده لاشريك له؟ توجه القلوب إلى الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١]، قال بعض المفسرين: ﴿وَأَمَرُوا

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يعني: عن الشرك[1]؛ لأن أعلى المعروف هو التوحيد، وأعلى المنكر وأشنع المنكر هو الشرك، فهذا هو الميزان الأول.

الميزان الثاني: أن تنظر إلى تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، وهذه الشهادة من مقتضياتها أن يُحكم بالشريعة التي جاء بها المصطفى ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فإذا رأيت الراية المعروفة يحكم أهلها بشريعة الله، وتفصل الشريعة في أقضية الناس، إذا اختلف الناس في أمورهم من الذي يحكم بينهم؟ يحكم بينهم القاضي الشرعي، لا القاضي القانوني الذي يحكم بقانون من هنا أو هناك، يحكم بينهم فيما يختلفون فيه القاضي الشرعي، فعند ذلك اعلم أن الراية مسلمة؛ لأنه قد حكم أهلها شرع الله ﷻ، وأقاموا المحاكم الشرعية التي تحكم بما أنزل الله، ولا يُلزم أن يحكم بغير ما أنزل الله، أو أن يرضى بحكم غير حكم الله ﷻ ورسوله.

الميزان الثالث: أن تنظر هل هناك استحلال للمحرمات، أم أنه إذا فُعلت المحرمات، فإن هناك بغضًا لها وكراهة وإنكارًا، فإن المحرم إذا ظهر له حالان:

إما أن يكون مستحلًا، هذا كفر - والعياذ بالله - أن يكون المحرم -

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٧٨)، وزاد المسير (٥/ ٤٣٧).

كبيرة من كبائر الذنوب، ما أُجمع عليه، ما عُلم من الدين بالضرورة - أن يستباح ويستحل، فعند ذلك يكون الكفر.

وأما إذا كان لا يُستباح، ولكن يوجد، ويقر أهله بأن ذلك منكر، وأنه محرم، فتعلم بهذا الميزان أن الراية شرعية، وأن الراية مسلمة.

هذه ثلاثة موازين بيَّنها أئمتنا - رحمهم الله تعالى -، هذا هو القسم الأول من الموازين.

أما القسم الثاني، فهي موازين يُعرف بها كمال الإسلام من عدمه، والنبي ﷺ قد أخذ بالإسلام كله كما جاء من عند الله ﷻ، فهو المقتدى الذي يُقتدى به، وأخذ به الخلفاء الراشدون ﵃، ولم يزل الأمر ينقص شيئًا بعد شيء في تحقيق كمال الإسلام إلى وقتنا هذا كما قال ابن مسعود ﵁: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ. سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ**»(١)، الميزان هذا تنظر فيه: كيف هو في تحقيق الأمور الشرعية؟ كيف هو في الأمر بالصلوات؟ كيف هو في النهي عن المنكرات؟ كيف هو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يتعلق بالفرائض؟ وفيما يتعلق بالنهي عن المنكرات؟ إذا كان ذلك كاملًا، دل على الكمال، وإذا كان ذلك ناقصًا، دل على النقص بحسب ذلك، إذا تبين لك ذلك، وهذه موازين مهمة، لابد أن تكون في قلبك وعقلك لا تفارقه أبدًا؛ حتى لا تضل وقت حدوث الضلال، ولا تلتبس عليك الأمور وقت حدوث الالتباس بعد ذلك، إذا تميزت لك الراية المسلمة من غيرها، وجب عليك

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

شرعًا أن توالي الراية المسلمة في الحق والهدى، توالي الراية المسلمة؛ لأن الله ﷻ أمر بموالاة المؤمنين، وحث على الاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق، ومن أول ذلك أن يكون ولاؤك لتلك الراية صحيحًا، أن يكون ولاؤك للراية التي ترفع الإسلام صحيحًا، ليس فيه زيغ، وليس فيه التباس، وليس فيه تردد؛ لأنه إما إسلام وإما كفر، فإذا ثبت الإسلام، ترتبت الأحكام الشرعية على ذلك، ولا يحل لمسلم أن يجعل المعصية مبيحة لئلا يلتزم بما أمره الله ﷻ أن يلتزم به ورسوله ﷺ من الولاء للمؤمنين والولاء للذين يقاتلون في سبيل الله.

الأمر الثاني: أن تنصح لتلك الراية نصحًا يعلمه الله ﷻ من قلبك، وأهل السنة والجماعة فارقوا أهل البدعة الذين يحبون الفرقة في أنهم ينصحون من ولاه الله ﷻ عليهم، ويكثرون الدعاء، ولو رأوا ما يكرهون، فإنهم يكثرون الدعاء، وينصحون نصحًا يعلمه الله ﷻ من أنفسهم أنهم ما أرادوا بذلك جزاءً ولا شكورًا، إلا من عند الله ﷻ، لا من عند غيره، وهذا إذا ثبت في القلب، كنا حقًا من أهل السنة والجماعة.

طالعوا كتب عقائد أهل السنة والجماعة، تروا أن فيها أبوابًا مختصة بحقوق الإمام على الرعية، وبحق الرعية على الإمام؛ لأن ذلك به تحصل الجماعة، ويحصل به الالتفاف حول السنة والجماعة، هذا كما جاء أن النبي ﷺ حث على النصح لأئمة المسلمين، ولعامتهم[1]، وإذا ثبت هذا أن النصح واجب، وأنه لابد للمسلم أن ينصح، فكيف تكون تلك النصيحة؟

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٥) عنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أنّ النَّبِيّ ﷺ، قال: «**الدِّينُ النّصِيحةُ**» قُلْنا: لِمنْ؟ قال: «**لِلّهِ ولِكِتابِهِ ولِرسُولِهِ ولِأئِمّةِ الْمُسْلِمِين وعامّتِهِمْ**».

وكيف يكون ذلك البيان على ما جاء في السنة، لا من عند أنفسنا؟ ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ فيما ذكره عياض بن غنم رضي الله عنه لهشام بن حكيم، قال عياض بن غنم لهشام بن حكيم: ألم تسمع قول رسول الله ﷺ - وانتبهوا لهذا، فإن هذا الحديث الصحيح نحن بحاجة إليه في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى؛ لأننا مطالبون بالالتزام بالسنة والجماعة في كل وقت وعند ظهور الفتن أكثر من أي وقت مضى - ماذا قال عياض بن غنم لهشام بن حكيم رضي الله عنهما وأرضاهما، قَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ لِهِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ: أَلَمْ تَسْمَعْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوا بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وإلا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ**»[1]، اسمعوا سنة المصطفى ﷺ، وأنتم - ولا شك - حريصون على السنة كما أن أهل السنة والجماعة حريصون عليها.

إذًا: ترتب على الموازين السابقة - الراية المسلمة من غيرها - ترتيب الحقوق الشرعية على تلك الراية، وعلى بيان أن تلك الراية مسلمة، وليست براية غير مسلمة، من ذلك هذا الأمر المهم الذي أهميته تبرز عند تغير الأحوال وحدوث الفتن، قال ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوا بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وإلا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ**»، فهذا يجعلنا في طمأنينة، ويجعلنا في اتباع لما قاله المصطفى ﷺ، إن أخذنا بذلك، فنحن ناجون بإذن الله، وإن لم نأخذ به، فيصيبنا من القصور ومن المخالفة عن طريق أهل السنة والجماعة بقدر ما خالفنا من ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/ ٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٢١).

وتلك الموازين إذا التبس على المسلم أو على طالب العلم كيف يزن بها، فالمرجع العلماء؛ فإنهم هم الذين يزنون بالموازين الصحيحة، وهم الذين يقيّمون بالتقويم الصحيح، وهم الذين يحكمون بالحكم الشرعي الصحيح، ولهذا فإن الحكم بالإسلام من عدمه، الحكم بالإيمان أو الكفر مرجعه إلى علماء أهل السنة والجماعة، لا إلى غيرهم من المتعلمين الذين ربما علموا بعضًا، وجهلوا بعضًا آخر، أو ربما عمموا أشياء لا يجوز تعميمها، فالحكم في ذلك لمن لم يستطع أن يزن بالميزان الصحيح من أهل العلم، الحكم هم العلماء، وبقولهم يجب أن نأخذ وبما صاروا إليه وإلى ما صاروا إليه يجب أن نأخذ في تقييم الإيمان والكفر والوزن بتلك الموازين التي ذكرناها لكم.

مما يترتب على تلك الموازين أنه - كما قال أهل السنة والجماعة -: أن الجهاد ماض مع كل إمام أو سلطان برٍ أو فاجر، كل إمام أو سلطان، سواءً كان برًا أو كان فاجرًا، فإن الجهاد ماضٍ معه، لا يجوز لأحد أن يتخلف عن راية الجهاد لأجل أن السلطان عنده مخالفات شرعية في أي وقت وفي أي زمان، وهذا الضابط لابد لك منه في كل وقت، فربما تحدث في المستقبل في سنوات تستقبلها من عمرك ما لانعلمه، فيكون عندك ما تضبط به أمرك، ويكون عندك ما تزن به أحوالك، وما تزن به أفكارك، ومن تلك الحقوق الدعاء لمن ولاه الله ﷻ الأمر، يقول البربهاري رحمه الله ناصر السنة، إمام من أئمة أهل السنة والجماعة في كتابه (السنة) وهو مطبوع موجود، يقول: (إذا رأيت الرجل يدعو للسلطان، فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيته

يدعو على السلطان، فاعلم أنه ليس بصاحب سنة)[١]، وقد قال الفضيل بن عياض - وكان يدعو للسلطان كثيرًا في وقته، ونحن نعلم ما كان من سلاطين بني العباس في وقتهم من أمور، كان يدعو لهم كثيرًا -، قيل له: أتدعو لهم أكثر من دعائك لنفسك؟ قال: نعم فإنني إذا صلحت فصلاحي لنفسي ومن حولي، وأما صلاح السلطان، فهو لعامة المسلمين.

ولهذا من أراد صلاحًا عامًا للمسلمين، فليعلم الله من قلبه أنه يدعو مخلصًا، يدعو مخلصًا في أن يصلح الله ﷻ من ولاه الله أمر المسلمين، وأن يوفقه إلى العمل بكتاب الله وبسنة رسوله، فإننا لا نرجو، ولا نطمع في أكثر من أن يكون الهدى والعمل بالكتاب والسنة، والقلوب بيد الله ﷻ، هو الذي يقلبها؛ ولهذا كان من عقائد أهل السنة والجماعة أن يُدعى للسلطان، ولهذا ففي هذا الوقت نرى الحاجة لذلك أكثر من أي وقت مضى؛ امتثالًا لما فعله سلفنا الصالح رضي الله عنهم.

الضابط السادس: أن للقول والعمل في الفتن ضوابط، فليس كل مقال يبدو لك حسنًا تظهره، وليس كل فعل يبدو لك حسنًا تفعله؛ لأن الفتنة قولك فيها يترتب عليه أشياء، ولأن الفتنة عملك فيها يترتب عليه أشياء، ولا غرو أن سمعنا أبا هريرة رضي الله عنه يقول: «**حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ**»[٢].

قال أهل العلم: قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ**» يعني: أنه كتم

---

(١) انظر: السنة للبربهاري (ص ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٠).

الأحاديث التي في الفتن، والأحاديث التي في بني أمية، ونحو ذلك من الأحاديث، وهو قال هذا الكلام في زمن معاوية رضي الله عنه، ومعاوية اجتمع الناس عليه بعد فرقة وقتال، تعلمون ما حصل فيه، وتعلمون تاريخه، فأبو هريرة كتم بعض الأحاديث، لماذا؟ وهي أحاديث رسول الله ﷺ، ليست في الأحكام الشرعية، وإنما هي في أمر آخر، لماذا كتمها؟ لأجل أن لا يكون هناك فتنة في الناس، ولم يقل قول الحديث حق، وأنه لا يجوز أن نكتم العلم لماذا؟ لأن كتم العلم في هذا الوقت الذي تكلم فيه أبو هريرة رضي الله عنه لابد منه؛ لكي لا يتفرق الناس بعد أن اجتمعوا في عام الجماعة على معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه[1]، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه مسلم في صحيحه: «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»[2]. الناس لا يتصورون كل كلام يقوله القائل فيما يتحدث به في كل أمر في الفتن، وإنما قد يفهمون منه أشياء، وهناك أشياء لا تبلغها عقولهم، فيفهمون أشياء يبنون عليها اعتقادات، أو يبنون عليها تصرفات، أو يبنون عليها أحوالًا وأعمالًا وأقوالًا لا تكون عاقبتها حميدة؛ ولهذا كان السلف يعملون بذلك كثيرًا، فانظر إلى الحسن البصري رحمه الله حيث أنكر على أنس بن مالك رضي الله عنه حين حدث الحجاج بن يوسف بحديث قتل النبي ﷺ للعرنيين، قال لأنس وأنكر عليه: لم تحدث الحجاج بهذا الحديث؟ قال: لأن الحجاج عاث في الدماء، وسيأخذ هذا الحديث يتأول به صنيعه، فكان واجبًا أن يكتم هذا الحديث وهذا العلم عن الحجاج؛ لكي لا يكون في

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (١/ ٣٥٧)، وإرشاد الساري للقسطلاني (١/ ٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١١).

فهمه وعقله الذي ليس على السواء وليس على الصحة أن هذا الحديث يؤيده، أو أن هذا الحديث معه فيفهمه على غير فهمه، فالحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكر على أنس - وهو الصحابي - تحديثه، وندم أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك على تحديثه الحجاج بحديث العرنيين، وحذيفة قبل أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كتم أحاديث من أحاديث الفتن؛ لأنه رأى أن الناس لايحتاجونها، والإمام أحمد كره -أيضًا- التحديث بالأحاديث التي فيها الخروج عن السلطان، وأمر أن تشطب من مسنده؛ لأنه قال: لا خير في الفتنة، ولا خير في الخروج، وأبو يوسف كره التحديث بأحاديث الغرائب، ومالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كره التحديث بأحاديث فيها ذكر لبعض الصفات التي لا يفهمها الناس أو لا تبلغها عقولهم.

المقصود من هذا: أنه في الفتن ليس كل ما يُعلم يُقال، ولا كل ما يُقال يُقال في كل الأحوال، لابد من ضبط للأقوال؛ لأنك لا تدري ما الذي سيحدثه قوله، وما الذي سيحدثه رأيه، وما الذي سيحدثه فهمه، والسلف - رحمهم الله - أحبوا السلامة في الفتن، أحبوا السلامة، فسكتوا عن أشياء كثيرة طلبًا للسلامة في دينهم، وأن يلقوا الله عَزَّ وَجَلَّ سالمين، وقد **كَانَ سَعْدُ ابْنُ أبي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»**[1]، فنهى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ابنه أن يكون رأسًا في الفتنة ولو بمقال أو في فعال،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).

ولو رآها حسنة صائبة، فإنه لا يأمن أن تكون عاقبتها غير حميدة، والناس لابد أن يزنوا الأمور بميزان شرعي صحيح؛ حتى يسلموا، وحتى لا يقعوا في الخطأ.

ثانيًا: للأعمال وللأفعال وللتصرفات ضوابط لابد من رعايتها، فليس كل فعل يُحمد في حال يُحمد في الفتنة، ولا يُحمد إذا كان سيفهم منه غير الفهم الذي يراد أن يُفهم منه.

فالنبي ﷺ - كما روى البخاري في الصحيح قال لعائشة ﵄: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ**» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**»(١)، النبي ﷺ خشي من أن يفهم كفار قريش الذين أسلموا حديثًا أن يفهموا من نقضه الكعبة ومن بنائه إياها على بناء إبراهيم، ومن جعله لها بابين بابًا يدخل منه الناس، وبابًا يخرجون منه، خشي أن يفهم منه الناس فهمًا غير صائب، وأن يفهموا أنه يريد الفخر أو أنه يريد تسفيه دينهم - دين إبراهيم - أو نحو ذلك، فترك هذا الفعل.

ولهذا بوب البخاري ﵀ بابًا عظيمًا استدل عليه بهذا الحديث، ماذا قال؟ قال: (بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ، مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ، فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ)(٢)، (بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ)، يعني: أمر لك فيه خيرة، تذكره أو لا تذكره، هذا الأمر تتركه مخافة أن يقع الناس في

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

(٢) انظر: صحيح البخاري (١/ ٢٢٤ فتح).

أشد منه، وذكر البخاري تحت هذا الباب هذا الحديث النبوي، وعند ذلك نعلم أنه لابد من العقل، ولابد من الفهم، فالسرعة والتعجل هذه أمور غير محمودة، فمن الذي يلزمك بأن تتكلم في كل مجلس، أو أن تتكلم في كل مجتمع بما تراه حقًا، لا، اسكت والحق إن كان عندك، فاجعله لنفسك، وإن كان للمسلمين عامة، فهناك من العلماء من يبين الأمر للمسلمين عامة في الفتن إن كانوا قاموا بواجبهم، ووجد من العلماء من يقوم بواجبهم.

الضابط السابع: أن الله أمر بموالاة المؤمنين، وخاصة العلماء؛ فالمؤمنون والمؤمنات كما قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، كل مؤمن لابد له، وفرض عليه أن يحب المؤمنين وأن ينصرهم، وأن يجتنب السخرية بهم، وإذا كان أولئك المؤمنون هم أنصار شرعة الله، وهم الذين يبينون للناس الحلال من الحرام، وهم الذين يبينون للناس الحق من الباطل، فيحرم أن يذكر العلماء إلا بخير، والمجالس التي يُذكر فيها العلماء بغير خير، فإنها مجالس سوء، لماذا؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١)، فمن احترم العلماء، وأجل العلماء، وأخذ بمقال العلماء - أهل السنة والجماعة أهل التوحيد -، فإنه أخذ بميراث النبوة، ولم يدع ميراث النبوة إلى غيره، والعلماء صفتهم - الذين يُرجع إلى قولهم ويوالون ويحبون - صفتهم أنهم أولًا: هم أئمة أهل السنة والجماعة في وقتهم، وأئمة التوحيد، والذين يُرجع إلى قولهم في التوحيد في وقتهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

وأنهم أهل الشمولية في معرفة الأحكام الشرعية، فيعلمون التوحيد، ويعلمون الفقه بأبوابه كلها، ويعلمون قواعد الشرع والأصول المرعية، فلا يكون عندهم التباس، ولا اختلاف بين المسألة والأخرى، ولا بين القضايا بعضها مع بعض.

لابد من أن نذكر مسألة مهمة وقع فيها كثير من إخواننا عن طيب قلب، وعن صحة نية - إن شاء الله -، ولكن هم أخذوا، وقالوا هذا المقال، وأراه خاطئًا، بل هو جزمًا خاطئ خطأً بليغًا، وهي قولهم: إن علماءنا في هذا الوقت لا يفهمون الواقع. حتى بلغ من أحد إخواننا أنه قال في مجتمع صغير مع بعض إخوانه: إننا استفدنا من هذه الأحوال وهذه الحوادث تميز العلماء إلى أناس يفهمون الواقع ويبنون عليه الأحكام الشرعية، وأناس من العلماء لا يفهمون الواقع.

وليت شعري، فوالله إنها لمقالة سوء، تدل على عدم فهم ما تُبنى عليه الأحكام الشرعية، وما يأخذ به العلماء، وما يرعونه من الفهم وما لا يرعونه؛ فإن الفهم للواقع عند أهل العلم ينقسم إلى قسمين - وهذه لا يفهمها من تكلم بتلك الكلمة -، الفهم للواقع - دفاعًا عن العلماء وبيانًا لما هم -، الفهم للواقع في الشرع له قسمان:

القسم الأول: فهم لواقع ينبني عليه الحكم الشرعي، فهذا لابد منه، وفهمه متعين، ومن حكم في مسألة دون أن يفهم واقعها، فقد أخطأ، فإذا كان للواقع أثر في الحكم الشرعي، فلابد من فهمه.

القسم الثاني: واقع لا أثر له في الحكم الشرعي، فإنه يكون من الواقع

كيت وكيت، وكذا وكذا، وقصص طوال، ولكن لا أثر لذلك الفهم، ولتلك القصص، ولتلك الأحوال، لا أثر لها في الحكم الشرعي أبدًا، فعند ذلك العلماء لا يأخذون بها وإن فهموها، وليس معنى ذلك أن كل واقع عُلم أنه تُبنى عليه الأحكام الشرعية.

بالمثال يتضح المقال، فأضرب أمثلة للأمر الأول، وأمثلة للأمر الثاني، فكونوا منها على بينة وفهم.

فأمثلة الأمر الأول، وهو أن فهم الواقع ينبني عليه الحكم الشرعي، فمن ذلك مثلًا: مسألة متى يُحكم على الميت بأنه مات؟ هل هو بموت قلبه، أو هو بموت دماغه؟ هذه مسألة حادثة، لو أتى متكلم فيها، وتكلم دون أن يعلم واقعها، ودون أن يعلم أحوالها، لابد أن يقع في خطأ في الحكم؛ لأن فهم واقع تلك المسألة وتلك القضية له أثر في الحكم الشرعي.

مثال آخر: مثلًا الحكم على الدول، والحكم على الأوضاع بأن دولًا ما مسلمة أو غير مسلمة، فكيف يتهيأ لي بأن أحكم على دولة بأنها مسلمة أو غير مسلمة دون أن أعرف حقيقة أمرها ودون أن أفهم واقعها؟ هذا أمر لابد أن أفهم الواقع فيه، لابد من فهم الواقع؛ حتى يصدر العالم الحكم الشرعي، فإذا فهم ذلك الواقع، أصدر الحكم الشرعي بناءً على فهمه لذلك الواقع.

من ذلك -أيضًا- مثلًا: الجماعات الإسلامية الكثيرة التي قامت في وقتنا الحاضر مختلفة، وبعضها يختلف عن بعض، هل يتسنى للعالم الشرعي أن يحكم عليها أو أن يقيمها دون أن يفهم واقعها وما هي عليه من المعتقدات،

ومن الأصول، ومن المناهج، ومن الأفكار والرأي، وكيف سبيل دعوتها؟ لا يمكن له، لابد إذًا من أن يفهم واقعها؛ لأن فهم الواقع هنا له أثر في الحكم في الشرع، ومن حكم دون فهم ذلك الواقع، فإن حكمه الشرعي لن يوافق صوابًا.

القسم الثاني: أحوال وقضايا فهم الواقع فيها لا أثر له في الحكم الشرعي، فمن ذلك مثلًا: ما يتردد بين الخصمين عند القاضي، يأتي خصمان عند القاضي، هذا يُبدي ما حصل له في المسألة، وما حصل بينه وبين خصمه، وحصل كذا وكذا بكلام يطول، يعلمه القضاة، لكن كل ذلك الكلام الكثير الذي هو من الواقع لا يثبته القاضي في القضية؛ لأنه وإن كان واقعًا فإنه لا أثر له على الحكم، وإنما هو واقع لا ينبني عليه الحكم، ولذلك يقول المفتي أو يقول القاضي في مثل ذلك: ولو كان كذا، ولو كان كذا، يعني أن ما ذكرته من الواقع لا أثر له شرعًا في الحكم الشرعي.

مثال آخر: مثلًا نرى في وقتنا أن كثيرًا من الدعاة كبار السن بعض الشيء يخالطون صغار السن، ويدعونهم، ويرشدونهم، ويحببون لهم الهدى والصلاح، إما في المنتديات العامة، أو في المكتبات أو نحو ذلك، ونحن نعلم أنه يحصل من اختلاط الكبار بالصغار مفاسد شرعية، بل ومحرمة، ونعلم ذلك من بعض الأحوال على وجه التفصيل، وفهمنا لذلك الواقع لا يجعلنا نحكم على دعوة الكبار للصغار بأنها لا تجوز، وإنما فهم ذلك الواقع لا أثر له في الحكم على الدعوة بأنها مشروعة من الكبير للصغير، ولكن فهمنا لذلك الواقع فيه عرض لمسألة أخرى، وهي أن ينصح ويرشد من وقع في الخطأ، أو وقع في محرم، أو لبس شيئًا غير شرعي أو لا يرضاه الله

أن ننصحه بالتوبة، فكان ذلك الواقع فهمه لا أثر له في الحكم الشرعي من الجواز وعدمه، وإنما له أثر في النصيحة في من وقع في ذلك الأمر؛ حتى يقوم بالحق دون إتيان بالمنكر، أو دون غشيان لما لا يحبه الله ورسوله، هذه أمثلة لا أطنب فيها، إنما هي لتقريب الأمر إليكم.

مثال -أيضًا- مما ينبغي أن ينبه عليه أن هناك أحكامًا شرعية يعتقد الناس والعامة فيها اعتقادًا غير صحيح، مثال ذلك مثلًا: النبي ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه بال واقفًا، فالبول واقفًا عند عدم تطاير الرشاش والبول والنجاسة على البدن أو على الثياب جائز؛ لأن النبي ﷺ فعله[1]، لكن الجهال والعامة يعتقدون من فعل ذلك الفعل أنه وقع في خطأ، وأنه فعل فعلًا من خوارم المروءة، وأنه كذا وكذا، هذا الاعتقاد منهم - اعتقاد الجهال - لا يعني أن الحكم غير صحيح، أو لا يؤخذ به، وإنما هذا الأمر بجواز البول واقفًا لا شك أنه ثابت وصحيح، لا مراء في ذلك، وخطأ الجاهل في اعتقاده، وخطأ الجاهل في تصوره بما يتعلق بذلك الحكم الشرعي أو بأي حكم تعلق الجاهل فيه باعتقاد خطأ علاجه بتوعية الجاهل، ليس علاجه بتغيير ما رآه العالم حكمًا شرعيًا صحيحًا.

الضابط الثامن، وهو ضابط مهم، لابد من أن يكون على بالك، وهو ضابط التولي للكفار، وضابط الموالاة للكفار، فهاهنا عندنا في الشرع وعند أئمة التوحيد لفظان لهما معنيان، يلتبس أحدهما بالآخر عند كثيرين:

---

(١) كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٥)، ومسلم (٢٧٣) عنْ حُذيْفة رضي الله عنه قال: «**رأيْتُنِي أنا والنّبِيُّ ﷺ نتماشى، فأتى سُباطة قوْمٍ خلْف حائِطٍ، فقام كما يقُومُ أحدُكُمْ، فبال، فانْتبذْتُ مِنْهُ، فأشار إِليّ فجِئْتُهُ، فقُمْتُ عِنْد عقِبِهِ حتّى فرغ**».

الأول: التولي. والثاني: الموالاة، التولي: مكفر، الموالاة غير جائزة، والثالث: الاستعانة بالكافر واستئجاره جائزة بشروطها، إذا أفتى بها العالم، فهذه ثلاثة أمور: التولي ما ضابطه؟ الموالاة ما ضابطها؟ الاستعانة ما ضابطها؟

أما التولي، فهو الذي نزل فيه قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، يتولى أولئك توليًا، فهذا التولي، والتولي ضابطه نصرة الكافر على المسلم وقت الحرب بأي شيء صغير أو كبير.

وكنت ألقيت كلمة في هذا المقام، وعلق عليها سماحة الشيخ، شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله، قال: بأن التولي هو ذاك الأمر الذي أوضحته، وزاد وقال: ولو أعان الكافر في حربه على المسلم حين حربه له بعود كبريت يشعل به نارًا يحارب بها المسلم، فهذا تولٍ مكفرٌ يخرج به من فعله من دائرة الإسلام، إلا إذا تأول تأولًا إذا أجاز له أهل العلم أن يتأول بذلك التأويل، وأباحوا له؛ كما تأول بعضهم بذلك التأويل في مثل ما نزل به قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فمن فعل تلك الفعلة من الصحابة لم يُكفر؛ لأنه كان له تأويل أجازه عليه النبي ﷺ أو لم يُؤاخذه به[١].

الموالاة ما معناها؟ ضابط الموالاة هو أن تواد الذين كفروا، وأن

(١) ذكر أهل التفسير أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٥٨)، وزاد المسير (٨/ ٢٣٠)، والقرطبي (١٨/ ٥٠)، وابن كثير (٤/ ٣٤٦).

تحبهم، وأن يترتب على مودتك لهم ومحبتهم أن تقدمهم، وأن ترفعهم، وأن يصير منهم تفوق عندك في قلبك على المسلمين، هذا قال فيه أهل العلم: ليس هذا من التولي، الذي يدخل في قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وإنما هذه الموالاة غير جائزة؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أي: الإيمان الكامل لا يكون عند قوم يوادون من حاد الله ورسوله، هذه الآية فيها بيان أن الموالاة فيها موادة للكافر، وهذه غير مكفرة، وإنما يُنصح من كانت معه بأن يجدد إيمانه، وأن يقوم في قلبه من بغض الكفار ومن عدم محبتهم ما يكون معه إيمانه كاملًا، ويخلص به من الإثم في المعاملة.

القسم الثالث: الاستعانة بالكافر أو استئجار الكافر، وهذا قال أهل العلم بجوازه في أحوال مختلفة، يفتي أهل العلم في كل حال وفي كل واقعة بما يرونه يصح أن يُفتى به، والمرجع هم، فالاستعانة إذا أفتي بجوازها، فضابطها أن تستعين بهم، وأن لا يكون في قلبك شيء من المحبة لهم، وهذا ما يحصل من المسلمين ومن أهل السنة والجماعة ومن أهل التوحيد عامة من كبيرهم إلى صغيرهم إذا استعانوا، واحتاجوا، واستأجروا من يحاد الله ورسوله، ومن لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر من الكفار من النصارى وغيرهم، فإنهم إذا استعانوا بهم، فإنهم لا يجدون في قلوبهم محبة لهم وموادة، وإنما يستعينون بهم من أجل أن في الاستعانة بهم فوائد شرعية، يفتي العلماء بأن تحصيلها جائز أو واجب كما تكلموا بذلك.

الضابط التاسع والأخير: أن أحاديث الفتن لا تطبقها أيها المسلم على الواقع أبدًا، فإنه يحلو للناس عند ظهور الفتن أن يراجعوا أحاديث النبي ﷺ في الفتن، ويكثر في مجالسهم قال النبي ﷺ: كذا، هذه هي وقتها، هذه هي الفتنة، ونحو ذلك، والسلف علمونا أن أحاديث الفتن لا تطبق على الفتن في وقتها، وإنما يظهر صدق النبي ﷺ بما أخبر به من حدوث الفتن بعد حدوثها وانقضائها.

فمثلًا بعض الناس فسر قول النبي ﷺ عن فتنة الأحلاس في آخر الزمان، وأنها تكون من تحت قدمي رَجل من أهل بيته بأنه فلان بن فلان، أو أن قول النبي ﷺ: «**ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِكٍ عَلَى ضِلَعٍ**» بأن المقصود به فلان بن فلان[1]، أو أن قول النبي ﷺ: «**سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، وَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ**»[2]، وما يحصل في هذا الوقت.

وهذا التطبيق لأحاديث الفتن على الواقع وبث ذلك في المسلمين ليس

---

(١) هذا الحديث أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، عنْ عُميْرِ بْنِ هانِئٍ الْعنْسِيِّ، قال: سمِعْتُ عبد اللّهِ بْن عُمر، يقُولُ: «**كُنّا قُعُودًا عِنْد رسُولِ اللّهِ، فذكر الْفِتن فأكْثر فِي ذِكْرِها حتّى ذكر فِتْنة الْأحْلاسِ، فقال قائِلٌ: يا رسُول اللّهِ وما فِتْنةُ الْأحْلاسِ؟ قال: «هِي هربٌ وحرْبٌ، ثُمّ فِتْنةُ السّرّاءِ، دخنُها مِنْ تحْتِ قدميْ رجُلٍ مِنْ أهْلِ بيْتِي يزْعُمُ أنّهُ مِنِّي، وليْس مِنِّي، وإِنّما أوْلِيائِي الْمُتّقُون، ثُمّ يصْطلِحُ النّاسُ على رجُلٍ كورِكٍ على ضِلعٍ، ثُمّ فِتْنةُ الدُّهيْماءِ، لاتدعُ أحدًا مِنْ هذِهِ الْأُمّةِ إِلّا لطمتْهُ لطْمةً، فإِذا قِيل: انْقضتْ، تمادتْ يُصْبِحُ الرّجُلُ فِيها مُؤْمِنًا، ويُمْسِي كافِرًا، حتّى يصِير النّاسُ إِلى فُسْطاطيْنِ، فُسْطاطِ إِيمانٍ لا نِفاق فِيهِ، وفُسْطاطِ نِفاقٍ لا إِيمان فِيهِ، فإِذا كان ذاكُمْ فانْتظِرُوا الدّجّال، مِنْ يوْمِهِ، أوْ مِنْ غدِهِ**».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٦٧).

من منهج أهل السنة والجماعة، وإنما أهل السنة والجماعة يذكرون الفتن وأحاديث الفتن محذرين منها، مباعدين للمسلمين عن غشيان أو عن القرب منها؛ لأجل ألا يحصل بالمسلمين فتنة، ولأجل أن يعتقدوا صحة ما أخبر به النبي ﷺ.

الخاتمة:

في الختام أسأل الله ﷻ أن يُرينا الحق حقًا، ويرزقنا اتباعه، وأن يُمن علينا بائتلاف وقوة في الحق وثبات عليه، وألا يجعلنا من الذين لايلتزمون بمنهج أهل السنة والجماعة وبعقائدهم من أولها إلى آخرها، لا نفرق بين شيء مما قالوه، أو وضعوه، أو استدلوا به من الأدلة الشرعية.

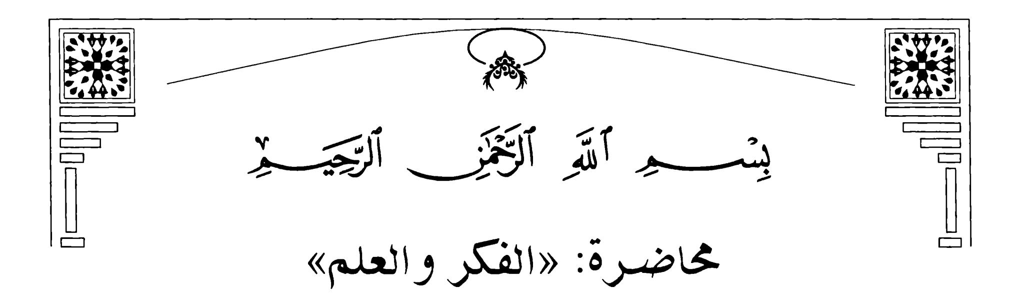
اللهم إنا نسألك أن تجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن ترزق المسلمين صلاحًا في أنفسهم وفي ولاتهم، وأن تدلهم على الرشاد، وأن تباعد بينهم وبين أهل الزيغ والفساد يا رب العالمين.

اللهم إنا نسألك أن تربط المسلمين بعلمائهم وبمقالهم، وألا يخرجوا عن مقال علمائهم وأهل السنة والجماعة منهم قيد أنملة ولاشعرة أبدًا في أول الأمر أو في آخره؛ لأنه لا خير في مخالفة علماء أهل السنة والجماعة أبدًا، اللهم إنا نسألك هدى وسدادًا.

تمسكوا أيها الإخوان بمنهج أهل السنة والجماعة، وبعقيدة أئمتنا، وبعقيدة أهل السنة والجماعة، ولتكن قلوبكم مرتبطة بذلك المقال، وبتلك القواعد التي بُنيت على الأدلة الشرعية، ولا تخالفوها أبدًا في صغير الأمر ولا كبيره؛ لأن الأخذ بها منجٍ، المخالفة لها مذلة ومضلة.

ونسأل الله أن يجعلنا من المرحومين، وأن يختم لنا بالحسنى، وأن يجعل هذا الأمر وهذه الفتن التي ظهرت عاقبتها حميدة للمسلمين، وأن يجنبنا

سوءها وشرها، وأن يجعل سوءها وشرها على أعداء المسلمين يا رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.



محاضرة: «الفكر والعلم»

وقد قام فضيلته بإلقائها في جامع الملك خالد بأم الحمام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، أوضح المحجة، وأبان السبيل للمؤمنين، فغدت - بعد نزول القرآن، وبيان سيد ولد عدنان - واضحة المعالم، بينة الأركان، فالحمد لله الذي هدى وبين، والحمد لله الذي أرشد وعلم، وهو ﷻ للحمد أهل، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا من رأى الشبهات في هذه الدنيا وما تؤول إليه، وأُري كيف تكون منازل السعداء في الآخرة، فإنما هي لمن أتى الله بقلب سليم، سلم من الشبهات، سلم من كلاب الشهوات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين أما بعد:

فموضوع هذه المحاضرة بعنوان: **«الفكر والعلم»**.

وإذا ذكر الفكر، فإنه يتبادر إلى الذهن ما شاع في هذا العصر مما يسمى الفكر الإسلامي والمفكر الإسلامي، وهذا الاصطلاح (الفكر الإسلامي، أو المفكر الإسلامي) هذا اصطلاح جديد في تاريخ هذه الأمة. فإن الأمة في تاريخها عرفت أنواعًا من الذين يتكلمون، ويكتبون، منهم أهل الاختصاص

بالعلم: إما المفسر، وإما المحدث، وإما اللغوي، وإما الفقيه، وإما المؤرخ، أو الأديب، أو الفيلسوف، أو عالم الاجتماع... إلى آخر أنواع العلماء والكتبة في تاريخ الأمة، أما هذا المصطلح (فكر إسلامي، أو المفكر الإسلامي)، فإنه اصطلاح جديد. ومعلوم عند أهل الشرف والمحبين للعلم وللديانة أن الأمور إنما توزن بالعلم؛ لأن العلم نزل من عند الله ﷻ ليكون حاكمًا على الناس، غير محكوم، فإذا ظهرت اصطلاحات أو استجدت أحوال، فإن المرجع في فهمها إنما هو إلى العلم، فما هذه الصلة التي بين الفكر والعلم؟ وهل هذا الفكر الذي يسمى فكرًا إسلاميًا هل هو ممدوح كله، أو هو مذموم كله؟ وكيف هي الصلة بين الفكر والعلم؟ وبحوث متصلة بذلك من المهمات أن يتعرض لها؛ لأنك ترى في هذا الزمن كثر الذين يتكلمون عن الإسلام باسم الفكر، ومنهم من عنده أخطاء يسيرة، ومنهم من يسمى مفكرًا إسلاميًا وإنما هو مفكر ليس بالإسلام، وإنما يفكر برأيه وبطريقته وبما يهواه، فظهرت مدارس مختلفة في الفكر والتفكير، وظهر مفكرون متنوعون.

أسباب ظهور ما يسمى بالفكر الإسلامي

وهذا الذي ظهر من الفكر والمفكرين وما يسمى بالفكر الإسلامي في العصر الحديث ظهر ونشأ، ولظهوره ونشأته أسباب:

من أعظم أسباب ذلك كثرة الهجوم على الإسلام في العصر الحديث. فإن ابتعاد قلب الأمة عن عقيدتها وتاريخها، وعن حضارتها، وعن ماضيها، وعن مؤهلاتها نشأ في العصر الحديث مع المد الاستعماري. والمد

الاستعماري كانت له وجهتان:

وجهة عسكرية، وهذه ظهر منها الاستعمار، والكل يعلم عن حقيقة ذلك الاستعمار العسكري.

وله وجهة أخرى، وهي الاستعمار الثقافي والتبعية الثقافية، حتى صار في المسلمين من يكون تابعًا في فهم الإسلام لأعداء الإسلام، وهؤلاء الأعداء تمثلوا في المستشرقين.

والمستشرقون لهم كتابات متنوعة في تحليل أهداف الإسلام، وتحليل أحكامه، وتحليل آرائه، وتحليل تاريخه، وتحليل قضاياه... إلى آخر ذلك. فقام طائفة في البداية يتكلمون عن تلك المسائل التي طرقها المستشرقون أعداء الملة وأعداء الدين وأعداء هذه الأمة، تكلموا عنها بنفس منطقهم؛ لأجل أن يقنعوا الناس، وأن تكون اللغة بينهم متعارفة، فلم يردوا عليهم بالعلم، وإنما ردوا على أفكار المستشرقين غير الإسلامية بأفكار مماثلة في الصيغة، وفي الاستنتاج والاستدلال، والأخذ والعطاء، والمراجع والمصادر، ووسيلة الإقناع، حتى صار ذلك فكرًا مقابلًا لفكر، فظهر الفكر الاستشراقي، وبالمقابل ظهر فكر آخر سمي فيما بعد (الفكر الإسلامي)؛ لأنه يقابل ذلك الفكر الاستعماري الاستشراقي، نشأة هذا الفكر ونشأة المفكرين راجعة إلى الرغبة في الدفاع عن الإسلام، وإلى رد هجمات المستشرقين، وهجمات أعداء الإسلام.

فكل من أراد أن يرد، وكل من أراد أن يدافع - من المثقفين، أو من العلماء، أو ممن عنده بدايات علم، أو ممن عنده اطلاع وقراءة عامة - كتب في الدفاع عن الإسلام؛ حمية له، وبيانًا لمحاسنه، وردًا على

المفتريات باسم الفكر. هم ليسوا بعلماء، ولكنهم كتبوا هذه الكتابات، فظهر أن هؤلاء مفكرون إسلاميون، منهم من تخصص في ذلك، حتى غدا ما يكتبه وما يؤلفه في هذا المضمار، وخصوا بهذا الاسم؛ باسم: المفكرين الإسلاميين، وما يكتبونه باسم: الفكر الإسلامي.

لا شك أنه في هذا الجيل أيضًا - يعني: في هذا القرن العشرين أو القرن الرابع عشر الهجري الذي سلف - لا شك أنه ظهرت مشاكل متعددة في المسلمين: مشاكل ثقافية، ومشاكل إعلامية، مشاكل من جهة الالتزام بالدين والقناعة به، مشاكل اقتصادية، شبهات تتعلق بالسياسة، شبهات تتعلق بالاقتصاد، شبهات تتعلق بتاريخ الإسلام، شبهات تتعلق بموقف علماء الإسلام، شبهات تتعلق بالنصوص، وما مدى العمل بالنص والقواعد وما مدى العمل بالقواعد وأصول الفقه.... إلى آخر تلك المسائل. فظهرت مشاكل وشبهات في هذه الأمور، فظهر أولئك المفكرون؛ ليدلوا بدلوهم في بيان حقيقة ما عليه الأمة في هذه العلوم وذلك المضمار، فظهرت كتابات متنوعة.

لا شك أن تلك الكتابات التي ظهرت تتطلب علمًا، تتطلب معرفة، تتطلب ثقافة. والجميع لو اجتمع، لحصلت نتائج سليمة، لكن خاض غمرة ذلك - لقصد نصرة الإسلام، ولبيان حقائقه -، خاض غمرة ذلك من ليس عنده إلا الثقافة، أو عنده بعض المعلومات التاريخية، أو عنده بعض الاطلاع العام، ولكن ليس عنده علم، فظهر في كلامهم صواب، وظهر في كلامهم خطأ كثير، فمزجوا الصواب بالخطأ.

وسبب ذلك الفكر - كما سيأتي إيضاح ذلك أيضًا - لما ظهرت تلك

المدارس المختلفة الفكرية -يعني : في وجهات النظر المختلفة - في علاج مشاكل المسلمين، وفي الرد على الأعداء.

لا شك أنه سيحصل نوع من التحزب، نوع من الرجوع إلى أولئك المفكرين، فكل من أعجب بفكرة عالم، كل من أعجب بفكرة مثقف، فإنه ستكون التبعية لذلك، فظهر بعد ذلك مفكرون، تبعوا المفكرين الأصليين، أو ظهر فكر يتبع أساسيات تلك الأفكار، حتى توسعت الشقة، وحتى ابتعد طرفا الطريق، فتوَسع جدًا، وكثرة الطرق من أجل كثرة أفكار الذين أبتدؤوا بذلك الفكر.

فننظر مثلًا إلى أن أول من دخل في هذا المضمار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومن بعده محمد رشيد رضا، ثم ظهرت الأفكار في الجانب الآخر مثل: أفكار عباس العقاد، أو أفكار طه حسين، أو أفكار... إلى آخره. وهؤلاء كل بحسب ما عنده.

الخط الأول عنده علم كثير؛ لأجل الضعف عن مواجهة الغرب بكل شيء صاغوا أساليبهم بأساليب فكرية، فظهر عندهم من الأخطاء، حتى تجاهلوا أصولًا عظيمة في الإسلام من أصول الغيبيات ونحو ذلك.

والطرف الآخر من المدرسة الجديدة أرادت أن ترد، ولكن باستخدام لغة المستشرقين، حتى غدا ذلك التأثير بيّنًا.

ظهرت بعد ذلك الجماعات العاملة (الجماعات الإسلامية)، فظهر لكل مدرسة من تلك الجماعات من يمثل فكرها بكتابات:

ففي الباكستان ظهرت هناك الجماعة الإسلامية، وظهر لها من يمثل

فكرها كأبي الأعلى المودودي.

وفي مصر ظهر من يمثل فكر جماعة الإخوان المسلمين.

وفي الشام ظهر، وفي المغرب أو الجزائر ظهر من يمثل الفكر الذي تبنى نقل الناس إلى الإسلام بفكر كفكر مالك بن نبي، ونحو ذلك.

المقصود من هذا أنه تنوعت المدارس؛ حتى تنوعت الجماعات، وتنوعت الأفكار بسبب تنوع تلك المدارس.

إذن فلنشأة الفكر أسباب، وهذه بعض أسبابه، ولا شك أن المتأمل لذلك ينظر إلى أن نشأة الفكر - إذن - لم تكن نشأة على علم، وإنما كانت نشأة عاطفية اندفاعية، ليست مؤصلة، ولا منظمة، وإنما كانت بحسب الحال دفاعًا عن التاريخ، دفاعًا عن العقيدة، دفاعًا عن الإسلام، لكن بطريقة غير متقنة، غير منظمة، غير مؤصلة، غير منضبطة، وبالتالي ظهر كثير من الكتابات التي تراها اليوم ممن يسمون بمفكرين إسلاميين، وفي الحقيقة إنما هم مفكرون ليسوا بإسلاميين؛ لأنهم إنما يفكرون تارة بالنظرة الاشتراكية، وتارة بالنظرة الاعتزالية، وتارة بنظرات مختلفة، فنشأ ما يسمى بالتنوير، والاجتهاد، والتطور، والتقدم، حتى أتى من المفكرين من يزعم أنه لابد من إقامة صرح جديد لطريقة العقل والتفكير والتعامل مع النصوص؛ لأن تلك إنما تناسب زمنًا مضى، وهذا الزمن لابد له من شيء جديد.

إنه - ولا شك - انحراف خطير عن أصل هذا الدين وعن العلم الصحيح، الذي نزل به جبريل عليه السلام من عند رب العالمين في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

سبب اختيار هذا الموضوع

هذا الموضوع - الذي هو الفكر والعلم - مهم، وسبب الاختيار له:

* أن كثيرين من طلبة العلم أو من الناس من المثقفين من الشباب لا يعون حقيقة المصطلح، ولا يعون أبعاده، ولا يعون ما ينبغي أن يؤخذ به وما ينبغي، بل يجب أن يحذر من الفكر، فكان لابد من طرق هذا الموضوع؛ حتى تتضح حقيقة الفكر.

* ومن أسباب طرح هذا الموضوع: كثرة الذين يكتبون عن الإسلام فكريًا، وانتشار كتاباتهم، فترى في الصحف كثيرًا ما يكتب أناس، هؤلاء يقال عنهم: مفكرون إسلاميون، وهناك كتابات قديمة من أناس ليسوا بحاضرين - من أمثال: مالك بن نبي، المودودي، سيد قطب، محمد قطب ... إلى آخره - لهم كتابات تتسم بأنها كتابات فكرية، فما حجم هذه الكتابات؟ كيف توزن؟ هل ترد؟ هل تقبل؟ هل يعتمد عليها أم لا يعتمد عليها؟ ما حدودها؟ هؤلاء المفكرون - الذين ذكرت أسماؤهم، ومن لم تذكر أسماؤهم - ما موضعهم الصحيح في الأمة؟ وما الإطار الذي ينبغي أن يوضعوا فيه؟ لا شك أن هذه أسئلة الجواب عنها مهم، ولعله أن يكون في هذه الكلمة أو هذه المحاضرة بعض إجابة عن ذلك.

* ومن الأسباب - أيضًا -: أن طائفة من المثقفين - علت درجاتهم في الثقافة، أو توسطت - خلطوا بين الفكر والعلم، حتى صار الفكر دليلًا، حتى صار ما يكتبه المفكرون أعظم في القناعة وأعظم في الاتباع مما يكتبه العلماء، بل زاد الأمر على ذلك، حتى سمي العلماء بأنهم متأخرون، وأن

المفكرين هم المتقدمون، وهذا لا شك يتطلب بحثًا لهذا الموضوع، وتعريفًا للناس بالفكر: ما هو؟ وهل يقبل أم لا يقبل؟ إلى آخر ذلك.

* والسبب الرابع لطرح هذا الموضوع: أن كثيرًا من قيادات الدعوة وقيادات الجماعات الإسلامية في هذا العصر - وهي الجماعات التي سواء كانت منظمة أو غير منظمة -، هي التي يراد منها أن تصلح أوضاع المسلمين، وأن تعيد الناس إلى جادة الصواب. كثير بل الأكثر من تلك القيادات، إنما هي قيادات فكرية، وينتج عن تلك القيادات آراء وأنواع من التعامل، وينتج عن قيادتهم الفكرية توجيه للشباب في أن يتخذوا الموقف الفلاني، وأن لا يتخذوا الموقف الفلاني. دلائل ذلك إنما هو فكر دون علم، ومن المسلّم به، بل من المجمع عليه أن الدليل إنما هو العلم، أما الفكر، فليس بدليل، وإنما هو تلمس؛ كما سيأتي.

* السبب الخامس لطرح هذا الموضوع: أن هذا العصر تنوعت فيه أفهام الناس، وتنوعت فيه طرائقهم في التفكير، فنتج من ذلك أن خطاب الناس بالفكر مهم، وطرح بعض المسائل طرحًا فكريًا في الصحف أو في بعض الكتيبات هذا مهم؛ لأن الناس لا يعون لغة العلم، ولا يتحمسون للعلم، فإذا طرح لهم بأسلوب فكري ثقافي، فإن كثيرين من المسلمين يقبلون على ذلك، ويرعونه، ويهتمون به، وتصلهم أفكار، وتصلهم أصول بالفكر، ربما لا تصلهم بالعلم؛ لعدم محبتهم للعلم، أو لعدم إقبالهم عليه. وهذا يتطلب أن توضع ضوابط للمفكر وضوابط للفكر؛ حتى يكون إرشاده للأمة، وحتى تكون الكتابات الفكرية منضبطة، غير مخالفة لمقتضى العلم ومقتضى الكتاب والسنة وقواعد الإسلام.

معنى الفكر الإسلامي

نبدأ أولًا بإيضاح معنى الفكر الإسلامي، ما المراد به؟ ذكرنا أنه مصطلح جديد، وإذا كان مصطلحًا جديدًا، فلابد له إذن من تعريف.

عرفه بعضهم بقوله: إن الفكر الإسلامي هو: عمل المسلمين العقلي، ونتاجهم الفكري في سبيل خدمة الإسلام بيانًا ودفاعًا.

وهذا المعرف لهذا التعريف جعل البيان من الفكر، وجعل الدفاع من الفكر، ويعني: بالبيان العلم، فجعل العلم من الفكر؛ لأن بيان الإسلام هو العلم، والدفاع عن الإسلام هذا بعض من مهمات الفكر، وفسر قوله: (بيانًا) بأنه المراد به: بيان الإسلام، بيان الأصول، بيان التفسير، بيان الحديث... إلى آخره.

فجعل العلم من الفكر، فهل يصح أن يجعل العلم من الفكر؟ آخر عرف الفكر بأنه: جمع الشواهد والأدلة، ثم تحليلها لخدمة الإسلام.

يعني: إذا أراد أن يبحث قضية من القضايا، فيجمع لها الشواهد والأدلة، ونعني بالشواهد والأدلة: ما يشهد للغاية، فالغاية عنده معلومة، فيريد أن يجمع لها من الشواهد والأدلة ما يصحح هذه الغاية؛ حتى يدافع عن الإسلام، أو يبين محاسن الإسلام، أو ينصر الإسلام في قضية من القضايا، وهذا يعني - أيضًا -: أنه أدخل العلم في الفكر، جمع الشواهد والأدلة، ما حدد ما هي هذه الأدلة؟ وما هي هذه الشواهد التي توصل إلى تلك النتيجة؟

إذًا: دلنا على أن تعريف الفكر بما ذكر ليس منضبطًا ولا ثابتًا، بل قد يدخل فيه أشياء، قد يخرج منه أشياء، ما حدد ذلك مهمة المفكر، ولا ما يتعرض له، ولا ما لا يتعرض له، كيف يصل بفكرة إلى النتائج؟ هل النتيجة هي الأولى، أم النتيجة مرادة؟

في الواقع أن ذلك لم يضبط؛ ولهذا تجد أن المفكرين كلٌّ يورد ما عنده بحسب طريقته، فيختلفون في البداية، ويختلفون في النهاية، ويختلفون - أيضًا - في وسائل ذلك؛ كل بحسب مدرسته.

هل يصح أن يقال على هذا: إن العلم من الفكر؟ لا شك أن العلم لا يجوز أن يقال: إنه فكر إسلامي، وقد سئل الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله عن هذه الكلمة - كلمة فكر إسلامي -: هل يجوز أن تقال؟ فقال الشيخ - حفظه الله، ورحمنا وإياه -: «**مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامي)؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم، أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكرًا لمخلوق**»[1].

وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله عند هذه الكلمة في كتابه معجم المناهي اللفظية: «**كيف يصح أن يكون الإسلام ومصدره الوحي فكرًا؟ والفكر هو ما يفرزه العقل، فلا يجوز بحال أن يكون الإسلام مظهرًا من مظاهر الفكر الإنساني، فالإسلام بوحي معصوم، والفكر مصدره العقل، وليس معصومًا**

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢٤٥)، ومجموع رسائل وفتاوى العثيمين رحمه الله (٣/ ١٢١).

وإذا كان بعض الكاتبين -يعني: به الأستاذ سيد قطب- **أدرك الخطأ في هذا الاصطلاح فأبدله باصطلاح آخر هو: (التصور الإسلامي)، وهذا في كتاب (خصائص التصور الإسلامي ومقومات التصور الإسلامي). قال: «إذا كان بعض الكاتبين أدرك خطأ هذا الاصطلاح، فأبدله باصطلاح آخر هو (التصور الإسلامي)، فإنه من باب رفع آفة بأخرى؛ لأن التصور أيضًا مصدره الفكر المحتمل للصدق والكذب»**[(١)].

وهذا الذي قاله الشيخ بكر سديد؛ لأن من رأى بحث التصور الإسلامي، خصائص التصور الإسلامي، مقومات التصور الإسلامي، وجد أنها تبحث في تحليلات للعقيدة: التوازن، الشمول، ... إلى آخره، فيجعل أصولًا عقدية جديدة، ويجعل ذلك مزايا (التصور) كما قال (الإسلامي)، يعني: مزايا العقيدة الإسلامية.

وتلك إنما هي أفكار لم يسبق إليها كاتبها، والتصور هو الفكر فرجع الأمر - إذًا - إلى الحديث عن أصول الإسلام، وعن العقيدة، وعن مزايا ذلك، والحكم والأسرار في أصول فكرية وقوالب تصويرية وثقافية.

ولا شك أن هذا كما قال الشيخ: «**رفع آفة بأخرى**» يعني: محاولة علاج آفة بإحلال آفة أخرى جديدة، والكل راجع إلى أنه فكر إسلامي - كما يعبرون -، وهو في الحقيقة فكر غير منضبط، وليس عندنا ما يسمى فكرًا إسلاميًا، يعني ليس عند العلماء ما يجوز أن يقال له: فكر إسلامي.

هل يجوز أن يقال: مفكر إسلامي؟ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أما**

---

(١) انظر: معجم المناهي اللفظية (١/ ٣٦٠).

(مفكر إسلامي)، فلا أعلم فيه بأسًا؛ **لأنه وصف للرجل المسلم، والرجل المسلم يكون مفكرًا»**[١]، وهذا إذا انضبط بالعلم، صح؛ لأن من فكر بطريقة علمية صحيحة، فهو مفكر إسلامي، فيصح أن يقال عمن انضبط بالعلم في التفكير: إنه مفكر إسلامي، يعني: مسلم ذو فكر، وهذا الاستعمال صحيح. بعضهم اعترض، وقال: إن هذا الكلام غير منضبط؛ لأن القرآن والسنة فيها الحث على التفكر، والحث على النظر والفكر، وقد جاءت آيات كثيرة في ذلك في الحث على التفكر، منها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فمدح الله ﷻ خاصة المؤمنين بأنهم يتفكرون كذلك قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ﴾ [الروم: ٨] وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، وجاء في الحديث أو في الأثر: «... **وَأَنْ يَكُونَ صَمْتِي فِكْرًا، وَنُطْقِي ذِكْرًا...**»[٢].

ولا شك أن التفكر أمر مطلوب، ومستحب، أو واجب في بعض الأحيان؛ لأن التفكر ينتج نتيجة عظيمة، وهي تعظيم الله ﷻ، وتعظيم ما أنزل على رسوله، واتباع الرسل، والخوف من الآخرة، والرغب في الجنة، والحذر من النار.

فهل هذا التفكر الذي جاء في الآيات وفي بعض الأحاديث: «**تَفَكَّرُوا فِي**

---

(١) انظر: مجموع رسائل وفتاوى العثيمين (٣/ ١٢١).
(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (١/ ٣٤١).

كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تُفَكِّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ»[١]، هل هذا التفكر هو المقصود بالفكر؟ ننظر إلى ما قاله العلماء في كلمة التفكر؛ لأن من استدل على صحة الفكر في التفكر نقول له: هذا استدلال غير صحيح؛ لأن الفكر أو التفكر الذي جاء في هذه الآيات ليس هو الفكر في الشرع، وإنما هو تفكر في آلاء الله. ففرق بين الفكر في الشرع، والتفكر في آلاء الله، التفكر في آلاء الله - في مخلوقات الله - هذا هو المقصود بما أمر الله ﷻ به في تلك الآيات، أما التفكر في الشرع، التفكر في أحكامه، فإن هذا هو الذي ينتج الفكر، وهذا الفكر قد يكون صحيحًا، وقد يكون سقيمًا.

إذًا: فإن الفكر الذي يقصد به حين قال: (فكر إسلامي) لا يقصد به التفكر في ملكوت الله، ولا يقصد به النظر في الآفاق وفي الأنفس، وإنما يقصد به النظر في الشرع، والنظر في أدلته، والنظر في التاريخ للوصول إلى نتائج معينة. وهذا غير الفكر؛ ولهذا قال بعض الأدباء - وكلامه كلام حسن - قال: الفكر مقلوب فرك، فرك الشيء يفركه فركًا، فالفكر مقلوب فرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها[٢]. وهذا في الحقيقة تعبير صحيح، وتعبير جيد يخرج بالتفكر والفكر عن المدلول العصري الاصطلاحي في قولهم: (فكر إسلامي).

إذًا: كان التفكر إنما هو في الملكوت، التفكر في آلاء الله، التفكر في

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٢٤٠)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٧/ ١٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (١/ ٣٨٤)، ولباب التأويل (٤/ ٤)، والتعاريف (١/ ٥٦٣)، وروح المعاني (١٣/ ١٠١).

الأنفس للوصول إلى نتيجة تقوي الإيمان، وتعظم في العبد تعظيمه لله ﷻ، وخوفه منه، ورجاء ثوابه، والخوف من عقابه، والقرب من جنته، والهرب والبعد من عذابه وناره، فإن هذا يخالف ما يسمى بالفكر.

والفكر في الحقيقة في الاصطلاح الجديد هذا إنما هو الرأي؛ لأننا عندنا في الشرع أدلة دلت على النهى عن الرأي، فما هذا الرأي الذي حذرت منه الأدلة؟ في الحقيقة هو الفكر؛ لأن الرأي مصدره العقل، يرى رأيه، ومعلوم أن الرأي يكون بعد ترو، فيرى بعد التروي، وهذا في الحقيقة هو الفكر؛ لأنه رأى بعد التروي، وأصدر فكرًا، أو قال فكرًا بعد أن فكر.

فالرأي والفكر متقاربان؛ ولهذا جاء في النصوص النهى عن الرأي، وجاء في كلام الصحابة والتابعين؛ كما سيأتي.

إذًا: الفكر رأي، وهذا أمر واضح؛ لأنه ناتج عن تصرف العقل وتفكير العقل، وهكذا الرأي ناتج عن تصرف العقل وتفكير العقل.

الرأي في تاريخ الإسلام أنتج لنا أشياء كثيرة، أنتج لنا الرأي آراء جديدة في العقيدة، أنتج آراء جديدة في الشريعة، أنتج لنا الرأي آراء جديدة في أصول الفقه، أنتج لنا الرأي آراء جديدة في الحديث، وما يقبل منه، وما يرد، والآحاد، وغير الآحاد، المتواتر، وغير المتواتر، والقطعي، والظني . . . إلى آخر ذلك، أنتج لنا آراء جديدة في المصالح والمفاسد، حتى قال بعضهم: «حيث وجدت المصلحة، فثم شرع الله»، وقلب الحقيقة برأيه، والحقيقة أنه «حيث وجد الشرع، فثم المصلحة»، وليس «حيث وجدت المصلحة فثم شرع»؛ لأن المصلحة مفرزة من الشرع، وليس الشرع مفرزًا

من المصلحة، فالشرع هو الأساس، وعن الشرع تنتج المصالح، وتدرأ المفاسد بالرأي، ظهرت آراء سياسية متنوعة غير السياسة الشرعية، سياسات يتبع فيها أصحابها ما يرون - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -، ظهرت السياسات الملكية والسياسات الإماراتية، وظهرت السياسات العقلية، وظهرت السياسات الفلسفية... إلى آخره، فكل يسوس برأيه، فجعلوا أن هذه المفرزات جميعًا صحيحة وإسلامية، ومرجعها إلى الشرع. أصحابها في الواقع أهل رأي، تمسكوا بقواعد، تمسكوا بأشياء من المتشابه، ونتجوا عنها بتصرفات وأفكار.

هذا هو في الحقيقة هو الذي أنتج لنا الرأي، وهو الذي أنتج بعد ذلك الفكر، إذ إن الفكر - فيما ترون في الوقت الحاضر - أنتج لنا فكرًا عقائديًا، تُكلم في العقائد من منطلق فكرى، من منطلق نظري، فقيمت بعض الاتجاهات العقدية تقييمًا فكريًا، فبعضهم قال: إن المعتزلة هم القوم، وإن أهل الحديث ليسوا بشيء، لم؟ بموازنات فكرية، فرجحوا عقيدة على عقيدة بمعطيات فكرية، فأين الدلائل؟ أين النصوص؟ أين ما يدل على ذلك؟ إنما هو الرأي المجرد.

وكذلك رجحت أنواع من المصالح والمفاسد في الدعوات، رجحت أنواع من السياسة في الدول، وسوغ بعض الناس من المفكرين لبعض الدول أنواعًا من التعامل، وأنواعًا من التصرفات بالفكر والرأي، وهذا لا شك أنه خطر عظيم وانحراف جسيم جاء في الأمة؛ نتيجة لمفكرين، نتيجة لأقوال فكرية، وتضخم ذلك، تضخم حتى غدت الأقوال والفرق والاختلافات كثيرة؛ لهذا يجب علينا أن ننصاع لدلائل الشرع العظيمة، التي تنهى عن

الرأي؛ إذ إن الرأي في دين الله مذموم، إلا إذا كان في مسائل الاجتهاد ممن كانت عنده آلات الاستنباط والاجتهاد، يعني أن من رأي رأيًا، أو قاس قياسًا، أو ظهر بأفكار، وهذا عنده لأجل تمكنه من آلات الاستنباط والاجتهاد، فهذا مقبول منه، أما أن يرى الرأي، ويصدر الفكر والأحكام من ليس عنده شيء إلا أنه قرأ وتثقف، وقال: عندي ملكة للمطالعة، وعندي ملكة الاطلاع، فهذا لا شك أنه لا يقبل، بل هو ما جاء في النصوص النهي عنه، ومن تلك النصوص أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1]. وفي رواية البخاري: «**فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**»[2]، «**فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ**» يعني: حكموا على الأمور وعلى الأحوال وعلى ما عندهم مما يحتاج إلى حكم بالرأي، يعني: بالفكر، فالرأي والفكر هما شيء واحد، فضلوا، وأضلوا، ومن ذلك حديث ابن عباس - الذي رواه أبو داود والنسائي، وحسنه الحافظ ابن حجر - أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[3].

فظهر من المفكرين من يتكلم في القرآن برأيه، ويجعل بعض المعطيات الفكرية أو النتائج هي من دلالات القرآن، حتى جعل من دلالات القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٠٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، وحسنه.

- والعياذ بالله - أمرًا مجمعًا على بطلانه، ولم يقل به أحد من أهل العلم، بل جعل من دلالات القرآن ما يدل على عقائد فاسدة، أو ما يدل على أراء، الأدلة والقواعد تقضي عليها من أسها، والأدلة في ذلك في السنة كثيرة، ومما جاء عن الصحابة في ذلك قول عمر - وهو قول عظيم -، قال رضي الله عنه: **«إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ، فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ السُّنَنِ، أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَقَالُوا بِالرَّأْيِ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**[1]، وهذا الذي قاله عمر رضي الله عنه منطبق تمامًا على بعض أنواع الفكر الذي لادليل عليه، أو الفكر الذي يهدم أصولًا، ويكون استدلال أصحابه بالمشتبهات، لا بالأصول العلمية، فنتج عن ذلك أنهم قالوا بالفكر، قالوا بالرأي، فضلوا فعلًا، وأضلوا. وهذا ظاهر في مدارس كثيرة، تراها اليوم في كثير من بلاد المسلمين.

فإذا نظرت مثلًا إلى فكر بعض الكتاب الذين تكلموا في أشياء من طريق الرأي، وجدت أنه تفرع عنهم، نشأ عنهم مدرسة مثل: مثلًا مالك بن نبي في الجزائر، نتج عنه مدرسة، مات مالك بن نبي، نتائج فكره قامت عليها دعوة، بعد ذلك تأثر به راشد الغنوشي المعروف، زعيم الحركة الإسلامية في تونس - كما يقال -، وهذا حال حركة لاتعي السنن، ولا تعي العلم، وإنما هي معطيات فكرية، حتى إنه قال في يوم من الأيام حينما سئل عن مطالبكم في تونس قال: مطالبنا أن يحكم الشعب. قالوا: فإذا اختار الشعب الديمقراطية؟ قال: ليس عندنا مانع، فإذا اختار الشعب الديمقراطية، فإننا نختار ذلك، لكن لا يجبر الشعب على اختيار لا يريده. هذا فهم للإسلام؟

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصل اعتقاد أهل السنة (١/ ١٣٨)، والدارقطني في سننه (٥/ ٢٥٦).

وإن كان دلل عليه من قبله، وهو -أيضًا- يعني عنده شبه في ذلك، لكنه عطاء فكري ليس له من الإسلام نصيب.

تبنت هذه الدعوة مواقف وتحليلات، سواء في داخل بلادها أو في خارجها، وكل ذلك نتائج مفكرين، أو نتاج فكر سابق.

كذلك في مصر، ترى أن كثيرًا من المواقف والمفرزات - مثل انتشار الجماعات المختلفة بعد دعوة الإخوان المسلمين، والجيوب التي حصلت في الجماعة، واختلاف الآراء فيها - كانت نتاج كلام فكري قاله بعض المفكرين، وتبنى ذلك الكلام أناس، فنتج جماعات، ثم تبنى أفكار أخرى جماعات أخر، فكثرت الجماعات، حتى إنه يقال: إن اليوم بمصر نحو مئة جماعة أو اسم أو قريب من ذلك، ربما للمبالغة والتكثير، وهذا نتاج الفكر.

ويأتينا أن الفكر مفرق، الفكر لا يجمع، الفكر يفرق الناس؛ لأنه إذا كان عندي أفكار، فلابد أن يكون ثم من يقتنع بهذه الأفكار، فيكون هناك تفرق في الأمة؛ هؤلاء يقتنعون بهذا الفكر.

والفكر ليس مصدرًا عقليًا، وليس نتاجًا عقليًا، والغاية عقلية، بل يتبعه عمل؛ ولهذا في كتابات - مثلًا - سيد قطب المتأخرة، بل وفي كتابه (في ظلال القرآن) نتجت هناك جماعات تتبنى أفكاره التي قالها في نحو كتاب (معالم في الطريق)، أو في نحو كتاب (خصائص التصور الإسلامي)، ونحو ذلك مما فيه انحراف عن قواعد الإسلام وعن أصول هذا الدين، نشأت جماعات... إلى آخره.

تبنت هذه الجماعات مواقف . . . إلى آخر ذلك، وكلٌّ له تبريراته، وكل له فكر، لكن العلم ليس متصلًا بذلك، بل العلم من ذلك براء.

ننتقل إلى نقطة أخرى:

الفكر ما مصدره؟

يعني: إذا نظرت في كتابات المفكر، ماذا يعتمد عليه حتى يكتب؟ ما دلائله؟ ما مصادر الفكر عنده؟ متنوعة ومتعددة، لكن يمكن أن نذكر منها: الثقافة العامة المجموعة مما علق بذهن ذلك المفكر، أو مر عليه من أدلة الشرع وكلام السابقين، وثقافته التاريخية، والواقع السياسي، ونفسية الكاتب. . . إلى آخره.

يعني أشياء مجموعة ثقافية: دليل من الكتاب، دليل من السنة، دليل من قاعدة، واقع تاريخي، قصة تاريخية. . . إلى آخر ذلك.

هذا مصدر من مصادر الفكر، فإذا نظرت في كتابات المفكر - أي مفكر تشاء -، لا تجد أنه يستدل بأمر خارج عن الكلام الإسلامي؛ ولذلك قيل عنه: إنه مفكر إسلامي، لكن هذا الكلام - الذي يستدل به، ويجعله من مصادره - هل هو مستقيم في نفسه؟ يعني: صحيح في نفسه، غير معارض، أم أنه أدلة، لكنها تدخل في المتشابه كثيرًا من الأحيان؟

في الواقع إنك تجد أدلة، بعضهم يكتب، ويبدأ كلامه التفكيري الإسلامي - كما يقولون - بقاعدة من القواعد - هذه صحيحة -، ويفرق

عنها، ويبدأ يتخذ الوسائل، ويصل إلى الغاية، والأحكام، والعلاج... إلى آخره، منطلقًا من ذلك، وكأنه ليس في تقييم ذلك الوضع، أو في علاج هذه النقطة، أو في علاج تلك المشكلة، إلا هذه القاعدة.

يذكر مسألة أصولية، يتعامل في المسألة بنص واحد، أو يذكر ثقافته، أو يكون عنده عاطفة من العواطف، فيتكلم من منطلق هذه العاطفة، يرى - مثلًا - ما حل بالمسلمين من نكبات، ما يمارسه عدو الإسلام من ضغط على الإسلام والمسلمين وإهانة وويلات... إلى آخر ذلك - مما هو مشاهد في ميادين مختلفة -، فتتعاظم نفسه ذلك، فينتج ذلك إفرازًا، هذا الإفراز يسمى: فكريًا، وهذا الإفراز يصبغه بالصبغة الإسلامية، فيستدل بآية، يستدل بحديث، ينقل كلامًا، يذكر واقعة تاريخية، وهذا يعد أكبر المصادر عند المفكرين، فيرى كثيرًا من الناس، وينظرون إلى هذا المقال أو ذلك الكتاب، فيجد أنه فيه استدلال بآية، أو فيه استدلال بحديث، وفيه استدلال بقاعدة، فيه ذكر لخبر تاريخي، لقصة تاريخية، فيرى أن ذلك الفكر صحيح، وأن ما نتج إليه كان صحيحًا، ويفعم ذلك بعاطفة قوية، وعبارة جياشة، وأسلوب أدبي قوي، فيقتنع كثير من الناس بذلك، وهذا من المصادر المهمة عندهم، وهي التي يجب أن يكون طالب العلم منها على حذر؛ لأنه - كما سيأتي - هناك فرق بين المحكم والمتشابه.

فأما الأدلة من حيث هي والاستدلال، فيمكن أن تستدل على المسائل المخالفة للدين ببعض ما جاء في القرآن، مثلًا: استدل النصارى على خصوص بعثة النبي ﷺ للعرب بقوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وفرعوا على ذلك. منهم من أباح الخمر، واستدل على ذلك

بالقرآن، قال ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، كذلك قال في الخمر: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وهذا أمر، ولم يحرم؛ لأنه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

هناك إفرازات كثيرة؛ كما ذكر ذلك الشاطبي في (الموافقات)؛ حيث قال: (ليس ثم صاحب رأي إلا ويجد في الشرع من المتشابه ما يدل على رأيه)، وهذه عمدة.

أهل الفكر في الوقت الحاضر يجدون من المتشابه - من كلام الله ﷻ، وكلام رسوله، وربما بعض كلام أهل العلم، أو الوقائع التاريخية... إلى آخر ذلك - ما يستدلون به، فيجعلون أحكامًا وأحوالًا، بل ربما أنواعًا من التعامل، والنتائج مبنية على تلك المصادر، التي هي مجموع الثقافة العامة لدى المفكر.

ثانيًا: من المصادر عند المفكرين الإسلاميين: نظرة الكاتب إلى الواقع، وكيفية علاج ذلك الواقع، وهذا يتنوع بحسب نشأة ذلك الكاتب ومدرسته، فمثلًا: ترى أن أبا الأعلى المودودي في الباكستان طرحه الفكري يختلف تمامًا عن طرح مالك بن نبي في الغرب، لم؟ لأن ذاك نشأ نشأة معينة، والآخر نشأ نشأة أخرى، فذاك متأثر بكلام المستشرقين وبالدراسات الاستشراقية وبفرنسا... إلى آخره، فنظر بمنظور آخر، وأبو الأعلى المودودي ناتج من رأيه في كيفية إصلاح الواقع، وكيف ننهض بالمسلمين، وكيف يجدد الدين... إلى آخره. عنده هذه الفكرة، فيأتي يجمع الشواهد

. . . إلى آخره؛ لكي يصوغ هذه الفكرة بصياغة إسلامية، وقد تصيب أحيانًا، وقد تخطئ أحيانًا، لكن الفكر ذاك - كما ذكرنا - منبثق من المدرسة التي نشأ عليها. إذًا مصدر من مصادر الأفكار المدرسة.

إذا نظرت في جانب آخر في جانب المنحرفين جدًا، بعضهم عاش في الاشتراكية زمنًا طويلًا، مثل: مثلا الدكتور محمد عمارة، وعاش في ذلك، وعاش، فلما رجع، وكتب كتابات إسلامية، ويسمى اليوم - نسأل الله السلامة والعافية -: مفكرًا إسلاميًا، وله أراء، وبعض الناس يتبناها، وتكتب حتى في صحفنا، تجد أنه ينبثق من ذلك الماضي الذي عاشه، فله أفكار متعلقة بذلك، فإذا كتب عن التنوير، أو التقدم، أو التطور، وكيفية صياغة العقلية، فإنما يرجع إلى معاناة سابقة، وينتج ما عنده من الأفكار بحسب ما عنده، دون الرجوع إلى الأصل؛ لأنه لم يدرس ذلك، أو لأن حياته تقلبت في أدوار مختلفة.

إذا نظرت إلى الذين اعتنوا بالاستشراق، وذهبوا، ودرسوا في الغرب وواجهوا المستشرقين في مؤتمرات. . . إلى آخره، وتكلموا عن الإسلام بنظرة فكرية، لكن بإحساس هجوم الغرب على الإسلام، مثل: الشيخ محمد الغزالي في كتاباته، ضعف نفسي أمام أطروحات المستشرقين وعيبهم في الإسلام، وهذا الضعف النفسي أراد أن يبرر أن الإسلام صحيح، وأن ما عندنا هو الصحيح، حتى ولو أخذ قولًا شاذًا من أقوال العلماء، أو استدل بواقعة، أو هدم إجماعًا من الإجماعات، المقصود أن يظهر الإسلام قويًا أمام الاستشراق. هذا وضع نفسي خاص، ينتج أنواعًا

من التفكيرات، وأنواعًا من الأطروحات التي يقدمها المفكرون، كذلك في الفن، كذلك في المباحث اللغوية والأدب. . . إلى آخره.

هناك أنماط من التفكير، ومصادر الفكر تكون واقع ذلك الشخص وحياته التي عاشها، والشيء الذي اهتم به، فيكون الفكر أبتر؛ لأن ذلك المفكر ينظر من واقعه، ينظر فيما عاناه، فيريد أن يخرج بنتائج هي في الواقع لا تحل شيئًا، وإنما تحل المشكلة التي عنده، لكن لا تحل مشكلة المسلمين، إلا إذا تصور أولئك أن كل مسلم عنده نفس المشكلة، التي عند ذلك الكاتب، وهذا لا شك أنه لا يقوله أحد.

ثالثًا: من المصادر - أيضًا - تتابع المدارس التي قرأ لها المفكر، فتجد أن من الناس اليوم من يكتب كتابات فكرية متأثرًا - مثلًا - بمدرسة سيد قطب الفكرية، منهم من يكتب كتابات فكرية متأثرًا بمدرسة المودودي الفكرية، منهم من يكتب كتابات فكرية متأثرًا بمدرسة مالك بن نبي، متأثرًا بمدرسة محمد قطب، متأثرًا بمدرسة محمد البهي، أنور الجندي. . . إلى آخر الذين يكتبون في تلك المجالات.

تتنوع المدارس، وتبدأ، يكون من المصادر الدراسات القديمة، من المصادر الأفكار القديمة، ولا شك أن هذا يحدث انحرافًا، بعد انحراف؛ لأن فكر الثاني يكون توسعة لفكر الأول، فإذا كان فكر الأول غير منضبط بضابط الشرع، فإنه يكون هناك خلل في النتائج وانحراف عن أصل الإسلام.

نصل إلى سؤال مهم، وهو:

هل الفكر كله مذموم؟

متى تذم الكتابات الفكرية؟ ومتى لا تذم؟ متى تقبل؟ ومتى لاتقبل؟

كما ذكرت في المقدمة أن الفكر والكتابات الفكرية في هذا الزمان مهمة ولا شك، ولها فوائد، لكن متى ما انضبط بضوابط الشرع، متى ما قام أصحابها عليها بنظر صحيح متأمل، رأوا فيه حق العلم، وصاغوا ذلك بقوالب فكرية ونقاشات يقتنع بها الناس، نعم، لغة العلم عزيزة، لغة العلم لا يفهمها كل أحد، اعتاد الناس في هذا الزمان على المقالات - مقالات الجرائد والمجلات -، اعتادوا على الكتب الصغيرة - كتب الجيب -، التي يأخذ منها فكرة مدللة بقناعات سطحية متنوعة، بأسلوب جذاب، فيحدث قناعات كثيرة عند الناس.

هل نلغي الفكر؟ نلغي الكتابات الفكرية؟

الجواب: ليس لأمر كذلك، بل لابد أن يكون هناك من يقوم بهذه الكتابات الفكرية، لكن على الضابط الشرعي، الذي سنذكره أو نعرض له فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

فوائد الكتابات الفكرية في هذا الزمن

أولًا: أن يخاطب الناس باللغة التي يفهمونها. لو نظر أحدكم إلى دخول طالب علم يدخل إلى البيت، ويكلم بعض المثقفين، مثلًا عنده أخ دارس

دراسة - مثلًا - مدنية، أو عنده أخ يسافر كثيرًا، أو تاجر، أو قريب له. . . إلى آخره، فإنه قد لا يستجيب للغة العلم، قد لا يفهم مدلولات لغة العلم، فهؤلاء لابد أن يوضح لهم الإسلام، وأصول الإسلام، وقواعد الإسلام، وما عليه أهل الإسلام، وعقيدة أهل السنة، وتوضح لهم الأصول في عبارات سهلة، هذه العبارات هي التي نسميها طرحًا فكريًّا؛ لأن من الناس من يكون عنده - مثلًا - الاستشهاد بواقعة تاريخية أعظم في التأثر من أن تستشهد له بحديث، إذا أظهرت له تناقضًا بين موقفين، تناقضًا في حالتين، يكون عنده أكثر إقناعًا مما لو أتيته بكلام عالم من أهل العلم؛ العقول مختلفة، فإذًا: لابد أن تخاطب الناس بما يفهمون وبما يعقلون. مخاطبة الناس بما يفهمون، وتحديث الناس بما يعقلون هذا لا شك أنه من المطالب التي يدخل فيها التحدث مع الناس بالفكر، لكن أي فكر؟ هو الفكر الذي كان العلم عليه حكمًا، ولم يكن حاكمًا على العلم، الفكر الذي صدقه أهل العلم، وصدقه النص والقواعد الشرعية.

ثانيًا: إننا نحتاج في هذا الزمن - لا شك - إلى الرد على الأعداء، الرد على أهل الخصومات في الإسلام وللإسلام.

الشبه كثرت، والآراء كثرت، فلابد من أطروحات مقابلة، وهذه الأطروحات إن كانت بصيغة علمية، لا تناسب كل الطوائف، وكل الفئات، فإن كانت بصيغة فكرية، قبلت، ولهذا نرى أنه من الحاجة أن يكون ثم كتابات فكرية، لكن كتابات فكرية صحيحة، وهذه الكتابات - بشرطها الذي سيأتي وأعظمه - أن يكون العلم حكمًا عليها، وليست منفصلة، ولا بعيدة عن العلم، هذا في جانب الفوائد.

مضار الكتابات الفكرية

في جانب المضار: هل الكتابات الفكرية - التي قرأنا منها، ورأينا منها، القديمة والحديثة - هل هذه سلمت من المضار؟

الجواب: بل إنها حوت مضارًا عظيمة وأخطارًا متنوعة، فمن ذلك - وهو أعظمه - أنها أحدثت أجيالًا تفكر دون اعتماد على العلم، والأمة لا تعرف إلا أن يكون العلم هو الأصل، فالأمة مرتبطة بالعلماء منذ عهد الصحابة، بل حتى في حياة النبي ﷺ؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، قال المفسرون: أولو الأمر هنا هم الذين يستنبطون وهم أهل العلم فالأمة مرتبطة بالعلماء أجيال الناس مرتبطة بأهل العلم(١).

يأتي في الزمن إحداث لمصطلح (فكر إسلامي)، ويقوم عليه أناس يسمون (مفكرين إسلاميين) هذا أحدث أجيالًا من الناس، قناعاتهم فكرية، لا يعون العلم، ولا يرضخون للعلم، ولا يحكمهم العلم، وإنما يحكمهم الفكر، إذا فكروا، فإنما هو بمعطيات فكرية، وإذا تناقش أحد معهم، فإنما يقتنعون بالفكر دون غيره، إذا تكلم مفكر بألفاظ جذابة، بألفاظ فضفاضة، بثياب واسعة، فإنه يقتنع، وإذا أتاهم بمصطلحات جديدة، اقتنعوا، فأتت المصطلحات الجديدة: الخروج من الذل، الرجوع إلى الإسلام إنما هو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٨٢)، وتفسير البغوي (١/ ٤٤٤)، وزاد المسير (٢/ ١٤٧).

بتحديث فهم النصوص، الرجوع إلى الإسلام إنما هو بالتطوير بفتح باب الاجتهاد، إنما هو بالتنوير، إنما هو بالتقدم في النظرة إلى النصوص، إنما هو بالنظرة الفلسفية العامة بتقديم العقل، بالعقلانية. . . إلى آخر ذلك.

وهذه كلها إفرازات لكتابات المفكرين؛ لأنه في القرن الأخير -يعني: القرن الثالث عشر - ما كان يعرف أن ثمَّة مشكلة لا يرجع فيها إلى أهل العلم، إنما كان الرجوع إلى أهل العلم الخلص، ينظر إلى كلام أهل العلم، فبدأت هذه المعطيات واحدة تلو الأخرى، حتى نشأت أجيال تفكر بتفكيرات فكرية، حتى قيل عن نبينا المصطفى محمد بن عبدالله ﷺ قيل عنه: إنه عبقري، فكتب كاتب: (عبقرية محمد).

وهل النبي ﷺ كان مفكرًا؟ كان من عند نفسه حتى يقال: إنه عبقري؟ إنما هو وحي يوحى؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٤].

فظهر استقلال في الفكر، وأجيال تتعامل مع الألفاظ، مع النصوص بمجرد رأيها، لا ترجع إلى شيء، فحدث هناك مصطلحات مخالفة: تعدٍ على الرسل، تعدٍ على الأنبياء، تُكلم بكلام إنما هو نتاج الفكر، حتى تُكلم في الصحابة، وحُللت تصرفات بعض الصحابة، حُللت الخلافة، حتى قال بعضهم: إن الخلافة الإسلامية لم تعرف الاجتماع، إلا في عهد أبي بكر وعمر، ومنذ عهد عثمان إلى يومنا هذا حدث الخلاف في الأمة والتفرق والدماء والتطاحن.

فإلى أي شيء يدعى في النصوص؟ فلابد أن يكون هناك أشياء فكرية، تجمع الناس على معطيات جديدة، ليست هي المعطيات السابقة؛ لأن

النظر في النصوص فرق الأمة - والعياذ بالله -، وهذا لا شك أنه - يعني: في الجانب الآخر الغالي -، لا شك أنه خروج عن الديانة وابتغاء لغير سبيل المؤمنين.

من المضار العظيمة - أيضًا - أن الأمة تفرقت، وإذا نظرت إلى هذه الأشياء التي ذكرنا، وبداية نشأة الجماعات الإسلامية في القرن الماضي، وكيف أن نتاج هذه الجماعات كان فكريًّا، وكيف بنيت جماعات وفئات على الفكر، نظرت أن التفرق يكون بحسب زيادة الفكر، فكلما ازداد المفكرون، ازداد التفرق، وكلما ازدادت الأطروحات الفكرية، كثرت الآراء الجديدة، وكثر التفرق، وهذه لا شك مضرة عظيمة؛ لأن الفرقة عذاب؛ كما قال ﷺ: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[1].

والأمة إنما يجمعها العلم، والفكر مفرق، الثقافة تفرق إذا لم تكن منطوية تحت لواء العلم، والعلم هو الذي يجمع، العلم هو الذي يقل معه التفرق والاختلاف؛ لأن الاختلاف في فهم النصوص هذا موجود، لكنه يكون قليلًا، أما هذا الذي تراه أفكارًا مختلفة، كل واحد عنده طرح غريب، حتى إنه غدا من آثار الفكر أن يقال: «لا فرق بين السنة والرافضة إلا في مسائل قليلة، لابد من الالتقاء»، حتى إنه يمدح رؤوس الضلال بحجج فكرية، لماذا تمدح رؤوس الضلال من مثل الخميني مثلًا وغيره؟ مدحه بعض المفكرين الإسلاميين لماذا؟ قال بكلام فكري، لا حاصل وراءه، لكن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٢/ ٩٥، ٩٦)، كما أخرجه ابن أبى الدنيا في فضيلة الشكر (١/ ٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٢)، والقضاعي (١/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٥).

حاصله أنه لابد أن تجتمع الأمة للهجوم على المستعمر، للهجوم على الدول الكافرة. . . إلى آخره.

وهل هذه مصلحة شرعية أن تجتمع مع كل أحد، حتى ولو كان هو الذي يطعن في عقيدة الأمة، ويطعن في أصول أهل السنة؟ لا شك أن هذا كلام فكري، تبنته جماعات، تبنته فئات، حتى في زمننا هذا، وحتى في بلادنا هذه هناك من يقول بمثل ذلك الكلام في الكلمات الفكرية العامة، قيل بتصحيح بعض الأوضاع، كلما جد أمر وظهر حال، أو ظهرت نازلة بالمسلمين، أو جد شيء، تعامل معها الكتاب هؤلاء من نظر فكري مجرد، هذا ينظر إليها من الجهة الفلانية، والآخر ينظر إليها من الجهة الأخرى، وتحدث أراء في الأمة جديدة، وتتفرق الصفوف لأجل تلك الآراء، فالفكر - سواء كان قريبًا من العلم، أو كان بعيدًا - هو يفرق ما لم يكن العلم حكمًا عليه، ولا شك هذا ضار، لا شك أن هذا ضار جدًا، وضرره بين لكم في ما حصل من أنواع التفرقات في الأمة، وتنوع الأقوال والمدارس.

من مضاره - أيضًا -: أنه نتج في المفكرين أن يصدروا أحكامًا على العقيدة الصحيحة، وعلى الفقه الصحيح، وعلى أصول الحديث، وعلى السنة، فأهَّل المفكر نفسه، وجعل نفسه - لأنه مفكر إسلامي - يخوض في كل مسألة، حتى في الموازنة بين العقائد، فيدخل، فيوازن بين العقيدة الفلانية والعقيدة الفلانية، بطرح فكري. السنة ما يقبل منها وما يرد بعطاء فكري. مخالفة بعض الأحاديث للعقل وللفكر يعرض لها، وتثبت بعطاء فكري... إلى آخره. تحليل الدول والوقائع التاريخية كل ذلك بعطاء فكري، ولا شك أن هذا لا يقبل من أصحابه، وهو سبب إظهار ووجود جماعات

وفئات جديدة وطوائف من الناس تفكر في الحكم على كل شيء، أصبحوا - أعني أولئك المفكرين - أصبحوا حكامًا ومجتهدين، فلا يتورعون عن الحكم على أي شيء، وعلى أي واقعة، ويحللون أي شيء، ويعللون، ويدللون، وتجد أن لهم من يساعدهم ومن يأخذ بأفكارهم، ويتبنى أقوالهم، وهذا - لا شك - أنشأ أنواعًا من المضار والانحرافات في الأمة.

واجب المفكرين

والسؤال الآن: ما واجب المفكرين؟

خطاب لمن يكتب كتابات فكرية، ويريد منها نفع الأمة، سلمت نيته وطويته، وخشي لقاء الله ﷻ، وخاف عذابه، ورغب في جنته، وخطاب - أيضًا - لأولئك الذين تجرؤوا على كتابة فكرية، وكل طرح بمجرد وجود مجموعة من الأفكار والثقافة والاطلاع عند أولئك:

يجب أولًا: على الجميع في ذلك تقوى الله ﷻ، وأن الكتابة إذا كانت فكرية، فإنه لابد أن يحذر صاحبها الذي كتبها أن هناك من سيقتنع به، «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»(١)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١)، وهذا أمر عظيم أن ينظر الكاتب فيما يكتب، والمرء مسؤول عما كتبه، مسؤول عما قال، فإذا أعد ليوم القيامة، وللسؤال جوابًا، ورأى منزله أين يحب أن يكون، فإنه - إذن - سيتحرى إن كان من مريدي الخير ومحبي ربهم ﷻ.

الثاني: الواجب أن يخضع الجميع للعلم، وألا يرفعوا الفكر على العلم، والعلم هو قول الله ﷻ، وقول رسوله ﷺ، وقول الصحابة، وقول أئمة الإسلام، قواعد الشرع المرعية، وهذا هو الذي ينجي، وهو الذي أذن الله ﷻ باتباعه، أما الفكر، فإن كان تابعًا للعلم، فهو مقبول ومنج، وأصحابه ناجون، وإن كان مخالفًا للعلم، فأصحابه على هلكة، فلابد - بل يجب على كل من يكتب كتابة فكرية - أن يكون رجاعًا إلى العلم، وأن يكون العلم حكمًا عليه، وهذا يكون بمراجعة أهل العلم لما يكتبه ممن يريد الكتابة الفكرية العامة، فإنه قد يستنتج استنتاجات غير صحيحة، وقد يستدل بأدلة غير محكمة أو معارضة، أو فهمها على غير فهمها، أو نظر فيها على غير الصحيح، قد يستدل بواقعة تاريخية، والتاريخ ليس حجة، وقد يستدل بفعل بعض العلماء في الزمن الماضي، وفعل بعض العلماء ليس بحجة. . . إلى آخره.

من الذي يزن هذه الأمور؟ من الذي يزن الصحيح من ذلك وما ليس بصحيح؟ إنما هم أهل العلم، فمن أراد كتابة فكرية يريد بها نفع الناس

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

ومخاطبة الناس بما يفهمون: «**حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ**»[1]، من أراد ذلك، فعليه أن يجعل العلم حكمًا، ويجعل أهل العلم مراجعين لكلامه وللكتابة؛ حتى تكون نافعة غير ضارة، ولا مخالفة لقواعد الشرع، كل ذلك بعرضها على أهل العلم وأهل الشأن.

الثالث: أن لا يدخل المفكر في كل شيء، أن لا يكون مجتهدًا، يظن نفسه أنه بما عنده من المعلومات والثقافة وحسن الأسلوب يخوض في كل أمر، فيعرف حده، فما حد الفكر الذي يخوض فيه؟ ما هو الذي يجوز له من ذلك؟ لا يجوز له أن يكون مجتهدًا على العقيدة، حكمًا على الفقه، حكمًا على الحديث، حكمًا على الأحاديث من حيث ثبوتها وعدم ثبوتها، من حيث ما يقبل وما لا يقبل، حكمًا في المسائل الفقهية، حكمًا في قواعد الشرع، حكمًا في التاريخ، حكمًا على العلماء، حكمًا على الفئات، حكمًا على الجماعات، حكمًا على وجهات النظر؛ لأن المفكر إنما يعرض رأيه، والرأي إذ لم يكن مستندًا إلى أدلة صحيحة في العلم والشرع، فإنه رأي، والرأي - كما قلنا - مذموم، إلا ما وافق فيه أصحابه الشرع.

فإذًا: لابد من أن يعلم المفكر حدوده، في أي شيء يتكلم؟ ما حدود الكلام؟ وإذا عرف حدوده، وأن الفكر يخدم الأمة، إذا كان في بيانه محاسن دينها، إذا كان فيه وسيلة يقظتها، إذا كان في تصحيح عقولها من الخرافات، إذا كان في تثقيفها، إذا كان في أخذها بوسائل الحضارة وتفهيمها أصولًا، ألفاظًا، معطياتٍ جديدةً، فيريد أن يعرضها للأمة بصيغة فكرية، هذا لا شك

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

أنه يخدم، يحلل، يكتب عن تحليلات لخبر، أو لحادثة تاريخية، أو لحوادث من السيرة، فتكون بعد ذلك معروضة على أهل العلم.

هذه الحدود لا شك أنه يحتاجها الناس، ويحتاجها طوائف من الشباب والكبار ومن المثقفين وغير المثقفين؛ لأجل أن يُبيَّن للناس حقيقة هذا الدين بما يناسب أهل العصر.

الرابع مما يجب على المفكرين: أن يحرصوا ألا يفرقوا الأمة، وألا يحدثوا حدثًا فيها، فكلما حدثت معطيات فكرية جديدة، وألفاظ اصطلاحية جديدة - تنوير، تقدم... إلى آخره -، يتبعها أناس، وهذا يفرق الأمة، لو استعمل المستعمل ألفاظًا فكرية يستعملها غير الإسلاميين من أصحاب تلك الألفاظ، فإنه يوقع الناس في شك، ويوقع الناس في تبعية ومراجعة؛ لذلك فتلك الأفكار يجب أن لا يدعى إليها، وتلك الأفكار يجب أن لا يؤخذ بها؛ لأن الأخذ بها تفريق للأمة، فإنما يؤخذ بالفكر - كما ذكرنا - الذي يجمع الأمة، وهو ما وافق العلم، أما الفكر الذي يفرق الأمة، فإنه مذموم؛ إذ الواجب أن تجمع الأمة على ما اجتمع عليه سلفها الصالح، وعلى ما اجتمع عليه الرعيل الأول من وحدة العقيدة، ووحدة التلقي للنصوص، ووحدة التفكير، وهذا إنما يكون بالرجوع إلى العلم، وبالتربية، والعرض العلمي.

الخامس: أن لا يغتر المفكرون بأنفسهم، فربما رأى المفكر أنه ربىٰ، وارتفع من أن يكون منقودًا، فيظن في نفسه أنه مؤهل بأن تكون كلمته هي الصواب، وهذا باطل؛ لأن المفكرين - بحسب الواقع - الأصل في

كلامهم الخطأ، وقليلٌ منهم من يصيب ويوافق الشرع، فهؤلاء المفكرون يجب أن لا يغتروا، وإذا رد عليهم، أن يقبلوا إذا كان ديدن الجميع الحق، وإذا كتب إليهم أو عنهم أو انتقدوا، فإن المفكر يخطئ ويصيب، وخطؤه - كما ذكرنا - في الغالب - يعني من حيث الواقع - أكثر من صوابه، وربما بعضهم يكون صوابه أكثر من خطئه، لكن في الغالب من لجأ إلى الفكر، فإن أخطاءه كثيرة؛ ولهذا يجب عليه أن لايرتفع عن النقد، وهذا النقد له درجتان: نقد قبل النشر، ونقد بعد النشر، فقبل النشر لابد أن يعرضه، فينتقد ما كتب، يعرضه على أهل العلم؛ حتى يقوموا كتابه، ثم بعد النشر قد يكون فات الأول أشياء، فينقد مرة أخرى؛ حتى تكون الكتابة سليمة غير مردودة. فإذًا لابد عليه أن يرحب بالنقد.

العلم

وما هو العلم؟ لا شك أن العلم هو الأصل، والعلم ليس بحاجة إلى النقد، إلى أن يفصل عنه، فصلنا عن الفكر والعلم معلوم، والعلماء معلومون، فالعلم كما قال ابن القيم[(١)]:

العِلمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُم أولُو العِرفَانِ

مَا العِلمُ نَصبكَ لِلخِلاَفِ سَفَاهَةً بينَ الرَّسُولِ وَبَينَ رَأيِ فُلاَنِ

العلم هو فقه النصوص، العلم هو الرجوع بالأمة إلى أصل الرسالة،

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٧٩).

ألا وهو تلقي الكتاب والسنة، والعمل بذلك، وهذا العلم هو الذي تحتاجه الأمة، وهو الذي يجب أن يسير به الناس أفرادًا وجماعات، عاملين للإسلام أو غير عاملين، خاصة أم عامة، فإن الجميع إذا رضخوا للعلم، فإن العلم هو المرجع، فهو الذي به تؤهل الأمة إلى أن تكون قوية على أعدائها صابية وراغبة وواصلة إلى ما يراد لها ومنها.

العلم ممدح أهله، مدحهم الله ﷻ في كتابه، ومدحهم النبي ﷺ في سنته، وهذ الحديث عنه يطول، من ذلك قوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، معنى هذه الآية: يرفع الله المؤمنين، يعني: من هم على مرتبة الإيمان من أهل الإسلام، هم مرفوعون، وأهل العلم من المؤمنين مرفوعون على غيرهم درجات: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فالذين أوتوا العلم مرفوعون بنص القرآن على غيرهم درجات، فمن فضل مفكرًا على عالم، أو اتبع مفكرًا على عالم، وجعل درجة المفكر فوق درجة العالم، فإن هذا ناقض هذه الآية، وخالف هذا الذي جعله الله ﷻ منَّة منه، وتكرمًا، وفضلًا لأهل العلم، ورفعًا لدرجاتهم، لابد أن العلم منه محكم ومنه متشابه، وقد قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

العلم منه محكم ومنه متشابه، النصوص منها ما هو محكم ومنها ما هو متشابه، فما المحكم منها؟ الواضح البين الدلالة. المتشابه هو الذي لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، يحمل المتشابه على المحكم، يرد المتشابه إلى المحكم، فمن استدل بالمتشابه، وترك المحكم، أو لم يجعل المتشابه راجعًا إلى المحكم، فإنه ممن سمى الله، فاحذروهم، ممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذًا: العلم المحكم منه بيّن، والمتشابه منه لا يدركه إلا أهل العلم، صنيع العلماء، صنيع الراسخين في العلم التمييز بين المحكم والمتشابه، يستدل بالمحكمات، ويصرف المتشابهات إلى المحكمات، أما صنيع المفكرين، صنيع الجهلة، أو صنيع القراء، أو صنيع أهل الهوى، فإنهم يستدلون بالمتشابهات، ويتركون المحكمات، يستدل بالمتشابه من السنن، يستدل بالمتشابه من الآيات، فلا غرابة أن استدل الخوارج إلى بدعهم في القرآن والسنة، لا غرابة أن يستدل المعتزلة على بدعتهم وضلالاتهم بالكتاب والسنة، لا غرابة إن استدل الجهمية، والصوفية . . . إلى آخره على ضلالاتهم بالكتاب والسنة، لم يستدلوا بالمحكمات، وإنما استدلوا بالمتشابهات، والعلم لو لم يكن فيه التشابه، لتعاطاه كل واحد، ولم يفنِ فيه أهل العلم أعمارهم؛ حتى يفقهوا مراد الله ﷻ من كلامه.

والمتشابه والمحكم يناله كل واحد، وهذا لا يكون، فإنما العلم للراسخين في العلم، الذين استوعبوا حياتهم فيه، وعرفوا مدلولات النصوص.

المفكرون في العصر الحاضر عندهم أدلة وشواهد وأقوال ومحكمات، ولكن إذا نظرت إلى ما جاؤوا به من القرآن والسنة، فقليل منه ما هو صحيح الاستدلال، ومنه - وهو الأكثر - ما هو من المتشابه، مما يشتبه هذا منه بذاك، وهذا يضل الأمة، ويجعلها في انحرافات فكرية وسلوكية وعقدية، وأجيال تتبع أجيالًا في انحرافات وأفهام، ومفاهيم إنما كان نتاجها اتباع المتشابه وترك المحكم.

والعلماء هم الذين يعلمون المتشابه ويعلمون المحكم، وليس كذلك المفكرون؛ ولهذا فإنه ينبغي أن تعلم يقينًا أنه ليس كل من استدل على كل شيء بكلام الله ﷻ أو بكلام رسوله أن يكون صحيحًا في نفس الأمر، والأبعد من ذلك أن يستدل المفكر على ما يريد بحدث تاريخي، أو يستدل بواقعة، أو يستدل بتحليلات، أو يستدل برأي، أو يستدل بقول عالم مضى، أو بفعله؛ فإن هذا إيغال في البعد، لأنه في أفعال أولئك، وفي أقوالهم، وفي أحوالهم ما هو متشابه من باب أولى، فإذا كان في كلام الله وكلام رسوله ما هو متشابه، فمن باب أولى أن يكون في كلام بعض أهل العلم، وفي أفعالهم، وتصرفاتهم، وتقسيماتهم ما هو من المتشابه؛ فلهذا تجد أن من المفكرين من يحيل على بعض المتقدمين، ويحلل أو ينقل واقعة، أو ينقل كلام بعض أهل العلم، وينقل من الكتب... إلى آخره، وإنما هو كلام فكري؛ لأنه استدلال بالمتشابه، وهو سمة أهل الرأي وأهل الفكر.

ثمرة العلم

العلم له ثمرة عظيمة، وأول ثمراته سلامة التدين، فالمفكر الإسلامي -كما يقولون- إنما يريد أن يحمل الناس على التدين، وأن يجعلهم في تصور -كما يقولون- في تصور إسلامي صحيح، وهذا ليس نتيجة حتمية، بل إنه في النتيجة الغالبة أن لا يكون كذلك، لكن العلم يحمل على سلامة التدين؛ لأن العلم إذا أخذ بقواعده وأدلته وأصوله على منهج السلف الصالح، فإنه يحمل على سلامة التدين، وسلامة الاعتقاد، وسلامة التصرف، وسلامة النظر، وسلامة التعاملات المختلفة مع الواقع، مع النفس، مع الأهل، مع جميع الأحوال والمستجدات.

أما الفكر والرأي، فهو متقلب؛ ولذلك تجد أن الناس لما لم يكن العلم حكمًا عليهم، فإنهم كلما جدت لهم حادثة، انتظروا الأفكار، انتظروا الأقوال، فتظهر أفكار عشرة عشرون في الواقعة الواحدة، وكل يحلل بنفسه، فتجد التفرقات، وفي المجلس الواحد يتنوع الأربعة إلى أربعة أقوام، وهذا رُئي وسيرى، مادام أن الفكر هو المرجع، وأما إذا جعلنا العلم هو المرجع، فإنه سيضيق الخلاف، سيضيق حتى يكون الناس على تدين صحيح ونظر صحيح.

أخيرًا: من ثمرات العلم أن العلم يجمع، والفكر يفرق، وهذه من كلمات مفتى الديار السعودية في زمنه الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه في وقته لما رأي انسياق الناس للثقافات في آخر زمنه، وترك الناس العلم

- قبل أن تعرف الجماعات، أن تعرف الطرائق والفئات في هذه البلاد -، قال تلك الكلمة لبعض خاصته ولبعض طلبة العلم، فقال: «أوصوا الناس بالعلم؛ فإن العلم يجمع، وإن الفكر والثقافة تفرق»، وهذا صحيح، وقد رئي ذلك، فالعلم هو الذي يجمع، والثقافة تفرق.

إذا اختلفت مع آخر في مسألة، وكان المرجع فيها هو العلم، يرضخ الجميع، خذ مسألة فقهية: قلت: والله، إن الحكم كذا، والآخر يقول: لا، الظاهر أن الحكم فيها كذا. ورجعتم إلى عالم، فقال قولًا، اتفقتم على صحة قوله، فاجتمعتم بعد اختلاف في الرأي في تلك المسألة.

الاختلاف في الفقهيات أمره سهل، لكن كيف إذا كان الاختلاف في مسائل أعظم من ذلك، في مسائل تتعلق بمصير الأمة، بمصير دعوة، بإصلاح الأمر والنهي . . . إلى آخر ذلك الكلام، بالجهاد ونحو هذه الأمور، فإن الاختلاف إذا وقع دون الرجوع إلى أهل العلم، أبشر بالتفرق.

والأمة أخذ عليها الميثاق أن تتبع الرسول ﷺ، كما أخذ على من قبلنا أن يتبعوا رسولهم، أو أن يتبعوا رسلهم عليهم السلام قال ﷻ في النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤]، أخذ عليهم الميثاق أن يتبعوا العلم، وأن يتركوا الرأي، فما الذي صنعوا؟ كما قال ابن شهاب الزهري: (إن اليهود والنصارى ما ضلت إلا بالرأي)، أخذ على النصارى الميثاق أن يتبعوا العلم، أن يتبعوا ما ذكروا به، فأخذوا بالرأي فما الذي حصل؟ تفرقوا، والتفرق عقوبة من العقوبات، قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ

قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ﴾ [المائدة: ١٤] أي: تركوا ﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ من العلم، فأخذوا بالآراء والأهواء، فتفرقوا، قال ﷻ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التفرق ليس مجرد فرقة، ولكن التفرق سيتبعه بغضاء، وسيتبعه شحناء، وسيتبعه بغض، حتى يكون بغضًا في الله من أجل التفرق، وسبب التفرق هو عدم أخذ العلم في الأصل، واتباع الآراء.

فالعلم جامع، والثقافة والفكر تفرق، وهذا واضح في تاريخ الأمة وتاريخ ما حصل في العصر الحديث من أنواع التفرقات: في الأفكار والمفاهيم، وفي الفئات والجماعات، حتى في العداوات بين المفكرين والكتاب، ونشأة المدارس المختلفة.

نلخص ونقول:

الفروق بين العلم والفكر

ما الفرق بين العلم والفكر؟

* العلم أدلته منضبطة، أدلته معلومة، هي ثلاثة عشر دليلًا، وبالتفصيل عشرون دليلًا؛ كما ذكر ذلك القرافي في كتبه الأصولية[1].

* أما الفكر، فأدلته غير منضبطة، الفكر سياح، ترى مرة من أدلة المفكر

---

(١) انظر: الفروق للقرافي (١/ ١٢٨) قال رحمه الله: (الْفَرْقُ السّادِس عشر بيْن قاعِدةِ أدِلّةِ مشْرُوعِيّةِ الْأحْكامِ وبيْن قاعِدةِ أدِلّةِ وُقُوعِ الْأحْكامِ) فأدِلّةُ مشْرُوعِيّةِ الْأحْكامِ محْصُورةٌ شرْعًا تتوقّفُ على الشّارِعِ وهِي نحْوُ الْعِشْرِين).

حدثًا تاريخيًا، ويستدل به على الحكم على نازلة وواقعة من الواقعات، التي تحصل في هذا الزمن، متى كان التاريخ دليلًا؟! يأتي المفكر، فيقول: أهل بلد من البلاد - كما ذكر المؤرخون - تصرفوا - لما قل الخبز، وكثر الجوع، أو نحو ذلك - بأن قاموا بمظاهرات عامة، فهذا أصل من أصول جواز المظاهرات في الإسلام. متى كان الاستدلال بمثل هذه الأشياء دليلًا؟! هذا فكر، رأي، وهذا الفكر غير صائب، وهذا الرأي غير صائب؛ لأنه استدلال بتاريخ، والفكر غير منضبط، سياح، ممكن أن أقول أي كلمة، وأستدل عليها بأي شيء، لكن الكلام ليس في أن تقول تعليقًا أو تفسيرًا لرأيك، لكن الكلام أن يكون هذا التفسير وهذا التعليل مقبولًا صحيحًا. يأتي آخر، فيستدل بأن أهل الحديث تنكبوا عن الصناعات، وتنكبوا عن الدخول في الإنتاج العلمي، وقال: إنه في تاريخ المسلمين ما أنتج التقدم، ولا الحضارة، ولا الاكتشافات، ولا أثرى المكتبة، إلا أصحاب العقل - أي: العقلانيون -، فهم الذين شجعوا الصناعة، وشجعوا الأفكار الحضارية، وتقدموا، وأنتجوا الطب والرياضيات. . . إلى آخره. فلا يعرف من المحدثين من كان كذلك، فهذا دليل على أن مدرسة أهل الحديث مدرسة قاصرة عن أن تقود الأمة، والمدرسة السلفية قاصرة أن تقود الأمة - نعم في الأحكام هناك آراء، لكن فيما نفع به الناس الأمة -، فإنما هم المعتزلة، فالمعتزلة هم الحقيقون بقيادة الأمة في الزمن الماضي وفي الزمن الحاضر، فالأفكار العقلانية هي التي تتقدم بالأمة، وأما المحدثون أو الصحافة إنما هم مجرد وعاظ، هذا حدث تاريخي، أو تحليل تاريخي، يستدل به ذلك على إبطال أصل من الأصول، ودليل من

الأدلة الذي فيه أن الفرقة الناجية إنما هم أهل السنة، وهم أهل العلم والجماعة[1]، وجود أولئك يحكم عليه أهل العلم: هل هو جائز أم غير جائز؟ الصناعات لا يحرمها أهل العلم، والمعطيات الحضارية لا يحرمها أهل العلم، ومن حرمها فلقصور نظره، أو عن فهم لبعده عن فهم مقاصد الشرع، فأولئك يحكمون، هم أطباء، هم أطباء القلوب، سائرون بالناس إلى الدار الآخرة، فمن وجد ليقوِّم الحياة الدنيا، ويعطي معطيات حضارية، وصناعية، واكتشافات - طب، هندسة . . . إلى آخر ذلك -، وضوابط كيميائية، فيزيائية، فلكية في الأمة . . . إلى آخره، هذا إنما يحكم على فعله: هل الفعل صحيح أم غير صحيح؟ ولا يعني أن ما ذكر من أنهم هم القادة، بل القيادة معروفة، إنما هي في الدين لأهل العلم، أما ذلك الاستدلال الفكري، هذا سياح، غير منضبط، استدل بشيء من التاريخ في إبطال أصل من أصول الشرع، هناك من يقتنع بالعمل بذلك، ويردده في هذه المسألة.

---

(١) كما في حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن جاء من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو، رضي الله عنهم أجمعين.
أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧، ٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧)، (١٨/ ٧٠)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨).

* **الثاني من الفروق**: أن العلم له أصول يوزن بها.

* والفكر ليس له أصول يوزن بها، إذا تكلم أحد في مسألة علمية، فتستطيع أن تزن: هل كلامه مقبول أم غير مقبول؟ هل كلامه قوي أم غير قوي؟ أما الفكر، فما ضوابطه؟ ما أصوله؟ أريد أن أزن كلامًا فكريًا -يعني: من عامة الناس-، فيزن بأي شيء؟ لا يستطيع أن يصل إلى موازين معروفة، فالعلم له موازين، وأما الفكر فإنه غير منضبط، وليس له موازين وأصول يقيم بها، إلا الرجوع إلى العلم، فإنه هو الحكم عليه.

* **الثالث**: العلم الأصل فيه المدح، والأصل في أهله المدح.

* وأما الفكر، فهو الرأي، والرأي الأصل فيه الذم، وهذا فرق عظيم بين الأمرين.

* **الرابع**: العلم حاكم على الفكر، حاكم على الأفكار.

* والرأي والفكر محكوم عليه، وهذا فرق مهم بين هذا وذلك.

* **الخامس** - وهذا تلخيص لما سبق -: العلم جامع، ويجمع الأمة، وينبذ الفرقة، يقلل الاختلاف، ويقلل المدارس المختلفة.

* أما الفكر والرأي، فإنه يفرق، ويزيد من المدارس، ويزيد من الاختلاف، وهذا الاختلاف وكثرة المدارس تنتج تحزبات، تنتج آراء، يتبعها مواقف شتى.

آخر كلمة في هذا البيان أن ما ذكر نريد منه الوصول إلى نتيجة مهمة، ألا وهي: إن العلماء في دين الأمة وفي مواقفها هم القادة، هم الذين يبينون

للناس ما يحل وما يحرم، ما ينبغي اتخاذه وما لا ينبغي اتخاذه، ما يجوز وما لا يجوز، كيف تتخذ المواقف، كيف يحكم على الضوابط، على الأفكار . . . إلى آخره.

العلماء هم المؤهلون لذلك، هم المرجع في أمور الدعوة، هم المرجع عند الاختلاف، هم القادة، وهم الدعاة إلى الدين، فإذا كان المفكرون هم قادة الدعوات، وإذا كان المفكرون هم رؤساء الجماعات، فإنه لا شك سينتج أن تلك الجماعات تكون غير منضبطة؛ لأن الأصل الذي بنيت عليه - وهو الفكر - غير منضبط، سترى تصرفات كثيرة في الفئات لا يقرها العلم، والعلم مرجعه واضح، وإن اختلف أهل العلم، فالاختلاف يكون قليلًا وقريبًا، وأما المدارس المختلفة الناتجة عن الفكر، فانظر مثلًا إلى اختلاف الجماعات والمدارس في بعض البلاد، كيف آل بهم الأمر إلى أن يعادي بعضهم بعضًا، وأن يقتل بعضهم بعضًا، نسأل الله ﷻ السلامة والعافية.

إذًا: المفكرون لا يصلحون قادة في أمر الدين، لا يصلحون أن يكون حكامًا على الأوضاع، حكامًا على الآراء، حكامًا على أهل العلم، المفكرون لا يجوز أن يتحكموا في مصير دعوة الله، دعوة الله مرجعها الكتاب والسنة والذين يفقهون الكتاب والسنة هم الذين يتأهلون لأن يقودوا الدعوة، فالمفكر ينبغي أن يقف عند ما حُدَّ له، وإذا جاوز ذلك، مجاوزته عليه، لا له، المفكر لا يصلح له أن يقيم المصالح والمفاسد، لا يصلح أن يعرض بفكره المصالح والمفاسد، فيقول: هذه هي المصلحة، وهذه هي المفسدة، يقيم وضعًا اجتماعيًا، يقيم دولة، يقيم موقفًا من المواقف،

ويقول: المصلحة في كذا، والمفسدة في كذا. ما دليلك على ذلك؟ والله، هكذا نرى، هكذا أدى إليه الرأي والفكر. لا يجوز للمفكر أن يكون كذلك، وإنما من يقيم المصلحة والمفسدة هم أهل الشرع؛ لأن الشريعة - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها(١).

إذًا: متى يصح من المفكر أن يفكر وأن يكتب؟ إذا كان محكومًا بالعلم.

نصيحة

وفي النهاية نصيحة موجهة إلى شباب الأمة، إلى المفكرين، وإلى أهل العلم أن يقوموا بواجب العلم، وأن يقيموا الأمة على العلم، وأن يوسعوا قاعدة العلم؛ لأن الأمة أشد ما تكون حاجة إلى العلم، والعلم هو القاعدة، وقد قرر ذلك جمع من العقلاء والمفكرين بعد أهل العلم، فالجميع متفق على أن القاعدة التي تنطلق منها الأمة هي العلم، ولكن من الذي يأخذك بذلك؟ الناس بحاجة إلى العلم، بحاجة إلى من يرجعهم إليه، من يبينه لهم ... إلى آخر ذلك.

الفكر والكتابات الفكرية لابد أن تقيمها، لا تعتمد على أفكار الكتاب، لا تجعل قراءتك في الكتب الفكرية هي الغالبة عليك في يومك وليلتك، إنما ليكن الغالب العلم؛ لأن العلم هو الذي ينور الصدور، أما الفكر، فإنما هو رأي، وإذا جعلت العلم هو الأصل، كان الفكر في مكانه الصحيح، وكنت

---

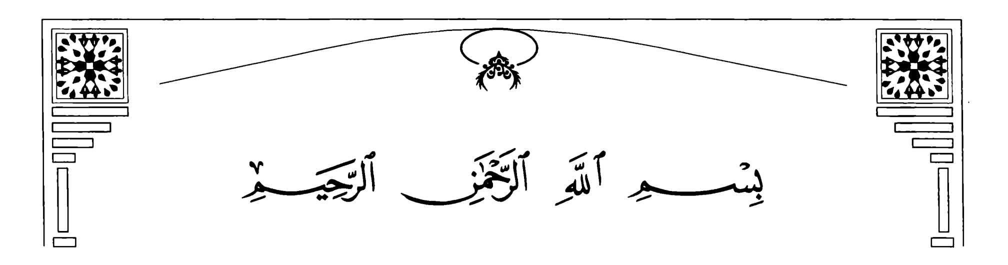
(١) انظر: الاستقامة (١/ ٢٨٨).

سائرًا بتثقيف وبفكر يمكن أن تخوض به فيما يخاض به في المجتمع من الأفكار والأقوال، لكن إن كان علمك قليلًا، فإنك تكون ريشة في مهب رياح الأفكار، وهذا - لا شك - يقود إلى خلل في الفكر وخلل في التفكير.

كتابات المفكرين الذين يكتبون الكتابات المختلفة من الموجودين المعاصرين أو ممن توفاهم الله ﷻ يجب أن تضعهم في مكانهم الصحيح، وأن لا تكون تلك الكتابات حكمًا، ولا مدرسة، ولا قيادة، وإنما هي شواهد، وإنما هي أفكار، يقبل منها ويرد.

هذا، واسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من الدعاة إلى سبيله، وأن يختم لنا بالحسنى، وأن يجعلنا ممن رضي عنهم وأرضاهم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ.





محاضرة: «تعميق الصلة بين الشباب والقيم الإسلامية»

وقد قام فضيلته بإلقائها في جامعة الملك سعود بالرياض

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ، فإن هذا الموضوع - وهو (الصِّلة بين الشباب والقِيم الإسلاميَّة) - مَوْضوعٌ مُهِمٌّ، واختيارُه اختيار مُوَفَّق؛ لأن الحديث عن القِيم الإسلاميَّة إنما هو حديثٌ عن الدِّين وعن الإسلامِ، الذي هو عِصْمة أمرِنا.

لا شكَّ أن العِناية بالشباب أمر مهم، وتَلَمُّس أسباب النهوض بالشباب هو تَلَمُّس لأسباب النهوض بالأمة، وبقائها على قُوتها، وعدم ذوبانها في الحضارات والمدنيات المختلفة، ونحن نرى أن الشباب بحاجة إلى موضوعات تُؤَصِّل ما ينبغي أن يُعْمَل تجاههم، كل بحسب مجاله.

ولكي نستطيع أن نُبيِّن أهميَّة هذا الموضوع لا بُدَّ لنا من أن نَتعرَّض لذكر عدد من الأمور:

أولًا: التعريف بالقيم.

ثانيًا: ما الفرق بين القيم والعادات؟

ثالثًا: ما صِلة القيم بالدين الإسلامي؟

رابعًا: هل القيم تتعدد فيها المفاهيم وتختلف؟

خامسًا: ما خصائص القيم الإسلامية، ولماذا التركيز عليها؟

سادسًا: ما أهمية القِيم الإسلامية في هذا الوقت تحديدًا؟

سابعًا: مرحلة الشباب وامتثال القيم، الإيجابيات والسلبيات.

ثامنًا: ما عوامل بروز امتثال القيم، وعوامل التفلت منها؟

وكذلك لا بد لنا من أن نتحدث عن انفعالات الشباب وهمومهم، وتأثير القيم الإسلامية عليهم، وعن أسباب انحراف الشباب عن القيم، أو ضعف تمسك الشباب بالقيم، وأسباب ذلك، وما هي الوسائل الإجمالية التي يمكن أن تقوي التزام الشباب بالقيم الإسلامية؟

لا شك أن الموضوع يمكن أن يضاف إليه غير هذه العناصر، لكن هذه العناصر تعطي إشارة أو إشارات لِما يمكن أن يَخْدُم هذا الموضوع.

إن لكل أمة حضارةً وقيمًا، وهذه القِيَمُ تَعْتَزُّ بها تلك الأُمَمُ؛ لأنها من عناصر مُمَيِّزاتها، ومن أسباب بقائها، فكل مدينة ظهرت أو كل دولة لا بد من أن يكون لها هدف، وللوصول إلى هذا الهدف لا بد من الاعتماد في تحقيقه على الشباب؛ لأنهم هم الذين يضمنون لنا استمرارية تلك الحضارة أو المَدَنية أو تلك الدولة.

ولكي يصل الشباب إلى تحقيق ذلك الهدف المنشود لا بُدَّ لهم من التمسك بالقيم، فما من إنسانٍ إلا وله مميزاتٌ، هذه المميزات يُمكن أن

يُطلق عليها اسم القيم، ولهذا عَرَّف بعضُهم القِيَم أو الحكم القيمي بأنه: تَكَوُّنٌ فَرْضِي ينشأ عن تفاعل المدركات العقلية لدى الفرد مع الوجدان أو مع الضمير والإحساس، ويصدر عنه في التقدير مواقف حياتية مختلفة، بما يكفي لتوجيه سلوكه على ضوء نسق القيم في المجتمع والدلالات القيمية التي يمثلها.

القيم الإسلامية عُرِّفت بأنها: تَكَوُّن فَرْضي لدى الفرد مُشبع بدرجة عالية بالقيم الخُلقية الإسلامية، يُحدد الإطار العام للفعل السلوكي الإسلامي، بما يمكن للفرد معه من إدراك عناصر الموقف الاجتماعي، واتخاذ القرارات الخلقية في ضوء البدائل المتاحة في ذلك المجتمع على بصيرة من الآثار اللاحقة للسلوك، بما يتماشى وروح الإسلام.

إذًا: هناك اتصال بين القيم والأخلاق الإسلامية بمفهومها العام؛ لهذا يذهب بعضهم عن مفهوم القيم وعن تعريفها والتركيز عليها - لأجل اشتباه القيم بالعادات - إلى مصطلح شرعي، وهو الأخلاق، ويعبر عنه بالأخلاق الإسلامية بدل القيم الإسلامية، باعتبار أن الأخلاق تشمل كل ما ذكر آنفًا من صياغة العقل، وبالتالي صياغة السلوك والمواقف تجاه المجتمع وعلاقته بالآخرين.

لهذا قيل: إن الأخلاق الإسلامية هي مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي فقط؛ لتنظيم حياة الإنسان وتنظيم علاقته بغيره على نَحْوٍ يُحقق الغاية من وُجوده في هذا العالم على أكمل وجه.

وهذا ينبهنا إلى أن القيم والأخلاق تربطهما صلة وثيقة؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّم مَكارِمَ الأَخْلاقِ**»(١).

فإذًا الأخلاق والقيم كانتا موجودتين عند العرب قبل الإسلام، والمجتمع العربي قبل الإسلام - على ما فيه من ضعف، أو ما فيه من اتجاهات - كوَّن مجموعةً من القيم والأخلاق؛ ليُرَبِّي عليها الشباب، ولكي يَنْشَئوا عليها، فإنَّ الإسلام لم يُلْغِ القيم والأخلاقَ النافعة في الجاهلية، بل استفاد مما هو موجود ونَمَّاه؛ لأنه لا يمكن تجاهل القيم المفيدة في أي مجتمعٍ ما؛ لأن روح الشريعة جاءت لرفع الإنسان إلى المستوى الذي أَذِن الله ﷻ له به من كرامته - يعني: في نفسه وفكره -، ويظهر هذا بتفضيله على كثير من المخلوقات؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إذًا: مجموعة القيم التي كانت موجودةً في الجاهلية، وكانت عند العرب جاء نبيُّنا ﷺ بتَنْميتِها وتَتْميمها؛ كما مر بنا من قوله ﷺ: «**إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**». فالأخلاق الكريمة والقيم الكريمة هذه يستفاد منها إذا وُجِدت بمسمى العادة، أو بمسمى الخلق، أو بمسمى القيم، بما يتفق مع روح الإسلام في تحديد عبودية البشر لخالقهم ﷻ.

معلوم أن الإسلام جاء باتجاهين كبيرين:

الاتجاه الأول: في صياغة المسلم في نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وأحمد (١٤/ ٥١٢)، والبيهقي (١٠/ ١٩١) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

والاتجاه الثاني: في صياغة المجتمع المسلم؛ ليبقى للمستقبل، ولكي يواجه متغيرات الحياة والحركة الدؤوبة؛ فلهذا كان من اللازم أن يُسْتفاد من كل المعطيات الموجودة في القيم، وتُنَمَّى؛ حتى يمكن أن يُقَدَّم شيء يَجْمَع بين الاستفادة من الحاضر والنظر للمستقبل، وهذا الذي كان عليه شباب الصحابة ﵃.

لقد كان أكثرُ الصحابة شبابًا؛ كما ذكر ذلك ابن كثير ﵀ في تفسيره لقوله ﷿: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣][(١)]، وكذلك - كما سيأتي - في قوله ﷿: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، فقوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ أي: أنهم كانوا شبابًا، ليمكن الصياغة للمستقبل.

فإذًا: اختلاف هذه النظرة للقيمة والأخلاق، وتعلق ذلك بالشباب هو في الواقع اختلاف في التأسيس البنيوي للشباب؛ لِمَا يُراد أن يتوجهوا إليه في المستقبل، بما يَخْدُم الهدف، فإذا تنوعت الأهداف، تَنَوَّعَت القيم، وتنوعت الأخلاق، وتنوع سلوك المجتمع أو سلوك الحضارة في تحقيق هذه القيم في الناس، أو الاهتمام بها، أو إلغاء تلك القيم.

إن مفهوم القيم أو مفهوم الأخلاق يختلف - بلا شك - من مدينة إلى أخرى، ومن حضارة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، فإذا نظرنا في الزمن الحاضر، وجدنا أن قيم الشباب عند الغرب غير قيم الشباب عند المسلمين، وهي كذلك غير قيم الشباب عند الشرق، فهناك

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٤).

اختلاف، والآن نجد كثيرًا من الضغوط العالمية، هي في الحقيقة لتكوين قيم واحدة؛ لينشأ عليها الشباب، ولينطلقوا منها، وتداعيات هذه الشمولية لها أثرُها على الشباب، وعلى مجتمعاتِهم، وعلى مدى ولائِهم لمجتمعاتِهم وعاداتِهم، وأخلاقهم، إلى غيرِ ذلك من هذه الأُمور.

لهذا نقول: إن القيم تختلف اختلافًا كثيرًا بين الناس، ومن هذه القيم القيمُ الأخلاقية في التعامل مع الأصدقاء، وقيم التعامل مع الوالدين، وقيم التعامل مع الدولة، وقيم التعامل مع الجنس الآخر من النساء والرجال، وقيم الأخلاق العامة من الكرم والإيثار والوقار، والكلام على بعض القيم في الاختلاط وحَدّ ذلك، وعَلاقة الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل وحدود ذلك، هذه كلها تختلف - بلا شك - من مجتمع لآخر، ومن مكان إلى آخر، والنظرة القيمية لها تختلف كذلك من مجتمع إلى آخر، ومن مكان إلى آخر.

إذا كان هذا كذلك، فما أسباب اختلاف القيم والمؤثرات على القيم في المجتمعات؟

من أهم الأسباب التربية والنشء، والخَلْفية الثقافية، والالتزام الديني، والتأثير السياسي كمبدأ، أو كنظرية تتجه إليها الدولة، ومما يؤثر على القيم التفاعل الاقتصادي، أو الحاجة الاقتصادية، أو حاجات الحياة، ومما يؤثر على القيم - أيضًا - تداخل المجتمعات، وضغط بعضها على بعض.

وهذا الأمر الأخير كان التأثر به مُبَكِّرًا، فعندما اختلط المسلمون في القرن الأول الهجري بالمجتمعات الأخرى - مثل: فارس، وغيرها من البلدان - اختلفت بعض القيم إلى حدٍّ ما، فتولدت رُوح جديدة لَدَى الأجيال

المتعاقبة، فصار هناك مَزِيج من القيم والمعايير الأخلاقية، التي لم تكن على مستوى الصحابة، فكانوا أنزلَ درجة، حيث تأثروا بما هو موجود من القيم المختلفة، وهذا أَثَّر على روح الجهاد، وأثر على روح الولاء للدولة، وأثر على النظرة للمال والإيثار، وأثر حتى على الأدب، فتأثرت لغة الأدب ولغة الشعر أو معاني الشعر والمدركات في ذلك الوقت، فاختلف الشعر الإسلامي الأول عن الشعر الذي يليه بعد ذلك.

هذا كله كان له تأثيره في مجتمع كامل من الشباب الذين أصبحوا فيما بعد شُيوخًا وورثهم شباب آخر أثرت عليهم البيئة والتربية، حتى أصبح عندنا بعد قرنين من الزمان اختلاف كبير في القيم، فدخلت قيم وأخلاق أخرى على المسلمين من جراء هذا الاختلاط.

لهذا نقول: إن التخلص من التبعية في القيم لا يمكن، بل لا بد من أن يكون هناك مزيج من القيم بحكم اختلاط المجتمعات وعلينا أن ننظر للأمور بنظرة واقعية، فنقول: لا بد من تغير القيم في الشباب بحكم الاختلاط وبحكم التأثيرات السياسية، وبحكم الخلفيات الثقافية، وبحكم السفر، وبحكم الضغط الاقتصادي والحاجة المادية.

لقد تغيرت كثير من القيم الأساسية في الدين، وكثير من القيم الأساسية - أيضًا - عند العرب في كثير من الأمور، مثلًا: إذا نظرنا إلى خلق الكرم وخلق الإيثار، فهذا يحتاج إلى وضع مادي، ويحتاج إلى مجتمع يساعد بعضه بعضًا ويحتاج إلى أشياء كثيرة، فإذا تَخَلَّفت هذه الأمور تَخَلَّفت هذه القيم تبعًا لها، والاختلاط يؤثر على ذلك.

إذًا: النظرة الواقعية أن نقول في هذه الأمور: هل يمكن للمسلمين أن يوقفوا مد القيم الأخرى وتأثير تلك القيم على شباب المسلمين أم لا يمكن؟

أقول من وجهة نظري: لا يمكن وقف تأثر الشباب بالقيم؛ لأن الإنسان مدني بطبعه، وإذا اختلط، فهو يؤثر، ويتأثر في الوقت نفسه، فلا يمكن أن نعزل الشباب عن التأثر بالقيم الأخرى، لكن يمكننا أن ننمي بقوة، وأن ندعم القيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية في الشباب، ضمن برنامج واضح؛ حتى يكون الشاب على اطلاع كامل بقِيَمِه الإسلامية، وحتى يكون على دِراية تامَّة بالحس الإسلامي والقيم والأخلاق الإسلامية، بما ينطلق معه على أساسٍ من دينه وعبوديته لله ﷻ وعقيدته الإسلامية.

لهذا نقول: إن الإسلام رسم إطارًا مُوحَّدًا للقيم، ورسم صورةً واضحة للأخلاق التي يجب أن يلتزم بها الناس، أو يُسْتَحب أن يلتزموا بها، وهذه هي التي يدعو الإسلام الشباب إليها، ويدعو المربين إلى أن يُؤَثِّروا على الشباب من خلالها.

هذا الإطار نابع من خصائص الشريعة وخصائص الأخلاق الإسلامية، فإذا تَبَيَّن لنا هذا، فلنا أن نسأل: ما مميزات وخصائص القيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية؟

إن القيم الإسلامية هي كل ما في الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح من هَدْي في السلوك والتفكير، مما أثروا به على أنفسهم وعلى مجتمعهم وعلى أُسَرهم، ونَمَّوْا بهذه القيم تَفاعُلَ المجتمع مع الواقع، فتَحَرَّكَ المجتمع نحو الإصلاح، وتَرَقَّى لمواجهة تغيرات الحياة والتفكير.

مميزات القيم الإسلامية:

من مميزات وخصائص القيم الإسلامية أن هذه القيم رَبَّانية، فهي من عند المولى ﷻ وتقدست أسماؤه، وهذه القيم موصوفة بأنها وحي من الله ﷷ، ونعني بذلك القيم والأخلاق المتفق عليها والمنصوص عليها، أما بعض الأخلاق المجتهد فيها، فهذه ليست داخلةً ضِمْن هذه الخصائص، لكن المتفق عليه مما جاء في النص من الكتاب والسنة، وهو الوحي.

فإذا كان الأمر كذلك، فهو لازم للمسلم، لا انفكاك له عنه، فما دام أنه مسلم، فيجب عليه حينئذٍ أن يلتزم بهذه الخصائص.

وكون هذه القيم الإسلامية رَبَّانِيَّةً من عند الله ﷷ، فهي تكتسب عدة صفات:

الصفة الأولى: أنها وحي، فيكسبها ذلك صفة القدسية والطهارة والنزاهة، التي هي أكمل ما يصل إليه نمو الإنسان في عقله وتفكيره وخلقه، ومعلوم أن العقلاء والحكماء في المدنيات المختلفة كان تأثيرهم وأملهم أن يجعلوا الناس في مستوى من الخلق ومستوى من القيم عالٍ، بحيث يمكن أن يكونوا - كما يقول بعض الفلاسفة - مُطَهَّرين عن سفاسف الأمور، عالين إلى طلب الحكمة والبحث عن حقائق الأشياء، فديننا الإسلامي بأخلاقه وقيمه - على التعبير الشائع - مصدره الوحي؛ ولهذا يُكْسِب هذه القيم صِفَةَ القدسية والطهارة والنزاهة، قال ﷻ في محكم التنزيل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والضلال هنا لا يتمثل في الإثم في الآخرة،

ولكنه يشمل الضلال عن الصواب فيما يصلحه في هذه الحياة الدنيا .

الصفة الثانية: الشمولية، فهي شاملة لكل مناحي الحياة، فهذه القيم والأخلاق تلازم الإنسان في بيته وعمله، وتحكم علاقة المرء بأهله، وعلاقته بالآخرين، حتى علاقاته بالأنظمة وما يسن من التنظيمات الإدارية، وتحكم كذلك علاقته بدولته، وتحكم علاقته مع الخلاف الموجود والآراء الأخرى التي تُطْرَح في المجتمع، فكل مجتمع له حركة - مثلما ذكرنا - ينتج عنها اختلاف في الآراء، فالقيم الإسلامية شاملة في تأديب وتَخَلُّق الشباب بكل ما يجعله عُضوًا صالِحًا في المجتمع، ويبتعد عما يُؤْخَذ عليه .

لهذا توصف بأنها شمولية، فهي لا تختص بميدان دون ميدان، فهي تربية كاملة تُفْضِي إلى تَوازن هذا العبد المكلف من الله ﷻ، وقد قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ومن تأمل المُصَنَّفات التي صَنَّفها أئمة الإسلام - ككتب الحديث، وكتب الفقه والآداب -، وجَدَ أن حياة المسلم منذ أن يستيقظ من نومه، وحتى ينام مرة أخرى، كلها مترددة ما بين حكم الواجب، أو المحرم، أو المكروه، أو المستحب، أو المباح، فلا يمكن أن يخلو حال من الأحوال إلا وله حكم بحسب ما ألَّفَ علماء الإسلام، ونقلوه من النصوص في ذلك، أو من فقه النصوص.

الصفة الثالثة: من صفات القيم الإسلامية - أيضًا - أنها تتسم بالوسطية، والتوازن، ورعاية متطلبات الواقع، قال ﷻ في وصف الأمة وفي وصف تشريع الإسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأمة الإسلام وسط؛ لأن الشريعة رَبَّانية، وهي وسط، فهي وسط في

أبواب العقيدة، ووسط في أبواب الحكم والتحاكم، وهي - أيضًا - وسط في أبواب الأخلاق.

إذا نظرنا إلى الأخلاق التي ينشدها مثل بوذا ونحوه، والأخلاق التي يُرَوِّج لها اليهود، وجدنا أن الشريعة في هذا الأمر وسط في الأخلاق بين الغالي في تنزيه النفس، حتى يفقدها المرونة والانطلاق في المجتمع، وبين الذي يجعل الأخلاق هي القوة، دون رعاية لجانب الخلق الكريم والقيمة التي يُحِبُّ الناسُ أن يتعاملوا بها مع بعضِهم البعض.

قال القُرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: (**ووسط الوادي خير موضع فيه وأكثرُه كلأً وماء، ولما كان الوسط مُجانِبًا للغلق والتقصير كان محمودًا، أي هذه الأمة لم تَغْلُ غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قَصَّروا تقصير اليهود في أنبيائهم**)[1].

فإذا كانت الشريعة والقيم الإسلامية وسطية، فحينئذٍ نرى أنها تعمل على تحقيق التوازن النفسي لدى الفرد، وأنها تشبع وتضبط الحاجات والمتطلبات الفسيولوجية الأولية، والحاجات النفسية والوجدانية، والحاجات الاجتماعية، وعلاقة الإنسان بمن حوله، وهذا أكثر ما يُنْظَر فيه في مرحلة الشباب؛ لأنها مرحلة التغير في المنطلقات والأهداف والآراء والرغبات.

ومن صفات القيم الإسلامية الاستمرارية والثبات؛ لأنها مبنية على الشريعة، والشريعة من صفاتها الاستمرارية والثبات، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٥٤).

عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

فإذًا: وَحْدة مصدرِ هذه الأخلاق والقيم يدعو إلى استمرارية هذه القيم، وأنها قيم ثابتة، وأن فيها المصلحة لحياةِ الفرد وحياةِ المجتمع.

الصفة الرابعة: موافقة هذه القيم للفطرة، وما جعل الله ﷻ عليه الإنسان، قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فالذي شرع هذه القيم والأخلاق هو الذي سَوَّى النفس البشرية، وصلاحُ البشرية لا يكون إلا بالرجوع إلى هذا المصدر، الذي سَوَّى هذه النفس البشرية، وجعلها على الفطرة التي رضيها الله ﷻ، والفطرة هي التوحيد وما يلزم منه من أن جميع الأعمال والأخلاق والقيم تعود إلى تقوية ذلك التوحيد لله ﷻ في نفس العبد وعبوديته له ﷻ الواحد الأحد.

لهذا نقول: إن موافقة القيم للفطرة يمكن أن يتمثل في أنها واقعية، فليست خيالية، وليس فيها تكليف للإنسان بما لا يستطيع، بل هي واقعية تلبي حاجات الإنسان، ولكنها - أيضًا - لا تسير معه وفق شهوات لا انضباط لها، بل تعطيه ما يحتاج إليه، وتُرَبِّيهِ على ما هو الأفضل له في حاضره وفي مستقبله.

ولقد أكَّد ربنا ﷻ هذا المعنى في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال ابنُ جَرِير الطَّبَرِيّ رحمه الله في تفسيره: **(يعني بذلك جل ثناؤه:**

لا يكلف الله نفسًا فيتعبدها إلا بما يسعها، فلا يضيق عليها ولا يجهدها)[١]

وقال الله ﷻ - أيضًا -: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]، والقيم والأخلاق تدخل ضمن شريعة الإسلام، يعني: ضمن الدين.

الصفة الخامسة: سهولة تطبيقها؛ لأنها واقعية، وموافقة للفطرة، فيمكن أن تُطَبَّق، بل إذا حصل التعبد من الشاب لله ﷿، رَغِب في تطبيق تلك القيم والأخلاق، ورأى فيها أُنْسَه وسعادتَه، بل رأى هذه القيم والأخلاق هي الجمال فيما يراه في حال الناس، وهناك ارتباط بين الأخلاق والقيم والجمال.

مما يحدث الانحراف في القيم - كما سيأتي إن شاء الله - الرغبة في الجمال، ربما يكون جمال الفكر، وربما يكون جمال التصرفات، أو جمال الحرية... إلى آخر أنواع الجمال، التي يتجه إليها الناس، لكن هذه القيم الإسلامية تضع المسلم في صورة جميلة؛ لهذا جاء قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم في الصحيح: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ...**»[٢].

إن قيم الإسلام وأخلاقه هي التي تُكَوِّن هذا الجمال، الذي يحبه الله ﷿، فإذا نظرت إلى خلق المسلم في تعامله مع نفسه وتعامله مع من حوله من المسلمين وغير المسلمين، وكيفية تفاعله مع المجتمع في إيثاره، وفي محبته للآخرين ما يحب لنفسه، وجميع ما يدخل تحت الأخلاق الإسلامية، تجد أن هذا يُكَوِّن صورة لا يوجد أجمل منها في التشريعات؛ لأنها من عند الله ﷻ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

الصفة السادسة: عدم معارضتها للعقل الصريح الذي يوازن بين المصالح والمفاسد، فالقيم الإسلامية هي القمة في تحقيق توازن تصرفات الإنسان، والمسلم إذا طَبَّق الإسلام في أخلاقه، فسيظهر في الصورة المثلى التي أمره الله ﷻ بها.

الصفة السابعة: أنها تسعى لتحقيق الغايات الاجتماعية، فالمجتمعات لها غايات، وتارة تُدْرَك هذه الغايات بتصور الفرد، وتارة لا تدرك، لكنها تدرك بتحرك المجتمع إلى شيء ما، والمجتمعات تتحرك تارة بعقل شعوري، وتارة بعقل لا شعوري؛ ولهذا نجد أن تفكير الإنسان في مجموعة يختلف عن تفكيره مع نفسه، بمعنى أن عقل الإنسان في إطار أو جماعة أو نحو ذلك يختلف تَمامًا عما إذا رجع لنفسه وفكر بنفسه، وهذا يعني أن الإنسان يتأثر بالقيم المطروحة، فإذا كانت القيم المطروحة يقودها المجتمع بغير وعي وشعور - والمجتمع قد يُوَجَّهُ ويُضْغَطُ عليه - فتجد أن الناس يتحركون في طريقٍ لا يشعرون أنه الطريق الذي فيه مصلحتهم أو فيه هاويتهم؛ لهذا كان من اللوازم الاهتمام بالقيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية؛ لأنها من عند الله ﷻ، ولأن فيها مصلحةَ الحاضر والمستقبل، ولأنها تقي أيضًا من أن يتجه المجتمع تحت أي نوع من أنواع الضغوط إلى اتجاه وإلى مستقبل لا يُعْلَم، وهذا من عناصر التأثير النفسي على المجتمعات وخاصة الشباب، فقد يقتنع الشباب بأشياء، ويتجهون إليها بلا وعي أو شعور، وهذا يلحظه الإنسان في بيته مع أولاده، ويلحظه مع الشباب.

إذا نظرت إلى القرية مثلًا، وجدت أن الشباب يعيشون سعداء، ويتمثلون القيم أكثر من المدينة الصاخبة؛ لأن المدينة الصاخبة تتجه بالناس إلى اتجاه

يُفْرَض عليها، لا تختاره؛ لأنها لم تصل إليه بقناعات، لكن السيل مشى في اتجاه، فتجد أن الجميع يمشون في هذا الاتجاه، فإذا كان الأمر كذلك، كان من الواجب أن يكون هذا الاتجاه وهذا السيل - إن صح التعبير - الذي يؤثر على العقل بغير وعي مُنْطلقًا من شريعة الإسلام؛ لأن الناس عبوديتهم لله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

الصفة السابعة: أنها تحفظ للحضارة الإنسانية توازنها، والحضارة الإنسانية إذا لم تلتزم بقيم الإسلام، فإنها ستنهار يومًا ما؛ لأنه ليس للقيم العقلية البقاء والاستمرار، إلا إذا انضبطت بضوابط سليمة، أو كان لها دعائم ترتكز عليها؛ لأنها بشرية، والبشر يداولهم الله ﷻ أُمَّةً بعد أُمَّةٍ، لكنَّ الأمة التي اختار الله ﷻ بقاءها، والدين الذي اختار الله ﷻ بقاءه إلى قيام الساعة هو دين الإسلام، فمعنَى ذلك أن هذه القيم الإسلامية والأخلاق الدينية أو الإسلامية هي التي تضمن للحضارة الإنسانية توازنها وخدمة الإنسان، وأما غير هذه القيم، فهي في الواقع تجني على الإنسان، وتؤثر في حق من حقوقه.

ما أهمية القيم الإسلامية؟

بعد هذا العرض لتلك السمات، نقول: هل هي مهمة لهذه الدرجة في التأثير على الشباب؟ أو أنه يمكن أن يكون الشباب أقوياء، ويمكن أن يؤثروا في الإنتاج وفي العمل وفي قوة الأمة دون أن يكون لهم هذه القيم، التي ننتصر لها، أو التي نعرض لها، ونتحمس لها؟

في الواقع تُعَدُّ القيم الإسلامية من أهم المهمات في التفكير، حتى في

التفكير المنطقي الذي يمكن أن يفكر به غير طالب العلم الشرعي أو غير المهتم بأمر الدعوة الإسلامية؛ لأن أمتنا قوامها وقوتها في دينها، ولا يمكن لأمة أن تبقى إلا بنوع من التعصب والتكتل، فإذا لم تتعصب وتتكتل وتدور أو تلتف حول حبل واحد وحول مبدأ واحد، فإنها تكون حينئذٍ مُعَرَّضةً للذوبان، وأكبر ما يواجه المجتمع من جراء تحطيم القيم عند الشباب تَعَرُّضُه إلى الذوبان في الآخرين، وإذا ذاب المجتمع في الآخرين، أصبح قلبه وعقله مُعَلَّقًا بأمة أخرى، وهذا تلحظه في الذين صارت عندهم رغبات في الاتجاه للحياة الغربية، فمنهم من لا يحب أن يرجع ليعيش في وطنه؛ لأنه انسلخ من قيمه التي تَرَبَّى عليها، واليوم يشكو لنا المسلمون في أوروبا وفي أمريكا الشمالية والجنوبية من ذوبان الجيل الثاني والثالث والرابع في الأمم التي عاشوا فيها، بل تصل لنا تقارير بشكل أو بآخر من تلك الدول تقول: إننا لم نستضف هؤلاء الناس وهذه الفئات من العرب والمسلمين إلا ليذوب أبناؤهم في المجتمعات الغربية، وليؤثروا في الإنتاج والصناعة، وليخدموا العمل، وأما إذا ظلوا متمسكين بالمبادئ والعقيدة والقيم الإسلامية، فإنه حينئذٍ لم يتحقق الغرض من وجودهم في ذلك.

وهذا يعني أن هذه العَيِّنات من الناس كما ذابت في أوروبا وأمريكا، فإنه يمكن أن تذوب عندنا، ويمكن أن تذوب في أي بلد، واليوم ترون أن التأثيرات المختلفة على الشباب متنوعةٌ، فالشاب إذا لم يلتزم ويُرَبَّ على القيم الإسلامية، فإنه حينئذٍ لا ضبط لتَصرُّفاته، لا على نفسه، ولا على أسرته، ولا على مجتمعه، ولا حتى على الدولة نفسها؛ لأنه سيُنْتِج عددًا كبيرًا من التصرفات التي لا يمكن أن تنضبط بضابط.

إن الوَطَنية وحدَها ليست كافيةً في بقاء التكتل أو بقاء وَحْدَة الأمة؛ لأن هذه الأمة وَحْدَتُها في دينها، وإذا كانت الوطنية تَبَعًا، فإن هذا من الخير، لكن إذا كانت أساسًا مع تنازل عن القيم الإسلامية وفتح المجال للقيم الغربية أو المؤثرات ليذوب الشباب فيها، حينئذٍ يفقد هذا من فاعلية الناس تجاه التمسك بأساس ومقومات المجتمع والدولة، الذي هو أساس البقاء والاستمرار في المستقبل.

لهذا لا نستغرب أن يوجد في مثل «بروتوكولات صهيون»؛ حيث يقول قائلهم: يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، ولتسهل سيطرتنا.

وفي البروتوكول العاشر يقول: سوف ندمر الحياة الأسرية بين الأمميين، ونُفْسِد أهميتها التربوية. ويقول - أيضًا - في البروتوكول الثالث: لقد خدعنا شباب الكفار - ويعني بهم غير اليهود - وأدرنا رأسه، فأفسدناه بتلقيه المبادئ والنظريات التي نعرف أنها خاطئة، على الرغم أننا نحن الذين قمنا بتعليمها[1].

وهذا هو الذي نتج، فالمجتمعات تتجه بعقلية يسيطر عليها الإعلام، وتسيطر عليها التجارة، فأنتج لنا ذلك عقليات لا يمكن أن تكون مُثْمِرةً لأُمَّتنا.

مَرَّة جلس بجانبي أَحَدُ الشباب في الطائرة، وكان يرتدي لِباسًا غَرْبِيًّا، فظننتُ أنه غير سعودي، فلما جرى الحديث معه، إذا به سعودي ومن أسرة

(١) انظر: كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسي، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠ هـ.

معروفة، فتكلمت معه، فوجدت المنطق مختلفًا، يعني أن هناك تباينًا بين لغتي ولغته، يعني: من حيث الْمُسَلَّمات التي عندي والْمُسَلَّمات التي عنده، وكذلك وجدتُ تباينًا بيني وبينه في عرض المعلومة والتساهل فيها، واختلافًا في البحث بيني وبينه، فلحظت حينئذٍ أن الشباب يمرون بمرحلة ليست فقط مرحلةَ تغيير القيم، ولكن تغيير التفكير نحو القيم.

هل تغيير التفكير يُعَدُّ صحيحًا أو ليس بصحيح؟

إن هذا في الحقيقة يوجب على المربين أن يدرسوا كيف يُخَاطب هذا الجيل؛ لأننا - أيضًا - لا نريد أن نخاطب أنفسنا، فبعد هذا الذي سمعنا من هذا الكيد وهذا التركيز في صد الشباب عن القيم والأخلاق الإسلامية، لا نريد أن نخاطب أنفسنا بمثل هذه الموضوعات، فلا بد أن تقوم دراسات في معرفة كيفية تفكير هؤلاء الشبيبة، فحبذا لو تقوم دراسات ميدانية، تتصل بهؤلاء الشباب في أماكن تجمعهم، في الملاعب، أو في المقاهي، أو في الشوارع، وتتعرف على كيفية تفكيرهم، وكيف يستطيع الدعاة أو كيف يستطيع المربون أن يخاطبوهم بلغتهم؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، فإذًا: وجدتُ بُعْدًا في المسافة بيني وبين ذلك الشاب في التفكير، وفي اللغة، وفي التعامل مع المسلَّمات، فحينئذٍ يتبين أن القضية ليست قضيةً سهلةً.

لا نريد أن نسهب في الموضوع، لكن أردنا أن نبرز الفرق بين القيم والعادات ومدى اتصالهما ببعضهما، فلا شك أن بينهما اتصالًا وفرقًا.

إن العادات الاجتماعية تختلف بين بلد وآخر، لكن القيم الإسلامية

ثابتة؛ لأن مصدرها الوحي، أما العادات تختلف، فهل يكون تركيزنا على العادات أو على القيم؟

نقول: إن التركيز في التربية يجب أن يكون على القيم الإسلامية؛ لأنها ثابتة، أما العادات، فإن الشريعة جاءت بتتميم الحسن منها الموافق لها، وذلك كما في الحديث الشريف الذي أوردناه سابقًا، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»[1]، فإذا كانت هذه العادة تندرج تحت أصل شرعي، فإن المحافظة عليها مُتَعَيِّنَة، وأما إذا كانت العادة من حيث هي لا تندرج تحت أصل شرعي، فينظر في التمسك بها والمحافظة عليها من حيث مصلحة المجتمع أو عدم مصلحته.

والعادة عُرِّفت بأنها: حال للنفس، داعية إلى أفعال من غير فكر ولا روية. وعُرِّفت - أيضًا - بأنها: اكتساب مهاراتٍ تُحرِّك الإنسان وقدرته على استخدام تلك المهارات بطريقة شعورية. وأضيف أنا قائلًا: وبطريقة غير شعورية.

إن العادة ليس لها صفة الثبات والاستمرارية، فالعادات تتغير، وإذا نظرنا الآن إلى مجتمعنا، فنجد أن عادات الشباب بدأت تتقارب، فالشباب في وسط نَجْدٍ يتقارب مع الشباب الذين في منطقة الجنوب، مع الشباب الذين في الحجاز، مع الشباب الذين في الشمال، فالعادات بدأت تتقارب، وقبل ستين أو سبعين سنة كانت العادات مختلفة، وهذه العادات لا يهمنا شأنها كثيرًا، لكن الذي يهمنا منها أن تكون موافقةً للشريعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥١٠).

من الأمور التي تؤثر على القيم الإسلامية أن يُسْتَعْمَل وَصْفُ القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية بدلًا من القيم الإسلامية، فإذا كان هناك عمل خير يدعونا إليه دِينُنا، وكان في الكتاب والسنة، فينبغي أن نُسمِّيَهُ عملًا إسلاميًّا، أو نُسَمِّيَهُ خُلُقًا إسلاميًّا، لا أن نسميه عملًا إنسانيًّا، أو خُلقًا إنسانيًّا، فهذه من المصطلحات التي تؤثر على نفسية الشباب، وتجعله ينظر لها نظرة عامَّة إنسانية، بدلا من أن يتلقى تلك الأمور على أنها من الوحي والدين والشريعة، وهذا بالتالي سينقله إلى التأثر بالأخلاق الإنسانية، التي يستحسنها عقله، وربما جاءت الشريعة مضادةً لتلك الأمور.

وعلينا أن نعلم أن الشاب هو أكثر الناس تأثرًا بالقيم؛ لأن مرحلة الشباب هي فترة بنائه، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

فالشاب وِعاء لتلقي القيم المختلفة، بحيث تتراكم عنده، فهو مصدر تلقٍّ في تلك الفترة من عمره، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا[1]

فإذًا: قلب الشاب وعاء، فإما أن تُغْرَس فيه القيم الإسلامية، أو يغرس فيه غيرها، شاء الأب أم لم يشأ، شاء المربون أم لم يشاؤوا، فلا بد أن يكون ثَمَّ هذا أو ذاك، فلهذا يجب المبادرة بغرس القيم الإسلامية، بل المبادرة بغرس تعاليم الدين والأخلاق الحميدة؛ لتتمكن فيه، وحتى تكون إِلْفًا له بعد ذلك، وحتى تتكون قناعته بها بعد ذلك؛ لهذا جاء في الشريعة الحث

---

(١) البيت لمجنون بني عامر، انظر: الحيوان للجاحظ (١/ ١١١).

على بعض العبادات في سن مبكرة؛ كقول النبي ﷺ في الصلاة: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

والنبي ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(٢)، فهذا غرس من البداية للقيم؛ لأنه إن لم يغرس المربون أو أولياء الأمور لهؤلاء الشباب تلك القيم الإسلامية، فإنه سَيُغْرَس فيهم شيء آخر، وحينئذٍ نذهب عن العبودية الحقة لله جل جلاله.

لماذا يكون الاهتمام بالشباب خاصة؟

لأننا وجدنا أن تربية الأنبياء كانت متجهة للشباب، قال عز وجل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، قال ابن كثير رحمه الله: (**يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والبراهين الساطعات - إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب، على وَجَلٍ وخوف منه ومن مَلَئِه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر**)(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٨).

وقال ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، وفي الحديث عن سمرة بن جندب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتُلوا شُيوخَ الْمُشْرِكينَ، وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُم»[١]. قَالَ عبد اللَّهِ سَأَلْتُ أَبِي عَنْ تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ: «اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ». قَالَ: يَقُولُ: الشَّيْخُ لا يَكَادُ أَنْ يُسْلِمَ، وَالشَّابُّ كَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الإِسْلاَمِ مِنَ الشَّيْخِ[٢].

والعلماء يعتنون في التربية السلوكية بمصطلح «الفتوة» ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام كثير في ذلك، لا نحب أن نطيل الكلام فيه.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ، فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللهُمَّ، بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا، قَالَ: وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا، خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٠)، واللفظ له، والترمذي (١٥٨٣)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد (٣٣/ ٣٢١).

نَبِيِّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا»[١].

معنى ذلك أن النبي ﷺ كان اهتمامه بغرس العلم والاهتمام به، وكان اهتمامه بهؤلاء الشباب؛ فهم الذين يحملون العلم عنه، وهم الذين بقوا إلى زمن متأخر ينشرون عنه العلم، فهذا أنس بن مالك بقي بعد النبي ﷺ نَحْوَ مائةِ عامٍ، وهو آخرُ الصحابة وفاةً، فقد تُوفِّيَ بعد المائة الأولى للهجرة، وهذا يعني أن الاهتمام بهذه النوعية من الناس لغرس القيم هو بقاء لهذه القيم لأجيال؛ لأن الاهتمام بالشباب هو اهتمام بالمستقبل في ذلك.

لا شك أن الشباب لديهم انفعالات، وهذه الانفعالات تختلف باختلاف المجتمعات، وباختلاف التربية، ولا شك أن القِيم لها تأثيرٌ على انفعالات الشباب؛ لأن انفعالات الشباب تارة تكون إِيجابيَّةً، وتارة تكونُ سلبيَّةً.

إن أكثر انفعالات الشباب تتمثل في الانفعال العاطفي، وانفعال الغرور، والكبر، والمجادلة، وفرض الرأي، وانفعال الخوف، والقلق من المستقبل، وانفعال الغضب، وانفعال الرغبة في التميز والظهور والإبداع، هذه الانفعالات الإيجابية والسلبية لا بد من التعامل معها وتوظيفها بما يخدم المجتمع، بل بما يكون به الشاب عبدًا صالِحًا للَّه ﷻ.

إن الشريعة والأخلاق الإسلامية لا تُغْفِل التعامل مع هذه الانفعالات؛ لأن هذه الانفعالات خَلَقَها اللَّه ﷻ في الشاب، وقد جاء في الحديث أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[٢]. فاللَّه ﷻ

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، والطبراني (١٧/ ٣٠٩)، وأبو يعلى (٣/ ٢٨٨).
قال الهيثمي: (١٠/ ٢٧٠): إسناده حسن.

هو الذي جعل في الشباب هذه الانفعالات بكل صورها، سواء الانفعالات العاطفية، أو غيرها من الانفعالات المختلفة، وبما في ذلك الانفعال الغضبي حتى على والديه، فأحيانًا يتعامل معهما بغير أدب، أو ربما يَعُقُّهما بنوع من الانفعال، وهذا لعدم التوازن الخلقي لديه، فخلقه يكون مَرَّةً حسنًا، ومَرَّةً يكون غير حسن، فيجب على المُرَبِّي أن يُوَظِّف هذه الانفعالاتِ المختلفةَ في نَفْسيَّةِ الشابِّ، وأن يستفيد منها، وذلك بتوجيهها إلى ما فيه صَلاحُها، ويكونُ ذلك بغَرْس القِيم الإسلاميَّة والأخلاق الدينيَّة في نفسِه.

مِن القِيَم التي يَجِب تَوظِيفُها واستغلالُها استغلالًا حَسَنًا ما يُسَمِّيه عُلماءُ السُّلوك في الماضي: «الفتوة»، وهي امتلاء الشباب بمعالم القوة، والرغبة في البروز، والتَّمَيُّز، والكرم... إلى غير ذلك من السِّمات، فهذه صفة محمودة، يجب المحافظة عليها وتنميتها في الشباب، وتتجه المجتمعات الآن في استغلال هذه الانفعالات القويَّة والرغبات المختلفة، التي ترجع إلى الفتوة - بحسب مصطلح علماء الإسلام الأوائل - في الرياضة بشكل يزيد عن الحَدِّ، وتُوَظِّفُ هذه الانفعالات كذلك في إقامة الحفلات الغنائية وما شابه ذلك، باعتبار أن هذا يُعَدُّ نوعًا من أنواع تفجير الطاقات، لكن هذه الممارسات وغيرها مما يمكن ممارسته يعد نوعًا من أنواع التفريط، وهو في الواقع تعامل نفسي مع هذه العواطف أو هذه الانفعالات القوية، التي يريد الشاب أن يثبت بها شيئًا؛ وقد نجد أن الشاب الذي يتحمس لمثل هذه الأشياء يُمارس ممارسات غير أخلاقية، من إيذاء الناس وغير ذلك من التصرفات غير الأخلاقية، وهذا الشاب إذا صار مُلْتزِمًا بالأخلاق الإسلاميَّة، فستجد أن هذه الرغبة وهذه العواطف توظف توظيفًا صحيحًا

لخدمة الأمة، بل لعبودية هذا الإنسان لربه ﷻ.

إذًا: هذا العنصر إذا لم يَسْتَفِد منه المُرَبُّون، فسوف يستفيد منه من يريد لهذه الأمة الانحراف عن أخلاقها الإسلامية.

إن السفه وما يَتعلَّقُ به، ومَظاهِرَ الاستهتار، وعدم المبالاة، والطيش، وفرض النفس، وإظهار القُوَّة بأنواع الشجار، ونحو ذلك، هذه سِمَات لا بُد من التعامل معها والسيطرة عليها، ولا بد أن يَحُلَّ مَحِلَّها شيءٌ، بحيث يكونُ هذا السَّفَهُ وهذا الطيش وعدم المبالاة مُوجَّهًا إلى شيء آخر، لكن أن يكون هذا مع الناس، والمجتمع، والأقارب، والأسرة، ومع معلميه، إلى غير ذلك، فذلك لا يجوز، ولا ينبغي أن يكون، فعلى الشباب أن يتعامل من واقع المراقبة للَّه ﷻ، فإذا أقيمت في نفسه المراقبة للَّه ﷻ والخوف منه، والالتزام، والطاعة، والعبادة، فإننا سنجد أن هذه الانفعالات أصبحت محدودة، لا نقول بأنها ستنتهي، ولكنها ستكون محدودة بالزمان والمكان.

أما الانفعالات العاطفية، فهذا شيء موجود في الشباب بقوة، ويستغله الأعداء استغلالًا أمثل، والآن تتجه جميع الوسائل إلى تفجير هذه الطاقات في الشاب؛ لأنها طاقات خلقها اللَّه ﷻ في الشاب، فهي كالأكل والشرب، وتختلف عنهما في أن الأكل والشرب لا يمكن أن تقوم الحياة بدونهما.

إن الرغبات العاطفية يمكن أن تكون إيجابيَّةً، ويمكن أن تكون سَلْبيَّةً مُسَبِّبةً للإفساد بين الناس.

إن العاطفة عنصر إيجابي، فالحب ووجوده في نفس الشاب شيء إيجابي، لكن كيف يُوَجَّه الشاب في استخدامه والتعامل معه؟ يوجه باتباع

ما جاءت به الشريعة من الحث على حب اللَّه ﷻ، وحب رسوله ﷺ، وحب دين الإسلام، والرغبة في الدفاع عنه، ونصرة السنة، والدفاع عن الحق، ورد الظلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك، فإذا نَمَت هذه العاطفة في نفس الشاب، تضاءلت الانفعالات العاطفية الأخرى؛ لأن العاطفة في القلب تحل محل عاطفة أخرى، والإنسان إذا دعا إلى اللَّه ﷻ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر بالطرق الشرعية، وكان مِقْدامًا في الخير، وجد أن مضايق الشيطان عليه في هذه الأمور تضعف مع البذل في الخير والاتجاه إلى طاعة اللَّه وطاعة رسوله، فإذا ترك هذا الجانب، فإن مظاهر الانفعال العاطفي تزيد، حتى ربما يقع الزلل.

إن الانسلاخ عن القيم والأخلاق الإسلامية، والذهاب بلا شعور إلى الفكرة الغربية، أو إلى أخلاق الغرب في عدم الانضباط في أي أمر من الأمور والعلاقات بين الجنسين الرجال والنساء، لا شك أن هذا سيفضي ليس إلى ترك قيمة أو خلق من أخلاق الإسلام أو شريعة من شرائع الإسلام، إنما سيفضي إلى نمو ولاء الشاب لمجتمع آخر، وهذه هي النقطة الخطيرة.

إن الشهوات تذهب وتأتي، لكن أن تكون مستمرة في نفس الشاب وتفكيره، وفي علاقاته اليومية ويُرَتِّب لها، فهذا معناه أنه يَنْقل انتماءه من مجتمع إلى مجتمع آخر، وبالتالي تُفَرَّغ الأمة من شبابها، وحينئذٍ لا تدري ما الذي سيحل بها عند نمو هذا الأمر بقوة.

لهذا نقول: يجب أن تعالج هذه الانفعالات بفتح الأبواب المشروعة في الشريعة؛ من الزواج وتيسير أموره، وإقامة العاطفة الشرعية، وتنمية الحب الشرعي، وهو حب اللَّه ورسوله، وحب الدين، وحب الوالدين، وحب

الأسرة، وحب المجتمع، وحب الوطن. . . إلى آخره، مما يجعله يُفْرِغ هذه العواطف في عملية إنتاجية؛ كما يقول أهل الاختصاص.

هناك عواطف أخرى كالغرور والكبر وهي بحاجة إلى التعامل معها بحذر مع الشباب، ويكون ذلك بغرس قيم التواضع في نفوس الشباب، فيجب ألا نعطي الشباب ثقة تؤدي بهم إلى الغرور؛ لأن الشاب إذا اغتر بنفسه، فإنه يُقْضَى عليه، ويكون في ذلك هلكته، وهذا تَجِدُه مُلاحَظًا في بعض الدعوات، حتى في الدعوات الإسلامية التي تدعو إلى الأخلاق والقيم الإسلامية، وتدعو إلى العقيدة ونحو ذلك، حيث يُرَبِّي المربون فيها أفراد هذه الجماعات تَرْبيةً تُؤدي بهم إلى الغرور بأنواعه، فتارةً يكونُ غُرورًا عِلْميًّا، وتارة يكونُ غُرورَ قوة، وتارةً يكونُ غُرورًا يَنْتُج عنه عَدَمُ تَحَمُّل النَّقْدِ، ويَظُنُّ في نفسِه أنه هو المصيب دائمًا، أو أنه هو صاحب الحق المطلق، ونحو ذلك من أنواع الغرور التي يتجه إليها الشباب، وإذا رُبِّي الشاب على الكبر في أي نوع من الاتجاهات التربوية - سواء كانت دينية، أو غير دينية -، فإنه يُقضى عليه، وتظهر عنده أمراض نفسية ضارة، تفضي به إلى الوقوع في كثير من المُحرَّمات.

إن النبي ﷺ نهى عن الكبر، وبَيَّن أن المُتَكَبِّر لا يدخله اللَّه ﷻ الجنة؛ كما في قوله ﷺ: «**لا يَدْخُل الجَنَّة مَن كان في قلبِه مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبْر**». قيل: إنَّ الرَّجُل يُحِب أن يَكونَ ثَوْبُه حسنًا، ونَعْلُه حَسَنَةً. قال: «**إنَّ اللَّه جَمِيل يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْر بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ الناس**»[١].

(١) سبق تخريجه (ص ٥١٩).

والله ﷻ يُبيِّن ذلك في تربية لقمان لابنه في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩].

إن الأخلاق والقيم الإسلامية تدعو إلى الرفق والبشاشة والإذعان للحق، وسماع ما عند الآخر، والحوار لغرض رد الحق لأهله، والمجادلة بالتي هي أحسن، ولهذا تجد أن الله ﷻ أمرنا في القرآن أن يكون جِدالُنا بالتي هي أحسن مع الجميع، مع المسلم وغير المسلم، فموسى ؏ كان كلامه مع من عبدوا العجل بالتي هي أحسن، قال ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال - أيضًا - ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ونحو ذلك من الآيات.

فإذًا: يجب أن يُتعامل مع هذه الانفعالات بما يَخْدُم الأخلاق الإسلامية.

أسباب انحراف القيم عند الشباب:

إن أكبر سبب في انحراف القيم والأخلاق عند الشباب هو ضعف الإيمان والتقوى والخوف من الله، وهذا السبب الأول.

السبب الثاني: النظر للدنيا على أنها هي اللذة، وهي الغاية، وضعف النظر للآخرة.

السبب الثالث: الشهوات بأنواعها؛ سواء كانت شهوة المال، أو شهوة النساء لدى الرجال، أو شهوة الرجال لدى النساء، أو شهوة البقاء.

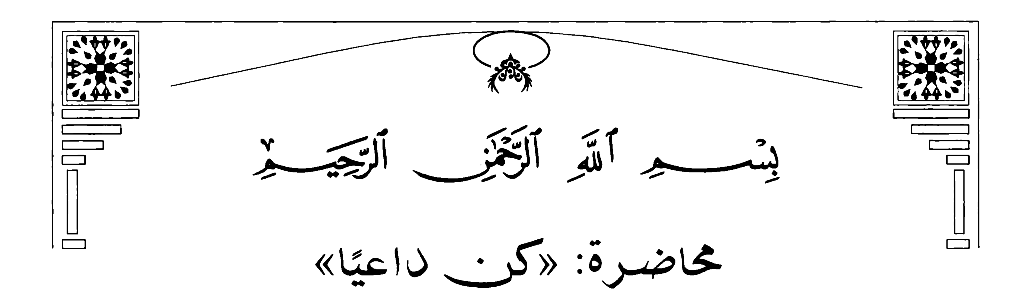
السبب الرابع: كثرة الشبهات، والشبهات قد تعرض على أنها شبهة، وقد لا تعرض على أنها شبهة، لكن تمارس، ويدخل الشاب فيها والمجتمع فتُحْدِثُ انحرافًا في العقيدة، وانحرافًا في الولاء والبراء كالمحبة في اللَّه والبغض في اللَّه، وتحدث انحرافًا فيما يجب أن يكون عليه الشاب.

عمر ﵁ يقول لقبيصة بن جابر ﵁: «**إِنِّي أَرَاكَ إِنْسَانًا فَصِيحَ اللِّسَانِ فَسِيحَ الصَّدْرِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ عَشَرَةُ أَخْلَاقٍ، تِسْعَةٌ صَالِحَةٌ، وَوَاحِدَةٌ سِيِّئَةٌ فَيُفْسِدُ التِّسْعَةَ الصَّالِحَةَ الْخُلُقُ السَّيِّئُ، اتَّقِ عَثْرَاتِ الشَّبَابِ**»(١). وهذه من أعظم الوصايا، ونختم بها حديثنا، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٤٠٧)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٣٥٠)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٩٥).



محاضرة: «كن داعيًا»

المقدم: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالمملكة العربية السعودية موطن الإسلام الأول، ومهبط الوحي، ودار المسجد الحرام والمسجد النبوي، وأرض المشاعر المقدسة، ومدرج الرسالة المطهرة، ومقر النبوة، ومبعث رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ.

من هذه الأنداء الطاهرة ولأبناء هذا الوطن: دعاةً للحق، ورسلًا للخير، ورجالًا للدعوة والإرشاد، يعملون من أجل إيصال رسالة الإسلام، ويبذلون جهدهم من أجل أن يسعد الناس بالخير والحق، والعبودية لله ﷻ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

من أجل ذلك حرصت وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على أن تقدم لكم هذه المحاضرة، وهي بعنوان: «**كن داعيًا**».

كن داعيًا إلى الله ﷻ معك وسيلة الدعوة.

(كن داعيًا): من هدى رجلًا إلى الاستقامة على الدين بعد أن كان غير مستقيم، فحصل له من الخير والصلاح والعبادة بسبب هذه الهداية، فله مثل أجر من عمل بما دعا إليه.

(كن داعيًا): لا تقل: لم يتأثر أحد، هذا ليس من شأننا ألبتة.

(كن داعيًا): وأعظم ما يُدعى به إلى الله ﷻ أن يوحد العباد ربهم.

(كن داعيًا): الطفل الصغير، أو من هو في سن التمييز يمكن أن يدرب على الدعوة.

(كن داعيًا): الشاب يمكن أن يدرب على الدعوة.

(كن داعيًا): المرأة يمكن أن تدرب على الدعوة.

(كن داعيًا): الفتاة يمكن أن تدرب على الدعوة، لكن بالأسلوب الذي يصلح.

(كن داعيًا): الداعي إلى الله ﷻ لابد له أن يهتم بالسنة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظْهِره على الدِّين كلِّه، وكفى بالله شهيدًا، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبد الله ورسولُه، وصفيُّه وخليلُه، صلَّى الله عليه وعلى آلِه وصحبِه، ومَن اهتدَى بهداهم إلى يومِ الدينِ.

أما بعد:

أيها الإخوة في الله، أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن أقامهم لنشر

دعوة الإسلام، وهداية من ضل عنها إلى الصراط المستقيم، كما أسأله - سبحانه - أن يجعل أعمالنا صالحة، وأقوالنا صالحة، ونياتنا خالصة له وحده - سبحانه -؛ إنه جواد كريم.

أرسل الله ﷿ رسله جميعًا للدعوة إلى الله ﷿، كل رسولٍ هو داع إلى الله، وأول الرسل نوح ﵇، وآخرهم محمد ﷺ، فقال في وصف آخرهم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف ١٠٨]، وقال ممتنًا على نبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

فالدعوة إلى الله ﷿ نعمة عظيمة، أنعم الله ﷿ بها على خاصة عباده، وعلى من آتاهم الله العلم والعمل، فجعلهم مهيئين لتبليغ الناس كلمة الله ﷿؛ ولهذا فإن الله ﷿ أمر نبيه ﷺ بالدعوة في غير ما آية، فقال ﷿: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال -أيضًا-: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال - أيضًا - ﷿ لنبيه ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال قبلها: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، يأمر الله ﷿ فيها الناس بأمره لنبيه

ولصحابته بالدعوة إلى الله ﷻ، فقوله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: كن داعيًا إلى سبيل ربك، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: لذلك كن داعيًا إلى الله، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، أي: لتكن هذه الأمة منكم داعية إلى الخير، ودعاة إلى الخير.

والخير: اسم جامع يشمل كل ما أمر الله ﷻ به في الكتاب، أو أمر به رسوله ﷺ في السنة، أمر إيجاب، أو أمر استحباب.

وهذا الأصل العظيم - ألا وهو الأمر بالدعوة إلى الله سبحانه - جعله ﷻ صفة الأنبياء، وصفة أتباع الأنبياء؛ كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وفي قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ إشارة، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الإشارة إلى ما ورد في هذه السورة - ألا وهي سورة يوسف -، التي يمكن أن يكون موضوعها الدعوة إلى الله ﷻ، وحال الداعية إلى الله في تقلباته وأحواله كلها.

نبينا ﷺ أمر بالتبليغ، أمر أمته بالتبليغ، وحض على نقل الدعوة، ونقل الرسالة، ونقل القرآن والسنة، فلما اجتمع له ﷺ في حجة الوداع نحو مئة ألف ممن حجوا معه تلك الحجة ﷺ، قال لهم: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[١]، ومعنى قوله: «**نَضَّر الله امْرَأً**»: دعاء للمرء الذي ينقل ما سمع بأن ينضر الله وجهه يوم يقوم الأشهاد، وهذا فيه الفضل العظيم بالنضرة يوم يُلقّى الناس كتابهم باليمين وآخرين يُلقّون كتابهم بالشمال.

لاشك أن الدعوة إلى الله ﷻ امتلأت بها النصوص في الكتاب والسنة بالحث عليها، وبطلبها، وبجعل العلماء هم حملة هذه الدعوة بعد الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه -.

ولا شك - أيضًا - أن الدعوة فضلها عظيم عظيم، فكما أنها واجب على الكفاية على مجموع الأمة، ففضلها بعد فضل الواجب، فضلها أعظم، وفضلها أكبر، من جهة تتابعه، ومن جهة عدم انقطاعه، ولهذا صح عنه ﷺ، أنه قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[٢]، يعني: إذا اتبعه واحد، فله مثل أجره، إذا اتبعه ألف، فله مثل أجره... وهكذا إلى أن تقوم الساعة.

وصح عنه أيضًا ﷺ - كما في مسلم وفي غيره - أنه قال: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٦)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٢٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

وأيضًا فيه أنه ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا**»(١)، وهذا كله فيه أن الداعية إلى الله ﷻ يُضاعف أجره؛ من حيث أن كل متأثر بهذه الدعوة الصحيحة التي دعا إليها الداعي، فسمع مقالة النبي ﷺ فوعاها، فأداها، وبلغها، فإن له من الأجر مثل أجور من اتبعه؛ لهذا قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»(٢)، وهذا كله فضل عظيم وكبير كبير.

ومن الاستطراد أن العلماء لما بحثوا مسألة إهداء القرب، إهداء الثواب بعد العمل، بحثوا مسألة إهداء الثواب للنبي ﷺ، وكان الأكثرون والمحققون على منع جواز إهداء الثواب للنبي ﷺ؛ لأنه ﷺ هو الذي دعانا إلى هذا الخير، وهو الذي هدانا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو الذي أرشد ﷺ، ودل وهدى، فله حينئذ أجر من اتبع، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، فكل من عمل عملًا صالحًا من أمة الإسلام، فللنبي ﷺ مثل هذا العمل؛ كما قرره العلماء في شرح العقائد، وذلك لتحقيق أن من دعا إلى شيء من الهدى ودين الحق، فله مثل أجر فاعله، هذا منة من الله ﷻ وتكرُّم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

ومن باب التطبيق خذ - مثلًا - إذا دعوت إلى الله ﷻ في تصحيح العقيدة، وتصفية القلوب من أن يكون فيها مقصود معظم تعظيم العبادة لغير الله ﷻ، وكل ما صلح من العمل بسبب هذا الإخلاص؛ فإن لك مثل ذلك الأجر، وهكذا من علم الناس القرآن، فأحسنوا تلاوته، أو صلوا بالناس به، أو قرؤوه، فللمعلم أو للداعي لذلك مثل أجر من اتبعه وعلمه، وكذلك من دعا إلى الصلاة، وأمر بها، حض عليها أهله وأولاده ومن حوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، فله مثل أجر هذا.

من هدى رجلًا إلى الاستقامة على الدين، بعد أن كان غير مستقيم، فحصل له من الخير والصلاح والعبادة بسبب هذه الهداية، فله أجر مثل أجر من عمل بما دعا إليه. . .، وهكذا في أمور العبادات وأمور الدين كلها.

وهذا يبين لك أننا إذا لم نكن دعاة إلى الله ﷻ، فنحن تخلفنا عما فيه مصلحتنا في ديننا وفي آخرتنا؛ لأن الداعي إلى الله ﷻ له هذا الفضل العظيم، الذي لا يوصف، ولا يحد له حد، فكيف - إذًا - بحال الأنبياء الذين هدوا أقوامهم إلى تفاصيل الهدى؟ لا شك أن رتبهم ستكون أعلى وأعلى؛ ولهذا لا يمكن أن يكون أحد من أمة نبي، ويكون مقامه أعلى من مقام ذلك النبي؛ كما يزعم طائفة من غلاة المتصوفة بأن الولي قد يبلغ مرتبة أعظم من مرتبة النبي، وهذا لا يمكن؛ لأن الولي كلما فعل وعمل عملًا، فإن مثل أجره يكون للنبي، بل إن كرامة الولي هي في الحقيقة صلة لما أعطى الله ﷻ ذلك النبي، وهكذا في أنواع شتى تدلك على أن هذه الشريعة، وهذا الدين - قولًا وعملًا - حض على أن نكون دعاة إلى الله ﷻ.

إذا تبين ذلك، فكن داعيًا إلى الله، كن داعيًا إلى الله -سبحانه-، حاملًا هم هذه الدعوة، إذا كنت في بيتك، أو في عملك، أو كنت في السفر، أو كنت في الحضر. إذا كان معك هذا الهم في نشر دين الله ﷻ، وفي أن تكسب مثل هذا الأجر العظيم، فإن الهم والدعوة لن يفارق ذلك صاحبه.

لكن أريد أن أكون داعية، فهل لي ذلك؟

على كل حال، العلماء قالوا: إن الدعوة ثانيًا، والعلم أولًا، لابد من العلم ثم الدعوة.

لكن هل العلم معناه أنك لا تكون داعية، إلا إذا صرت عالمًا من العلماء المبرزين؟ ليس كذلك، وإنما معناه ألا تدعو إلى شئ إلا إذا علمته بأصله ودليله، أو من كلام أهل العلم عليه، إذا لم يكن ثم دليل على ذلك.

فإذًا الدعوة لابد أن يسبقها العلم، والعلم مجزأ، العلم لا يمكن أن يكون الناس فيه مرتبة واحدة، حتى العلماء درجات، حتى العلماء مقامات، بعضهم أعلم من بعض، وبعضهم أفقه من بعض، تارة في كل المسائل، وتارة يكون عالمًا أعلم من العالم الأخر في شيء من علوم الشريعة. وهكذا من أراد أن يدعو، فإنه يدعو، لكن لابد أن يتعلم ما يريد أن يدعو إليه.

فإذا أراد أن يدعو إلى التوحيد، وإلى إخلاص القصد والوجه لله ﷻ، وتبرئة القلب من الأغيار، ومما يدخل فيه قصدًا وإرادة غير الله ﷻ، فإنه لابد أن يتعلم هذا الأصل العظيم، ألا وهو التوحيد والعقيدة؛ حتى يدعو إليه.

إذا أراد أن يدعو إلى ترك الكبائر، وإلى اجتنابها، والنهي عنها، فلابد أن يتعلم هذا الذي يدعو إليه؛ لأنه لو لم يتعلم، فربما دعا، وزاد في شيء من

عند نفسه، وهنا لم تكن الدعوة موافقة للسنة؛ لأنه ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**»، والهدى من أين نستقيه؟ نستقيه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ.

وهكذا من أراد أن يدعو إلى فضائل الأعمال، أو أن يعظ الناس بمواعظ، لا بد أن يتعلم ذلك؛ لئلا يدخل في شيء من الوعظ يخالف الأصل الشرعي، مثل ما كان في القرون الأولى، صار هناك أناس يدعون إلى غير طريقة الصحابة والتابعين في الزهد، فصار لهم طريقة خاصة توسعت، توسعت بعد ذلك، حتى صارت طرقًا؛ لأنهم لم يتعلموا قبل أن يدعوا، تغلب عليهم العبادة وحب الخير، لكنهم لما لم يتعلموا، ظنوا كل طريقٍ فيه خير، فهو طريقٌ صحيح، هذا ليس كذلك.

ابن مسعود رضي الله عنه أتاه أحد تلامذته، فقال له: **يا أَبَا عبد الرحمن إني رأيت في الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ، ولم أَرَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إلا خَيْرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قال: رأيت في الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ في كل حَلْقَةٍ رَجُلٌ وفي أَيْدِيهِمْ حصى، فيقول: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فيقول: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قال: فَمَاذَا قُلْتَ لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ، أو انتظار أَمْرِكَ. قال: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أن يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لهم أن لَا يَضِيعَ من حَسَنَاتِهِمْ، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا معه، حتى أتى حَلْقَةً من تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عليهم، فقال: ما هذا الذي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟! قالوا يا أَبَا عبد الله حصى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قال: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أن لَا يَضِيعَ من حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيْحَكُمْ يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ما أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ!!! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لم تَبْلَ، وآنيته لم**

تُكْسَر، وَالَّذِي نَفْسِي بيده إنكم لعلي مِلَّةٍ هِيَ أهدي من مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أو مفتتحوا بَابِ ضَلَالَةٍ. قالوا: والله يا أَبَا عبد الرحمن ما أَرَدْنَا إلا الْخَيْرَ. قال: وَكَمْ من مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حدثنا أَنَّ قَوْمًا يقرؤون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وأيم اللَّهِ، ما أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فقال عَمْرُو بن سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يوم النَّهْرَوَانِ مع الْخَوَارِجِ[1].

وهذا يدلك على أن أنواع الدعوة - سواء كان إلى أعظم شيء، ألا وهو التوحيد، أم إلى فضائل الأعمال - إذا لم تنضبط بضابط العلم الصحيح المستقى من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ، فلابد وأن يحدث الافتراق في الأمة؛ كما حصل فعلًا، ما حصل الافتراق لأجل نقص العلم، ولكن حصل الافتراق لأجل الجهل والبغي، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقال ﷻ - أيضًا - في سورة الشورى مبينًا أنهم تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، وفي آيات كثيرة.

إذًا فنقول: كن داعيًا. ومعنى ذلك: كن متعلمًا العلم الشرعي، الذي يساعدك في الدعوة إلى الله ﷻ، لا يطلب من كل مسلم أن يتعلم بحيث يكون طالب علم، وأن يحفظ، وأن يفهم، ويقرأ كثيرًا، ونحو ذلك، لا يطلب منك ذلك، وإلا فإنه لا يمكن أن يقوم الناس بالدعوة، أو نقول: يسد باب الدعوة، إلا من نفر قليل، وهذا ليس هو المقصود من ذلك، لكن تعلم، ثم علم، وادع إلى الله ﷻ، وهذا نبه عليه النبي ﷺ بقوله: «**نَضَّرَ اللَّهُ**

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٢٨٦).

امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِيَ فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»، لاحظ: (سمع)، هذا فيه تلقي العلم، (فوعى) فيه فهم العلم، فوعاها فأداها كما سمعها دون تغيير، دون اجتهادات، دون زيادات، «**فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١)، مهم، يلقي الكلام الداعية، أو أن تلقي الكلام، أو ربما تدعو، أو تنصح، أو تبين.

استعدادات الناس تختلف، فمنهم من يتأثر بهذه الدعوة المبنية على العلم أعظم أثر، ومنهم من هو متوسط، ومنهم من هو دون ذلك، فلا تقل - إذا كنت داعية - لا تقل: لم يتأثر أحد، هذا ليس من شأننا ألبتة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

نوح عليه السلام، كم مكث في قومه؟ ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهذه المدة ذكرت في أي سورة؟ في سورة العنكبوت، مدة مكث نوح عليه السلام، هذه المدة الطويلة ذكرت في سورة العنكبوت فقط، لماذا؟ لأن موضوع سورة العنكبوت هو الفتنة التي يفتن الله بها الناس؛ كما قال عز وجل، في أولها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، موضوع السورة في الفتنة، بدأها بذكر فتنة الإنسان بوالديه، وهما يدعوانه إلى الشرك بالله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

الفتنة بالمنافقين، ذكر قصة نوح عليه السلام في آيتين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٤٠).

قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥]، لماذا قصة نوح عليه السلام تأتي في آيتين في هذه السورة؟ ما القصد من ذلك؟ ما العبرة؟

العبرة أن من يدعو أو من يهدي الناس يفتتن بالمدة الطويلة.

موضوع السورة الفتنة، نوح عليه السلام رسول، أول الرسل، من أولي العزم من الرسل، مؤيد من الله عز وجل، ألف سنة إلا خمسين عامًا، الحصيلة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

فإذًا: إذا كنت داعية، لا تنظر إلى أن الناس اهتدوا، أو لم يهتدوا، نفعت دعوتك، أو لم تنفع، أثرت، أم لم تؤثر، ولكن أصلح قلبك؛ حتى يصلح قولك وعملك، ثم ادع إلى ما أمر الله عز وجل أن يدعى إليه، ثم تذكر: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

الناس في المقام الواحد يختلفون، تجد شخصًا بعد أن يُدعى، أو يلقى عليه شيء، أو نحو ذلك، يذهب متأثرًا بالقوة، ويبدأ يعمل إما في العلم، أو في تصحيح التوحيد والعقيدة، أو في العمل، أو في المحافظة على الفرائض، أو اجتناب الكبائر والمنهيات، أو. . .أو. . . ، وبعضهم يكون أقل، وبعضهم يكون أقل.

إذًا في الدعوة - إذا كنت داعية - فلابد أن تعلم أن قبول الناس للدعوة مختلف، لكن الله عز وجل يمن على من يشاء من عباده.

آية في سورة الرعد عجيبة، وهي قوله عز وجل: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ

وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]، من الأقوال في تفسير هذه الآية أن الله ﷻ يبين دلائل صنعه وربوبيته، يقول: إن الأرض واحدة متجاورة، والماء واحد، يسقى بماء واحد، ولكن الطعوم مختلفة، ففي هذه دلالة على أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد[1].

ولكن الحسن البصري رحمه الله - وهو البصير - قال: هذه الآية مثل ضربه الله ﷻ للناس؛ إذ يتلقون الوحي أو الدعوة، وهم متقاربون كتقارب الأرض وتجاورها، لكنهم بعد نزول الوحي - الذي يشبه بالماء - يتفاوتون في الأكل[2]، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ [الرعد: ٤]؛ لأن الأمر الأول هذا ظاهر بين الدلالة على الربوبية، والدلالة على الوحدانية، لكنه في قوله ﷻ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ما يدل على أن الناس متفاوتون في ذلك، وهذا هو الصحيح، وهذا التفسير هو الصحيح؛ كما قال ابن كثير رحمه الله، وتفسير الحسن حسن في هذا المقام؛ لأنه فيه دلالة على شيء.

فإذًا: المسألة أنك إذا كنت داعية، فانظر إلى تأسيسك، ولا تنظر إلى الناس من جهة هل استجابوا أم لم يستجيبوا؛ لأن النظر في الاستجابة أو عدم الاستجابة هذه قد تؤدي إلى انحراف، وذلك الانحراف من جهة أنه سيقول: الناس لم يستجيبوا؛ لأنه ربما ما قلته لهم لا يناسبهم، فيأتي ويبتدئ طرقًا جديدة وأشياء محدثة؛ ليؤثر عليهم، وربما استجاب لهذه الطرق

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٢٨٣).

المحدثة بعض من يدعوهم، لكن يقع الانحراف، ولاتكون الدعوة حينئذ على هدى وعلى وفق الكتاب والسنة.

كن داعيًا إلى الله ﷻ، وأعظم ما يدعى فيه إلى الله ﷻ، أعظم ما يحب الله ﷻ، وهو أن يوحد العباد ربهم في أفعاله وفي أفعالهم.

الرسل اجتمعت على دين واحد، ألا وهو دين الإسلام، وهذا الدين الواحد: تصحيح التوحيد، العقيدة الحقة، التي اشتملت عليها رسالات الأنبياء، هذا الدين الواحد هو أعظم ما يحبه الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

هذا الإسلام الواحد هو الذي جاء به آدم عليه السلام، وهو الذي جاء به نوح عليه السلام وهو الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

الإسلام عقيدة، الإسلام توحيد، دين، جميع الأنبياء مشتركون في ذلك، تختلف شرائعهم التفصيلية، ولكن الدين واحد؛ كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ: دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى**»(١).

إذًا: كل رسول يدعو إلى تصحيح هذا الدين، وهكذا كل متبع لهؤلاء الرسل، فلابد أن يكون داعيًا إلى هذا الأصل الأصيل، وهو الإسلام.

ما هو الإسلام؟ هو الاستسلام لله بالتوحيد، الإسلام العام الذي جاءت

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٧)، وإسحاق بن راهويه (١/ ١٢٤)، وابن حبان (١٥/ ٢٣٣).

به كل الرسل هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، هذا الإسلام الذي يدعى إليه، فلابد من التوحيد، ولابد من الانقياد والطاعة، ولابد من تعليم الناس الولاء والبراء في دين الله ﷻ.

الولاء: الحب، حب الدين، حب الله، حب رسول الله ﷺ، حب أهل التوحيد، حب أهل الدين.

البراء: بغض الكفر، بغض الشرك، بغض عبادة غير الله ﷻ، وهكذا.

إذًا: فأعظم ما يدعى إليه: التوحيد، والعقيدة الصحيحة، والسنة، واتباع النبي ﷺ.

إذًا: كن داعيًا إلى توحيد الله، كن داعيًا إلى سنة نبيه ﷺ وإلى الإيمان به، وهذا هو ما أوصى به نبينا ﷺ معاذًا حين قال له: «**إِنّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فليكن أول ما تدعوهم إليه شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وأنّ محمدًا رسولُ اللّهِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوك لِذَلِكَ** - يعني: فإن هم وحدوا الله - **فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللّيْلَةِ**»[١].

إذا كنت ستدعو إلى هذا الأمر العظيم، فلابد أن تتعلمه.

هنا كن داعيًا، تدعو من؟ تدعو من يحتاج إلى الدعوة، بعض المسلمين عنده قدرة على أن يدعو غير المسلمين باللغة العربية، وآخر عنده قدرة على أن يدعو غير المسلمين باللغة الإنجليزية، أو باللغة الفرنسية، أو باللغة الأوردية، أو باللغة المالوية، أو باللغة التايلندية، أو باللغة الفلبينية،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

أو باللغة اليابانية. . . ، أو بأي لغة، عنده قدرة، أعطاك الله ﷻ هذه القدرة، وامتن عليك بها، كن داعيًا إلى الله بعد العلم بما أعطاك الله ﷻ.

آخر عنده أسلوب في الدعوة يصلح في شيء ما، كن داعيًا فيما أعطاك الله ﷻ، آخر أعطاه الله العلم، يكون داعيًا بما أعطاه الله ﷻ، لا يمكن أن نقول للناس: لابد أن تكونوا على مرتبة واحدة، وعلى طريقة واحدة، وأن يكونوا على نسق واحد، لا يختلفون. ليس كذلك، المهم سلامة المنهج في الدعوة إلى الله ﷻ، وفهم الكتاب والسنة في أمر الدعوة، أما الاستعدادات، فما أعطى الله ﷻ المسلم منها، فعليه أن ينطلق في الدعوة بما أعطاه الله ﷻ من ذلك.

الداعية إلى الله ﷻ لابد أن تظهر عنده مواقف ومشكلات، ولابد أن يواجهه أشياء: إما علمية، وإما عملية، لا تتوقع أنك إذا كنت داعيًا أنه لن تواجهك مشكلة علمية، لا تعرف كيف تخرج منها، أو مشكلة عملية، أو مشكلة دعوية، أو علاقات. . . إلى آخره، أو مواجهات مع الآخرين، فما المرجع في الدعوة؟ لابد من معرفة المرجع في الدعوة إلى الله؛ لأنه إذا لم تحدد المرجع في دعوتك من أول الطريق، فإننا سنفترق في الدعوة، ولابد. وهو الذي حصل في الأمة، أنه لما غابت المرجعية في الدعوة، وكذلك في العلم، حصل التفرق، وبعد التفرق حصلت البغضاء، وبعد البغضاء ربما حصل ما هو أشد من ذلك من قذف الأمة بعضها بعضًا، أو ربما حصلت المقاتل؛ كما هو معلوم.

ألم يتقاتل المسلمون؟ تقاتلوا، وتارة يكون كل يدعي أنه على الحق،

لكن لابد من مرجعية، ما المرجع؟ لا شك أن المرجع هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وعمل السلف الصالح، وكلام أئمة الإسلام الذين أجمعت الأمة على الثناء عليهم، هذا مرجع مطمئن، واضح، بين، لا لبس فيه ولا غموض، ويسهل أن تقنع نفسك به، وأن تقنع الآخرين به: قال الله، قال رسوله، على هذا كان السلف الصالح، هذا الذي عليه أئمة الإسلام، الذين أجمعت الأمة عليهم.

إذًا: فنحن مع هؤلاء الركب، لا نتخلف عنهم، وهؤلاء هم السفينة التي من ركبها سلم، ومن تخلف عنها غرق.

هذا يسميه بعض المعاصرين: مصدر التلقي، مصدر التلقي ما معناه؟ معناه: المرجعية في الدعوة إلى الله، ما مصدر تلقينا في الدعوة؟ هذه الأمور: الكتاب (قال الله)، السنة (قال رسوله ﷺ)، الصحابة (هدي السلف الصالح)، كلام الأئمة (أئمة الإسلام الذين أُجمع على أنهم من أئمة الإسلام واشتهر مقام الصدق فيهم).

إذًا: مصدر التلقي إذا أردت أن تكون داعيًا، فلابد أن يتضح لك المرجعية، إذا لم تتضح لك المرجعية، فسيكون هناك في مواجهات الأمر العملي، لابد أن يكون هناك اجتهادات، ستجتهد، وتجتهد، وتجتهد بلا علم، وبلا مرجع، فحينئذ ستكثر الخلافات والانحرافات في الدعوة.

الدعوة فيها اجتهاد، لابد من جهة العمل فيها اجتهاد، لكن إذا كان مصدر التلقي واحدًا، والمرجعية واحدة، فإن الخلافات ستقل، ولن تكون في الأمور المهمة، ستكون في الأمور غير المهمة.

كن داعيًا إلى الله ﷻ على منهج الأنبياء في البداءة بالأهم فالمهم، منهج الدعوة حدده النبي ﷺ بقوله: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فليكن أول ما تدعوهم إليه شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وأنّ محمدًا رسولُ اللَّهِ**»[١]، أو إلى أن يوحدوا الله.

إذًا منهج الدعوة فيه ترتيب: ما الحاجة؟ ما الذي يحتاجه الناس في الدعوة؟ فتجعل الأولوية متجهة إلى ما يحتاجه الناس، فإذا كان الناس عندهم انحراف في توحيد الله ﷻ، فيُجعل هذا هو الأولوية، ويركز عليه، والأمور الأخرى تكون تبعًا لذلك، لا تُترك، ولكن تكون تبعًا، إذا كان الناس على توحيد، لكنهم عندهم غفلة، تفريط في الفرائض، ارتكاب لبعض المنهيات، إقدام على الشهوات، تساهل في هذا، فيدعون ويوعظون بما نقصهم.

لهذا رسالات الأنبياء بالاتفاق أنها كانت جميعًا تدعو إلى التوحيد، وإلى تحقيق الإسلام، لكن نجد بعض الأنبياء لم يذكر الله ﷻ عنه تفصيلًا أنه دعا إلى التوحيد، مثل من؟ مثل لوط عليه السلام، كل ما في القرآن عنه أن الله ﷻ أمره، فقال لوط عليه السلام لقومه في النهي عن كبيرة إتيان الرجال - والعياذ بالله -، وأيضًا قطع السبيل: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وأيضًا: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وأيضًا: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، لكن ما ذكر أنه دعا للتوحيد، لكن هل هو ما دعا له؟ دعا إلى ذلك؛ لأن هذا هو الأصل، لكن كانت هذه هي الفاشية،

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٥٠).

وهي الموجبة لغضب الله، فنص الله ﷻ عليها، وإلا فالجميع مشتركون في ذلك.

إذًا: فأولويات الدعوة تكون بحسب الحاجة، تكون بحسب الحاجة إلى ذلك، لكن لا يأتي قائل، ويقول: إذا رأينا الحاجة مثلًا في الدعوة إلى بيان أمر من أمور الشريعة، فمعنى ذلك أن لا ندعو إلى الأصل، ألا وهو التوحيد والسنة؟! لا، ذاك الأصل لابد أن يكون مستصحبًا، وأن يتعرض له الداعي في أي حال، تثبيتًا له، وتأكيدًا، وتذكيرًا للنفوس به.

المسائل نوعان:

١- مسائل علمية. ٢- مسائل عملية.

أما المسائل العلمية، يعترض لها النسيان، المسائل العلمية تنسى.

والمسائل العملية هي: بحسب العمل، إن تتابع الناس بالعمل بها، لم تنسَ، وإن تركوها، نسيت.

مثلًا الأمة في تاريخها لم تترك الصلاة، لكن الأمة في تاريخها حصل لبعض هذه الأمة أنهم لم يتركوا الصلاة، ولم يتركوا الصيام؛ لأن هذه أمور عملية، يتتابع فيها، ويتربى الناس، لكنهم نسوا وجهلوا العلم بالتوحيد والعقيدة الصحيحة والسنة، فوقع منهم ما وقع.

لهذا نقول: الأمور العلمية يؤكد عليها، ويؤكد؛ حتى لا ينساها الناس، وأول ما وقع الشرك في قوم نوح عليه السلام الابتلاء بالصور المعظمة والتماثيل ونحو ذلك، قال ابن عباس - كما في صحيح البخاري -: «... **حَتَّى إِذَا**

هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[١]، (لاحظ نسيان العلم، العلم لا يبقى، العلم ينسى)، إذًا فلابد من ترتيب الأولويات.

كن داعيًا إلى الله ﷻ، معك وسيلة الدعوة، لا يمكن للداعي أن يدعو بلا وسيلة، لابد أن يكون معه سلاح، لابد أن تكون معه وسيلة، لابد أن يكون معه ما يَعْرِضه في دعوته، كيف؟

الناس منهم طلبة علم، يمكن أن يدعو بما يحفظ، حفظ الكتاب أو شيء منه، حفظ السنة أو شيء منها، حفظ وعلم، فهو سيدعو بما آتاه الله ﷻ، آخر يحتاج إلى أن يكون معه السلاح من الكتب والأشرطة، والنشرات، الكتيبات، تكون معك في كل حال، كتيبات باللغة العربية فيما يدعى الناس إليه ويرشدون، كذلك باللغات الأخرى، إذا أردت أن تكون داعية، ونؤكد، ونقول: كن داعيًا، واحرص على ذلك في كل مقام، اجعل معك السلاح دائمًا، معك في حقيبتك، في سيارتك.

ربما تأتي تريد مثلًا أن تأخذ بنزينًا، أليست هناك فرصة للدعوة؟ فرصة: هذا كتاب، وهذا شريط، ولكن إذا لم يكن معك، فكيف سيبقى أثر هذه الدعوة؟! يكون معك كتاب نافع من الكتب المأمونة، يكون معك شريط نافع من الأشرطة المأمونة، التي صدرت عن علم صحيح، أو بأسلوب جيد يوعي الناس، لا تتوقع ماذا سيكون الأثر، فتذهب، ولكن الأثر عظيم.

ليكن معك دائمًا سلاح الدعوة، ليكن معك ما تحفظ من الكتاب والسنة، ليكن معك ما هو موجود من الكتب والرسائل والأشرطة؛ لهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد نظمت معرضًا، هو المعرض الأول في المنطقة الشرقية، بدأ يوم السبت الماضي، عنوانه: (كن داعيًا) المعرض الأول لوسائل الدعوة، فيه السلاح، ما نستطيع أن نجعل الناس جميعًا، نؤهلهم للدعوة، لكن نوفر لهم هذا السلاح، كتب بجميع اللغات، أشرطة مختلفة، فيه شيء لغير المسلمين، بلغات مختلفة للمسلم، للشاب، للمرأة، للطفل، للكبير، للصغير... إلى آخره.

ليكن مع الرجل، مع الأم، مع الوالد، مع الذي يتنقل، مع المسافر، حتى إن بعض الأخوة هناك عملوا حقيبة مقسمة إلى اثني عشر قسمًا أو أكثر، وكل قسم عليه عنوان، ماذا في داخل هذا القسم؟ حقيبة تحمل، وفيها الكتب والأشرطة بلغات مختلفة.

نريد أن نقول: إن هذا تقوية؛ ليكون معك السلاح، وسيكون في جدة - إن شاء الله تعالى - هذا المعرض في هذه السنة بإذن الله تعالى.

إذًا: فلابد من أن يكون معك السلاح، بحسب الدعوة التي تريد، أما أن نقول: الدعوة ضعيفة، أين الدعاة؟ والواحد منا ما يحمل كتابًا ولا يحمل شريط دعوة يهديه ويبذله، فالقصور منا، وليس القصور من الوسائل، الوسائل - ولله الحمد - المأمونة في هذا البلد الطيب المبارك، موجودة وافرة لمن أراد.

كن داعيًا إلى الله ﷻ، لا تريد بدعوتك إلا وجه الله ﷻ. أخطر شيء على الإخلاص ميدان الدعوة، ميدان الدعوة ميدان شهرة، وميدان ذكر، وميدان بروز لبعض الناس، فلذلك هو أخطر شئ من الأعمال الصالحة،

أخطر شيء على الإنسان فيما يصرفه عن الإخلاص مثل التصدر للتعليم.

فلهذا إذا أردت أن تكون داعية، فنبه نفسك دائمًا على الإخلاص والصدق في ذلك، وأنك لا تريد بدعوتك خدمة لنفسك، أو لحزب، أو لطائفة، وإنما تريد أن تهدي الخلق إلى ربهم ﷻ، وأن يستقيموا على طاعة الله ﷻ.

عنْ أبي قِلَابَةَ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَصَابَ ذَنْبًا، فَكَانُوا يَسُبُّونَهُ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَجَدْتُمُوهُ فِي قَلِيبٍ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْتَخْرِجِيهِ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**فَلَا تَسُبُّوا أَخَاكُمْ وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي عَافَاكُمْ**»، قَالُوا: أَفَلَا تَبْغَضُهُ؟ قَالَ: «**إِنَّمَا أَبْغَضُ عَمَلَهُ، فَإِذَا تَرَكَهُ فَهُوَ أَخِي**»[١].

اللوم لمن وقع ليس أسلوبًا مصيبًا دائمًا، الدعوة تحتاج منك إلى أن تنتشل وتنقذ، ثم بعد ذلك تذكر بسوء ما كان عليه الناس؛ لذلك يكون أثبت، كان الصحابة يتذاكرون أمرهم في الجاهلية، لماذا؟ ليس من جهة اللوم، ولكن من جهة أن يكون عندهم استمساك أكثر بالإسلام دين الله ﷻ.

الوصية لي ولكم جميعًا أن نحرص على توطين أنفسنا على الدعوة إلى الله ﷻ.

المرأة الصالحة المرأة المسلمة عليها مهمة عظيمة في أن تدرب نفسها على ميدان الدعوة إلى الله ﷻ، هل ميدان الدعوة بين النساء هو بين الصالحات، أو بالتعبير الدارج بين الملتزمات؟، ليس كذلك، الأمر أوسع

---

(١) أخرجه أبو داود في الزهد (١/ ٢١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٥)، وأحمد في الزهد (١/ ١١١).

من ذلك، لكن الأسلوب والسلاح، والله ﷻ من أراد هدايته، فسيهديه إلى صراط مستقيم.

المرأة عليها واجب كبير في الدعوة إلى الله ﷻ؛ لذلك لابد أن تكون - كما ذكرنا - متسلحة بالعلم، معها السلاح، عندها البذل في ذلك، بحسب محيطها الذي تعيش فيه.

الرجل - أيضًا - يعود أهله، يعود أبناءه الصغار على أن يحملوا هم هذه الدعوة، لكن بما يناسبهم، بطرقهم.

الدعوة إلى الله ﷻ لابد أن تكون بحسب ما يفهمه الناس، لابحسب ما يريد الإنسان: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ**»(١)، إذا دعوت رجلًا كنت أو امرأة إلى ما تريد أنت بدون معرفة حال الناس، أو كيف استعدادات الناس، وما يحتاجونه، وكيف يتقبلونه، وما الأشياء المؤثرة عليهم، فإنما تحدث نفسك. لابد أن تنزل.

لذلك تجد بعض العلماء يؤلف مؤلفات غاية في الجودة، وفيها قوة لفظية وقوة علمية، ويصنف مصنفات سهلة جدًا، لماذا؟ النووي رحمه الله ألف (المجموع شرح المهذب) في فقه الشافعي، وألف كتبًا، وألف (رياض الصالحين)، رياض الصالحين أجمعت الأمة على حسنه، وعلى تداوله بعده، لكن الكتاب لمن؟ هل هو للعلماء؟ للجميع؛ لأنه عرف ما يحتاجه الناس بجميع طبقاتهم، فكتب.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

بعض العلماء تجد في بعض رسائله العبارات الشرعية القوية، وفي بعض رسائل أخرى تجد عبارات عامية، مثل ما استعمل إمام الدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض الرسائل، فيها كلمات عامية، هل هو قصور في فهم اللغة؟ لكن لأن هذه الرسائل - ورقتين ثلاثًا - ستذهب للناس، فيخاطب العوام بقدر ما يستوعبون.

أحد العلماء أتاه رجل، فقال له: «آية أسمعها دائمًا، ولكن ما عرفت معناها». قال - هو من علماء الرياض قديمًا ومن آل الشيخ رحمهم الله - قال: «وما الآية يا ولدي؟ قال: قال ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٧٧]» يمكن كثير من الأخوة ما طالع تفسيرها -، العالم ماذا قال له؟ ربما يأتي أحد، ويقول: عبأ، يعبأ، وهذه معناها: كذا، وأصلها، وقل ما يعبأ بكم ربي لولا، لولا: حرف دخول، كذا، ويبدأ يفسرها كما فسرها علماء التفسير التحليلي في ذلك -، لكن قال له باللغة العامية في نجد: «ويش يبيكم؟» يعني: أن الله ﷻ خلقكم لأي غرض، أنا أعبر عنها بالتعبير العربي، لأي غرض؟ إذا لم يكن دعاؤكم وتوحيدكم، ودعوتكم للإسلام، وعبادتكم له وحده لا شريك له، ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: أنكم أنتم لا تستحقون لولا الدعاء الصالح، والعبادة، قال: يعني أنكم إذا ما عبدتم الله ﷻ وحده، فما له لزوم فيكم.

أقصد من هذا المثال أن الداعية إلى الله ﷻ ينزل بالمستوى، لابد أن تنزل باللفظ بالشرح؛ حتى يستوعب الناس الدعوة، أما أن تكون الدعوة في مستوى واحد للجميع، مثل من يحفظ أشياء، ويبلغها دائمًا بنفس المستوى، ليس الأمر كذلك، لابد من رعاية الحال، والمقام والاستيعاب؛

حتى تؤثر هذه الدعوة.

الطفل الصغير أو من هو في سن التمييز يمكن أن يدرب على الدعوة، الشاب يمكن أن يدرب على الدعوة، المرأة يمكن أن تدرب على الدعوة، الفتاة يمكن أن تدرب على الدعوة، لكن بالأسلوب الذي يصلح.

فمثلًا عندك ولد عنده محبة وفتنة بالكمبيوتر - مثلًا - وباستعماله، ادخل عليه من مجال الدعوة، وأن يرسل أشياء، ويستقبل أشياء في هذا الميدان؛ لأن هناك شيئًا سيشتغل به، فاجعله يشتغل بما يؤصل فيه هم الدعوة إلى الله ﷻ، وقد جرب هذا، فنجح.

المرأة تكون معها رسائل، أذكار، كتب في السنة، في ذلك، توزعها، تهديها، تعطيها... إلى آخره في المجال.

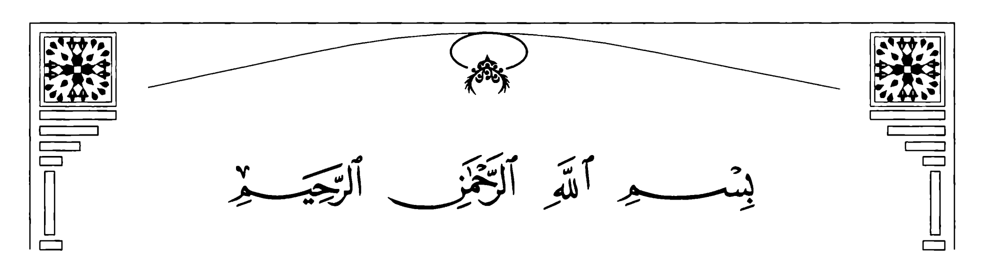
الداعي إلى الله ﷻ - وهو الختام - لابد له أن يهتم بسنة النبي ﷺ القولية والعملية؛ لأنه إن أخلى نفسه من السنة قولًا وعملًا، فإنه سينقص من أمره بحسب ذلك.

السنة هي أعظم شيء، السنة تشمل الواجبات، وتشمل المستحبات، سنة النبي ﷺ الناس يحتاجون إليها، سنته ﷺ في عبادته، سنته في شرابه، سنته في هديه، في مشيه، سنته في أهله، سنته مع صحابته، سنته مع الأعداء، سنته مع العصاة، سنته مع المحتاج للدعوة، سنته مع البعيد، سنته في رسائله، سنته، سنته؛ لهذا ألف ابن القيم كتابًا جامعًا في هذا سماه: (زاد المعاد في هدي خير العباد)، السنة مهمة جدًا في هذا الأمر.

ونقف عند هذا الحد، والموضوع لاشك أنه ذو شعب، وأنه كثير الميادين.

أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن استعمله في طاعته، وصرف عنه الفتن ظاهرها وباطنها، وغفر له ولوالديه، ولأهلينا وذرارينا جميعًا، وجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم اغفر لآبائنا ولأمهاتنا ولمن له حق علينا، واستعملنا في رضاك، اللهم وفق ولاة أمورنا لما تحب وترضى، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، ولا تخزنا يوم تبعث عبادك، واستر علينا بسترك، واسبل علينا عفوك ورحمتك وعافيتك ومنتك؛ إنك جواد كريم، كثير العطاء، كثير النوال، اللهم فاغفر وأجب، وأنت أكرم مسؤول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





لِقَاءَاتٌ تِلْفَازِيَةٌ مَعَ مَعَالِي الشَّيْخِ صَالِحٍ آلِ الشَّيخ

«اللقاء الأول»

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فأيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الحلقة التي نستضيف فيها في القناة الأولى في تليفزيون المملكة العربية السعودية معالي الشيخ: **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ**، وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

وقد حرصت القناة الأولى على استضافة معاليه من ناحيتين ومن موقعين: من موقعه العلمي بوصفه أحد طلاب العلم البارزين المشهورين الذين نذروا نفسهم وجزءًا كبيرًا من وقتهم لطلب العلم، فحصل لمعاليه منه في فترة قياسية الشيء الكثير، ومن موقعه الآخر الثاني بوصفه يتسلم سدة وزارة من أهم الوزارات في المملكة العربية السعودية، وهي وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، التي تشرف على عدد كبير من الدعاة والأئمة في داخل المملكة وخارجها، واستطاعت بفضل الله عن طريق دعاتها وعن

طريق منهجها المعتدل الرصين الذي ينسجم مع منهج هذه البلاد المباركة أن تنشر العلم وفق منهج السلف الصالح، العلم المتزن الرصين.

باسمكم أيها الإخوة نرحب بمعالي الوزير الشيخ:

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وقد حملنا له مجموعة من القضايا الكبرى المهمة التي تموج بها الساحة في داخل المملكة وخارجها، كالفتن والمخرج منها، والإرهاب، والجهاد والولاء والبراء، والوهابية، والتكفير، وواجب الدعاة والمفكرين، وأيضًا الأئمة والخطباء، وواجب الشباب، وأيضًا دعم الحملة الكبرى التي قامت بها المملكة العربية السعودية لدعم إخواننا المسلمين في أفغانستان.

أبدأ معالي الشيخ بترحيبي بكم وبطرح السؤال الأول حول الفتن والمخرج منها:

كما تعلمون المسلمون والعالم في هذه الأيام يمرون بفتن عظيمة، ومن نعم الله علينا نحن المسلمين أن الله رزقنا دينًا سمحًا سهلًا بين لنا المخارج والمعارج التي نستطيع من خلالها أن نتعامل مع الفتن، فيا ليتكم معالي الوزير تلقون الضوء على شيء من ذلك.

الشيخ: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فإني أشكر بمناسبة هذا اللقاء للقناة الأولى بتليفزيون المملكة العربية السعودية، ولكم شخصيًا يا دكتور محمد، على إتاحة هذه الفرصة التي كنت أرغب أن تكون منذ أمد لمناقشة قضايا كثيرة وملحة يأتينا السؤال

عنها، ويبلغنا تفكير وبحث الناس عنها في مجالسهم وفي منتدياتهم؛ وذلك لأن هذه الأمة يشعر بعضها بأمن بعض، هي أمة واحدة بنص القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وهذه الأمة أمة يهتم بعضها ببعض؛ لأن هذا من مقتضى الولاية والمحبة؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

هذا التماسك وهذا الشعور سمة خير، سمة رشد، وسمة نضج، في تاريخ هذه الأمة أن تُعنى بشؤونها وأن يهتم بعضها ببعض؛ ولهذا فإني في فاتحة هذا اللقاء لأرجو أن يكون طرح هذه القضايا التي ذكرت كثيرًا منها، أن يكون بمنطلق الشرع وبمرجعية دينية واضحة، وأيضًا بواقعية من جهة التكامل في النظرة إلى مقاصد الشريعة الإسلامية في تحقيق مصلحة المسلمين؛ لأن الشريعة - كما هو معلوم - جاءت لتحقيق مصلحة المسلم في عقائدها وفي تشريعاتها.

في عقائدها: فيها مصلحة المسلم في الدنيا والآخرة، وفي تشريعاتها: أيضًا فيها مصلحة المسلم في الدنيا والآخرة.

ومن عقائدها وتشريعاتها ما يتعلق بالفرد في نفسه، ومنها ما يتعلق بالأمة بشكل عام. ولهذا أرى وأشارككم الرأي في أن البحث في هذه الموضوعات بوضوح شرعي وبنظرة شمولية مهم جدًا في هذا الوقت لحاجة الناس إلى ذلك.

أما ما افتتحت به هذا اللقاء من الكلام على ما يموج به العالم الإسلامي اليوم، وما يحدث في العالم كله من اضطراب في المفاهيم على إثر

الحوادث الكبيرة التي وقعت في هذا الشهر الماضي، لاشك أنه يحتاج إلى بيان واضح في كيفية تصرف المسلم في هذا الحدث بخصوصه وبما يشابهه؛ لأن التاريخ إذا قرأناه وجدنا أنه مليء بالأحداث، مليء بالفتن، فليس التاريخ - في علم الله ﷻ - ميدانًا للجمود أو ميدانًا للركود، بل التاريخ متحرك؛ لأنه يمثل أممًا لكل أمة اتجاهها لكل أمة مصالحها ولكل أمة تاريخ.

فلهذا لابد أن يكون هناك أحداث، لابد أن يكون هناك تدافع، لابد أن يكون هناك أحداث تتعلق بالأفراد، تتعلق بالأمة، تتعلق بدولة ما، تتعلق بأكثر. كيف يتعامل المسلم مع هذه الأحداث التي وقعت سواء في الحاضر أو ما قد يقع في المستقبل؟

أحب أن أقدم بمقدمة لهذه المسألة المهمة، وهي أنه لابد لنا من قواعد ننظر بها دائمًا إلى طريقة تعاملنا مع المستجدات والأحداث التي تهم الصغير والكبير، ويحدث فيها مثل ما حدث في الأيام الماضية أو في الأسابيع الماضية.

أولًا: يجب أن نفهم أن الشرع (القرآن والسنة) قد أعطى العاطفة حقها وقد أعطى العقل حقه، الشرع طلب من المسلم أن يكون متوازنًا بين عاطفته وعقله؛ لأن المسلم بلا عاطفة دينية يخبو وإذا زادت العاطفة الدينية فإن العقل والإدراك يضعف.

ولهذا تميز العقلاء من أهل الديانة في تاريخ الإسلام، سواء من الصحابة أو التابعين وأئمة الإسلام، تميزوا بهذا التوازن ما بين عواطفهم وعقولهم.

والشريعة جاءت بهذا أتم مجيء وفي القرآن والسنة من هذا الشيء الكثير.

إذًا فالقاعدة الأولى: أن يكون هناك توازن ما بين العقل والعاطفة، كثير من الناس يفكر - بل الأكثر - يفكر بشكل عاطفي دائمًا، فالعاطفة نتيجتها هي إما إلى طرف اليمين أو إلى طرف اليسار، العاطفة في الغالب ما تتوسط إما أن تعطي إلى اليمين وإما أن تعطي اندفاعًا إلى الجهة الأخرى. وهذا ما حصل من مثل ما رأينا في هذه الأزمة، أو في هذه الفتنة الحاصلة ما بين طرف غالٍ في جهة وما بين طرف جفا في جهة وضعف جدًا في ذلك.

إذًا: العاطفة إما أن تزيد وإما أن تذهب، تزيد بمعنى: تصل إلى طرف أو أن تذهب كليًا، هذه مسألة مهمة: العواطف تجمح صاحبها. جمهور الناس عاطفيون؛ لأنه يقول علماء الفلسفة وعلماء النفس: إن الناس على قسمين: عاطفيون وبرهانيون.

العاطفيون هم: جمهور الناس؛ لأن ليس عندهم أدوات تحقيق أو البحث في المسائل عن طريق برهان أو دليل، إنما يبحثون في المسائل عن طريق عاطفتهم الجياشة التي تحركهم ذات اليمين أو ذات الشمال.

والقليل من الناس - وهم القسم الثاني - وهم البرهانيون؛ ولذلك صار قادة الأمة أو حكماء الأمة دائمًا هم أهل العقل والبرهان مع العاطفة، العاطفة المتزنة والعقل والبرهان الواضح البين.

هذا الأمر يقودنا إلى ما جاء في الأثر: إن الله ﷻ يحب القلب التقي عند ورود الشهوات، ويحب العقل الكامل عند ورود الشبهات. وهذا التوازن ما بين العقل والعاطفة مهم جدًا.

والقاعدة الثانية: أن التاريخ لابد أن يُقرأ، الأمور في مبتدئها سهل أن تنظر إليها وأن تدخل إليها، لكن ما نهاياتها والمآلات؟ هذا هو الذي يجب على الناس أن يفكروا فيه. إذا قلت أنا لشيء نعم سأفعل ويجب علي أن أفعل، لابد أن يحقق المقصد الشرعي وهو ماذا بعد نعم هذه؟ إذا قلت: لا، لا أفعل، لابد أن أنظر ماذا بعد لا هذه.

هنا يظهر التوازن أيضًا في هذه المسألة من قراءة التاريخ، من قرأ الفتن التي حصلت في التاريخ يجد هذا بينًا في أن الناس تدافعوا في أمر لو نظروا إلى نهاياته لعلموا أنها سيئة، مثل ما حصل من كثير من الناس في الفتنة في وقت عثمان رضي الله عنه.

عثمان رضي الله عنه خليفة من خلفاء المسلمين، أدى الأمر بكثير أو عدد من المتحمسين في ذلك الزمان إلى الانتقاد عليه، ولما انتقدوا عليه بعض الأشياء هو فيها مصيب ليسوا هم المصيبين، لكن حركوا الناس في ذلك ونتج عن هذا أنه قُتل عثمان وحصلت فتن كثيرة ومقاتل على مدى عدة سنين، في النهاية بعد أن انقضت هذه الأمور قال الناس: ليتها لم تحصل وليت لم يحدث كذا وكذا؛ لأن جمهور الناس لا يدركون المآلات هم يدركون لابد أن أفعل الآن هذا، يدركون البدايات لكن المآلات لا يدركونها.

لهذا يجب في حال الفتنة أن يرتبط الناس بقادة الأمة، بعلماء الأمة، بأهل الحل والعقد فيها، بأهل العلم، أهل الفكر الصائب والنظر السليم، وإلا فإن الجماهير قد لا تدرك المآلات ولا تدرك المصالح تحركها العواطف دون عقل.

أما القاعدة الأخيرة: فيما يتصل بهذا المقام: فهي أنه في الفتن تجنب العقل الجماعي وعليك بالتفكير الانفرادي، لماذا؟

لأن للإنسان عقلين: عقلًا يكون مفكرًا به مع مجموعة الناس، فإذا جاء مثلًا في مجلس أو جاء في حوار أو مع ناس، تجد أنه يندفع بعقله في قناعته، أو عدم قناعته، أو في انتقاداته، أو في ما يتجه له مع العقل الجماعي؛ ولذلك في الفتن يصلح من عامة الناس أنه يفكر بعقل منفرد، هذا العقل المنفرد يهدئ من العقل الجماعي الذي يكون متجهًا إليه الناس.

العقل المنفرد إذا تأمل فيجد أنه لابد له أن يكون مع حكماء وعقلاء وعلماء وقادة الأمة لا مع الغوغاء أو مع عامة الناس في ذلك؛ لأن العبرة إنما هي بالحكمة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والظاهر في الآية تقليل من عدد من يؤت الحكمة، فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فإذًا ليسوا الأكثر هم الحكماء أو أهل الرأي في الأمة وإنما هم الأقل دائمًا، ولذلك صلحوا لقيادة الأمة في سياستها أو في علمها أو في فكرها أو في دعوتها، ونحو ذلك.

تعليق: معالي الشيخ في نقطة لو تكرمت، بعض الناس قد يقول: أنا ما عندي القدرة العقلية على التفكير الفردي، يعني أخشى أن أشتط إذا جلست وحدي لست مؤهلًا للتفكير، فماذا علي أن أتبع مباشرة؟

الشيخ: هنا الله ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، إذا اشتبهت الأمور على الإنسان يكف أولًا، ثانيًا عليه أن

يبحث عمن يأتمنه على عقله، على دينه، ويسأله ويتأمل - أيضًا - في جوابه هل هو مرده إلى الدليل، إلى النص، هل هو مرده إلى قواعد شرعية؟ إلى مصالح؟، إلى كذا، فيأخذ بها.

وفي الفتن ينبغي لنا أن ننظر إلى أن الفتنة تكون مع الاشتباه، بمعنى أن قضية دخل فيها الناس، أو حدث حدثًا محليًا أو حدثًا عالميًا أو ربما أقل من ذلك، لكن كيف يتعامل معها؟ هنا يحصل له الاشتباه. لكن إذا وقع الاشتباه عند الإنسان عند المسلم فأولًا يتأنى؛ لأن الأناة والحلم فيها الخير والبركة كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِى الأَمْرِ كُلِّهِ**»[1] الرفق، وجاء في حديث وفد عبد القيس، أوفي حديث أشج عبد القيس أن النبي ﷺ قال له: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» فهنا إذا حدثت الفتن، أول أمر وأول أصل يحاسب المسلم نفسه أنه لا يسارع في شيء بل يتأنى، يتأنى ويتأنى؛ لأن المسارعة دائمًا مذمومة ودائمًا مزلق من المزالق.

الإنسان بطبعه عجول ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] لكن هذه العجلة لابد تضبط وتحجز بقواعد وأصول الشرع.

أما ما يتعلق بالفتنة وكيف يتصرف معها؟:

أولًا: الأناة وعدم الاستعجال،

ثانيًا: أن ينظر إلى القواعد الأصيلة أو إلى منهجه قبل حدوث الفتنة، لماذا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٥، ٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٢٥٦، ٦٤٠١، ٦٩٢٧)، ومسلم في صحيحه(١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لأنه في حدوث أمر ما وتغير تبدأ الشبه تظهر والأقوال والآراء والإشاعات والاتجاهات، ومن كان عنده شيء قبل حدوث التغير تجد أنه يظهره بأنواع مختلفة من المقال والتبريرات والتعليلات.

فرجوعه إلى الأصل الذي كان قبل حدوث هذا التغير والركون إليه والاستمساك به، هذا مهم جدًا، فننظر مثلًا إلى أنه في وقت الفتن أو في وقت التغيرات قد يسيء الناس الظن ببعض العلماء، نقول: قبل حصول هذا التغير من كان مرجعكم، من كان المرجع؟ أليس هو العالم؟ إذًا لماذا أخذتم بكلامه قبل ذلك والآن شككتم فيه؟!

إذًا المسألة راجعة إلى إساءة ظن، ما سبب إساءة الظن؟ هناك من يحرض على إساءة الظن لمقصد قد يكون اجتهادًا خاطئًا وقد يكون لمقصد سيء، فهذا مهم الرجوع إلى ما قبل ذلك.

في خصوص هذا الأمر الذي حصل والتفجيرات التي حصلت في أمريكا وما حصل بعدها من اتهام المسلمين بما اتهموا به من تعاطفهم - نقصد بالمسلمين يعني عددًا من المسلمين في العالم - من تعاطفهم مع هذا، وما حصل من الصحافة العربية أيضًا من الحملة على الإسلام وعلى المسلمين، وما حصل بعد ذلك من الأقوال والآراء، لاشك أن هذا أمر كبير حصل واضطراب في الأفهام، هنا ما المخرج، أو كيف يتعامل معه؟

أولًا: يجب علينا أن نرجع إلى مقاصد الشريعة، مقاصد الشريعة تدعو إلى الاعتصام بحبل الله جميعًا وعدم التفرق، المحافظة على الجماعة هدف مهم دائمًا في كل وقت، وعند حلول التغيرات من باب أولى وآكد؛

لأن التغيرات تدعو إلى حصول الفرقة، فيجب أن نستمسك بها أكثر للم الشمل وتقوية الصف لأجل ألا يُدخل من خلال الأزمة ومن خلال التغير إلى إضعاف الوحدة.

المسلم مأمور بذلك: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣] الجماعة في الإسلام جماعة دين، يعني الاجتماع على الدين الحق، الاجتماع على الإيمان، هاتان الجماعتان كل واحدة منهما متصلة بالأخرى لا انفصال بين هذه وهذه، إذا حصل الاجتماع في الدين حصل الاجتماع على الإيمان وعلى ولي الأمر وعلى الحاكم، إذا حصل الاجتماع على الحاكم والقدوة حصل من خلاله الاجتماع على الدين ووحدة الكلمة في ذلك.

و إذا تفرق الناس في الدين وفي أوامر الدين تفرقوا بالتالي في الاجتماع على الإيمان، إذًا لا تساهل في إحداهما، لذا صار هناك خلل في الاجتماع في الدين، صار هناك طعن في المسألة الدينية، ما عندنا في الفتن مسألة اجتهادات واسعة وكل واحد يأخذ رأيه وعندنا عشرون ثلاثون قولًا هذا يمكن أن يكون في حال الأمن، في الحالة الطبيعية؛ لأنها حالة لا يحدث منها شيء.

لكن في حالات الأزمات يجب أن يجتمع الجميع على رأي في الدين واحد، هذا القول الواحد أو الرأي الواحد في الدين يؤخذ مِنْ مَنْ؟ يؤخذ من العلماء الراسخين الذين شهدت لهم الأمة برسوخ في العلم ومضى زمن طويل لهم في العلم تعلمًا وتعليمًا، ولهم جهود فيه ويُشهد لهم بذلك في كل أعمالهم.

وهنا ضرورة أخرى أيضًا وهي ضرورة الاجتماع: أنه في حال الاختلاف لا يسوغ أن نأخذ آراء فردية، بمعنى أن نسمع فلانًا من المنتسبين للعلم قال كذا وكذا، نقول إذًا نكون وراءه ومعه؟ ليس كذلك. فلان قال كذا وكذا، نذهب معه؟ ليس كذلك.

إذًا في مجال الأزمات لا مجال للانفراد، لابد من أن نقوم بعُرف أو أن يفهم الناس عُرفًا مهمًا، وهو ما كان عليه السلف في عهد عمر رضي الله عنه إذا حدثت قضية كبيرة جمع لها أهل بدر، وهو عُمر رضي الله عنه والصحابة، ما يُسأل فيها فلان وفلان وفلان مع جلالة قدرهم، وإنما يجمع لها أهل بدر.

كذلك نقول هنا: ينبغي على الناس ألا يأخذوا بقول شواذ طلبة العلم أو شواذ المنتسبين بالعلم، بل يأخذوا بما عليه مجموع العلماء؛ لأنهم خاصة إذا صدر من هيئات علمية ومجامع كهيئة كبار العلماء أو اللجنة الدائمة للإفتاء، أو مجموعة من العلماء يعني تفرقوا في أقوالهم لكنهم مجموع كلامهم يصب في شيء واحد، إذًا هنا هذه نجاة ومحافظة على الجماعة.

كل مسلم مأمور أن يحافظ على الجماعة في الدين، الحماس لا يعني المحافظة على الجماعة في الدين، الخوارج أحدثوا فتنة في تاريخ المسلمين، فتنة عظيمة لا مثيل لها أدت إلى قتل عثمان رضي الله عنه، وأدت إلى قتل علي رضي الله عنه هذه الفتنة هل سببها الكفر أو سببها الغلو في الدين؟ حتى النبي صلى الله عليه وسلم وصفهم بقوله: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠، ٦١٦٣، ٦٩٣٣) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إذًا عندهم زيادة في التعبد وعندهم زيادة في حب الخير وحب الجهاد وحب لتحقيق الحق وإبطال الباطل، لكن هل سلكوا فيه الطريق السليم؟ لم يسلكوا فيه الطريق السليم، إذًا خالفوا الجماعة، فرقوا في الدين فنتج عنه التفرق على ولي الأمر؛ لذا حصلت الفتنة بمقتل عثمان رضي الله عنه.

ثم إن الصحابة رضي الله عنهم الذين هم خير الناس كم أمضوا من السنين بعدها وهم في مقاتل، وإلى آخره؟ حصل قتال بين الصحابة رضي الله عنهم، هل الصحابة رضي الله عنهم تقاتلوا باختيارهم؟ ليس كذلك، سعى هؤلاء أصحاب الفتن، سعوا بين الفريقين حتى حصل القتال بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما.

علي رضي الله عنه لم يختر هذا ومعاوية رضي الله عنه لم يختر هذا لكن وجدوا أنفسهم أمام قتال لا يدرون سببه من جراء هؤلاء الذين سعوا في جنح الليل.

تعليق: يعني هذا أن الفرقة تطيش فيها الأحلام ولو كانت كبيرة؟

الشيخ: ما في شك، ثم بعد ذلك يظن أنه عالم الحق، فإذًا نقول: لابد من الاجتماع، الاجتماع في الدين والاجتماع على الإيمان قضيتان مهمتان بهما العصمة في وقت الأزمات.

ولهذا أنا أقول: هذا يجب أن يؤكد، يؤكده العالم، يؤكده أستاذ الجامعة، يؤكده السياسي قبل ذلك، يؤكده المفكر، يؤكده الداعية، يؤكده الخطيب، يؤكده المدرس في مدرسته في التعليم العالي أو ما دونه أو التعليم العادي، لا بد أن تؤكد، يعني هذه المعاني مهمة في الدين، الاجتماع من أساس الدين.

تعليق: وهي صالحة لكل عصر لا تتغير؟

الشيخ: ما في شك، أنا كلامي قد لا ينصب على معالجة آنية؛ لأن هذه قواعد تصلح لأي شيء.

وبالمناسبة أنا أقول - وقد أكون أطلت في هذا المقام لكن كمدخل - بالمناسبة نقول: إن العقل يجب أن يكون له منهج في التفكير. هل نحتاج في كل مرة إذا حدث شيء أن نعلم الناس كيف يتصرفون؟ لا، لابد أن أفكر دائمًا كيف أعصم عقلي وعاطفتي من الوقوع في المزالق المخالفة للدين؟ فإذا كان هناك منهج صحيح للعاطفة مسبقًا صارت هناك حصانة، وإذا كان هناك منهج صحيح للعقل والتفكير، كيف تفكر في الأمور كمنهج؟ الناس يستقبلون بلا منهج وأيضًا يتكلمون ويندفعون بلا منهج وبالتالي تقع الأغلاط.

تعليق: جزاكم الله خيرًا يا شيخ، قضية أخرى، هذه القضية لها ذيول أيضًا، لكن ما أريد أن تستأثر بالوقت كله، موضوع الإرهاب من الموضوعات التي أيضًا تلوكها وسائل الإعلام والناس فيها - يعني حكومات ودول وأفراد - بين مُشَّرِق ومُغَّرِب، وتجد كلًا منهم يفسر أيضًا حسب مصلحته وحسب هواه، فهل هناك ضابط شرعي للإرهاب وتعريف الإرهاب وتحديده؟

الشيخ: في الحقيقة ما في شك أن مسألة الإرهاب مسألة مهمة وكبيرة. كما ذكرت يا دكتور محمد أن الإرهاب تنازع الناس في مصطلحه. ودوليًا الآن هناك دعوات تدعو إلى تحديد مصطلح الإرهاب. لكن نقول: إن

المصطلحات للناس أن يُحدثوا من المصطلحات ما شاؤوا؛ لأنه كما قال العلماء: (لا مشاحة في الاصطلاح). لكن شرعًا يلزم القبول بالمصطلح إذا كان تفسيره شرعيًا تفسيرًا صحيحًا.

ولهذا نقول: الإرهاب هو بمعنى التخويف، وأعظم من التخويف هو الاعتداء على الآمنين سواء بقتل أو سلب أو نحو ذلك. فحقيقة الإرهاب المذموم شرعًا هو الاعتداء على الناس وترويع الناس. هذا لا يخص المسلم، الاعتداء على المسلم أعظم أو إخافة المسلم أو في بلد الإسلام ما في شك أن هذا أعظم؛ لأنه يجب أن يكون الناس في أمن وأمان، وكذلك الاعتداء على غير المسلمين بغير وجه حق هذا أيضًا يدخل ضمن التعريف الأخير هذا للإرهاب؛ لأنه اعتداء بغير وجه حق أو إخافة للآمنين بغير وجه حق. والأصل في الناس بحكمة الله ﷻ أن يكونوا في أمن، حالة القتال هي الحالة الاستثنائية، الأصل أن يعيش الناس في أمن: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].

الله ﷻ ما قسم الناس إلى شعوب وقبائل ليحارب بعضهم بعضًا أو ليقاتل بعضهم بعضًا وإنما ليتعارفوا وليستفيد بعضهم من بعض. تأتي حالات القتال أو الجهاد هذه في حالات لها أحكامها التفصيلية.

الاعتداء على الآمنين بأي نوع من الاعتداء، بقتل أو سلب أو إضرار أو تخويف المجتمع وسلب أمنه، هذا يدخل فيما نهت عنه شريعة الإسلام، بل ما نهت عنه الشرائع جميعًا، قد قال ﷻ في سورة المائدة لما ذكر خبر بني إسرائيل، قال: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا

﴿قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].
فجعل الله ﷻ قتل نفس واحدة بغير وجه حق قتلًا للناس جميعًا وإحياء نفس إحياءً للناس جميعًا.

ولهذا الشريعة بل الشرائع جميعًا ضد وتحرم وترفض الاعتداء على أحد بغير وجه حق، لهذا فرق كثير من الناس سواء من الساسة أو من العلماء ما بين هذا النوع وهو الاعتداء بغير وجه حق وبين ألفاظ أخرى أُدخلت في ذلك مثل القتال بحق ومثل حق تقرير المصير مثل الدفاع عن النفس ونحو ذلك، هذه مسائل طبعًا لا تدخل في مصطلح الإرهاب؛ لأن حق تقرير المصير أو الدفاع عن النفس أو رد المحتل ونحو ذلك هذا قتال مشروع وجهاد مشروع.

المسألة الثانية: إن الإرهاب قد يقوم به فرد أو أفراد أو جماعة، وأيضًا قد تمارس الإرهاب دول أو دولة في ذلك، فإذًا الإرهاب ليس خاصًا بدين أولًا، الإرهاب هو سلوك إنساني. بحسب هذا التعريف. يخوف الآمنين ويرعب ويقتل فيه أو قد يقتل، وسلوك خارج عن الطبيعة، وهذا قد يمارسه من انحرف من المسلمين أو من انحرف من النصارى أو من انحرف من اليهود أو من انحرف من أي فئة أو قبيلة أو عصبية أو نحلة، إلى آخر ذلك.

إذًا الإرهاب لا دين له، الإرهاب لا يجوز أن ينسب إلى دين من الأديان، الإرهاب سلوك إنساني له أسبابه وله مبرراته.

الثاني: الإرهاب أيضًا قد يمارس من قِبَل دولة على المستضعفين فيها، مثل الآن ما نرى مما يمارسه العدو الصهيوني مع إخواننا المسلمين في

فلسطين، قتلى لمدة الآن سنة أو أكثر يوميًا قتلى وجرحى بغير وجه حق وتسلط، نرى أنه داخل في تعريف الإرهاب؛ لأنه اعتداء بغير وجه حق وتخويف بغير وجه حق. فينبغي بل أنا أقول يجب أن ينظر إلى الإرهاب النظرة الشمولية يُبحث فيها عن تعريف الإرهاب لتحدد معالمه ويُبحث فيها عن أسباب وجود الإرهاب في الأفراد وفي الجماعات وأيضًا في الدول، ويجب أن يُنظر فيه إلى بحث عن المبررات التي قد توجد هذا السلوك المشين وتُعالج ويكون علاجها بحذر، ينبغي أن نكون أصحاب مصداقية مع أنفسنا وأيضًا أن يكون العالم صاحب مصداقية مع القضايا في العالم الإسلامي الكبير، وإذا كان كذلك فإنه ستضمحل هذه الأمور.

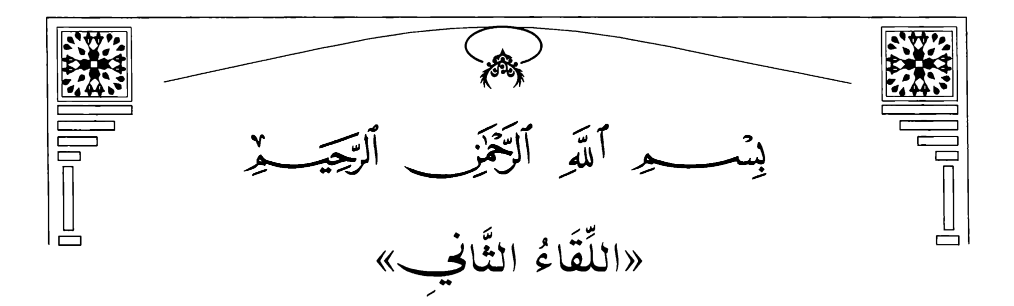
هنا نقول الإرهاب في تاريخ الإسلام - وهو بهذا المعنى وهو الاعتداء بغير وجه حق والقتل بغير وجه حق - الإرهاب في تاريخ الإسلام كان كبيرًا، كان ما يمر قرن إلا وهناك حوادث كثيرة، فهل قتل عثمان إلا منه، وهل قتل علي رضي الله عنه إلا منه، وهل قتل الصحابة رضي الله عنهم من المخالفين والغلاة والفرق الضالة إلا منه.

أخيرًا: عندنا في المملكة العربية السعودية، هل الذي حصل في الحرم واحتلال الحرم ونحو ذلك وما حصل فيه إلا نوع من أنواع التخويف؟ الحرم هو أقدس مكان على الأرض بحسب معتقدنا، وأيضًا المكان الذي تأمن فيه الطير، الطير حتى ما نطأ جرادًا أو نمس طيرًا، نمر بجوار الحمامة ما يصلح أن ننفرها، بل نجعلها في أمن وراحة. حتى أمور فيه خلاف ما تأمن به الطير، وما يأمن به الفراش والجراد.. إلى آخره، فمورس الإرهاب إذًا.

نحن بحسب شريعتنا لا بحسب اتجاهات الناس، بحسب شريعتنا وبحسب نصوص الكتاب والسنة ضد تخويف الناس ضد القتل بغير وجه حق ضد الإخافة، نحب أن يكون الناس في أمن وأمان وسكينة وطمأنينة؛ لأن الله ﷻ أعطى ذلك للناس، وهذا هو الذي نوده ونود أيضًا أن يراجع الناس في العالم أن يراجعوا الإرهاب بمفهومه الشمولي، وأن ينظروا إلى من يمارس الإرهاب الآن بحق المسلمين في فلسطين نظرة جادة وأن يحلوا هذه المشكلة بقوة وحزم؛ لأنه إذا لم نعالج الأسباب فإن النهايات ستبقى كما هي.

تعليق: شكرًا جزيلًا معالي الشيخ، ويبدو أننا نحتاج إلى أكثر من حلقة؛ لأننا في هذه الحلقة لم نتمكن من الإتيان ولا على ربع المحاور التي وعدنا بها، وباسمكم أيها الإخوة المشاهدون والمشاهدات نشكر معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على تفضله بالمشاركة معنا في هذه الحلقة، وأيضًا نشكركم أنتم على متابعتكم، ونعدكم - إن شاء الله - بحلقة أخرى لنكمل فيها هذه المحاور التي طرحناها في بداية الحلقة ولم نتمكن أن نأتي ولا على ربعها. نستودعكم الله وإلى لقاء آخر في حلقة قادمة بإذن الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«اللِّقَاءُ الثَّانِي»

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله، إلى هذه الحلقة الجديدة التي نستكمل فيها الحوار الذي بدأناه مع معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ / **صالح ابن عبد العزيز آل الشيخ** في موضوع الجهاد.

معالي الشيخ نحن - المسلمين - نعرف جميعًا أن الجهاد شريعة محكمة، وأنه سنة ماضية، وأن الدليل عليه ثابت من القرآن ومن السنة وعمل الرسول ﷺ وعمل الصحابة والخلفاء رضي الله عنهم فيما بعدهم، ولكن ما مدى تطبيق الجهاد والحاجة إلى الجهاد ووجوب الجهاد وتنزيله على الوقائع والظروف والأحوال؟

فيا ليتكم معالي الشيخ تتحدثون في هذا الموضوع.

الشيخ: لا شك يا دكتور محمد أن الجهاد شريعة ماضية، النصوص من القرآن والسنة كثيرة في الأمر بالجهاد، إما أمر إيجاب أو أمر استحباب، الجهاد شُرع في الإسلام لحماية الدعوة، والجهاد هو بمعنى القتال، سُمي

جهادًا لأنه فيه بذل الجهد في القتال. والجهاد من أعظم القربات عند الله ﷻ وشرع حماية للدعوة الإسلامية.

والجهاد في تاريخ الإسلام أو في هدي النبي ﷺ أو في هدي الصحابة سير إليه في حالتين:

الحالة الأولى: حالة الدفاع، كما قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] هذا جهاد الدفاع، بمعنى أحد يعتدي عليهم يدافعون عن أنفسهم، هذا في التاريخ وما جاء من النصوص.

الثاني: الجهاد بمعنى فتح المجال للدعوة، وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أول كتابه أو أوائل كتابه (الجواب الصحيح) قال: إن الأصل في الإسلام هو جهاد الدعوة جهاد البيان جهاد الحجة. فإذا كان المجال مفتوحًا لتأدية دعوة الإسلام وبيان أمر الله ﷻ وبيان حجة الإسلام فإن هذا معناه أن الطريق مفتوح لجهاد البيان والحجة فلا لزوم أو مشروعية لجهاد السيف.

لهذا كان النبي ﷺ يخاطب غير المسلمين، يعني من النصارى وغيرهم، كان يخاطبهم يخيرهم بين ثلاث: بين الإسلام أو بين دفع الجزية أو بين كذا، هذا من حيث التشريع وطبعًا إذا صار هناك معاهدات وكان هناك هُدَن، هدنة ومعاهدات بين المسلمين وغير المسلمين هنا الوضع تغير صار إذًا هنا حالة من الميثاق والعهد والهدنة ما بين المسلمين وغير المسلمين، فلا مجال حينئذٍ من أن تُخرق هذه الهدنة أو يُخرق هذا الأمر من بعض المسلمين ويقول أنا الآن في حالة جهاد.

الجهاد ما يقوم به الأفراد، الجهاد يقوم به ولي الأمر، يقوم به الحاكم، تقوم به الدولة؛ لأنه مسؤولية الدولة ليس مسؤولية الأفراد.

ولهذا نقول: إن العلماء نصوا على أن الذي يدعو للجهاد هو ولي الأمر؛ لأنه هو الذي يُخاطب بحفظ بيضة المسلمين، والذي يُخاطب لنصرة الإسلام، فهو المَعني بعلاقة الدولة المسلمة بغيرها، وهو المعني بالعهود والمواثيق، هو المعني بإمضاء الميثاق أو بعدم إمضائه، بإمضاء العهد أو عدمه، هو المعني بتحقيق مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها.

فإذًا الجهاد الذي يدعو إليه ولي الأمر، كما نص العلماء على ذلك، والأدلة تدل على هذا الأصل العظيم، كقول الله ﷻ: ﴿**فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ**﴾ [النساء: ٨٤] من الذي يحرض؟ هو النبي ﷺ لماذا؟ لأنه هو ولي الأمر، وهو القائد، وهو الإمام في هذه الحالة.

كذلك قول النبي ﷺ حينما أتاه رجل يستأذنه في الجهاد - الحديث الذي في (المسند) - فقال له النبي ﷺ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»[(١)]، استدل العلماء بمجيء الرجل يستأذن النبي في الجهاد، ومنع النبي ﷺ له أنه لم بالاستئذان، لكن الاستئذان هنا واجب؛ لأن هنا الإمام ما استنفر الناس، متى يكون الجهاد واجبًا؟ إذا استنفر الناسَ الإمامُ، قال: جاهدوا أيها الناس.

أمرهم بالقتال، أمرهم بالتعبأة ونحو ذلك، لكن في غير هذه الحالة، في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤، ٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

غير حالة الأمر، ليس لأحد أن يبتعد عن الحق الذي جعله الله لولي الأمر، ويذهب من نفسه لماذا؟ لأن الجهاد مصلحة منوطة بولي الأمر هو الذي يقدرها، يعني الجهاد فيه مصلحة، فيه مصالح، هو الذي يقدر متى يكون ومتى لا يكون القتال.

فلهذا نقول: إن الحديث دل على أنه من الاستئذان، فليس لأحد أن يفتئت على ولي الأمر، وأن يخرج عن طاعته بأن يجاهد من غير إذن.

كذلك ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة في عقائدهم بأنهم قالوا: إن الجهاد ماضٍ مع كل إمامٍ. هذا الجهاد نصوا عليه في العقيدة، لماذا؟ مع أن الجهاد مسألة فقهية، الجهاد مسألة فقهية تأتي بعد الحج في كتب الفقه، هذا الجهاد لماذا أدخله علماء العقيدة، أئمة أهل السنة والجماعة في العقائد مع أنه مسألة فقهية؟

لأنه قد خالف فيه الفرق الضالة، خالف فيه الخوارج، وخالفت فيه بعض الطوائف الأخرى، في أن الجهاد يرون أنه لا يرتبط بولي الأمر، من هذه الشريعة كل واحد. . . .، فأوردوه ليخالفوا، ليبينوا أن منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح في مسألة الجهاد أنه ليس لكل أحد، وإنما الجهاد ماض مع كل إمام، ليس ماضيًا بدون إمام، لابد أن يكون الجهاد تحت راية، وهذه الراية يقيمها ولي الأمر، ويدعو إليها، ويأذن بها، فليس لأحد أن يذهب بدون إذن ولي الأمر.

أيضًا الصحابة ﷺ لما كانوا في مكة قبل الهجرة، قالوا للنبي ﷺ: لو شئت لملنا على أهل منى بأسيافنا. فنهاهم النبي ﷺ وقال: «**لَمْ أُومَرْ**

بِذَلِكَ»[١] لماذا؟ لأن الجهاد ليس مقصودًا لذاته، الجهاد هو لهدف، الجهاد لغرض، الجهاد لتحقيق مقصد من مقاصد الشريعة.

فإذا كانت مقاصد الشريعة متحققة بدون قتال فالمسير إلى القتال لا وجه له، إذا كانت لا تحقق مقاصد الشريعة، والحفاظ على الكليات، الكليات الخمس أو الضروريات الخمس المعروفة، إذا كانت لا تحقق إلا بالجهاد سار الإمام إلى الجهاد، كانت تحقق بدونه، والمحافظة على الدين والنفس ... إلى آخره، فإنه لا يسار إليه؛ لأن الدين يمكن أن يدعى إليه؛ ولأن النفس محافظ عليها ونحو ذلك.

هنا نقول: إنه في حالة، في كثير من الحالات، المسلم يرى الجهاد قضية واحدة بلا أحكام تفصيلية، بل الأكثر اليوم من المسلمين، إذا وقعت حادثة لا يعرف أحكام الجهاد، يمكن يعرف أحكام الصلاة أو بعضها، يمكن يعرف أحكام الزكاة أو بعضها، لكن الجهاد يظن أنه شيء واحد، وهذا ليس صحيحًا؛ لأن الجهاد مثل الصلاة مثل الصيام مثل الزكاة مثل الحج مثل البيع مثل النكاح، له أحكام تفصيلية له شروط له واجبات له سنن... إلى آخره، يمكن أن يقول واحد: أنا أريد أن أتعبد وأصلي، يقول: ما لها لزوم أن أعرف اتجاه القبلة، لازم أن أستر العورة وأنا أتوجه إلى الله ﷻ لازم مثلًا في الصلاة أني أتوضأ؟ نقول له لازم، ... أنا أقرأ نفس القراءة الفاتحة والذي بعدها، لماذا؟ نقول: لأن الشرع اشترط لهذه العبادة شروطًا، واشترط للزكاة شروطًا، واشترط للحج شروطًا،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٦١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥) من حديث كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه.

وهكذا والبيع له شروط سبعة كما هو معروف.

إذًا: الأحكام لا تؤخذ بعناوينها، الشرائع والمسائل الشرعية لا تؤخذ بعناوينها وإنما تؤخذ بتفاصيل الأحكام التي جاءت في الكتاب والسنة، ونص عليها أهل العلم.

من ذلك، الجهاد له أحكام تفصيلية، كيف نأخذ الجهاد بدون أحكامه التفصيلية؟ فإذا كان كذلك وجب أنه يُنظر في أحكامه التفصيلية، ومن أحكامه التفصيلية التي وردت: أنه من شرط الجهاد أن يدعو إليه الإمام - ولي الأمر -؛ لأنه لابد أن يكون تحت راية، فإذا قال: أنا أجاهد دون النظر في هذا الشرط. قل له: هذا لا يصح منك؛ لأنه على شرط جعله العلماء من شروط الصحة، إنه يفتئت على الإمام.

حتى إن بعض العلماء نصوا قالوا: ومن فعل ذلك فإنه يأثم؛ لأنه شاق الحكم الشرعي، وخرج على ما أعطى الله ولي الأمر من الحقوق، وولي الأمر أعطاه الله ﷻ حقوقًا يجب على الرعية أن يلتزموا بها، وأيضًا طلب منه واجبات عليه من جهة الشرع، عليه أن يقوم بها، فالرعية لابد أن ينظروا هذا الشيء ليس لهم، فما دام المولى أعطى الإمام وولي الأمر هذا الشيء فيجب أن يلتزموا به، مثلما يلتزمون بأحكام الصلاة والزكاة.. إلى آخره.

تعليق: لكن معالي الشيخ، ما يأتي شخص ويقول: ربما ذلك حينما كان المسلمون لهم إمام واحد، الآن الدول الإسلامية مختلفة فإذا احتاجت دولة مثلًا إلى أن ننصرها، فماذا يمكن أن يفعل المسلمون؟

الشيخ: أولًا: مسألة الاتفاق على الإمام هذه انتهت منذ قامت الدولة

العباسية، كانت طبعًا في عهد الخلفاء وفي عهد الدولة الأموية، كان الإمام واحدًا، الدولة واحدة، لكن بعدها بدأت الدول، أول ما بدأت بقاء الدولة الأموية في الأندلس، والدولة العباسية في المشرق، فظهرت دولتان.

أجمع العلماء على أن أهل كل بلد عليهم السمع والطاعة لإمامهم لماذا؟

لأن اجتماع الناس في بلد على إمامهم به تحقق الجماعة في الدين، والجماعة في الأبدان، وهذه يشير إليها في الأول، وهذا مقصد شرعي عظيم بعد ذلك لما كثرت الدويلات أيضًا لزم أهل كل ناحية أن يلتزموا بوليهم، فإذا كان ولي الأمر مسلمًا وقائمًا بما أمر الله ﷻ فإنه حينئذ لا مناص من إعطائه ما جعل الله له من الحق.

تعليق: معالي الشيخ، موضوع آخر قضية من القضايا التي أشرنا إليها، وهي مسألة الولاء والبراء، فالولاء والبراء أيضًا من المصطلحات الشرعية، ومن الأصول العقدية الكبرى التي أيضًا كثر الخوض فيها هذه الأيام، ويكثر الخوض فيها دائمًا حينما تأتي قضية يكون المسلمون فيها طرف، أو يقحم المسلمون ليكونوا فيها طرفًا من الأطراف، فتأتي قضية مثلًا الولاء للمسلم، والبراء من غير المسلم، لكن أليس هذا الأمر، لابد أن ينضبط بضوابط شرعية أيضًا، وأن القضية ليست قضية عامة وعائمة.

الشيخ: الولاء والبراء عقيدة من عقائد المسلمين، ومعناه: أن يكون ولاء الإنسان - والولاء مفهوم - أن يعطي ولاءه لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولكتابه وللمؤمنين، الذين هم من أهل الله ﷻ ويطيعون رسوله ﷺ ويحكمون كتابه هذا معنى الولاء.

والبراء معناه: أن يبتعد عن إعطاء الولاء لغير المسلمين، أو للكفر أو لديانة أخرى.

أو معنى آخر، الولاء: هو حب الله ﷻ ورسوله ﷺ، وكتابه. والبراء: هو كره عبادة غير الله، كره الشرك، كره الكفر، طبيعي أن المسلم ما دام أنه يطمع في الجنة ويخشى من النار؛ فإن معنى الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتحقيق الولاء لله ولرسوله ولكتابه، وذلك كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]، إذا كان كذلك فالولاء والبراء بمعنى: محبة الإيمان وأهل الإيمان والبراءة من الشرك وأهله بمعنى: كره الشرك وبغض الشرك فإن هذا يقتضي أن يكون هناك محبة للمؤمنين، هذا الولاء والبراء ليس شيئًا واحدًا، الولاء والبراء حب وبغض، هنا تأتي مسألة التعامل، هل التعامل مع غير المسلم يخالف هذا الأصل؟ نقول: نرجع إلى حال النبي ﷺ نجد النبي ﷺ في المدينة قد عامل المسلم، وغير المسلم، أما معاملته لغير المسلم كانت مثالية، قد تجد بعض الناس اليوم ما آمن بها، تجد أنه إذا كان جاره ربما زاره، أهدى إليه، إذا مرض أعاده، باع واشترى من غير المسلمين، أعطى العهد والميثاق أيضًا لأهل الشرك والكفر إلى آخره، أتاه وفد نصارى نجران فأسكنهم في المسجد.

إذًا: هذه مسائل التعامل لا تعني مخالفة لعقيدة الولاء والبراء، استئجار الكافر غير المسلم عند الحاجة إليه لا يخالف الولاء والبراء، الاستعانة به

أيضًا لا يخالف الولاء والبراء، الولاء: هو محبة الإيمان وبغض الكفر، هذا أصله.

البراء: أن يكون في القلب كراهة للشرك لعبادة غير الله، لعبادة الطواغيت، للكفر بأنواعه، هذا معناه يعني هو أمر عقيدة في النفس.

ثم يأتيك التعامل من جهة الولاء والبراء أن يكون عند المسلم بعقيدته في الولاء والبراء عنده محبة للمؤمنين وولاء لهم ووقوف معهم، محبة لشرع الله، محبة لدينه لا يرضى أن تنتهك حرمات الشرع، محبة للقائم بأمر الله ﷻ، هذا كمقتضى الولاء، في ذلك مقتضى الولاء والبراء، هنا قضايا التعامل لا تخالف قضايا الولاء والبراء، كذلك لا يخالف الولاء والبراء حال الدولة الإسلامية، وولي أمر الدولة المسلم في إعطاء العهود والمواثيق والمعاهدات، وإعطاء أهل الذمة العهد والأمان أو تأمين من يأتي ونحو ذلك، هذا لا يخالف الولاء والبراء، لماذا؟ لأن النبي ﷺ فعل هذه الأشياء، وهديه هو الأكمل في الولاء والبراء؛ لأنه هو إمام الأمة ورسولها - عليه الصلاة والسلام -.

فننظر إلى أنه ﷺ أعطى عهودًا ومواثيق وأمره الله ﷻ أن يقيم هذه المواثيق، فمثلًا في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] لاحظ هنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ هذا فيه نفي عام، لماذا؟ لأنه لم يهاجر، طُلب منه الهجرة، هذا قبل شمول الدولة الإسلامية للحاضرة والبادية، هذه نزلت في الأعراب الذين طُلب منهم الهجرة،

ورضوا أن يكونوا خارج عاصمة الدولة؛ لأنهم في أماكنهم لم يكونوا تحت سيطرة الدولة، وكانت الحرب سجالًا بين المسلمين والمشركين، قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] فجعل الله ﷻ الميثاق هنا مقدمًا على نصرة المسلم الذي لم يهاجر؛ لأنه لم يدخل تحت ولاية الدولة الإسلامية في هذا الأمر.

هنا مسألة ثانية، إذا كان هذا في حق من لم يهاجر فكيف في حق من عادى الدولة الإسلامية، من نقض لها عهدها، من أراد إضعافها، وكيف يُطلب نصرته أصلًا، وكيف ينصر وهناك مواثيق وعهود

فإذًا الآية واضحة وبينة في هذا المقام، النبي ﷺ في قصة الحديبية، هو إمام الولاء والبراء، وجهاده ﷺ جهاد لتحقيق الولاء والبراء لكن بالمفهوم الشرعي المتكامل، في قصة الحديبية أراد أن يعتمر ﷺ فرده المشركون، وقالوا: لا تعتمر هذه السنة، يكون بيننا وبينك هدنة وعهد.

وافق النبي ﷺ، وكان من العهد والهدنة فيه شرط ظاهره فيه ظلم على المسلمين، وقالوا له: نطلب منك العهد على أنه من أتاك منا. يعني من مكة. فإنك ترجعه إلينا، ومن أتانا منك - إلى مكة - فإننا لا نرجعه إليك. فأعطاه النبي ﷺ العهد والميثاق على هذا، هذا ظاهره فيه أشياء، صعبة، أخذوا أكثر مما أعطوا، كيف يعطونه أن من جاء النبي ﷺ مسلمًا فإنه يرده، ومن جاءهم لا يردونه، وهذا فيه صعوبة.

وهذا عمر رضي الله عنه استصعب المسألة جدًا، وقال: «**أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَهُمْ**

عَلَى بَاطِلٍ، أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى. قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا»[1].

فَهِمَ أن هذا الشرط فيه دنية، فيه تنازل، لكن هذا التنازل هل هو مخالف للولاء والبراء؟ لا، هل هو شرط في مصلحة الدولة الإسلامية؟

نعم، شرط في مصلحة الدولة الإسلامية، لهذا الله ﷻ سمى صلح الحديبية بعد إجراء هذا العهد والميثاق سماه فتحًا، لماذا؟ لأنه تحققت به مصلحة أكبر لهذا الأمة.

فإذًا: مقام النبي ﷺ في هذه الحال، رأى المصلحة الكبيرة للأمة، ولم ير المصلحة الجزئية لفرد أو أفراد من الأمة، رأى المصلحة الأكبر، وهذا هو الذي يجب على ولي الأمر والإمام والحاكم والدولة، أن ترعى المصالح العظمى ولو فوتت بعض المصالح الأقل؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل أعلى المصلحتين مع تفويت أدناهما، وارتكاب أدنى المفسدتين لتفويت أعلاهما، هذه قاعدة الشريعة.

إذًا نقول: حال الولاء والبراء حال مكتملة فيها هذا كله، فيها محبة الإيمان وكراهة الكفر والشرك، هي موالاة الله ﷻ ورسوله ﷺ وكتابه والمؤمنين، والبراءة من الشرك وأهله بجميع أنواعهم، الولاء والبراء لا يعني عدم التعامل بتجارة، لا يعني عدم الاستئجار، لا يعني عدم التعامل فيما فيه مصالح بين المسلمين، وغير المسلمين، لا يعني عدم العدل، هذا أيضًا مسألة مهمة، والله ﷻ قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ

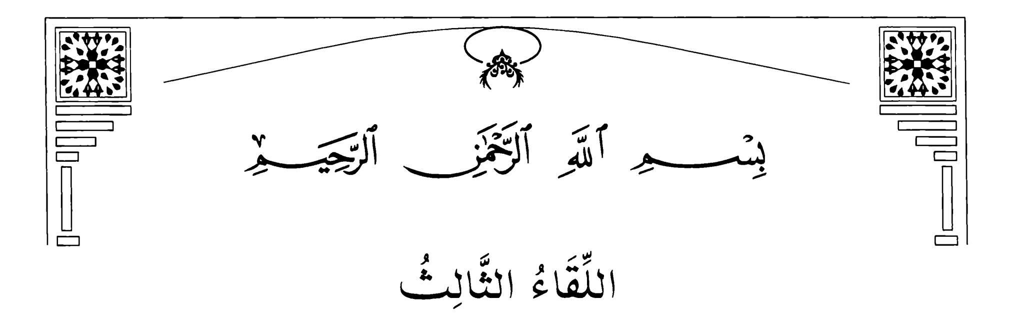
---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥).

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].
فالعدل مأمور به في كل حال، والأمة المسلمة هي أمة العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

تعليق: معالي الشيخ، يبدو أنَّا الآن ما زلنا في أربعة محاور من هذه المحاورة الكبرى، ووقت البرنامج الآن شارف على النهاية، فما رأيكم ربما نحتاج إلى حلقة أخرى لتغطية المحاور الأخرى، وباسمكم أيها الإخوة المشاهدون والمشاهدات نشكر معالي الشيخ **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ** وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على تفضله بالمشاركة بتلبية دعوة القناة الأولى في التليفزيون في هذه الحلقة التي طوفنا فيها في الحديث بتركيز، وبتأمل حول بعض القضايا المهمة الكبيرة التي تموج بها الساحة، نستودع معاليكم الله، ونستودعكم أيها الإخوة المشاهدون الله ﷻ على أن نلقاكم - إن شاء الله - في حلقة أخرى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





اللِّقَاءُ الثَّالِثُ

المقدم: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فأيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الحلقة الثالثة التي نستضيف فيها معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ** وباسمكم نرحب بمعاليه، ونود أن نستكمل معه المحاور التي بدأناها وتحدثنا عن نصفها في الحلقتين الماضيتين، أهلا بكم معالي الشيخ، ونبدأ بسؤال حول الوهابية التي كثر عنها الحديث في هذه الفترة، وهذه الآونة، وهناك من يحاول أن يجعلها مذهبا مستقلاً، ويصم بها المملكة، وهناك من يحاول أن يجعلها لباسًا ضيقًا مفصلاً على المملكة، ويحاول أن يخرج منها المسلمين، مع أنها في الواقع في حقيقتها هي دعوة الإسلام السلفية، وليست لباسًا خاصًا بالمملكة العربية السعودية، فنود من معاليكم بسط الحديث في هذا الموضوع.

معالي الشيخ: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداه، وبعد: فإني أكرر شكري لكم على هذا

اللقاء الذي أرجو أن يكون نافعًا على قائله وسامعه.

لا شك أن مصطلح الوهابية حديث؛ لأنه نشأ بعد الدعوة، ومعلوم أن دعوة الإسلام دعوة عظيمة كان لها من الأثر في شرق العالم وفي غربه، ما جعل الأعداء يضيقون بدعوة الإسلام من الأصل مما جعل الأعداء يضيقون بها صدرًا؛ لذلك في عهد النبي ﷺ لما قام بالدعوة، رمي بأنه أتى بشيء جديد لا يمت بصلة لا إلى دين إبراهيم عليه السلام، ولا إلى ديانة موسى عليه السلام، ولا إلى دين عيسى عليه السلام، بل نسبوه إلى الصابئة، وكان كل أحد يسلم يقولون صابىء فلان، وينسبونه إلى الصابئة؛ لأنها كانت ديانة، أو نحلة يرفضونها جميعًا.

فإذًا: هنا من جهة استغلال أعداء الإسلام للمصطلحات التي يرمون بها أهل الإسلام الصحيح، هذا قديم ولا غرابة أن تسمى الدعوة الإصلاحية التي قام بها المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالوهابية -رحمه الله تعالى- وأن ترمى بأنواع من الرمي لأنها:

أولاً: دعوة جادة.

ثانيًا: لأنها معتمدة على أصول الكتاب، والسنة، وهدي السلف الصالح، ليس فيها بدع، ولا محدثات، وهي دعوة جادة ترشد المسلمين إلى ما ينفعهم، وتعيد المسلمين إلى ما كانوا عليه قبل تفرق هذه الأمة، لأن الإمام المصلح علم أن أساس تفرق هذه الأمة كان من البعد عن مفاهيم الكتاب والسنة، وعن أصول الكتاب، والسنة، وهدي السلف الصالح، فكان من أعظم ما يكون عبودية لله ﷻ، هو أن نعود إلى الكتاب، والسنة،

وهدي السلف الصالح، الذين هم الصحابة ﷺ، ومن على منوالهم.

إذًا: الإمام المصلح دعا إلى ما دعا إليه السلف الصالح، مجددًا لما اندرس من معالم الدين، مجددًا لصلة الناس بدينهم، مبينًا لبعض ما يخفى عليهم من أمور دينهم، فاستجاب له من استجاب، وما كان لهذه الدعوة أن تقوى وتنتصر، إلا بقوة وعون ومدد من الله جل جلاله وتقدست أسماؤه، ثم بعون وتأييد ونصرة من الإمام محمد بن سعود رحمه الله، فتكونت الدولة السعودية الأولى، الدعوة كانت تخاطب - أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - كان يخاطب الناس والعلماء بأن يغير ما عندهم من أمور مخالفة إلى الهدي النبوي الكريم، وما يخالف الكتاب والسنة، من مثل الاعتقاد في الموتى واللجوء إليهم، ومن مثل عدم تحكيم الكتاب والسنة، والحكم بسوالف الآباء والأجداد على حسب التسمية الماضية، أو الحكم بالقوانين وأشباه ذلك، وكان منهم من يقبل، ومنهم من لا يقبل، فحصل بذلك ما حصل.

طبعًا المستعمر يعرف مواطن القوة، ومواطن الضعف في هذه الأمة، فعرف أن هذه الدعوة دعوة فيها قوة لهذه الأمة؛ لأنها ترجعهم إلى الأصل، ولأن فيها أيضًا تحرير العقل والفكر من الخزعبلات والأوهام، والأفكار، التي كان يروج لها أصحاب الطرق، والمذاهب المختلفة، فقعدت بالمسلمين على النهوض بأمتهم، فلهذا ألصقوا بهذه الدعوة هذه التسمية، وكان لعدد من العلماء الذين يضادون هذه الدعوة في ذلك الزمان الذين لم يعرفوا حقيقتها، وكنهها، أيضًا روجوا لهذا المصطلح لا سيما في أوقات

الحج، فانتشر بين المسلمين.

ولهذا نقول: إن الوهابية لا وجود لها من جهة ما ذكروه، الدعوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوة سلفية، إذا تأملنا ودرسنا التاريخ نجد أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أتباعه وتلامذته، ومن تأثر به سواء من تأثر به داخل الجزيرة العربية، فقد تأثر به علماء من مكة، والمدينة، واليمن، وعمان سابقًا، والآن تسمى الإمارات، وتأثر به كثير في العالم الإسلامي، لم يكن أحد منهم ينسب نفسه إلى الوهابية، وإنما إذا سئل قال أنا سلفي المعتقد، اتبع السلف الصالح، وطبعًا كلمة سلفية هذه كلمة مقبولة؛ لأن الرجوع إلى السلف بإجماع الأمة رجوع محمود؛ لأن فهم السلف في أمور الدين كان مصيبًا، وأعلم، وأحكم.

إذاً: من حيث المصطلح إذا قيل للناس أن هناك مذهب جديد ظهر واسمه كذا، إذا قيل مذهب جديد معناه الرفض تلقائيًا بدون أن يذهب الناس ويبحثون، إذا قال علماء الزمان وفي ذلك الوقت أن هناك مذهب جديد جاء به شخص اسمه محمد بن عبد الوهاب، وهو الوهابية، حتى إن بعض من صنف في الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كذب عليه في أمور كثيرة، فمثلاً من الأكاذيب التي قيلت: أن محمد بن عبد الوهاب يتزوج من النساء ما شاء، ويأمر من اتبعه بحلق رؤوسهم، وفي بعض الكتب يقول: (والأشبه بحاله أنه كان يدعي النبوة). فكانت هناك هجمة للتشويه على الدعوة قديمة، وتجددت الآن، فالدولة السعودية الأولى، والثانية، والثالثة الحديثة التي أقامها وأساس بنيانها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - رحمه الله ورفع درجته- قامت لا على أساس مذهب، علماء الدعوة

لا ينسبون أنفسهم إلى مذهب، لا تسأل واحد منهم فيقول أنا وهابي، لا يوجد هذا ألبتة.

الدولة السعودية ما قالت أنها دولة وهابية في يوم من الأيام، فإذا هي وصمة رميت به، ومصطلح أريد به أن ينفروا من هذه الدعوة لكن الدعوة التي جاء بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأكدت أعظم تأكيد في الدولة السعودية الأولى والثانية والثالثة، هذه الدعوة الإصلاحية خلاصتها سهلة يسيرة قريبة من الفطرة، وهي أن يرجع الناس إلى الكتاب والسنة وإلى فهم السلف للكتاب والسنة؛ لأن الكتاب والسنة كثير من الطوائف والأكثر بل كل الأمة تقول نرجع إلى الكتاب والسنة لكن الكتاب والسنة على فهم من؟

إذا قلنا على فهم السلف الصالح تميزت الدعوة السلفية، فإذا صار الكتاب والسنة مأخوذًا بها على فهم من جاء بعد ستمائة سنة، ثمانمائة سنة، صار هناك اختلاف، لكن إذا قلنا على فهم السلف الصالح ننظر إلى فهم الصحابة، فهم التابعين، فهم أئمة الإسلام الأربعة، فهم أبي حنيفة، فهم الإمام مالك، فهم الشافعي، فهم الإمام أحمد، فهم هؤلاء الأئمة الأعلام - رحمهم الله تعالى جميعًا ورفع درجتهم -.

فهنا نقول: إذًا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوة سلفية تتبع هؤلاء الأئمة، ولهذا قال الشيخ محمد - في معرض كلام له - يقول: أنا أتحدى من يأتيني بأني خالفت الأئمة الأربعة في مسألة لا في الاعتقاد ولا أيضًا في الفقه، فإذًا هو متبع، مجدد ما اندرس من الدين.

الملك عبد العزيز رحمه الله في وقته رأى انفتاح الناس، يعني بداية الانفتاح

وسهولة الوصول إلى مكة والمدينة فأراد أن يبين أن هذه الدولة إنما قامت على منهج السلف على اعتماد الكتاب والسنة ولم تقم على مذهب معين، وهذا هو الذي نقول به جميعًا.

لهذا تجد في مكة أن القضاة الموجودين في وقت الملك عبد العزيز وإلى زمننا هذا منهم من يميل للمذهب الحنفي، ومنهم من يأخذ بالمذهب الشافعي، ومنهم من يأخذ بالمذهب المالكي، ومنهم من يأخذ بالحنبلي، أيضًا كان الأئمة في المسجد الحرام يوجد هذا ثم وحدوا على ذلك.

في الفقه الآن يُدرس عندنا في جامعات المملكة الإسلامية، الفقه الذي يُدرس، يُدرس الفقه المقارن على المذاهب ويُنظر ما رجحه الدليل في ذلك.

فإذًا هنا قضية المصطلح قضية ليست بصحيحة ورُميت بها الدعوة والدعوة لم تأتِ بشيء جديد، دعوة سلفية تأتم بالكتاب والسنة تجديدية كما كان قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العلماء والأمة من جدد ما درس من معالم الدين وبين للناس الدين الحق، وكذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ بين للناس ما اندرس من الحق.

هنا مسألة في هذا: أن في الوقت الحاضر نجد أن الانفتاح الذي حصل على العالم ظهر فيه سلوك المملكة العربية السعودية من جهة سياسية، وسلوك أيضًا علماء المملكة العربية السعودية وسلوك دعاة وطلبة العلم في المملكة أنهم مع المسلمين في كل مكان.

تعليق: حتى الطلاب الذين درسوا في جامعات المملكة وما أكثرهم !.

الشيخ: وأيضًا الذين جاؤوا، هذه الوفود وما رأوا وقابلوا ومكثوا إلى آخره، فهنا نقول: أن لو كان هناك صحة لوجود مذهب خامس وأن الدولة تتبناه أو أن العلماء يتبنونه لظهر، لظهر بالتعامل في هذه المدة الطويلة. نحن منفتحون على العالم والدعوة السلفية التي كانت هي عقيدة الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام إلى وقتنا الحاضر هذه الدعوة هي التي تناسب كل زمان ومكان، لماذا؟ لأنها دعوة ترجع إلى النصوص، هذه النصوص الرجوع إليها يعني أنك تستوعب الزمن الذي قدر الله ﷻ أن تكون فيه هذه النصوص، الإسلام نزل الكتاب والسنة هل إلى مائة سنة مئتي سنة؟ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لكن الفقهاء واجتهادات العلماء هذه ما عندهم علم الغيب اجتهادات صالحة لأزمنتهم صالحة لأمكنتهم.

لهذا نقول هنا: الدعوة السلفية هي دعوة بالرجوع للكتاب والسنة، وهي التي تبنتها الدولة السعودية وناصرها في هذا العصر الأخير الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى وقت خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الدعوة بالرجوع إلى الكتاب والسنة تستوعب الأحداث.

ولهذا المملكة العربية السعودية صارت مثالًا في سياستها، ومثالًا في علاقات علمائها، جاءت الأحداث المتغيرة، ووجد أن ساسة المملكة وقيادة المملكة كانوا مستمسكين بثوابت الإسلام، وقواعده العظام، ومرجعية الكتاب والسنة، والإجماع، وأقوال أئمة الإسلام، وكانوا أيضًا معطين لاجتهادات العصر حقها؛ لأن الإسلام ليس لبلد معين ولا لزمن لمعين، فإذا نحن انغلقنا على أنفسنا وما جعلنا الدعوة شاملة لما يحتاجه

الناس ولا جعلنا أيضًا الأعمال تنظيمية شاملة لما يحتاجه الناس، الناس إذًا لن يسيئوا الظن إلا بالإسلام أو بالدين أو بهذه الدعوة.

لهذا نقول: إن الدعوة السلفية في الحقيقة هي صالحة لكل المتغيرات، صالحة لكل الأوضاع؛ لأنها معتمدة على الكتاب والسنة، ما عندنا انتماء إلى مدرسة معينة، ليس عندنا انتماء إلى مذهب معين في كل شيء، إنما العلماء هم واسطة في فهم نصوص الكتاب والسنة؛ لهذا صارت الدعوة السلفية دعوة متسمة

أولًا: بأصولها الواضحة الكتاب والسنة وهدي السلف والأئمة.

ثانيًا: أنها دعوة منفتحة غير منغلقة.

ثالثًا: دعوة ترعى ما رعاه الإسلام، وهو أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح ودرء المفاسد، وهذه المصالح تتنوع بتنوع الزمان وتتنوع بتنوع المكان، ودرء المفاسد أيضًا يتنوع بتنوع المكان. ليس عندنا وقوف عند حرفية النصوص، لسنا ظاهرية بأننا نبطل العلل في الشريعة أو تعليل الأحكام أو تعليل ما جاء في الكتاب والسنة، نعلم أن النصوص مرتبطة بعلل وكلام العلماء أيضًا مرتبط بعلل، لابد من الحفاظ على مقاصد الشريعة.

فإذًا الدعوة السلفية لها سمات، هنا نقول: أن الطاعن في الدعوة بتسميتها الوهابية هو تجديد للحد من انتشارها؛ لأنها تشتمل على ما ذكرنا وتشتمل أيضًا على الوسطية التي تجمع الناس، الوسطية التي يمكن أن يلتقي عليها المسلمون في منهج واضح، لهذا ترى من المسلمين في أي مكان كانوا إذا جاؤوا للمملكة العربية السعودية وجدوا فيها بغيتهم من الجهة السياسية

وأيضًا من الجهة العلمية، وقادة المملكة العربية السعودية - وفقهم الله لكل خير - لهم مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، وكذلك علماء المملكة العربية السعودية لهم مكانة لأن عندهم هذا المنهج الوسط الصالح الواسع الذي يستوعب حاجات الناس.

تعليق: لأن الدولة قامت على الدعوة، والدعوة منهجها معتدل متزن، وهنا صار منهج الدولة كذلك لأنها قامت عليها.

الشيخ: وأيضًا تجد الدعوة الإصلاحية دعوة اندمج فيها العلماء بالقادة ما عندهم انفصال، تلحظ مكانة العلماء عند ولاة الأمر والقيادة، وهذا شيء ليس مجاملة لكن هو قناعة شرعية قامت عليه هذه البلاد؛ لأن العلماء هم الأساس فيما يختصون به من أمور الدين، والقادة هم الأساس فيما يختصون به من أمور حفظ مصالح الأمة والناس، لذلك عندنا تواصل قوي ومتين منذ الدولة السعودية الأولى، منذ العهد بين الإمامين إلى وقتنا الحاضر في معرفة ما هي المصالح للإسلام والمسلمين.

فتجد أن الولاة - وفقهم الله - والعلماء - وفقهم الله - يسعون للمصالح العامة لا لخصوص أهل المملكة العربية السعودية بل لعامة المسلمين.

تعليق: ولذلك الآن الذي يؤكد أن هذا اللقب إنما هو النبذ به بقصد الإساءة، الآن الناس يجمعون على أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لو أن أحدًا في حينه نبذ توجهه وقال له بأنه التيمي ونُسب إليه شيء من ذلك لصار هناك شيء من الانصراف، وبما يُشعر بأنه جاء بمذهب جديد، لكن لأنه لم يحصل شيء من ذلك وإنما فهم الناس على أن ما جاء به على أنه امتداد

لمنهج السلف حظي منهجه بالقبول.

الشيخ: هذا صحيح يا دكتور محمد، وإنا ما نريد أن نخوض ونطيل في موضوع المصطلح، والمصطلح له دلالات كثيرة، لكن ننبه على نقطتين:

أولًا: هم قالوا (وَهَّابي) وكان من المناسب في النسبة أن يقولوا محمدي؛ لأنه محمد بن عبد الوهاب، فهم نسبوه وهابي إلى من عُبد له والد الشيخ، وهو الله ﷻ ولهذا قال الشاعر:

إن كان تابع أحمد متوهبًا   فأنا المقر بأنني وهابي

إن كان تابع أحمدَ متوهبًا (أحمد هو النبي ﷺ) لأنه إذا كان الصحابة تسميهم أنت وهابية فأنا ما دام مع الصحابة فأنا مقر بذلك، هذه نقطة في المصطلح.

والثاني: بعض الباحثين نظر في أن هناك فرقة من الخوارج كان لهم تصرفات كثيرة في المغرب، في جهة الجزائر، والمغرب من عدة قرون، من خمس أو ست قرون، وتسمى أيضًا الوهابية، وكان الناس يرفضونها لما فيها من قتل وسفك.. إلى آخره، فنشر المصطلح أولًا في المغرب لينفر الناس من هذه الدعوة يظنون أنها امتداد لهذا، ثم انتشر المصطلح ومشى.

تعليق: هذه معالي الشيخ أيضًا من ضمن حملات الإساءة لمنهج المملكة، ولما يُقال عنه الدعوة الوهابية أن بعض الناس يحاول أن يربط بها بعض الحركات الإسلامية التي تنحو منحى الغلو وتنحو منحى التكفير، لاشك أن الغلو موجود من وقت الصحابة منذ ظهر الخوارج، وهو موجود على امتداد التاريخ ولا نعدم من شيء من هنا أو هناك في عصرنا الحاضر

فظهرت بعض الحركات الغالية المتشددة، وفي أيضًا من باب الإساءة لهذه الدعوة قيل بأنها مرتبطة بهذه الحركات، ما رأيكم معالي الشيخ؟

الشيخ: هذا يجب أن نرجع فيه إلى التاريخ، التاريخ يقول: لنا إذا ظهرت حركات في داخل المسلمين أساءت للإسلام، ومن أمثلة ذلك الخوارج الغلاة الذين قتلوا عثمان ﵁ وقتلوا عليًا ﵁، الذي قتل عليًا ﵁ هو: عبد الرحمن بن مُلجَم (بفتح الجيم) عبد الرحمن بن مُلجم قتله، قتل خير الناس وأفضل الناس في زمانه، وهو علي بن أبي طالب ﵁، قتله ليتقرب بقتله إلى الله ﷿ حتى أثنى عليه بعض الخوارج والعياذ بالله، أثنى على من قتل عليًا ﵁ بقوله:

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا
إِنّي لَأَذكُرُهُ حينًا فَأَحسبُهُ ... أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللَهِ ميزانا[1]

(إني لأذكره) يعني يذكر من قتل عليًا ﵁، انقلبت المفاهيم في أناس حتى صار قاتل عليٍّ عند هذا عمران بن حطان الشاعر أنه من أوفى الناس عند الله ﷿.

إذًا هناك خلل كبير، هل يجوز لنا أو يجوز لباحث أو لمؤرخ أو لناشد للحقيقة أن يقول: الخوارج يمثلون الإسلام، ليس كذلك مع أنهم ينتسبون للإسلام، وينتمون إليه ويصلون ويزكون إلى آخره.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٤).

هنا نأتي إلى الدعوة، كذلك الدعوة الإصلاحية؛ لأنها دعوة قوية متسمة بشمولية الناس، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، رجع الأمر مثل ما كان في أول الإسلام، في أنه دخل فيها أو تأثر بها أخذ منها أشياء من اتسموا بفكر منحرف أو بعقيدة منحرفة، فليس كل من نسب نفسه إلى شيء أنه يقر له بهذه النسبة، مثل الخوارج ينسبون أنفسهم إلى الإسلام الصحيح، وإلى الحق والعدل، لكن هم أبعد الناس عن الإسلام الصحيح وعن الحق وعن العدل ... إلى آخره.

وكذلك هناك جماعات إسلامية، وهناك أناس في شرق الأرض وفي غربها ينتسبون إلى الدعوة السلفية، أو الدعوة الإصلاحية، أو يقولون: نحن وهابية، أو يقال عنهم: وهابية.

تعليق: هل يوجد من يقول هذا يا شيخ؟

الشيخ: يوجد من ينسب إلى هذا.

تعليق: بمعنى: أظن أنهم ينسبون إليه نسبة، ولكن ما منهم أحد يقول أنه وهابي.

الشيخ: لا، يقولون يوجد من يقول بذلك، مثلا يقول: أنتم - يعني يقول عنا - أنتم قصرتم في الدعوة، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أنتم ما فهمتم الدعوة، هذه نصوص علماء الدعوة تدل على كذا وكذا وكذا، لهذا تجد منهم من ينقل في كتبه وفي رسائله بعض كلام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، بعض كلام أبناء الشيخ تلامذة الشيخ الدعوة، أو بعض علماء الدعوة السلفية، أو ابن تيمية ونحو ذلك.

لكن ليس الشأن في أن ينقل الناقل في كتاب له أو في مؤلف أو يعتمد على قول لأحد هؤلاء العلماء، الشأن هل أنت أخذت بمنهجهم متكاملًا أو أخذت بعضه وتركت بعضه، مثل الخوارج أخذوا بعض الإسلام وتركوا بعضه.

وكذلك هؤلاء نقول: أخذوا بعض الدعوة وتركوا بعضها، لذلك نحن لسنا مسؤولين عمن انتسب لهذه الدعوة وأتى بأشياء من عنده لا نقره عليها، ومن قال: أنتم مسؤولون عن أي مكان في العالم عن كل من استفاد من هذه الدعوة؛ لأنكم أنتم الذين تصدرون عليه، وأنتم الذين صدرتم الدعوة، نقول: ليس صحيحًا، لأننا نقر بالمسؤولية عمن اتبع منهج هذه الدعوة بكماله، لكن من أخذ بعضه، وخلطه بأشياء أخرى من عند نفسه كيف أكون أنا مسؤول عنه؟ أو كيف تكون الدعوة مسؤولةً عنه؟.

تعليق: قد يكون هو أخذ يا شيخ للنقد، ولا يرضى أن يقال له وهابي، لينقد فقط.

الشيخ: لا يا أخ محمد، هناك بعضهم ينقل تجد له بحثًا ينقل فيه عن ابن تيمية، ينقل فيه عن علماء الدعوة، عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لكن هنا نقل بعضًا، ولم يطلع على أشياء، فاته أشياء كثيرة، لماذا؟ لأنه ما درس على علماء الدعوة، تجد قرأ كتبًا ومثل ما قال الأول في مثله:

لا تأخذ القرآن عن مصحفي ولا العلم عن صحفي، ما معنى ذلك؟ قال لاتأخذ القرآن عمن قرأ في القرآن ما أخذ عن شيخ؛ لأن القرآن يُتلقى بالسمع، ولا العلم عن صحفي يعني عن من قرأ في الصحف يعني بالنسبة

إلى المفرد، عمن قرأ في الصحف، والعوام يقولون: من كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه، وهذا صحيح؛ لأنه لا بد من تلقي العلم من مصادره.

لهذا قال الشاطبي - في مقدمة كتابه الموافقات - قال: **(كان العلم في صدور الرجال فصار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال)**(١).

هذه كلمة مهمة، كان العلم في صدور الرجال، ما في شك، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، الصحابة رضي الله عنهم نقلوا العلم للتابعين، كان حفظًا.

قال: **(كان العلم في صدور الرجال فصار في بطون الكتب ولكن بقيت مفاتيحه بأيدي الرجال)**.

إذًا: في فهم الدين لا بد أن ترجع للعلماء، في فهم الدين فهم هذه الدعوة ترجع إلى علماء الدعوة، كيف تفهمها بدون علمائها؟ هذا لا شك يُحدث خللًا كبيرًا.

لذلك نقول: إن هؤلاء الذين ينتسبون للدعوة ممن يعتدون مثلًا على الناس، يعتدون على حق الآخرين أو يقتلون أو يظلمون، نقول الدعوة لا تُقر لهم بذلك، يمارسون بعض الأعمال الإرهابية التي فيها قتل وفيها كذا وينتسبون، نقول الدعوة لا تقر لهم بذلك؛ لأن هذه الدعوة بريئة من هذه الأمور، هي دعوة وسطية، بل نقول الإسلام بريء من ذلك، لو يقول مسلم

---

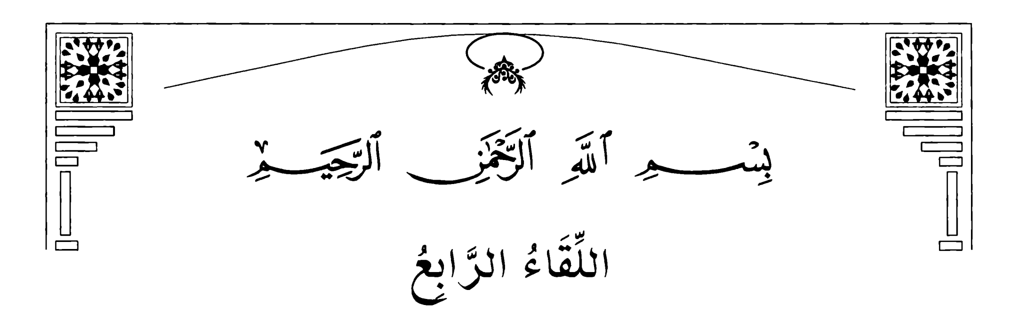
(١) انظر: الموافقات (١/ ١٤٠).

نقول الإسلام بريء من ذلك، يقول أنا أتبع نصوص كلام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وكذا، نقول الشيخ محمد وكلامه وأئمة الإسلام لا يقرون بذلك. ومثل ما قال الشاعر:

وكلٌّ يدعي وصلًا بليلى ... وهي لا تقر لهم بذلك

تعليق: شكرًا جزيلًا لكم معالي الشيخ، ويبدو أننا فعلًا كما توقعنا لابد لنا من حلقة رابعة نكمل فيها هذه المحاور، ولعلنا إن شاء الله الحلقة الرابعة تكون الأخيرة، ونعد بها إن شاء الله الإخوة المشاهدين والمشاهدات، وباسمكم أيها الإخوة المشاهدون والمشاهدات نشكر معالي الشيخ صالح ابن عبد العزيز آل الشيخ على إتاحته هذه الفرصة وتفضله بالإجابة على أسئلتنا، ونشكركم أنتم أيضًا على متابعتكم واهتمامكم ونعدكم - إن شاء الله - بلقاء آخر في الحلقة الرابعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





اللِّقَاءُ الرَّابِعُ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إلى هذه الحلقة الرابعة والتي ستكون الأخيرة بحول الله في لقائنا الموسع مع معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ**، وزير شؤون الأوقاف والدعوة والإرشاد، وباسمكم نرحب بمعالي الشيخ.

معالي الشيخ، انطلاقًا من السؤال السابق وامتدادًا له نود لو تحدثنا في مسألة التكفير أيضًا، هناك - كما قلت - من يدعي ارتباطه بهذه الدعوة ويقول: أنا منطلق منها أو أنا متأثر بها أو أنا متأثر بالسلفيين، ويتساهلون في التكفير وفي تكفيرهم للمسلمين. بعضهم أيضًا يصل به الأمر إلى أن يكفر العلماء، يعني ما رأيكم في مثل هذه الموجة، وماذا يقال لمثل هؤلاء؟

الشيخ: جاء في الأثر من كفر مسلمًا فهو كقتله. والتكفير: معناه الحكم بالكفر على مسلم، ولاشك أن المسلم قد يخرج من الدين بأسباب، وهذا كما جاء في القرآن ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال في الآيات الأخرى: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ولهذا العلماء في الفقه جعلوا بابًا خاصًا: باب حكم المرتد.

لكن مسألة التكفير هذه أصعب المسائل من جهة الفهم، ومن جهة أيضًا التطبيق، فأما من جهة الفهم فإن فهم هذه المسائل مسائل الحكم على أحد هذا راجع - قبل أن نذكر مرجعيته - من جهة الفهم راجع لفهم نصوص الإسلام، فهم العقيدة بكمالها، فهم الأحكام الشرعية، العقيدة هل الإسلام أو الإيمان شيء واحد؟ ليس هذا معتقدنا، هذا معتقد الخوارج ومعتقد أهل الضلال الذين يقولون: الإيمان والإسلام شيء واحد إذا ذهب بعضه ذهب كله لا يتجزأ، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن الإسلام يتجزأ والإيمان يتجزأ؛ فقد يأتي الإنسان بأعمال صالحة ويأتي بأعمال غير صالحة، فيجازى على صالحه بإحسان ويجازى على إساءته أو يغفر الله ﷻ له. والله ﷻ قال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢].

هنا في مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان ليس شيئًا واحدًا، قد يأتي الإنسان المسلم بأشياء حسنة طيبة من العبادات والأعمال وقد يأتي بمخالفات، متى يخرج من الدين؟ يخرج من الدين ويكفر بعد إسلامه إذا أتى بما يناقض الأصل الذي دخل به في الإسلام، هو دخل في الإسلام بالشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله معناه لا معبود بحق إلا الله، إذا قال: لا، هناك معبود بحق إلا الله ﷻ كفر، إذا استحل واستباح المحرمات، قال: والله الخمر مباح ليس حرامًا، الزنا ليس حرامًا. هنا كذب القرآن وكذب السنة.

تعليق: لكن حتى في هذه النقطة - معالي الشيخ - حين نقول مباح، أليس في القضية درجات، هل هو جاهل هل هو متعمد، هل هو. . ؟

الشيخ: نحن نتكلم الآن ليس بالحكم، يعني على الحكم على القائل، لكن من حيث القول، إذا قال: والله أنا أعتقد أن الخمر مباح، يقال له: أنت تعرف أن تحريم الخمر مجمع عليه وأن فيه نصوصًا وأنه كذا وكذا - إذا ما رجع - يعني هذا من جهة التطبيق له.

أيضًا من جهة الشهادة بأن محمدًا رسول الله، لو قال: ما هو، يعني ممكن يكون رسول بعده، يعني الرسول ﷺ رسول لكن متأكد أو غير متأكد، يعني يقولون لكن أنا غير متأكد. هذا هنا لا يُقبل الشك في أصل الدين.

كذلك مسألة الإيمان بالله والملائكة، لو قال: لا وجود للملائكة، هذا انتقض ركنًا من أركان الإيمان، قال: القدر أنا لا أؤمن بالقدر، هذا انتقض ركنًا، ولو قال: اليوم الآخر لا، هو الأعمال الصالحة بحسب الدنيا إذا عملت صالحًا في الدنيا جُزيت به في الدنيا صالحًا فهذا كفر.

وهكذا الإيمان بالقرآن، هل هناك كتاب بعد القرآن؟ يقول يمكن أن يكون، إذًا هنا رجع إلى أصل الإيمان فنقضه، هنا هذا من جهة التقعيد العام.

من جهة التطبيق الثنائية، ما معنى الثنائية؟ يعني ما بين القول وقائله، قد نقول القول هو كذا وكذا وكذا، لكن هل كل من قام به القول أو قام به العمل يطبق عليه الأحكام من أي أحد من الناس؟ لذلك العلماء قالوا: هناك فرق

ما بين القول وقائله، وما بين العمل وعامله؛ لأنه يحتاج إلى تفصيلات.

هنا من الذي يُطبق؟ من الذي يُطبق حكم المرتد؟ ويطبق قول الله ﷻ ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٩٠]؟ الذي يطبقه القضاة، ليس لي أنا وليس لك وليس لأحد أفراد المسلمين أن يطبق؛ لأن هذا حكم يترتب عليه أشياء كثيرة جدًا، هذا الذي يطبقه القاضي، هذا الشخص يُرفع أمره إلى القاضي، والقاضي يأتي به يبين له يوضح له ينظر هو عنده علم ما عنده علم، سليم العقل غير سليم العقل، هل في موانع، لماذا قال. وهنا يظهر في مراحل قبل الحكم، ما في شك هناك مراحل.

المشكلة التي حصلت اليوم أن التكفير صار من حق أفراد شباب كثيرين، يرون أنهم من حقهم أن يطبقوا هذا الحكم، ليس كذلك، الذي له الحق في ذلك هم العلماء الراسخون وأهل القضاء؛ لأنهم الذين يعرفون تفصيلات الأحكام.

إذا كان كذلك، فالدعوة دعوة الإسلام يجب أن تُرجع الاختصاص إلى أهله، وهذه المسائل أنا أنصح الشباب، بل أنصح الدعاة وطلبة العلم والخطباء والأئمة أن لا يتعرضوا لها عند العامة وعند الشباب؛ لأنهم إذا علموا الناس التساهل في التكفير، أو هذا كافر، أو هذا منافق، أو هذا فيه كذا، فإذًا هنا صار هناك خلل كبير في التصنيف وفي الحكم على الناس، هذا في الشرع قُصر هذا على العلماء وعلى القضاة هذا لأجل تضييق دائرته، الناس لهم أهواء، شخص ما جاز له فلان من الناس وسمع له

كلمة، قال: هذا فيه كذا وكذا أو هو منافق، وقد قال، وقد يزيد عليه.

إذًا نقول: التكفير هو الحكم بالكفر على مسلم، هو باب من أبواب الفقه يطبقه القضاة ويطبقه العلماء، ونحن نفهم لنتعلم المكفرات حتى الواحد يخشى، مثلما قال: **(كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)**[(١)].

نحن نتعلم وقد نُعلم أن هذا خطر، نواقض الإسلام هي كذا، حتى يحذر الشخص ويحذر، لكن إذا جاء لمسألة الحكم ليس له.

كذلك الحكم على الدول أو على ولاة الأمور، هذا والله حصل منه كذا إذًا هذا كفر، قال هذه الكلمة معناه كفر، ليس الأمر كذلك؛ لأن هذه مسألة مرتبطة بأحكام كثيرة يجب أن تُرعى وأن لا تُتجاوز.

تعليق: لكن يا شيخ، الشخص الذي يحكم بالكفر على شخص هل يعود عليه شيء من ذلك؟

الشيخ: ما في شك، مثل ما جاء في الحديث الصحيح: **(إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا)**[(٢)] يعني إن كان هذا لا يستحق هذه الكلمة فقد رجعت على قائلها، وإذا كان لعن المسلم كقتله فكيف ما هو أكبر كخروجه من الإسلام!

تعليق: معالي الشيخ، نعود إلى شيء وفيما يتعلق بعملكم الرسمي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦،٣٦٠٧،٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٣)، ومسلم (٦٠).

وبمهمات الوزارة، الوزارة من نعم الله عليها أنها ترعى مجموعة من الدعاة وطلاب العلم في داخل المملكة وخارجها، ولهم دور كبير في نشر الدعوة في أوساط المسلمين وفي أوساط الشباب خاصة، وما أحوج الناس في هذه الفترة إلى يقظة الدعاة وإلى نشاطهم وإلى تبصيرهم للمسلمين، لأن المسلمين في وقت الفتن في حاجة ماسة إلى تضافر الجهود، فما تقولون للدعاة وطلاب العلم في مثل هذه الظروف؟

الشيخ:

الوصية الأولى: أوصي نفسي وكل من يسمع كلامي من إخواني طلبة العلم والدعاة وخطباء المساجد أئمة المساجد أن نلزم تقوى الله ﷻ وأن نخاف ونخشى من اليوم الذي نقبل فيه على الله ﷻ ونعرض عليه ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. الله ﷻ لا يخفى عليه منا خافية هل نتكلم بما نعلم أنه حق يقيني أم نتكلم لأننا هاوون شيئًا؟

والوصية الثانية: أن نحذر من الهوى أن نحذر من أننا نسمع شيئًا ثم نقلبه حديثًا نتحدث به عند الناس، وهذا له ارتباط بأول الكلام في الحلقة السابقة من كيفية الانضباط في زمن الفتن أو في زمن اختلاط الأمور. أوصي الدعاة جميع الإخوان وأوصي نفسي أولًا بالحذر من الهوى، الحذر من أن يكون الإنسان لا يحاسب نفسه هل هو برأ ذمته من جهة الشرع أم لا؟ ويعرف من المخاطب بهذه المسألة أم لا؟

هناك مسائل فيها اختصاصات، هناك شيء أنا أُخاطب به لا يُخاطب به من بالمسجد، يُخاطب به عالم لا يُخاطب به خطيب، فإذًا لا بد من الرجوع

للاختصاصات، الأمة الإسلامية - نقول للجميع - أمة متكاملة، إذا كان الداعية أو كان الخطيب أو كان الداعية أو الإمام أو. . إلى آخره، يظن نفسه أنه عليه أن يفعل كل شيء للأمة فإنه حينئذٍ تتنازع الأمة في أدوارها ويتنازع أفراد الأمة في أدوارهم، يجب أن يعرف كل واحد منا موقعه، فالإمام يؤم الناس في الصلوات ويفعل ما يصلح الناس في دينهم فيما يدخل ضمن مسؤوليته.

والخطيب يعلم الناس الأمور اليقينية في الشريعة، اجتهادات الخطيب في نفسه التي خالفه فيها غيره من العلماء أو الدعاة، أو يخالفه فيها أيضًا ما عليه عامة الأمة، أو كذا هذه الاجتهادات ينبغي أن تكون لنفسه ما يقولها للناس؛ لأن الخطيب يأتي يتكلم والشرع أمر الناس بأن ينصتوا، فهو لا يجوز له أيضًا أن يستغل ما جعل الله ﷻ للناس من وجوب الإنصات وأن أحدًا لا يمكن أن يقوم في أثناء الخطبة ويرد عليه رعاية لحق الشرع في الإنصات وأمر النبي ﷺ بذلك، يستغل ذلك في أن يقول ما شاء من الاجتهادات، ليس، عظم المنبر الذي هو مكان النبي ﷺ، كالخطب وذلك.

إذًا وصيتي للخطباء والأئمة أن ينتبهوا إلى المتفق عليه، وألا يذهبوا إلى المختلف عليه، المتفق عليه فيه مجال كبير كبير لما يصلح الناس، إذا جاءت مسائل مختلف فيها اتركوها لأهل الاختصاص من العلماء، هذا في وقت السعة في وقت عدم الاختلاف، إذا حصلت الفتنة أو حصل اختلاف هذا من باب أولى لئلا تذكروا أمورًا اجتهادية؛ لأنه كما قلنا في الحلقة السابقة أنه في زمن الاختلاف والفتن يجب ألا يُسمح لأقوال كثيرة

ولا اجتهادات كثيرة رعاية لحماية الجماعة.

الوصية الثالثة: مما أوصي به أن يعتنوا بما ينفع الناس من نشر الدعوة ونشر الخير، وأن يحرصوا على ما ينفع ولا يضر؛ لأننا إذا تصرفنا تصرفات لا يقر عليها العلماء أو لا يقر عليها الشرع وهي اجتهادات خاصة، هذا سيعود إلى ضعف قناعة الناس بالعلماء بالخطباء بطلبة العلم بالأئمة، فلهذا ينبغي له أن يراعي بل يجب عليه أن يراعي ما يصلح الناس في أمرهم،

الوصية الرابعة: أوصي الجميع أن يكونوا على مستوى ما يُطلب منهم على مستوى الأمة، ألا يكونوا بعيدين عن واقع الأمة وعن ما تحتاج إليه بعقل وحكمة وروية، الخطيب والداعية مخالط للناس، مخالط لهم ليعطيهم ما ينفعهم لا يعطيهم ما يضرهم، لابد أن يكون واعيًا بواقع الأمة الإسلامية بل بالواقع العام في العالم وأن يكون مدركًا لما فيه المصلحة وما فيه درء المفسدة، الكلام لا يصلح الكلام، لا يغير ويقلب، الكلام هو مرده إلى الاختلافات إلا إذا كان له مستنده الشرعي الواضح الصحيح من أهل العلم الذين يسار إليهم في ذلك.

الوصية الخامسة: أوصي بأن يجتهد الجميع بنشر دعوة الإسلام في كل مكان من العالم بطريقة حكيمة سليمة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ليس بالحسنى (إلا بالتي هي أحسن) يعني أحسن طريقة تجدها استعملها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. كذلك: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥] الهدوء والرفق والبذل فيه

الخير. النبي ﷺ أوصى الصحابيين اللذين أرسلهما إلى اليمن بقوله: «**بَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»[(١)] بشرا ولا تنفرا: بشرا بأقوالكما وأعمالكما، ولا تنفرا: أيضًا بأقوالكما وأعمالكما، وتطاوعا ولا تختلفا: في الدعوة لا يصلح إلا التطاوع إلا الائتلاف إلا الاتفاق، يسعى بعضنا مع بعض في الناس، إذا كان كل أحد يخالف باجتهاداته صار عندنا ضرر كبير على الدعوة الإسلامية.

وبالمناسبة أنا قرأت تقارير كثيرة نُشرت في الصحف من دعاة للإسلام، ومن علماء، ومن كتاب تبين الخسارة الكبيرة التي خسرتها الدعوة الإسلامية في الغرب، وفي أمريكا، وربما في أماكن أخرى في العالم بل يتأكد هذا من جراء هذه العمليات التي حصلت في الماضي؛ لأن الناس صاروا ينظرون إلى أن هؤلاء المسلمين أنهم في دينهم قسوة وغلظة وأنه لا يصلح.. إلى آخره.

فيجب أن نتحرى الحق والعدل وأن نكون متصفين بالحكمة وبعد النظر.

تعليق: ننتقل من الدعاة إلى الشباب، الشباب عادة هم مادة كل دعوة، وهم - ولله الحمد - في شباب المسلمين، وفي هذه البلاد - ولله الحمد - فيهم خير كثير جدًا، ولكن نغمة وطابع الحماس الذي دائمًا هو من خصائص ومميزات هذه المرحلة العمرية في الشباب، ويحدث عنه أحيانًا بعض الاندفاع عدم التروي العجلة، أحيانًا يصل الأمر بسبب كلمة من الكلمات

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨، ٤٣٤١، ٤٣٤٢، ٤٣٤٣، ٤٣٤٥، ٦١٢٤، ٦٣٤٤، ٦٩٢٣، ٧١٥٦، ٧١٧٢)، ومسلم (١٧٣٣).

ما فُهمت إلا إساءة الظن ببعض طلاب العلم ببعض الدعاة، فماذا تقولون لمثل هؤلاء، حفظكم الله.

الشيخ:

أولًا: الشباب هم عماد الأمة - مثل ما يقال - وهم الخير؛ لأن فيهم الحاضر وفيهم المستقبل، والنبي ﷺ أوصى بالشباب خيرًا، والله ﷻ أيضًا في القرآن قال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: إن أكثر أصحاب الأنبياء كانوا شبابًا؛ لأن الشاب فيه تَخَلُّص من رؤية الدنيا، يريد الحق من حيث هو بطبيعته شاب يريد الحق، يريد أن هذا صحيح - خاصة إذا دخل مجال التدين - هذا حق أريده، هذا باطل يريد أن يذهب.

لهذا أنا أوصي الشباب - وأنا دائم الصلة بالشباب، وأحب الاتصال بهم، سواء عبر الدروس أو المحاضرات أو في الوزارة أو في أي موقع في رحلاتنا المختلفة - أنا أوصي الشباب بأن يطلبوا العلم الشرعي، وأن يحرصوا على تعلمه، وأن لا يعتمدوا على عامهم في صحة المسائل، هذا أولًا.

الثاني: أن يهتدوا بهدي صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا شبابًا؛ لأنهم كانوا على هدي النبي ﷺ في كل أحواله.

أحيانًا قد يؤخذ هدي النبي ﷺ في بعض الأمور، فيكون مصيبًا في ذلك ويُدعى له - يعني الشاب - لكن ندعوه لأن يأخذ بهديه في كل الأمور،

وهدي النبي ﷺ في بيته، هدي النبي ﷺ في مسجده، هديه مع الموافق، هديه مع المخالف.

أتى إلى النبي ﷺ رجل فجذبه من وراءه، يعني شد النبي ﷺ من وراءه، يشد حتى أثر في عنق النبي ﷺ وما قال له النبي ﷺ شيئًا، هل يمكن للشاب أن يكون صبورًا بمثل هذه الحالة؟ يعني هذه تحتاج إذًا إلى فقه في السنة وإلى فقه في العمل.

أنا أوصي الشباب بالاطلاع على السيرة والسنة، والاهتداء بهدي النبي ﷺ في كل الأحوال، كان ﷺ قويًا في الحق وكان شديدًا على الباطل، ولكن كان رحيمًا، كان يعطي الأمور ما أعطاها، كان إذا أراد أن يؤنب أشخاصًا على المنبر، يعني في غير الجمعة، إذا صعد أو كذا يريد أن ينصح الناس يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا «**مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا**»[1] دون أن يصرح لما فيه إضاءة المسألة لكن وصل إلى الحق، اللين في الجانب كذلك.

أيضًا ينظرون إلى فعل الصحابة رضي الله عنهم مع قيادتهم، فعل صغار الصحابة، صغار التابعين، صغار تابعي التابعين، مع العلماء، علمائهم، مع أمرائهم، كيف كانوا ينظرون لهم؟ هل كانوا ينظرون لهم نظرة شك وسوء ظن أم كانت نظرة ثقة؟ الذين نظروا نظرة شك وسوء ظن بعلماء الصحابة وبالخلفاء وبالولاة ذهبوا مع الخوارج؛ لأنهم كانوا يشكون في أمور الجميع، يعني عندهم أن عثمان رضي الله عنه لم يقم بحق الله وعليًا رضي الله عنه داهن في دين الله عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري(٢٥٦٠، ٢٧١٧، ٢٥٦١، ٢١٥٥)، ومسلم(١٥٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومعاوية رضي الله عنه كان كذا وكذا.

إذًا المسألة لا تقوم إلا بوجود قوة في الثقة، وعندنا - كما يقال - أزمة في الثقة ويجب على الشاب أن يكون عنده ثقة بقياداته بأنواعها.

تعليق: سؤال أخير معالي الشيخ أدركنا الوقت، المملكة العربية السعودية معروفة - ولله الحمد - بمواقفها الدائمة لإخواننا المسلمين في كل مكان، ومرت علينا سنوات نُظم خلالها مجموعة من الحملات دُعيَّ فيها بالتبرع لإخواننا المسلمين في عدة أمكنة، هذه الأيام قامت حملة موفقة لدعم إخواننا المسلمين في أفغانستان وأثمرت، وقامت أيضًا بعض المساجد والجمعيات بدور في هذا الأمر والوزارة تشرف على بعض الجمعيات الخيرية المعنية بمثل هذه الأمور، يعني ما دور هذه الجمعيات؟ وما الشيء الذي أسهمت به وممكن أن تسهم به وممكن أن نوجه الناس إليه في هذا المجال؟

الشيخ: معلوم أن المملكة العربية السعودية - حفظها الله - هي القائمة بأعباء المسلمين؛ لأنها تخدم الحرمين الشريفين، والحرمان الشريفان في نفس كل مسلم، ولذلك فإنها تسارع لإغاثة الملهوف من المسلمين في كل مكان، لماذا؟

أولًا: من منطلق النصوص الشرعية هذا من منطلق واجب المملكة الإسلامي، النصوص الشرعية فيها الحث على البر والحث على الصدقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [البلد: ١١ - ١٤]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨]. والنبي صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة وأمر بها، وكان

هديه ﷺ أنه ينادي ليجمع الناس على الصدقة في الحالات التي يرى فيها في الدعوة، مثلًا لما رأى وفدًا أتوه ورآهم عليهم ملابس مخرقة، يسمونهم في الحديث (**مجتابي النمار**) يعني مجتابي: يعني مخرقي النمار؛ لأن جاب يعني خرق، أما النمار هي اللباس.

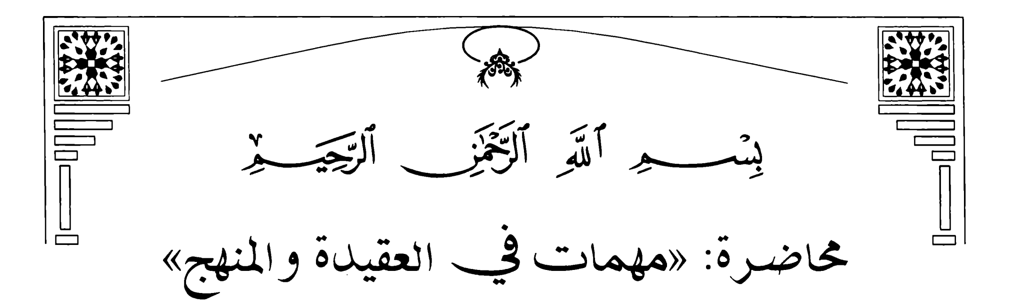
فلما رآهم النبي ﷺ في فقرهم قال بعد الصلاة: «**من يتصدق على هؤلاء**» فقام رجل ليتصدق عليهم قال: يا رسول الله عليَّ درهم، فقال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. . .**»[1].

يعني نرى أن المملكة العربية السعودية هي أول من دعا إلى هذه التبرعات العلنية العامة عبر أجهزة الوسائل، ليس في هذه القضية فقط، ولكن في القضايا من قديم كدعوة عامة اقتداءً بالسنة في ذلك، فقد مرت بالمسلمين عدة قضايا وأزمات تجد المملكة تسارع في ذلك، مثل قضية أفغانستان القديمة وموقف المملكة فيها الكبير، ومثل الأخيرة هذه ما يصيب الشعب الأفغاني من حاجة وشدة، كذلك في البوسنة والهرسك، وكذلك في الشيشان في كوسوفو، وولاة الأمر في المملكة العربية السعودية يبذلون جهدًا كبيرًا في ذلك، فلا غرابة في ذلك.

تعليق: شكرًا معالي الشيخ ونكرر الشكر لكم مرة ثانية على هذه الفرصة بل الفرص الطويلة التي أتحتموها لنا وللإخوة المشاهدين والمشاهدات، ولعلنا إن شاء الله نلقاكم في لقاءات أخرى من لقاءات الخير والبركة، وإلى ذلك الحين نستودعكم الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).



محاضرة: «مهمات في العقيدة والمنهج»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، وأشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وتركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك.

اللهم صل، وسلم، وبارك على عبدك ورسولك محمد، إزاء ما أرشد وبين وعلم، وإزاء ما جاهد في الله حق الجهاد، وعلى الآل والصحب أجمعين، أما بعد:

يا أيها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذه الصلة محبوبة لدي وإليّ؛ لأن بها الدعوة إلى الله ﷻ - وإن بعدت الديار -، وهذا من ما نرجوا أن يكون فيه نصرة لدين الله ﷻ عبر هذه الوسائل الحديثة.

إنني أشكر الإخوة في جمعية إحياء التراث فرع الجهراء على ما ألحوا به من الاتصال، وأبدوا فيه من الرغبة المؤكدة على إقامة هذه المحاضرة عبر الهاتف؛ إذ لم يحصل التمكن من الحضور شخصيًّا، فلهم الشكر، والدعاء بالتوفيق والإعانة على ما فيه نصرة الحق.

هذه المحاضرة: «**مهمات في العقيدة والمنهج**».

ولا شك أن هذا الموضوع موضوع مهم؛ لأن الساحة الآن تحتاج إلى انضباط في العمل الإسلامي بعامة، وفي العلم الشرعي، وفي النظرة إلى ما حول المرء من أحداث وأشخاص، ومن أطروحات ومناهج مختلفة، وأساس ذلك ومرجعه فهم عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم، وفهم منهج السلف الصالح - رضوان الله عليهم -؛ إذ العقيدة والمنهج عليهم المرتكز.

المنهج وعلاقته بالعقيدة

في الحقيقة المنهج داخل ضمن العقيدة؛ لأننا لو نظرنا إلى عقائد السلف الصالح، ودرسنا كتبهم المختصرة والمطولة، وجدنا أن المنهج بعض هذه العقيدة.

المنهج معناه: السبيل والطريقة التي يكون عليها أهل السنة وأتباع السلف الصالح، والسبيل والطريقة التي بها يتعاملون مع من حولهم: كيف يتعاملون مع المسلم؟ كيف يتعاملون مع الكافر الحربي؟ كيف يتعاملون مع المعاهد والمستأمن؟ كيف يتعاملون مع المسلم العاصي؟ كيف يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ كيف يتعاملون مع ولاة الأمور؟ كيف يتعاملون مع أهل العلم؟ كيف يتعاملون مع سلف هذه الأمة؟ هذا المنهج والطريقة في التعامل هي موجودة في كتب العقيدة؛ ولهذا إذا قلنا: المنهج، فإنما نعني بعض الاعتقاد؛ لأن المنهج داخل ضمن العقيدة - عقيدة أهل السنة والجماعة؛ لهذا إذا رأيت العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام: أحمد بن

عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وجدت أنه وضع أبوابًا تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضع فصولًا تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي التعامل مع ولاة الأمر، والتعامل مع الخلافات والاجتهادات المختلفة، وهذا هو ما يسميه المعاصرون بالمنهج العقيدة.

إذًا: العقيدة والمنهج بينهما عموم وخصوص؛ المنهج خاص، والعقيدة عامة، وعطف المنهج على العقيدة هذا لأجل الاهتمام به؛ كما عطف العمل الصالح على الإيمان في آيات كثيرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، والآيات التي فيها عطف العمل الصالح على الإيمان معناها: أن العمل الصالح هو بعض الإيمان، وجزء من مسمى الإيمان، لكن عطف عليه؛ لأنه مهم، فعطف الخاص على العام في علم المعاني في البلاغة مقتضاه الاهتمام بهذا الخاص، وإفراد هذا الخاص بالذكر؛ لأجل التنبيه عليه.

فإذًا: موضوع هذه المحاضرة مهمات في العقيدة والمنهج

ولا شك أن ضوابط العقيدة والمنهج العامة التي نحتاج إليها كثيرة متنوعة، لكن ننبه إلى مهمات:

المهمة الأولى: العقيدة أولًا وهي أولى هذه الضوابط العامة والمهمات.

إن العقيدة هي أساس الدين وأساس الملّة، هي التي بعث الله ﷻ بها الأنبياء والمرسلين جميعًا، هي الإسلام العام، اشترك فيها الأنبياء والمرسلون، فهي العقيدة العامة، التي دعا إليها الرسل جميعًا، وهي أولى المهمات وأولى الأولويات.

نلحظ ذلك، ونتبينه في قول الله ﷻ وتقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذه هي أصول الاعتقاد. أركان الإيمان ستة، ذكر في هذه الآية خمسة، وفي آيات أخرى ذكر الإيمان بالقدر.

والعقيدة من جهة الاهتمام بها - اهتمام المسلم بها - يجب أن تقدم على غيرها، كذلك العقيدة أولًا في الدعوة؛ لأنه إذا صلحت العقيدة في النفوس، صلح العمل، والتف الناس على شيء واحد، وعلى قلب واحد، نلحظ هذا في قول النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا** ...»[1]. وهذا من الأحاديث التي تبين لك أنه يبدأ بالأهم فالأهم؛ كما ذكر ذلك إمام هذه الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في فوائد كتاب التوحيد على حديث معاذ، قال فيه: (البداءة بالأهم فالأهم)[2]، دل على أن التوحيد هو أهم المهمات وأوجب الواجبات في العقيدة: في تصحيح عقيدة الناس، وفي بيان ما تصلح به قلوبهم.

معلوم أن بيان العقيدة يحصل بقدر ما يحتاج إليه، فلا يتحدث مع العامة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (١/ ٩٥).

في أمور الاعتقاد كما يتحدث مع الخاصة، بل أمور الاعتقاد بحسب ما دلت عليه النصوص، فيدعى الناس إلى ما دلت عليه النصوص في أمور العقيدة، فيبين للناس ما يجب عليهم في الاهتمام بأمر الاعتقاد.

لما سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه على آيات الصفات وعلى أحاديث الصفات، وقيل له: إنك فاتحت فيها العوام. قال: (أما قولكم فاتحت فيها العوام وتحدثت فيها مع العوام، فلم أحدث عاميًا بتلك المسائل قط)؛ لأن تشريعات الاعتقاد التي تناسب الخاصة لاتناسب العامة، فالعامة يدعون إلى أركان الإيمان، الإيمان بالله بأنواعه بإجمال وتفصيل يناسبهم، وكذلك بقية أركان الإيمان، ومن ضمنها الإيمان بالقدر؛ لأن العامة يناسبهم مالا يناسب غيرهم.

إذًا: من المهمات في العقيدة والمنهج أن تعي أن العقيدة أولًا، العقيدة هي أول ما يدعى إليه، وهذه هي دعوة الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى آخرهم.

ترك هذا التأصيل وترك هذه الأولوية يسبب أنواعًا من الانحراف بالأمة؛ لأن الاجتهادات إذا كثرت في أول ما يبدأ به وفي تنفيذ الأولويات، فإنه سيحصل خلل في المنهج وفي التعامل وفي الدعوة، وسيحصل هناك فرقة؛ لأن العقول مختلفة، ومصلحة الدعوة مختلفة عند الناس، فإذا لم نرجع فيها إلى كلمة سواء من القرآن والسنة، فإن الاجتهادات ستكثر، وبالتالي الافتراق سيزيد ويكثر في هذه الأمة، والله ﷻ أمرنا بالاعتصام بحبله وعدم التفرق؛ قال ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله هو: الكتاب، والسنة، والإسلام، والعقيدة الصحيحة،

والشريعة التي جاءت في القرآن والسنة، ثم قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، فيعم ذلك جميع أنواع التفرقات في الدين وفي الدنيا.

نبذ التفرق في الدين:

التفرق في الأبدان يكون نتيجة للتفرق في الدين، فإذا لم نرجع إلى كلمة واحدة في الدين، بما دلت عليه النصوص، فسوف يؤول الأمر إلى افتراق في الأبدان؛ كما قال ﷻ عن النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤]، لما نسوا يعني: تركوا حظًا ونصيبًا مما ذكروا به، وأخذ عليهم به الميثاق، نسوا ذلك، وتركوه مع العلم به ومعرفته، أغريت بينهم، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء، وهذا نراه اليوم فيما بين المهتمين بالإسلام والدعوة إليه والمهتمين بالعمل الإسلامي عامة أن بينهم ما بينهم من حبائل الشيطان والتفريق بين الصفوف؛ وذلك لأسباب كثيرة منها عدم الرجوع إلى كلمة واضحة في تحديد أولويات الدعوة وفي تحديد ما يجب البدء به في هذا الأصل.

إذًا المهمة الأولى: هي أن تكون العقيدة أولًا في الدعوة إلى الناس.

ولا شك أن هذا يختلف باختلاف البلاد واختلاف الحاجة، فإذا كان الناس أحوج إلى العقيدة، بدأ بها، وإذا كان الناس على عقيدة صحيحة، فإنه ينظر ما يحتاجه الناس؛ كما قال ﷺ: «**فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا. . .**»، فإذًا: العمليات بعد العقائد في تفصيلاتها إذا كان الناس قد بدؤوا في فهم العقيدة

الصحيحة ولم يكن بينهم أهل شرك.

المهمة الثانية: وجوب اتباع عقيدة ومنهج السلف الصالح

يجب أن نعلم ويعلم الجميع في شأن العقيدة والمنهج أن عقيدة السلف الصالح ونهجهم هو النهج الواحد، الذي يجب اتباعه، وهو الذي فيه النجاة؛ ذلك لأن النبي ﷺ بيَّن وحذَّر وأنذر فقال: «**وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»، قيل من هي يا رسول الله؟ قال: «**هِيَ الْجَمَاعَةُ**»، وفي رواية قال: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي**»[(١)]، وهذا يدل على أن المنهج الصحيح والعقيدة الصحيحة إنما هي في طريقة الجماعة، طريقة الصحابة، طريقة السلف الصالح.

ومعلوم أن طريقة الصحابة في العقيدة والمنهج واحدة، واضحة بينة، فلم يختلف الصحابة في مسألة من مسائل الاعتقاد، كذلك التابعون لهم والتابعون لهم - أيضًا - بإحسان، وإنما اختلفوا في مسألة واحدة - يعني: من تأخر -، وهي مسألة اللفظ؛ كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله،

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله ابن عمرو. أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧، ٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧)، (١٨/ ٧٠)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

يعني في مسألة: هل يقال: لفظي في القرآن مخلوق أو لا يقال؟ مع أن الصحيح أن هذه المسألة لا يطلق فيها القول بأن اللفظ في القرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق؛ لأن الحديث عنها جاء بأن لفظي بالقرآن مخلوق، هذا مجمل - كما هو معلوم في تفصيله في موضعه -، المقصود من هذا أن يبين لك أن المهمة الثانية التي يهتم بها كل داع إلى حق على بصيرة أن يعلم أن عقيدة السلف الصالح وطريقة السلف الصالح هي النجاة.

قال ﷺ في حديث (الافتراق): «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»، الذي يريد النجاة يستمسك بسفينة نوح في هذا الزمن، وهي عقيدة السلف الصالح أتباع أهل السنة والجماعة الحديث والأثر، الذين بينوا منهاجًا واضحًا وعقيدة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض.

المهمة الثالثة: التيقن من أن عقيدة السلف الصالح ومنهجهم صالح لكل زمان ومكان.

يجب أن نعلم أن هدي السلف الصالح وعقيدتهم ومنهاج أهل السنة والجماعة صالح لكل زمان ومكان؛ لأن به النجاة، فلا يقال: هذه أزمنة مضت، واليوم لابد من أطروحات جديدة؛ لأن الافتراق الماضي والحالي كله بينه ﷺ، وبين أن الفرق كلها ستكون في النار، إلا من كان على مثل ما هو عليه وأصحابه.

فإذًا: النجاة الحقيقية في هذا المنهاج، وهذا المنهاج كما صلح للأولين فهو صالح للآخرين، وكما أصلح أول الأمة، فإنه هو المؤهل الوحيد لإصلاح آخر هذه الأمة؛ وذلك لأسباب وخصائص في هذا المنهج.

خصائص منهج أهل السنة والجماعة

من خصائص منهج أهل السنة والجماعة أنه منهج شامل لكل ما يحتاج إليه، فهو شامل من جهة أنواع التعامل المختلفة، فتعامل الإنسان مع نفسه يشمله منهاج أهل السنة والجماعة، تعامله مع المؤمنين، محبته لأهل الإيمان، وموالاته أهل الإيمان بقدر ما هم عليه من الإيمان، هذا من أصول هذا المنهج؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١]، وكذلك تعامل المؤمن مع أهل العصيان.

هذا واضح في الكتاب والسنة، واضح في مناهج أهل السنة والجماعة كيف يتعاملون في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وكذلك ذكر شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية - التي نوصيكم بها كثيرًا - ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال في وصف أهل السنة والجماعة: (**ثُمَّ هُم مَّعَ هَٰذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**)(١)، قال شراح العقيدة الواسطية: قوله: (**عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**) أوضحه شيخ الإسلام في مواضع أخر من كتبه، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مراتبه وأحواله كلها وأحكامها اختلف فيها الناس، فالمعتزلة لهم طريقة، والخوارج لهم طريقة، وفهم للأمر بالمعروف

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص ١٢٩).

والنهي عن المنكر وأهل السنة والجماعة لهم فهم[١]، فعندك الخوارج غلوا في ذلك، حتى جعلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحل به الدماء - دماء المسلمين ودماء الكافرين -، بل وصفهم النبي ﷺ بقوله: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ**»[٢].

كذلك رأى المعتزلة أن معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الخروج على الحكام، وسفك الدماء إذا كانت المصلحة المظنونة في الخروج عليه سُتحدث نصرة للإسلام ولأهله.

ومعلوم أن من قواعد أهل السنة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون إذا غلب على الظن في الأمر بالمعروف الانتفاع، إذا غلب على الظن الانتفاع، وجب - كما هو قول كثير من أهل العلم ومن أهل السنة - إذا غلب على الظن؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، فأوجب التذكير إذا غلب على الظن الانتفاع، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، وأما النهي عن المنكر، فإنه لا ينهى عن منكر، حتى يتقن صاحبه أن المنهي عن المنكر سينتقل منه إلى ما هو أحسن، فإذا كان يقول: احتمال أنه سيحصل من هذا المنكر مفاسد أُخر، فإنه لا يجوز له أن ينهى عن المنكر، إلا إذا تيقن أنه ستكون العاقبة المصلحة محضة، وأن لا يكون ثم مفسدة عامة، وأما إذا كان هناك إضرار بشخص واحد إذا نهاه عن منكر، فهذا مما يغتفر فيه، لكن في الأمور المتعلقة بالأمة، فإن النهي عن المنكر يجب أن

---

(١) انظر شرح هذه العبارة في تفصيل ممتع لشيخنا صالح آل الشيخ - حفظه الله - في اللآلي البهية في شرح الواسطية (٢/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

يكون مع التيقن أن المصلحة حاصلة، أما إذا قيل ربما تكون المصلحة راجحة، وربما لا تكون راجحة، فيحدث مفاسد، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ كما هي القاعدة المقررة في قواعد الفقه.

كذلك الصوفية حينما نظروا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عطلوه، فلم يأمروا، ولم ينهوا، بل سلكوا طريقًا في التربية غريبة؛ لهذا يخالف أهل السنة والجماعة - أتباع السلف الصالح - يخالفون هذه الفرق الغالية في الأمر والنهي - مثل: الخوارج والمعتزلة ومن شابههم، والجافية في الأمر والنهي، وهم: الصوفية وأهل الشهوات -، ويسلكون مسلكًا وسطًا، وهو أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ليس على أهوائنا وعقولنا، بل على ما جاء في النصوص من آداب وشرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك في التعامل مع الكفار هم لهم ضوابط بما جاء في الشرع، فالتعامل مع الكافر المستأمن، الذي دخل بعهد وأمان، وكما جاء في الحديث: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ** ...»[1]، ليس التعامل معه كالتعامل مع الحربي، الذي نابذنا بالحرب والعداوة، والله ﷻ بين لنا ذلك في القرآن في سورة الممتحنة؛ حيث قال ﷻ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] الذين لم يقاتلونا في الدين،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، والنسائي (٤٧٣٤)، وابن ماجه (٢٦٨٣).

ولم يخرجونا من الديار، ولم يظهروا العداوة لنا، ويبارزونا بالمعاداة، فهؤلاء نعاملهم بالقسط، ونقسط إليه، ونحسن إليهم؛ كما كان النبي ﷺ يحسن مع من كان في المدينة من أهل الكتاب ومن المستأمنين.

فإذًا: كل أنواع التعامل المختلفة تبين لك أن الشريعة والعقيدة - عقيدة أهل السنة والجماعة - متصفة بأنواع الشمولية، هي شاملة لطبقات المجتمع، شاملة كيف نواجه المسلم، كيف نواجه الحربي، كيف نواجه العاصي، كيف نواجه المبتدع، كيف نتعامل بأنواع التعامل المختلفة، ففيها شمولية؛ ولهذا يخطئ من يقول: إن عقيدتنا ينبغي أن تكون عقيدة سلفية، ولكن تكون المواجهة مواجهة عصرية. هذا من الأغلاط؛ لأن العقيدة السلفية تشمل المواجهة، فالمواجهة جزء من العقيدة، لكن كيف تكون المواجهة؟ يجب أن يرجع فيها إلى ضوابط السلف الصالح في نوع المواجهة، المواجهة مع الحاكم لها ضوابط: في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وفي إقامة الحجة عليه، وفي نصيحته، كل هذا مبين في النصوص ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

كذلك المواجهة مع المبتدع، مع الكافر، مع العاصي في الجهاد، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة، كل هذه منهاجها بين، فالعقيدة والمنهج السلفي شامل لكل ذلك، شامل لجميع ما نحتاج إليه من أنواع التعامل، فالعقيدة سلفية، والمواجهة أيضًا يجب أن تكون سلفية؛ حتى نكون قد برئنا من العهدة، واتبعنا النص من الكتاب والسنة، وأمر الله غالب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أيضًا من خصائص عقيدة أهل السنة والجماعة وأتباع السلف الصالح أنهم يعاملون من عاداهم بما لا يعاملهم به من عاداهم، فهم إذا رأوا عدوًا لهم، أو خصمًا لهم، أو من وقع فيهم، فإنهم لا يقعون فيه بمحض الهوى كما وقع فيهم؛ ولهذا لا يكفرون من كفرهم، ولايبدعون من بدعهم، ولا يفسقون من فسقهم، إلا بحجة؛ لأنهم تخلصوا من أهوائهم، ورجعوا إلى ما يدور عليه النص، فليس لهم هوى، إن منهج أهل السنة والجماعة ليس منهجًا مبنيًا على الأهواء، وإنما هو منهج مبني على ما يقرره أئمة أهل السنة من فقه الكتاب والسنة بأنواع التعامل.

التعامل مع من يتعدى عليهم لا يكون بالتعدي، فمن تعدى علينا، لا يلزم أن نتعدى عليه - يعني: في الكلام -، بل نرعى الله فيه، ونتقي الله فيه، فلا نتكلم إلا فيما أذن لنا أن نتكلم فيه.

وأهل السنة في هذا يرعون قول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣]، فهم - رحمهم الله - في عقائدهم بينوا أنهم لا يبدعون من بدعهم، ولا يكفرون من كفرهم، ولا يفسقون من فسقهم؛ لأن هذه ليست إليهم، بل هذه الألفاظ إذا تُعدي عليهم بها، فإنهم يتقون الله فيمن قالها، ويحكمون عليه بالحكم الذي جاء في النص، ولا يتعدون في ذلك، ويسعون إلى امتثال قول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فإذًا: من خصائص أهل السنة والجماعة وأتباع السلف الصالح من خصائص عقيدتهم ومنهجهم أنهم يسعون إلى الاجتماع والائتلاف، وينهون

عن الفرقة والاختلاف؛ كما دونوا ذلك في عقائدهم، فكل سلفي مهتم بعقيدة السلف الصالح متابع لها يجب عليه أن يسعى إلى الائتلاف، وأن ينهى عن الاختلاف، وخاصة مع من هو على عقيدته، ومن هو على مشربه، فإنه لا يسوغ له أن يتعدى عليه، بل يجب عليه أن يكون معهم فيما يحب ويترك على ما يحب الله ﷻ ويرضى. ويراعي أن يبتعد عن ما يفرق الكلمة، ويحرص على ما يجمعها، وذلك لقوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والحظ قول الله ﷻ هنا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: أحسن ما تجد قله، حتى لا يكون ثم نظر، أو ثم مدخل للشيطان بين النفوس من جراء كلامك، وكما تعلمون أن الفرقة إنما تبدأ أولًا بكلام، ثم ينتشر، وينتشر، حتى يعود الإخوة إلى فرق شتي؛ ولذلك يجب أن ننتهج منهجًا نحو الجماعة، بأن نكون مؤتلفين، متحابين، قائلين لإخواننا أحسن ما نجد، وإذا كان ثم اختلاف في بعض المسائل، فيجب أن يرجع الجميع إلى العقيدة الواضحة والمنهج الواضح في تحكيم أهل العلم في ذلك؛ حتى يكون لهم كلمة واحدة، وحتى يصدروا عن رأي واحد، وتقوى شوكتهم.

من خصائص أهل السنة والجماعة أنه منهج مبني على تحكيم النصوص وترك العقل، فالعقلانيون هؤلاء يفرعون في المنهج، يفرعون في المصالح المتوهمة ما لم تدل عليه النصوص، بل تكون النصوص دلت على شيء، وكلام أهل العلم من أهل السنة يدل على شيء، وهم يذهبون إلى أنحاء أخر، فمن أصول منهجنا أننا ندع العقل للنص، فإذا جاء النص، فلا مجال للاجتهاد، لا مجال لإعمال العقل، والمصلحة توجد حيث وجد الشرع،

حيث وجد الشرع، فثم المصلحة، وليس العكس؛ كما يقوله من لم يوفق، يقولون: حيث وجدت المصلحة، فثم شرع الله، لا. حيث وجد الشرع، فثم المصلحة، وهذا من أصول أهل السنة فيما دونوه وفيما يحكمون به، فترى أنهم في مسائل التوحيد قدموا النص على العقول والأقيسة، وفي الصفات قدموا النصوص على العقول والأقيسة، بل كان المنهج العقلي هو منهج أهل البدع، كذلك في أمورهم في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في حقوق ولاة الأمر، فالأمر مختلف مع فئات، إنما يقدمون ما دلت عليه النصوص، طارحين العقل، إلا فيما للعقل فيه مجال للاجتهاد، فإذا وجد النص، فلا مجال للعقل إلا في فهم النص.

المهمة الثالثة: الحرص على إنقاذ الناس من عذاب الله.

ننتقل إلى المهمة التي بعدها من المهمات في عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهج السلف الصالح أنهم يهتمون بإنقاذ الناس من عذاب الله ﷻ، وهذا أصل عام في دعوتهم، وأنهم في دعوتهم يريدون إنقاذ الناس من عذاب الله ﷻ، ليس لهم غايات في ذلك، وإنما الغاية هي تحقيق عبودية الناس لرب العالمين، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ**: «**أَسْلِمْ**»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[(1)]. هذا غلام صغير في النزع الأخير من الموت، صار لأجله حركة من رأس هذه الأمة - وهو المصطفى ﷺ -

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

لزيارته، ولدعوته إلى الله ﷻ، لم ينظر هل هذا الغلام الذي في مرض الموت هل أنتفع أنا منه أو لا أنتفع؟ هل سيكسب الدعوة قوة أو لا يكسب الدعوة قوة؟ إنما المقصود أن تكون هذه النفس مسلمة لرب العالمين، شاهدة شهادة الحق، لنا بها مصلحة وقوة أو ليس كذلك هذا ليس إلينا، المهم تعبيد الناس لرب العالمين ﷻ، وهذا تلحظه في سورة يوسف عليه السلام، فإن يوسف عليه السلام دعا بدعوته هذه وهو في السجن، دعا إلى التوحيد وهو في السجن مع السجناء، ودعا إلى التوحيد وهو في مستوى المسؤولية والحكم، أي: في كل حال، في هذا الحال وهذا الحال، وهو سجين وهو في أعلى مستوى في مصر، دعا إلى دعوة واحدة، فتبين من ذلك أن هذا المنهج يمشي معنا دائمًا، وسواء أسلم الناس، أو أطاع الناس، أم لم يطيعوا، فليس هذا من شأننا، إنما شأننا أن تكون دعوتنا الغرض منها إنقاذ الناس من سخط الله، إنقاذ الناس من عبادة غير الله، إنقاذ الناس من النار؛ حيث قال ﷺ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»، فمنه نعلم أن من لم يجعل هذا الهدف هدفه، فإنه خالف منهج أهل السنة والجماعة، فإن المقصود هو إنقاذ الناس، ليس المقصود المصالح المختلفة للدعوة الدنيوية، التي يظن أنها وسيلة لتحصيل الخير، لا. المقصود من ذلك أن يُتعبد لله ﷻ رب العالمين، وأن تكون الصلة بالناس صلة لأجل إنقاذ الناس.

ولهذا ترى أن أكثر أهل السنة والجماعة في القرون المختلفة لم يدخلوا في الدول والملوك. أصلًا أئمة الحديث وأئمة السنة وأعلام الإسلام لم يدخلوا مع الملوك، ولم يدخلوا مع أمراء المسلمين، ولم يدخلوا مع الخلفاء، رغم أنه قد يبدو للذهن أنهم لو دخلوا معهم لكان فيه إصلاح

عظيم، ولو فعلوا وفعلوا لكان فيه، لكنهم ما اختاروا ذلك؛ لأن الناس يتقبلون ما هم عليه، ويقبلون عليهم، فما احتاجوا إلى هذا. وهذا الأمر لا شك أنه من المهمات في أن هدف الدعوة محدد، والغرض منها هو دعوة الناس، وتعبيد الناس لرب العالمين، سواء كان المقبل على هذه الدعوة كثرة أم كان المقبل عليها قلة، فإن هذا ليس هو الذي نعنيه، فإنما يعنينا أن يستجيب الناس لرب العالمين ﷻ وتقدست أسماؤه.

نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، لم يؤمن معه إلا قليل، وهذا القليل كانوا شيئًا وثمانين، أو شيئًا وسبعين، وفي بعض الروايات أنهم كانوا بضعة عشر، ما بين رجل وامرأة[١]، هذه حصيلة دعوة واحدة، لم تتغير في ألف سنة إلا خمسين عامًا.

فإذًا: من المهمات في الدعوة والمنهج أنه إذا اختلف الناس، وتنوعوا في

---

(١) قال الطبري (٨/ ٢١٤): «فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح ﷺ ثلاث عشرة فيما حدثني به ابن حميد».
وقال السمرقندي (٢/ ١٥١): «قال ابن عباس هم ثمانون إنسانًا، وقال الأعمش: كان نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين إمرأة».
وقال البغوي (٢/ ٣٨٤): «واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية: نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم. وقال الأعمش: كانوا سبعة: نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن له. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به أزواجهم جميعًا. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفرًا رجلًا وامرأة وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت سفينة نوح ثمانون رجلًا أحدهم جرهم».

أطروحاتهم أننا لا نتغير؛ لأن أهل السنة لا يستخفهم الذين لا يؤمنون، والله ﷻ أمرنا بالصبر، وأن لا نتغير مع تغير الناس في غايات دعوتنا. نعم، الأساليب قد تتغير، كما تغيرت أساليب السلف في الكتابة وفي الذهاب والرحلات إلى غير ذلك، لكن غايات الدعوة واحدة؛ كما قال ﷻ لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ولاحظ هذا النهي: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ لأن الداعية إلى الله ﷻ قد يترك الصبر، ويستخفه الذين لا يوقنون، ويذهب إلى أساليب أخر، لم يأمر الله ﷻ بها، ولم يرضها نبيه ﷺ، وهذا يدلنا على أن الغاية إذا كانت واضحة واحدة، فإن الصبر عليها مهما تطاول الزمان هو المنهج الصحيح، نصبر عليها، ولو لم يؤمن أحد، ولو لم يؤمن إلا قليل، فالأنبياء منهم من لم يؤمن به أحد؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(١)، والنبي ﷺ رأى هذا في رؤيا ورؤياه حق.

فإذًا: هذا يدلنا على أن الاغترار بالكثرة هذا ليس من منهجنا، فإذا حصلت الكثرة مع الثبات على المنهج، فهذا خير، وهذا توفيق من الله ﷻ، أما لأجل تحقيق الكثرة نترك مهمات المنهج، ونترك أولويات الدعوة، ونترك ما دلنا عليه كلام ربنا وكلام نبينا ﷺ، فهذا ليس من منهج السلف الصالح ﵃، ولهذا نلحظ ما جاء في آخر سورة يوسف ﵇، وهي السورة التي عنيت بالدعوة أصولها، وأخلاق الداعية، والابتلاء الذي يحصل لأهل الدعوة،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

وما أشبه ذلك، في آخرها ذكرت مهمات عظيمة وأصولًا، وذكرت أصول عظيمة في الدعوة، منه قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال في نفس السورة: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال ﷻ في آخرها: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، بعدما نهى عن الاغترار بالأكثر، قال لنبيه: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وبعدها قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: ١١٠].

إذًا: المسألة ليست مسألة استعجال، المسألة أن تسير على المنهج المأذون به شرعًا، وهذا المنهج قد بينه أئمتنا - أهل السنة والجماعة -، فلا لبس فيه، ولا اضطراب - ولله الحمد -، ولا اختلاف، فنصبر عليه، وندعو إليه مهما تطاول الزمان، إن كثر الناس فنعمة، وإن لم يكثروا ويستجيبوا، فهذه حكمة الله ﷻ، ولا نترك أصول منهجنا لأجل تحصيل أشياء مظنونة، فنحن نتعبد بالسير على هذا المنهج، وأما هدى الناس، فإنه إلى الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فإذا تبين ذلك، واتضح لك هذا الأصل الأصيل، فقارن ما بين دعوة النبي ﷺ في مكة، وما بين دعوته في المدينة، ففي مكة ثبت على كلمة واحدة، أرادوا منه أن يذهب، وأن يداهن، أن يكون بينه وبين المشركين شيء من التفاهم، فأنزل الله ﷻ عليه سورة عظيمة، سورة الكافرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢]. . .

إلى آخر السورة، كذلك أنزل عليه قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥]. وفي المدينة مكث سنين بينه وبين المشركين حرب، ما استجاب أحد إلا قليلًا، وكانت الاستجابة أكثر من مكة، ولكن المنهج واحد، والثبات عليه واحد، ولكن في آخر سنيه ﷺ في المدينة أتى الناس أفواجًا إلى الإيمان، آمن في سنتين أو ثلاث سنوات أكثر من مئة ألف، وحصيلة عشرين سنة كلها لا تزيد عن ألفين أو ثلاثة آلاف، إذا كان كذلك، فيبين لنا أن الله ﷻ حكمته ماضية، وعلينا الثبات على المنهج والصبر عليه وعلى أولوياته، واستجابة الناس لذلك هذه إلى الله ﷻ، علينا أن نطرق جميع الوسائل الممكنة في التأثير والدعوة، ودعوة الناس إلى منهج السلف الصالح وإلى سعته وشموله؛ لأن أحق المناهج في الواقع باستجابة الناس هو منهج السلف الصالح؛ لأنه هو ذو الاعتقاد الصحيح، وذو الطريقة الواضحة، وهو الذي يوافق الفطرة، ويوافق ما عليه الناس، لكن قد يقصر أصحاب المنهج الصحيح في عدم طرق جميع الوسائل الممكنة في التأثير على الناس في المنهج، فنؤثر على الناس بوسائل الإعلام المختلفة، نؤثر على الناس بكل شيء ليس فيه مناقضة ومخالفة لأهل السنة.

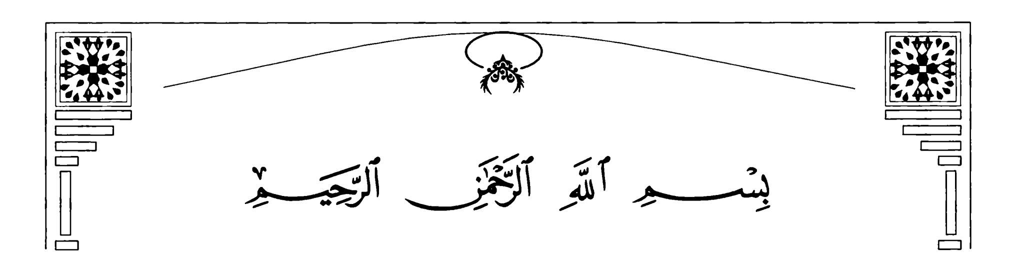
الوسائل إذا كانت مباحة، فنحن أولى بها، وإذا أشكل في بعض الوسائل، الحكم يرجع إلى أهل العلم.

هذه بعض المهمات، ولا شك أن هناك أشياء أخرى تتعلق بموضوع المحاضرة، وهو مهمات في العقيدة والمنهج، ونرجئها - إن شاء الله تعالى - إلى وقت آخر، وإلى محاضرة قادمة.

وأسأل الله ﷻ لي ولكم التوفيق والسداد، والعون والرشاد، وأن يجعلنا من أنصار دينه المجاهدين في سبيله، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الباذلين وقتهم في سبيل الدعوة إليه، ونسأله - سبحانه - أن يثبتنا على الحق، وأن لا يضلنا بعد إذ هدانا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، فإنه ﷻ جواد كريم، وأسأله ﷻ لي ولكم من أهل الإيمان التوفيق والسداد في القول والعمل، وأن يعيذنا من شر أنفسنا والشيطان، وأن يقينا شر الغفلة، فإن الغفلة إذا استحكمت على القلوب أضرت بها، فنسأله ﷻ أن يفتح لنا أبواب الخيرات، وأن يُغلق علينا أبواب الشرور والمنكرات، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شر أنفسنا، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.





محاضرة: «وقفة مع آيتين من سورة محمد»

قام بإلقائها فضيلة شيخنا العلامة/ صالح بن عبد العزيز ابن محمد بن إبراهيم آل الشيخ حفظه الله ورعاه في ضيافة مدارس بدر الأهلية عام ١٤١٢هـ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أسأل الله ﷻ لي ولكم الهدى والسداد والتوفيق إلى الرشاد، وأسأله تبارك وتعالى أن يرينا الحق حقًا، ويمن علينا باتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا، ويمن علينا باجتنابه وتركه، كما أسأله ﷻ أن يحيينا حياة طيبة، وأن يميتنا ميتة طيبة، وأن يحشرنا مع أولياء الله ﷻ.

هذه الآيات التي سمعتموها من صدر سورة محمد ﷺ أقف فيها مع آيتين، أو مع مسألتين، أما الأولى، فهي قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، والثانية هي قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾ [محمد: ١٤]، أما الآية الأولى، ففيها بيان أن المقتول في سبيل

الله ﷻ سيهديه الله، وسيصلح باله، وفي هذا دلالة ظاهرة أن الهداية تكون بعد الممات، أو تكون بعد مفارقة الدنيا. ففي حق الذين قتلوا في سبيل الله، فهم سيهدون بعد تركهم لهذه الدنيا، سيهديهم الله ﷻ، وكذلك الذين ماتوا - إذا كانوا على الإيمان - سيهدون، وسيصلح الله بالهم، وسيدخلهم الجنة؛ لهذا قال العلماء: إن الهداية التي جاءت في القرآن أربعة أنواع[1]:

النوع الأول: الهداية الغريزية.

وهي المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فهذه هداية جعلها الله ﷻ رحمة منه بكل مخلوق، كل مخلوق هداه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ هداه لما يصلحه، هداه لما قدر الله ﷻ له في حياته. سماها العلماء الهداية الغريزية، هذه هداية طبيعية، طبع عليها الخلق.

النوع الثاني من الهداية: هداية الدلالة والبيان والإرشاد.

فإن الله ﷻ هدى الخلق، وأقام لهم البينات الواضحة، التي لايلتبس معها النظر ولا السلوك لذي العقل ولذي اللب، فأرشد ﷻ، وبيَّنَ، وهدى، وعلَّمَ، ودلَّ. وذلك بإنزال كتبه، وبإرسال الرسل، فإنزال الكتب لإقامة الحجة على العباد ولهدايتهم: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وكذلك الرسل يهدون إلى ما أمرهم الله ﷻ به ليبينوه للناس.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٥)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٣٣٤).

فإذًا: هداية الدلالة والبيان لم تترك لاجتهاد، وإنما قد بينت وأوضحت؛ لأن الله ﷻ هو الهادي: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٥٤]، وقال ﷻ في حق نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] يعني هداية البيان والدلالة والإرشاد.

فإذًا: لا خير ولا شيء فيه الصلاح للعباد إلا وقد بين ودل عليه العباد، وأرشدوا إليه في الكتب بما أنزل على الرسل، وخاصة في القرآن العظيم الذي أنزله الله ﷻ على قلب خاتم المرسلين. وبما أوحى الله ﷻ إلى نبيه من السنة، وهذا يعني أن من ظن أو زعم أن هناك طريقًا يوصل إلى الله ﷻ، ويهدي إلى الله، فيه دلالة وبيان، لم يرد في الكتاب ولا في السنة في ظل هذا المقال أن البيان والهدى والدلالة والإرشاد التي جاءت في القرآن وفي السنة إنها لم تكن على وجه التمام؛ لأن القائل بأننا يمكن أن نهتدي إلى سبيل لم ينص عليه في القرآن وفي السنة، معنى ذلك أن هناك سبيل هداية لم يرشد إليه العباد. وهذا - ولا شك - باطل ومناقض لما في التنزيل وفي السنة؛ فتنزيل القرآن كان لهداية الخلق، والله ﷻ ما فرط في الكتاب من شيء على أحد التفسيرين بأنه القرآن[١]، وبين القرآن، وأنزل الذكر في سبيله، وهذا ليكون حجة كافية.

وأعظم ما يؤخذ من القرآن العظيم ومن الرسالة هو سبيل الهداية وسبيل النجاة.

فإذًا: يتقرر بهذا أن سبيل النجاة وسبيل الهداية لا بد أن يكون واضحًا في

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٣٤)، وزاد المسير (٢/ ٢٦).

القرآن وفي السنة أبلغ الوضوح وأعظم الوضوح وأظهره.

النوع الثالث من الهداية: هداية التوفيق والإلهام.

وهذا النوع من الهداية مبتدؤه من العبد، ومنتهاه من الله ﷻ، يعني أن الله ﷻ يمن بتوفيقه وبإلهامه وتسديده للعبد بسبب من العبد؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وهذا النوع من الهداية يأخذ في تحقيق (تحصيل) منتهاه - وهو توفيق الله ﷻ وإلهامه وتسديده - يأخذ في سببه العبد؛ إذا سلك السبيل والطريق، أما إذا سلك طريقًا آخر بتفريط منه في العلم، أو بتركه سبيل الحق بعد معرفته، فإنه يوكل إلى نفسه، ويحرم التوفيق والسداد والإلهام؛ لهذا كان ما عند الله ﷻ إنما يطلب منه بامتثال ما أمر، ولاشك أن العبد إذا سلك سبيل الهداية راغبًا، فإن التوفيق على الله ﷻ قد وعد به العبد، ووعده ﷻ حق، لا يخلف الله الميعاد، ولهذا كان من أسرار الدعاء العظيم الذي في الفاتحة، وهو قوله ﷻ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، هذا الصراط فسر بأنه: القرآن، السنة، الإسلام، ونحو ذلك وقيل في الاستشكال أو السؤال: إن المصلي قد حصلت له الهداية إلى الصراط؛ لأنه ما دام مسلمًا مؤمنًا مصليًا، قد هدي إلى القرآن وإلى السنة وإلى الإسلام، فما فائدة هذا السؤال؟ وهو قول المصلي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ مع أنه مهتدٍ إذا كان مؤمنًا مسلمًا. وأجيب بأجوبة، أحسنها أن الهداية إلى الصراط المستقيم هداية إلى أفراد ذلك الصراط، والصراط - الذي هو الإسلام، الإيمان، القرآن، السنة - قد يأخذ العباد منه شيئًا، ويتركون شيئًا آخر، فأفراده كثيرة، أفراد القرآن من

حيث الالتزام بها حدوده، أحكامه، بيناته، أخباره كثيرة، كذلك الأمور: الإسلام، الإيمان. فسؤال العبد ربه ﷻ أن يهديه الصراط المستقيم يعني أن يوفقه ويسدده لسلوك جميع أفراد الصراط المستقيم؛ لهذا وصف ذلك الصراط بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، والذين أنعم الله عليهم هم الذين بينوا في سورة النساء في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، فدل على أن الهداية للصراط أخص، بهذا الصراط المذكور في الفاتحة أخص من الهداية إلى مطلق الإسلام والإيمان. أو مطلق الالتزام بالقرآن والسنة.

إذًا: فنحن في أتم الحاجة - كما يقول شيخ الإسلام ابن القيم وجماعات العلماء - إلى الدعاء: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[(١)]؛ لأنه ما من زمن إلا والصوارف فيه عن الالتزام بجميع أفراد الصراط المستقيم أكثر من الزمن قبله، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»[(٢)]، ذلك الشر يكون بأشياء، منها كثرة الصوارف عن لزوم الصراط المستقيم، فلهذا كانت الحاجة عظيمة إلى أن تسأل الله ﷻ الهداية إلى الصراط المستقيم.

الهداية يعني الالتزام منك، وتمامه هو حصول التوفيق من الله ﷻ، وهو

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٦)، والصلاة وأحكام تاركها (ص١٤٤)، والفوائد (ص١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

الذي يعنى به هذا النوع من الهداية، وهو هداية التوفيق والسداد والإلهام، إن التوفيق من الله ﷻ.

ومعنى التوفيق عند أهل السنة والجماعة: ألا يكل الله العبد لنفسه، وأن يمده بعون خاص به، يكون قوة له على الطاعة، وصرفًا لقلبه عما لا يرضاه الله ﷻ. وغير أهل السنة يفسرون التوفيق بأنه: خلق القدرة على الفعل، ويفسرون الخذلان بأنه: منعه أو حرمانه من القدرة على الفعل، وهذا على قول الأشاعرة ومن شابههم، وهو باطل، وليس هذا محل بيان بطلانه.

المقصود أن التوفيق إعانة خاصة من الله ﷻ للعبد، هذه الإعانة هي هداية من الله ﷻ لو لم يعن الله ﷻ العبد عليها، لم يحصل على الهداية، لم؟ لأن إبليس وجنده يرصدون العبد، ويرصدون توجهاته، ويرصدون سلوكه، وهم أحرص ما يكونون على صرفه، فإذا كان معه عون من الله ﷻ وتوفيق وتسديد، كان قويًا عليهم، فإذا حرم ذلك العون والتوفيق والتسديد، كانوا أقوى عليه من نفسه؛ ولذلك يضل. فأحوج ما يكون العبد إلى أن يهديه الله ﷻ هداية التوفيق، لكن هذه مع أنها منة من الله ﷻ وتفضل وتكرم، لكنها بسبب من العبد، وهو أن يكون سالكًا سبل الهداية.

النوع الرابع من أنواع الهداية: هو الذي جاء في هذه الآية، وهو أعظم أنواع الهداية وآخرها ونتيجتها ومحصلها، وهو هداية المؤمنين إلى طريق الجنة، هداية المؤمنين إلى سلوك سبيل الصراط في الآخرة؛ كما أنهم سلكوا السبيل والصراط في الدنيا، فإنهم يهدون إلى السبيل وإلى الصراط في الآخرة؛ لأننا بيننا وبين الصراط يوم القيامة ظلمة دون الجسر،

والمؤمنون يهديهم الله ﷻ إلى الصراط، كل بحسب عمله. وهذه هي خاتمة الهدايات بالنسبة لأهل الإيمان، يهدون إلى سلوك الصراط وإلى نوع مشيهم وثباتهم وقوتهم على الصراط، وتعلمون من وصفه أنه أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأنه مزلة، وهذا يشعر بأن السير عليه عسير إن لم يكن ثم مدد وتوفيق من الله ﷻ، وهذا من أفراد هذه الهداية. كذلك يهدى إلى طريق الجنة، ويهدى إلى منزلته، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد: ٤ - ٥]؛ لأنهم قد قتلوا.

فإذًا: الهداية هنا ليست هداية الدنيا، وإنما هي هداية الآخرة، ومقابل ذلك في حق أهل النار قال ﷻ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٣ - ٢٤] في سورة الصافات يهدي أهل الجنة إلى الجنة، ويهدي أهل النار إلى النار، وهذه ثمرة الهداية في الدنيا، ثمرة من قبلها، وثمرة من لم يقبلها.

الآية الثانية هي قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾ [محمد: ١٤]، ذكرنا أن الهداية منها هداية بيان وإرشاد، وهذه لم يترك لنا الله ﷻ الاجتهاد فيها، بل قد بينها لنا بيانًا كافيًا شافيًا، كلامًا لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ إذ من مقتضى الرحمة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول أن يكون الهدى كاملًا، قال ﷻ في وصف القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، هدى معه لا يكون الضلال، ومعه لا يكون الالتباس، بالقرآن وبالسنة البينة كاملة، والطريق والبيان ظاهر أتم الظهور، قال ﷻ في وصف المؤمنين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، فأشد الناس حظًا وأكثرهم

نصيبًا في هذه الآية هم الذين كانوا أشد استمساكًا بالبينات التي جاءت في القرآن وفي السنة، وأقلهم حظًا من نقص من الاستمساك بما جاء من البينات في الكتاب والسنة، حتى يكون الناس على فريقين متباينين أشد التباين: من كان على البينة. أي على الالتزام بالقرآن والسنة، والأخذ بما جاء فيهما من البينات.

والصنف الثاني ممن ترك، هم الذين تركوا البينات التامة، وكانوا في أعلى صور سوء العمل، وذلك هو الكفر، وأعلى صور اتباع الهوى، وذلك هو اتباع الشيطان.

وبين هذين الفريقين من يقرب من هؤلاء، ويقرب من هؤلاء.

فهذه الآية تصدق على كل من كان عنده التزام بالبينات، وعنده نوع سوء عمل، ونوع هوى، فلا يستوي الذي عنده سوء العمل وعنده الهوى مع من كان في سلوكه على بينة من ربه، يحتج بما جاءه عن ربه ﷻ، وبما جاء به نبيه ﷺ.

فإذًا: في هذه الآية بيان أن المرء إما أن يكون على بينة من ربه، وإما أن يكون على غير بينة من ربه في بعض أمره أو في كل أمره، وذلك لقوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والبينة تصدق على البينة الواحدة وعلى جنس البينات، وقال ﷻ في وصف من يقابل أولئك: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، وسوء العمل يصدق على الواحد، ويصدق على جنس سوء العمل.

فإذًا: دلت الآية على أن كل امرئ مخاطب بأن يكون على بينة من ربه؛ لأن في هذه الآية الإنكار، الاستفهام هاهنا إنكاري، ينكر على الذين جعلوا

من ساء عملهم، واتبعوا أهواءهم مساوين، أو يفضلون عن أولئك الذين هم على بينة من ربهم، فهذا الاستفهام فيه إنكار، وفي الإنكار توبيخ - أيضًا -، قال ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

إذًا: نستفيد من الآية الحث والحض على أن يكون المرء في أموره كلها على بينة من ربه، وأن يكون مقتفيًا البينات والهدى الذي جاء في القرآن وفي السنة، لا يكون سالكًا مع هواه، وسالكًا ما زين له من العمل، بل إنه إذا كان سالكًا ما زين له من العمل، وترك اتباع البينات والهدى، فله نصيب من اتباع الهوى بحسب ذلك.

إذا تقرر هذا مع ما بيَّنَّا سالفًا من أن الهدى - هدى البيان والإرشاد - قد تم بالقرآن وبما بين النبي ﷺ في سنته، فمعنى ذلك أنه لا يعتمد من منهج السلف في الحقيقة قرب من البينات التي جاءت في الكتاب والسنة، وكان البعد عن منهج السلف في الحقيقة بعدًا عن البينات التي جاءت في الكتاب والسنة، لم؟ لأن المتبعين للسلف - بحمد الله وتوفيقه ومنته عليهم - ليس لهم مسألة في منهجهم ولا في عقيدتهم ولا في أمورهم، إلا ولهم عليها بينة، لا يحتجون بالرأي، ولا بما اجتهدت فيه عقولهم، بل احتجاجهم بما جاءنا من البينات والهدى، والله ﷻ قال في سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، قال ﷻ بعد ما تليت: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، إذا نظرنا إلى الذين خالفوا منهج السلف: هل كان احتجاجهم بالنصوص بعد أن خالفوا أو احتجاجًا بالأقيسة والعقول

والآراء؟ لا شك أن الجواب أنهم إنما احتجوا بالأقيسة و العقول والآراء، وكل من خالف منهج السلف له نصيب من قوله ﷻ: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، انظر إلى جميع المخالفين في باب التوحيد - توحيد الأسماء والصفات، أو توحيد الإلهية - لهم في رد قول السلف أو في رد البينات التي جاءت في القرآن وفي السنة لهم في ردها منازع ومذاهب، كلها خارجة من العقل والقياس والرأي، وأعظم مصيبة دخلت على المسلمين تحكيم الرأي على الشرع، وهي المصيبة التي يعاني منها المسلمون اليوم، فالآية دلت بظهور - كما سمعتم - على أنه ليس بعد اتباع البينات بالدلائل والبراهين إلا تزيين سوء العمل وإلا اتباع الهوى، وهذا ظاهر؛ لأن من خالف النصوص، فله نصيب من اتباع الهوى.

النبي ﷺ إنما بعث ليطاع، إذا تأملت في هذا الزمن، وهو زمن الخلافات والخلافات فيه لا تظهر في صورة معارضة النصوص الصريحة؛ كما كان فيما مضى من الزمان، كان في فيما مضى الذين يعارضون النصوص يعارضونها بوضوح، يقولون مثلًا: هذه أحاديث آحاد لا نقبلها. هذه أحاديث حسنة. لا يحتج في العقائد إلا بالمتواتر أو إلا بالصحيح. لا يقبل الحسن. هذه أقوال للسلف، وهي تناسب زمنهم لا تصلح. لا نحكم بما قالوه على وقتنا. أقوال السلف أسلم، ولكن أقوالنا أعلم وأحكم. ذلك كان فيما مضى من الزمان.

في هذا الزمان قل من يتجاسر على هذه الألفاظ، ولكن تجوسر على مخالفة السلف وترك البينات بأنواع أخر، فترى عند المخالفين احترامًا

لأقوال السلف، ترى عند المخالفين اعتدادًا بما ينقل عن السلف، ترى عندهم نقولًا عن ما يروى عن السلف، فلا تجدهم يعارضون ذلك، لكنهم لا يلتزمونه، والتزموا بأشياء تخالف ما كان عليه هدي السلف، خاصة عند الجماعات الإسلامية التي ظهرت في هذا الوقت، هذه المسألة لا شك أنها تحتاج إلى بصيرة بما كان عليه السلف، وبما عليه أولئك أعظم مما كان من قبل، لم؟ لأن الأمر في الأزمنة الماضية كان واضحًا. هذا يتهجم على السلف، يقول: هؤلاء أقوالهم لا تصلح. قواعد العلوم السلفية لا تصلح.

وهذه منابذة واضحة، فيكون من تمسك بما عليه السلف على بينة واضحة.

في هذا الزمن التبس الأمر، واختلط الأمر، صار المنتسبون إلى السلف عندهم شيء جديد، ألا وهو التفريق فيما نلتزم فيه بهدي السلف أو بمنهج السلف، التفريق في المسائل، يقولون مثلًا: العقيدة تكون سلفية، ولكن المواجهة عصرية. وهذه كلمة من الكلمات التي ظهرت في هذا الزمن، يقولون: نأخذ بسلفية المعتقد، ولكن المواجهة نأخذ بها بما يتناسب مع العصر.

مواجهة من؟ لا شك أنها مواجهة الكفر والشرك، ومواجهة من حاد عن سبيل الله، مواجهة أهل الظلم والطغيان ونحو ذلك، مواجهتهم أليست من عظيم المسائل التي يحتاجها المسلم؟ الجواب: بلى، هي من عظيم المسائل التي يحتاجها المسلم.

إذًا فادعاء أن المواجهة متروكة للاجتهاد ادعاء بأننا في هذا الأمر لم نكن

فيه على قول واضح وبينة ظاهرة، يعني أن هذه المسألة ترك الأمر فيها للاجتهاد.

إذًا: فالهداية في هذه المسألة ليست بكاملة؛ لهذا أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح ذكروا في عقائدهم اهتمامهم بهذه المسألة، ذكروا في عقائدهم كيف تكون المواجهة، فليس عند أهلِ السنة والجماعة - المتحققين بما كان عليه السلف - أن المواجهة اجتهادية، بل عندهم أن المواجهة تبع لما جاء في النصوص من أحكام المواجهة، المواجهة ما معناها؟ إما أن تكون مواجهة جهاد، أو تكون مواجهة إنكار منكر، أو تكون مواجهة خروج على والٍ، أو تكون مواجهة بإنكار المنكر، ونحو ذلك. هذه أنواع المواجهات، هل أنواع المواجهات هذه مما نحن فيه على بينة من الله، أم ما لم تأتنا به البينات؟ ما الجواب؟

الجواب: نحن على بينة، الآيات المكية فيها الكلام على ما يصنع المؤمن مع المشركين إذا كان مستضعفًا، وليس ثم دار هجرة، في دار كفر وليس ثم دار هجرة، ولا يستطيع إظهار دينه. مثلًا بعض الآيات المدنية فيها بيان قتال المشركين ومجاهدتهم وما يتصل بالجهاد من مباحث، وهذه في واقع تميز الصف المسلم، أو تميز المجتمع المسلم من مجتمع الكفار.

إذًا: فهذان الحالان قد بينا أتم بيان في القرآن، حال يكون فيه المؤمنون بين المشركين، لا تميز لصفهم ولا لمجتمعهم ولا لدولتهم عنهم، والحال الثانية حال فيه بينونة وتميز للمسلمين ولمجتمع المؤمنين عن مجتمع الكافرين، و الحال الثالثة. . . هل ثم حال ثالثة في المواجهات؟ نعم، إنها

إنكار المنكر، وإنكار المنكر بين في السنة، بل وفي القرآن أكمل بيان.

فإذًا: هذه المسائل التي ذكرنا - وهي مسائل المواجهات - هل هي أو هل أصحابها والمتنازعون فيها هل يدخلون في هذه الآية؟ الجواب: نعم، قال ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤] كل من خالف في تلك المسائل فلا بد أن تجد عنده تحسينًا وتزيينًا لعمله. وذلك التزيين والتحسين للعمل عقوبة؛ لأنه خالف البينات، إما أن يكون خالفها عن قصد وعمد بأن عرفها ثم خالف، وإما أن تكون مخالفته لها وتركه لها عن قصور وتقصير في البحث عن الحق، قال ﷻ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ولا يعذر المرء بالاعراض عن طلب البينات والهدى مع إنكار ذلك.

فإذًا: من خالف طلب البينات والهدى والصواب في تلك المسائل، من خالف ولم يطلب، أو علم وخالف قصدًا، فلا بد أن يعاقب، ومن أنواع العقوبة أن يزين له سوء عمله - والعياذ بالله -، وإذا زين له سوء العمل، فمعنى ذلك أن يكون تحصيله للحق ضعيفًا؛ لأن الواقع في الشيء يرى ذلك الشيء الذي وقع فيه حسنًا جميلًا، كيف يرى غيره حسنًا جميلًا، فضلًا عن أن يراه أحسن وأجمل؟! وهذا هو الذي وقع فيه كثيرون اليوم.

إذًا: فالمسألة مسألة بينات وهدى، وليست مسألة حسن وزين وجمال، ليست المسألة مسألة آراء، إن هذا الأمر طيب، ينتج نتائج طيبة، نراه حسنًا. لا، ليست هذه هي المسألة عند أهل السنة والجماعة -عند السلف الصالح- إنما السلف الصالح عندهم الاتباع، إذا اتبعوا فما ينتج عن الاتباع هو الحسن الجميل، وغيره قبيح، وليس بحسن.

اليوم تنظرون إلى المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة فترونهم كثيرين، لكن الذين تشتبه مخالفتهم تشتبه على الكثيرين، وربما خدع بهم الأكثرون، أو خدع بهم كثيرون، هم يحترمون السلف الصالح، ويقولون: عقيدتنا عقيدة السلف الصالح. ولكنهم يخرجون عن منهج السلف في أشياء لا يستحسنونها، منهج السلف مثلًا في مسائل التغيير التي هي مسائل الساعة ومسائل الإصلاح، منهجهم واضح؛ لأن هذه التي تسمى مسائل المواجهة.

نقول: نحن على بينة من ربنا لا نتركها: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: ١٧]، ما دام أن هذا لنا عليه البينات والدلائل، فلسنا في مرية منه، فعلينا أن ننظر إلى الاتباع والوسيلة، وليس علينا أن ننظر إلى ما نحصله من النتائج أو ما نرومه من الغايات؛ لأن الأمر إنما هو أمر عبادة، نوح عليه السلام ما آمن معه إلا قليل، النبي ﷺ كان لا يعلم أنه سيهاجر حتى أمره الله عز وجل بالهجرة، لم يؤمر بعد ويأذن لأصحابه، ولا يعلم ما يحكم الله عز وجل فيه، حتى يأمره ربه عز وجل بالهجرة، فهاجر.

إذًا: فنصل من هذا إلى أن هذه المسائل المحدثة ننظر إليها مطمئنين بتدبرنا لهذه الآية: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، ناقش المخالفين في ذلك، فتجد أنهم يحيلونك على قلوبهم، يحيلونك إلى عواطفهم، يحيلونك إلى ما تهواه أنفسهم، لكن ناقش أهل السنة المتحققين بمتابعة السلف، فتجد أنه وإن كان قلبه يغلي، وإن كانت عواطفه جياشة، فيضع عواطفه وقلبه جانبًا، وينظر نظر علم في النصوص؛ لهذا النبي ﷺ كان يستشار في مكة: «**وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ**

عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ»[١]، شكوا إليه ما يلقونه، هذه شكوى الشباب؛ لأنهم ينظرون بعواطفهم، والنبي ﷺ ربما مال، فصبره الله ﷻ بقوله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠]، يعني أهل الشرك، وقال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ [يوسف: ١١٠]، قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ عائشة ﵂ وغيرها يقولون: إن القراءة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[٢]؛ لأن الرسل لا تظن بالله ﷻ أنه يكذبهم ما وعدهم، ولكن القراءة المتواترة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، وهذه حال يصل إليها المرء بشدة ما يعاني، يظن أنه قد كذب، لا شكًا في وعد الله ﷻ، ولكن ظنًا أنه ليس بأهلٍ أن يحقق فيه موعود الله ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ هذه الحال حال نفسية؛ لهذا ثُبت النبي ﷺ بسورة هود، وثبت بسورة يوسف هو ومن معه؛ قال ﷻ في آخر سورة هود: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠] الرسول ﷺ أعلى الخلق مقامًا وإيمانًا واهتداء احتاج إلى تثبيت ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]، كذلك من معه يحتاجون إلى ثبات وتثبيت، تثبيتهم وثباتهم بأي شيء؟ بمتابعة البينات والهدى، بتلاوة القرآن والتدبر فيه، وألا يخرجوا إلى أهواء أنفسهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ٨٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٥٦)، وتأويل مشكل القرآن (١/ ٢٣٤)، والسبعة في القراءات (١/ ٣٥١).

لا شك أن أهل السنة والجماعة المتابعين للسلف الصالح - رضوان الله على الجميع - أنهم يتحققون بذلك إذا ناقشتهم، فتناقش العالم من علماء المسلمين المتابعين للسلف الصالح، فتجد أن جوابه جواب من عزل عاطفته وما يرغب فيه عن تحكيم تلك العاطفة وتلك الرغبات على النصوص، وهذه مسألة من مسائل التوفيق العزيزة، وهي أن يوفق طالب العلم، أن يوفق العبد إلى أن تكون متابعته للنص، لا أن يكون متابعًا لهواه؛ ولهذا جاء في الحديث الذي يصححه النووي وغيره من أهل العلم: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[1]، يعني الإيمان الكامل.

فإذا كمل الإيمان في قلب العبد، صار هواه ومايحبه ورغبته فيما جاء به الشرع، تبعًا لما جاء به الشرع.

أما الآخرون لأجل تربيتهم، لأجل ما هم عليه، فتجد أن واقعهم يخالف ذلك، العاطفة بها تفهم النصوص، ينزلون النصوص على الواقع الذي ضاد أو يضاد أنفسهم وهواهم، وهذا لا شك أنه خروج بالنفس عن الاتباع، إلى تحكيم الهوى على النفس؛ ولهذا يعاقب العبد بأنواع من العقوبات، فإن أمر المتابعة وانسلاخ العبد من نظره إلى رغبته وهواه، هذا أمر عزيز جدًا؛ لأنه هو خلاصة توحيد العبد لربه ﷻ، أن يخلص مما يشتهيه إلى ما يأمر به ربه ﷻ؛ لهذا في هذه المسألة يعظم الابتلاء، خاصة في هذا الوقت كما ترون، فمن الناس من وفق إلى اتباع سبيل أهل السنة والجماعة - أعني السلف

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٣٨٧)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣).

الصالح -، ولكنه لم يوفق إلى الطمأنينة في ذلك، فتجد في نفسه ترددًا، في نفسه نزوع تارة إلى هذا وتارة إلى هذا، ذلك لأنه لو خبر نفسه وتأملها، فكان طبيبًا في نفسه وفي قلبه، لوجد أنه تنتزع عنده نوازع يحكم فيها نفسه عن الشرع، إذا سألته عن البينة، لم يجد بينة إلا أن يجتهد في أن يجعل الدليل تبعًا لما يهواه، وأهل السنة والجماعة المتابعون للسلف الصالح هؤلاء يجعلون أنفسهم تبعًا للأدلة، أما المقالة الباطلة (نأخذ بسلفية المعتقد وبعصرية المواجهة)، فهذه المقالة قد تروج على كثيرين، وبما بينت أن المواجهة من الدين، فليس ثم مواجهة عصرية ومواجهة سلفية، المواجهة كلها يجب أن تكون على منهج السلف، ولهذا تجد أن من خالف منهج السلف في نوع المواجهة يحصل له نوع عقوبة، قال ﷻ في سورة المائدة في وصف النصارى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤].

الجماعات المنفصلة عن جماعة الإخوان المسلمين مثلًا في تفرعاتها وأشكالها ألا تجد أن بينهم شيئًا من العداوة والبغضاء؟ نعم، إن بينهم ذلك؛ بعضهم يقدح في بعض، حتى إن بعض الجماعات المنفصلة عن جماعات الإخوان، يكفر أصحابها رؤوس الأخوان لأجل دخولهم في البرلمانات ونحو ذلك، وهذا نوع من الإغراء للعداوة والبغضاء. قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى: (الفرقة سببها نسيان العباد حظًا مما ذكروا به)[(١)]، فإذا نسي العباد شيئًا مما ذكروا به بعد أن بين لهم، وكانت الحجة قائمة عليهم،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٤).

يعاقبون بأنواع من العقوبات، وأشدها وقوعًا الفرقة فيما بينهم، الفرقة التي معها العداوة والبغضاء، ولا شك أن هذا حصل في هذه الأمة في تاريخها، وحصل في هذا الزمان التفرق الذي حصل الآن في الأمة المسلمة، فهناك طائفة من الذين يدعون إلى الالتزام أو إلى عودة الحياة الإسلامية والأمة الإسلامية يقولون: لا بد من اتحاد الأمة المسلمة، اتحاد الدول الإسلامية، ونحو ذلك، أليس كذلك؟ يطلبون الاتحاد، الوحدة، وما فرق هذه الدول إلا الاستعمار، ونحو ذلك. نسألهم: تفرقتم شيعًا وأحزابًا، أليست الفرقة مذمومة؟ فهذه الفرقة التي تمارسونها في الجماعات والأحزاب أليست فرقة؟ بل هي فرقة تصرف عن الهدى أكثر من تشتيت هذه الدول عن الهدى، وهذا ظاهر سببه اتباع الهوى، سببه تزيين سوء الأعمال، سببه أن المواجهة التي يقع فيها الجميع جعلت عصرية، إذا كانت المواجهة عصرية، فإذًا طريقتي في المواجهة اجتهادية، وطريقة الآخر اجتهادية، والثالث اجتهادية فإذًا من كل جماعة لا تعجب أن تنشأ جيوب واتجاهات، لم؟ لأننا جعلنا المواجهة اجتهادية وعصرية، فإذا كان ثم ثلاثة، أربعة، عشرة يريدون رأيًا في سبيل من سبل المواجهة، وليس على هذا الرأي أهل الفرقة العصرية أو الجماعة العصرية، فلم لايجتهدون هم ويجعلون أنفسهم جماعة يرون أن المواجهة تكون على هذا المنوال؟ لماذا خصت هذه المسألة بالذكر؟ لأن في الواقع من معايشة الشباب في هذه البلاد وفي غيرها وجدت أن هذه المسألة هي أكثر المسائل التي تهز القاعدة السلفية في معتقدهم.

لا يلزمنا أن تكون مواجهتنا سلفية، هذه المسألة هي المسألة التي البلاء اليوم فيها واقع، من هم على منهج السلف انقسموا إلى فريقين: منهم من

عنده طمأنينة - والحمد لله - لما دل عليه الكتاب والسنة بالبينات بما في معتقد أهل السنة من طريقة إنكار المنكر، والكلام على منابذة أهل السنة والجماعة المتابعين للسلف الصالح لطرق الخوارج والمعتزلة في الموقف من الولاة ونحو ذلك.

وطائفة أخرى اعتراها بعض القصور، اعتراها بعض عدم الطمأنينة والقناعة بما دلت عليه البينات وما جاءت به الأدلة وما ذكره أهل السنة والجماعة في عقائدهم، فصاروا إلى ما يسمى بمسألة المواجهة، والموقف من الحكام والحكومات الكافرة أو من الولاة الذين لم يسلب اسم الإسلام واسم الإيمان منهم، ينظرون إلى أن الموقف منهم والمواجهة تكون اجتهادية، وقع في القلوب بعض الاشتباه - خاصة عندنا الشباب السعوديين -، ذهبوا مذاهب شتى، خاصة المنهج الذي يقول أو الاتجاه الذي يقول: إن المواجهة عصرية. هذه الطائفة الواقع أنهم قصروا في العلم؛ لأن الواجب أن المرء إذا كانت عنده شبهة أن يسعى في إزالتها وكشفها، لا أن يجتهد برأيه، ويخرج عما دلت عليه الأدلة من أجل رأي رآه، إذا ما زالت الشبهة في يوم أو في أسبوع أو في شهر ليس معنى ذلك أن تترك ما كنت تعلمه أنه الحق إلى أمر جديد لكثرة المتكلمين به، لا. بل الواجب أن تبقى على ما كنت عليه، إذا وقع في القلب شيء من الشبهة، يسعى إلى إزالتها، يسأل أهل العلم، إذا سأل واحدًا، ولم يكن عنده جواب شافٍ، يسأل الثاني والثالث، فلا بد أن يكون العلم النافع محفوظًا في المتابعين للسلف، إذا جهله بعضهم، فلن يجهله الآخرون.

إذًا تعرفون أن هذه الآية، وهي قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن

زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ [محمد: ١٤] تفرض علينا أن نكون ممن هم على بينة من ربهم في أمورهم جميعًا، وخاصة هذا الأمر العظيم الذي هو أمر المواجهة، في مصر تعلمون الحوادث التي حصلت، وإن كانت حوادث فردية في غالب الأحيان، اجتهادية، لكنها قد يكون ثم معجبون بها، أقول: من رحمة الله ﷻ بالسلفيين أن هيأ لهم من عنده بصيرة ومعرفة بالنصوص ومتابعتها؛ حتى لا تفاجئهم هذه الأمور؛ لأن هذه الأمور التي تحدث الزوابع السياسية أو القلاقل من بعض الإسلاميين أو المواجهات من بعض الجماعات ونحو ذلك هذه قد تكون بتوجيهات بعض الأشخاص، لكن إذا كان عند المرء من يقود قيادة سليمة صحيحة، فهذا من أنواع منة الله ﷻ عليه؛ لهذا لو كان المرء بنفسه لتخبطته الأقوال والآراء الكثيرة التي نراها اليوم؛ لهذا أوصي في آخر هذه الكلمة التي طالت بأن نكون على بينة من ربنا في جميع أمورنا، البينة قائمة، والحجج واضحة، لكن المطلوب من العبد أن يسعى لأن تكون نفسه مطمئنة؛ لأن النفس إذا كانت مطمئنة، لم يسبقه أحد، لا يمنة ولا يسرة، واليوم كثرت الأقوال، وكثرت الآراء، وكثرت الكتب، وكثرت المجلات والنشرات، وكثرت المحاضرات، وإذا سمعت لكل أحد، فمعنى ذلك أنك عرضت دينك للتناقض، كما قال عمر بن عبد العزيز: (مَنْ أَكْثَرَ الْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلَ)[1]، من أكثر الخصومات، أكثر السؤال والخصومة في المسائل، أكثر التنقل، وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا رأيت أهل الجدل، فإياك وإياهم)، قال رجل للإمام مالك: (أرأيت الرجل منا يكون على السنة، أيجادل عليها؟ قال لا، يخبر بالسنة، فإن قبلت

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٥٠٣).

منه، وإلا سكت)[1]، لم؟ لأن من ليس معه السنة لا يجادلك بالسنة، وإنما يجادلك بالرأي، بالهوى، بالعقل، والمجادلة بالرأي والعقل والهوى تغلب كثيرين؛ لأنه ليس عند أكثر الخلق من قوة العقل والإدراك ما يكون حجة عقلية مدفوعة بحجة عقلية أخرى، فلهذا يكون الأمر على الإخبار بالسنة.

في هذا الوقت مع كثرة المجادلين وكثرة الآراء يجب علينا - بعد أن منَّ الله علينا بما منَّ تكرمًا منه وتفضلًا - أن نكون على اطمئنان بما كان عليه سلفنا، على اطمئنان من عقائدهم، على اطمئنان بما ذكره وما جاء عن علمائنا ومشايخنا أو أئمتنا، وألا نخرج عنه، ولا ننصرف عنه، لا برؤية، ولا باجتهاد، ولا بعقل؛ لأن من الطريق تابعنا فيه ما أمرنا به، والمتابعة عبادة، وأصحاب الطرق الأخرى اجتهدوا، الاجتهاد في هذه المسائل مردود مذموم، إلا إذا كان اجتهادًا في مالم يرد به النص.

السلفيون يتابعون، فإنهم بإذن الله ﷻ لن يعاقبوا، قد يبتلون ابتلاء من الله ﷻ للتخفيف، ولكنهم إذا تابعوا، وحرصوا كدعوة أن يلتزموا بها، وأن يتمسكوا بعقائدها ومنهجها، فإنهم بإذن الله وبتوفيقه لن يعاقبوا، إذا ابتلوا، فلا شك أن الابتلاء قد يقع بأكمل الناس، إذا نظرت إلى غيرهم، إنهم قد خلط في حقهم بين الابتلاء وبين العقوبات، ولهذا نعود ونكرر أنه في خضم هذه الموجات العالية في هذا الوقت والاتجاهات المتباينة: الوصية الوصية بالمتابعة للمتقدمين، والوصية الوصية للحذر من المحدثات وأصحاب المحدثات، خاصة في هذا الطريق الجديد أو الكلمة الجديدة التي قيل

---

(١) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد (١/ ٣٦٥)، وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٣٦).

بها : عصرية المواجهة؛ لأنها معناها أننا إذا احتجنا في المواجهة إلى مظاهرات، لا بأس، السلف ماعملوا مظاهرات، نعمل، يعني عصرية، إذا ما خرج السلف، نخرج لأن هذا من المواجهة العصرية، الزمن اقتضى ذلك، فالأوضاع والارتباطات وواقع الدول ونحو ذلك اقتضى ذلك.

فهذه المسائل وما يدخل تبعًا لها من اجتهادات وآراء لا بد أن نكون منها على بينة.

المسألة الأخيرة: الحذر الحذر من الاستعجال، الحذر الحذر من الاستعجال؛ لأنه مما يغرى به السلفيون أنهم بطيئون، فيكون في دعوتهم أشياء. ماذا عملتم؟ ماذا قدمتم؟ كيف واجهتم هذا الطغيان؟ كيف واجهتم هذا الظلم؟ كيف واجهتم هذه الحكومات الظالمة؟ الحكومات الفاسدة التي فعلت وفعلت كيف واجهتم هؤلاء الطغاة والحكام؟... إلى آخره.

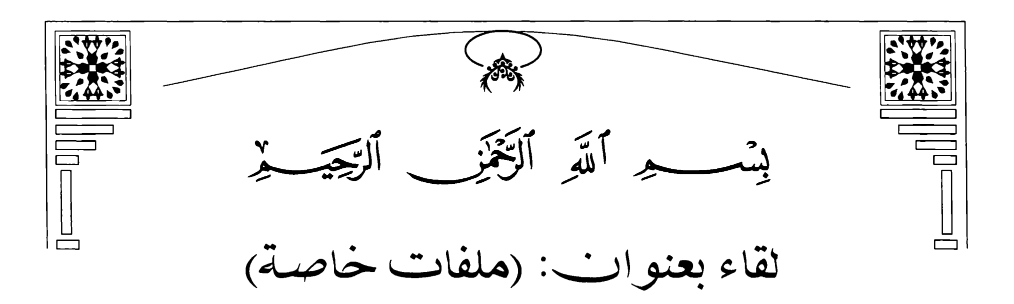
تأتي هذه الأسئلة، فيأتي كثير من السلفيين، فيحتار، أما إذا كان على طمأنينة، فعلم أن المقصود أن يكون متابعًا، المقصود أن يصل إلى الغاية، إذا كان من أصحاب الاعتقادات أو أصحاب المجادلات أو السماع، فإنه قد يغرى بهذه الكلمات؛ فإذًا الحذر الحذر من الاستعجال، فإن ميزة المنهج السلفي في ذلك الوقت أنه يسير على خطى ثابتة بدلالة من الكتاب والسنة، ليس بمنهج عجل، ولا تستخفه الحوادث، ولا يستخفه المواقف ولا التغيرات، وإنما يسير بمنهج واحد.

الدعوة السلفية تتميز بتأثيرها في الأحداث وعدم تأثرها بها، بخلاف الدعوات الأخرى، الدعوات الأخرى مواقفها منفعلة بالأحداث، خططها

المستقبلية الدعوية المرحلية تنفعل مع الأحداث بحسب ما يجد، تراهم يجددون بحسب ما يحصل، يفعلون، وهذا لاشك أنه ليس من طرق السلفيين، وبحسب ما نظن ونعتقد أن طرق السلفيين وطريق الدعوة السلفية هو الذي نمتثل فيه الأمر الذي أمرنا به، وهو أن تكون طريقتنا على المنهج الصحيح.

أستغفر الله ﷻ لي ولكم من زلل القول، وزلل العمل، وأسأله لي ولكم التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





لقاء بعنوان: (ملفات خاصة)

وقد أجري هذا اللقاء مع معاليه في قناة المجد الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها الإخوة الكرام.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأهلًا ومرحبًا بكم في لقاء متجدد في ملفات خاصة، والتي نستضيف فيها في هذا اللقاء معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.**

لنتحدث معه حول الأحداث الأخيرة، وحول موضوع مهم يتوجب علينا الحديث فيه كثيرًا وتبيين الحق فيه، فمع مطلع هذا اللقاء نرحب بكم معالي الشيخ فأهلًا وسهلًا بكم.

الشيخ: أهلًا وسهلًا بكم.

سؤال: معالي الشيخ، الأحداث الأخيرة التي حدثت في بلادنا أوجبت لنا فتح العديد من الملفات وتبيينها للناس، فأولًا هذه الأسئلة التي قد تتبادر إلى الذهن: هل هذه الأحداث وهذا العنف الذي يقع - سواء في بلادنا أو في غيرها من البلاد الإسلامية - يكون وراءه أفكار معينة، أم أنهم يهدفون

من ورائه إلى إصلاح القضايا الأخرى؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد..

فلا شك أن تاريخ الانحراف في تاريخ المسلمين قديم، هو ابتدأ في زمن النبي ﷺ حين خرج رجل يتهم النبي ﷺ بأنه لم يعدل في قسمته، آل الأمر إلى خروج طائفة تسمى (طائفة الخوارج) يتعبدون الله ﷻ بالقتال غير المشروع للمسلمين ولغير المسلمين[١]، هذه الطائفة ترمي إلى - بحسب معتقدها وحسب ظنها وحسب ما تريد - ترمي إلى إحقاق الحق، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان من ذلك قتل عثمان بن عفان وقتل علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، وهما صاحبا رسول الله ﷺ، وممن شهد لهما النبي ﷺ بالجنة، فقتلوهما، يريدون من ذلك الأجر والثواب.

فأحيانًا يأتي الشيطان إلى المتلبس بالدين الراغب في نصرة الدين، يأتيه من هذه الجهة، من جهة غيرته، من جهة ديانته، من جهة حبه للإسلام، للمسلمين، حبه لكتاب الله، فيحرفه من هذه الجهة، فيقوده إلى الغلو والانحراف.

فإذًا هذه الأحداث الأخيرة ليست جديدة في الواقع على الأمة الإسلامية وإن كانت في تصويرها وهيئتها وشكلها وعنفها فيها بشاعة كبيرة، ربما قل أن مرت على الأمة الإسلامية، لكن أساساتها، وهي الفكر المنحرف الغالي

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

الخارج عن طريقة أهل السنة والجماعة، الذي ينحو إلى التكفير، تكفير المسلمين، أو تكفير أصحاب المعاصي، أو تكفير الحكام، أو تكفير الدول، وينحو إلى الغيرة غير المنضبطة بضوابط الشرع، هذا الانحراف الكبير والجرم أدى إلى مثل هذه الأعمال الكبيرة. فنحن حينما ننظر إليها، ننظر إلى تاريخ لأمثال هؤلاء، وليست وليدة اليوم ولا البارحة.

سؤال: أحسن الله إليكم معالي الشيخ، يعني: ترون من الأسباب التي كان بسببها هذه التفجيرات هي قضية أن بعض من فعل هذا يحمل فكر التكفير يا شيخ؟

الجواب: لا شك أن الأحداث هذه سبقتها أحداث في الرياض من سبع سنوات، وقد قابلوا بعض الذين فجروا في الرياض من سبع سنوات، وبينوا أنهم يدينون بالتكفير، حتى تكفير العلماء، فضلًا عن تكفير غيرهم، هذا الأمر مستقر، وإن لم يظهروه؛ لأن كون الإنسان يقدم على مثل هذه الأعمال الإجرامية البشعة، لابد أن يكون عنده دافع يبرر له ما فعل، وهذا التبرير لا يكون إلا بتكفير الناس أو تكفير بعضهم؛ لذلك يؤول إلى عدم قبول كلام العلماء، وعدم الرضا عن المجتمع، أو الرغبة في الجهاد بحسب ظنه، الجهاد غير المكتمل الشروط الشرعية.

سؤال: وهذا ما يفسر معالي الشيخ حينما كنتم نائبًا لوزير الشؤون الإسلامية عقد دورة بعد أحداث الرياض في مدينة الرياض عن التكفير والوسطية؟

الجواب: هذا صحيح؛ لأن موضوع التكفير دائمًا متجدد في الأمة، وهو

مرتبط بفكر الخوارج على العموم، والنبي ﷺ حينما تحدث عن الخوارج قال: «**لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[1]، فظهور الخوارج ليس مقتصرًا على الزمن الأول، فلا يزالون يخرجون، لكن في أثواب جديدة، ويجمعها أنهم يذهبون إلى الغلو، الغلو في مجالات، ومنها قضية التكفير.

فمسائل التكفير هذه هي السبب الذي يقنع به الشباب هؤلاء، أو من ينحو هذا المنحى يقنع به نفسه أن تصرفه سليم، فهو ينحو إلى شيء يريد تبريرًا له، وهذا الذي نحا إليه هو من نفسية، سببها يكون إما من جهة واقع المجتمعات الإسلامية، أو تسلط غير المسلمين على المسلمين في أنفسهم أو في بلادهم، أو من حيث كثرة المنكرات الموجودة، أو من حيث تعطل بعض أنواع الجهاد، ونحو ذلك.

سؤال: أحسن الله إليكم، معالي الشيخ، مسائل التكفير هي واضحة وبيّنة في كتاب الله وسنة رسوله، وفي مناهجنا التعليمية الحديث عن هذا الموضوع وخطورته، لكن مع هذا كله وقع بعض الانحراف، إذًا ما هو السبب يا معالي الشيخ؟

الجواب: أولًا أحب أن أُقدم بأن التكفير حكم؛ لأن التكفير معناه أن تُكفر مسلمًا، والتكفير أتى في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: تكفير من كفّره الله ﷻ، أو تكفير المسلم الذي ارتد عن دينه، هذا حكمه موجود في الكتاب والسنة، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]،

---

(١) أخرجه النسائي (٤١٠٣)، وأحمد (٤/ ٤٢٤).

وقال: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، والنبي ﷺ بيّن أن من المرتدين التارك لدينه المفارق للجماعة[١].

فإذًا حكم التكفير موجود، ومنهج أهل السنة والجماعة أن الردة قد تعرض على المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إما بقول أو فعل أو اعتقاد أو شك. وهذا هو الذي دونه أهل العلم في كتب التفسير وكتب العقائد وكتب الفقه من أتباع المذاهب الإسلامية جميعًا، لكن هذا الأمر الذي هو موجود في التفاسير، موجود في الأحاديث، موجود في الشروح، وموجود في كتب الفقه، حتى لا يكاد يوجد مذهب إلا وهناك باب خاص في هذا الأمر اسمه (باب حكم المرتد).

هذا التكفير مع صعوبته وكونه من أواخر أبواب الفقه خاض فيه من لا يعرف أحكام الصلاة التفصيلية ولا أحكام الزكاة التفصيلية، وهو أصعب الأبواب من جهة الفهم وجهة التطبيق، باب التكفير على العموم لا يليه أفراد الناس، إذا كان الحكم في مسائل البيوع الموجودة في كتب الفقه يليه أو يتولاه من هو متخصص في البيوع، أحكام الشركات من هو متخصص في الشركات، أحكام الأوقاف والوصايا والمواريث من هو متخصص في الفرائض والوصايا والمواريث، الجنايات من يحكم أن هذا يُقتل، وهذا يُقتص منه، وهذا يُعطى دية وهذا. . . إلى آخره من الأحكام الشرعية من هو مختص من أهل القضاء، أو من أهل الفتوى، فكيف بالحكم على مسلم في

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٧٦).

الردة؟ لا شك أن هذا الأمر من أصعب ما يكون من جهة الفتوى ومن جهة الحكم؛ ولذلك الحكم فيه ليس للأفراد، وليس هو مما يُطالب كل مسلم أن يُطبقه أو أن يقول: أنا أحكم على فلان وفلان بحسب ما أرى، هذا مرتبط بوجود شروط وانتفاء موانع ووجود أحكام تفصيلية له، ولهذا أهل العلم يجعلون أبواب التكفير موكلة إلى القضاة فقط، وليست إلى عامة الناس، ولا حتى أفراد طلبة العلم أنه يقول فلان ارتد، وفلان خرج من دينه، أو فلان هذا كافر. . . ونحو ذلك، هذا حكم مختص بالقاضي، القاضي هو الذي يحكم أو المفتي الذي اجتمعت فيه شروط القضاء، المفتي الذي يحسن القضاء، يعني: إثبات الشروط وانتفاء الموانع.

لهذا نقول: إن التسارع الذي حصل في هذه المسائل أنا لست مع من ينفي هذا الحكم الشرعي، لا شك أن هذا خطورة أن نقول: إنه لا يوجد باب اسمه باب ردة، ولا يوجد أن المسلم ممكن يرتد، ولا يصح أن نُكفر، حتى هناك من قال: لا تكفروا اليهود والنصارى، لا تكفروا غير المسلمين !! هذا مناقضة لأحكام الله ﷻ في كتابه، وأحكام النبي ﷺ، لكن المسألة الحكم موجود في الكتاب والسنة، لكن من يلي هذا الحكم؟ أهل العلم ذكروه، من يلي هذا الأمر؟ هنا يأتي ضبط المسألة.

فإذًا: المسألة من جهة فقهية من جهة عقدية موجودة، المسألة تُعرض لها في كتب العقائد، مسائل التكفير تُعرض لها في كتب العقائد، وعرضها في كتب العقائد من جهة الاعتقاد لا من جهة الحكم؛ لأن الأحكام على الواقع هذه مرتبطة بالفقه أن تحكم على. . . ، لكن العقيدة موجود فيها بعض أحكام التكفير لتعتقدها، يعني: من الذي يكفر؟ ما الأعمال المكفرة؟ ما الأقوال

المكفرة؟ ما صفة الكفر؟ حتى يحذر منها المسلم، ويعتقد ما قاله الله ﷻ، وقاله رسوله ﷺ.

من هنا بدأ الخلل من بعد التفجيرات السابقة في الرياض التي ذكرتها، وعلى إثرها عقدنا في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد عدة محاضرات ودورات تتعلق بإيضاح مسائل الغلو والدعوة إلى الوسطية وإيضاح مسائل التكفير، ومنها الدورة التي ذكرتها في مطلع السؤال.

هذه الدورات تهدف إلى بيان ما يتصل بهذه المسألة، وتحذير الشباب من أن يتعاطوا هذه المسألة، وأنا بحكم قربي من طائفة كبيرة من الشباب وطلبة العلم من قديم أجد أن كثيرًا من الشباب يرومون الخوض في هذه المسائل، ويأنسون لها، وهذا خلاف ما يجب عليهم، الواجب عليهم أن يدخلوا ويبحثوا عن المسائل التي تنفعهم في دينهم، أما المسائل التي هي من اختصاص القضاء أو من اختصاص المفتي أو نحو ذلك ما فيه أحكام كبيرة، هذا ليس من الحسن أن يدخل فيه أفراد الناس، بل يسبب ضلالًا وانحرافًا في الطريق.

ألحظ - أيضًا - أن دخول الناس في هذه المسائل سيؤول - إذا لم يُحد منه - إلى أن يُكفر بالهوى، يعني: شخص ما أعجبه تصرفات شخص آخر، أو قال: هذا التصرف يلزم منه أنه يكره الدين، هذا التصرف يلزم منه أنه يفعل كذا، فيُكفر باللازم، وهذا وُجد في بعض البلاد الإسلامية، بعض الفئات والجماعات تُكفر باللازم، يعني يقول: يلزم من كلامه أنه يكون كذا وكذا، وكذا.

وكما يقول أهل العلم من الأصوليين وغيرهم: لازم المذهب ليس بمذهب، وناقل الكفر ليس بكافر، فقد يكون هناك بعض الكلام الذي يؤاخذ صاحبه عليه، لكن لا يبلغ به هذا المبلغ.

من المسائل - أيضًا - التي أدت إلى فكر التكفير بشكل عام الخوض في مسائل الحكم بغير ما أنزل الله، وهذا الحكم بغير ما أنزل الله معروف تفاصيل الأحكام عليه في كتب أهل العلم: في العقيدة، والحديث، والفقه، والتفسير - أيضًا -. منذ القديم تكلم فيه ابن عباس رضي الله عنهما، وتكلم فيه أئمة الإسلام، لكن الآن تجد الشباب: خمس عشرة سنة، سبع عشرة سنة، عشرين، خمسًا وعشرين سنة، ما عرفوا أحكام الفقه، ولا أحكام العقيدة، تجده أنه يجادل في مسائل الحكم بغير ما أنزل الله، فجُعلت هدفًا لإحياء قضايا التكفير عند بعض الجماعات والفئات.

سؤال: السبب معالي الشيخ؟ يعني: لماذا هؤلاء الشباب في هذا السن يتركون العلوم الواضحة البينة، ويقدمون على مثل هذه الأشياء؟

الجواب: أتصور أنا أن نفسية الشاب، وحبذا - أيضًا - في هذا المقام لو يُستعان بأطباء النفس - طبيب متخصص طبيب نفسي - في عرض وجهة النظر في لماذا يجنح الشاب إلى أصعب الأمور، إلى التكفير، إلى قتل نفسه، إلى... إلى...؟ هذه المسائل التي فيها انحراف والجرم كبير، لماذا يلجأ إليها؟ لكن أنا في تصوري من واقع التجربة أن الشاب عنده رغبة في إثبات نفسه وإثبات غيرته على الدين، وعنده رغبة في أن يقول: للصح صح وللغلط غلط بمنظوره هو، فيندفع في وجهته بأن هذا صح، وهذا غلط، يؤديه إلى أن هذا إيمان، وهذا كفر، فالشاب يريد الإثبات، يريد التميز،

فالآن تصرفات الشباب بشكل عام، حتى الشباب الذي عنده تصرفات شهوانية أو أشباه ذلك في ملابسه مثلًا، أو في سلوكه، أو في أعماله، أو في هيئاته، أو نحو ذلك، هو يبحث عن التميز، هذا صراع نفسي في ذاته، يبحث عن التميز ولفت النظر... إلى آخره، هذه قد تلبس - أيضًا - ثوب الدين، فيذهب إلى هذه المسائل الصعبة التي يبرز فيها بحسبه، وأنه يترك المسائل التي تنفعه في دينه؛ لأنها لا تبرزه، تجعله شخصًا غير صاحب رؤية مثلًا أو كذا؛ لأنه يتكلم إذا بحث عن مسائل العقيدة العامة في الإيمان وأركان الإيمان ونحو ذلك: مسائل الصلاة، العبادة، الطهارة، العبادات، أحكام بعض المعاملات، العشرة، التعامل، الاجتماعيات، البر، طريقة التعامل الصلة، الحقوق، حقوق نفسه عليه، حقوق والديه، حقوق أقاربه، حقوق ولاة الأمر، حقوق أهل العلم، حقوق المسلمين، يجد أن هذه المسائل تفرض عليه أشياء، لكن لا تعطيه تميزًا، فلذلك يجنح إلى شيء يثبت به صحة إيمانه وغيرته على الدين وصحة محبته لأهل الإسلام، فيجنح إلى أشياء صعبة مثل: قضايا التكفير، أو الجهاد الذي لم تكتمل شروطه الشرعية.

سؤال: أشرتم - معالي الشيخ - في لقائكم فيما يتعلق بالتكفير أن هناك شروطًا وموانع، يعني: كون الإنسان قد ينتقل من الإسلام إلى الكفر هذا ثابت؛ كما في كتب الفقه، لكن ما الشروط التي يأخذ بها القاضي أو الفقيه أو العالم حتى يحكم على إنسان بالكفر؟

الجواب: أولًا نعرف أن أحكام الشريعة في تحقيقها منوطة بشروط، ومنوطة بموانع، والأصوليون يجعلون من الأحكام الوضعية: السبب،

والشرط، والمانع، . . . إلى آخره، فهي مرعية في جميع الأحكام، إذا نظرنا إلى الطهارة، نقول: شروط صحة الوضوء كذا، الصلاة: شروط الصلاة كذا، النواقض في الوضوء: هذه مبطلة للصلاة في عدة أشياء، وهكذا في الحج، في الزكاة، في مسائل، حتى البيوع لها شروط، والنكاح له شروط وأركان. . . إلى آخره، فكيف هذه المسألة العظيمة مسألة إخراج مسلم من دينه، أو الحكم على إنسان بأنه ليس بمسلم، ليس بمؤمن؟ هذا ما فيه شك أنه يحتاج إلى قواعد شرعية، فالشريعة إذا كانت مسائل العبادات التي لا تؤدي إلى صراع بين الناس جعلت لها قواعد وشروط وموانع، فكيف بهذه المسألة العظيمة؟!

لهذا أهل العلم قالوا: إنه لا يحل إخراج مسلم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله من دينه إلا ببينة في الوضوح بمثل البينة التي دخل بها إلى الإسلام. هو دخل بشيء واضح: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. إخراجه من هذه الشهادة لابد أن يكون بشيء واضح في ذلك؛ ولذلك جعلوا هناك شروطًا وهناك موانع لابد من الانتباه لها.

من الشروط: أن يكون فيما أتى من قول قاصدًا للقول، قاصدًا للفعل، أن يكون عنده علم بما يقول، يعني: ما يكون - مثلًا - جاهلًا، ما يكون نشأ في مكان بعيد لا يعرف الأحكام، ما يكون عنده شبهة. أيضًا لابد من إزالة الشُبه التي عنده في الحكم عليه؛ لأن احتمال أن يكون عنده تأويل، احتمال عنده فهم خاطئ، احتمال، احتمال، احتمال. . . ، فإذا وردت الاحتمالات على قول أو فعل أو سلوك، فلابد إذًا من أن يكون هناك مرجعية أو قاضٍ يستفسر منه، أو المفتي يستفسر منه، ويجيب؛ لأن فيها إثباتًا.

كذلك أن يكون التكفير بمجمع عليه، التكفير ما يكون بالمسائل الخلافية، يعني: إذا كان هناك مسألة اختلف فيها العلماء من المسائل، شخص يقول: إن هذا الأمر مكفر، والآخر يقول: لا. ولا دليل واضح من الكتاب أو السنة ينصر أحد القولين، فإذًا المسألة صارت اجتهادية في الحكم على مسألة بالردة، فهذه لا تكفير فيها؛ لأن مسألة التكفير إخراج من الدين، فلابد أن يكون بشيء واضح مجمع عليه متفق عليه، أما المسائل المختلف فيها، فكما أنه معلوم أنه لا تكفير بذلك.

علماء الدعوة السلفية بشكل عام - خاصة فيما تأصل من المدرسة السلفية، يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والإمام محمد بن عبد الوهاب، ومن تبعهم رحمة الله على الجميع - لحظوا هذا في توسع الكتب الفقهية في أحكام الردة، فإذا نظرت مثلًا إلى كتب فقهاء السادة الحنفية، تجد أن باب حكم المرتد هناك طويل، وفيه تفصيلات، حتى إنهم يحكمون بالكفر على من صغر المصحف، فقال: مصيحف، أو صغر المسجد، فقال: مسيجد. أو قال لفظًا أو عمل عملًا يوهم أو يظن منه امتهان أو إهانة للإسلام أو عدم تعظيم الواجب.

كذلك فقهاء السادة الشافعية، كذلك فقهاء السادة المالكية، وفقهاء الحنابلة - رحمة الله على الجميع - توسعوا في أبواب الفقه في هذا الأمر، جاءت أئمة الدعوة السلفية، لحظوا هذا الأمر، وهم الآن يأتون - يعني: بعض من لا يفهم حقيقة المذاهب وحقيقة أئمة الدعوة السلفية، وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن تبعهم - يظنون أنهم هم الذين وسعوا التكفير، وفي الحقيقة هم الذين ضيقوه؛ لأنه إذا

وجدت شروطًا، تجد الذي فصّل في الشروط والموانع تجد فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى إنه نفى أن يكون هناك تكفير لمتأول، أو يكون هناك تكفير بما ليس بمجمع عليه، هنا لما جاء الفقهاء، وجعلوا من نواقض الإسلام من شك في كفر الكافر، جاء بعض الناس، وقالوا: كفر الكافر هذا يعني إذا حكمت على واحد بالكفر، وشك في كفره أحد، فالذي شك هو كافر، بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأئمة الدعوة بيّنوا أن الكافر الذي أراده العلماء بهذه اللفظة هو الكافر الذي كفره الله، وكفره رسوله ﷺ بالنص، أو كان تكفيره مما هو مجمع عليه، مما هو معروف، ومعلوم من الدين بالضرورة، أن يكون خارجًا من الملة، أما من كان اجتهاديًا الحكم عليه، أو حكم عليه البعض، وترك البعض، فهذا ما يدخل في مثل هذه القواعد.

فإذًا: علماء الدعوة ضيقوا هذه الدائرة، إذا نظرت - مثلًا - لكتاب العلامة ابن حجر الهيثمي الشافعي، وهو فقيه شافعي معروف، وله كتب مشهورة، وكان مفتيًا في مكة، له كتاب خاص بالمكفرات كبير جدًا، عنوانه: (الإعلام بقواطع الإسلام) تكلم فيه عن المكفرات وعن أنواع النواقض، لكن لما أتى علماء الدعوة، ضيقوا ذلك في المشهور، وبعد وجود الشروط وانتفاء الموانع، وذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - طبعًا ابن حجر الهيثمي في القرن التاسع الهجري، التاسع والعاشر -، بعد ذلك بينوا أن المسألة لابد أن تضيق، ليست لكل أحد.

فإذًا: موجود في تراث الفقه الإسلامي وفيما نص عليه الفقهاء موجود سعة فيما يكون به المسلم مرتدًا، جعلوا التكفير بالقول، بالفعل، بالاعتقاد،

بالشك، في أشياء كثيرة، لما أتت الدعوة السلفية، ولاحظت هذا الأمر، وكان مقصدها الأصل هو في توحيد العبادة، وتوحيد العبادة عبادة الله ﷻ وحده، عدم صرف الدعاء لغير الله ﷻ، أو الاستغاثة بغير الله، أو الذبح لغير الله، أو نحو ذلك، أتوا إلى مسائل مشابهة، فوجدوا أنه يُخشى من التوسع في هذا الأمر، وضيقوا الخناق.

بعض الأتباع نجدهم في بعض البلاد الإسلامية أو حتى هنا فيما مضى ربما نحوا إلى هذا المنحى، فيردهم أهل العلم، فلذلك أهل العلم الراسخون المتحققون بفهم الكتاب والسنة وبفهم ما كان عليه سلف الأمة لا يوسعون دائرة التكفير، بل يضيقونها؛ لأجل أن إثباتها ليس بالسهل.

سؤال: تترتب عليه أحكام؟

الجواب: تترتب عليه أحكام شرعية في إقامة الحكم عليه، وفي أحكام أهله، إلى آخره، حتى أنه وُجد من يجعل بعض المسائل الخلافية تترتب عليها الأحكام، مثلًا: مسألة ترك الصلاة، ترك الصلاة - كما هو معروف عندنا - الراجح من أقوال أهل العلم أن تارك الصلاة تهاونًا أو كسلًا أنه يكفر لأجل الحديث: «**الْعَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[1]، المسألة خلافية، فالشافعية لا يكفرونه - وهناك مناظرة -، وكذلك الحنفية وغيرهم، هنا أتى من طرد هذا الأمر إلى أن قال: من ترك الصلاة، فإنه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٧)، وابن حبان (٤/ ٣٠٥)، والدارقطني في سننه (٢/ ٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦)، وشعب الإيمان (١/ ٧٢).

ينفسخ نكاحه تلقائيًا، رتب عليه أحكامًا، وهذا ليس بجيد؛ لأن الأحكام تترتب إما بمجمع عليه، أو بحكم حاكم شرعي، بحكم قاض، هو الذي يرتب؛ لأنه ينبني على الحكم أنه لابد أن يزيل عنه الشبهة، ولذلك الفقهاء - حتى فقهاء الحنابلة رحمهم الله - حينما تكلموا عن مسألة تارك الصلاة: متى يكفر؟ ومتى يُحكم عليه؟ قالوا: يستتاب، ويُدعى إلى الصلاة، فإن أصر حتى ضاق وقت الثانية عنها، ثم قالوا: يدعوه إمام، ويستتيبه ثلاثًا، فإن تاب وإلا قُتل.

إذًا: المسألة هنا واحد يجلس ثلاثة أيام، ويقال: صل وإلا . . . ، جُليت عنه الشبهة، وليس عنده تأويل، ثم بعد ذلك صل ثلاثة أيام وإلا ترى السيف، أو أنه يُحكم عليك، ثم يختار هذا الأمر الصعب على الصلاة، فهنا يرجع إلى شيء في نفسه بيّن أنه يكره هذا الأمر أصلًا، أو يجحده، أو إنه لا شبهة عنده، وإنما هو استكبار وعدم التزام بالحكم الشرعي.

أنا أقصد من هذا المنحى أن الشروط والموانع هذه التي فصّل فيها علماء الدعوة السلفية بشكل خاص، وهم الذين بينوا الكثير من الضوابط على أحكام الفقهاء؛ ولهذا لابد من الانتباه إلى أن ما يُنسب إلى دعوة الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتي يسميها أعداؤه بالدعوة الوهابية، هذه الدعوة هي التي ضيقت ما هو موجود في كتب الفقهاء من أتباع المذاهب الأربعة، ولم توسعه في مسائل التكفير، وإنما نظرت إلى ما هو متفق عليه بين أئمة المذاهب، دون ما هو مختلف فيه.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب له رسالة في هذا الأمر، كذلك الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب له رسالة، وعلماء الدعوة بشكل عام،

وشيخ الإسلام وابن القيم - رحمهما الله تعالى ورحم علماء المسلمين جميعًا - أيضًا لهم تفاصيل في هذا الأمر.

فإذًا: هناك شروط وهناك موانع لابد من استيفائها، لا تكفير إلا بمجمع عليه، المتأول الذي له تأويل سائغ لا يُكفر؛ لأن المقابل له يرى أن فعله أو قوله أو تصرفه أنه كفر، لا.

الآن الخوارج على شدة ما قاموا به، قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقتلوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحاربوا المسلمين، وأحدثوا فتنة إلى اليوم، العلماء اختلفوا في تكفيرهم، للعلماء في تكفيرهم قولان. لما سُئل عنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، يعني: رأى التأويل الذي لديهم في هذه المسألة.

فتلخيص الكلام أن هذه الشروط والموانع لابد من وجودها، لابد من استيفاء الشروط للحكم بالتكفير وانتفاء الموانع، وهذه ليست لآحاد الناس، إنما يقوم بها القاضي أو المفتي الذي ولي القضاء، أو يصلح أن يلي القضاء.

سؤال: فيما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذكرت أنها ضيقت قضية التكفير، مع اعتنائهم الشديد بالتوحيد، ما هو السبب؟

الجواب: السبب: التوحيد تخليص النفس من عبادة غير الله عز وجل، والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله له في موضعٍ كلام، يقول حينما سُئل: هل تكفرون من يعبد البدوي، أو يعبد من هو عند قبة الكواز، أو . . . أو . . .، يعني: من يعبدون غير الله. قال: لا نكفرهم لأجل عدم وجود

من ينبههم، ونفى أن يكون حكم عليهم بالكفر. ولما سُئل: أنت تحكم على الناس بأنهم كفار وكذا؟ قال: سبحانك هذا بهتان عظيم. فهم من أهل العلم الذين جعلوا هذه الدائرة فيما نص عليه في الشرع بحكم الله ﷻ، حكم رسوله ﷺ، وما أجمع عليها أهل العلم، أما ما اختلفوا فيه، فإنهم لا يُكفرون، بل هناك مسائل أقل ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مثلًا في موضع - وأنا أطلت هنا عن الدعوة لأجل كثرة ما يقال عنها في هذا الزمن مما هو متصل بهذا الموضوع - لما أتى إلى بعض المسائل مثل: بعض مسائل التوسل بالأحياء، أو التوسل بالجاه، أو بالحرمة، أو نحو ذلك، قال: أنا ما تكلمت في هذه المسائل - في أول دعوته رحمه الله - قال: أنا ما تكلمت في هذه المسائل، أنا ما تكلمت إلا فيما أجمع علماء المسلمين على حرمته، أما المسائل المختلف فيها، فأنا ما تكلمت فيها. وهذا من فقهه رحمه الله في أول دعوته؛ حتى يبين للناس أن ليس كل ما نرومه في الدعوة أنا نقوله في كل مكان وفي كل زمان، الدعوة لابد أن تترتب بحسب فقه الأولويات، وبحسب المكان والزمان، . . . إلى آخره، فليس كل مسألة هي حق في نفسها أن تقال في كل زمان وفي كل مكان، فلابد من ترتيب الأمور.

مسائل التكفير لاشك أن الدعوة - بحكم دراستي لها ومعرفتي للدعوة السلفية - بالعموم أنها ضيقت ما في كتب المذاهب، والمجال مفتوح للباحثين والدارسين أن ينظروا إلى كتاب واحد (الإعلام بقواطع الإسلام)، أو باب حكم المرتد في كتب الحنفية - رحم الله الجميع -، وينظروا هل الدعوة وسعت أو ضيقت في هذا الصدد.

سؤال: يا شيخ، بعض الشباب يقولون: أنتم الآن تقولون لا تشتغلوا

بالتكفير وما يتعلق به، مع أن من الأشياء المقررة عندنا أنه لا يتم تحقيق التوحيد إلا بالكفر بالطاغوت، فأنا حتى يتحقق توحيدي لابد أن أكفر بالطاغوت، وأن أبين كفره للناس، فكيف الجواب عن هذا؟

الجواب: أولًا ما الطاغوت؟ هناك شيء معنوي نعبر عنه بما يناسب المقام، وهناك ذاتي.

الطاغوت هو عبادة غير الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فمن يكفر بالطاغوت، هذا معنى (لا إله)، ويؤمن بالله، هذه فيها الإثبات (إلا الله)، فمن يكفر بالطاغوت، يكفر بعبادة غير الله، يعني: لما تأتي لهذه القضية، قل: ما تقول في عبادة الأوثان؟ ما تقول في عبادة الأصنام؟ ما تقول في التوجه إلى بشر أو حجر أو جني أو إنسي بالعبادة من دون الله ﷻ؟ لابد أن نقول: نكفر بعبادة غير الله ﷻ، هذا هو الكفر بالطاغوت.

الطاغوت هذا لابد من الكفر به، هذا هو المعنوي، أو المعنى ما يُكفر به معنى.

ما يُكفر به ذاتًا: من دعا - مثل ما ذكر الأئمة، قالوا: الطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة - من دعا إلى عبادة نفسه، واحد يقول للناس: تعالوا اعبدوني، هناك من دعا إلى عبادة نفسه، أو دعا إلى عبادة غير الله ﷻ، قال: اعبدوا الصنم هذا، اعبدوا الوثن، اعبدوا فلانًا من الناس، اعبدوا الجني، . . .إلى آخره، أو من الطواغيت؛ مثلما يذكر الأئمة في هذا: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله ﷻ، أتى حاكم في بلد ما، وقال: لابد أن أمسح

آيات الربا من القرآن، يغير حكم الله، أحاديث النبي ﷺ التي تتكلم عن حرمة الزنا، أنا أريد أن أمحوها، التي تتكلم عن حرمة الربا في القرآن، ما فيه كلام في القرآن عن اليهود أنا أريد أن أحذفها، كيف؟ يخرج لنا القرآن مختصرًا؟! فهذا مغير لأحكام الله ﷻ، لاحظ كلمة مغير، مغير لأحكام الله، يريد أن يلغي حكمًا من أحكام الله ﷻ الذي هو في القرآن.

أما من يأتي، ويقول: أنا والله أعرف أن هذا حكم، لكن أنا أعمل غيره. هذا ما صار مغيرًا، ما قال: أنا ألغي هذا الحكم. يعني: هو يقول: أنا لن أغيره، هذا حكم موجود، لكن يأتي يتأول، ويقول: الزمن فيه كذا، وأنا أعلم بكذا، والظروف تقتضي أني لا أعمل بهذا، أو أن أؤجله، أو إنه صعب الآن عليّ تطبيقه أو نحو ذلك، فهذا يدخل في منحىً آخر قد يكون فيه معذورًا، وقد لا يكون معذورًا بحسب الحال.

أقصد من هذا الكلام أن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هذا عقيدة نفسية قلبية، فأنت تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره، أليست هذه أركان الإيمان؟ فإذًا الإيمان بهذه الأركان الستة يتحقق به الإيمان، فنأتي إلى الكفر بالطاغوت أيضًا هو كفر بعبادة غير الله، (لا إله) يعني: لا إله، لا معبود مستحق للعبادة إلا الله ﷻ، المعبودات كثيرة، منهم من عبد الشمس والقمر، ومن عبد الإله الفلاني والإله الفلاني، أو الشيخ فلانًا، أو حتى الأنبياء وبعض الملائكة ونحو ذلك؛ كما هو معروف في التاريخ وفي الواقع، لابد أن يكفر بكل معبود سوى الله ﷻ، بعبادة غير الله ﷻ، يعني: من أتى إلى أنه يعبد، يقال له: أن تؤمن أو تُسهل في عبادة غير الله، إذا قال لك: والله، ما في مانع، الناس

يعبدون، كل واحد ما يبغي، هنا لم يؤمن حقيقة بالله، ولم يكفر بالطاغوت والله ﷻ بيّن في كتابه هذه المسألة أتم بيان، سيما في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام، كما قال ﷻ في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]. هذا الأمر هو المنوط بكلمة التوحيد لا إله إلا الله.

سؤال: معالي الشيخ، ذكرتم في أكثر من مناسبة أنه عند الاختلاف في قضية من القضايا يُرجع إلى الأمر العتيق وإلى كلام السلف قبل أن تقع الفتنة، يعني: الشباب يدخلون في قضية الولاء والبراء، وهي جانب من جوانب التي - أيضًا - أنشأت قضية التكفير في التعامل مع الآخر، مع اليهود ومع النصارى ونحو ذلك، يعني: يكون هنا ما نرجع إلى كلام العلماء كلامًا بيّنًا وواضحًا في قضية من والى المشرك ومن والى اليهودي أو النصراني، يعني: هل بالفعل - يا شيخ - الكلام واضح وبين فيما يتعلق بمسألة الولاء والبراء؟

الجواب: الولاء والبراء قضية تحتاج إلى جلسة طويلة وإلى حلقة مستقلة؛ لأن أهل العلم يفهمون هذه المسألة بلا شك، وهي مفصلة في الكتاب والسنة وفي كلام أهل العلم، لكن الناس خاضوا فيها من قبيل الغيرة، فرأوا الواقع، فأثر الواقع عليهم، فضخموا أو اعتقدوا أشياءً أكثر مما أذن بها الشرع.

فمثلًا: مسألة الولاء والبراء هذه، الولاء ما هو؟ والبراء ما هو؟ أولًا: لفظ الولاء والبراء موجود في الكتاب والسنة؛ لأن بعض الناس يقول: إن

هذا مُحدث، جاء من الخوارج، ثم جاء في الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب. هذا موجود في الكتاب والسنة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]. الولاء والبراء موجود، لكن الولاء ما معناه؟ الولاء للدين يعني: أن تعطي محبتك ونصرتك وولاءك الداخلي لدين الله ﷻ، لله ولرسوله ﷺ، هذا أصل الدين أن تعطي ولاءك لله ﷻ، محبتك ونصرتك، ما معنى أنك أسلمت وآمنت؟ ولاؤك ومحبتك وانتماؤك لهذا الدين.

البراء: هو كرهك وبغضك لما ينافي هذا الدين من الاعتقادات الكفرية والمذاهب الكفرية والضالة، فهنا تتبرأ من عبادة غير الله ﷻ، وتوالي أو تعطي الولاء لعبادة الله ﷻ.

فإذًا: الولاء والبراء، أو الحب والبغض، أو المولاة والمعاداة، هذه ألفاظ يستعملها العلماء في هذا المقام، وهي متساوية: الولاء والبراء، الحب والبغض، الحب في الله والبغض في الله، المولاة في الله والمعاداة في الله، وهناك رسائل وكتب كثيرة في هذا الموضوع.

راجعة في الأساس إلى حب الدين وبغض الكفر، يعني عقيدة، الولاء معناه: موالاة الدين لله ﷻ، حب الله ﷻ، وحب رسوله ﷺ وبغض الكفر. يتضمن ذلك أنه يحب من أحب الله ﷻ، ويبغض من أحب الكفر ومن أبغض الله ﷻ، فيتضمن عقيدة أنك تحب الله، وتكره الكفر، تكره عبادة غير الله، أنك تحب من أحب الله ﷻ، وتكره من يكره الله ﷻ، أو يحب الطواغيت

أو عبادة غير الله ﷻ، أو ما أشبه ذلك. فإذًا هذه متضمنة.

أما مسألة الموالاة لغير المسلم هذه لها تفصيلات كثيرة، ليست كل علاقة أو معاملة مع غير المسلم أو مع اليهودي أو مع النصراني تعد موالاة، النبي ﷺ أتاه النصارى واستضافهم في المسجد، أتى اليهودي وزاره، أو قبل دعوة اليهودي في بيته، ولما مرض غلام يهودي - كان يرجو ﷺ إسلامه - زاره في بيته.

فإذًا: مسألة التعامل لها أحكامها التفصيلية.

كذلك مسألة الإجارة، مسألة أنه يعمل، أو تستأجر غير المسلم، هذه لا علاقة لها بالموالاة. من تزوج امرأة غير مسلمة - يعني: كتابية - فأحبها، علمنا من الشريعة أباحت أن يتزوج المسلم غير المسلمة بشروطها المعروفة في كتب أهل العلم، والآية في سورة المائدة كما هو معروف. هل من أحب امرأته النصرانية يعتبر مواليًا لدين النصرانية؟ أو والى النصارى أو نحو ذلك؟ لا؛ لأن هذه المسائل محبة طبيعية، عامل تاجرًا من التجار، ونفعه في بلاد من أي ملة كانت، نفعه، وصار في قلبه له شيء من المودة الدنيوية، في قلبه؛ لأنه نفعه، طبيب أنقذ بفضل الله ﷻ مسلمًا، فتعلق به، هذه مسائل التعامل ليست قادحة في الولاء والبراء، بل هذه من المقتضيات الطبيعية، لكن إذا كانت المودة راجعة للدين، فهذه هي القاعدة، يعني: يود اليهودي ليهوديته، يحب امرأته النصرانية، لا لأنها معه، أو لأنها جميلة، أو لأنها يرتاح معها، لا؛ لأنها نصرانية، لنصرانيتها. فإذًا: رجع هذا من محبة لشيء إلى محبة للدين، فهنا إذا دخلنا في الأمور الدينية العقدية، دخلنا في أمور الموالاة والمعاداة الشرعية أو الدينية.

سؤال: وهذا يفسر كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في النواقض، حينما ذكر أن من نواقض الإسلام الموالاة للمشركين ونحو ذلك؟

الجواب: هذه لها تفصيل، معاونة المشركين في كلامه في الناقض الثامن من نواقض الإسلام عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب لها تفصيل آخر، نحن قصدنا هنا التعامل، نوعية التعامل كيف تكون، هذه لا علاقة لها بالنواقض.

انظر - مثلًا - إلى قصة حاطب رضي الله عنه، حاطب لما سمع بأن النبي ﷺ سيذهب إلى مكة غازيًا، كتب بسر النبي ﷺ إلى أهل مكة، كتب بالسر أن محمد بن عبد الله ﷺ سيأتيكم، فخذوا حذركم، الآن أعد العدة سيأتيكم، هذا نوع موالاة، ما فيه شك موالاة لهم، لكن هل هذه صارت مكفرة له، أو اعتبر أعان المشركين على المسلمين إعانة كفرية؟ هنا نأتي إلى الحديث: لما أُكتشف أمره، أتى به النبي ﷺ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**يا حَاطِبُ ما هذا؟ قال: يا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إني كنت امْرَأً مُلْصَقًا في قُرَيْشٍ، ولم أَكُنْ من أَنْفُسِهَا، وكان من مَعَكَ من الْمُهَاجِرِينَ لهم قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بها أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذلك من النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بها قَرَابَتِي، وما فَعَلْتُ كُفْرًا ولا ارْتِدَادًا ولا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لقد صَدَقَكُمْ. قال عُمَرُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا الْمُنَافِقِ. قال: إنه قد شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ، فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

المسألة فيها اشتباه أن يكون لقصد الدنيا أو لقصد الدين، إذا كان هو أفشى بالسر رغبة عن الدين، أو لحماية دين المشركين، أو لحماية ملتهم، أو لحماية بلدهم، أو نحو ذلك، هذا له شأن، إذا كان له قصد أن ينقذ نفسه أو دنياه أو ماله أو نحو ذلك، فهذا له شأن، النبي ﷺ استفسر منه، فدل على أن مثل هذه المسائل - حتى في موالاة المشركين الظاهرة - تحتاج إلى استفسار، وليست كفرًا؛ كما يظن بعض الناس أن كل أنواعها كفر، لا، تحتاج إلى استفسار.

وقد نزلت فيها أول سورة الممتحنة - كما هو معروف - في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] في حاطب، فهنا الحظ في الآية أنه قال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فأثبت أن فعله نوع موالاة، ثم قال ﷻ: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تلقون إليهم، فهذا الذي فعله حاطب إلقاء بالمودة، لكن مع ذلك قال أهل العلم والمفسرون وعلماء التوحيد، قالوا: ناداه باسم الإيمان، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآيات.

فإذًا: لم يمنع هذا الفعل من بقائه على اسم الإيمان، فهو لازال مؤمنًا في ذلك؛ لأجل الاستفصال الذي استفصل منه النبي ﷺ.

فإذًا: مسائل التعامل، الولاء البراء، ما يصلح الخوض في التكفير بها؛ لأنها مسائل تفصيلية، وتنبني على مقاصد، ولابد من القصد؛ كما ذكر النبي ﷺ في قصة حاطب، استفصل منه، الاستفصال ما فائدته؟ الظاهر

معروف، الاستفصال لأجل القصد، ما الذي حملك على هذا؟ هذا سؤال عن النية والقصد في ذلك، إذا كان ينوي دفع ماله، ينوي حماية نفسه، ينوي كذا وكذا، فضعف من هذا الباب، هذا له حكم من أحكام الموالاة والمودة لا تخرجه من الدين.

سؤال: البعض - يا شيخ - يقول: إنك لو رأيت فلانًا يفعل هذا العمل الكفر، والعلماء - أيضًا - لا يشكون في أن هذا العمل كفر، ومع ذلك يقول العلماء: إن فاعل الكفر قد لا يكون كافرًا، هل هذه القاعدة على إطلاقها يا معالي الشيخ؟

الجواب: هناك ثنائية معروفة عند أهل العلم في أصول الفقه والفقه والعقائد، وهي ثنائية الكفر والكافر، الكفر والتكفير، الفسق والفاسق، البدعة والمبتدع، فليس كل من قام به الكفر كافرًا، وليس كل من قامت به البدعة مبتدعًا، وليس كل من قام به الفسق فاسقًا؛ لأن إثبات هذه الأحكام هذه قضية ثانية.

وهناك الآن قول أو فعل أو شك... إلى آخره مما يعمله الإنسان، فيقع في البدعة، أو يقع في الفسق، أو يقع في الكفر، فيكون فعله بدعة، أو يكون فعله فسقًا، أو يكون فعله كفرًا. هنا من يرتب الحكم؟ هذا يحتاج - مثلما قلنا - إلى اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، فيأتي واحد يعمل ببدعة، لكن ما يعرف أنها بدعة، أو عنده تأويل فيها، ليس مطّرحًا، تأويل قد يكون مقبولًا؛ لأن التأويلات - مثلًا في البدع - منها ما هو مقبول، ومنها ما هو مطّرح، مثل: التعريف يوم عرفة، التعريف في الأمصار، قال به بعض الصحابة، وقال به بعض التابعين، ما معنى التعريف؟ أن نجلس

في المساجد يوم عرفة، والناس في عرفة، نحرم، ونجلس في المساجد مشاركة لهم، مشاركة للحجاج، عامة أهل العلم على أنه بدعة، لكن قال به البعض مشاركة في ذلك متأولًا في هذا، لكن هو حقيقته أنه بدعة، لكن ما نحكم على من قال به من الصحابة والتابعين والأئمة أنه بدعة؛ لأجل وجود بعض الاشتباه في هذا.

مثل: قيام ليلة النصف من شعبان، عندنا الصحيح أنه لا يسوغ؛ لأنه محدث، ولم يفعله النبي ﷺ ولا الخلفاء الراشدون، لكن فعله بعض التابعين، وهنا نقول: الصحيح أنه بدعة، لكن هل كل من فعله مبتدع؟ لا.

فإذًا: هناك مسائل غير متفق عليها، التأويل فيها سائغ، وهنا يختلف الأمر، مثلًا: بعض مسائل الفسق، شخص مستديم على ترك النوافل، طائفة من أهل العلم يقولون: من استدام على ترك النوافل، فهو فاسق. كيف يستديم دائمًا على ترك نوافل العبادات، لا يصلي الصلوات الراتبة، لا يصلي الوتر، لا يصوم صيام التطوع، هو دائمًا لا يفعل أي شيء تطوعًا، بعض العلماء قال: من استدام ترك النوافل، هذا من الفسق. لكن هذا فيه نظر أيضًا، طائفة من أهل العلم يأخذون بحديث الأعرابي الذي أتى النبي ﷺ، قال لما علمه الفرائض الخمس، قال: **وَاللَّهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ولا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»**[1]، فدل على عدم اعتبار مثل هذا الكلام. طبعًا العلماء الذين قالوا بهذا الأمر يريدون التحذير من ترك النوافل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

لكن هنا إذًا ثنائية بين الفسق والتفسيق، فهناك مسائل لو نطرد فيها - نطرد يعني: نجري فيها -، أن كل ما قال فيه أهل العلم أنه كفر، فمن قام به، فهو كافر، أو أنه فسق، فمن قام به، فهو فاسق، أو أنه بدعة، فمن قام به، فهو مبتدع، هنا لم يستقم لنا شيء؛ لأجل كثرة خلاف العلماء في هذه المسائل، ولكن هنا يُركز على أشياء:

أولًا: أن يكون الكفر مجمعًا عليه، أو أن يكون الخلاف فيه مطرحًا، لا اعتبار له عند عامة أهل العلم.

الثاني: أن يكون الفسق مجمعًا عليه، أو أن يكون الخلاف فيه مطرحًا، لا اعتبار له، أو في مناقضة الدليل.

الثالث: أن تكون البدعة متفقًا عليها، أو أن يكون الخلاف فيها مطرحًا؛ لأجل عدم وجود ما يدل عليه من فعل السلف الصالح.

طبعًا ما نرى هنا ما انتشر في القرون الأخيرة من هذه المسائل، نرى في الخلاف والوفاق فيما كان في القرون المفضلة، أما ما أُحدث بعد ذلك على غير مثال سابق، فهو يدخل في حد البدعة وما شابه ذلك.

سؤال: معالي الشيخ، في التعاطي مع الأزمة أنا معي هنا فتوى هيئة كبار العلماء حول حادث التفجير الذي وقع في الرياض، ووقع عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في حينه، يقول: فإن الهيئة تقرر أن هذا الاعتداء آثم وإجرام شنيع، وهو خيانة وغدر وهتك لحرمات الدين، ولا يفعله إلا نفس فاجرة مشبعة بالحقد والخيانة والحسد والبغي والعدوان وكراهية الحياة والخير، ولا يختلف المسلمون في تحريمه. التعاطي - يا شيخ - مع

هذه الأحداث بمثل هذه الكلمات، البعض يقول: أين نحن من قول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: إخواننا بغوا علينا؟ فماذا عن هذا يا شيخ؟

الجواب: أولًا: إذا وقعت مثل هذه الأحداث ومثل هذه الجرائم، فلا يجوز أن يكون دفعها بأمر سهل لا يوازي شناعة الفعل؛ لأنه إذا صارت الكلمات التي تنكر بها على هذا الفعل أو على الفاعلين خفيفة، فإن هذا يُغري الآخرين بالتساهل في الأمر، أو يوقعهم في شبهة بأن هذا الفعل فيه تأويل، ممكن أنه يكون من جهة أخرى، فواجب أهل العلم أن يبينوا هذا العمل ومن قام به، هل هو عمل إصلاحي أو إجرامي، كونه يكون إصلاحيًّا هذا له شأن، وكونه يكون إجراميًّا هذا له شأن؛ لذلك أهل العلم فيما وقع من أحداث من قديم تجد أن عباراتهم شديدة، مثل: هذا مثل كلام مجموعة من أهل العلم في هيئة كبار العلماء، وكانت رياستها في ذلك الوقت لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله. لابد أن يكون الرد قويًا، أما الذي يأتي، ويقول: والله نحن نتكلم عن الفعل، ولا نتكلم عن الفاعل، أو نقول: إن هذه أفعال سيئة، وإن فيها اعتداء، ولكن من فعلوها يريدون الخير، ويريدون كذا. هذا ليس من طريقة أهل العلم، وليس فقيهًا ولا عالمًا من يستعمل هذا الأسلوب، وإنما هذا عنده شبهة في نفسه، فيجب عليه أن يزيل الشبهة عن نفسه أولًا، ثم يجب عليه ألا يغش المسلمين بألفاظه الهينة السهلة، هذه جريمة، ما حصل جريمة، وكما قالوا هنا: لا يفعلها إلا نفس مشبعة بأمور من الكبائر والمنكرات.

الذي حصل جمع أنواعًا من الموبقات:

أولًا: فيه قتل للنفس، قتل نفس الإنسان الذي فجر نفسه ليقتل المسلمين

ومعهم غير مسلمين، قتل نفسه لأجل ذلك، هو قتل نفسه، والله ﷻ حرّم قتل النفس، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، إذا كان هذا في الإنفاق، فكيف بقتل النفس صراحة؟ وقتل النفس: «**من قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بها في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا**»[1].

الأمر الثاني: أن في هذا الفعل قتلًا للمسلمين، وقتل المسلم كبيرة من الكبائر العظيمة، يعني: بعد الشرك بالله قتل النفس قتل المسلم، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] يقتل مؤمنًا، وهو يعرف أنه سيقتل مؤمنًا متعمدًا، فهذا ذكر الله ﷻ قال: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، هذا النوع الثاني قتل المسلمين.

الثالث: قتل لمن لا يستحق القتل شرعًا من المعاهدين، أو المستأمنين، أو أهل الذمة، أو من لهم أمان بتأمين ولي الأمر لهم، أو بتأمين المسلمين لهم، أو قدموا لغرض، والمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، فضلًا عن من أمنته الأمة، أو أمنته الدولة، أو أمنه ولي الأمر، أو جاء بكفالة، أو نحو ذلك، هذا لا يسوغ الاعتداء عليه، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»[2]، كذلك حكم المستأمن والذمي والمعاهد، فمن بيننا وبينه عهد يجب أن نوفي بالعهد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، وقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، حينما قدم هل هو قدم على أنه سيقتل؟ لو علم هذا، ما أعطانا هذا الأمر،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

لكن أعطيناه عهدًا أنه سيأتي لعمل، أو يأتي لشيء، فهو سالم، فلا يجوز لمسلم، ولا يحل له أن يخلف العهد، وخيانة العهد من خصال المنافقين، ليست من خصال المسلمين، فآية المنافق ثلاث ومنها: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»(١) فالغدر في العهد ليس من سمات المسلم، بل من سمات المنافقين.

الرابع: كذلك فيها اعتداء على أموال المسلمين، الآن هذه الأرواح التي أُزهقت، والأموال التي أُتلفت، ونحو ذلك، لمن هي؟ هي للمسلمين، في دور مستأجرة لمسلمين... إلى آخره، فأصابها ما أصابها من الدمار، وحرمة المسلم في دمه وماله وعرضه معروفة، وأكدها النبي ﷺ في خطبته يوم عرفة: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**»(٢)؛ كما في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

الخامس: كذلك فيها سلب للأمن ورفع للأمن الذي جعله الله ﷻ من مقاصد الشريعة، من مقاصد الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة تحقيق الأمن في حياة الناس، وهذه منّ الله ﷻ بها على عباده في قوله ﷻ في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، ثم جاء بالنتيجة: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فإذًا: تحقيق الأمن مقصد من مقاصد الشريعة، الشريعة جاءت لتحقيق الأمن الذي ينتج عنه عبادة الله وحده لا شريك له، وينتج عنه الخيرات،

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٢١٨) واللفظ له.

وإزالة المنكرات، وانتشار الدعوة، وانتشار الخير والإصلاح، ونماء الأمة وقوة الأمة، وما أشبه ذلك.

لهذا الحظ في قول النبي ﷺ: «**والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ ما بين صَنْعَاءَ وحضر موت، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، أَوِ الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1]، لاحظ أنه علق الأمن بإتمام الأمر: «**والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الْأَمْرَ**» النتيجة ماذا؟ هي الأمن؛ لهذا جاء حد الحرابة في الشريعة، نقول: حد الحرابة، كثير من الناس ما يفهم لماذا سمي حد الحرابة، الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية، لماذا جُعل الإفساد في الأرض، إخافة السبيل، تنظيم جماعة من الناس على فعل ما، جُعل حرابة؟ لماذا كان بنص القرآن حربًا لله ﷻ ولرسوله؟ لأنه حرب للأمن الذي هو هدف ومقصد من مقاصد الله ورسوله في إنزال الشريعة، فهو حرب للأمن، ومحاربة الأمن حرابة لمن؟ لمن جعل الأمن مقصدًا، وهو الله ﷻ ورسوله ﷺ.

فإذًا: حد الحرابة سمي حد الحرابة، يجيء واحد مثلًا في طريقك، يقول: والله، أنا أوقفت سيارة بالقوة، وأنزلت صاحبها، وضربته، وأخذت منه بعض المال، فكيف أنا أصير محاربًا لله ولرسوله؟ نقول: نعم، هو محارب لله ولرسوله؛ لأن مقصد الشريعة هو الأمن، الأمن في ماذا؟ الأمن على الناس في دمائهم، في أعراضهم، في أموالهم، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

فإذًا: هذه الأفعال الإجرامية يجب أن تُصد بقوة كبيرة جدًا: في اللفظ، وفي المعنى، وإيضاح أحكام الشريعة دون مواربة، فأنا في الحقيقة أنتقد - انتقادًا شرعيًا - بعض من تعرض لهذا الموضوع بعبارة خافتة باهتة، مثل من يقول: هذا الفعل سيئ، لكن الفاعلين متأولون، أو يقول مثل هذه العبارات الباهتة التي لا تدل على علمه بكتاب الله ﷻ وبسنة رسوله ﷺ وبقواعد الشريعة وأحكام الفقه، أو يقول: لايصلح لنا أن نستجر هذه المعركة إلى بلاد المسلمين، أو نحو ذلك من الألفاظ التي ليست ألفاظًا شرعية. هذه مسائل فيها إجرام كبير وخيانة عظيمة، مثل هذه التفجيرات وأشباهها، تكون عبارات بعض طلبة العلم وبعض الدعاة باهتة خافتة في الإنكار، هذا لا شك يغري، ولا يحقق مقصود الشارع في إنكار هذه المنكرات والموبقات العظيمة.

سؤال: معالي الشيخ، أخيرًا فيما يتعلق الآن بكلمة توجيهية للشباب، البعض يقول: هو محب لعلمائه، ولكن يقول: حينما أقرأ بعض الأشياء في الإنترنت وكتب وأشرطة ونحو ذلك، أحد الأخوة من طلبة العلم يقول: قرأت موقعًا في أحد المنتديات في الإنترنت، فأحسست بشيء في قلبي تجاه العلماء، ثم استغفر الله ﷻ. كيف يحصن الشاب نفسه، وهو يرى هذه الفتن وهذه الأحداث العظيمة؟

الجواب: أولًا: الإنترنت وسيلة من الوسائل التي حدثت كغيرها من الوسائل، فيجب أن تُستثمر في الخير، ويجب أن لا نجعلها حجة علينا؛ لأن هذه منة من الله ﷻ، من استخدمها في سيئ، فعليه وزره، ومن استخدمها في حسن، فله أجره مثل أي وسيلة من الوسائل.

ما يُنشر في الإنترنت يفتقد الكثير من الآداب الشرعية، إذا نظرت للحوار الذي يجري في الإنترنت، الواحد كونه يبدي ما في نفسه طيب، ليس فيه شيء، تبدي ما في نفسك، أو تنتقد بعض الأشياء، أو تستفسر، ولو كان الاستفسار فيه غلظة، هذا ليس فيه إشكال من هذه الجهة، لكن يتأدب بآداب الشريعة، يأتي واحد ينتقد وضعًا، لكنه يهاجم عالمًا من علماء المسلمين، أو يستعدي الناس على واقعها، أو على علمائها، أو على دولتها، أو يصم بأوصاف الكفر ونحو ذلك، هذا كله خوض في أمور بلا علم، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]، فإذا كان الذي يكتب يكتب بدون ظن منه أنه سيلقى الله ﷻ، ويحاسب على ما كتب، هذه مصيبة عظيمة، وإذا كان يكتب أو يشارك في الإنترنت، وهو يعلم أنه محاسب، وليس كحديثه مع زميل له. أنت الآن تنشر ليقرأ آلاف من الناس، أو مئات الآلاف، أو ربما أكثر، فكيف إذا كان بسبب كلمة قلت فيها: إنه حصل كذا، وهو ما حصل، أو قلت: إن فلانًا فيه كذا من الأفعال، وهو ليس فيه، أو سمعت كلامًا، ونشرته على أنه حقيقة، وأنت ما تثبتَّ منه، وانتشر بين الناس على أنه حقيقة ثابتة، مثل: ما عُزي إلي في الإنترنت وقيل: إن فلانًا - صالح آل الشيخ - يقول: لا يجوز الدعاء على اليهود والنصارى، وطنطنوا عليها، وكَفَّرُوا. هل يمكن أن يقول أحد من أهل العلم أو ممن عرف بعض أحكام الشريعة، فضلًا أن يكون عرف كثيرًا منها، وعلم كثيرًا منها، أن يقول بهذا الإطلاق: لا يجوز الدعاء على اليهود والنصارى؟ ما في أحد، والنبي ﷺ كان في آخر حياته

قال: «لَعْنَةُ اللَّهِ على الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[1]، واللعن: الطرد والإبعاد من رحمة الله ﷻ، وهو الدعاء عليهم. فنُسب هذا الأمر إليَّ، مع أن كلامي أنا في هذا الموضوع كان قبل سبع سنوات، نقله أحد من لا يفهم ويعرف هذا، نقله نقلًا خاطئًا من أحد الدروس، ثم أُوّل أو صُنف على ذلك، والكلام إنما كان في قضية - أنا أستطرد في هذا لأجل المناسبة - كان في قضية محددة، وهي: ألا نعارض حكمة الله ﷻ في وجود الكفار، وجود اليهود ووجود النصارى، ندعو عليهم مثلًا بالهلاك العام بالاستئصال، نعلم أن اليهود والنصارى سيبقون إلى آخر الزمان، فيأتي واحد، ويقول: اللهم أبدهم الآن أجمعين، أنت تعارض حكمة الله ﷻ، تعارض ما أخبر الله ﷻ في كتابه، فمن دعا بدعاء نعلم أنه مستحيل، أو أن الشرع أخبرنا بخلافه، أو نعلم أنه لن يكون، هذا اعتداء في الدعاء، من أسباب رد الدعاء.

وشيخ الإسلام ابن تيمية ذكر في الفتاوى - كما ذكره غيره - أن من أسباب الاعتداء في الدعاء ورد الدعاء أن يدعو بدعاء نعلم من الشريعة أنه ليس متحققًا.

فنعلم أن اليهود والنصارى سيبقون إلى زمن عيسى بن مريم، ويأتي واحد يدعو عليهم بالهلاك جميعًا الآن، أو يدعو على جميع الكفار الآن، أو يدعو على أطفالهم وعلى نسائهم، هذا الدعاء العام بالاستئصال والهلاك العام ليس من الشرع ولاشك، وهو اعتداء في الدعاء في هذا الأمر لمناقضته لحكمة الله ﷻ، ولما أخبر الله ﷻ في كتابه، قال سبحانه ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩).

لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١]. فسيكون، فأَوَّلوا الأمر، وصارت المسألة على أن فلانًا لا يجيز الدعاء على اليهود والنصارى بهذا الإطلاق، وجاء أناس آخرون، وعلقوا، وسبوا، وشتموا، وليس عليّ وحدي فقط، بل على كثير من أهل العلم وعلى كثير من الولاة، نُسبت أقوال أحيانًا وأفعال لم يفعلها الإنسان ألبتة، ويستغرب كيف جاء الافتراء، ثم جاء الانتشار بعد ذلك.

أيضًا هناك مسائل تتعلق بالإنترنت في آداب الحوار.

سؤال: لو سمحت يا معالي الشيخ، فيما يتعلق بالدعاء بالهلاك يبدو أن هذا هو - أيضًا - هدي السلف؟

الجواب: هذا يكاد يكون، ما أعلم أن أحدًا نص على الإجماع، لكن يكاد يكون فيه خلاف أصلًا.

سؤال: مثل اللهم عليك بكفرة أهل الكتاب؟

الجواب: هذا من الدعاء المقيد: الذين يقاتلون أولياءك ويصدون عن سبيلك.

آداب الإنترنت والنشر على الإنترنت لها آداب وأخلاق؛ لأنه حوار، والسلف وضعوا آداب البحث والمناظرة، كيف تبحث مع إنسان وترد عليه. هذا يسب هذا، وهذا يشتم هذا، بل أتوا إلى أشياء - هداهم الله - إلى أشياء شخصية، يتكلم عن الإنسان في عائلته، يتكلم عنه في بيته، طيب من تلقى كيف يثبت له أن هذا صحيح أو غير صحيح؟ والناس عندنا مولعون بشيء هو من تركيبة المجتمع العربي بعامة، مولعون بالشك، الأصل عندهم دائمًا

ليس السلامة، الأصل عندهم الشك؛ لذا يأتون يقولون واحد - والله - فعل هذا الفعل، يصدقونه؛ لأن الأصل عندهم الشك، وهذا مرتبط بالبيئة القبلية أو البيئة البدوية، أو لظروف قديمة نمت عند الناس الحذر والشك في أي تصرف من التصرفات، لكن هذا ليس شرعيًا، الأصل في المسلم السلامة. واحد يأتي ويقول قولًا في الإنترنت يتهم فيه فلانًا، أو يذكرون أشياء في الأسر، أو يتعلق... هذه أمور سيئة، أو يستخدمون الإنترنت لحوارات هابطة وسباب وشتام، هذا يترفع العاقل عنه فضلًا عن مسلم يخشى الله ﷻ ويعلم أنه غدًا سيحاسبه الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأنا أرجو أن تُخصص حلقة في قناة المجد لآداب الحوار في الإنترنت، يشارك فيها بعض المعروفين بالاهتمام بهذا المجال من طلبة العلم الشرعي أو الدعاة، كيف نحاور على الإنترنت، كيف نستثمر هذه الوسيلة، ما الأشياء التي تُنشر، والأشياء التي لا تُنشر، التحذير من اتهام الناس، الدعوة إلى الإنصاف والعدل في هذا الأمر.

مقدم البرنامج: معالي الشيخ، جزاكم الله خيرًا على استجابتكم لهذه الدعوة على كثرة أعمالكم ومشاغلكم، ونسأل الله ﷻ أن يجعل هذا في ميزان حسناتكم.

الشيخ: نشكر لقناة المجد إتاحة هذه الفرصة، ونرجو لها - إن شاء الله - التقدم المطّرد، فهي تقوم برسالة اليوم مهمة، ونشكر لكم - أيضًا - الأخ راشد لهذه النقاط المهمة التي تعرضتم لها، وأرجو - إن شاء الله تعالى - أن يكون فيما تحدثت فيه فتح لبعض الأبواب، وإلا فالموضوعات - كما ترى - موضوعات كبيرة وحية ومتوسعة، وأنا رُمتُ في الحديث أن يكون حديث

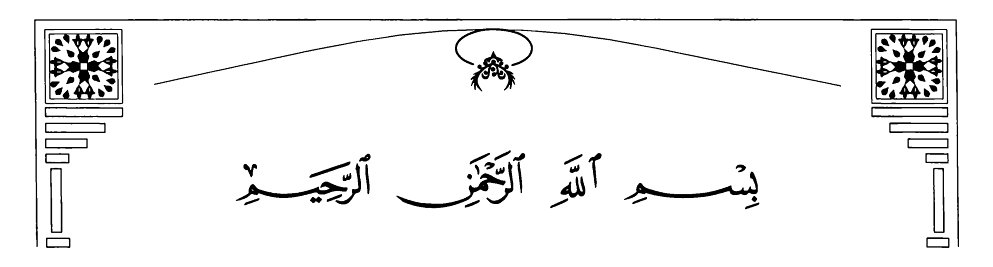
مجالس، يعني: ما كان نحينا فيه إلى نحو التأصيل الشرعي المفصل بدقة؛ لأجل أن يناسب ما يُنشر في مثل هذه القنوات، داعيًا للجميع بالتوفيق، وأن يوفق الله ﷻ ولاة أمورنا إلى ما فيه الرشد والسداد، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يوفق علماء المسلمين لنشر كلمة الله ﷻ لبيان الحق وإرشاد الناس وتبصير الجاهل، كما أسأله ﷻ لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة، ويعافى ويهدى فيه أهل المعصية، إنه سبحانه جواد كريم.

مقدم البرنامج: جزاكم الله خيرًا . . . ، أيها الإخوة المشاهدون كان معنا في هذا اللقاء معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الشيخ: **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.**

وكنا قد تحدثنا معه حول الأحداث الأخيرة وحول موضوع التكفير.

إلى لقاء قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





محاضرة: «الفتوى بين مطابقة الشرع، ومسايرة الأهواء»

قام بإلقائها في يوم الثلاثاء ١٣/٨/١٤٢١هـ

بجامع ذي النورين بحي السلام بالرياض

الحمد لله رب العالمين، هو الملك الحق المبين، يحكم فلا معقب لحكمه، ويقضي فلا راد لقضائه، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد؛ كلما صلى عليه المصلون، وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وسلم اللهم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد: فيا أيها الأخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإني لأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث هن عنوان السعادة لمن منحه الله ﷻ إياهن، كما أسأل الله ﷻ أن يعيذنا أن نُزِل أن نُزَل، أو نُضِل أو نُضَل، أو نَجْهل أو يُجهل علينا، أو نَظلم أو نُظلم، اللهم فاستجب؛ إنك سميع عليم.

أيها الإخوة، موضوع هذه المحاضرة (الفتوى بين مطابقة الشرع ومسايرة الأهواء)، وهذا الموضوع اختير منذ أكثر من أربعة أشهر أو خمسة فيما أذكر، وكان ضمن هذه الدورة المباركة، التي ينظمها المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد في هذا الحي، وهذا من الجهود المباركة أن ينشر العلم، وبث هذه المحاضرات والندوات التي تنبه، وتبين، وتعلم الناس، ولا شك أن هذا الأمر - أعني: بث العلم، وبث الدعوة، وبث الخير في الناس - يحتاجه الجميع: يحتاجه المتعلم، ويحتاجه غير المتعلم، يحتاجه الرجل، وتحتاجه المرأة، ويحتاجه الصغير والكبير، بل حتى العالم والداعية يحتاج إلى ذلك؛ لما فيه من تثبيته على الحق، وتذكيره بأمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ، فالكل بحاجة، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، فتلاوة كتاب الله، وبيان معانيه، وحديث النبي ﷺ، وبيان شرحه، وبيان كلام أهل العلم فيه تثبيت للفؤاد، إذا أخذ بحقه، فالكل ينتفع: الملقي والملقى عليه، والمعلم والمتعلم، وإذا خلصت النيات، ضاعف الله ﷻ الأجور: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وهذا الموضوع عن الفتوى بين مطابقة الشرع ومسايرة الأهواء مهم في هذا الوقت بالذات؛ لأنه كان الناس من قديم من عهد الصحابة ومن بعدهم كانوا يتورعون عن الفتوى، وينزوون عنها، ويحرص المرء إذا أفتى أن لا يسمع بفتواه إلا الواحد أو الاثنان؛ لأجل أنه تعظم التبعة بعظم انتشار الفتوى؛ لأن المفتي موقع عن رب العالمين، يعني أنه ينقل حكم الله ﷻ في المسألة التي أفتى فيها، إما بشرع منزل، وإما باجتهاد له يقول: إنه مطابق

لقواعد وأصول الشرع المنزل على نبينا ﷺ، ومن يرَ في هذا الزمان، يجد أن الناس تسارعوا، وأسرعوا في الفتيا، حتى أصبح الأمر مختلطًا أعظم الاختلاط، من جهة المفتين في العالم، ومن جهة المستفتين -أيضًا- في عدم مراعاة آداب الاستفتاء، وما ينجي المستفتي أمام ربه ﷻ في استفتائه والمفتي كما أن له شروطًا، وكما أن له آدابًا، ويجب عليه أشياء، كذلك المستفتي، فإن له وعليه، والناس اليوم ضعف عملهم بهذا الأصل العظيم؛ ولهذا تجد أن الصحابة رضي الله عنهم المقربين من رسول الله ﷺ لم يذكر الله عنهم في كتابه أنهم سألوا نبيه إلا عن نحو اثنتي عشرة مسألة، وفي السنة شيء يزيد على هذا من جهة المطابقة، وإنما كان همهم امتثال الأمر واجتناب النهي، وكانوا يفرحون أن يأتي الرجل من الأعراب ليسأل النبي ﷺ، فيستمع إلى ما يقول ﷺ، وذلك لعظم شأن هذا الأمر، وقد قال نبينا ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**»[1]، وهذا من أجله هاب الصحابة ذلك، فلذلك نقول: إن هذا الموضوع مهم فيما نرى من الشارع في الفتيا، فصار لكل قناة من القنوات الإذاعية صار لها مفتٍ وأكثر، والقنوات الفضائية صار لها مفتٍ أو أكثر، والجرائد صار لها مفتٍ أو أكثر، والمجلات صار لها مفتٍ أو أكثر، بل حتى إن المجلات التي تنشر الفسق يوجد فيها من يفتي، وهذا يبين إن الأمر جد خطير. إذا ظل الناس على هذا، فإنه سيأتي قوم يتسارعون أكثر وأكثر، فحينئذ يحل الحرام، ويحرم الحلال والعياذ بالله، وقد قال نبينا ﷺ - فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما -: «**إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[(١)]، وهذا يعني أنه يجب على طلبة العلم - بخاصة - وعلى العلماء - أيضًا - أن يبينوا للناس خطر الفتوى، وينبغي - أيضًا - عليهم أن يعلموا الناس أن لا يسرعوا في السؤال، وهم - أيضًا - أن لا يسرعوا في الإجابة؛ لأن الناس إذا رأوا المفتي يفتي في كل حال، فإنهم يحرصون على السؤال عما وقع، وعما لم يقع، وعن كل شيء، ويقع الكثير من البلبلة، وقد كان من هدي سماحة الشيخ الجد محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يفتي وهو واقف، ولا يفتي وهو في السيارة، وإنما إذا أراد أن يفتي، تربع، واستحضر واستجمع قواه، وطلب من السائل أن يلقي عليه المسألة، فأفتى، وكان المشايخ في الإفتاء يقولون عنه: إنه ربما أخر الفتوى شهرًا إذا كان لها صلة بأمر عظيم؛ حتى ينظر فيها، يستخير، وكانت بعض المسائل يريد أن يجيب فيها، فيمكث في السطر أو السطرين دقائق ليملي؛ مخافة أن يكون في لفظ منها زيادة أو نقص. وهذا على نهج السلف الصالح في هذا الأصل من التورع والتثبت في الفتيا؛ لما لها من الآثار.

الفتوى بين مطابقة الشرع ومسايرة الأهواء

ما الفتوى؟ وما الشرع؟ وما الأهواء المرادة هنا؟

أما الفتوى، فإن مدارها في اللغة وفي مصطلح أهل الأصول على أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

الفتوى تعود إلى إبانة الأمر وإيضاحه. أفتى المرء، أفتى فلان فلانًا يعني: أبان له، وأوضح الطريق أو المسألة أو ما أشكل عليه، سواء أكان ما أشكل عليه لغويًا، أو كان شرعيًا(١).

ثم في الشرع جاء هذا اللفظ ليخص بأنه إيضاح وإبانة أحكام الله ﷻ التي يسأل عنها العباد في ما وقع من شأنهم(٢).

---

(١) الفتوى لغة: اسم مصدر بمعنى الإفتاء، والجمع: الفتاوى والفتاوي.
قال ابن منظور: فتيا وفتوى؛ اسمان يوضعان موضع الإفتاء، ويقال: أفتيت فلانًا في رؤيا رآها: إذا عبرتها له، وأفتيته في مسألته: إذا أجبته عنها. يقال: أفتاه في المسألة يفتيه: إذا أجابه، والاسم الفتوى. والفتيا تبيين المشكل من الأحكام، أصله من الفتى، وهو الشاب الحدث، الذي شب وقوي، فكأنه يقوي ما أشكل ببيانه، فيشب ويصير فتيًا قويًا. انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٤)، ولسان العرب (١٥/ ١٤٨)، وتاج العروس (٣٩/ ٢١٢).
وقال الفراهيدي في كتاب العين: فقيه يفتي: أي يبين المبهم، ويقال: الفتيا فيه كذا، وأهل المدينة يقولون: الفتوى. (٨/ ١٣٧).
والاستفتاء في اللغة هو: طلب الجواب عن الأمر المشكل ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾، قال الألوسي: «أي يطلبون منك تبيين المشكل من الأحكام في النساء». (٤/ ٢٥١).
وقال القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١] أي اسألهم. انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٦٨).
وجاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: أفتاه في المسألة يفتيه إذا أجابه. والاسم: الفتوى، ومنه الحديث: (الإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك) أي: وإن جعلوا لك فيه رخصة وجوازًا. (٣/ ٧٧٨).
(٢) الفتوى اصطلاحًا عرفها العلماء بتعريفات عديدة، منها:
- قال القرافي في الفروق: «الفتوى إخبار عن حكم الله تعالى في إلزام أو إباحة». (٤/ ٥٣). =

ولهذا قال ابن فارس - مثلًا - في مقاييس اللغة: (يُقَالُ: أَفْتَى الْفَقِيهُ فِي الْمَسْأَلَةِ، إِذَا بَيَّنَ حُكْمَهَا. وَاسْتَفْتَيْتُ، إِذَا سَأَلْتَ عَنِ الْحُكْمِ، قال الله ﷻ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَيُقَالُ مِنْهُ فَتْوَى وَفُتْيَا)(١) وأفتاه في الأمر يعني: أبانه وأوضحه.

أما الشرع، فإن المراد بالشرع هنا هو: الشرع المنزل، أو ما يؤول إلى الشرع المنزل، والشرع المنزل هو الشريعة، التي أنزلها الله ﷻ على محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وهذه الشريعة هي التي شرعها الله ﷻ، وبلغها رسول الله ﷺ. فإذا كان الحكم منصوصًا عليه في الكتاب أو في السنة، فيقال هذا شرع منزل - وسيأتي تفصيل ما يترتب على هذه الكلمة -، وأما ما اجتهد فيه العلماء من مسائل، فإن اجتهاد العلماء يعود إلى الشرع المنزل فيما لم يأت دليل به، يعني: إذا كانت المسألة التي اجتهدوا فيها لم يأت دليل ينص عليها، فإن اجتهاد العالم في المسألة مطلوب؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] يعني: العلماء؛ لأن الرسول هو ولي الأمرالأكبر، والعالم وهو ولي الأمر في مسألة العلم لعلمه ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فاجتهاد العالم يقال له: شرع أيضًا. من أهل العلم من يسميه: شرع مجتهد فيه، ومنهم من يسميه الشرع المؤول بتأويل صحيح، يعني: الذي يعود إلى أصل

= - وجاء في أدب المفتي والمستفتي للإمام النووي عن ابن الصلاح قوله: «قيل في الفتيا: إنها توقيع عن الله تبارك وتعالى» (١/ ٢٤).

- وفي شرح المنتهى: «تبيين الحكم الشرعي عن دليل لمن سأل عنه» (٣٣/ ٤٥٦).

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٤٧٤).

أو قاعدة من قواعد الشرع المنزل[١].

أما الأهواء، فإن الأهواء هي كل ما أراد به المرء غير الحق، كل ما أراد به المرء ما ينصر به نفسه، أو ما يحتال به على الشريعة، أو ما يشتهيه هو ويريده في أمر الدين أو الدنيا، والأهواء كثيرة متعددة، ولذلك جمعت هنا، والشرع واحد، فالشرع يجب أن تطابقه الفتوى، أما الأهواء، فإنها كثيرة لكل قوم، ولكل فئة هوى[٢].

إذا تبين ذلك، فإن الله ﷻ نص في كتابه على كثير من أصول الإفتاء والاستفتاء، والحكم والتحاكم، وقال ﷻ في آخر سورة التوبة: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية في كتابه الإحكام في أصول الأحكام: «فبين الله ﷻ في هذه الآية وجه التفقه كله وأنه ينقسم قسمين أحدهما يخص المرء في نفسه وذلك مبين في قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ فهذا معناه تعليم أهل العلم لمن جهل حكم ما يلزمه والثاني تفقه من أراد وجه الله

---

(١) قال الخليل في كتابه (العين): «والشّريعة والشّرائع: ما شرع الله للعباد من أمر الدين، وأمرهم بالتمسك به من الصلاة والصوم والحج وشبهه، وهي الشِّرْعةُ والجمعُ: الشِّرع. ويقال: هذه شِرعُة ذاك، أي: مثله» (١/ ٢٥٣).
وفي مختار الصحاح: (الشّرِيعةُ مشْرعةُ) الْماءِ وهِي موْرِدُ الشّارِبةِ. و(الشّرِيعةُ) -أيْضًا- ما شرع اللّهُ لِعِبادِهِ مِن الدِّينِ. (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: مادة (هوى) في: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٣٧)، ومعجم مقاييس اللغة (٦/ ١٦)، ومختار الصحاح (١/ ٣٢٩)، ولسان العرب (١٥/ ٣٧٢).

تعالى بأن يكون منذرًا لقومه وطبقته قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ففرض على كل أحد طلب ما يلزمه على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه في تعرف ما ألزمه الله تعالى إياه»[١]، وقال الله ﷻ في بيان وصف نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، فدلت الآية على أن ما جاء به النبي ﷺ وحيٌ يوحى إليه، وهذا هو الشرع، وإنما يقابله الهوى؛ قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات -أيضًا-: **(فَقَدْ حَصَرَ الْأَمْرَ فِي شَيْئَيْنِ: الْوَحْيِ وَهُوَ الشَّرِيعَةُ، وَالْهَوَى، فَلَا ثَالِثَ لَهُمَا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَهُمَا مُتَضَادَّانِ، وَحِينَ تَعَيَّنَ الْحَقُّ فِي الْوَحْيِ توجَّه لِلْهَوَى ضِدُّهُ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى مُضَادٌّ لِلْحَقِّ)**[٢]، ومن الآيات في هذا الباب قول الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فأوجب على المسلم أن يسأل العالم إذا كان لا يعلم، وهذا الأمر في إيجاب السؤال يوجب أن من لم يعلم العلم المنزل أو المجتهد فيه، فإنه يجب عليه حينئذ السؤال، وقال الله ﷻ -أيضًا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فدلت الآية على أن هذا الضابط في الرد عند التنازع إلى الله ﷻ وإلى الرسول ﷺ، ودلت أولًا على أنه هو الواجب، وثانيًا: أنه مخلص للإنسان من الهوى؛ لأنه إذا تنازع الناس في شيء، فإنه تأتي الأهواء. فإذا كان الحرص على تتبع أمر الله وأمر رسول الله ﷺ، فإن

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٥/ ١٢١).
(٢) انظر: الموافقات (٢/ ٢٩١).

المسلم حينئذ يرتفع عن هواه، ويذهب إلى شرع الله ﷻ، ومن الآيات في هذا قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وهذا يبين لك شدة خطر القول: «هذا حلال، وهذا حرام» كما قد عنون في بعض الكتب، ألفت بعض الكتب بعنوان: (هذا حلال، وهذا حرام)، وهذا من أشد الأشياء أن يقال؛ لأجل أن المرء لا يجزم بموافقة حكم الله ﷻ في المسائل الاختلافية أو في المسائل المجتهد فيها.

ولهذا نقول: إن فعل السلف في هذه المسائل هو الورع، وهو الدين، في أنهم لا يقولون: هذا حلال، إلا لما اتضح دليله، وإنه حلال بدليل من أدلة الشرع، ولا يقولون: هذا حرام، إلا إذا اتضح دليله، وكثير منهم يعبر بتعبير: «أكرهه، لا أحبه» أو يقول: «لا يجوز هذا، من يفعل هذا؟ ونحو ذلك»؛ وذلك بعدًا منهم، وخلوصًا من استعمال لفظ الحلال ولفظ الحرام؛ ولهذا قال الفقهاء -رحمهم الله- في تخريج كلام الأئمة - ككلام الإمام الشافعي، والإمام أحمد ونحوهما - قالوا: «أنهم يريدون كراهة التحريم؛ لأن هذا ليس مكروهًا بمعنى أنه يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، لكنه يدخل في قواعد الشرع في أنه في تلك المسألة أنه يعاقب فاعله، لكنهم لم ينصوا على التحريم تورعًا وخوفًا من الله ﷻ»، وهذا من الأدب الرفيع، بل من امتثال الآية والخوف من الكذب على الله ﷻ، وقد قال الله تبارك وتعالى أيضًا بعد صدر الآية: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ﴾ [يونس: ٥٩ - ٦٠]، قال العلماء في تفسير هذه الآية:

«كفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يسأل من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيها وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إتقان وإيقان ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله تعالى»[1]، وهذا من شديد الوعيد: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهذا يوجب الخوف من الدخول في الفتيا في كل ما يسأل عنه الناس، وهناك غير هذه من الآيات ومن الأحاديث ما ذكرنا لك من قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ**». الحديث، وفيه -أيضًا- ما رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن وابن ماجه - أيضًا - في السنن، والدارمي، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»[2]، نسأل الله العافية والسلامة، ولقد أحسن الشعبي رحمه الله حين أجاب تلميذه داود، فقال داود: (**سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ إذا سُئِلْتُمْ؟ قال: على الْخَبِيرِ وَقَعْتَ، كان إذا سُئِلَ الرَّجُلُ، قال لِصَاحِبِهِ: أَفْتِهِمْ، فلا يَزَالُ حتى يَرْجِعَ إلى الْأَوَّلِ**)[3]، وكان عدد من الصحابة يجلسون في المسجد، فيأتي السائل، فيسأل الأول، فيقول له: اسأل فلان، فيذهب إلى الصحابي الثاني، حتى

---

(١) انظر: فتح القدير (١/ ١٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٧٥)، وابن ماجه (٥٣)، والدارمي (١/ ٢٥٩)، كما أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٣٨٤)، وأصله عند مسلم (٣) بلفظ: «**مَنْ كذب عليّ مُتعمِّدًا، فلْيتبوّأْ مقْعدهُ مِن النّارِ**».

(٣) انظر: سنن الدارمي (١/ ٦٥)، وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ٣٦٥)، والإنصاف للدهلوي (١/ ٤٧)، وقواعد التحديث للقاسمي (١/ ٣٣٦).

يذهب إلى سبعة أو أكثر، ثم يعود إلى الأول، كل واحد يحيل إلى أخيه[١].

واليوم أصبحت الفتوى مفخرة أن هذا يفتي، والهاتف لا يسكت، ويتكلم بغير إيقان ولا إتقان، وربما أفتى وهو يأكل، وربما أفتى وهو ينظر إلى شيء، أو وهو يكتب. وهذا أمر في الحقيقة يخشى على المرء فيه أن يعاقبه الله ﷻ بذهاب نور الإيمان من صدره.

قال عبدالرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: (**أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُحَدِّثُ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يُسْتَفْتَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفَتْوَى**)[٢]، وتلك كانت سنة السلف - رحمهم الله تعالى - في هذه الأصول العظيمة.

لهذا ينبغي لنا حينئذ أن نعلم أن الكتاب والسنة، وأن هدي السلف الصالح وما كان عليه أئمتنا - رحمهم الله تعالى - هو التشديد في أمر الفتوى، وأن المرء يجب عليه أن يربأ بنفسه أن يعرض دينه، وأن يعرض حسناته للذهاب بذنب يحدثه في الأمة، وكثيرًا ما نسمع اليوم بأنه يقول السائل: أنا سألت فلانًا، فأجابني بكذا، وسألت الشيخ فلانًا، فأجابني بكذا، وإذا المفتون بدلًا من أن يكونوا كذا وكذا من العدد، إذا بهم مئات في عرض البلاد وطولها، وهذا لا شك أنه يخالف الدين، ويخالف الورع؛ فالتعليم والبحث هذا شيء، وأما الفتوى، فإن المرء لا يسوغ له أن يفتي في

---

(١) انظر: (إعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم رحمه الله، فصل: كراهة العلماء التسرع في الفتوى.

(٢) انظر: سنن الدارمي (١/ ٦٥)، وتاريخ مدينة دمشق (٣٦/ ٨٦)، وإعلام الموقعين (١/ ٣٤).

كل ما يسأل، أما إذا تعينت عليه الفتوى، فهذا له بحث يأتي في موضعه - إن شاء الله تعالى -.

هناك فروق مهمة ينبغي إيضاحها، وهذا الموضوع ينبغي أن يكون علميًّا، ولغته لغة علمية؛ لأنه ليس للترغيب ولا للترهيب فقط، ولكنه علم فيه الترغيب والترهيب في هذا الأمر الجلل الخطر.

من الفروق المهمة في هذا الأمر:

أولًا: الفرق بين الفتوى والقضاء:

الفتوى باب، والقضاء باب آخر، والفرق بينهما أن القضاء يكون بين متخاصمين في إلزام أحدهما بالحق له أو لصاحبه، والذي يحكم بينهما هو القاضي، الذي نصبه ولي الأمر ليقضي بين الناس فيما اختلفوا فيه، وتشاجروا عليه.

أما المفتي، فإنه لا يلزم، المفتي يخبر بالحكم دون إلزام، ويترك العمل بالفتوى، أو عدم العمل بالفتوى؛ لما يكون من ورع المستفتي وتقواه، فلا يبحث المفتي عن حال المستفتي: هل التزم أو لم يلتزم؟ وأما القاضي، فإنه يلزم بتنفيذ الحكم بما فوضه إليه ولي الأمر.

ولهذا قال العلماء القاضي لا يصح له أن يفتي في المسائل التي يقضي فيها، يعني: أن القاضي لا يصح أن يفتي في مسائل البيوع، لا يصح أن يفتي في مسائل النكاح، لا يصح أن يفتي في مسائل الشركات، لا يصح أن يفتي في مسائل القتل، لا يصح أن يفتي في مسائل الأعراض. لماذا؟ لأن الناس إذا علموا فتوى القاضي في هذه المسائل، فإنهم يؤولون أمورهم عند الرفع

إليه وعند التنازع بما يوافق فتواه، ولهذا نص ابن قدامة في المغنى في كتاب القضاء على أن القاضي لا يفتي لكن يفتي في أمور العبادات فيما بين المرء وبين ربه ﷻ(١).

أما في المسائل التي يكون فيها خصومة، فإنه لا يفتي؛ كما أن المفتي لا يفتي في المسائل التي فيها خصومة، وأنتم تسمعون المشايخ إذا عرضت مسألة فيها خصومة، يقول واحد: أنا أختلف أنا وأخي في كذا، واختلفت أنا ووالدي في كذا، أو حصل بيننا كذا، فيقول: هذه الخصومة مردها إلى القضاء، فيحيل ذلك إلى الحاكم الشرعي، أو إلى القاضي الشرعي، أما المفتي، فإنما يتكلم في المسائل التي لا تتعدى المستفتي إلى غيره ممن له عليه خصومة، فإذا تعدت، فإن المسألة لاتكون حينئذ باب إفتاء، بل تكون بابًا آخر، وينبني على هذا تصرفات المفتي والقاضي.

لهذا بحث العلماء في مسألة مهمة في تصرفات النبي ﷺ: هل تصرفات النبي ﷺ - فيما جاءنا في السنة - هل تبنى على أنه إمام المسلمين وولي الأمر، أم تبنى على أنه قاض، ويحكم، ويلزم، أم تبنى على أنه مفتٍ، أم تبنى على أنه داعٍ إلى الرشد، أم تبنى على أنه ينصح ويرغب، فهل تبنى على هذا أو على هذا؟

وقد حقق أهل العلم الراسخون في هذا الباب أن أفعاله ﷺ وأحكامه في

(١) قال ابْنُ الْمُنْذِرِ: يُكْرهُ لِلْقاضِي أنْ يُفْتِي فِي الْأَحْكامِ. كان شُرَيْحٌ يقُولُ: أنا أَقْضِي ولا أُفْتِي. وأمّا الْفُتْيا فِي الطّهارةِ وسائِرِ ما لا يُحْكمُ فِي مِثْلِهِ، فلا بأْس بِالْفُتْيا فِيهِ.
انظر: المغني لابن قدامة (١٠/ ١١٧).

السنة تدور عليها هذه الأحوال، فتارة يلزم، أو يعمل باعتباره ولي الأمر الأعظم، وتارة باعتباره مفتيًا، وتارة باعتباره قاضيًا؛ لهذا يقول ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[1]، هنا في منصبه ﷺ في عمل القاضي، وهو نبي يوحى إليه، لكن الله ﷻ يبين لأمة محمد ﷺ أن المقام هنا ليس هو مقام إيضاح للنبي ﷺ من المصيب من المخطئ، من الذي معه الحق في الباطن، وإنما باعتباره الظاهر؛ ليكون هذا سنة لأمته، وليعمل به القضاة من بعده ﷺ، وهذا مهم في تصرفاته ﷺ وفي أفعاله، بماذا نحمل أفعاله؟ على أي باب؟ هل هو على أنه نبي يوحى إليه بالغيب، أو على أنه إمام نبي، أو على أنه مفت، أو قاض، أو داع، أو ناصح؟ يختلف باختلاف المقام، والصحابة فهموا ذلك، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، «**أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ ولا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً**»[2]، فهو ﷺ تارة ينصح ولا يلزم، وتارة يفتي، وتارة يقضي. . . إلى آخره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٧٣)، ورواية أبو دواد (٢٢٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة مغيث وبريرة أن النبي ﷺ قال: «**يا بريرةُ اتّقِي الله، فإنّهُ زوْجُكِ وأبُو ولدِكِ**»، فقالتْ: يا رسُول اللّهِ أتأْمُرُنِي بِذلِك، قال: «**لا، إِنّما أنا شافِعٌ**». الحديث.

ثانيًا: الفرق ما بين الاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهبي النسبي والتقليد[١].

القسم الأول: الاجتهاد المطلق:

هو أن يجتهد العالم في إدراك الأحكام الشرعية من الأدلة بعد معرفة الأدلة ومعرفة أصول الاستنباط واللغة، وهذا إنما هو لعدد قليل من الأئمة في الإسلام.

القسم الثاني: المجتهد المذهبي:

يعني مجتهد في مذهب، يعرف مذهبًا من المذاهب: المذهب الحنبلي، المذهب الشافعي... إلى آخره، ويجتهد في هذا المذهب، فيختار في هذا المذهب ما هو موافق للدليل، ما هو موافق لقواعد الشرع، لكن لا يخرج في أصوله عن هذا المذهب.

القسم الثالث: التقليد:

والتقليد عرفه العلماء بأنه: قبول قول الغير من غير حجة[٢]. والأول والثاني من العلماء - المجتهد المطلق والمجتهد المذهبي - هؤلاء من العلماء، وأما المقلد، وهو الذي ينقل كلام أهل العلم بلا حجة، ولا يعرف من أين أخذوا، فقد قال ابن القيم ﵀: **(قال أبو عُمَرَ وَغَيْرُهُ من الْعُلَمَاءِ: أَجْمَعَ الناس على أَنَّ الْمُقَلِّدَ ليس مَعْدُودًا من أَهْلِ الْعِلْمِ)**[٣]، يعني: الذي

---

(١) انظر مراتب الاجتهاد في رسالة (عقد الجيد) للدهلوي (١/ ٤).

(٢) انظر: البرهان في أصول الفقه (٢/ ٨٨٨)، وروضة الناظر (١/ ٣٨٢)، والمختصر في أصول الفقه (١/ ١٦٦).

(٣) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٧).

يقلد في كل مسألة، ما يعرف الأدلة، ما يعرف الاستنباط، ما يعرف الراجح من المرجوح في المذهب المعين، من أين أخذ العلماء هذه المسألة؟ ما أصول المذهب؟ ما قواعده في ذلك؟ بمعنى أنه يقبل هكذا؛ لأنه قول صاحب الكتاب الفلاني، أو نص عليه في الروض، أو في التنبيه للشيرازي، أو قاله النووي في المجموع، فهؤلاء نصوا على ذلك.

أما إذا اجتهد في مذهب من المذاهب، فهذا يقال له: مجتهد نسبي. إذا كان كذلك، فالمقلد ليس بعالم، فليس للمقلد أن يفتي، أما المجتهد المطلق، فهذا بلا شك له حق أن يفتي لما معه، وأما المجتهد النسبي أو المذهبي، فإنه يفتي، ويجب عليه أن يتحرى الحق الموافق لمطابقة هذه الفتوى، ولا يثق بأول خاطر بأن هذه المسألة نصوا عليها - مع سعة الوقت للفتوى -، ويستعجل في الإفتاء، بل يجب عليه أن يتأنى، فإذا استبان له، وتحقق في المسألة بإتقان وإيقان، فإنه حينئذ يبين ذلك لمن سأله إذ أراد ذلك.

ثالثًا: الفرق ما بين ترك الفتوى والسكوت عن الحق:

لا شك أن الصحابة لم يسكتوا عن حق تعين، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم تركوا الفتوى؛ طلبًا للسلامة، والفرق بينهم أن ترك الفتوى عند عدم تعين الإفتاء فيها هذا يقتضيه الورع، وهذا هدي السلف الصالح، أما إذا تعينت عليه، بحيث أنه عنده علم، وإذا لم يفتِ، فإنه يؤول المستفتي إلى الجهل، أو إلى الأخذ بالهوى، أو بالرأي، أو نحو ذلك، أو يسأل من لا علم عنده، فحينئذ يلزمه أن يفتي؛ لأنه تعين عليه ذلك، أما السكوت عن الحق، فإن

هذا مرتبط بسعة الوقت، ومرتبط بالإمكان والمصالح التي يراها والمفاسد، وفي الجملة فإن كتمان العلم وتأخير البيان عن وقت الحاجة هذا سكوت عن الحق في وقته، وهذا يختلف عن الفتوى، فليس لأحد أن يسكت عن بيان الحق باللسان بالأسلوب الشرعي، الذي أمر الله ﷻ به في كتابه وسنة نبينا ﷺ في نحو قوله: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ شَرْطٍ**»(١)؛ كما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة عتق بريرة المعروفة.

قواعد في الفتوى

القاعدة الأولى: لا اجتهاد مع النص. والعلماء نصوا على هذه القاعدة في كتبهم، وبينوا أن النص إذا ورد، فإنه ليس للعالم أن يجتهد؛ لأن الله ﷻ قد حكم فيها، وحكم فيها نبيه ﷺ، حينئذ لا قول لأحد بعد ورود قول الله تعالى أو قول رسول الله ﷺ؛ ولهذا تكلم ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» أو «معالم الموقعين عن رب العالمين» يعني: معالم على طريق الإفتاء للذين يوقعون ويفتون عن رب العالمين، تكلم عنها بكلام طويل في هذا الكتاب(٢).

ومن فروع هذه القاعدة أنه لا يجوز الفتوى على خلاف النص، وهنا نجد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٧٩) فصل: الإفتاء في دين الله بالرأي.

أن هناك اجتهادًا مع النص عند كثير من المنتسبين للعلم والاجتهاد، إذا ورد مع النص، فله أحوال.

الحالة الأولى: أن تكون المسألة المنصوص عليها هي عين المسألة المسؤول عنها، فحينئذ لا يجوز الاجتهاد مع النص في ذلك، مثلًا: هل المجلس فيه خيار؟ يعني: إذا باع الإنسان بيعًا، فهل له خيار المجلس؟ فهل يجتهد أم لا يجتهد؟ نقول هنا: النبي ﷺ نص، فقال: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا**»[١]، نأتي لهذا الحديث بتمثيل آخر في أن بعض العلماء اجتهدوا مع ورود النص، فقالوا: لا خيار في المجلس. لماذا؟ قالوا لأن قوله هنا ما لم يتفرقا ليس المقصود به التفرق في المجلس، ولكن التفرق في القول بإمضاء المشتري شرائه وإمضاء البائع بيعه، وهذا مذهب الإمام مالك رحمه الله[٢]، حتى أن ابن أبي ذئب رحمه الله - وكان بينه وبين الإمام مالك بعض ما يكون بين بعض العلماء - سُئل عن هذه المسألة، وقول مالك في إنكاره مجلس الخيار - والإمام مالك هو من هو -، فقال: (يستتاب مالك فإن تاب وإلا ضربت عنقه)[٣]. وهو الإمام مالك رحمه الله، ولا يريد بهذا إلا أن يشنع على الذين يخالفون النص؛ لأن النص أعظم من شأن العالم، والعلماء عدوا هذه من ابن أبي ذئب من عباراته التي لا تسلم له.

المقصود هنا أن الاجتهاد مع النص إذا كانت المسألة عين المسؤول

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، واللفظ له، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه

(٢) انظر: المدونة (٣/ ٢٢٢)، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد (٣/ ٢٢٥)، والفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/ ٨٣).

(٣) انظر: العلل ومعرفة الرجال (١/ ٥٣٩)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٥٦)، والمغني (٤/ ٥)

عنها موجودة في النص، فلا يجوز الاجتهاد، أما إذا كان النص محتملًا للاجتهاد، فحينئذ يكون الاجتهاد ليس في المسألة، ولكن الاجتهاد في فهم الدليل، وهذا له بحث آخر.

القاعدة الثانية: لا إنكار في مسائل الاجتهاد[(١)]. العلماء نصوا في قواعد هذا الباب على أن مسائل الاجتهاد لا إنكار فيها. وتشتبه هذه القاعدة بقاعدة أخرى، وهي لا إنكار في مسائل الخلاف، وهنا تحتاج هذه إلى شيء من التفصيل: أما مسائل الاجتهاد، فلا إنكار فيها، بمعنى أن المسألة لم يرد فيها دليل من الكتاب أو السنة، لم ينص فيها على شيء، ونزلت نازلة، واجتهد العلماء فيها، فهنا لا ينكر على المجتهد في هذه المسألة، لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

أما مسائل الخلاف، فمن أهل العلم من قال: لا إنكار في مسائل الخلاف، وهذا ليس بجيد، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية وبين تلميذه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن هذا قول من لم يحقق[(٢)].

وأما أهل التحقيق والدراية بكلام أهل العلم في الفتوى والحكم والاجتهاد والمسائل والخلاف العالي والنازل، فإنهم يقولون: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، أما مسائل الخلاف، فهي التي اختلف فيها العلماء، والعلماء اختلفوا في مسائل كثيرة جدًا، والمسائل المجمع عليها قليلة، أما المسائل المختلف فيها، فهي بالألوف؛ كما هو معلوم لمن يعلم الخلاف

---

(١) انظر: شرح منتهى الإرادات (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٨١)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٨).

العالي، فضلًا عن الخلاف النازل. فهل يقال: لا إنكار في مسائل الخلاف؟ نقول: المسألة فيها تفصيل، والخلاف على نوعين:

★ **الخلاف القوي**: وهو ما كان قائل هذا القول له فيه شبه من الدليل، لكنه اجتهد في فهم الدليل، ولاجتهاده مساغ، فخالف، فهذا نقول: الخلاف فيه قوي، فمثلًا زكاة الحلي: هل تجب زكاة الحلي أو ما تجب زكاة الحلي؟ واحد قال: أقول لأهلي لا تجب الزكاة، والآخر يزكي، والدليل فيها كذا. هٰذه مسألة الخلاف فيها قوي؛ فلذلك لا إنكار فيها.

مثلًا: مسألة قراءة الفاتحة للمأموم وراء الإمام في الصلاة الجهرية، واحد يقرأ، والآخر لا يقرأ، هل نقول لمن لا يقرأ: أعد صلاتك؟ وقراءة الفاتحة ركن على القول الآخر، نقول: لا، هذه من المسائل التي الخلاف فيها قوي؛ ولهذا لا إنكار فيها، وهكذا في مسائل كثيرة.

★ **الخلاف الضعيف**: المسائل التي الخلاف فيها ضعيف، فيها خلاف، ولكنه ضعيف، مثل: استماع المعازف، يعني: الإنصات إليها، ولا تقل سماع المعازف، فهناك من قال من التابعين وممن بعدهم بجواز ذلك، وذهب إليه بعض المشهورين، وابن حزم وجماعة، وكتب بعض أهل العلم في نصرة هذا القول، لكن هذا القول، وإن كان خلافيًا، لكنه خلاف في معارضة الدليل، والأدلة واضحة في تحريم هذا الأمر، فحينئذ نقول: الخلاف في هذه المسألة ليس قويًا، بل هو خلاف ضعيف، وفيه إنكار. ومنه كشف وجه المرأة (السفور) إذا كان يفضي إلى الفتنة، فإن العلماء أجمعوا على أن وجه المرأة إذا كان فيه جمال، أو أنه يفضي إلى تعرض

الناس لها، أو تعرض الفسقة لها، أو التلذذ بهذا النظر، فإنه لا يجوز لها الكشف. هذا باتفاق أهل العلم، إلا من شذ، فقال: الأصل فيه أنه يجوز كشفه. فنقول هنا: هذه المسألة لا يقال فيها: لا إنكار في مسائل الخلاف؛ لأن الخلاف فيها ضعيف، لأن كشف الوجه إذا كان سيفضي إلى شهوة، أو إلى فتنة، أو إلى تعرف عليها، أو إلى شيء من المفاسد، فإنه حينئذ لا ينبغي أن يجعل الخلاف فيه قويًا، أو أن الخلاف فيه معتبر، بل يجب أن ينكر في مثل هذه المسائل؛ لأنه يفضي إلى الفتنة.

القاعدة الثالثة: أن الشريعة - قاعدة كلية أجمع عليها العلماء - جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها[1].

الشريعة جاءت بتحصيل المصالح، كل مصلحة في دين الناس أو في دنياهم، فإن الشريعة جاءت بها، وكل مفسدة في دين الناس أو في دنياهم، فإن الشريعة جاءت بالنهي عنها، وأصول الشرع وكليات الشرع الخمسة تعود إلى هذا، سواء كانت هذه الكليات راجعة إلى الضروريات، أو راجعة إلى الحاجيات، أو إلى التحسينات؛ كما هو التقسيم المعروف في هذا الباب.

فإذا كان كذلك، فإن الفتوى يجب أن تعمل هذه القاعدة في أن الفتوى مرتبطة بأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح، فيكون المفتي إذا أفتى ينظر بأن الفتوى تحصل المصلحة، وتدفع المفسدة.

مثلًا: هناك من يقول - وهذه أحد الفتاوى الموجودة، وهذا يعظم إذا

---

(١) انظر: الاستقامة (١/ ٢٨٨).

كانت الفتاوى في العقيدة في عدم رؤية المصالح والمفاسد، أو كانت المسألة في أمر يترتب عليه حد من الحدود، أو كبيرة من الكبائر - قال قائل من أهل هذا الزمان في غير هذه البلاد: إن الرجل إذا وضع على ذكره عازلًا يمنع الحمل، فحينئذ يكون جامع المرأة بحائل، والعلماء نصوا على أن جماع المرأة بحائل أنه لا حد فيه، وهذه لا شك أنها فتوى أو حكم باطل؛ لأنه يفضي إلى مفاسد، جاءت الشريعة بصدها، مع أنه في مبناه ليس على فهم لكلام أهل العلم - تفصيل الكلام في هذه المسألة يطول -، لكن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، فإذا قيل بهذا: فإنه مع منافاته لحقيقة الزنا؛ لأن الزنا هو التلذذ بالجماع في الفرج، وهذا حصل، فإنه - أيضًا - يفضي إلى ما لا حد له من المفاسد والاستحلال، والعياذ بالله.

أيضًا إذا كانت المسألة متعلقة بالعقائد، أو كانت المسألة متعلقة بعالم من أهل العلم في الفتوى في شأنه بأمر من الأمور، فإنه هنا يجب النظر في ما يؤول إليه الأمر من المصالح ودفع المفاسد؛ لهذا ترى أئمة الدعوة -رحمهم الله - من وقت الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن - أحد الأئمة المشهورين - إلى وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله إذا كان الأمر متعلقًا بإمام أو بعالم أو بمن له أثر في السنة، فإنهم يتورعون، ويبتعدون عن الدخول في ذلك، مثاله: الشيخ صديق حسن خان القنوجي الهندي المعروف، عند علمائنا له شأن، ويقدرون كتابه (الدين الخالص)، مع أنه نقد الدعوة في أكثر من كتاب له، لكن يغضون النظر عن ذلك، ولا يصعدون هذا؛ لأجل الانتفاع بأصل الشيء، وهو تحقيق التوحيد ودرء الشرك.

المثال الثاني: الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني المعروف، صاحب كتاب سبل السلام وغيره، له كتاب (تطهير الاعتقاد)، وله جهود كبيرة في رد الناس للسنة والبعد عن التقليد المذموم والتعصب والبدع، لكنه زل في بعض المسائل، ومنها ما ينسب إليه في قصيدته المشهورة، لما أثني على الدعوة، قيل: إنه رجع عن قصيدته تلك بقصيدة أخرى يقول فيها:

رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي[(١)]

يعني به الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويأخذ هذه القصيدة أرباب البدع، وهي تنسب له، وتنسب - أيضًا - لابنه إبراهيم، وينشرونها على أن الصنعاني كان مؤيدًا للدعوى، لكنه رجع.

والشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ مقامه -أيضًا- معروف، والشوكاني له اجتهاد خاطئ في التوسل، وله اجتهاد خاطئ في الصفات، وتفسيره في بعض الآيات فيه تأويل، وله كلام في عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس بالجيد، وله كلام في معاوية ليس بالجيد، لكن العلماء لا يذكرون ذلك، وألف الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه (تبرئة الشيخين الإمامين)، يعني به: الإمام الصنعاني، والإمام الشوكاني، وهذا لماذا؟ لماذا فعلوا ذلك؟ لأن الأصل الذي يبني عليه هؤلاء العلماء هو السنة، فهؤلاء ما خالفونا في أصل الاعتقاد، ولا خالفونا في التوحيد، ولا خالفونا في نصرة السنة، ولا خالفونا في رد البدع، وإنما اجتهدوا، فأخطؤوا في مسائل. والعالم لا يتبع بزلته، كما أنه لا يتبع في زلته فهذه تترك، ويسكت عنها، وينشر الحق، وينشر من كلامه مما يؤيد به.

---

(١) انظر: موسوعة مواقف السلف (٨/ ٥٧٤)، وعلماء نجد (٦/ ٤١٧- ٤١٨).

وعلماء السنة لما زل ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في مسألة الصورة - كما هو معلوم -[(١)]، ونفي إثبات وصف صفة الصورة عن الله ﷻ، رد عليه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في أكثر من مئة صفحة. مع ذلك علماء السنة يقولون عن ابن خزيمة: إنه إمام الأئمة، ولا يرضون أن أحدًا يطعن في ابن خزيمة؛ لأجل أن له كتاب التوحيد، الذي ملأه بالدفاع عن توحيد الله رب العالمين، وإثبات أنواع الكمالات له ﷻ في أسمائه ونعوت جلاله ﷻ، وتقدست أسماؤه، والذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في سير أعلام النبلاء قال: وزل ابن خزيمة في هذه المسألة[(٢)].

فإذًا: هنا إذا وقع الزلل في مثل هذه المسائل، فما الموقف؟ الموقف أنه ينظر إلى موافقته لنا في أصل الدين، وموافقته للسنة، نصرته للتوحيد، نصرته لنشر العلم النافع، ودعوته إلى الهدى، ونحو ذلك في الأصول العامة، وينصح في ذلك وربما رد عليه على حدة، لكن لا يقدح فيه قدحًا يلغيه تمامًا، وعلى هذا كان منهج أئمة الدعوة في هذه المسائل كما هو معروف.

وقد حدثني فضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان - حفظه الله تعالى - حينما ذكر قصيدة الصنعاني الأخيرة (رجعت عن القول الذي قلت في النجدي)، التي يقال: إنه رجع فيها، أو أنه كتبها. قال سألت شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ عنها: هل هي له، أو ليست له؟ فقال لي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) وهو قوله ﷺ: «**خلق اللَّهُ آدم على صُورتِهِ**»، أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥. ٣٧٣).

الظاهر أنها له، والمشايخ - مشايخنا - يرجحون أنها له، ولكن لا يريدون أن يقال ذلك؛ لأنه نصر السنة، ورد البدعة، مع أنه هجم على الدعوة، وتكلم في هذه القصيدة في الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

والشوكاني له قصيدة أرسلها للإمام سعود، ينهى فيها عن كثير من الأفعال: من القتال، ومن التوسع في البلاد، ونحو ذلك. لكن مقامهم محفوظ، لكن ما زلّوا فيه لا يتابعون عليه، وينهى عن متابعتهم فيه.

فإذًا: الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وهذه القاعدة المتفق عليها لها أثر كبير، بل يجب أن يكون لها أثر كبير في فتوى المفتي، وفي استفتاء المستفتي.

وإذا نظرنا إلى أن الحكم عند الله ﷻ واحد، ومع ذلك الخمر تأخر تحريمها، والزنا تدرج الرب ﷻ في تحريمه في جملة أحكامه، والخمر صار فيه تدرج، مع أن الحكم عند الله ﷻ أنه حرام، وأنه محرم في الإسلام، لكن لم يأت الناس دفعة واحدة؛ لأجل مراعاة تحصيل المصالح ودرء المفاسد.

فالنبي ﷺ - كما روى البخاري في (الصحيح) - قال لعائشة رضي الله عنها: **«أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ»**[1]، يريد به أنه لا تتحمل عقولهم أن تهدم الكعبة، وأن يعاد بناؤها، مع أن إعادة بنائها على قواعد إبراهيم هو، الأفضل وهو إرجاع الأمر إلى ما كان عليه، لكنه ترك ذلك ﷺ؛ رعاية

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

للمصالح، ودرءًا المفاسد، وبوب عليه البخاري رحمه الله بقوله - وهو الفقيه الإمام -: (**بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ، مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ، فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ**)(١)، يعني: أن يكون هناك اختيار. المفتي يعلن أو لا يعلن، يفتي، أو لا يفتي إذا خشي أن يقصر فهم الناس عن الفتوى، أو ألا ينزلوها على فهم المفتي، أو أن تحدث من الأضرار أكثر من مصلحة الفتوى، فإنه يترك الاختيار؛ حتى لا تحدث الفتوى ما تحدث، واليوم تسمعون كيف أن بعض المفتين يتكلم في كل مسألة دون نظر، يأتي مستفتٍ من أمريكا، يمكن في بلد لا تعرف الإسلام، ويسأل على الهواء في بلد في الخليج، الواقع يختلف، والزمان مختلف، والشخص مختلف، والحال مختلفة، ويأتي المفتي، ويفتي، فتعلن الفتوى على الجميع، والفتوى غير الحكم، الحكم هذا واحد، لا يتغير، لكن الفتوى تتغير بتغير المكان والزمان؛ ولهذا تجد الإمام الشافعي رحمه الله لما ذهب إلى مصر من بغداد رجع عن بعض أقواله، وهناك فقه الشافعي القديم، وهناك الفقه الجديد.

الحنفية لهم - أيضًا - في أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء، الإمام أحمد له في بعض المسائل أربع روايات، وفي بعض المسائل خمس روايات. الفتوى تختلف والحكم واحد، فإذًا لا يقال: إن كل فتوى حكم. الفتوى تتعلق بالشخص، وتتعلق بالزمان، وتتعلق بالمكان، وتتعلق بالمصالح والمفاسد

من أمثلة ذلك: خذ مثلًا لو أن سائلًا سأل في بلد من بلاد الغرب: هل لي أن أتزوج امرأة، وأنوي إذا انتهت هذه المدة سنة أو ستة أشهر أو كذا أني

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١/ ٢٠٥ فتح).

أطلقها، هل لي أن افعل ذلك؟ فينظر المفتي في حاله، فإذا به شاب، وإذا به متدفق، إذا أغلقت عليه هذا الباب - وإن كان الاختيار عدم ذلك -، فإنه قد يؤول إلى الزنا. ولا شك أن هذا بالإجماع أخف، فيفتي هذا بما يناسبه في شخصه وزمانه ومكانه، فذهبت بعض الصحف والمجلات، فأعلنت الفتوى للناس جميعًا؛ فهذا فيه مشابهة للمتعة المحرمة بشكل أو بآخر، مع أن العلماء نصوا على أن نية الطلاق في العقد غير مؤثرة، لكن الناس لا يفهمون من الفتوى حدود ما يفهمه المفتي؛ ولهذا يجب أن يراعي المفتي المصالح، ويدرأ المفاسد بجميع الاعتبارات في ذلك.

القاعدة الأخيرة:

الشريعة يسر؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ...**»[1]، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ونحو ذلك من الآيات، فالدين يسر، هذه القاعدة حق، لكنها استخدمت في غير الحق، (الدين يسر) ما معناه: معناه أن تشريع الإسلام يسر في الأحكام، يعني: ما نص الله ﷻ عليه: تشريع الصلاة، تشريع الوضوء، تشريع الصيام، تشريع الزكاة. الزكاة ٢,٥ %، هذا يسر، ما كلفنا عشرة ولا عشرين في المئة من المال، هذا يسر، الصيام شهر في السنة يسر، صلاة الجمعة مرة في الأسبوع، الصلوات خمس في اليوم، وليست في الخمسين، هذا يسر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

إذًا معنى القاعدة أن الشريعة مبنية على اليسر.

الأمر الثاني: أن المجتهد في المسائل التي لا نص فيها إذا صار هناك وجهان للقول، فإنه ينبغي له أن يختار أيسرهما؛ لأن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا[١]، أما إذا اتضحت المسألة، فليس له الخيار: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إذا كان كذلك، فهذه القاعدة أعملها السلف في شرح أحكام الإسلام، وأعملها السلف في المسائل الاجتهادية، إذا نزلت نازلة، نظروا: هذه فيها تضييق على الناس، وهذه فيها سعة، اختاروا ما فيه السعة.

من القواعد التي اختارها الشافعي رحمه الله، ووافقه عليها جمع من أهل العلم أن الأمر في الشريعة إذا ضاق اتسع وإذا اتسع ضاق[٢]. معنى ذلك: أن المجتهد ييسر في الأمر، وقد قال سفيان الثوري رحمه الله - فيما ذكره عنه النووي وجماعة - قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَنَا الرُّخْصَةُ مِنْ ثِقَةٍ، فَأَمَّا التَّشْدِيدُ فَيُحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ**»[٣] هذه الكلمة استغلها بعضهم في أن التيسير والترخيص في كل شيء، وهذا ليس بجيد لماذا؟ لأن التشديد يحسنه كل أحد، يعني: إذا اشتبه

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) عنْ عائِشة رضي الله عنها أنّها قالتْ: «**ما خُيِّر رسُولُ اللّهِ ﷺ بيْن أمْريْنِ إِلّا أخذ أيْسرهُما، ما لمْ يكُنْ إِثْمًا، فإِنْ كان إِثْمًا كان أبْعد النّاسِ مِنْهُ، وما انْتقم رسُولُ اللّهِ ﷺ لِنفْسِهِ إِلّا أنْ تُنْتهك حُرْمةُ اللّهِ، فينْتقِم لِلّهِ بِها**».

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي (١/ ٨٣).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٨٤).

على الواحد شيء، يقال: لا، اتركه، ما يصلح، لا تأتِ. هذا يحسنه كل أحد، والمرء قد يتورع في نفسه، لكن فيما يفتي به الناس، ينبغي أن ينظر إلى ما ينبغي شرعًا، وأن لا يشدد على الناس في نفسه، قد يختار الأشد تورعًا أو بعدًا إلى آخره، لكن فيما يفتي به للناس ييسر عليهم في المسائل الاجتهادية، قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَنَا الرُّخْصَةُ مِنْ ثِقَةٍ، فَأَمَّا التَّشْدِيدُ فَيُحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ**»؛ لأن الفقيه يعلم كتاب الله ﷻ، ويعلم سنة رسوله ﷺ، يعلم كلام أهل العلم، فيعلم أن هذه الرخصة لا تخالف الكتاب، ولا تخالف السنة، ولا تخالف ما أجمع عليه أهل العلم، حينئذ التيسير فيه مدعاة.

فإذًا التيسير أصل من أصول الشريعة، في تشريعات الشريعة كلها يسر، والشريعة شملت أحكامها كل ما يحتاجه المكلف، فإذًا هي يسر في نفسها، وإذا كان الأمر باجتهاد، فإن المفتي ينبغي له أن يختار اليسر.

ما يلزم المفتي أن يتصف به

إذا بينا هذه القواعد والأصول العامة، صفة المفتي ما هي؟ ما الذي يجب على المفتي أو ينبغي له أن يتصف به؟ لم أجد أحسن من كلام ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين عن رب العالمين)، قال «**قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ ابْنِهِ صَالِحٍ عَنْهُ: يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ إِذَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الْفُتْيَا**[1] **أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِوُجُوهِ الْقُرْآنِ، عَالِمًا بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ عَالِمًا بِالسُّنَنِ، وَإِنَّمَا جَاءَ**

(١) قال معالي الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله -: انظر إلى تعبير الإمام «حمل نفسه على الفتيا» يعني: تجرأ وفعل وكان ينبغي له أن لا يحمل نفسه.

خِلافُ مَنْ خَالَفَ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِصَحِيحِهَا مِنْ سَقِيمِهَا»[١]، وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الفقيه والمتفقه»، وقد عقد أبوابًا وفصولًا في صفة المفتي والمستفتي والفتوى، وهي فصول حسنة، قال ما حاصله:

أولًا: (**أَوَّلُ أَوْصَافِ الْمُفْتِي الَّذِي يَلْزَمُ قَبُولُ فَتْوَاهُ: أَنْ يَكُونَ بَالِغًا**)، وهذا وصف عام؛ لأنه حكم تكليفي، يلزم فيه البلوغ.

الثاني: (**ثُمَّ يَكُونُ عَدْلًا ثِقَةً**)، عدلًا لا يأتي بما يؤخذ عليه في دينه بفسق أو كبيرة أو نحو ذلك، ثقة فيما ينقل عن الدين، يتحرى، ولا يتجاسر، ولم يجرب عليه كذب، لم يجرب عليه افتئات، لم يجرب عليه نسبة أشياء إلى غير من تنسب إليه. قال: (**لِأَنَّ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّ الْفَاسِقَ غَيْرُ مَقْبُولِ الْفَتْوَى فِي أَحْكَامِ الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ بَصِيرًا بِهَا**).

الثالث: (**ثُمَّ يَكُونُ عَالِمًا بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَعِلْمُهُ بِهَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِأُصُولِهَا وَارْتِيَاضٍ بِفُرُوعِهَا وَأُصُولُ الْأَحْكَامِ فِي الشَّرْعِ أَرْبَعَةٌ: أَحَدُهَا: الْعِلْمُ بِكِتَابِ اللَّهِ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَصِحُّ بِهِ مَعْرِفَةُ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ: مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَعُمُومًا وَخُصُوصًا، وَمُجْمَلًا وَمُفَسَّرًا، وَنَاسِخًا وَمَنْسُوخًا وَالثَّانِي: الْعِلْمُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّابِتَةِ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَطُرُقِ مَجِيئِهَا فِي التَّوَاتُرِ وَالْآحَادِ، وَالصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَى سَبَبٍ أَوْ إِطْلَاقٍ وَالثَّالِثُ: الْعِلْمُ بِأَقَاوِيلِ السَّلَفِ فِيمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ لِيَتَّبِعِ الْإِجْمَاعَ، وَيَجْتَهِدْ فِي الرَّأْيِ مَعَ الِاخْتِلَافِ**

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٤/ ١٥٧).

وَالرَّابعُ: الْعِلْمُ بِالْقِيَاسِ الْمُوجِبِ، لِرَدِّ الْفُرُوعِ الْمَسْكُوتِ عَنْهَا إِلَى الْأُصُولِ الْمَنْطُوقِ بِهَا، وَالْمُجْمَعِ عَلَيْهَا، حَتَّى يَجِدَ الْمُفْتِي طَرِيقًا إِلَى الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ النَّوَازِلِ، وَتَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَهَذَا مَا لَا مَنْدُوحَةُ لِلْمُفْتِي عَنْهُ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِشَيْءٍ مِنْهُ)[1]، انتهى كلام الخطيب البغدادي رحمه الله.

الرابع: أن يعلم المفتي أحوال الناس وأهواءهم وأغراضهم؛ لأنه ربما توصل الناس بكلام المفتي إلى أغراضهم وأهوائهم، وهؤلاء الناس قد يكونون من علية القوم، وقد يكونون من أهل الأهواء، على أي اختلاف، فالمفتي إذا لم يعلم الشأن، فإنه قد تسمى له الأمور بغير اسمها، وقد توصف له الأمور بغير وصفها، فحينئذ إذا علم الأهواء، وعلم ذلك، فيجب عليه حينئذ الحذر مما تحدثه فتواه في الناس، مما قد يكون من المفاسد التي يجب أن يصد عنها، أو أن يترفع عنها؛ رعاية للدين، وحفاظًا على الكلمة.

وهذه الأهواء قد تكون في علاقة رجل بامرأته، وقد تكون في علاقة رجل مع تركة، يراد أن تقسم، ويسأل فيها، وقد تكون علاقة رجل بوصية في يده، وقد تكون علاقة الرجل بوقف، وقد تكون المرأة تسأل لشيء تصل به إلى غرض من أغراضها، وقد يكون الأمر أكبر من الوصول بالفتاوى إلى أشياء تغير في الأمة، وتقلب في الأمة أشياء، فحينئذ يجب أن يكون المفتي متثبتًا متأنيًا، لا تصدر فتواه إلا بعد إيقان وإتقان ونظر في المصالح والمفاسد؛ حتى لا تعود الفتوى على أصل الشريعة وقاعدة الشريعة بالإبطال، وهي أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح ودرء المفاسد.

---

(١) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٣٣٠ - ٤٢١).

المبحث الثاني:

ما يلزم المستفتي أن يتصف به

المستفتي ما حاله؟

الصفة الأولى: بعض العلماء يقول: (يجب عليه أن يطلب الأعلم، الأتقى لله؛ ليسأله).

ذات مرة كنت في الحرم في مكة، فقابلني شخص من الآفاق، قال: أنا أريد أن أستفتيك. فقلت له: تستفتيني؟ لماذا اخترتني أنا؟ قلت: استفت فلانًا. قال: يا أخي يبدو أنك تجيب عن المسألة فأخبرته، فالناس ينظرون إلى وجه أهل الخير، أو من ظاهره خير، والله أعلم بسريرته، وينظرون له، ويقولون: له هذا طالب علم، هذا شيخ، بل قد رأينا في مجتمعاتنا اليوم والمجتمعات القريبة منا أن كل من ظاهره الالتزام يسمى شيخًا: الشيخ فلان، والشيخ فلان، كلمة شيخ لم تكن تطلق إلا على العالم المتبحر، والآن زادوا: فضيلة الشيخ، زيادة وتبذل في الألفاظ مما يجب حماية الشريعة فيه؛ لأنه إذا سمى واحد فلانًا فضيلة الشيخ، معناه: أنه أهل لاشك للفتوى، فيجب أن نتأنى في الألفاظ، ونصف الناس بما ينزلون به: «**أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**»[1]، هذا حكم النبي ﷺ، فلا يثق المرء المستفتي بظاهر المرء، بل يبحث عن العالم الأعلم الأتقى لله؛ لأنه سيفتيه بما يجب

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عليه عند ربه ﷻ، فإن قصر بالبحث في التحري، فإنه يأثم؛ لأنه ما تحرى الصواب في ذلك.

الصفة الثانية: أن لا يخفي شيئًا من الحقيقة على المفتي؛ لأن المفتي يفتي على نحو ما يسمع، فإذا أخفى بعض الحقيقة، فإنه لا ينجيه هذا، فيجب عليه أن يذكر كل الحقيقة؛ حتى تكون الفتوى مطابقة للاستفتاء. قد كان العلماء الأقدمون إذا جاءتهم الفتوى، إذا جاءهم الاستفتاء في ورقة، كتبوا الفتوى تحتها مباشرة بكلام من طرف الصفحة لطرف الصفحة؛ حتى ما يبقى مجال لكلمة تضاف؛ رعاية لجانب ألا يأتي صاحب هوى، ويضيف إليها كلمة، أو يحذف كلمة.

الصفة الثالثة: أن يجل العالم؛ لأن بعض المستفتين يأتي بعبارة فيها فظاظة، أو في وقت غير مناسب، أو أنه لا يصبر على العالم، ونحو ذلك، فينبغي له أن يجل العالم أولًا في صيغة السؤال، وهنا نقلٌ، يقول الخطيب في (الفقيه والمتفقه) ما نصه: «**وَلَا يَنْبَغِي لَهُ إِذَا سَأَلَ الْمُفْتِيَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ؟ أَوْ مَا تَحْفَظُ فِي كَذَا؟ بَلْ يَقُولُ: مَا تَقُولُ أَيُّهَا الْفَقِيهُ؟ أَوْ مَا عِنْدَكَ؟ أَوْ مَا الْفَتْوَى فِي كَذَا؟**»(١). يعني: هذه من باب الأدب معه؛ لأن المفتي نفس بشرية، فأحيانًا قد تكون صيغة السؤال غير جيدة، فلا ينشط لإعطاء الجواب كما ينبغي بما ينفع السائل، فيعطي كلمات وجيزة، قد لا يستوعبها السائل، فيبني عليها، فيكون مخطئًا، وهنا ينبغي للمفتي أن يتأنى، وأن يصبر على وعر الناس، وكذلك المستفتي ينبغي له أن يجل

---

(١) انظر: الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٨١).

العالم، وأن يصبر عليه، وأن يستفتي بأناة وهدوء.

الصفة الرابعة: من صفات المستفتي أن المستفتي لا يلزم أن يسأل عن الدليل. بعض الناس ظن أن المستفتي يجب عليه أن يسأل عن الدليل، ويقول أن الدليل على ذلك قول الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، فيقول: اسألوا بالبينات والزبر، وهذا التفسير مخالف لما عليه المفسرون، فإن المفسرين جعلوا الجار والمجرور في قوله ﷻ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ راجعًا إلى أول الآية في تأييد كل نبي أوحى الله إليه بالبينات والزبر(١)، أما السؤال، فإنه يلزم أن يسأل، فإذا أجابه المفتي العالم بجواب، يلزم أن يأخذ به، بدون أن يسأله عن الدليل، وإذا نظرنا في المدونة للإمام مالك بن أنس برواية الإمام سحنون، نجد أسئلة لمالك وأجوبة: رجل كذا . . . ، نجد أن أكثرها، بل كلها بلا دليل، مسائل الإمام أحمد نجد أن أكثر أو كلها بلا دليل، والمسائل المنقولة المعروفة عن أهل العلم أكثرها بلا دليل؛ ولهذا نقول: إن المفتي يذكر الدليل، هذا من باب الأفضلية إذا نشط لذلك، وكان المستفتي يعي، إما إذ كان المستفتي لا يعي، فإنه لا يذكر له الدليل.

الصفة الخامسة: أن لا يكون للمستفتي غرض أو هوى في استفتائه، وإنما غرضه بيان الحق وزوال الجهل والشبهة؛ ليلتزمه المستفتي، ويبني عليه.

هذه مسألة عظيمة في الناس؛ فإن الناس يستفتون عن أشياء لهم غرض

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٠٩)، وزاد المسير (٤/ ٤٥٠)، والقرطبي (١٠/ ١٠٨).

فيها، بل قد قيل: إن الرجل أو السائل الواحد يتصل بسبعة أو ثمانية من المشايخ في نفس المسألة، وإذا أحرجته في السؤال، قال: أنا سألت فلانًا فقال لي: كذا.

أولًا: أشغلت المشايخ، والوقت قصير، والواجبات كثيرة جدًا جدًا جدًا أكثر من الأوقات، والآن الواحد يستغفر الله ﷻ عن ضعف الوقت لأداء الواجب، فضلًا عن أن يجد لما يصلح.

الثاني: أن الذي ينبغي لك أن تجتهد في البحث عن الأعلم أو الأفقه، الأعلم والأفقه الأتقى لله، تسأله، ويلزمك أن تأخذ بفتواه، أما أن تسأل سبعة ثمانية، فهذا لا ينبغي في ذلك.

ولهذا أقول: ينبغي لمن يجيبون على الأسئلة في الإفتاء، يعني في الاستفتاءات أن يأخذوا الحيطة والحذر، فكثير من المستفتين يسجل الكلام، وربما يكون المجيب عن السؤال ربما يكون في حال لا يحب أن يجاب عليها، أو ربما يكون ما تثبت من المسألة، وظن أنها لن تتعدى هذا، وضعف ورعه أن يقول: لا أدري، فتسجل عليه؛ كما سمعت من تسجيل عن بعض طلبة العلم سجل له بكلام غلط بالاتفاق، غلط فيه، أو زل فيه، خالف فيه، لكن هذا سجل، سينقلها ويصير مشهورًا، وحينئذ تقع الزلة والزلة، ومن واجب المستفتي ولا يحل له أن يسجل كلام عالم دون إذنه؛ لأن كلام العالم في تسجيله ينبني عليه ما دونه خرط القتاد[1]، هذه تبعة للدين

---

(١) هذا مثل عربي يضرب للأمر الشاق، انظر: المستقصى في أمثال العرب (٢/ ٨٢)، ولسان العرب مادة (خرط) (٧/ ٢٨٤).

وللمستقبل، فكل من أراد أن يسجل، فليخبر المفتي أو من سأله: أنا أريد أن أسجل الفتوى. فإن أذن، وإلا فلا يجوز له أن يخدعه؛ لأن المفتي ينظر أن هذا الجواب لواحد، لكن إذا سجل، صار لمئات، وأنا اختبرت بعض الناس في ذلك، فكان الأكثرون يقولون: نعم، عندنا تسجيل. وخاصة في الأزمة التي مرت - أزمة الخليج، وما تبعها - فكان أكثر من يتصل يكون معه تسجيل، أسأله: معك تسجيل؟ يقول: نعم. لماذا ما أخبرت؟ وهل المصلحة في ضرب الأمة بعضها في بعض، وتكثير الأقوال، تكثير الفتاوى؟ المصلحة في الائتلاف والاجتماع، والفرقة هي نصيب الشيطان من هذه الأمة.

مراتب الفتوى

نقول: فيها مباحث، الفتوى تارة تكون صريحة، وتارة تكون تلميحًا، فما كان صريحًا، هذا لا إشكال فيه، وما كان فيه تلميح أو فيه كناية، فإنه يلزم فيه الاستيضاح والسؤال.

ومن حيث الصحة وعدمها: الفتوى يقال عنها: صحيحة إذا وافقت الدليل، أو وافقت قواعد الشرع، وترتب عليها تحقيق المصالح ودرء المفاسد، ويقال لها: فاسدة أو باطلة، إذا كانت مصادمة لنص من الكتاب أو من السنة.

طرق مسايرة الفتوى للهوى

ما الطرق التي يخشى منها ليكون الهوى مؤثرًا على الفتوى؟

أولًا: تتبع الرخص واستدامة ذلك.

فإن تتبع الرخص من العالم، والرغبة في أن يرخص ويرخص ويرخص في أي قول يجده. هذا شاع في فتوى بعض الناس في هذا الزمن، هذا ليس بطريق أن يبحث عن الرخصة كيفما كانت، ويفتي بها، بل الذي ينبغي، بل الذي يجب عليه أن يتحرى الحق، وأن يفتي بما يرى أنه الصواب في هذه المسألة، قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في الموافقات ما نصه: «**فَإِذَا اعْتَادَ التَّرَخُّصَ؛ صَارَتْ كُلُّ عَزِيمَةٍ فِي يَدِهِ كَالشَّاقَّةِ الْحَرِجَةِ، وَإِذَا صَارَتْ كَذَلِكَ؛ لَمْ يَقُمْ بِهَا حَقَّ قِيَامِهَا، وَطَلَبَ الطَّرِيقَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَهَذَا ظَاهِرٌ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْمُتَوَقَّعُ فِي أُصُولٍ كُلِّيَّةٍ، وَفُرُوعٍ جُزْئِيَّةٍ، كَمَسْأَلَةِ الْأَخْذِ بِالْهَوَى فِي اخْتِلَافِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، وَمَسْأَلَةِ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ بِالْجَوَازِ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ بِالْمَنْعِ وَالْجَوَازِ**»(١).

وقال: «**تَتَبُّعُ الرُّخَصِ مَيْلٌ مَعَ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ، وَالشَّرْعُ جَاءَ بِالنَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى**»(٢).

ثانيًا: إعمال الحيل المذمومة.

---

(١) انظر: الموافقات (١/ ٥٠٨).

(٢) انظر: الموافقات (٥/ ٩٩).

فتجد أنه يجد حيلة للتخلص من الحكم الشرعي، والحيل ذم الله ﷻ عليها اليهود، ولعنهم لذلك؛ لأنهم استحلوا محارم الله بأدنى الحيل. وضابط الحيل المذمومة ما قاله الشوكاني في (السيل الجرار) قال: **(كل حيلة تنصب لإسقاط ما أوجبه الله أو تحليل ما حرمه، فهي باطلة، لا يحل لمسلم أن يفعلها، ولا يجوز تقرير فاعلها عليها، ويجب الإنكار عليه؛ لأنه منكر)**[1]، أما إذا كانت الحيلة لا تنصب لإسقاط حكم شرعي، فإن بعض العلماء رخص في الحيل، وسمى بعضهم بعض الحيل حيلًا شرعية، نسبها للشرع، ولا يصح أن تسمى حيلًا حينئذ، بل يقال: رخص في أنه يسلك طريقًا للخروج من الإثم والإلزام بوجه من أوجه الشرع، هذا لا يسمى حيلة، بل أخذ بطريق من الطرق، لكن الحيل المذمومة - كما ذكرنا - هي ما نصب من الحيل لإسقاط واجب، أو تحليل محرم، يذهب يحتال على الربا بالعينة، يقول: لا، أنا أبيعك هذا القماش أو أكياس الرز، أنا بعت لك الكيس بمئة وعشرين، واشتريتها منك الكيس بمئة، أعطني، فيعطيه مئة، ومئة وعشرين مؤجلة، بعتك بمئة وعشرين بعد سنة، حسن ضع يدك، ضع يده عليها، استلمتها؟ قال: استلمتها. الثاني قال: اشتريتها منك الكيس بمئة، حسن اشتريتها بمئة حالًا، فذهب يعطيه الأكياس لها مدة طويلة - مثل ما هو معلوم -، هذا احتيال، بيع العينة، والعينة محرمة؛ لأنها احتيال على الربا، وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموافقات: **(أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَظِنَّةٌ لِأَنْ يُحْتَالُ بِهَا عَلَى أَغْرَاضِهِ، فَتَصِيرُ كَالْآلَةِ الْمُعَدَّةِ لِاقْتِنَاصِ**

(١) انظر: السيل الجرار (ص٢٦٣).

أَغْرَاضِهِ، كَالْمُرَائِي يَتَّخِذُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ سُلَّمًا لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَبَيَانُ هَذَا ظَاهِرٌ)[١].

السبب الثالث من أسباب اتباع الهوى في الفتوى:

حب استدامة الرئاسة والإمارة، وهذا أمر خطير؛ لأنه ما أحد يعلم الشرع، ويعرف أن الشرع، يوافق أهواء الناس، الشرع لا يوافق أهواء الناس، الشرع حكم على الناس، تارة يكون الشرع فيما يختاره الناس، وتارة يكون فيما يضاد الناس في أفعالهم، فإذا كان هذا الذي يفتي يريد استدامة الرئاسة، ورضا الناس عنه، ومحبتهم له، وتوجيه وجوه الناس إليه، فإنه يقول لهم ما يرضيهم؛ يخشى أن ينصرفوا عنه، أو يقول في المحاضرة ما يرضيهم، ولا يبين لهم حكم الله ﷻ بيان الحق الواضح، فحينئذ يقع في الغلط، نعم، ليس كل حق يعلم يلزم بيانه في كل زمان ومكان، لكن يجب على المرء ألا ينطق بباطل، وألا ينسب للشريعة ما ليس منها؛ لهذا نقول ما قال ابن حزم في ذلك، قال: (إن الذي ينحرف في الفتوى ويتبع هواه - يعني يفتي بما يتفق له - مستديمًا لرئاسة أو كسب مال)، وهذا واقع، يفتي بما اتفق، ما يحرر في المسألة كذلك، ويقول: اعمل ما تريد. هذا ليس صوابًا، الرخصة تأتيك من فقيه، هذا محمود، يتحرى، ويرخص لها بالشرع، والشرع - ولله الحمد - لم يأت بما يشق على الناس: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

السبب الرابع: اتباع الآباء في أصل الدين، أو اتباع ما عليه المجتمع

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٢٩٩).

أو البلد، وجعل هذا مرجعًا يرجع إليه دون غيره.

السبب الخامس: التقليد المذموم والتعصب للمذاهب؛ لأن غلاة المتعصبة يزعمون أن قول إمامهم شريعة، يلزم الأخذ بها، ويأنفون أن ينصب الصواب إلى أحد من العلماء ممن يخالف هذا المذهب.

السبب السادس: تقديم العقل على ما دل عليه الشرع في الفتوى نصًا أو استنباطًا. أما النص، فيأتي يقول: لا يحسن الأخذ بهذا الحديث، لا يناسب هذا الزمان، أو هذه السُنة صالحة للصحابة للبدو، صالحة لزمن ما، لكن لا تصلح لزماننا. هذا التعبير ليس تعبير عالم، ليس تعبير متحرٍ للحق، في مثل هذا قد يأتي العالم، ويقول: إن هذه السنة - مثلًا - أو الفتوى أو هذا الدليل يترتب عليه مفسدة لو عمل به، فإنه يؤخذ بالمصلحة في ذلك؛ لأن المصلحة دلت عليها الشريعة؛ مثلما قالها ابن تيمية في مسائل، وقالها الإمام أحمد في مسائل، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا مسألة التحسين والتقبيح العقلي، ومرجع الدليل، أو مرجع الحكم على الدليل، والاستنباط منه إلى العقل، بل زاد الأمر في بعض المنحرفة في هذا الباب إلى أن قالوا: إن أصول الاستنباط للفتوى وللفقه، التي قررها العلماء في أصول الفقه يجب أن تغير إلى أصول فقه جديدة، تناسب العصر، فلا تقل مثلًا أن الدليل الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وكذا يختلف لا نقول: إن الأمر يدل على الوجوب، بل نفصل، لا نقول إن الأصل في الأمر الوجوب، لا نقول إن الأمر لابد أن يكون إما للوجوب، أو للاستحباب، أو للإباحة، إذا كان بعد نهي، أو نحو ذلك، على ما هو معلوم من تفصيل الكلام في هذا، يريدون أصول فقه جديدة، وإذا قننوها، صار

الاستنباط من الدليل على وفق أصول محرفة، وهذا أشد في الانحراف في الشريعة وتحكيم للهوى، لا في فهم الدليل، ولكن في أصل الاستنباط من الدليل، وهذا أمر خطير للغاية في أثره على الأمة.

على كل حال لعل فيما ذكر كفاية، وهذا الموضوع مهم، وأرجو أن يستزاد من البحث فيه، وأن نتقي الله ﷻ في ذلك وأوجه الخطاب في ذلك إلى نفسي المقصرة أولًا، وإلى كل أخٍ يخاف الله ﷻ، ويتقيه، ويرجو أن يخفف عنه الحساب في ذلك، أن يتقي الله في الفتوى، أن يتقي الله في الفتوى، وألا يقول في مسألة إلا بعلم، وقد كان جمع من السلف يهربون إذا اجتمع إليهم أربعون: إذا اجتمع إليه أربعون، ورأى الناس كثيرين، هرب؛ ليقولوا عنه ما يقولون[1].

---

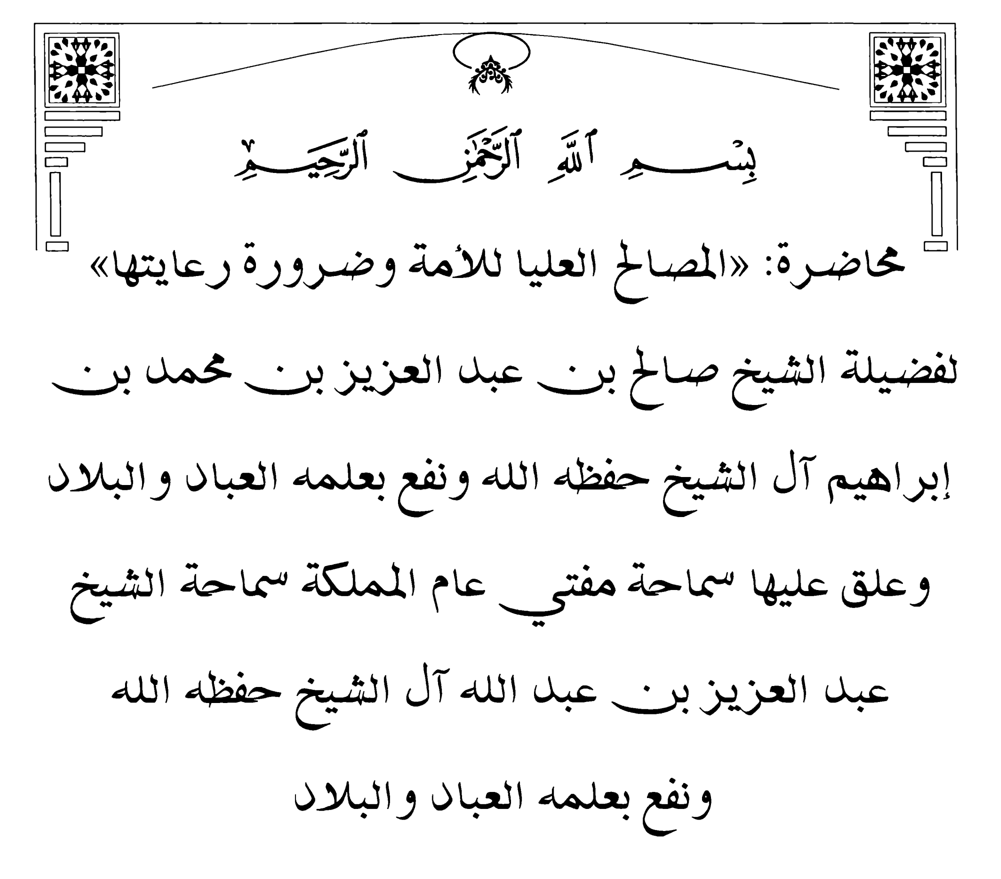
(١) كما روي ذلك البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٩٢)، والكبير (٢/ ٢٧٩) قال: (**حدثني أحمد بن إِبْراهِيم ثنا شبابة عن شُعْبَة عن الْأَعْمش قال لي خيثة رأيْت الْحارِث بْن قيس إِذا اجْتمع عِنْده رجلانِ قام وهُو الْجعْفِيّ الْكُوفِي**)، وكما روي ذلك في (خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١/ ١١٩) في ترجمة أبي الْعالِية الْبصْرِيّ قال: (**أبو الْعالِية الْبصْرِيّ مخضرم إِمام من الْأَئِمّة صلى خلف عمر ودخل على أبي بكر عن أبي وعلي وحُذيْفة، وعلِيهِ وخلق وعنهُ قتادة وثابت وداوُد بن أبي هِنْد بصريون وخلق قال عاصِم الْأحول كان إِذا اجْتمع عليْهِ أكثر من أرْبعة قام وتركهم**).

ويشهد لهذا مارواه الطبراني عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ: «**كفى بِالْمرْءِ مِن الشّرِّ أنْ يُشار إِليْهِ بِالْأصابعِ**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢١٠)، وفي رواية: «**كفى بِالْمرْءِ مِن الْإِثْم أنْ يُشار إِليْهِ بِالْأصابعِ. قِيل: يا رسُول اللهِ، وإِنْ كان خيْرًا؟ قال: وإِنْ كان خيْرًا فهُو شرٌّ لهُ إِلّا منْ رحِم اللهُ، وإِنْ كان شرًّا فهُو شرٌّ**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٢٨)، وفي مسند الشاميين (١/ ٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٢- ٥/ ٢٤٧)، والبيهقي في شعب الايمان (٩/ ٢٢٦).

لكن الرياسة والتصدر في كل مجال، هذا أمر ليس بالسهل، فينبغي على الجميع الخوف من الله ﷻ، والتحري في ذلك، واحترام أهل العلم، ومحبة أهل السنة، وعدم الاختلاف، وتحري الحق حيثما كان العبد، وسؤال الله ﷻ دائمًا بدعوة العلماء: اللهم إنا نعوذ بك أن نزل أو نُزل، أو نَضل أو نُضل، أو نجهل أو يجهل علينا، أو نَظلم أو نُظلم، اللهم فأجب.

نسألك اللهم أن تغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، اللهم لا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا، ربنا إنك غفور رحيم، اللهم وسع رحمتك، وأمطر عفوك وجودك وإحسانك وقدسك ورحمتك على أئمتنا الماضين، اللهم بارك في علمائنا الحاليين، وسددهم في أقوالهم وأعمالهم وأبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة، وينطق فيه بالحق، ويعافى فيه أهل المعصية؛ إنك على كل شيء قدير، نسألك اللهم أن توفق ولاة أمورنا لما فيه الرشد والسداد، وأن تجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى ونعوذ بك اللهم أن نكون من المتعاونين على الإثم والعدوان، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





محاضرة: «المصالح العليا للأمة وضرورة رعايتها»

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ حفظه الله ونفع بعلمه العباد والبلاد

وعلق عليها سماحة مفتي عام المملكة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ حفظه الله ونفع بعلمه العباد والبلاد

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد المبارك، الذي يجمعنا مع صاحب الفضيلة معالي الشيخ/ **صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ** وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وكما سمعتم أيها الأحبة من سماحة الشيخ - حفظه الله - أن هذا الموضوع الجلل عن المصالح العليا للأمة وضرورة رعايتها، فليتفضل معاليه لإلقاء محاضرته نفع الله به.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فيا أيها الإخوة في الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن هذا اللقاء ليتجدد في رحاب هذا الجامع المبارك - جامع الإمام تركي بن عبد الله - في مدينة الرياض - عاصمة المملكة العربية السعودية -، هذا اللقاء الأسبوعي الذي يتناول فيه جمع من أهل العلم والمحاضرين ما يهم الخاصة والعامة في أمر دينهم وفي أمر دنياهم، والذي يتوج بتنظيم وكلمات سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية والدنا الشيخ/ **عبد العزيز بن عبدالله آل الشيخ** - حفظه الله تعالى، وأمتع به، وجزاه عن الجميع خيرًا - كفاء ما يقوم به من جهد وجهاد في سبيل مصالح هذه الأمة.

وموضوع هذه المحاضرة: «**المصالح العليا للأمة وضرورة المحافظة عليها**».

وهذا الموضوع اختاره سماحة الشيخ مع ثلة من طلبة العلم حين وضع الجدول التنظيمي لهذه المحاضرات في هذا الجامع، واخترْتُ لإلقاء هذا الموضوع، مع أنه موضوع مهم، ويحتاج إلى الكثير من الأفكار والبسط والنظر؛ لأجل تعلقه بالأمة ومصالحها.

ولا شك أن من استقرأ هذه الشريعة المباركة، وأخذ علم الكتاب والسنة، ليعلم يقينًا أن الله ﷻ بعث الرسل، وأنزل الكتب لأجل مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وفي أولاهم وأخراهم، فالله ﷻ يريد بالناس اليسر، ولا يريد بهم العسر، وهو ﷻ - فيما شرع على لسان رسوله ﷺ - رعى ما فيه المصلحة للناس من حيث الدين والدنيا.

ولهذا كانت هذه المحاضرة متعلقة بجميع الشرع في الواقع؛ لأن الشرع جاء بتحصيل المصالح ودفع المفاسد، وهذه المصالح منها مصالح عليا، ومنها مصالح وسطى، يعني يهتم بها وسط الناس وعامة الناس، ومنها مصالح متعلقة بالأفراد، وهذا - أيضًا - يتعلق تارة بالدين، ويتعلق تارة بالدنيا.

موضوع المصلحة، دائمًا يطلق أهل العلم هذه الكلمة (كلمة مصلحة)، رعاية المصالح، ومما أجمع عليه علماء الشريعة وعلماء القواعد الفقهية، أجمعوا أن من قواعد الشريعة العظيمة: أن الشريعة جاءت بتحقيق المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن تحصيل المصالح والمحافظة عليها ينبني على فهم ما هي المصلحة، وما المراد بكلمة المصلحة؛ فإن كثيرًا ما نسمع المصلحة هي كذا، والمصالح تقتضي كذا، هذا مما نحتاج فيه إلى استبيان وعلم.

قال أهل العلم: المصالح جمع مصلحة[1].

---

(١) انظر: المصباح المنير (١/ ٣٤٥).

والمصلحة إما أن تكون مقصودة من الخلق في أفرادهم، وإما أن تكون مقصودة من الأمة في مجموعها، أو كما عبر صاحب المستصفى في علم الأصول قال: (**نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع: ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم**)[1].

وهذه هي التي تسمع الترديد عليها بأنها الضروريات الخمس، التي تجب المحافظة عليها، مقصود الشارع من الخلق - حيث شرع لهم الدين - أن يحفظ عليهم هذه الأمور الخمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، أن يحفظ عليهم أنفسهم من الإهلاك أو الإتلاف أو الإنقاص، أن يحفظ عليهم أموالهم، أن يحفظ عليهم عقولهم، أن يحفظ عليهم نسلهم وأعراضهم.

فكل ما يتضمن المحافظة على أصل من هذه الأصول الخمسة، فهو مصلحة راجعة إلى الخلق، فكل وسيلة يتحقق بها المحافظة على الدين فهي مصلحة، وقد تكون مصلحة محضة، وقد تكون مصلحة راجحة.

كل أمر به المحافظة على الأنفس، فهو مصلحة.

كل أمر فيه المحافظة على الأموال من الظلم، والاعتداء، والسرقة، والغصب، والنشل، والرشوة. . . إلى آخره، فهو مصلحة.

كل وسيلة يحافظ فيها على العقول من أن تدنس، أو تضل، أو تخدر، فإنها مصلحة.

---

(١) انظر: المستصفى (١/ ١٧٤).

كل أمر فيه وسيلة للمحافظة على النسل، محافظة على الأعراض، المحافظة على الكرامة، كرامة العرض وكرامة النسل، فهو مصلحة. ولذلك صارت رعاية هذه المصالح التي ترجع إلى الحفاظ على هذه الأمور الخمسة رجعت إلى أنها أقوى المراتب في تحقيق المصالح.

والأمة - موضوع المحاضرة المصالح العليا للأمة - لها عدة استعمالات الأمة تارة تطلق، ويراد بها العقيدة والملة والدين: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وتارة تطلق الأمة، ويراد به الإمام المقتدى به في الخير: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ويراد بالأمة: الناس المجتمعون على شيء يؤم بعضهم بعضًا فيه، وهذا قد يكون على المستوى المحلي الجزئي، وقد يكون على المستوى العام(١).

فإذًا: كلمة الأمة في الاصطلاح الذي نريده هنا قد يكون المراد بها الأمة المتعلقة بوطن من الأوطان، أو الأمة التي هي أمة الإسلام بأجمعها، ويصح التناول بهذا الاعتبار أو التناول بهذا الاعتبار.

والمصالح الدينية عامة في الجميع، لكن ربما اختلفت بعض الوسائل؛ لاختلاف الفرق ما بين الأمة الصغرى مع الأمة الكبرى.

---

(١) «الأمة لها مواضِع فالأمة: الْقرن من النّاس من قوْله: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] أي: إمامًا. والْأمة: الإمام. والْأمة: قامة الْإِنْسان. والْأمة: الطول. والأمة: الْملّة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: ٥٢]. انظر: جمهرة اللغة (١/ ٦٠).

هنا نأتي إلى أمر مهم، وهو أن رعاية المصالح العليا في الأمة - لا شك أنها ما دامت راجعة إلى هذه الأمور الخمسة، وسيأتي تفصيل الكلام على أطراف منها - فإننا نجد أن الحاجة ماسة إلى معرفة مَنْ الذي يُرجع إليه في فهم هذه المصالح.

وذكرت لكم أن من المصالح منها مصالح عليا، وهو المراد بهذه المحاضرة، ومنها مصالح وسطى، تتعلق بعامة الناس، ومنها مصالح فردية، تتعلق بالفرد المسلم في ذاته، وكلامنا عن المصالح العليا وما يتصل بذلك.

هنا من يلي المصالح؟ ومن هو الذي يوعز إليه أو هو المطالب شرعًا برعاية هذه المصالح؟ كما رأينا المصلحة مراد الشرع، وتحقيقها تحقيق للشرع، وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل فرد في الأمة مخاطب بتحقيق مصلحة، بحسب ما خُوطِب به من الشريعة.

فالمصلحة المنوطة بالإمام وولي الأمر لها شأنُها، المصلحة المنوطة بالقاضي لها شأنُها، المصلحة المنوطة برجال الإفتاء لها شأنُها، المصلحة المنوطة برجال السياسة لها شأنُها، المصلحة المنوطة برجال الاقتصاد لها شأنُها، المصلحة المنوطة برجال الأمن والحماية وحفظ الثغور لها شأنُها، وهكذا في كل التفاصيل.

والله ﷻ يقول في محكم التنزيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، ويقول أيضًا ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]،

ويقول - أيضًا - ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، النتيجة والمصلحة: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ونبينا ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، وابتدأها بقوله: «**فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». الحديث[(١)]، وهذا الحديث المتفق على صحته يدل على أن المسؤولية عن تحقيق المصالح الشرعية منوطة بكل أحد بحسب حاله.

فالمصالح الدنيا المتعلقة بالأفراد المسؤول عنها الفرد: «**وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا**»، والأمور المتعلقة بما هو أكبر منوطة -أيضًا- بالمسؤولية، والمسؤولية العظمى لولي الأمر: «**الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، وهذا يدل على أن الخطاب بتحقيق المصلحة ودرء المفسدة عن الأمة منوط في الأصل بحكم عقد البيعة بالإمام وولي الأمر، ثم هو منوط بنوابه، سواء كانوا أفرادًا أو جهات؛ لهذا من الذي يلي المصلحة، ويعلم بهذه المصلحة؟

أولًا: الإمام ولي الأمر، وولي الأمر علمه بهذه المصلحة وكونه هو المخاطب بتحقيق المصالح الدينية و الدنيوية قد يكون بإدراكه لهذه الأمور بنفسه، أو بغيره من أهل الحل والعقد: من المستشارين، من مجلس الشورى، من مستشاريه، من خاصته، ممن يثق فيه، قد لا يتعين أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩).

هو المخاطب بها فقط، بل هو مخاطب بها إما بقوته في نفسه، أو بمن معه من أهل الرأي والحل والعقد والاستشارة من ذوي العلم والاختصاص، كل أهل مجال وتخصص في مجالهم وتخصصهم.

ثانيًا: النواب، نواب ولي الأمر الأفراد أو الجهات، مثلًا أمير بلد، أمير منطقة، أو محافظ بلد، أو وزير، أو رئيس شيء، جهة معينة أو نحو ذلك؛ لأنه لابد من التنظيم، ولما وُلي الأمراءُ في عهد النبي ﷺ، واتخذ العمالُ، قال في ذلك: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**»(١)؛ لأجل أن التفويض هنا تفويض رعاية المصلحة في هذه الفئة من الأمة والناس، أناطها بنائب له في تحقيق هذه المصلحة، ثم عليه هو أن يحاسبه على ما فعل وتحقيقه للمصالح الدينية والدنيوية في الناس.

وكذلك الجهاد، قد تكون المصلحة منوطة بجهة، ليس بفرد، فينوب عن الإمام بحكم العقد العام؛ ينوب عنه في تحقيق المصلحة جهة، مثلًا: جهة قضائية، جهة الفتوى، جهة إمامة المساجد، الأصل أن الذي يؤم المساجد من؟ هو الإمام، النبي ﷺ كان هو الإمام، كان القاضي، كان المفتي، وكان هو الذي يؤم الناس في المسجد، وهذا مشى فترة من الزمن، حتى توسعت البلاد، فلجأ ولاة الأمر والخلفاء إلى التنظيم بتجزئة العمل، فصار كل له اختصاصه. فقد يكون هناك جهات قضائية مسؤولة عن هذا الأمر في تحقيق مصالح الشرع في القضاء، الذي هو تحقيق العدل، ودفع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

الظلم، وأخذ لذي الحق حقه من خصمه.

جهات الفتوى في التبليغ عن رب العالمين، وضبط ذلك، وألا يكون الناس في نزاع في هذه الجهة.

الجهات الأمنية فيما يخصها في ضبط هذا الأمر.

الجهات الاقتصادية في ضبط أموال الناس فيما يخصها.

الجهات الاجتماعية في رعاية أخلاق الناس، ورعاية ما يصلحهم، ورعاية الأسرة وبناء المجتمع.

بهذا كانت إذًا المسألة موزعة من حيث من يلي هذه المصالح، مصالح دفع المنكرات وتحقيق المعروف منوطة بالجميع وبجهة مختصة في ذلك، يقيمها ولي الأمر إن أراد ذلك، وهكذا في أشياء أخر.

إذًا: هذا ينبني عليه أن المصالح التي سنتحدث عنها المصالح الراجعة للدين، الراجعة للدنيا، في مقصود الشرع من الخلق، هذه المصالح لابد أن يركز على من يلي هذه المصالح، ومن المخاطب بها؟

فإذا جاء أحد من الأفراد، هو مخاطب بإصلاح بيته، المصلحة الشرعية المنوطة بالمنزل هو مخاطب بها، فأراد أن يجعل نفسه مخاطبًا بمصالح الأمة العليا، فحينئذ يكون قد تعدى ما جُعِلَ له شرعًا؛ لأن الحديث «**الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، ثم فصل، حتى جاء إلى العامل، حتى المرأة في بيتها «**وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا**».

فإذًا: كل واحد عنده مسؤولية بحكم الشرع، فلابد أن يرعاها؛ فإذا تعدى

هذه المسؤولية، ودخل في تهيئة نفسه إلى مصالح لم يخاطب فيها أصلًا بتحقيقها أو رعايتها، فإنه حينئذ يكون قد فعل ما لم يؤذن له في الشرع، أو بما لا تتحقق معه المصلحة في الشرع.

المحافظة على هذه المصالح من حيث العموم فرض وضرورة - المحافظة على المصالح الدينية والدنيوية -؛ ولهذا كان من الضرورات الملحة أن يحفظ على الناس ما به صلاح دينهم، وأن يحفظ على الناس ما به صلاح دنياهم.

أما صلاح الدين، بمعنى أن يكون دينهم صالحًا، هذا أعظم المقصود؛ لأن الرسل بعثوا لإصلاح دين الناس، ودين الناس تحقيقه بتحقيق صلة الناس بربهم ﷻ، بعبادته وحده لا شريك له، والامتثال للشرع، الامتثال للعبادات المفروضة العملية الأربعة.

فدين الناس ممتثل في الأركان الخمسة للإسلام، وهذا هو المطلب الأعظم والمصلحة العليا التي تجب المحافظة عليها، ولهذا قدمت المحافظة على الدين قبل المحافظة على الأنفس؛ لأن هنا تجب المحافظة على دين الناس، بمعنى أن يحافظ على توحيدهم، على عقيدتهم، على عباداتهم، على إتيانهم للفرائض وانتهائهم عن المحرمات والموبقات.

الدين به يتحقق الصلاح، والمراد به: التوحيد وما يلزم عنه، والشرك وما يلزم عنه، أو وسائل الشرك وما يلزم عنه هذا هو الفساد، ولهذا قال الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ إصلاحها بأي شيء؟ قال أهل التفسير: بعد إصلاحها بالتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، والإفساد فيها بالشرك ووسائل الشرك[1]، لماذا؟ لأن المقصود الأعظم من خلق الإنسان هو أن يعبد الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، إذا كان الأمر كذلك، فإن المحافظة على الدين يعني المحافظة على علة خلق الإنسان، وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له.

الرسل جميعًا بعثوا من أجل هذه الغاية؛ المحافظة على الدين، أو لتجديد الدين، أو لتذكير الناس بالدين، وهو توحيد الله ﷻ وطاعة الرسل: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦].

الدين يرجع إلى التوحيد والعبادات، ثم إلى المعاملات والأمور الاجتماعية والأسرية، ثم إلى الأخلاق، ولهذا كان من الضروريات المحافظة على هذه الأصول جميعًا.

الأول: التوحيد، كيف يحافظ على التوحيد؟

أولًا: أن يُدعى إليه، وأن يُربى الصغار عليه؛ حتى يفهموا حق الله ﷻ عليهم، حسب مستواهم وحسب قدرتهم، يربوا على العقيدة الصحيحة، التي تنكسر عليها دعاوى الإلحاديين والتغريبيين، الذين يريدون من الأمة أن ينصرفوا عن حقيقة هذا الدين إلى رؤى الغرب والشرق والانحلال من عبادة الله ﷻ والدينونة له بالطاعة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٠٧)، وزاد المسير (٣/ ٢١٥)، والقرطبي (٧/ ٢٢٦).

أيضًا: الكبار يذكرون بهذا الأمر، ويدعون إليه بين الحين والآخر؛ ولذلك صارت الوسائل التي تؤدي إلى هذا الأمر ضرورية أن يحافظ عليها، فالذي يأتي مثلًا، ويقول: إن مصلحة الأمة غير متعلقة بالدعوة إلى العقيدة، أو الدعوة إلى توحيد الله، أو الدعوة إلى طاعة الرسول ﷺ، أو الدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح، ونحو ذلك، ويقول: لا، نحن يجب أن ندعو إلى مصالح جديدة!!

هنا هو دعا إلى مصالح عقلية مُتَوَهَمَة، لكن المصالح الأصلية المنصوص عليها بالمحافظة على الدين الذي وصفنا لكم، فإنه يكون قد تخلف عن مراد شرعي من مقصود الشرع في الخلق، وهو المحافظة على دين الناس وعلى توحيدهم وعقيدتهم وعبادتهم لربهم.

العبادات المقصود منها أن يكون هناك محافظة على أداء الناس لهذه العبادات، الصلوات في المساجد بالحض عليها، والأمر بها، وكثرة بناء المساجد، النبي ﷺ - كما روت عائشة رضي الله عنها - أمر ببناء المساجد في الدور -يعني في الأحياء- وأن تنظف وتطيب[1]؛ وذلك لأن المصلحة العبادية، مصلحة الشرع في عبادة الناس لا تتحقق إلا ببناء المساجد في الدور، فلذلك كان على الأمة أن تقوم بذلك لتحقيق هذه المصلحة في الناس.

أمور الزكاة والصيام والحج كذلك، تيسر السبل لذلك، وأن تتحقق المصالح بأدائها، بهذا نرى مثلًا في مسألة الزكاة أن الزكاة منها ما يلي:

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٨) عنْ عائِشة أنّ رسُول اللّهِ ﷺ، **«أمر بِالْمساجِدِ أنْ تُبنى فِي الدُّورِ، وأنْ تُطهّر وتُطيّب»**.

أخذها الإمام أو نوابه، ومنها ما هو متروك للناس، الأموال قسمان: أموال ظاهرة؛ مثل: الزروع، والثمار، وبهيمة الأنعام، وما أشبه ذلك، وأموال باطنة: أموال الريالات، الذهب، الفضة. . . إلى آخره. الأمور الباطنة التي ليست ظاهرة بينة الناس يرونها، فهذه متروكة لك، أنت تتولى صرفها، وأنت مؤتمن على ذلك، لكن الأموال الظاهرة التي يراها الناس: الزروع، الثمار النخيل، بهيمة الماشية، الأنعام، البقر، الغنم، الإبل، وما شابه ذلك، هذه كلها من المخاطب بأن يأخذها من الناس؟ ولي الأمر. لذلك المصلحة هنا أن تكون الأموال الظاهرة تُبذل، وتُعطى للجهات المختصة؛ حتى يدفعها ولي الأمر إلى أهل الحاجات.

أمور المعاملات: البيع، والشراء، الشركات، الرهن، القروض وما يتصل بذلك، المساقاة، المزارعة، هذه المسائل مسائل متعلقة بدنيا الناس ولكن المحافظة عليها من المحافظة على الدين، هنا يجب أن توضع السبل لكي يحافظ على أموال الناس، وعلى أن يكون بعضهم لا يجني على بعض، ولا يظلم بعضهم بعضًا، ولا يأكل بعضهم أموال بعض؛ لأن هذه مصلحة عامة متعلقة بتحقيق الحفظ لمال الناس، وهو راجع لمقصود الشرع من الخلق، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]؛ وذلك أن أساس المعاملات هو تحقيق العدل بين الناس، ودفع الظلم.

هكذا في الأمور المتعلقة بالأمور الأسرية، الشريعة حافظت على الأمور المتعلقة بالأسرة؛ لأن فيها مصلحة الناس في تفاصيلها.

كذلك الأمور المتعلقة بالأخلاق، الحفاظ على أخلاق الناس هذه مصلحة عامة، يجب أن يحافظ على أخلاق الناس: من جهة أدائهم للصدق وترك الكذب، رعايتهم للأمانة، إقامة الحقوق، عدم الغش والخيانة، الوفاء بالعهود، وأشباه ذلك من المسائل.

إذا كان الأمر كذلك، فهذه المسائل تحتاج إلى أن يكون فيها تنظيمات عامة في الأمة، ثم يكون الناس - أيضًا - يخاطبون بتحقيق هذه المصالح، كل بحسبه: الذي في بيته، الذي في مدرسته، الذي في عمله، الذي في مسجده وهكذا. . . ، كل بحسب حاله.

المصالح الدينية العامة إذا حافظنا عليها مع من يلي تحقيق هذه المصالح، فإنه يحصل من ذلك الكثير من الفوائد والعوائد والمصالح للناس:

أولًا: أن يكون هناك اجتماع في الدين في الناس، وعدم افتراق، والأساس أن الاجتماع في الدين هو من أهم المطالب في هذا الشرع، ألا يتفرق الناس في دينهم، فاجتماع الناس على دين واحد هذا مطلب من المطالب الضرورية، وإذا صار الخلاف في الدين، فإنه حينئذ يكون هناك بعد عن المصالح المرجوة في الأمة، وذهاب إلى الفساد واختلال في الأمة والضياع، قال الله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] هذا مما أجمعت عليه الرسل، وهو المصلحة الدينية العامة، أن نقيم الدين، وألا نتفرق فيه. هنا إقامة الدين وعدم التفرق فيه، هذا يخاطب

به الذين يرعون المصالح العليا: الإمام، أهل القضاء، أهل الفتوى - كل بحسب حاله -، أهل الاستشارة، أهل الحل والعقد، أهل النظر، وأشباه هؤلاء.

التفرق في الدين مضر بالمصلحة العامة؛ ولذلك كل وسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى الفرقة في الدين يجب أن تُواجَه؛ لأنها مضرة بالمصلحة، ولأن الفرقة محققة للمفسدة، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال الله ﷻ -أيضًا-: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فمسائل التنازع، مسائل الاختلاف، الفرقة، التفرق في الدين، أن يكون لكل ذي رأي رأيه، وأن يستحضر الناس الشح المُطاع، وعدم طاعة بعضهم لبعض، هذا من أعظم المفاسد التي تقدح في مصلحة الدين.

ولهذا كيف نحقق مصلحة الدين الذي ذكرنا، تحقيق مصالح الناس في دينهم بتوحيد الله: في عقيدتهم، في عباداتهم، في معاملاتهم، في أسرهم، في أخلاقهم، لابد أن يراعى الاجتماع في الدين وعدم التفرق في الدين، كيف يكون التفرق في الدين؟ ألا يرجع الناس إلى أهل الاختصاص في اختصاصهم، مثلًا: يأتي أناس في جهة، ويقولون: نحن إذا اختلفنا، لا تذهبوا إلى قاضي البلد، بعضنا يحكم لبعض، هذا يحصل فيه مفسدة كبيرة؛ لأن فيه إحداثًا للفرقة في هذا الأمر.

إذا جاء أحد، وقال: إن الناس - العلماء، أو ولي الأمر، الجهات - هؤلاء قصروا في الدين، فيجب أن نستقل نحن بالمحافظة على مصلحة

الدين، هذا ظاهره حسن، أنهم يريدون المحافظة على المصلحة، لكن حقيقته باطل شرعًا من جهتين:

الأولى: أنه ليس من اختصاصهم، ولا مما تعبدهم الله ﷻ به أن يحفظوا ويحافظوا على المصالح العامة، هم ذمتهم بريئة؛ لأنه غير منوط بهم المحافظة على المصالح العامة: مصلحة الفُتيا، مصلحة أهل العلم، مصلحة القضاء، مصلحة الأخلاق العامة، مصلحة الأمة العامة... هذه منوطة بأهلها، فليس للأفراد أن ينصبوا أنفسهم في ذلك، وهذا يتحقق به الفساد.

الأمر الثاني: أنهم إذا فعلوا ذلك، فإنه يكون عندهم افتئات وانشقاق عن الصف، وبالتالي فيكون لهم فرقة عن الجماعة وذهاب إلى الشذوذ والانفراد؛ ولهذا جاء مبدأ في الشرع مبدأ التناصح، النصح، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، لماذا؟ لأنه لابد أن يُعطى أهل الصلاحية والمصلحة اختصاصًا، لكن إذا أراد المسلم أن يبين، فإما أن يجعل نفسه هو الراعي للمصلحة، وهذا غير جائز شرعًا؛ لأن الراعي للمصلحة جهات الاختصاص، وأما أن يجعل نفسه مؤتمنًا على إبداء النصيحة - وهذا هو الشرع - فيما رُئِيَ من نقص في تحقيق المصالح.

الإمام ولي الأمر، أو أهل القضاء، أو أهل الفتيا، أو الوزير في وزارته، أو الرئيس في رئاسته... إلى آخره، قد يكون عنده نقص في بعض المسائل، أو قد يرى المصلحة في شيء، ويكون عند بعض الرعية رأي آخر في ذلك، فكيف يبدي له ذلك، هنا الرعية غير مناط بها أن تجعل نفسها هي المدركة للمصالح والمحافظة على المصالح العليا. المصالح المتوسطة

والمصالح الفردية ربما تخاطب بها بحسب الحال، لكن المصالح العليا لا .

إذًا : كيف يشارك الناس في تحقيق المصالح العليا؟ بمبدأ المشورة، بمبدأ النصيحة، بمبدأ إعطاء الأمر والبيان في هذا، فالمشاركة مطلوبة، فليس معنى أن يكون المناط بالجهاد أنهم هم أهل رعاية المصلحة، أنه لا يشارك الناس في ذلك، المطلوب أن يشاركوا، لكن بحسب الطريقة الشرعية؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : **«الدِّينُ النَصِيحَةُ»، قُلْنَا : لِمنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : «لِلّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمُ»**[١] .

لماذا النصيحة لأئمة المسلمين، أئمة المسلمين : إمام المسجد في مسجده، ولي الأمر في إمامته العظمى، كل بحسب الحال.

فهنا يأتي مبدأ النصيحة، ومبدأ النصيحة يكون بخلقه، ويكون بكلماته؛ لأنه يكون محقق المصلحة، فتلفت نظره إلى شيء، ربما لم يكن ملتفتًا إليه، إذا حصلت مخالفات؛ والله، أنا أرى مصلحة الدين هو كذا وكذا وكذا، ومصلحة الدين غير متحققة، نصحته، ما استجاب، وهل النصيحة حينئذٍ الواجب أن يُهْدَى الناس بها، أو أن يكون صاحب الصلاحية الشرعية في جهته - جهات الاختصاص، القضاء، الفتيا، الأمن، ولي الأمر في الأمور العامة، الجهات السياسية ونحو ذلك - هل يلزم أن يستجيب لكل ناصح في نصحه؟ لا يلزم.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، وأخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

أنت عليك أن تشارك في تحقيق المصلحة بإبداء الرأي والنصيحة، لكن هو عنده أشياء أكثر وأكثر، ربما فتحت عليه بابًا لم يكن في باله، فاستجاب لذلك، وربما كان عنده من الأمور ما ليس عندك، وربما يحتاج إلى تكرار في بعض المسائل.

مثلًا: إمام مسجد عنده قصور في صلاته، بينت له، ما استجاب، تبين له مرة أخرى، ثانية، وثالثة، صحيح هو المسؤول عن المسجد، هو المسؤول عن القراءة، لكن يحتاج إلى بيان مرة أخرى بأسلوب شرعي صحيح؛ لعل الله ﷻ أن يهدي قلبه، أو أن يجعله مدركًا للمصلحة الشرعية من ذلك.

إذًا: فهناك مصلحة منوطة بجهة - كما ذكرنا لك -، منوطة بالإمام، بنوابه، سواء كانوا أفرادًا أو جهات، الناس فيما يتعلق بالمصالح العليا للأمة وسيلتهم في ذلك النصح، والبيان، والإرشاد بحسب الحال. لكن لو لم يحصل، بل حصل افتئات، جاءت جهة، وقالت: نحن الأدرى بمصالح الأمة، ونريد الإصلاح، بدون الرجوع إلى صاحب المصلحة التي أناطها به الشرع بقوله: «**والْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1]، قالوا: لا، نحن المؤهلون لذلك، فهذا يحصل فيه عدة مخالفات شرعية:

أولًا: إنه معصية لله ﷻ ولرسوله ﷺ، أما الله ﷻ، ففي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، والأمر الثاني في قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٤٣).

عَصَانِي»[1]، وهنا المصلحة متحققة بهذه الرعاية، له أن يسعى في المصالح والإصلاح، لكن في قناة صاحب الاختصاص شرعًا، وهو الإمام، أو نائبه، أو الجهات المختصة.

المفسدة الثانية: أن فيها منازعة الأمر لأهله وشق عصا الطاعة.

المفسدة الثالثة: أنها مخالفة لهدي السلف، وهدي السلف هو الأكمل.

المفسدة الرابعة: أن فيها غرسًا لبذور الفتنة والاختلاف، والنبي ﷺ يقول: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[2]، رواه الإمام أحمد وغيره بإسناد جيد، وجاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أو غيره - يقول: (**والله لما تخشون في الجماعة أحب إليَّ مما ترجون في الفرقة**)، ما تخشون في الجماعة: يعني: الأشياء التي لا تحبونها مع بقاء الجماعة والاجتماع والائتلاف أحب إليَّ - وهو الصحابي المشهود له - مما ترجون في الفرقة، لماذا؟ لأن الفرقة كل ما فيها أحلام لا تتحقق، لما يأتي واحد يقول: هذه فرقة بسيطة، ما تضر، لابد أن نفعل كذا، الحق أن نعمل كذا، الحق أن ننكر المنكر بالطريقة هذه، الحق أن نقتل بهذه الطريقة، الحق أن نفعل بهذه. هذه أشياء متوهمة، لا تحقق مصلحة، والتاريخ - لمن قرأه - شاهد من أوله إلى يومنا الحاضر، فتحقيق المصالح بالاجتماع، وتحت راية، هذا الذي يكون معه الكثير من إدراك الأمور.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٤٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٢/ ٩٥، ٩٦)، كما أخرجه ابن أبي الدنيا في فضيلة الشكر (١/ ٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٢).

لكن مع ذلك هل نرجو دائمًا أن تكون الأمور على وجه الكمال؟ يا إخوان الخيالات لا وجه لها في تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

دائمًا الله ﷻ جعل الدنيا مُدافَعة بين الخير والشر، حكمة من الله ﷻ أن يأتي الشر، يكثر، ثم يضعف، وأن يكون هناك فيه مدافعة له؛ لينظر العباد ماذا يعملون، هل جاهدوا بالطريقة الشرعية؟ هل سلكوا الطريق الشرعي في الإصلاح؟ في إنكار المنكر؟ هل تربى الناس؟ ربوا أولادهم؟ ربوا أسرهم؟ هل كان لديهم عقيدة في دينهم ولم يكترثوا بالتيارات المخالفة للعقيدة من التيارات الشرقية والغربية ونحو ذلك؟ هذه ابتلاءات عظيمة، الله ﷻ يقضيها، ويقدرها.

كيف لا؟ ونوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ماذا حصل؟ ما آمن معه إلا قليل، قليل: اثنا عشر، أو عشرون، أو سبعون، أو ثلاثة وسبعون، على حسب الروايات[1]، قليل في حصيلة ألف سنة، ما

(١) قال الطبري (٨/ ٢١٤): «فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح عليه السلام ثلاث عشرة فيما حدثني به ابن حميد».
وقال السمرقندي (٢/ ١٥١): «قال ابن عباس هم ثمانون إنسانًا، وقال الأعمش: كان نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين إمرأة».
وقال البغوي (٢/ ٣٨٤): «واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريح ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية: نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم. وقال الأعمش: كانوا سبعة: نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن له. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به أزواجهم جميعًا. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفرًا رجلًا وامرأة وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت سفينة نوح ثمانون رجلًا أحدهم جرهم».

نفع، رسول مؤيد يريد الإصلاح، ما نفع، شعيب عليه السلام يقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٨٨]، ما النتيجة؟ النتيجة ضعيفة، ليس المراد أن تتحقق النتائج، المراد أن الله عز وجل ابتلانا بشرعه، فنمتثل بالطريقة التي أمرنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]؛ لذلك تحقيق المصالح ودرء المفاسد هذا مناط بالجميع في أن يرعوا لكل ذي حق حقه.

القسم الثاني: المصالح الدنيوية: المصالح الدنيوية كثيرة في حياة الناس، والأكثر من الناس يهتم بمصالحه الدنيوية.

المصالح العليا للأمة في دنياها:

أول مصلحة عليا في دنياها: أن تكون الأمة قوية مهابة؛ حتى لايتجرأ عليها أعداء لها، من داخلها أو من خارجها، فأول المصالح التي دعا إليها الشرع، ومن الضروري أن يحافظ عليها من الجميع - من كل مسلم بحسبه؛ لأنها مصالح دنيوية.

أولًا: ضرورة قوة الأمة والهيبة، قوة الأمة وهيبتها تتحقق باجتماعها وعدم اختلافها؛ لأن الذئب يأكل من الغنم القاصية، والشيطان كذلك، من تفرد برأي أو بأمر خالف فيه الجماعة، فإنه يغريه الشيطان: إنك، وإنك، وإن الناس على باطل، وأنت على الحق، وأنت في مقام الإمام أحمد في زمنه، والناس خالفوا في زمن محمد بن جعفر الطوسي، ولم يكن على الحق إلا هو، والله عز وجل يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فيوهمه أنه بالفرقة تحقق له أنه يقوي الحق، أو أنه

هو الحق، وهو الجماعة وحده.

هنا قوة الأمة وهيبتها مصلحة دنيوية ضرورية لتدفع الأعداء، إذا اختلت الأمة في قوتها وهيبتها بتفرقها وعدم اجتماعها تأتي التأثيرات:

أولًا: يختل الأمن شيئًا، ويبدأ الخوف في النفوس.

الثاني: يتجرأ أهل الأهواء في أهوائهم، السراق في سرقاتهم، يتجرأ أهل الشهوات في شهواتهم، أهل الاعتداءات، يتجرأ الذين يريدون الباطل الذين يريدون قطع الطريق، يريدون الائتلاف.. إلى آخره.

الأمة المهيبة القوية يهابها عدوها، ويهابها المغرضون من داخلها؛ لذلك من سعى في الحقيقة إلى اجتماع الأمة فإنه يسعى - ليس كما يقال: يسعى ليكون الناس مع الحكومة؛ مثل ما يقول بعض الناس - لمصلحة كل فرد من المسلمين، كل واحد منا منوط به أن يحفظ أخاه، وكيف تحفظ أخاك؟ بأن تقوي هيبة الأمة، وأن تقوي اجتماع الأمة وعدم التفرق؛ لأن التفرق يحدث الكثير من الضعف والاختلافات، وأن يطعن بعضهم في بعض، وأن يغري بعضهم بعضًا في الاعتداءات وفي القيل والقال.

أليس من محاسن الشرع أن يكون المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا؟ بلى. أليس من محاسن الشرع أن التعاون على البر والتقوى؟ بلى. كيف يحصل ذلك، وهذا يطعن في هذا، وهذا يشك في هذا، إذا حصل الجيوب الداخلية - بالتعبير العصري - في الأمة، صار هذه جماعة وحدها، وهذه فئة وحدها، هذا حزب وحده ينادي بأمر، وهذا ينادي بأمر... إلى آخره، فصار هذا يطعن في هذا، ويطعن في هذا، فإذًا: كل فئة ستحاول أن

تحفظ مصالحها مع شاكلتها، وبالتالي سيحدث العداء بين كل فئة وأخرى، وبالتالي لا تتحقق مصالح العباد في هذا الأمر.

ولهذا لما ظهرت الفتن في عهد الصحابة ﷺ، حذر الشرع من الفتن ما ظهر منها وما بطن، والصحابة - رضوان الله عليهم - أكثروا من الكلام في هذا الأمر.

الأمر الثاني من المصالح العليا التي تتحقق بها المصالح الدنيوية للناس: أن يكون هناك عدل، وأن يرتفع أو يقل الظلم، الظلم واعتداء بعض الناس على بعض، وظلم بعض الناس بعضًا هذا متأصل في نفس الإنسان من حيث كونه إنسانًا؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لماذا حملها؟ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، قبل بحملها؛ لأنه من صفته أنه لا يبالي، يظلم، يفرط في الحقوق، ومن صفته أنه يجهل العاقبة.

فإذًا: من صفة الإنسان الظلم، فمن المقاصد العامة والمصالح العليا للأمة أن يتحقق العدل، وأن يدفع الظلم، إذا كان الأمر كذلك فكيف يتحقق العدل؟ وكيف يدفع الظلم؟

أولًا: بتعظيم تقوى الله ﷻ في النفوس؛ لأنه لا يمكن أن يكون للإنسان وازع أعظم من تقوى الله ﷻ، فإذا ضعفت التقوى، ظلم: ظلم أولاده، ظلم زوجته، ظلم جيرانه، ظلم من يعامله... إلى آخره، ما عدل في نفسه وأهله وما ولي.

إذًا: فلابد من تعظيم التقوى في النفوس، والخوف من الله ﷻ؛ حتى

يحصل تحقيق للعدل ودفع للظلم.

الأمر الثاني: يتحقق العدل ويندفع الظلم - لابد - بقوة السلطان؛ لأن هيبة السلطان وهيبة الدولة يهاب معها من يريد أن يظلم، فيكون الناس أقرب إلى العدل، وأبعد عن الظلم، في ظل دولة قوية عادلة.

فإذًا: تقوى الله ﷻ أولًا، والثاني وجود الدولة، قوة الدولة؛ لترعى العدل وتقليل الظلم.

الأمر الثالث: أن يكون هناك جهات تفصل فيما قد يظلم الناس بعضهم بعضًا فيه، وهي جهات القضاء وجهات الأمن، يقول الشاعر:

الظُلمُ مِن شِيَمِ النُفوسِ فَإِن تَجِد ... ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظلِمُ[1]

يعني: أغلب الناس عندهم هذا الظلم، إذا ظلم الناس بعضهم بعضًا، هنا ذهبت المصلحة العليا، وهي تحقيق العدل في الناس، ولهذا قال الله ﷻ في أمره لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، لماذا؟ لأن به يتحقق العدل، ويندفع الظلم.

هنا كلما قوي الاجتماع، قويت مظنة العدل، ومظنة اندفاع الظلم، إذا قوي الدين، قويت مظنة العدل، وقويت مظنة اندفاع الظلم؛ ولذلك كان التظالم في عهد النبي ﷺ أقل منه في عهد أبي بكر، وفي عهد أبي بكر أقل منه في عهد عمر، وهكذا في أشياء أُخر.

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني (١/ ٤٤)، وأدب الدنيا والدين (١/ ١٦٣)، ومحاضرات الأدباء (١/ ٢٧٥).

الثالث من المقاصد العليا للأمة لمصلحة دنياها: أن يكون هناك أمن شامل، يقول الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) - بعدما ذكر أنواعًا من المصالح - قال: (**فَسَنَبْدَأُ بِذِكْرِ مَا يُصْلِحُ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَتْلُوهُ بِوَصْفِ مَا يَصْلُحُ بِهِ حَالُ الْإِنْسَانِ فِيهَا. اعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ تَصْلُحُ الدُّنْيَا حَتَّى تَصِيرَ أَحْوَالُهَا مُنْتَظِمَةً، وَأُمُورُهَا مُلْتَئِمَةً، سِتَّةُ أَشْيَاءَ هِيَ قَوَاعِدُهَا - وَإِنْ تَفَرَّعَتْ -، وَهِيَ: دِينٌ مُتَّبَعٌ وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ وَعَدْلٌ شَامِلٌ وَأَمْنٌ عَامٌّ وَخِصْبٌ دَائِمٌ وَأَمَلٌ فَسِيحٌ**)(١).

القصد مما قال: أن من المصالح العليا للأمة لتحقيقها في دنياها الأمن الشامل، الأمن الشامل هذا نعمة من الله ﷻ ومصلحة عليا، ومنوط بكل إنسان، كل إنسان يبحث عن أي شيء؟ يبحث عن الأمن، ولهذا سمي الإيمان إيمانًا؛ لأن به يحصل الأمن في الآخرة، ويحصل به الأمن - أيضًا - في الدنيا، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

الإيمان مشتق من الأمن؛ لأن عاقبة الإيمان الأمن في الدنيا والأمن في الآخرة، ولهذا امتن الله على الناس يوم القيامة بأنهم في العرصات يخاف من يخاف، وأما أهل الصلاح والإيمان والتقوى، فهم آمنون، قال ﷻ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، أهل الجنة من أخص نعيمهم أنهم في أمن، لا ينغصهم شيء، قال ﷻ مخاطبًا أهل الجنة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وفي الدنيا - أيضًا - فرض الله ﷻ على الجميع الأمن، وأن

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين (١/ ١٦١).

يحققوا الأمن في مجتمعهم؛ حتى يحقق لهم الأمن في أنفسهم، وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، هنا لاحظ النتيجة، قال: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى﴾ [النور: ٥٥]، فعبادة الله ﷻ وعدم الشرك به جاءت بعد الوعد بتحقيق الأمن؛ لأن تحقيق الأمن من مقاصد الشرع في تحقيق المصالح العليا للأمة في دنياها، ولهذا قال ﷺ في تنبيه عظيم في الصلة ما بين تمام الدين وتمام الأمن، قال ﷺ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ** - يعني أمر الدين -، **حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ**»(١)، الظعينة: المرأة على راحلة(٢)، وحدها تسير في كل هذه المسافة لا تخشى إلا الله، علق هذا بماذا؟ بإتمام هذا الأمر.

إذًا: فتمام أمر الدين ومصلحة الناس في دنياهم متعلقة شرعًا بتحقيق مصلحة الأمن، وحينئذ فمصلحة الأمن في حياة الناس ليست هي أمن للدولة، هي أمن الناس، ولهذا المنوط بهذه المصلحة هو ولي الأمر.

ولي الأمر أهم واجباته ثلاثة واجبات:

الأول: تحقيق الدين.

الثاني: تحقيق الدفع - دفع الأعداء الخارجيين الذين يريدون بالأمة -.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ١٩٦)، وأصله في البخاري (٣٥٩٥).

(٢) انظر: مادة (ظعن) في العين (٢/ ٨٨)، وجمهرة اللغة (٢/ ٩٣١)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٨٠)، ولسان العرب (١٣/ ٢٧١).

الثالث: تحقيق الأمن الداخلي.

هذه الواجبات العامة الثلاثة، وفي كل واحد تفصيلات في ذلك، لكن ينزل هذا إلى أن يكون كل فرد مطالبًا لتحصيل دنياه، ولتمام دنياه بأن يكون هناك تحقيق للأمن.

رابعًا: أيضًا من المصالح العليا للأمة المتعلقة بدنياها ولها صلة بدينها أن تكون أمورهم منضبطة بلا شقاق ولا نزاع، وخاصة في الأمور الدينية، مثل: مسائل الفتوى، ومسائل القضاء، إذا كان هناك اضطراب في القضاء أو اضطراب في الفتوى، فإن المصالح الدنيوية للناس تضعف، صحيح أن الفتوى ليست متعلقة بالدنيا، لكن ضبط الفتوى متعلق باجتماع الناس وائتلافهم، وتحقيق مصالحهم العامة الدنيوية والأخروية. كيف ذلك؟ القضاء واجب أن تكون جهة القضاء مستقلة في الشرع، بمعنى أن يكون القاضي فيما يحكم به، وفيما يأتيه، وفيما يفصل به في الحكومات - يعني: في الأقضية التي تأتيه والخصومات - أن يكون مستقلًا عن أي جهة تؤثر عليه، إذا كان هناك جهة تؤثر عليه، فهذا فيه قدح في مصلحة تتعلق بها دنيا الناس، وكذلك في دينهم؛ لأنه لن يؤخذ لذي الحقِّ الحقُّ من خصمه، بل يكون هذا يؤثر عليه، وهذا يؤثر عليه.

فاستقلال القضاء من أعظم المصالح، وهيبة القضاء من أعظم المصالح التي نتوخاها في الشرع، وإذا كان الأمر كذلك، فوسيلة تحقيق هذه المصلحة العليا:

أولًا: - فيما هو منوط بالدولة عامة -: أن يكون القضاء مستقلًا لا يُتدخل فيه.

والأمر الثاني: أن يكون القاضي - سواء كان القاضي في محكمة فرد، أو كان التميز، أو كان مجلس القضاء الأعلى، يعني الجهة التي يترتب على حكمها التنفيذ - أن ينفذ حكمها الشرعي بدون تأخير؛ لأن هذا فيه قوة ومصالح الناس.

والأمر الثالث: ألا يطعن في القاضي، وهذا منوط - أيضًا - بالجهات - جهات عليا -، وكذلك بالناس والأفراد، فتحقيق مصالحكم أنتم أيها الناس في الدنيا بألا يتعرض للقاضي بالطعن.

والآن تجد من أحاديث الناس، ربما بعض الناس في مجالسهم يقول: القاضي فلان فعل كذا، وهذا فيه كذا، وهذا يأخذ كذا، أعوذ بالله هذا فيه كذا، وإذا دققت في كلامه، وجدته إما أن له هو قضية، وما حُكم له فيما يشتهي، أو يكون هو متغرض، أو متوهم يرى شيئًا غير صحيح، يظن ظنًا، ثم يذهب يقوله.

فالطعن في القضاء أو في القضاة مضر بالمصالح العليا للأمة؛ لأن القاضي يجتهد في حكمه، وقد يكون اجتهاده مصيبًا - وهو الأكثر -، وقد يخطئ في اجتهاده، لكن حكمه واجب التنفيذ، ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[1]، يدل على أن حكم القاضي اجتهادي، النبي ﷺ - وهو الموحى إليه - يقول: «**أَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

أَسْمَعُ»، البينات، الدلائل على نحو ما يسمع، بعضهم يكون ألحن، يستطيع يبين، يبين كذا، يظهر أشياء، يخفي بأشياء، والثاني يكون ضعيف الحجة، ما أتى ببينات، والقاضي يحكم بناء على ظاهر ما عنده، حتى ما يعلم، لا يحكم بعلمه هو، يحكم بما عنده من الحجج والبينات والكلام الذي أمامه، وقد يجتهد، والغالب على اجتهاداته الصواب، وقد يخطئ، لكن لا يعني ذلك أن يطعن فيه.

فإذًا: المحافظة على هيبة القضاء، واستقلالية القضاء، وعدم الطعن في القضاة هذه مصلحة عليا متعلقة بالدين، وكذلك متعلقة بدنيا الناس؛ لأنه إذا كان الناس يطعن بعضهم في بعض، وسيما في أهل القضاء وأهل الاختصاص، فإنه حينئذ تنخرم دنياهم؛ لأنه لا يكون لأحد حينئذ قناعة بوصول العدل له ودفع الظلم عنه.

الجهة الثانية: جهة الفتوى، فمن مصالح دنيا الناس أن تضبط لهم الفتوى، الفتوى منوطة بأهل العلم الراسخين فيه، والأصل - كما قلت لكم - في الفتوى من يليها؟ يليها الإمام، النبي ﷺ هو نبي ومرسل ﷺ، من جهة تبليغه للوحي، لكن من جهة ممارساته في دولة الإسلام في المدينة ﷺ مارس أنواعًا من المهام والصلاحيات؛ كما يقول أهل السياسة الشرعية، تارة ﷺ يتصرف بكونه إمامًا ولي أمر، وتارة يتصرف بكونه قاضيًا يفصل في الخصومات، وتارة يتصرف ﷺ بكونه مفتيًا، وتارة يتصرف بكونه إمامًا لمسجده ﷺ، وتارة يتصرف على أنه زوج لزوجات، رب لأسرة، وتارة يتصرف على أنه مرشد وناصح ما يُلزم، مثل: المرأة التي أتته، نصحها

نصيحة، قالت: أمر أم نصيحة؟ قال: نصيحة. قالت: ما لي حاجة بنصيحتك.

فإذًا: تصرفات النبي ﷺ ليست كلها تصرفات على نحو واحد، وهنا تصرفاته ﷺ من كونه هو الإمام المفتي الذي يفتي للناس.

في عهد الصحابة في المدينة كان يُفتي أبو بكر، في عهد عمر يُفتي عمر، وإذا جاءت مسألة عظيمة، جمع لها أهل بدر يسألهم فيها، وربما استشار في مثل مسائل معروفة في الفرائض وفي غيرها أو أناب عنه من يفتي.

فإذًا: الإفتاء منوط بمن جعل مفتيًا، أنابه ولي الأمر في الإفتاء، أو أذن له إما باللفظ وإما بالعرف، فحينئذ إن كان كل أحد يريد أن ينازع في الفتوى، يُمنع من ذلك من جهتين:

الجهة الأولى: جهة الخوف من الله ﷻ، كيف واحد يُصدر نفسه للفتوى ويفتي في اليوم في مئة مسألة، خاصة في بعض المواقع في الإنترنت، أو في بعض الأماكن، يفتي بكثرة، وهو ليس من المتأهلين لهذا الشأن. الخوف من الله ﷻ، الصحابة كانوا يتدافعون الفتيا[1]، هذا من جهة.

الجهة الثانية: أنه يجب عليه أن يراعي المصلحة العليا بأنه ليس لكل أحد أن يفتي، المفتي يستأذن ولي الأمر، فإن أذن له بالفتوى، أفتى

---

(١) قال داود: (سألْتُ الشّعْبِيّ كيْف كُنْتُمْ تصْنعُون إذا سُئِلْتُمْ؟ قال: على الْخبِيرِ وقعْت، كان إذا سُئِل الرّجُلُ، قال لِصاحِبِهِ: أفْتِهِمْ، فلا يزالُ حتى يرْجِع إلى الْأوّلِ).
انظر: سنن الدارمي (١/ ٦٥)، وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ٣٦٥)، والإنصاف للدهلوي (١/ ٤٧)، وقواعد التحديث للقاسمي (١/ ٣٣٦).

وإلا فليس له ذلك، فالمسألة مسألة دينية.

فرعاية مصلحة الناس في ضبط الفتوى هي مصلحة دينية ودنيوية، وهي الأكثر؛ لأنه حينئذ بعض الناس يحصل له اختلاف مع البعض، ويحصل هناك فرقة، ويحصل هناك شتات في الأمور العامة، إذا جاءك: والله، في المسألة الفلانية نفعل كذا أو ما نفعل؟ نسأل فلانًا؟ سألوه بما يخالف فتوى أهل العلم الراسخين فيه، بما يخالف فتوى المفتي، بما يخالف الفتوى في ذلك، فحينئذ يحصل الخلاف في الناس، والخلاف شر.

مثل بعض الناس، بعض طلبة العلم، ويقول: أرى أن فتوى المفتي - أيًا كان - ليست صائبة في هذه المسألة.

نقول: هنا جهتان:

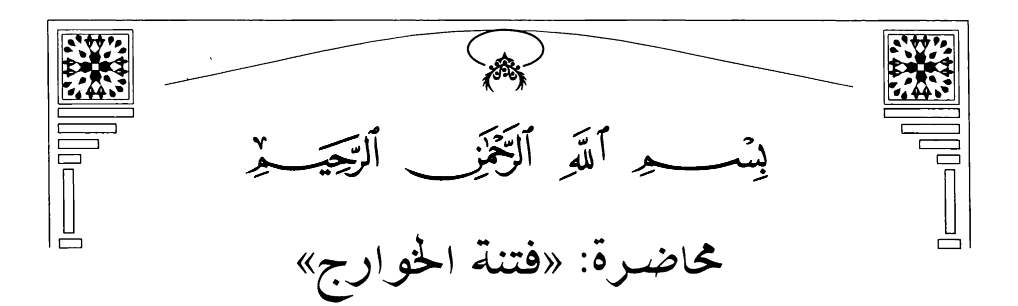
الجهة الأولى: هل الفتوى متعلقة بك أنت بأهلك في بيتك، أو متعلقة بالشأن العام؟ إذا كانت متعلقة بك، أنت تعمل، خاصة إذا كان طالب علم يستطيع أن يبحث، تعمل ما تدين لله ﷻ به لنفسك، أما إذا كانت متعلقة بالأمة، بالغير، فليس لك أن تفتئت، فتفتي للأمة بما يخالف فتوى أهل الاختصاص الذين أُنِيط بهم رعاية المصلحة في الفتوى.

ما الفتوى في الحقيقة؟ هي توقيع عن رب العالمين، بمعنى أنها إبلاغ بأن مقصد الرب ﷻ من الناس في هذه المسألة شرعًا هو كذا، وقد يكون المقصد هنا برعاية نص، وقد يكون برعاية النصوص مع رعاية القواعد العامة، ورعاية تحصيل المصالح ودفع المفاسد، وفي الغالب فإن أهل الإفتاء وأهل الاختصاص يطلعون من التفاصيل ما لا يطلع عليها عامة الناس، فلذلك

كان من المصالح العليا المنوطة بالأمة أن تجتمع في الفتيا، وألا تتفرق في مسألة الفتيا في المسائل العامة المتعلقة بالفتيا؛ ولهذا لا يصلح أن ينصب فئة من الناس أنفسهم مفتين فيما يتعلق بالمصالح العليا للأمة.

مسائل هذه المحاضرة كثيرة ومتنوعة، أسأل الله ﷻ أن يجعل هذه الأمة من رفعة إلى رفعة، وأن يعلي لها منارًا، وأن يخمد لأعدائها نارًا، اللهم قونا في ديننا ودنيانا، اللهم وفق ولاة أمورنا لما فيه الرشد والسداد، واخذل أهل الشر والفساد والعناد، اللهم اخذل الفئة الضالة المارقة، ومكِّن منهم يا أرحم الراحمين، أو ائت بهم مهتدين هادين يا أرحم الراحمين، اللهم اجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، واجعلنا من الأقوياء في دينك، واجزِ خيرًا كل من كان من همه أن تحتفظ هذه الأمة بقوتها وهيبتها من جميع الجهات؛ إنك سبحانك جواد كريم، اللهم وفق علماءنا إلى ما فيه الرشد والسداد، واجعلهم من رشد إلى رشد ومن هيبة إلى هيبة، إنك على كل شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، اللهم فاغفر جمًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلة وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊



محاضرة: «فتنة الخوارج»

وقد قام فضيلته بإلقائها في فاتحة ندوة جائزة الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإني مسرور غاية السرور أن تكون هذه الندوة فاتحة أنشطة كثيرة ومتتالية ومتتابعة لجائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود في السنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، فأجدني متذكرًا جهد سموه الكبير على مدى سنتين مضت لترسو قواعد هذه الجائزة، ولتتضح معالم أنشطتها والأطر لبحوثها.

فأبدأ بعد حمد الله والثناء عليه بالشكر لسموه باسمي وباسم جميع طلبة العلم والباحثين والدارسين وخطباء المساجد والدعاة، الذين هم جميعًا يحرصون على السنة النبوية وعلومها، ثم أشكر لسمو أمير منطقة المدينة

المنورة حضوره لهذا الافتتاح وهذه الندوة، شاكرًا له جهوده الكبيرة في دعم النشاط العلمي والبحثي في منطقة المدينة المنورة، ولسمو المشرف العام على الجائزة، الشكر منا والتقدير على حرصه على هذه الأنشطة والندوات وما قدمه في كلمته من إيضاح للجائزة ولأنشطتها، وما ذكره من جائزة جديدة لحفظ السنة النبوية والحديث النبوي الشريف.

ولأمانة الجائزة ولسعادة الدكتور المقدم مني الشكر والتقدير.

الوقت يضيق عن تكرار بعض ما تفضل به سماحة الشيخ/ محمد سيد طنطاوي (جزاه الله خيرًا)، وأجدني مضطرًا إلى أن أدخل في صلب الموضوع، وأقسم ما سأتكلم عنه إلى أربعة أقسام:

أما الأول: فهو ذكر أسباب الفتن؛ لأن معرفة السبب يورث معرفة المسبب، ومعرفة المقدمات تورث يقينًا معرفة المآلات.

والثاني: بعض نتائج وصور من الفتن والافتتان الذي وقع في هذه الأمة.

والثالث: رؤية موجزة للعلاج.

والرابع: ما موقف المسلم أيًا كان من الفتن في ضوء الكتاب والسنة وقواعد الشريعة المطهرة.

الفتن جمع فتنة، والفتنة - كغيرها من الألفاظ - لها استعمالان: استعمال لغوي، وقد فصَّل فيه فضيلة الشيخ قبل ذلك، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة، وهناك استعمال اصطلاحي عرفي، مشى في الناس، وهو أن الفتنة ضرر يقع في الناس باختلاف فيما بينهم، أو قتل، أو انعدام

للأمن، أو يمكن تعريف الفتنة التي يتداول معها الناس هذه الكلمة بأنها : أقوال وأعمال تخرج عن الشريعة، وتؤدي إلى انعدام الأمن، واختلاف الجماعة، وحدوث الفرقة.

وهذا هو المقصود بالتحذير من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وهو التحذير من الأقوال والأعمال، التي تخرج عن إطار الشريعة، وتؤدي إلى انعدام الأمن، وتفرق الجماعة، وحصول الفرقة.

هذا المعنى للفتن وجد في تاريخ الإسلام، بل قد قال بعض الباحثين : إن تاريخ الإسلام مملوء بالفتن، بل غلا بعضهم، وقال : هل تاريخ المسلمين إلا الفتن؟ وهل نقرأ في كتب التاريخ إلا الاقتتال؟ وهل نقرأ في كتب التاريخ إلا سفك الدماء؟ وهذا صحيح من وجه وغلط من وجه.

أما صحته، فموجود في كتب التاريخ ما ذُكر من كثرة الاقتتال والخروج والدماء، واستباحة الدم والمال والعرض، ولكن هناك شأن عند المؤرخين - لا ينبغي أن يسود في أذهاننا في تاريخ الإسلام والمسلمين -، وهو أن المؤرخين درجوا على أنهم لا يذكرون إلا السيئ الغريب، ولا يذكرون الحسنات الكثيرة التي عملها الخلفاء، وعملتها دول الإسلام المتعاقبة، إلا فيما ندر، فتجد أنهم عند حوادث كل سنة يذكرون ما حصل فيها من القتال، ما حصل فيها من الفتن، ما حصل فيها من الوفيات، والقليل من يذكر ما فيها من أمور محمودة. فلا يغلبن على الأذهان تلك الصورة التاريخية مما هو موجود في التاريخ، لكن الفتن موجودة، وسنعرض لبعض الأمثلة بحسب ما يتسع له الوقت.

الفتن لها أسباب:

الفتن بالمعنى الذي ذكرنا، الفتن التي تُحدث الفرقة، تُحدث انعدام الجماعة، تُحدث الخروج عن إطار الشريعة وانعدام الأمن وحصول القلاقل، والاعتداء على الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لها نشأة. نشأتها دائمًا تكون من مجموعة أو جماعة، أرادت زعزعة الأمن وتفريق الجماعة، وغالبًا من الصور تكون تلك الفئة أداها إلى الفتنة وإلى الخروج، وإلى القتل، وإلى السفك، الغلو في الدين وزيادة التدين؛ لذلك نذكر بعض الأسباب بحسب ما يناسب المقام.

أما السبب الأول لظهور الفتن: فهو الجهل: الجهل بالدين، أو الجهل بقواعد الشرع، أو الجهل بالحقوق، هذا يؤدي إلى حدوث الفتن؛ لأن من كان عنده جرأة وغيرة باطلة غير منضبطة، فإنه سيتجرأ بجهله على أن يخوض الفتنة، وقد بدأت منذ ذلك الرجل الذي قال للنبي ﷺ لما فرق بعض المال، قال: **يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»**(١)، فعلًا خرج أولئك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤).

الجهل بحق النبي ﷺ، الجهل بالعلم، الجهل بالدين قاتل؛ ولذلك ما خرج أحد إلى الفتن، إلا وأداه خروجه إلى أن يكون جاهلًا، بل كان سبب ذلك هو جهله، ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله في قوله[1]:

وَالجَهلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ　　أمرَانِ فِي التَّركِيبِ مُتَّفِقَانِ

نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أو مِن سُنَّةٍ　　وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

فإذا كان الكتاب والسنة دواء، فإن صرفه وفهمه يكون من العالم الرباني، لا من فهم آحاد الناس.

السبب الثاني لظهور الفتن وظهور الفاتنين والمارقين: اتباع المتشابه، وترك المحكم. الله سبحانه وتعالى ابتلى الناس بأن جعل في كتابه محكمًا ومتشابهًا.

المحكم هو: ما هو بين واضح يُدرك معناه.

والمتشابه هو: ما يشتبه معناه، فيدركه أهل العلم وأهل الرسوخ في ذلك، ولا يدرك معناه كل أحد. قال الله ﷻ في فاتحة سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: ٧]. فيه آيات محكمات واضحة بينة وفيه آيات متشابهات، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

وأقف هنا وقفتين:

أما الأولى: فهي انقسام القرآن إلى محكم ومتشابه، فالمتشابه موجود، فمعنى ذلك أن يكون المسلم على حذر من أن يستدل بالقرآن استدلالًا خاطئًا، وكما قال بعض أئمة الإسلام: ليس الشأن في أن تستدل - ليس الشأن أن تقول: قال الله، وقال الرسول -، وإنما الشأن أن يكون استدلالك صحيحًا، موافقًا لفهم السلف.

الشأن ليس في الدليل، الدليل منه محكم ومنه متشابه، لكن الشأن في أن يكون استدلالك صحيحًا. كل أحد اليوم يقول: الكتاب والسنة، كل أحد يستدل، حتى أهل المروق، وحتى أهل الضلال الذين أوبقوا وعملوا ما عملوا من تفجيرات وفتن وقتل للمسلم وللمعاهد والمستأمن، وعملوا، هل الشأن في وجود الدليل؟ ليس الشأن كذلك، الشأن في أن يكون أولًا الدليل محكمًا، ثانيًا: أن يكون الاستدلال صحيحًا موافقًا لفهم سلف الأمة من هذا الدليل.

كذلك السنة، إذا كان القرآن فيه محكم ومتشابه، فكلام النبي ﷺ فيه محكم، وفيه متشابه، كيف نعرف المتشابه؟ كيف يفهم أهل العلم المتشابه؟ يردون المتشابه إلى المحكم، فيفهمونه.

الوقفة الثانية في الآية: وألحظها في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾، فأثبت وجود الزيغ أولًا، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ أي: أن وجود المتشابه ليس هو سبب الزيغ، لكن هم قد وُجد الزيغ في أنفسهم، فاتبعوا المتشابه، وهذا كثير في أن المرء الذي عنده هوى، وعنده

ضلال يبحث عن ما يستدل به لمقررات سابقة عنده.

وقد ذكر ابن حزم في أول كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) أن من أسباب الانحراف أن يكون عند الإنسان مقررات سابقة، فهوم، أحكام، اتجاه، فيبحث عن الدليل؛ ليؤيد اتجاهه.

وهذا سبب رئيس لحدوث الفتن والاختلاف والضلالات، فاحذر أن يكون عندك هوى في شيء، ثم بعد ذلك تبحث في الأدلة، تبحث في الكتب عن ما يساند ما قررته سلفًا، وما اتجهت إليه سابقًا، أو اتجهت إليه مجموعتك، أو اتجهت إليه جماعتك، أو نحو ذلك. هنا نحذر.

في السنة - أيضًا - محكم ومتشابه، كذلك أقوال العلماء، هل أقوال العلماء من الصحابة أو أعمال العلماء وأفعال العلماء كلها محكمة؟ ليست كذلك، منها ما هو محكم، ومنها ما هو متشابه. فإذا أتى أحد وقال - في بعض كلامه -: الإمام الشافعي قال: كذا وكذا، الإمام ابن تيمية قال: كذا وكذا، الإمام مالك قال: كذا وكذا. هل المسألة انتهت في أن يكون قوله صوابًا؟ ليس الأمر كذلك، لابد أن يكون أقوال أهل العلم:

أولًا: محكمة.

ثانيًا: إذا كانت متشابهة، فترد على المحكم، إذا لم يستبن الأمر فيها، فالرجوع في فهم أهل العلم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

السبب الثالث: التأويل، وهل أفسد الدنيا إلا التأويل، يتأول الأمور، فيحرف الأمور عن وجهها؛ حتى يصل إلى ما يريده، والتأويل مما أضر بالناس، سواء أكان التأويل في العقائد، أم كان التأويل في مسائل العمليات

التي اتجهت إليها بعض الفرق كالخوارج والمعتزلة وغير ذلك.

الرابع: حب الدنيا والرياسة، ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر الخوارج قال: إن سبب ظهورهم - هم ظهروا في أي زمن؟ ظهروا في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هل هناك أنقى في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عثمان؟ هل هناك أنقى من دولة عثمان؟ لكنهم نقموا عليه، وخرجوا عليه، حتى قتلوه في بيته، وهو ناشر المصحف يقرأ فيه، وكان صائمًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن من خرج من الخوارج وغيرهم على ولي الأمر، فإنما أخرجه لذلك شهوة باطنة في حب الدنيا والرياسة جعل لها سبيلًا من بعض مسائل الدين أو الغيرة على الشريعة. فجعل ذلك سلمًا لشهوة باطنة عنده، وهذا كلام ظاهر وصحيح لمن تأمل.

السبب الخامس: الغلو، الغلو هو مجاوزة الحد، الله عَزَّ وَجَلَّ نهى هذه الأمة عن الغلو، كما نهى أهل الكتاب، قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»[(١)]. الغلو: مجاوزة الحد عن المأذون به، فمن جاوز الحد عن السنة المرضية، فقد غلا، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما[(٢)].

كان عف الكلام، عف اللسان، رحيمًا، برًا، قويًا في موضع القوة، لينًا

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، **عنْ عائِشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنّها قالتْ: «ما خُيِّر رسُولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيْن أمْريْنِ إلّا أخذ أيْسرهُما، ما لمْ يكُنْ إثْمًا، فإنْ كان إثْمًا كان أبْعد النّاسِ مِنْهُ، وما انْتقم رسُولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنفْسِهِ إلّا أنْ تُنْتهك حُرْمةُ اللّهِ، فينْتقِم لِلّهِ بِها».**

في موضع اللين، بعض الناس يظن أن الشدة دائمًا هي الحق، هذا غلط، غلط على الشريعة، قد يكون في مواضع كثيرة وكثيرة اللين واليسر والأناة والرفق هو المطلوب؛ لهذا ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»(١)، الله ﷻ رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فمن كان رفيقًا في أمره كله، فقد ابتعد عن الفتن، وسلم من الغلو، وكان محبوبًا لله ﷻ.

السبب السادس: مخالفة العلماء، وعدم الرجوع إليهم، الخوارج ما رجعوا إلى الصحابة ﷺ، استقلوا بفهومهم، الذين خرجوا اليوم من هذه الجماعات الضالة - جماعات الفتن -، الذين لا يفرقون بين مؤمن وغير مؤمن، بل يقتلون كما يشاؤون، ولا يرعون لذي عهد عهده، هؤلاء لم يرجعوا إلى فهم العلماء، فكان من أسباب ظهور الفتن والوقوع في الفتنة أن المرء يستقل بنفسه في الفهم، ولا يرجع إلى أهل العلم الراسخين فيه، العلم درجات، ليس كل من قرأ صار عالمًا، وليس كل من بحث صار باحثًا وعالمًا، العلم له أهله الذين يُرجع إليهم، فلابد حينئذٍ أن يعرف أن من أسباب الفتن مخالفة العلماء، أو عدم الرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه.

إذا تبين ذلك، فإن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى خروج فئات في تاريخ الإسلام بسبب هذه الأسباب جميعًا، أو بعض هذه الأسباب، فكانت صورتها أبشع صورة، من ذلك - وهو أشهرها وأولها -: الخوارج، الخوارج خرجوا على الإمام الحق، خرجوا على عثمان ﷺ، وقتلوه.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٧).

ضَحَّوا بِأَشمَطَ عُنوانُ السُجودِ بِهِ   يُقَطِّعُ اللَيلَ تَسبيحًا وَقُرآنا[١]

ثم قتلوا من؟ قتلوا علي بن أبي طالب خير الناس في زمانه، وهؤلاء مبشرون بالجنة، والنبي ﷺ يقول في حق عثمان رضي الله عنه: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**»[٢]، لكنهم أداهم القول بالخروج، وأداهم الهوى إلى أن يقتلوا عثمان، ويقتلوا عليًّا.

هل كانت حينذاك لهم معتقدات خاصة؟ لا، خرجوا، وقتلوا؛ لأنهم رأوا أن هؤلاء تجاوزوا الشريعة، قبل أن يحكموا على عثمان بالتكفير، عثمان ما حكموا عليه بالكفر، وإنما حكموا عليه بالضلال في باب المال وفي باب الولايات، قالوا: أنت تقسم المال كما تشاء، وتعطي الإقطاعات كما تشاء.

وأجمع أهل العلم على ضلال هؤلاء، وعلى أنهم من كلاب أهل النار[٣].

كذلك قتلوا عليًّا رضي الله عنه، الذي قتل عليًّا من؟ هل قتل عليًّا رجل فاسق يزني ويسرق ويرتشي ويشرب الخمر ويعمل؟ لا، ربما كان هذا الرجل الذي

---

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي عثمان رضي الله عنه، انظر: العقد الفريد (٤/ ١٤٥)، وأدب الكتاب للصولي (٢/ ١٤٨)، وتهذيب اللغة (١/ ٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (١٧٦) عنْ أبي غالِبٍ، عنْ أبي أُمامة، يقُولُ: «**شرُّ قتْلى قُتِلُوا تحْت أدِيم السّماءِ، وخيْرُ قتِيلٍ منْ قتلُوا، كِلابُ أهْلِ النّارِ، قدْ كان هؤُلاءِ مُسْلِمِين فصارُوا كُفّارًا» قُلْتُ: يا أبا أُمامة، هذا شيْءٌ تقُولُهُ؟ قال: بلْ سمِعْتُهُ مِنْ رسُولِ اللّهِ ﷺ**.

يعمل مثل هذه الأعمال لعليٍّ في قلبه من المكانة ما ليس لدى قاتل علي، قاتل علي من؟ قاتل علي عبد الرحمن بن مُلجَم - مُلْجَم بفتح الجيم لا بكسرها - عبد الرحمن بن ملجم هذا رجل صالح في أول أمره، أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى مصر، طلبه عمرو بن العاص ﷺ، قال: يا أمير المؤمنين أرسل لي رجلًا قارئًا للقرآن، يُقرئ أهل مصر القرآن، فأرسل عمر ﷺ لعمرو بن العاص ﷺ، قال: أرسلت إليك رجلًا هو عبد الرحمن ابن مُلجم من أهل القرآن، آثرتك به على نفسي - يعني: أنا أريده عندي في المدينة، لكن آثرتك به على نفسي - فإذا أتاك، فاجعل له دارًا يُقرئ الناس فيها القرآن، وأكرمه(١).

لكن عبد الرحمن بن ملجم لم يكن عنده علم، دخلته الأسباب التي ذكرنا، فجره الخوارج معهم، قتل عبد الرحمن بن ملجم عليًّا ﷺ، ولما قتله، وقيد للقصاص قال للسياف: لا تقتلني مرة واحدة - يعني قطع أطرافي شيئًا فشيئًا -؛ حتى أرى أطرافي تُعذب في سبيل الله.

انظر هذا الحب لله ﷻ، حب لله ﷻ عظيم، وبذل للنفس عظيم، يريد أن تُقطع لماذا؟ لأن عنده أن قتله لعليٍّ حق.

لهذا تنتبه أن أئمة السنة والجماعة قالوا كلمة عظيمة، قالوا: (ليس الشأن أن تحب الله -لأن هذه دعوى -، ولكن الشأن أن يحبك الله)(٢).

ليس الشأن أن تقول: أنا أحب الله ﷻ أعمل كل شيء، الشأن أن تبحث

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ١٧١).
(٢) انظر: روضة المحبين (١/ ٢٦٦).

عن ما يحبه الله، فتعمله. تقول: أنا أحب الله، غيرة لله ﷻ، أنا أريد أن أضحي في سبيل الله، أريد أن أبذل نفسي في سبيل الله، ثم تمشي في طريق خطأ. هذا عرضة للضلال، لابد أن تبحث عن ما يحبه الله، وقد يحب الله ﷻ الأناة والحلم في موضعها، وقد يحب الإقدام في موضعه.

هذا قاتل علي أتى رجل يمدحه، هو عمران بن حطان، عمران بن حطان من الخوارج. تتابع، هل انقضى الخوارج؟ لم ينقضوا، وهم أساس الفتن وكما جاء في حديث النبي ﷺ: **«لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»**(١)، ولاحظ قوله ﷺ: **«لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ»** يعني: يخرجون، ثم يخمدون، ثم يخرجون، ثم يخمدون، وقد قال في حقهم: **«فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٢).

عمران بن حطان مدح قاتل عليٍّ رضي الله عنه بقوله(٣):

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

يمدح من؟ يمدح الذي قتل علي يقول:

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

إِنّي لَأَذكُرُهُ حينًا فَأَحسَبُهُ ... أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللَهِ ميزانا

---

(١) أخرجه النسائي (٤١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٤).

قبح الله ذاك المجرم الخبيث.

إذًا: سبب الفتن أو من أسباب الفتن ومن مظاهرها في التاريخ: الزيادة في التدين، فاحذر أن يكون التدين على طريق غلط؛ لأنه إذا تدينت على طريق خطأ، فليس شأنك أنك تسلم، فقد تتدين على طريق خاطئة، فتصبح مثل أولئك الأقوام الذين انحرفوا.

فالشأن أن تكون ناصحًا لنفسك، متدينًا، صالحًا، متبعًا للكتاب والسنة، متبعًا للصحابة، على نهج سلف الأمة، حذرًا من الأهواء، واحذر سبب الفتنة، وهو أن تسمع لأهل الفتن والأهواء.

بعض الناس يتساهل في نفسه، يعرض نفسه للخطر، يسمع لهذا، ويسمع لهذا، ويجلس مع أصحاب الفتن، لا، من أسباب وقاية نفسك - والوقاية خير من العلاج - أن تبتعد عن أصحاب الفتن.

قال بعض أئمة السلف: (لا تصغين سمعك لذي هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه)[1].

تجلس تتساهل: والله، هؤلاء عندهم غيرة، هؤلاء فعلوا، هؤلاء مجاهدون، هؤلاء. . .، تجلس تسمع، تسمع، ثم تأتيك الفتنة، ويأتيك الانحراف. لابد أن يكون لك موقف واضح في هذا الأمر، موقف واضح

---

(١) يقول ميمون بن مهران: «ثلاثة لا تبلون نفسك بهن: لا تدخلن على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة، ولا تدخلن على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله، ولا تصغين سمعك لذى هوى؛ فإنك لا تدري ما يعلق قلبك منه». انظر: سيرة الإمام ابن حنبل (١/ ٥١)، وذم الهوى (١/ ١٤٨)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٤).

وقائي، لا تتساهل في السماع؛ لأن المرء يتأثر بأي شيء؟ يتأثر بالسماع.

من مظاهر الفتن التي حصلت: أن يتقرب أناس بالنيل من الكعبة، وهم ينتسبون للإسلام. ربما يكون فاسقًا إذا أتى عند الكعبة ورآها، بكى، ولان قلبه، ولم تحدثه نفسه بمعصية، لكن أتى أُناس - من قوة تَدَيُّنِهم - لم يرعوا حتى للكعبة حرمة؛ مثل ما حصل من طائفة من العبيديين، بل اقتلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم من مكة إلى الأحساء - كانت تُسمى البحرين في ذلك الوقت -، جلس معهم فوق عشرين سنة، تقريبًا من سنة ثلاث مائة وسبعة عشر هجرية، إلى سنة ثلاث مائة وتسعة وثلاثين هجرية. الخرقي صاحب المختصر للحنابلة، الذي شرحه ابن قدامة في المغني لما أتى في الحج - ألفه متى؟ في وقت عدم وجود الحجر الأسود، قتلوا مئات الآلاف من الحجاج، وأخذوا الحجر الأسود، وذهبوا به باسم الدين -، لما أتى لهذا الموضع قال: (ثم أتى الحجر الأسود - إن كان -)[(١)]؛ لأنه ما كان موجودًا. شيء يدمى له القلب أن يأخذ أناس الحجر الأسود، ويذهبوا به، لكن سببه التدين، التدين الباطل، والتأويل، والجهل من الطائفة الباطنية العبيدية.

---

(١) قال الزركشي: «وقوله: ثم أتى الحجر الأسود إن كان. أي إن كان الحجر في مكانه، والعياذ بالله كما وقع ذلك في زمن الخرقي رحمه الله، لما أخذته القرامطة». انظر: شرح الزركشي (١/ ٥١٣).

كما قال مجير الدين العليمي في كتابه (الأنس الجليل): «ثم أتى الحجر الأسود إن كان، وإنما قال ذلك لأن تصنيفه الكتاب كان حال كون الحجر الأسود بأيدي القرامطة حين أخذوه من مكانه». انظر: الأنس الجليل (١/ ٢٨٠).

كذلك منهم منتسب للسنة، حوادث الحرم الأخيرة التي حصلت سنة ألف وأربعمائة، هذه الحوادث الفظيعة سببها ماذا؟ هل كان أولئك في سلوكهم أو في ظاهرهم يُشك فيهم؟ لا، كانوا ظاهرهم ظاهر الدين والخير، ويطلبون العلم وفي حِلق المشايخ، لكن أتاهم الضلال والفتنة من جهة الغلو، ومن جهة الجهل، ومن جهة اتباع المتشابه، ومن جهة الرؤى، ومن جهة أسباب كثيرة، فأداهم إلى أن يجعلوا الحرم مكان خوف، والله ﷻ قد أمَّن في الحرم ماذا؟ أمَّن الطير، أمَّن الحمام، أمَّن العصافير، أمَّن الطيور، حتى بعض الحشرات غير الضارة مؤمنة فيه، فكيف هؤلاء يرتكبون ما يرتكبون باسم الدين؟!

ما حصل من تفجيرات أخيرة هذه من الفتن، التفجيرات التي حصلت الأخيرة في الرياض، وما حصل قبلها في الرياض، وفي الخُبَر، وفي غيرها من بلاد المسلمين: في مصر قبل ذلك، وفي إندونيسيا... إلى آخره، يأتون إلى أناس آمنين من مسلمين وغير مسلمين، فيقتلون الجميع، هذا من أعظم الفتن في هذا الوقت، السبب أن فيها عدة مخالفات: فتنة عن الدين عظيمة، وخروج عن الصراط، واتباع لسبيل الخوارج من عدة أوجه:

أولًا: أن فيها قتلًا للنفس، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

الأمر الثاني: أن فيها قتلًا للمسلمين، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ [النساء: ٩٣].

بعض الذين قُتلوا في الرياض شاب مسلم كان ماشيًا، فلما دخلوا

بالرشاش، لما دخلوا، هرب، أراد أن يهرب، ضربوه في رأسه، وهو معروف أنه مسلم هارب، ليس معه سلاح، وليس معه شيء، هرب، ضربوه في رأسه هو وغيره ممن قُتل. قتلوا معاهدين، أين هم من قول النبي ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»؟(١) العهد من يعطيه؟ يعطيه إمام المسلمين، الأمان من يعطيه؟ يعطيه الإمام، يعطيه ولي الأمر، حتى لو أعطاه أحد المسلمين بكفالة، ودخل بأمان، لا يجوز الاعتداء عليه؛ لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم(٢). هناك اعتداء على الأموال، قال ﷺ: «... **كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»(٣).

الأموال والمجمعات... إلى آخره هذه ملك لمن؟ أليست ملكًا للمسلمين؟ بأي حق تُفني أموال المسلمين، وتعتدي على أموالهم؟ أين أنت من هذا الحديث؟ لكن هو الغلو سبب الفتن.

هناك عدة اعتبارات أخرى لمثل هذا، هذه صور لما حدث في التاريخ القديم والجديد، تبين لك أن الفتن يجب أن نحذرها ممن جاء بها، سواء كانت فتن شبهات - كما ذكرنا - أو فتن شهوات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧٥١) عنْ عمْرِو بْنِ شُعيْبٍ، عنْ أبِيهِ، عنْ جدِّهِ، قال: قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُون تتكافأُ دِماؤُهُمْ. يسْعى بِذِمّتِهِمْ أدْناهُمْ، ويُجِيرُ عليْهِمْ أقْصاهُمْ، وهُمْ يدٌ على منْ سِواهُمْ...**».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

العلاج

أعطي نقاطًا سريعة بدون شرح:

أولًا: يجب علينا أن نعتصم بالكتاب والسنة، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢].

ثانيًا: ويجب علينا أن نتبع المحكم من كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، ومن كلام أهل العلم، وأن ندع المتشابه.

الثالث: أن نلتزم فهم الراسخين في العلم، وإلا نأخذ بثنيات الطريق.

الرابع: أن نحرص على لزوم الجماعة، والحذر من الفرقة، الله ﷻ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. النبي ﷺ يقول لكم: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[(١)]، فمن سعى في أي سبيل للفرقة، فقد دخل في الفتن من أوسع أبوابها، وفي الحديث: «**الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَيْقَظَهَا**»[(٢)]، رواه ابن النجار في تاريخه وغيره بإسناد فيه مقال.

الخامس: الاهتمام بجمع الكلمة، الفتن لا تظهر إلا في أرض التفرق، ما تظهر في أرض الاجتماع، فلذلك موقفك أيها المسلم إذا أردت أن تأمن على نفسك، وأن تأمن على دمك، وأن تأمن على عرضك، بل أن تأمن دينك، وأن تكون حاميًا لدين الله ﷻ، فاحذر الفتن بأن تهتم بجمع الكلمة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٣٩٠)، والبزار (٨/ ٢٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٥).

(٢) انظر: الفتح الكبير للسيوطي (٢/ ٢٦٥).

قد يكون هناك مفاسد، قد يكون هناك معاصٍ، قد يكون هناك منكرات، قد يكون، قد يكون، لكن المصلحة العظمى في ماذا؟ المصلحة العظمى في اجتماع الكلمة؛ لأن الشهوات تطرأ وتزول، مشكلة الشهوة أنها معصية، لكنها تطرأ وتزول، يعمل الشهوة المحرمة، ثم بعد ذلك يقول: أستغفر الله، وأتوب إليه. ويحس في نفسه بالألم والندم. الصلاة إلى الصلاة مكفرات، رمضان إلى رمضان مكفرات[1]، العمرة مكفرة إلى العمرة، الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة[2]، لكن المشكلة الشبهة، الشبهة هذه ما دواؤها؟ الشبهة يتدين بها صاحبها، وتبقى في نفسه، بخلاف الشهوة، الشهوة تأتيه، يقول: أستغفر الله، وأتوب إليه، أنا عصيت ربي، وأعود إليه، وفي نفسه الندم، وإذا صلى، يرجو مغفرة ذنوبه، ويقول: أستغفر الله تعالى. لكن صاحب الشبهة إذا قال: أستغفر الله تعالى. ما يستغفر الله تعالى من قتل مسلم، ما يستغفر الله تعالى من التفجير، ما يستغفر الله تعالى مما يعمل؛ لأنه يرى هذه قربة إلى الله ﷻ، ويرى نفسه شهيدًا، ويرى نفسه مجاهدًا.

فهنا الاهتمام بجمع الكلمة ووحدة الصف هذا يلغي كل سبيل إلى ذلك، والله ﷻ أمرنا بأن نحقق المقاصد والوسائل.

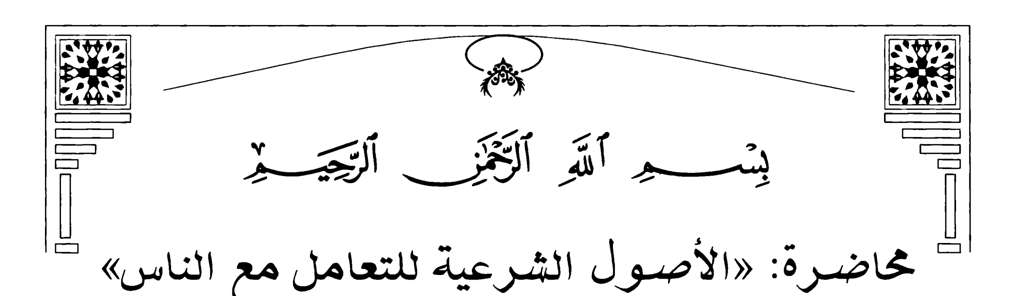
---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٠) عنْ أبي هُريْرة، أنّ رسُول اللهِ ﷺ كان يقُولُ: «**الصّلواتُ الْخمْسُ، والْجُمْعةُ إِلى الْجُمْعةِ، ورمضانُ إِلى رمضان، مُكفِّراتٌ ما بيْنهُنّ إِذا اجْتنب الْكبائِر**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) عنْ أبي هُريْرة رضي الله عنه أنّ رسُول اللّهِ ﷺ قال: «**الْعُمْرةُ إِلى الْعُمْرةِ كفّارةٌ لِما بيْنهُما، والحجُّ المبْرُورُ ليْس لهُ جزاءٌ إِلّا الجنّةُ**».

هذه بعض الكلمات في العلاج والوقائع والأسباب، موقفك أن تهتم بأن تكون - أيها المسلم - بعيدًا عن الفتن، ليس فقط بعيدًا، واقيًا لنفسك ثانيًا، الثالث أن تكون مسلمًا حقًا مجاهدًا في درء الفتن، الجهاد أنواع، من الجهاد أن تكون مجاهدًا لهذه الفرق الضالة، من الجهاد أن تكون مجاهدًا في جمع الكلمة، من الجهاد أن تكون محققًا لمراد الله ومراد رسوله ﷺ في الكتاب والسنة، في رد الفتن عن الدين ما ظهر منها وما بطن، من الجهاد الحق أن تكون عنصرًا عالمًا تقيًا صالحًا في أن لا تجعل للشيطان مدخلًا في هذه البلاد. الله ﷻ أصلح هذه البلاد، وأصلح بلاد المسلمين، فكيف نسعى في الإفساد؟! يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. لا تفسدوا فيها بالفتن بعد إصلاحها بجمع الكلمة، لا تفسدوا بالشرك بعد إصلاحها بالتوحيد.

لعل فيما ذكرت كفاية، الموضوع مهم وطويل، أكرر شكري لجميع الإخوة الحاضرين، وللمنظمين لهذا النشاط، ولمن سبقني سماحة الشيخ، ولمقدم هذه الندوة، شاكرًا للجميع حسن استماعه، سائلًا المولى ﷻ أن يوفقنا جميعًا لما فيه رضاه. اللهم وفق ولاة أمورنا لما فيه رضاك، اللهم اجمع كلمتنا على الحق والهدى، اللهم من أراد بنا سوءًا، فرد كيده إلى نحره، اللهم من أراد بنا فتنة، فاجعل فتنته على نفسه، واجعله عبرة للمعتبرين، اللهم اجز ولاة أمورنا خيرًا عن ما يبذلونه للإسلام والمسلمين، اللهم اجز صاحب الجائزة خيرًا، واجعلنا ممن يعلم الحق، ويسعى في سبيله، ويجاهد في سبيل درء الفتن وإحقاق الحق؛ إنك جواد كريم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «الأصول الشرعية للتعامل مع الناس»

الحمد لله رب العالمين قال في محكم كتابه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله الله ﷻ بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، بشيرًا بالجنة لمن أطاعه، ونذيرًا ومنذرًا من النار ومن عذاب الله في الدنيا والآخرة لمن خالف أمره وعصاه، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فصلوات الله وسلامه على نبينا محمد وعلى آل نبينا محمد، وعلى صحابته وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فموضوع هذا الدرس هو: «**الأصول الشرعية للتعامل مع الناس**».

من المعلوم أن الله ﷻ بعث نبيه محمدًا ليخرج الناس من داعية هواهم، ليخرج الناس من تحكيم آرائهم وتحكيم رغباتهم على تعاملاتهم إلى أن يحكموا الله ﷻ وحده، وإلى أن يطيعوا الله ﷻ، ويطيعوا رسوله ﷺ، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[1]، فالله ﷻ بعث نبينا محمدًا ﷺ ليبتليه بطاعته وبتوحيده

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وبتبليغ شرعه، وليبتلي به الناس، فالنبي ﷺ مختبر به وبما جاء به عن الله ﷻ، «**لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»، يعني: لأختبر الناس بك: هل يتبعون شرعك؟ هل يتبعون سنتك؟ هل يتبعون ما حملته مما أنزله الله ﷻ عليك أم لا؟

والابتلاء حقيقته الاختبار، وابتلاء الناس بالنبي ﷺ في جميع أحوال المكلف، ومن تلك الأحوال أنواع تعاملاته، فالشريعة جاءت - كما يقول الشاطبي رحمه الله في كتابه الموافقات -: (**الْمَقْصِدُ الشَّرْعِيُّ مِنْ وَضْعِ الشَّرِيعَةِ إِخْرَاجُ الْمُكَلَّفِ عَنْ دَاعِيَةِ هَوَاهُ، حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ اخْتِيَارًا، كَمَا هُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ اضْطِرَارًا**)[1]، فحقيقة العبد أنه مربوب مقهور لله ﷻ، ولهذا يجب عليه أن يخرج عن داعية هواه إلى أن يكون عبدًا محققًا هذه العبودية لله ﷻ في كل أحواله.

ولهذا كان من اللوازم على من يريد الخير لنفسه أن يتعرف، وأن يطلب علم ما أنزل الله ﷻ على رسوله، ومما يصادف المرء - بل مما يواجهك في كل حال - أنك تواجه أنواعًا من الخلق، تواجه نفسك، وتواجه من في بيتك، وتواجه من في السوق، وتواجه إخوانك المؤمنين، وتواجه الكفرة، وتواجه العصاة، وتواجه المبتدعة، تواجه الأقربين، وتواجه الأبعدين، تواجه العلماء، تواجه ولاة الأمر، تواجه أصنافًا كثيرة من الناس ومن الخلق، فكيف يتعامل المرء مع هؤلاء؟ أيتعامل معهم كما يريد؟ أيتعامل معهم كما يشتهي؟ أيتعامل معهم كما يملي له عقله، و كما يملي له هواه؟ أم يتعامل معهم على وفق الأحكام الشرعية التي جاءت في كتاب الله ﷻ

(١) انظر: الموافقات (٢/ ٢٨٩).

وفي سنة رسول الله ﷺ، على ما بيّنه أهل العلم الراسخون فيه من بيان الكتاب والسنة؟

لا شك أن الواجب أن يكون المرء معتنيًا بأنواع التعاملات حتى يكون إذا تعامل مع الخلق، يتعامل معهم على وفق الشرع، وألا يكون متعاملًا معهم على وفق هواه، وعلى وفق ما يريد.

إن التعامل مع الناس بأصنافهم يحتاج إلى علم شرعي، ولهذا تجد أن طوائف من الناس ربما تعلموا علومًا من أنواع العلم الشرعي، لكنها ليست مما يجب عليهم أن يتعلموه، فتجد أن بعض طلاب العلم ربما دخلوا في علوم - هي من النفل، أو هي من فروض الكفايات - بما لو كانت في نفوسهم له لذة، يطلب علمًا؛ لأنه يجد لذة فيه، يطلب مثلًا علم الحديث؛ لأنه يجد لذة فيه، يطلب علم المصطلح؛ لأن له لذة فيه، يطلب بعض مسائل الفقه؛ لأن له لذة فيها، وهذا لم يخرج عن داعية هواه في كل أمره؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته التي صنفها فيما يفعله العبد لأجل اللذة من الطاعات.

لا شك أن المرء إذا كان محكمًا لما يجب عليه، وجد أنه يجب عليه أن يسعى في رفع الجهل عن نفسه بما أنزل الله ﷻ؛ لهذا تجد أن المسلم وطالب العلم الحريص على أن يكون عمله وفعله موافقًا للشرع، تجد أنه يطلب العلم النافع، يطلب العلم الذي يصحح أحواله؛ لأنه ما من لحظة تمر عليك في حياتك إلا ولله ﷻ أمر ونهي فيها، إما أمر بإيجاب أو استحباب، وإما نهي بتحريم وكراهة، وإما باستواء هذا وذاك، يعني في المباحات.

ولا شك أن المرء إذا علم أحكام الله ﷻ في أنواع التعاملات، يكون وافق أمر الله، وعبد الله ﷻ في كل أحيانه، ولهذا كانت هذه الكلمات، وكان هذا الدرس لبيان شيء من أحكام أنواع التعامل مع الناس.

تعامل المرء مع نفسه

أقرب ما يكون إليك نفسك التي بين جنبيك، وإن أكثر ما يعامل المرء نفسه، فهذه النفس التي بين جنبيه كيف يعاملها؟ أيعاملها معاملة من لا يدرك ما يجب عليها وما لا يجب، ما يجوز وما لا يجوز، أم يعاملها على وفق الحكم الشرعي؟

بيّن الله ﷻ وبيّن رسوله ﷺ أنه يجب على المؤمن أن يزكي نفسه، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠]، فالسعي في تزكية النفس هو أول درجات التعامل مع النفس، فإن النفس لها طلبات في الخير، ولها طلبات في الشر.

وإن المرء إذا عامل نفسه بالسعي في أن يزكيها، كانت تلك النفس نفسًا طيبة، كانت نفسًا مفلحة، وكان صاحبها مفلحًا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وفلاح النفس وتزكيتها يكون بأمر عام، ألا وهو أن يجعل نفسه متعلقة بالدار الآخرة، وأن يجعلها مبتعدة عن دار الغرور، يجعل هذه النفس في أحوالها وفي مطالبها متعلقة بالدار الأخرى، متعلقة بالجنة، بالرغب إليها، وبالقرب منها، وبإعداد المنازل هناك، وبالبعد عن النار وعن وسائلها وعما فيها من أنواع العذاب.

هذه أولى درجات تزكية النفس: أن يكون المرء ناظرًا فيما يصلحه في داره الأخرى، يعني: أن يكون القلب متعلقًا بالدار الأخرى، وإذا تعلق القلب بالدار الأخرى - رغبًا في الجنة، وهربًا من النار - كانت الحصيلة أنه يسعى إلى ما يقربه من الجنة، ويسعى فيما يباعده من النار.

ولتزكية النفس - كما قال بعض علماء السلف - لتزكية النفس ثلاثة ميادين:

أول ذلك: أن يزكي نفسه بإصلاح القلب بتوحيد الله ﷻ وبإخلاص الدين له، فإن إخلاص القلب لله ﷻ هو أعظم ما تكون به تزكية النفس؛ لأن النفس لابد وأن يكون فيها محاب مشتركة، فإذا كانت محبة الله ﷻ أعظم، وكانت مرادات النفس تبعًا لمراد الله ﷻ، كان الإخلاص في القلب أعظم، وكان ازدياده من الإقبال على الله ﷻ أعظم، ولا شك أن الإخلاص يتبعه أنواع من إصلاح عبوديات القلب، ومن أمثل من شرح ذلك وبيّنه ابن قيم الجوزية - تلميذ شيخ الإسلام، العلم الإمام المعروف - في كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ففي هذا الكتاب خلّص ابن القيم رحمه الله فيه كلام السلف من أدران كلام غلاة المتصوفة، وجعله كلامًا متسقًا، كلامًا عظيمًا، كلامًا جميلًا، فيه إصلاح عبوديات القلب، فهذا الكتاب مما ينبغي أن يمر عليه طالب العلم، بل يمر عليه كل مسلم بين الحين والآخر، وأن ينظر فيه، فما فهمه منه مما فيه إصلاح النفس، عمل به، وما لم يفهمه أو استشكله، يسأل أهل العلم عن مرادات ابن القيم رحمه الله في ذلك.

إن إصلاح القلب - أيها المؤمن - إنما يكون بأن يكون الله ﷻ في قلبك

أعظم من كل شيء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

لواحد يعني: لله ﷻ وحده دون ما سواه، كن واحدًا في قصدك وإرادتك وتصرفاتك، في واحد يعني: في سبيل واحد غير متعدد، قال مبينًا هذا السبيل: **أعنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ**.

فتخليص النفس من الرغب في غير الله ﷻ هذا أول مدارج إصلاح النفس، وإن إصلاح النفس وتزكيتها هذا من أعظم المطالب، وأن يكون الله ﷻ ورسوله ﷺ أحب للعبد مما سواهما.

العبد يحركه في الأشياء المحبةُ؛ كما بيّن ذلك شيخ الإسلام في كتابه قاعدة في المحبة[(٢)]، أن ما يحرك الناس في أحوالهم محبتهم، فإذا أحب الدار الآخرة، تحرك إليها، وإذا أحب الدنيا، تحرك لها، فبقدر ما تكون المحبة في القلب عظيمة، يكون التحرك إلى ما أحبه القلب، فإذا كان الله ﷻ ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، كانت حركة العبد بنفسه وببدنه وبجوارحه، كانت في طاعة الله وفي طاعة رسوله ﷺ.

وثاني درجات تزكية النفس: أن يكون العبد ممتثلًا للأوامر، مجتنبًا النواهي، يعني: أن يحمل نفسه على طاعة الأمر، على طاعة الواجبات، وأن يباعد نفسه من ارتكاب المنهيات، فإن لله ﷻ أوامر، وإن لله ﷻ نواهيَ، وإن طاعة الله ﷻ وتزكية النفس إنما هي باتباع الأمر واجتناب

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٥٨).

(٢) انظر: قاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النهي، وباب المنهيات عظيم، وباب المأمورات عظيم، وقد اختلف العلماء: هل باب الأمر أعظم، أم باب النهي أعظم؟ فقالت طائفة من أهل العلم: إن باب النهي أعظم، يعني: إذا غشى العبد ما نهى الله ﷻ عنه، فإنه يكون معرضًا للعقوبة، ويكون فرط في الأمر الأعظم، واستدلوا على ذلك بفعل آدم عليه السلام؛ حيث خالف النهي، فكانت العقوبة بأن أخرج من دار الكرامة، أخرج من الجنة.

والأوامر والنواهي عظيمات، ولكن هل جانب الأمر أعظم أم جانب النهي أعظم؟ هل رجحان الحسنات أعظم أم رجحان ترك السيئات أعظم؟ هذا مما اختلف فيه أهل العلم، ولا شك أن تحصيل تزكية النفس إنما يكون بامتثال الفرائض، واجتناب النواهي.

قد يتساهل العبد مع نفسه، يتساهل في ترك الفرائض، يتساهل في ترك الواجبات، يتساهل في غشيان بعض المنهيات وبعض المحرمات، ولكن هذا يعقبه غصة في النفس، ويعقبه سيئة أخرى، وقد قال بعض السلف: (**إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ فَإِذَا رَأَيْتَهُ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا وَإِنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا**)(١)، ولا شك أن الحسنة تجلب الحسنة، والسيئة تجلب السيئة، وهذا يقود إلى ذاك.

فإذا جاهد العبد نفسه في امتثال الأوامر وفي الابتعاد عن النواهي، كان

---

(١) القائل هو عروة بن الزبير، انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠١)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٧٧).

مزكيًا لنفسه، ثم النوافل في جانب الأوامر، والنوافل في جانب المنهيات، يعني: ترك المكروهات؛ لأن ترك المكروه مستحب، وإن فعل النافلة مستحب، إن فعل النوافل في هذا وذاك مما يقرب إلى الخير، وقد ثبت في صحيح البخاري أن الله ﷻ قال في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(١)، يعني ﷻ بقوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**»... إلى آخر الحديث، يعني: كنت مسددًا له في سمعه، فبي يسمع، وبي يبصر، فلا يسمع العبد إلا ما يحب الله، ولا يبصر إلا ما يحب الله، ولا يمشي إلا إلى ما يحب الله، ولا يعمل بيده إلا ما يحب الله ﷻ.

هذا بعد أن يكون العبد آتيًا بالنوافل بعد الفرائض، ولا شك أن أغلى ما عندك نفسك، أغلى ما تملك هو هذه النفس، وهذه النفس في حياة قصيرة، هي هذه الحياة الدنيا، فإذا سعى العبد في تزكيتها، كانت له السعادة في الحياة الآخرة، وقد قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذه الحياة الطيبة في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة.

والدرجة الثالثة من درجات تزكية النفس: أن يكون العبد محاسبًا نفسه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

دائمًا، أن لا يغفل عنها، ومحاسبة النفس من أنواع التزكية؛ لأن العبد إذا غفل عن نفسه، فإنه يؤتى، وإذا ترك نفسه وهواها، فإنه يتمنى على الله الأماني. وهذا إنما يكون بالحزم، ولا شك أن أعظم ما يجب عليك أن تحزم معه التعامل مع نفسك، التي بين جنبيك، وما يجب عليك هو أن تحمل هذه النفس على الطاعة والخير، وعلى إخلاص العبادة، وعلى التقرب إلى الله ﷻ دائمًا، وعلى أن تسعى في العبوديات المختلفة في كل حالك، وفي كل تقلباتك.

تعامل المرء مع والديه

النوع الثاني من أنواع التعامل: التعامل مع الوالدين.

والوالدان عظَّم الله ﷻ حقهما، وقد قال ﷻ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]، وقال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فقرن الله ﷻ في آيات كثيرة حق الوالدين بحقه.

قال العلماء: إن حق الوالدين مقرون بحق الله ﷻ؛ ذلك لأن من كان وفيًا مع والديه مطيعًا لهما، فإنه أن يكون مطيعًا لربه ﷻ من باب أولى؛ لأن العبد إذا تذكر ما يجب للوالدين من الحق وفاءً لهما وبرًا بهما، فلأن يكون بارًا، فلأن يكون مطيعًا لله ﷻ، الذي لا يخلو العبد في حين من أحيانه من نعمة من نعم الله ﷻ حادثة، من نعمة توجب الشكر، لا شك أن ذلك من باب أولى[1].

ومن ذلك قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]، قضى يعني: أمر، ووصى؛ كما فسرها ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: قضى ووصى[2]، أمر ووصى ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا، وعظم حق الوالدين بقوله ﷻ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، فحرم التأفيف، وهذا من باب التنبيه على الأعلى، فإن التأفيف إذا حرم، كان تحريمًا لما هو أعلى منه؛ من باب أولى، من قياس الأولى، أو من الدخول في دلالة اللفظ في محل اللفظ.

وقال الله ﷻ بعدها: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، يعني: بالقول: لا تقل: أف، وبالفعل: لا تنهرهما، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، هذا في باب الأفعال.

عقوق الوالدين من الكبائر. والموبقات كثيرة، ومنها عقوق الوالدين.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٦٢)، وزاد المسير (٥/ ٢١)، والقرطبي (١٠/ ٢٣٧)، وابن كثير (٣/ ٣٥).

ومن الناس من يكون بارًا بنفسه، بارًا بأهله، بارًا بأقاربه، بارًا بأصدقائه، ولكن حاله مع والديه هي أسوأ الأحوال، وهذا لاشك أنه مما هو من الكبائر؛ لأن عقوق الوالدين من الكبائر، وقد عد النبي ﷺ عقوق الوالدين مع الكبائر[(١)].

فالتعامل مع الوالدين يجب أن يكون على وفق ما قضى الله ﷻ به، وقضى به رسوله ﷺ، أن يكون العبد محسنًا معهما بالكلام، محسنًا بالفعل، قال ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، واخفض لهما جناح الذل يعني: اخفض لهما جناحك الذليل على وجه الرحمة، قال العلماء: الجناح هنا هو جانب الإنسان، يعني: من اليد والرجل، أو الجانب[(٢)]، وقوله هنا: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ فيه التنبيه على أنه من الناس من يخفض للوالدين جناح الذل، ولكن قلبه منطو على الكبر، قلبه منطو على عدم الطاعة، قلبه منطو على البغض.

والله ﷻ قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: جناحك الذليل ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، لا على وجه الاستعلاء، ولا على وجه التكبر، بل قل بعد ذلك ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾، وهذه الآية وغيرها من الآيات مما تنقطع معه قلوب المؤمنين الذين يعظمون الله ﷻ.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١١/ ٥٨٢)، وأصله في البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) عنْ عبد اللَّهِ بْنِ عمْرٍو، أنّ رسُول اللّهِ ﷺ قال: «**إنّ أكْبر الْكبائِرِ عُقُوقُ الْوالِديْنِ**»، قال: قِيل: وما عُقُوقُ الْوالِديْنِ؟ قال: «**يسُبُّ الرّجُلُ الرّجُل، فيسُبُّ أباهُ، ويسُبُّ أُمّهُ، فيسُبُّ أُمّهُ**».

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ٩٤)، ولسان العرب (٢/ ٤٢٨)، وتاج العروس (٦/ ٣٥٠).

قال العلماء: تجب طاعة الوالدين في المعروف[1]، ومعنى ذلك أن العبد إذا أُمر، يعني: أمره الله ﷻ بأمر، هو له فرض عين، فإن طاعة الله هنا مقدمة على طاعة الوالدين، والتمثيل لفرض العين مثل: حضور الجمعة، وحضور الجماعات، والجهاد الذي هو فرض عين عليه، ومثل: طلب العلم الواجب والسفر له، ونحو ذلك من فرائض الأعيان، فهذا ليس لهما طاعة فيه، فلو منعاه من الحج الواجب مثلًا، الذي هو فرض عين عليه، ليس لهما طاعة فيه، كذلك إذا منعاه من أداء صلاة الجماعة، فليس لهما طاعة فيه، كذلك إذا منعاه من أداء الجهاد المتعين، ليس لهما طاعة في ذلك، لكن إن منعاه من النفل - من حج نفل، أو من جهاد نفل، أو منعاه من صلاة نفل، أو نحو ذلك -، وجب عليه أن يطيعهما، فقد قال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥]، قال الإمام أحمد رحمه الله: يطيع الوالدين ولو كانا فاسقين[2]؛ لأن حقهما ليس لأجل صلاحهما، ولكن لأجل أنهما والدان.

والله ﷻ أمر بطاعة الوالدين، حتى ولو كان الوالدان مشركين، وهذه

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٣٤٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٨٧)، وعمدة القاري (١٣/ ٢١٦).

(٢) انظر: الفروع (٣/ ١٦٨)، والإنصاف للمرداوي (٣/ ٤٠٠)، وكشاف القناع (٢/ ٣٨٦).

الآية آية لقمان نزلت في سعد بن أبي وقاص مع أمه في القصة المعروفة، قال ﷻ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[(١)]، وهذا عام في كل المسلمين، يعني: أن يطيع المسلم والديه، سواء كانا بارين، أو كانا فاجرين، وقال شيخ الإسلام رحمه الله في مسألة طاعة الوالدين: يطيعهما فيما فيه منفعة لهما، وأما إذا كان الأمر ليس فيه منفعة لهما فإن طاعتهما غير متعينة[(٢)].

فلو منعاه عن شيء نفل، أو منعاه عن شيء ليس فيه مصلحة للولد، أو ليس لهما فيه مصلحة، فإنه لا يتعين طاعتهما فيه عند شيخ الإسلام، والأول قول الإمام أحمد وغيره أولى؛ لأن الله ﷻ أمر بطاعة الوالدين طاعة عامة، وقال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ والمعروف هو كل ما فيه طاعة لهما، ولكن في الشرك - ومثيله في الواجبات -، فإنه لا يطيع، وهذا بدون تفريق ما كان فيه مصلحة لهما أو ما ليس فيه مصلحة لهما.

أحيانًا يكون الوالد متسلطًا على الولد، يكون الوالد غير معامل للولد بالحسنى، يفضل عليه إخوانه، يفضل عليه بعض الناس، يفضل بعض

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٧٤٨) «حلفتْ أُمُّ سعْدٍ أنْ لا تُكلِّمهُ أبدًا حتّى يكْفُر بدِينِهِ، ولا تأْكُل ولا تشْرب، قالتْ: زعمْت أنّ الله وصّاك بِوالِديْك، وأنا أُمُّك، وأنا آمُرُك بِهذا. قال: مكثتْ ثلاثًا حتّى غُشِي عليْها مِن الْجهْدِ، فقام ابْنٌ لها يُقالُ لهُ عُمارةُ، فسقاها، فجعلتْ تدْعُو على سعْدٍ، فأنْزل اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هذِهِ الْآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ وفِيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]».

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٨١).

الأبعدين على أولاده، ويرى الولد ذلك، وربما تغير، فهذا مما يجب على الولد ألا يحكم رغباته، ألا يحكم أهواءه في هذه المسألة، بل ينظر إلى حق الوالدين من جهة أن الله ﷻ هو الذي فرض حقهما.

والحديث في هذا يطول، ومما يجب عليك أن تتعلمه في هذا كيف تتعامل مع والديك، يعني: ما الأحكام الشرعية التي للوالدين؟ ما حكم طاعتهما؟ ما تفصيل أحكام طاعتهما في ذلك؟ في أمر الزواج؟ في أمر الطلاق؟ في طاعة الوالد؟ في طاعة الوالدة؟ هل طاعة الوالد هي المقدمة؟ هل طاعة الوالدة هي المقدمة؟ هناك تفاصيل تطلب من كتب أهل العلم، وخاصة كتب الفقهاء.

تعامل الرجل مع زوجته

النوع الثالث من أنواع التعامل: تعامل الرجل مع زوجته.

الله ﷻ أوجب على الرجل مثل ما أوجب على المرأة، فقال ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وجعل الله ﷻ حق الرجل مقدمًا، ولكن جعل للمرأة من الحق كما للرجل من الحق، وقد قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾، أوصى النبي ﷺ بالزوجات كثيرًا.

فمن الناس من يتزوج، ولا يعلم أو لا يتعلم أحكام معاشرة الزوجة: كيف يخاطبها؟ كيف يطلب منها؟ ما الواجب الذي يجب على الزوجة أن تؤديه؟ إنما يعاملها بمحض هواه، يعاملها بحسب رغباته، وتارة بحسب

رجولته وبحسب قوته، ولا يأتي بما يجب عليه شرعًا، لا يتعلم أحكام الشرع في مسائل العشرة والتعامل مع الزوجات.

وما أحسن قول ابن عباس رضي الله عنهما على هذه الآية حينما قال في قوله عز وجل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: «إنى لأتزين لامرأتي كما تتزين لي وما أحب أن أستنظف كل حقي الذي لي عليها فتستوجب حقها الذي لها علي»[1] فإذا كان الرجل يطلب من زوجته أن تتزين له، وأن تقطع الروائح الكريهة، وأن تكون معه بالحسنى، فكذلك هو يجب عليه أن يعاملها بما أوجب الله عز وجل.

انظر إلى حال النبي ﷺ مع زوجاته حين طالبنه بالنفقة، قال لهما ﷺ قولًا حسنًا طيبًا، اعتزل نساءه مدة، حتى حكم الله عز وجل في ذلك، وأنزل في ذلك آيات من سورة الأحزاب[2].

إن تعامل الرجل مع زوجته في كثير من الأحيان يكون على وفق الهوى،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٥٣)، وزاد المسير (١/ ٢٦١)، والقرطبي (٣/ ١٢٣)، وابن كثير (١/ ٢٧٢).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥) عن عائِشة، قالتْ: لمّا أُمِر رسُولُ اللهِ ﷺ بتخْيِيرِ أزْواجِهِ، بدأ بِي، فقال: «**إنِّي ذاكِرٌ لكِ أمْرًا، فلا عليْكِ أنْ لا تعْجلِي حتّى تسْتأْمِري أبويْكِ**»، قالتْ: قدْ علِم أنّ أبويّ لمْ يكُونا لِيأْمُرانِي بِفِراقِهِ، قالتْ: ثُمّ قال: «**إنّ الله عز وجل قال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩]، قالتْ: فقُلْتُ: فِي أيِّ هذا أسْتأْمِرُ أبويّ؟ فإِنِّي أُرِيدُ الله ورسُولهُ والدّار الْآخِرة، قالتْ: ثُمّ فعل أزْواجُ رسُولِ اللهِ ﷺ مِثْل ما فعلْتُ».

وعلى وفق رغبات الرجولة، ولكن من الناس من يحرص على أن يكون تعامله مع أهله على وفق المقتضى الشرعي، وهذا هو الذي يجب، وهو الذي أحببنا الإشارة إليه؛ لأن هذا النوع من التعامل مما يفقده الكثير.

في طرف آخر في التعامل مع الزوجات ظن آخرون أن الحسنى مع الزوجات، وأن التعامل بالحسنى أن يترك للمرأة الحبل على الغارب، وأن كل ما أرادت المرأة، نفذه دون النظر: هل هذا الذي طلبت منه مما يجوز أو مما لا يجوز؟ مما لها الحق فيه أومما ليس لها الحق فيه؟ هل هو مما يصلحها أو مما لا يصلحها؟ هل لها في ذلك مصلحة أم لا؟ ويتساهل في ذلك حتى صار النساء يتصرفن وكأنهن رجال.

لاشك أنهما صورتان متناقضتان: صورة الذي يقسو، والصورة الثانية الذي يترك للمرأة الحبل على الغارب؟ وكأن المرأة صارت هي الرجل، وجماع ذلك - بل ميزانه - وضابطه أن يسعى المرء في أن يكون مع زوجه على وفق مقتضى الشرع، والله ﷻ أمر للنساء بالحق، وكذلك أمر للرجال بالحق.

والنبي ﷺ كان من آخر وصاياه في حياته أن أوصى بالنساء، وكان في خطبته في يوم عرفة، في خطبته العظيمة التي ودع فيها الناس أنه أوصى بالنساء، وقال: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ**»[1]، يعني: أسيرات، ولكن هذا لا يعني أن يترك لها الأمر كما تريد، ولا يعني أن يكون المرء في أمر الله ﷻ متساهلًا، بل يكون على وفق مراد الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١).

إن الرجل يطلب من المرأة أشياء، ولكن تعامله مع زوجته ينبغي أن يكون على وفق ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: (إني لا أحب أن أستنظف كل حقي على امرأتي؛ حتى لا يجب لها مثل ما طلبته منها من الحق).

تعامل الزوجة في جهة أخرى مع زوجها: الله عز وجل جعل الرجل له على المرأة درجة، فقال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والله عز وجل فضل الرجل بما أنفق، وفضل الرجل بما جعل فيه من الخصائص، فهو صاحب القوامة في الإنفاق، وهو صاحب القوامة في الأمر والنهي، والمرأة الزوجة يجب عليها أن تطيع الزوج في طاعة الله، أن تطيعه في المعروف، وألا تعصيه، وألا تدخل بيته من يكره، وألا تخرج من بيته إلا وقد رضي.

والمرأة إذا حفظت حقوق الزوج عليها، فإنها تكون قد أدت فرضها، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**»(١).

ولا شك أن طاعة المرأة لزوجها فرض، والمرأة يجب عليها أن تكون في تعاملها مع زوجها مطيعة راضية، وأن تكون هي المتنازلة، هي التي تخضع، وألا تجعل الرجل هو الذي يخضع لها، وهو الذي يذل؛ لأن في فعل ذلك مفاسد، ومن تحدث من القضاة عن مسائل طاعة المرأة، طاعة الزوج لزوجته، وما حصل من تسلط بعض النساء على الأزواج كان نهايتها أن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٩)، والبزار (١٤/ ٤٦)، وابن حبان (٩/ ٤٧١).

المرأة لم تقتنع بزوجها الذي أطاعها، والذي عمل معها ما عمل من أنواع التعاملات الطيبة، ولكن جعلته يطيع في كل ما تشتهي، فكانت العاقبة أن كرهته؛ لأن المرأة في طبيعتها تحتاج إلى من يقوم عليها، وإذا قام الرجل عليها وأدبها، وسعى معها بما أمر الله ﷻ فإن العاقبة لهما جميعًا.

تعامل الرجل مع أرحامه

من أنواع التعاملات: تعامل الرجل مع أرحامه، يعني: مع أقاربه، وهذا باب صلة الرحم، وقد أمر الله ﷻ في ذلك بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، وصلة الرحم ضابطها: ما يكون معه قطع للتهاجر فيما بينهم، ولو كانت بالهاتف، لو كانت باللقاء، بأي نوع مما يحصل معه قطع الهجران، فإنها تحصل الصلة، ولو لم يتصل الرجل -مثلًا- برحمه إلا بين فترة وأخرى، إذا كانت الصلة قائمة بسؤال ونحو ذلك، فإن هذا معه أداء الواجب. والمستحب من ذلك ما فيه صلة دائمة، وما فيه تحسس لحاجة الأقارب، وتحسس لرغباتهم، وتحسس لما ينقصهم، وهذا في حق من لا تجب عليه نفقة، من لا يجب عليه صلة، هذا في الصلة العامة.

أما من وجبت عليه الصلة، فإنه يجب عليه أن يؤدي هذه الصلة، سواء كان ذلك في مسائل المال، أو في مسائل السؤال وبذل الجاه أو بذل العمل، والسعي في حاجة أقاربه.

تعامل الرجل مع أولاده

من أنواع التعامل في ذلك: تعامل الرجل مع أولاده، والأولاد تارة يكونون كبارًا وتارة يكونون صغارًا، والصغير له الرحمة، والكبير له التأديب، وقد قال بعض الحكماء: إذا كان ابنك صغيرًا فقومه، وإذا راهق فصادقه، وإذا كبر فأشر له، يعني: أنه ينبغي للمرء مع أولاده أن يسلك هذه الأحوال الثلاثة، فإن كان الولد صغيرًا، أدبه، والتأديب يكون بالحسنى؛ لأن الولد - خاصة في هذا الزمان - إذا قسا عليه الوالد، فإنه ربما نفر منه، ونفر مما معه من الحق، نفر من الطاعة، نفر من الاستجابة، نفر من الصلاة؛ لأن هذا الزمان زمان فتن، فينبغي للوالد أن يعامل ولده - ولو كان صغيرًا - أن يعامله بالتهذيب الذي ليس فيه تبغيض الطاعات لهذا الولد الصغير، بل يحببها له.

يعني: لا يفرض على من دون سن التمييز أشياء لا تجب عليه، مثلًا: في مسائل العورات، البنات الصغار دون سن التمييز لهم أحكام في عوراتهن، وكذلك من دون العشر، يعني: ما بين السابعة إلى العاشرة، البنت الصغيرة لها أحكام في عورتها، كذلك الغلام له أحكام في عورته.

فربما تشدد مثلًا بعض الآباء في التعامل مع الصغار، وترك ما يباح له في الشرع إلى أشياء ربما لم تكن معها العاقبة حميدة، أو كره الصغير الخير، أو كرهت الفتاة الخير، كذلك إذا كان الغلام مراهقًا، أو كانت الفتاة مراهقة، فإن لها أحكامًا خاصة.

فتعامل الوالد والوالدة مع هؤلاء ينبغي أن يكون مع سؤال أهل العلم،

يعني: يسأل الوالد، تسأل الوالدة: كيف أتعامل في هذا السن؟ من جهة اللباس، من جهة الإذن بالخروج، من جهة المخالطة، من جهة ما تنظر إليه وما لا تنظر، وهذا إنما هو بتحبيب الخير في نفوس أولئك.

والصغير متوسع في حقه - يعني: ما دون البلوغ -، فيه سعة في بعض الأحكام، وقلم التكليف إنما يكون بالبلوغ، فما بين سن العاشرة إلى البلوغ هذا فيه أحوال وأحكام، وما دون ذلك له أحكام فيها سعة.

فلذلك ينبغي للمرء في هذه السنين أن يتعلم كيف يتعامل مع أولاده؛ لأن من واقع السؤال، ومن واقع ما سمعنا وجدنا أن كثيرًا من الناس لا يحسن التعامل الشرعي مع أولاده الصغار، لا يحسن التعامل الشرعي مع المراهق ومع المراهقة، يعني ما بين سن العاشرة إلى سن البلوغ.

وأما ما بعد البلوغ، فإنما يشار للولد، ويشار للبنت إشارات، يعني: بأمر الله ﷻ، يبين للمرء طريق الشر، على الفتى وعلى الفتاة، وكذلك يأمر الوالد ولده - رجلًا كان، أم أنثى - يأمرهما بطاعة الله ﷻ، و بالفرائض، وينهاهما عن المحرمات.

وإذا كان ثم جانب تقصير عند هذا أو هذا، فلا يحمله عليه بالقوة؛ لأنه - خاصة في هذا الزمن - القوة لا تنفع، بل ربما نفرت كثيرين من قبول الحق والهدى، فإذا كان الشاب أوالشابة في سن المراهقة، فإن على الوالدين أن يحملا هذين على الطاعة، وأن يباعدا بينهما وبين سبل الفساد والمنكر في البيت، وفي الشارع، ومن جهة الأصدقاء والصديقات، ولكن لا يكن ذلك عن قسوة وشدة، بل يكون ذلك عن طريق التعامل بالإقناع، والتعامل

بالترغيب تارة، وبالترهيب تارة، وهذا لا شك أنه أنفع.

ومن أحسن الوسائل في تربية الأولاد أن يتخير المرء لأولاده إذا كبروا من يصاحبهما من الجنسين، يعني: أن يتخير المرء للفتاة ما بعد سن البلوغ، يتخير لها من تصاحب؛ لأن المرء بطبيعته يحتاج إلى من يصاحب، فالفتاة تحتاج إلى من تصاحب، لا تقبل أن تصاحب أمها دائمًا، أو أن تصاحب أختها الكبيرة دائمًا، بل إذا وجدت من غيرها، فربما كان ذلك أقبل للتوجيه.

كذلك الفتى، يتحرى المرء في ولده الكبير من يصاحبه، ويطلب من فلان إذا وجده صالحًا خيّرًا مأمونًا، يرغبه في مصاحبة ولده، ويحث ولده على ذلك، وهذا من أنواع التعامل التي ينبغي للوالدين أن يدركاها، وهذا مما فات في الكثير من الأحيان، نجد أن بعض البيوت فيها من الفساد ما فيها، وإذا نظرت ما السبب؟ وجدت أن إخلال الرجل أو الأم بواجبهما هو من الأسباب، فتجد أنه لم يسع في إصلاحهما في سن المراهقة، لم يسع في إصلاحهما بعد البلوغ، لم يسع في تحبيب الخير إليهما، ثم بعد ذلك يأتي يشكو.

لابد أن يكون عند المرء طريقة شرعية في التعامل مع ولده، في التعامل مع ابنته، ولا يترك هذا وذاك، ويترك هذه وتلك، حتى يرى ما لا يريد أن يراه.

لابد من السعي في تعلم أنواع التعامل مع الأولاد في تربية الأولاد: كيف تكون، كيف يسعى، كيف يصلح، وعند ذاك تكون التربية، أو يكون التعامل مع الأولاد على وفق مراد الله الشرعي.

تعامل المرء مع عامة المسلمين

من أنواع التعامل: التعامل مع أهل الطاعة، التعامل مع عامة المسلمين، الله ﷻ جعل حق المسلم على المسلم عظيمًا، جعل لكل مسلم على إخوانه المسلمين حقوقًا، وجعل الولاية قائمة بين المؤمنين، فقال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، بعضهم أولياء بعض يعني: بعضهم يحب بعضًا، بعضهم ينصر بعضًا، بعضهم يواد بعضًا.

والتعامل مع المؤمنين بحسب الإيمان، والإيمان يتبعض؛ ولذلك تكون النتيجة أن المحبة والولاية تتبعض؛ لأن الله ﷻ رتب الولاية على الإيمان، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، ولهذا تسمع أن قاعدة أهل العلم في المحبة للمؤمن: أن المؤمن يحب بقدر ما عنده من الطاعة، يحب المؤمن بقدر امتثاله لأمر الله، فإن كان عظيم الامتثال لأمر الله، إذا كان عظيم الاتباع، عظيم الإيمان، فإن محبته أعظم، وكلما قل الإيمان، فإن المودة - لأنها تبع لأمر الله ﷻ ونهيه - فإن المودة تنقص بحسب نقصان الإيمان، فإذا كان المؤمن مسددًا، إذا كان المؤمن مطيعًا، فإن له أعظم أنواع الحقوق، يعني: تترتب له المحبة والنصرة، ويترتب له جميع ما جاء في الكتاب والسنة من الحقوق.

وكلما كانت درجته أقل، ربما فاتت بعض تلك الحقوق؛ لأجل فوات بعض مراتب الإيمان عنده؛ لهذا نجعل هذا النوع من التعامل خاصًا بالمطيعين، يعني: المؤمن المسدد.

المؤمنون درجات: منهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه؛ كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، فالسابقون بالخيرات والمقتصدون هؤلاء هم أهل الإيمان، أهل الطاعة، الذين يجب لهم كل ما للمؤمن من الحقوق، وكلما عظم المؤمن في إيمانه، وكان مسابقًا للخيرات، كان واجبًا أن تكون محبته أعظم، وأن تكون نصرته أعظم.

فهؤلاء - أعني: المطيعين، أعني: المسددين - لهم علينا الحق الأعظم من حقوقهم الخاصة علينا أن يكون عرضهم محفوظًا، وأن يكون مالهم محفوظًا، يعني: أن تسلم أخاك من أن تعتدي عليه في عرضه، من أن تعتدي عليه في ماله، من أن تعتدي عليه في أهله، من أن تعتدي عليه بأي نوع من أنواع التعديات.

لهم من هذا الحق الحق الأعظم، وإن كان كل مسلم - سواء كان مطيعًا، أو عاصيًا - له هذا الحق، ولكن حق المسلم المطيع من ذلك أعظم، فالصالح من عباد الله له حق أعظم في حفظ عرضه في حضرته وفي غيابه، في حفظ منزلته، في حفظ موالاته بأن يدافع المرء عنه، وأن يكون معه؛ كما كان أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم مع بعض.

أما العصاة - أعني: الظالمين لأنفسهم، الذين تسلط عليهم الشيطان، فأغراهم بعدم الطاعة، أغراهم بأن يكونوا مطيعين لشهواتهم، مطيعين لأنفسهم -، فهؤلاء في التعامل معهم أحوال، والأصل العام في ذلك أن

لهم الحق العام الذي للمسلم على المسلم كما قال ﷺ: «. . . **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[١]، هذه الحقوق عامة، وحق المسلم على المسلم ست - كما جاء في الحديث -: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**»[٢].

هذه الحقوق تشمل المطيع، وتشمل العاصي، لكن كيف يتعامل المسلم، كيف يتعامل المرء المؤمن مع العصاة، هل يعاملهم بالاكفهرار في وجوههم؟ هل يعاملهم بالهجر؟ هل يعاملهم بالمخالطة دائمًا في حال المعصية وفي حال الطاعة؟ ما درجات التعامل مع العصاة.

من جهة الهجر - هجر المسلم - إذا كان لحق النفس - يعني: لحق الدنيا - فإنه لا يجوز أن يهجر المسلم أخاه - ولو كان عاصيًا - فوق ثلاث؛ لقوله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»[٣]، يعني: إذا كان في حق من حقوق الدنيا، إذا كان في أمر لك، في شيء في قلبك، يعني: تكلم عليك،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

في شيء تعدى عليك شخصيًا، صار بينك وبينه شحناء، صار بينك وبينه مشادة في الكلام، بغضاء. . . إلى آخره، فهذا هو الذي يجوز أن تهجره إلى ثلاث، وما فوق الثلاث، فلا يجوز أن تهجره في ذلك، ولو كان عاصيًا، وحقه في ذلك الذي يزول به الهجران أن تسلم عليه؛ كما جاء في الحديث: «**يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**».

أما الهجر لحق الله ﷻ، فهو على مرتبتين؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من المحققين من أهل العلم: هجر من جهة الوقاية، وهجر من جهة التأديب، يعني: من ذلك هجر يراد منه الوقاية، وهجر يراد منه التأديب، أما هجر الوقاية، يعني: هجر العاصي والمبتدع ونحو ذلك، هجر الوقاية بأن تقي نفسك أن تسمع منه أو أن تخالطه في معصيته؛ حتى تقي نفسك من أن تتأثر به؛ لأن الإنسان يتأثر بطبعه، إما أن يؤثر، وإما أن يتأثر، فإذا خالط العصاة، وهم على معاصيهم، وظن أن مخالطته لهم وهم يمارسون المعصية أنها خير، فهذا من تسويل الشيطان له.

لا يجوز لك أن تخالط عاصيًا حال عصيانه، وإنما تخالطه في حال عدم العصيان، وتأمره، وتنهاه، وتحبب إليه الخير، أما في حال عصيانه، فلا يجوز أن تبقى، وهو يعصي الله ﷻ إلا أن تكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

هذا النوع من الهجر هو هجر الوقاية، يعني: أن تهجر أخاك المسلم، أن تهجر هذا العاصي حال ممارسته للمعصية، حال غشيانه لما لا يرضى الله ﷻ عنه، هذا الهجر يسمى هجر وقاية.

وأما النوع الثاني من الهجر، فهو هجر التأديب، هجر التأديب يعني: التعزير، أن تهجره؛ لكي تصلحه.

والأصل في ذلك هجر النبي ﷺ للثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فنزل فيهم قول الله ﷻ في آخر سورة براءة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ [التوبة: ١١٨]، هؤلاء الثلاثة هجرهم النبي ﷺ، وأمر الناس بأن يهجروهم، فلا يكلموهم، ولا يبايعوهم، ولا يشاروهم، حتى إن هؤلاء ضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، هذا الهجر نوع من أنواع التعزير.

قال العلماء: هذا النوع من الهجر يكون في حق من يصلحه الهجر، أما من لا يصلحه الهجر وإنما يزيده طغيانًا، وإنما يزيده شرًا، فهذا لا يصلح له الهجر؛ لأن الهجر نوع من التأديب، نوع من التعزير، وهذا إنما يصلح من كان في هجره صلاحًا بالهجر وبالترك.

بعض الناس إذا لقيته، فلم تكلمه لذنب فعله، أو لفريضة فرط فيها، أصلح قلبه، وتحرك ذلك في نفسه؛ لأنه لا غنى له عن إخوانه، لكن من الناس من إذا هجرته، ولم تخالطه، وتركت السلام عليه، تركت الإتيان له، فإنه يقول: هذه أحسن ساعة التي لا أرى فيها فلانًا، وهذا لا شك أنه مما لا يوافق المقتضى الشرعي؛ لأن الهجر نوع من أنواع الإصلاح، ونوع من أنواع التأديب والتعزير.

وإنما يهجر من يصلح الهجر من شأنه، وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله لما

تكلم عن أنواع الهجر: قال: الهجر أحكام وأنواع، ويختلف الهجر باختلاف الناس وباختلاف أحوالهم وباختلاف بلدانهم، حتى هجر المبتدع يختلف باختلاف الأحوال وباختلاف البلدان.

والأصل في الهجر أن يكون للإصلاح، أن يكون لإصلاح النفوس، ولإظهار شعيرة الإسلام، ولإظهار عزة المسلم، التعامل مع العاصي بالهجر، هذا تفصيل الكلام عليه، وخلاصته أن الهجر يكون في حق من يصلحه الهجر، من يجعله يقلع عن المعصية.

أما من لا يقلع عن المعصية، من تعلمه لا يصلي، من تعلمه لايزكي، من تعلمه يغشى المحرمات، فإنك تواصله في حال لا يكون فيها مواقعًا للمحرمات، وتأمره، وتنهاه، وتحبب له الخير، وتقربه من الخير، وتباعده من الشر؛ لأن الهجر لا يصلحه، فإذا هجرته، ربما تكون عونًا للشيطان عليه؛ لأنه قد لا يجد من يرشده، ومن يعلمه، ومن يأمره، وينهاه.

في الحال الأخرى - حال دعوة العصاة - العاصي لا يُظَن - مهما بلغت معصيته، ولو كان يشرب الخمر، ويزني، ويسرق، ويرابي - لو كان على هذه الحال، لا يظن ما دام أنه مسلم أن قلبه خلا من الخير، بل لا تزال نفسه تؤنبه، ما دام مسلمًا تؤنبه عن المعاصي؛ لأن المسلم بما معه من الإسلام لا يقر نفسه على المعصية، بل تجد في نفسه بغضًا للمعصية، فهذه الخصلة التي في قلب ذاك العاصي هي التي ينبغي أن ينظر إليها، وأن تعظم في نفسه، وأن يحبب إليه الخير من جراء تلك.

العبد لا ينبغي له - بل لا يجوز له - أن يتعاظم على العصاة، وأن ينظر

نفسه فوقهم، وأن أولئك من حالهم كذا وكذا، وهو حاله حال أهل الطاعة، فينظر إلى نفسه، ويجعل نفسه متعاليًا على أولئك الذين عصوا، لا، بل كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

قد قال ابن القيم رحمه الله في وصف حال المسلم حين ينظر إلى العاصي، قال[(١)]:

واجعَل لِقَلبِكَ مُقلَتينِ كِلاهُمَا ... بالحَقِّ في ذَا الخَلقِ نَاظِرَتَانِ

فانظُر بِعَينِ الحُكمِ وَارحمهمُ بِهَا ... إذ لا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ

وانظُر بِعَينِ الأمرِ واحملهُم عَلَى ... أحكَامِهِ فَهُمَا إذًا نَظَرانِ

واجعَل لوجهكَ مُقلَتَينِ كِلاهُما ... مِن خَشيةِ الرَّحمنِ بَاكِيَتَانِ

لَو شَاءَ رَبُّكَ كُنتَ أيضًا مِثلَهُم ... فَالقَلبُ بَينَ أصابِعِ الرَّحمَنِ

فتنظر إلى العاصي نظرين: النظر الأول نظر رحمة، نظر رحمة وشفقة، ترحمه إن كان من العصاة، ترحمه أن كان أسيرًا لشهوته، أسيرًا للشيطان؛ لأن من الذي استعبده؟ استعبده الشيطان لأن طاعة الشيطان نوع من العبودية؛ كما قال ﷻ في سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ١٣١).

﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، عبادة الشيطان بطاعته، فهذا أسره الشيطان، فإذا نظرت إليه نظر رحمة، كنت ناظرًا إليه النظر الصحيح.

هذا النظر الأول: نظر رحمة، تنظر إليه بنظر القدر، بنظر ما حصل له؛ كي تكون رحيمًا به مشفقًا، وربما بكت عيناك من جراء ما عصى ذلك الرجل أو تلك المرأة.

ثم تنظر إليه نظرًا آخر، بنظر الحكم الشرعي، بنظر الأمر والنهي، فتحمله على الأوامر، وتحمله على البعد عن النواهي.

فالعاصي ينظر إليه بنظر الرحمة تارة، وينظر إليه بنظر الأمر والنهي تارة، فالذي ينظر بنظر الأمر والنهي مستعظمًا على هذا العاصي، ناظرًا نفسه أنه ما دام أنه مطيع، فهو أفضل من هذا وخير منه، وما يدريك؟ ربما كانت العاقبة لهذا حميدة، وكانت العاقبة لك غير حميدة، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء(١).

فنظر الرحمة هذا ينتج عند العبد العمل الصالح، ينتج عند العبد الدعوة، ينتج عند العبد الخير، والأمر والنهي ينتج عند العبد التوازن، فإذا نظر نظر رحمة دعا، والأمر والنهي يجعله متوازنًا في دعوته؛ لأن من الناس من يدعو من جهة الرحمة، حتى جعل حاله مع العصاة أبشع حال، وحتى

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٤): «**إِنَّ قُلُوب بني آدم كُلَّها بيْن إِصْبعيْنِ مِنْ أصابِعِ الرّحْمنِ، كقلْبٍ واحِدٍ، يُصرِّفُهُ حيْثُ يشاءُ**» ثُمّ قال رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمّ مُصرِّف الْقُلُوبِ صرِّفْ قُلُوبنا على طاعتِك**».

جعل العاصي كأنه لم يعص، وساوى بين العاصي والمطيع، وهذا من جراء مخالفة الأمر والنهي.

فإذًا: حالك من جهة الدعوة ومن جهة النظر إلى العاصي أن تنظر إليه بهذين النظرين، وتتعامل معه على وفقهما: أن تنظر إليه تارة رحيمًا بارًا به شفيقًا - خاصة إذا كان من الأقربين: والد، أو والدة، أو أخ، أو أخت -، وتنظر إليه بنظر آخر، فتأمره وتنهاه على وفق الشرع بما يحبب إليه الخير، وبما يبغض إليه الشر.

التعامل مع المبتدعة

من أنواع التعامل: التعامل مع المبتدعة، وهذا كثيرًا ما يأتي السؤال عنه لأهل العلم، يسأل أهل العلم: كيف يتعامل المرء مع المبتدعة؟ وهو نوع من أنواع العلم، فصله الفقهاء والعلماء في كتبهم، وبيّنوا ما ضوابط ذلك، وبيّنوا ما يحل وما يحرم، وكيف يعامل المبتدع.

المبتدعة أصناف: منهم الذي يجهر ببدعته، ومنهم من لا يجهر ببدعته، الذي لا يجهر ببدعته يعامل على السلامة؛ لأنه مسلم، والأصل في المسلم السلامة، حتى يظهر غير ذلك، وإذا أظهر بدعته، فيعامل معاملة المبتدع، والمبتدع يعامل بالهجران، يعني: الأصل في المبتدع أن يعامل بالهجر، وأن يهجر؛ لأن من أصول الشرع أن يهجر المبتدع، فيعامل بالهجران، وإذا سلّم لا يرد عليه؛ لأن فيه تعزيرًا له بإظهار السنة وإخماد البدعة.

المبتدعة لهم أحوال -أيضًا-، منهم من يكونون في دار الإسلام، ويكون

وصف البدعة على الطائفة دون الفرد، مثل ما يكون عندنا، نقول مثلًا: طائفة الرافضة، الرافضة موجودون، أو طائفة الإسماعيلية، الإسماعيلية موجودون، أو الصوفية، أو الأشاعرة في بعض البلاد.

كطائفة نعلم أن هؤلاء رافضة، نعلم أن هؤلاء إسماعيلية، نعلم أن هؤلاء صوفية، نعلم أن هؤلاء أشاعرة وهكذا، ما حكم هذه الطوائف في دار الإسلام؟ وكيف يتعامل المرء معهم؟.

الجواب: إن ثمة تفصيلًا، ذلك أن الطوائف في دار الإسلام، ما دام أن الدار دار إسلام - يعني: الدولة دولة إسلام -، فإن هؤلاء الأصل فيهم أنهم - وأعني بهؤلاء: الطوائف التي يحكم عليها كجنس بالكفر؛ مثل: دين الرافضة، أو دين الإسماعيلية -، هؤلاء من جهة العموم لهم في دار الإسلام حكم المنافقين كطائفة؛ كما بيّن ذلك أهل العلم.

والنبي ﷺ قبل من المنافقين أن يعاشروه في المدينة، وأن يبايعوه، وأن يشاروه، وأن يكونوا معه، ويعلمهم، ويعلم سرائرهم، ولكنه وكل سرائرهم إلى الله، وقبل علانيتهم بالإسلام.

فهذا في حكم عام كطائفة لهم حكم أهل النفاق، يعني: يقبل منهم ظاهرهم، وتوكل سرائرهم إلى الله ﷻ، فمن أظهر منهم -يعني من هذه الطائفة - من أظهر منهم بدعةً، عومل بأحكام المبتدع، ومن أظهر منهم شركًا، عومل بأحكام المشرك، ومن أظهر منهم نفاقًا، عومل بأحكام النفاق ومن أظهر منهم ردة، عومل بأحكام المرتد، يعني: عند القضاة.

فإذًا: من جهة الطائفة لا ينطبق حكم الطائفة على كل فرد، بل الأفراد من

هذه الطوائف التي أصلها كفري، هؤلاء الأفراد يعاملون معاملة المنافقين، يعني: يقبل منهم ظاهرهم، ويعاملون كما يعامل أهل النفاق، يبايعون، ويشارون، لكن لا يخالطون، ولا تقبل دعواتهم... إلى آخر أحكام النفاق المعلومة، إذا أظهر الواحد منهم بدعة، فتنطبق عليه أحكام المبتدع، إذا أظهر منهم الواحد شركًا، انطبقت عليهم أحكام المشركين... إلى آخر ذلك.

أما الطوائف التي لا تبلغ حد الكفر - مثل: الصوفية، ومثل: الأشاعرة، ونحو ذلك -، فهؤلاء لهم أحكام المبتدع. إذا علمت أن هذا المعيّن منهم مصرح بما يعتقدونه، أما إذا كان مستورًا، فإنه لا يندرج عليه حكم أهله، أو حكم فئته، أو حكم طائفته، حتى يتبين لك منه بقول أو بعمل أنه صوفي أو أنه أشعري، تندرج عليه أحكام أهل البدع: من هجرهم، وعدم قبول دعواتهم، ومن مجاهدتهم، وأمرهم ونهيهم، ورفع أحوالهم التي أظهروا فيها البدعة إلى أهل العلم، أو إلى ولاة الأمر... إلى آخر ذلك. هناك أحكام تفصيلية - أيضًا -، لكن يضيق الوقت عن بيانها.

التعامل مع الكفار

من أنواع التعامل: التعامل مع الكفار، وهذه خاصة في هذه البلاد كثر السؤال عن ذلك.

في السنين المتأخرة لما كثر الكفرة، وكثر أنواع جلب الناس للعاملين، منهم من يكون من النصارى، منهم يكون من البوذيين، منهم من يكون من

الهندوس. . . إلى آخر الفئات، كيف يتعامل المرء مع هؤلاء؟

الكفار أنواع، نوع من الكفار الحربيون، والحربيون هم الذين بينهم وبين أهل الإسلام حرب، والحربي يكون حربيًا في داره، فإذا أتى إلى دار الإسلام بغير أمان كان حربيًا، وأما إذا أتى بأمان، فينتقل إلى حكم فئة أخرى.

هذا النوع الأول: الذين هم الحربيون الواجب جهادهم، وذلك تبع لجهاد الدولة، أو لجهاد الإمام لهم.

النوع الثاني من الكفار والطوائف: أن يكونوا أهل ذمة، مثل مثلًا: في مصر، أو في سوريا، أو في العراق، هناك يهود وهناك نصارى، وفي اليمن هناك يهود وهناك نصارى، هؤلاء لهم ذمة؛ لأنهم حينما دخل الإسلام تلك البلاد كانوا موجودين فيها، فأعطوا الذمة، والنبي ﷺ أمر أن يوفى لأهل الذمة حقهم، وأهل الذمة عليهم شروط عمرية معروفة، ليس هذا محل بيانها، لكن بالنسبة إلى هذه البلاد ليس ثم أهل ذمة، هذه البلاد ليس فيها نصارى أصلًا، ولا يهود أصلًا، وإنما أُجلي هؤلاء من هذه البلاد، فليس ثم أحكام لأهل الذمة فيها، وإنما الأحكام هي من النوع الثالث، وهم المستأمنون، يعني: المعاهدون الذين دخلوا البلاد بأمان.

والمؤمنون يسعى بذمتهم أدناهم؛ كما ثبت ذلك في الصحيح[1]، فإذا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، والنسائي (٤٧٣٤)، وابن ماجه (٢٦٨٣) عنِ ابْنِ عبّاسٍ، عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُون تتكافأُ دِماؤُهُمْ وهُمْ يدٌ على منْ سِواهُمْ، يسْعى بِذِمّتِهِمْ أدْناهُمْ، ويُردُّ على أقْصاهُمْ**».

قدم أحد من الكفار بأمان بذمة مسلم، يعني: ما يسمى في هذا الوقت بكفالة ونحو ذلك، يعني: أدخله بأمانه، فإن له حقوق المستأمنين، وحقوق المستأمنين متنوعة، وهؤلاء المستأمنون لهم حقوق.

والمستأمنون قسمان: منهم من يكون موادعًا، يعني: غير مظهر لشيء يخالف ما استؤمن عليه، يعني: أنه في دار الإسلام لا يظهر بغضًا للمسلمين لا يظهر كلامًا في الإسلام، أو لا يظهر شيئًا مما عوهد عليه ألا يفعله في دار الإسلام.

هؤلاء المستأمنون الذين لهم هذه الصفة يعاملون بالعدل، والبر، والقسط؛ كما قال الله ﷻ في أمثالهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، فهذه الفئة هم الذين أتوا، ويؤدون أعمالهم كما هي، يكون نصرانيًّا، أو يكون مشركًا، أو يكون ملحدًا . . . إلى آخره، لكنه لم يظهر عيبًا في الإسلام، وإنما يؤدي عمله، وهو ساكت، لا يظهر شيئًا مما ينتقد عليه، أو مما يدل على أنه مبغض للإسلام وأهله، أو على أنه يسعى ضدهم، أو أنه يخالف الشروط التي جاء من أجلها.

فهذا النوع يعامل بالعدل، يعطى حقه كاملًا، ولا يجوز إذلاله، لاتجوز إهانته، ولا يجوز أن يُخرم الشرط الذي جاء من أجله؛ لأن الله ﷻ أوجب الوفاء بالعقد، وأوجب الوفاء بالعهد في قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، سواء كان مع مسلم أو مع كافر، قال الله ﷻ في الكفار: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٤]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، فما كان من الشروط في العقود - يعني: في عقد جلب هؤلاء -، فيجب أن يوفى؛ لأن المسلم هو الممتثل لأمر الله ﷻ، وشرط هذه الشروط، فيوفي بتلك الشروط إذا كانت موافقة لحكم الله ﷻ، هؤلاء إن أهديت لهم هدية، أو أجبت لهم دعوة، أو نحو ذلك؛ لأجل مصلحة شرعية، فإن هذا محمود.

وهكذا كانت أفعال النبي ﷺ وسنته مع أمثال هؤلاء في المدينة، فإنه ﷺ زار غلامًا يهوديًا كان يغشاه، كان الغلام يغشى النبي ﷺ، وربما يخدمه، فافتقده النبي ﷺ، فقيل له: إنه مريض، فعاده النبي ﷺ[(١)]، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي[(٢)]؛ كما هو معلوم.

ودعته امرأة يهودية، فأجاب دعوتها وسمَّت له الذراع[(٣)].

وهذا معلوم في أنواع تعامل المصطفى ﷺ مع أولئك، هذا في الطائفة الذين لم يظهروا عداوة للإسلام وأهله، هم مستأمنون، أو في البلاد التي

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٥٦) عنْ أنسٍ رضي الله عنه، قال: كان غُلامٌ يهُودِيٌّ يخْدُمُ النّبيّ ﷺ، فمرض، فأتاهُ النّبيُّ ﷺ يعُودُهُ، فقعد عِنْد رأْسِهِ، فقال لهُ: «**أسْلِمْ**»، فنظر إلى أبِيهِ وهُو عِنْدهُ فقال لهُ: أطِعْ أبا القاسِمِ ﷺ، فأسْلم، فخرج النّبِيُّ ﷺ وهُو يقُولُ: «**الحمْدُ لِلّهِ الّذِي أنْقذهُ مِن النّارِ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٩١٦) عنْ عائِشة رضي الله عنها، قالتْ: «**تُوُفِّي رسُولُ اللّهِ ﷺ ودِرْعُهُ مرْهُونةٌ عِنْد يهُودِيٍّ، بِثلاثِين صاعًا مِنْ شعِيرٍ**».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) عنْ أنسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه أنّ يهُودِيّةً أتتْ النّبِيّ ﷺ بِشاةٍ مسْمُومةٍ فأكل مِنْها فجِيء بِها فقِيل ألا نقْتُلُها قال لا فما زِلْتُ أعْرِفُها فِي لهواتِ رسُولِ اللّهِ ﷺ.

فيها أهل ذمة هم أهل ذمة، فيعاملون بقول الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، أن تبروهم يعني: بأنواع البر: أن تهدي له، أو أن تدعوه، أو أن تسقيه إذا أتاك شيئًا، أو أن تطعمه إذا أتاك طعامًا... إلى آخره، ولعل في هذا خيرًا له أن يحبب له الإسلام.

هؤلاء كثير منهم مغفول عنه، يكون المرء معه في عمله، معه في شركته، في مؤسسته، يقابل، في زمالة، يكون معه من هؤلاء، ولايدعوهم إلى الله ﷻ، ولا يتقرب إليهم بتحبيب الإسلام إليهم، وإذا نظرت إلى مكاتب الجاليات المنتشرة، وجدت أن كثيرًا من الجاليات هذه النصرانية أو غير المسلمة أسلمت، واعتنقت دين الله ﷻ لأجل ما قدم لهم من الدعوة، وما قدم إليهم من الخير، وتحبيب الإسلام إلى نفوسهم بالقول وبالعمل.

فهؤلاء ينبغي لهم أن يعاملوا بذلك، أن يعطوا حقهم، وأن يكون المرء معهم فيما يجب من امتثال أمر الله ﷻ، ومن امتثال أمر الله ﷻ فيهم ألا يكون مهادنًا لهم، وألا يكون مستأنسًا معهم، ولا يضحك معهم ويستأنس لغير غرض شرعي، ومن ذلك أحكام السلام وأحكام التحية.

وأحسن من فصل في أحكام التحية مع هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال: إن التحية التي يحرم ابتداء هؤلاء بها، إنما هي ابتداء السلام؛ لأن النبي ﷺ خص ذلك بالسلام فقال: «**لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**»[١]، ومعنى

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٧).

لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام يعني : لا تلقوا عليهم السلام أولًا ، وإذا لقيتموهم في طريق، يعني : وأنت ماشٍ في الطريق على رجليك؛ كما قيد الحديث بذلك الشيخ عبد العزيز بن باز، يعني : بيّن معنى الحديث في ذلك أن المراد بالمشي على الرجلين، ونحو ذلك.

أن تضطر ذلك الكافر إلى أضيق الطريق ليس معناه أن تضايقه، ولكن معناه أن يكون للمسلم - لأجل ما معه من الإسلام والتوحيد - أن يكون له صدر الطريق ووسط الطريق، فبعض الناس إذا أتى - مثلًا - في بعض الأماكن التي فيها هؤلاء، فيها كثرة كفرة؛ كالمستشفيات وبعض الشركات، إذا أتى، وجدت أنه يسير كأنه ذليل على حافة الطريق الطويل، أو السيب، أو نحو ذلك ملتصقًا بالجدار هنا وهناك.

وهذا مما لا يسوغ؛ لأن النبي ﷺ قال : «**فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**»، يعني : أن يكون للمسلم وسط الطريق، ويكون لأولئك الحافات، وهي أضيق الطريق، كذلك هؤلاء لا يعاملون بالتكريم، يكرمهم المسلم، وإذا أتوا بش فيهم، وكرم، وقابلهم بأنواع من المقابلة، قد لا يعملها لمسلم، هذا مما لا يسوغ؛ لأن معاملة أولئك بالبر وبالقسط - يعني : بالعدل - لا يعني أن يكرموا فوق ما أعطاهم الشرع.

بل يعاملون بالقسط -يعني : بالعدل- أن تعطيه حقه، وأن تأخذ منه حقك وأن تبره بنحو إهداء، أو نحو إجابة دعوة، أو معاملة بالحسنى، ونحو ذلك، قد قال الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠]،

وقد دخل في هذه الآية جميع أنواع التعامل.

الصنف الثاني من الكفار: أن يكون ذلك الكافر ممن يظهر منه بغض للإسلام، أو استهزاء بأركان الإسلام، أو استهزاء ببعض مبادئ الدين، أو نشر لأشياء مما يخالف بها ما جاء من أجله، فهذا لايجوز أن يعامل بالبر، وإنما يعامل بالعدل - يعني: أن يعطى حقه -، ويجب في حقه أن يبلغ عنه وأن يسعى في أمره حتى يترك هذه الأرض - أرض الإسلام -؛ لأنه لم يستقدم على هذا، وإنما استقدم بشروط، وإذا أظهر غير ما يجب من إعزاز الإسلام، وأظهر شيئًا من النقد في الإسلام أو للمسلمين، أو فعل بعض الأشياء التي لا يجوز له فعلها في دار الإسلام، فإنه يجب عليك أن تقوم بما يجب في هذا، وأن تبلغ عنه؛ حتى يترك هذه الدار.

فهو مستأمن لا يجوز إذلاله، مضايقته، لكن يجب أن يسعى في أمره، وأن يقاطع، وأن يبين أمره؛ حتى لا يعود إلى مثل ذلك، وحتى تسلم البلاد من شره.

المقصود من ذلك أن هذه الفئة، وهم الذين ظهر منهم هذا الصنف، الذين ظهر منهم هذا البغض، أو في فلتات اللسان أو الأعمال شيء من الكيد للإسلام ولأهله، فهؤلاء يجب أن يعاملوا بالحزم، وأن يعاملوا بالقسوة؛ حتى لا يظهر ضعف الإسلام والمسلمين عندهم، ويسعى في أمرهم حتى يتركوا هذه الدار.

❊ ❊ ❊

التعامل مع ولاة الأمر

من أنواع التعامل: التعامل مع ولاة الأمر، والله ﷻ أوجب لولاة الأمر في الإسلام، أوجب لهم حقًا، أوجب لهم الطاعة، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، قال ابن القيم رحمه الله وغيره من أهل العلم: «**فطاعة وُلَاة الأمر وَاجِبَة إِذا أمروا بِطَاعَة الله وَرَسُوله**»(١)؛ **ذلك أنه قال**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، ولم يكرر فعل الطاعة في ولاة الأمر؛ لأن ولاة الأمر يطاعون في غير معصية، يطاعون في المعروف، يطاعون في ما ليس فيه معصية لله ﷻ.

وحق ولاة الأمر عظيم، وكما قال ابن المبارك(٢):

لولا الخلافةُ لمْ تأمنْ لنا سُبُلٌ ... وكانَ أضعفُنا نهبًا لأقوانا

وهذا ظاهر فيمن تأمل، فحق ولاة الأمر السمع والطاعة في المعروف، وأما إذا أُمر العبد بالمعصية، فلا سمع ولا طاعة؛ لأن حق الله أعظم، ولأن حق الله مقدم.

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٣٧).

(٢) انظر: الاستذكار (٨/ ٥٧٨)، والتمهيد لابن عبد البر (٢١/ ٢٧٥)، والآداب الشرعية (١/ ١٩٧).

والتعامل مع ولاة الأمور يكون بأن يكون المرء معهم ساعيًا لما فيه صلاح الجماعة، ساعيًا لما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين معهم؛ لأن طاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم، وعدم إظهار بغضهم، أوعدم إظهار الشناعة عليهم، هذا فيه مصالح عظيمة للإسلام والمسلمين؛ كما بيّن ذلك أهل العلم.

فطاعتهم فرض، وقد جاء عن جمع من السلف أنهم كانوا يدعون الله ﷻ سرًا للسلطان كثيرًا، وقال الفضيل بن عياض والإمام أحمد وجماعة: (**لو أن لي دعوةً مستجابة لجعلتها للإمام، فإن صلاحه صلاح العباد والبلاد**)[١].

ومن خلع بيعة السلطان، أو بيعة ولي الأمر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وقد قال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً**»[٢]؛ ذلك لأن أهل الجاهلية يعتقدون أن العزة والكرامة والشرف ألا يطيعوا أحدًا، وأن يكون كل واحد منهم مطيعًا لنفسه، غير ذالٍ في الطاعة لغيره، فأتى الإسلام بخلاف ذلك؛ كما بيّن ذلك إمام هذه الدعوة في كتابه مسائل الجاهلية في المسألة الثالثة، فقال رحمه الله: (**فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على جور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلظ في ذلك وأبدى فيه وأعاد**)[٣]، وهذا ظاهر إذا تأملت النصوص في الكتاب

(١) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح (١/ ٣٢٩)، وحلية الأولياء (٨/ ٩١)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٠٣)، وابن حبان (١٠/ ٤٣٤).

(٣) انظر: المسألة الثالثة في كتاب مسائل الجاهلية لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١/ ٧).

والسنة في بيان حقهم.

ولاة الأمر حقهم أن تسعى في نصيحتهم؛ لأن نصيحتهم واجبة، وقد قال النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1]، فأئمة المسلمين من ولاة الأمور لهم حق في أن ينصحوا، وولاة الأمور إذا أطلقت، فإنها يعنى بها: ولي الأمر العام، إمام المسلمين، الملك، السلطان، الوالي، ويعنى بها: من كان له ولاية من نواب السلطان؛ لأن كل واحد له ولاية بحسبه.

فولي الأمر يجب عليك أن تعامله بالطريقة الشرعية، أن تعامله مخرجًا الهوى عن نفسك في نوع التعامل معه، فإذا عاملته بهواك، كنت غير سائر في التعامل معه على ما أوجب الله ﷻ، فإذا عاملته بما يوافق الشرع، عاملته بما أوجب الله ﷻ عليك، فكنت في التعامل معه في عبادة ممتثلًا الأمر مجتنبًا النهي.

من أنواع التعامل مع ولاة الأمر أن يسعى المرء في نصيحة ولاة الأمر، ومن المتقرر عند علمائنا، ومما دلت عليه النصوص أن النصيحة لولي الأمر تكون سرًا؛ لأن النصيحة له في أمر مما يدخل تحت ولايته، فهدي السلف فيها أن تكون سرًا، فقد جاء في صحيح البخاري أن جماعة قالوا لأسامة بن زيد - لما حصل من عثمان رضي الله عنه ما حصل من بعض ما لم يُفهم من أنواع تصرفاته -، قيل لأسامة رضي الله عنه: «**أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ: أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

أَفْتَتِحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ»[١].

وهذا ظاهر من أن الأصل في النصيحة أن تكون سرًا، وأما الإنكار، فإن الأصل فيه أن يكون علنًا؛ لأن الإنكار منوط بالرؤية، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[٢]، علق النبي ﷺ ذلك برؤية المنكر فقال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا**»، يعني: من رآه بعينه.

وقد ألحق أهل العلم بذلك (من سمع المنكر سماعًا محققًا)، يعني: سمعه هو، فإذا رأيت أنت المنكر، أو سمعته أنت بنفسك، سماعًا محققًا، كنت مخاطبًا بالإنكار، أما من لم يره، ومن لم يسمعه، فإن المجال في حقه أو الواجب في حقه يكون واجب نصيحة، وليس بواجب إنكار؛ لأن النبي ﷺ قيد ذلك بالرؤية، فقال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا**».

وأما الواقع في المنكر، فليس له ذكر في هذا الحديث، فإذا كان من ولاة الأمر، أو كان من عامة الناس، فإن الواقع في المنكر له بحث آخر، ليس كل إنكار للمنكر إنكارًا للواقع فيه، فإن النصيحة هي لمن وقع في شيء ينصح فيه، فتوجه إليه النصيحة بشخصه، وأما المنكر، فإن المنكر هو الذي يُنكر، فما كان تحت ولاية ولاة الأمر مما يحصل من المنكرات في الزمن الأول؛ كما رأينا في زمن عثمان رضي الله عنه مما قيل لأسامة رضي الله عنه، أو فيما بعده في زمن خلفاء بني أمية، أو في زمن العباسيين، إلى زمننا هذا، المسألة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧، ٧٠٩٨)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

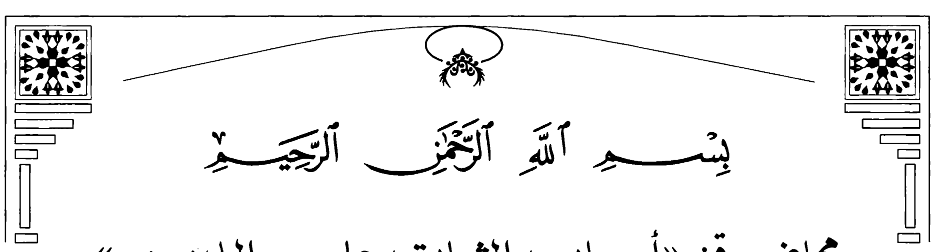
منقسمة إلى قسمين، إذا فُعل الأمر - يعني: فُعل المنكر - بحضرة الناس، فإن الإنكار هنا يتوجه سواء كان على هذا، يعني: على أي فئة من الناس؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ».

وهذا فيه عموم «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا»؛ لأن المنكر هنا نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع المنكرات، فإذا رُئي المنكر، فإنه ينكر، وعلى هذا يحمل فعل السلف وصنيع السلف؛ حيث إنهم أنكروا على بعض الولاة ما يحصل منهم، ذلك أنهم أنكروا لشيء فعله الوالي بحضرته، فعله الأمير بحضرته، فإذا فعل الأمير شيئًا من المنكر بحضرة العالم، أو بحضرة طالب العلم، أو بحضرة من عنده علم بأن هذا منكر، فإنه ينكره عليه؛ لأنه فعل بحضرته، وقد رآه، أما إذا لم يفعل بحضرته، وإنما كان مأذونًا به في ولايته، فالباب باب نصيحة، وليس باب إنكار، فهذا القيد وهذا الضابط في التعامل مع ولاة الأمور قيدٌ مهم، وفيه التفريق ما بين غلو الغالين وما بين جفاء الجافين في ذلك؛ لأن من سار في ذلك وفق هواه، لا على وفق الحكم الشرعي، فأضاع وضيع، ربما أضاع كثيرًا من الواجبات الشرعية في أنه ظن أن عدم الإنكار في هذه المسائل يعني: ألا تنكر منكرًا ألبتة، وهذا باطل، بل الواجب أن ينكر المرء المنكر، لكن دون أن يذكر الواقع فيه، فإذا كان المنكر جاريًا تحت ولاية الإمام، تحت ولاية الوالي، فإنه يذكر المنكر، دون ذكر للواقع فيه، أو دون ذكر للجهة التي تمارسه؛ لأن هذا فيه الصلاح، وهذا هو الذي بيّنه علماؤنا، وهو الذي تقتضيه النصوص، وتقتضيه دلالات كلام أهل العلم المتقدمين.

آخر نوع من أنواع التعامل، ولعله نرجئه إلى وقت آخر، هو التعامل مع العلماء، وأسأل الله ﷻ أن ينفع بما ذكرنا، وأن يجعل هذه الكلمات فاتحة باب لكثير منكم في أن يتعرف على الأحكام الشرعية في هذه المسائل، فإنما أردت بها تذكرة؛ لأن هذا المقام مقام قصير عن أن تفصل فيه أحكام أولئك، وهذه الدروس العامة خرجنا - كما تعلمون - بها عن أن تكون العبارة فيها عبارة فقهية محددة، وفيها نقول عن أهل العلم مدققة؛ كما هي عادة الدروس العلمية الخاصة، وإنما أردنا بها ذكرًا عامًا وبيانًا عامًا؛ ليشمل كثيرًا مما يحتاجه الناس.

أسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم، وأن يلهمنا الرشد والسداد، وأن يقينا الشر والفساد، وأن يجعلنا ممن يتعاونون على البر والتقوى، ونعوذ بالله من التعاون على الإثم والعدوان، وأسأل الله لي ولكم التوفيق ولعلمائنا ولولاة أمورنا، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على الحق، الداعين إليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاضرة: «أسباب الثبات على الدين»

وقد قام فضيلته بإلقائها في جامع الإمام عبد الله ابن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ليلة الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة النبي ﷺ

كلمة الشيخ/ عبد الله بن سليمان المهنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، قيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المرتضى، ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه واقتفى، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

ففي مجلس من مجالس العلم، وبيت من بيوت الله، وروضة من رياض

الجنة، في جامع الإمام عبد الله بن سعود رحمه الله، في ليلة الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة النبي ﷺ يسرنا أن نرحب، وأن نستضيف معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ**.

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، فحياه الله، وشكر له مسعاه.

أيها الإخوة، في زماننا وفي كل زمان، وخاصة في أزمنة الفتن والهرج والمرج والقيل والقال يحتاج المؤمنون إلى تثبيت الله ﷻ لهم على قوله الثابت. حول هذا المعنى يتحفنا معالي الشيخ - فتح الله عليه - في موضوع: (أسباب الثبات على الدين).

أسأل الله ﷻ أن يجزيه خير ما جزى عباده الصالحين، وأن يسدده في أقواله وأفعاله، وقبل أن يبدأ معاليه نرجو من الإخوة، ويؤسفنا أن نسمع في بيوت الله الموسيقى تنبعث من جوالات بعض المصلين، فنرجو، ونهيب بالإخوة أن يغيروا هذه النغمات الموسيقية، ويجعلوا جوالاتهم الآن في الوضع الصامت؛ لأجل تهيئة الجو للاستفادة من كلمة معاليه.

وهذه المحاضرة منقولة عبر شبكة الإنترنت، نسأل الله ﷻ أن ينفع المسلمين بما يقول معاليه في بقاع الأرض، نشكر للجميع حضورهم، ونشكر لمن كان سببًا في تنظيم وترتيب هذه المحاضرة، وهو المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بحي السويدي، وشكر الله لهم جهودهم وبارك لهم في أعمالهم، وأترك المجال لمعالي الشيخ، فليتفضل، وفقه الله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد، الحي القيوم، عالم الغيب والشهادة، الذي يجير، ولا يُجار عليه، هو الفتاح يفتح على عباده، وهو الجبار يجبر كسرهم ويجبر ضعفهم، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، أهل لأن يتقيه العباد أعظم تقوى، وأن يخافوه وأن يرهبوه، كما أنه ﷻ هو أهل المغفرة، يمن بها على من يشاء من عباده: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [المائدة: ٤٠].

أحمد الله حمدًا كثيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن استعمله على طاعته، وفتح لهم وعلى أيديهم أبواب الخيرات، وغَلَّق لهم وعلى أيديهم أبواب الشرور والمنكرات، كما أسأله - سبحانه - أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتحابين فيه، والمتناصحين فيه؛ إنه جواد كريم.

وفي فاتحة هذه المحاضرة التي دعاني إلى إلقائها المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات في حي السويدي أشكر للمكتب جهده في هذه المحاضرة، وفي غيرها من المحاضرات التي ينظمها، والدروس العلمية، والكلمات المجدولة المستمرة، كما إني أرجو أن يتعاون الجميع مع هذه المكاتب التعاونية في سبيل تحقيق رسالتها.

والثبات على الدين أمر مطلوب في كل حال، وفي كل أوان، وفي كل زمان ومكان؛ لأن القلب يتقلب لهذا كان من منة الله ﷻ على عبده محمد بن عبد الله ﷺ أن قال الله له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال ﷻ لنبيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، وقال - أيضًا - لنبيه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال - أيضًا - له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾ [الشورى: ١٥] ولأجل أهمية الثبات على الدين، وأنه مطلب من أعظم المطالب الدينية والشرعية كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(١)، «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(٢).

وفي كل زمن يحتاج المرء إلى أن ينظر في أمر دينه، وكيف يُحصل أسباب الثبات عليه، وفي أزمنة الفتن والتقلبات والأحوال، التي قد لا يعرف جُل الناس مبتدأها ولا منتهاها، ولا علتها الأولى ولا علتها الغائية، فإنه يعظم أن يحرص العبد على البعد عن أسباب الفتن؛ ليكون ثابتًا على دينه.

فموضوعنا اليوم في الحقيقة مهم، مهم لكل وقت، ولهذا الزمن بخصوصه، والثبات على الدين يظهر عظمه عند من عظم الدين وعرف أثره، فتعظيم الله ﷻ دين، وتعظيم رسوله ﷺ بما يناسب مقام الرسالة دين، وتعظيم القرآن والسنة دين، والبعد عن أسباب الهوى دين، وهذه كلها مأمور

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤).

بها في القرآن والسنة؛ لهذا كان الثبات على الدين مطلبًا يعلم العبد الذي يُعظم شأن هذه الأشياء، ويعرف أثرها على النفس، أنه من أهم المهمات؛ ولهذا على خطر عظيم من تلاعب بدينه، من ظن أن الدين والشرع هو مسرح لكل أحد، أو ميدان لا خطر على من دخله، فمن تعدى الحدود، يُخْشَ عليه.

الثبات على الدين، ثبات على الكتاب والسنة، ثبات على الحق القديم، ثبات على سبيل من شهد الله ﷻ لهم بالرضوان والمغفرة والنجاة.

الدين يختلف، هناك دين الفرقة الناجية، وهناك دين أهل الأهواء، ولكن الحقيقة أن الدين الحق هو الذي نسعى إلى الثبات عليه، وهذا يتطلب معرفة به وعلمًا به، فصار عندنا أصلان عظيمان لأسباب الثبات على الدين، نجعلهما توطئة لما بعدهما:

أما الأول، فهو الاعتصام بالكتاب والسنة والحق القديم.

وأما الثاني، فهو العناية بالعلم النافع من أهله الذين تحققوا بفهم طريقة الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

أما الاعتصام بالكتاب والسنة، فهو مطلب عظيم؛ ولهذا بوب البخاري، أو كتب البخاري في صحيحه كتابًا سماه: (الاعتصام بالكتاب والسنة)، وكثير من أهل العلم صنفوا مصنفات خاصة في هذا المعنى (الاعتصام)، أو (الاعتصام بالكتاب والسنة)؛ وذلك لأن الاعتصام بالكتاب والسنة له أثران:

الأثر الأول: الثبات على الدين.

والأثر الثاني: رد الأهواء وأسباب الفتن التي ترد على القلب.

والاعتصام بالكتاب والسنة هو: الاعتصام بالله، والاعتصام بشرعه الذي هو الكتاب والسنة؛ لهذا قال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أهل العلم بالتفسير اختلفوا في معنى حبل الله هنا على أقوال: منها أن حبل الله هو الإخلاص له ﷻ، ومنها أن حبل الله هو القرآن، ومنها أن حبل الله هو السنة المبينة للقرآن، ومنها أن حبل الله هو الجماعة، وهذا هو المروي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد قال جماعة من المفسرين، ومنهم القرطبي: إن هذه الأقوال متقاربة - وهي من اختلاف التنوع - هذه الأقوال متقاربة، كلها صحيح، وبعضها يدل على بعض، فمن أخذ بالقرآن أخذ بالسنة، ومن لزم القرآن والسنة، هُدي إلى الإخلاص، ومن التزم بذلك، فهو على الجماعة.

أما الجماعة التي فسر بها ابن مسعود معنى الاعتصام بالكتاب والسنة، فهي جامعة لما تفرع من هذه التفاسير؛ وذلك أنه ﷻ جعل الحبل مقابلًا للفرقة، قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والكتاب والسنة يدعوان إلى الاجتماع، وينهيان عن الفرقة، قال ﷻ في سورة (الشورى) لما ذكر الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وقال هنا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهذا ظاهر بَيِّن في الملازمة ما بين لزوم الجماعة والنهي عن الفرقة.

قال العلماء - علماء أهل السنة -: إن الجماعة في الكتاب والسنة لها معنيان، وإن الفرقة المنهي عنها لها معنيان:

أما الجماعة بالمعنى الأول، فهي جماعة الدين، وهو الاجتماع على الدين الحق الذي هو مُبَيَّن في الكتاب وفي السنة، وفهمه سلف هذه الأمة.

وأما الجماعة بالمعنى الثاني، فهي جماعة الأبدان، وهي الاجتماع على من ولاه الله الأمر؛ لهذا جاء في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ رَضِيَ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: رَضِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَنْصَحُوا لِمَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»[(١)].

فالاعتصام بالكتاب والسنة أعظم أسباب الثبات على الدين، بل هو أُسها، وركنها الوثيق، والخلاصة أن لزوم الجماعة: لزوم الدين الحق، وعدم التفرق فيه، وهناك ملازمة ظاهرة ما بين التفرق في الدين والتفرق بين الناس في أبدانهم، أو من جهة لزوم الإمام أو ولي الأمر؛ وذلك أنهم إذا فرقوا في الدين، وكانوا شيعًا وأحزابًا، فإنه سيؤول ذلك إلى التفرق الآخر، وإذا تفرقوا في أمر الدين بأن فرقوا، ولم يؤمنوا بالكتاب كله، واتبعوا أهواءهم، فإنهم سيتلاعنون، ويتفرقون في أبدانهم ولا بد؛ ولهذا كل الفتن

---

(١) أخرجه: أحمد في مسنده (١٤/ ٣٣٥)، كما أخرجه مسلم (١٧١٥) بلفظ: «**إنّ الله يرْضى لكُمْ ثلاثًا، ويكْرهُ لكُمْ ثلاثًا، فيرْضى لكُمْ: أنْ تعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا، وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللهِ جمِيعًا ولا تفرّقُوا، ويكْرهُ لكُمْ: قِيل وقال، وكثْرة السُّؤالِ، وإضاعةِ الْمالِ**».

التي حصلت في تاريخ المسلمين إنما حصلت من جراء الأهواء وعدم لزوم الجماعة في الدين.

والجماعة لفظها يدل على التكثير، وقد لا يكون الآخذ بها كثيرًا، قد يكون أكثر الناس على غير الجماعة، ولهذا قال بعض السلف: «**إِنَّمَا الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ**»[1]. وإبراهيم الخليل عليه السلام، كان أمة؛ لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمة: هي الجماعة العظيمة، وهو مع كونه واحدًا، لكن الله جعله أمة؛ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين.

فعند ظهور الفتن أو التقلبات يحصل هناك اضطراب، فالمخرج في الثبات على الدين والبعد عن أسباب الفرقة هو بلزوم جماعة الدين وجماعة الأبدان، ولابد أن يكون في زمن الفتن أو زمن التقلبات، لابد أن يكون فيه اختلاف؛ لأنه تغير شيء، ولأنه حدث شيء، وأعظم ذلك: ما حصل بين الصديق رضي الله عنه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما عزم الصديق على قتال مانعي الزكاة، فناظره عمر، أو سأله عمر: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**»[2]، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «**وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ**». عمر رضي الله عنه التبست عليه ثم لزم طريق أبي بكر فقال - كما في الصحيح -: «**فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ**

---

(١) أخرجه: اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٢١) من خبر عمرو بن ميمون مع ابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠).

شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أبي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[(١)].

لم يستبن لعمر ﵁ الأمر من جهاته، لكنه لما رأى انشراح صدر أبي بكر لذلك، قال: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ؛ لأنه رجع إلى أصل الجماعة، والالتزام بالجماعة هو الحق؛ لأن المسألة إذا لم تكن ظاهرة عند صاحبها بدليل ظاهر بَيِّن قاطع، فإن لزومه للجماعة حينئذ هو مخرج له من زيغه في دينه أو بعده عن الصواب.

فالاعتصام بالكتاب والسنة يشمل لزوم نصوص الكتاب والسنة التي تحث على لزوم الدين وعدم التفرق فيه، وتحث على البحث عن الحق والتحري في ذلك، وتحث على لزوم الجماعة، وتحث على حفظ اللسان والبعد عن أسباب الردى مما سيأتي بيانه فيما نستقبل إن شاء الله.

أما الأصل الثاني: في ما ذكرنا، فهو العلم النافع الذي يجعل المرء متحققًا بمفاهيم الكتاب والسنة ومعاني الأدلة عن أهله المتحققين بفهم طريقة السلف وأهل الحق القديم.

الحق موجود، الحق ليس يخلو منه زمان، فلا بد من وجود الحق، والأمة لا يغيب عنها الحق في أي وقت من الأوقات، بل لابد أن يكون ثَمَّ حق، وأن يكون ثَمَّ قائم لله بحجته في بيان هذا الحق؛ لأن الله قد حفظ هذا الدين، ولأنه لابد أن يبقى الحق - كما قال الأصوليون - إلى قيام الساعة.

وهذا هو معنى وجود الفرقة الناجية، التي هي الطائفة المنصورة، هي

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٠، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠).

منصورة بالسيف والسنان عند وجود مقتضى الجهاد الشرعي، ومنصورة دائمًا بالحجة والبيان؛ لأنها على الحق القديم.

وقد قال بعض السلف: الحق قديم، ولكن الشأن فيمن يتكلم به، وهذا أمر بَيِّن ظاهر في أن الحق ليس خفيًا، ولكن قد يشتبه على بعض الناس، فإذا اشتبه الأمر - خاصة في زمن الفتن - كان من أسباب الثبات على الدين أن يؤخذ الحق من أهل العلم المتحققين فيه، ربما يكون الأمر أحيانًا الكلام فيه خير، وربما يكون أحيانًا السكوت فيه خير، وربما يكون البيان محمودًا، وربما يكون السكوت محمودًا؛ ولهذا قال الخليفة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف حال السلف من الصحابة وكبار التابعين: «**فَإِنَّهُمْ على عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا**»[1]. وقد ذكرها ابن قدامة في كتابه (لمعة الاعتقاد)، وهي مخرجة في الكتب المسندة وصفهم بقوله: «**فَإِنَّهُمْ على عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا**».

فمن أسباب الثبات على الدين: أن يقف المرء على علم صحيح، وأن يكف ببصر نافذ، أما إذا لم يقف على علم صحيح، ولم يكف ببصر نافذ، بل خاض بغير علم، ولم يكف لعدم بصيرته؛ فإنه يحدث منه الخلط والهوى ولابد؛ لهذا العلم النافع مهم جدًا، لكن هل من مقتضى الزمن الذي تتغير فيه الأحوال أن يكون العلم ظاهرًا لكل أحد، أم لابد فيه من التسليم؟

---

(١) رواه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، (٤٦١٢) مطولًا، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى - كتاب الإيمان [(ح١٦٤) (١/ ٣٢٢)]، وذكره المؤلف في كتابه ذم التأويل [(١/ ٣٤) (ح٦٨)]، ورواه أيضًا فيه عن عبد العزيز الماجشون (٦٧).

قد يكون العلم ظاهرًا لكل أحد، وقد يكون في بعض المسائل مبنيًّا على مقدمات شرعية من الأدلة أو من قواعد الشريعة، أو من فهم الواقع، لا يفقهها كل أحد؛ فلذلك ليس من شرط السلامة من الفتنة أو الثبات على الدين أن يفقه كل أحد كل الحق في زمن الاختلاف. وقد ذكرت لكم قصة عمر رضي الله عنه مع أبي بكر رضي الله عنه، وهي ظاهرة في هذا المجال، وكذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع صلح الحديبية وما حصل فيه من سؤال عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُم اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا**»(١).

كذلك في وقت قتل عثمان رضي الله عنه حصل الخلاف بين معاوية وبين علي رضي الله عنهما، علي رضي الله عنه رأى أن الفتنة أقبلت، فأراد أن يجمع الناس قبل البحث في مسألة دم عثمان والبحث عن قتلته، يريد أن يجمع الناس، فإذا تمكن، بحث عن القتلة؛ لأن مصلحة الاجتماع أعظم. معاوية رضي الله عنه رأى أن المطالبة بدم عثمان هو المتعين أولًا، فحصل الخلاف بينهما، ووقع منه ما وقع، وكان عند أهل السنة والجماعة - كما هو مدون في عقائد السلف - أن الصواب مع علي رضي الله عنه.

كذلك لما حدثت الفتن، لما حدثت فتنة ابن الأشعث - عبد الرحمن بن الأشعث - المشهورة، وخرج فيها معه من خرج، التبس الأمر على جمع من

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥).

الفقهاء، لكن آل الأمر إلى أن يتضح الأمر للشعب ولعدد ممن كان قد ذهب مع ابن الأشعث.

في زمن الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن التبس الأمر حتى على بعض العلماء، فمنهم من كَنَّ، ومنهم من ظهر، فصار كلام الإمام أحمد هو الحجة في ذلك؛ لأنه تمسك بالحق القديم في هذا.

الأمر يعود إلى أنه في زمن الاختلاف قد لا يكون الحق ظاهرًا عند كل الفئات، فلابد حينئذ من التسليم لأهل العلم؛ لأنه لا يمكن في الفتنة أو في الاختلاف أن يعلم كل أحد كل شيء، أو أن يُدرك الأمور الشرعية بتفاصيلها، والمصالح والمفاسد، وكيف ترعى... إلى آخره. حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء.

وهذا هو من أسباب الثبات على الدين، لا في حق الفرد في نفسه، بل في حق مجموع الأمة، الثبات على دينها العام أنه يُرعى الأخذ من أهل العلم المتحققين به.

الأمر الثالث من أسباب الثبات على الدين: أنه عند الاختلاف تشتبه البدايات والمآلات، فإذا نظر المسلم في شأنه، وجب حينئذ أن ينظر - في حال الاختلاف - في مآلات الأشياء لا في مُبْتَدَئِها؛ لأن مبتدأها لا يعني الصواب فيها، بل الصواب هو غاياتها ومنتهاها؛ ولهذا عرَّف بعض العلماء الحكمة بأنها: وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها.

والمعرفة بالمآلات أصل شرعي، ولهذا جاءت قواعد شرعية تُؤصل ذلك المبدأ دائمًا في الشريعة، ونحتاجه للثبات على الدين في زمن الفتن،

من تلك القواعد:

* **(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح)** نظر فيه العلماء إلى المآلات.

* **(ارتكاب أدنى المفسدتين لتفويت أعلاهما)** يمكن أن يكون عندي مفسدة ومفسدة، لابد أن أرتكب مفسدة منهما، فأختار المفسدة الصغرى، وأترك المفسدة الكبرى، هذا هو المتعين.

* **(سد الذرائع)** فالذرائع الموصلة أو الموسعة أو المفضية إلى الفتن يجب أن تُسد؛ حتى لا يكون الناس في ريب من دينهم.

ضرب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (إعلام الموقعين عن رب العالمين) أمثلة كثيرة لذلك، ومنها أذكر مثالين: منها مثال يتعلق بالمشركين وصنيع النبي ﷺ معهم في مكة، ومثال يتعلق بالمنافقين وصنيع النبي ﷺ معهم في المدينة.

قال: إن المشركين آذوا النبي ﷺ، وآذوا الصحابة في مكة، وحاصروهم في العام المعروف سنة عشر (عام الشعب) حاصروهم في الشعب، وضيقوا عليهم، طائفة من الصحابة سألوا النبي ﷺ في منى، قالوا: «**وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**»[(١)].

قال ابن القيم: فجعل النبي ﷺ مصلحة الدين مقدمة عن القتال؛ لأن مآل القتال ليس في مصلحة الدين.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ٨٩).

والمثال الثاني: صنيع النبي ﷺ مع المنافقين، المنافقون كانوا يكيدون لرسول الله ﷺ، وعملوا مسجدًا ضرارًا، وقالوا ما قالوا، وتخلفوا عن الجهاد، وكانوا يثبطون المؤمنين، وسعوا بالفساد، فلم يعاقبهم النبي ﷺ، بل أجراهم على الظاهر، فظاهرهم مسلمون، وباطنهم النفاق، فلما سُئل ﷺ أن يقتل أحدهم، فقال: «**دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١).

قال ابن القيم: فجعل مفسدة ترك العقوبة لهم محتملة؛ لأجل المفسدة الكبرى، وهي ألا يُقال: إن محمدًا يقتل أصحابه(٢).

وهذان مثالان مهمان في هذا الصدد.

فمن أسباب الثبات على الدين في زمن الاختلاف وفي كل حال أن تنظر في الأمور، تنظر إلى مآلاتها، وألا تكتفي بالنظر إلى مقدماتها، الناس يشتركون جميعًا في معرفة المقدمات، في معرفة البدايات، لكن من يعرف المآل، وما هي المصلحة التي تتخذ تجاه هذه المآلات؟ يعرفها أهل الرسوخ في العلم، أهل العقل، أهل الإدراك، ولاة الأمر، . . . ونحو ذلك؛ ولهذا قال ﷻ، في سورة (النساء): ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] فهنا قال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣]؛ لأن الجميع يشترك في

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ١١١).

معرفة هذا الخبر وفي معرفة بداياته، لكن هنا نبه الله ﷻ إلى أن الرد إلى الرسول وإلى أولي الأمر يُحدث استنباط مآلات هذا الأمر، قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: ٨٣]، هو خبر، لكن يستنبطون ماذا؟ يستنبطون هنا المآلات منه، وما هي المصلحة تجاه ذلك؛ لهذا ذم السلف الدخول في الفتن، وامتدحوا الحرص على الدين وكف اللسان؛ لأن المآلات تخفى، وإذا نظرت إلى ما حدث في التاريخ من حوادث، وجدتها ناتجة عن معرفة بالبدايات وجهل بالنهايات.

قد ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنهم كانوا ينشدون إذا ابتلوا بالمعارك، الحرب أول ما تكون ماذا؟...

الحربُ أوّل ما تكونُ فتيَّةً　　　تسعى بزينتها لكلِّ جَهولِ[1]

بداياتها جميلة: سنغلبهم، سنضربهم، سنعمل فيهم، ... إلى آخره، تسعى بزينتها لكل جهول، هل تسعى بزينتها لأهل النظر؟ لا، قال: لكل جهول. يقول: كان السلف يحبون أن يذكروا هذا البيت إذا بدأت الحروب، وهذا ظاهر بيِّن في فقههم في النهي عن ذلك.

الرابع من وسائل الثبات على الدين: أن يكف العبد عليه لسانه، اللسان: هو ميدان الابتلاء، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «**قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى**

---

(١) هذا البيت للشاعر المخضرم: عمرو بن معد يكرب الزبيدي، انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦١)، ومجمع الأمثال للنيسابوري (١/ ٤٠).

وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، أو قال على وجوههم - إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»(١).

قد يعاقب الله العبد بكلامه بأنه يصرفه عن رؤية الحق؛ لأنه تسرع فيما لا علم له به، ولأنه نسب للشريعة ما لا علم له به؛ ولهذا كف اللسان كان من منهج السلف.

ومن أسباب الثبات على الدين: في كل حال وفي زمن الاختلاف والفتن بخصوصه أن يكف العبد عليه لسانه. ننظر إلى أنه في زمن الاختلاف يحصل أن تتكلم الألسنة بما شاءت: فهذا مذموم، وهذا مقدوح، وهذا على الصواب، وهذا على الباطل، وهذا فيه، وهذا فيه، ما بين قادح، وهذا يؤيد هذا، وهذا يؤيد هذا.

والواجب أن يُكَف اللسان أولًا، وأن يقول العبد خيرًا أو ليصمت؛ لأنه باللسان تكون الفرقة، وقد يؤول الأمر باللسان إلى أنه يحصل نظر من الناس في كره بعضهم لبعض، وتأملوا كل التاريخ، تجدوا أنه ما حصلت فتنة إلا وقع بعدها فُرقة، لا يوجد فتنة حصلت إلا ويكون بعدها فُرقة ولابد، لماذا؟ لأن الناس أكثرهم لا يعون كف اللسان ومعرفة القواعد، بل يخوضون غيرةً، أو يخوضون حماسًا، أو يخوضون رغبة في الانتصار لهذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (١١٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩).

أو هذا، ولكن كف اللسان مدعاة للتقليل من أثر الفتن والتغيرات على المسلمين.

الله ﷻ قال لعباده: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣].

من أسباب ثباتك على الدين: ألا تُشغل لسانك في زمن الفتن بالأحكام التي تُلقى، إما أحكام كفر أو أحكام تضليل، أو نحو ذلك؛ لأن هذه الأحكام لها ما بعدها من التصرفات، وليسعك ما وسع السلف من أنهم يركنون إلى أهل العلم، وأنهم يكفون عليهم ألسنتهم.

مثلًا: إذا نظرنا، ما يمكن يحصل اختلاف إلا وتبدأ الأحكام: هذا كافر، هذه ردة، هذا بدعة، هذا ضال، هذا مداهن، هذا فاجر، هذا... إلى آخره، والناس إذا ضعف عندهم العمل للإسلام والسعي فيما فيه الخير، صاروا أهل حكم، وهم على الأرائك، يجلس على أريكته، ويبدأ يُصدر من الأحكام والأقوال... إلى آخره، وهو لا يعمل في الحقيقة للإسلام، بل غره الشيطان من أن عمله للدين يكون بإصدار هذه الأحكام والأقوال. والواجب على المسلمين العمل، نعم، من قال كلامًا على وجه الغيرة، فإنه يُعامل بحسبه، ولا يؤاخذ كما يؤاخذ من قاله عن هوى؛ كما فعل عمر رضي الله عنه حينما قال لحاطب رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا الْمُنَافِقِ. قال: إنه قد شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ، فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1] سماه منافقًا مع أنه بدري؛ لأجل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

الغيرة، فلم يؤاخذ عمر ﷺ بذلك لأجل الغيرة.

لكن الواجب أن نكف الألسنة، وأن نترك الأحكام لأهل العلم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»[١]، لابد، وهذا خطر عظيم؛ لأنه تُصدر الأحكام دون نظر أهل العلم المتحققين فيه.

من وسائل الثبات على الدين: والخاصة بهذا الوقت الذي نعيشه: الإقلال أو الامتناع عن رؤية الفضائيات المختلفة، حتى في الأمور الإخبارية؛ لأن عدو الأمة يعلم أن مصدر الاضطراب عند الناس إنما يكون بالمعلومات، المعلومات الصادقة أو المعلومات الكاذبة، ولهذا من طالع هذه الفضائيات - كما ترون اليوم - وما فيها من أخبار بعضها صحيح وبعضها غير صحيح، ومن نقاشات أصبح فيها بث للجهل.

وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال - وتأملوا هذا الحديث، وهو من دلائل نبوته ﷺ - قال: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُبَثَّ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا**»[٢] لاحظ كلمة: (يُبَث)، فإذا جالس المسلم عالمًا في اليوم ساعة أو ساعتين، اكتسب منه علمًا، وأثر في نفسه، فكيف إذا جالس جاهلًا أو فاسقًا أو منحرفًا ساعات طوال أمام هذه القنوات الفضائية؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

(٢) أخرجه بلفظه صاحب جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٩٠)، كما أخرجه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١) بلفظ: «**إنّ مِنْ أشْراطِ السّاعةِ: أنْ يُرْفع العِلْمُ ويثْبُت الجهْلُ، ويُشْرب الخمْرُ، ويظْهر الزّنا**».

فأولًا: الحذر منها من جهة الشبهات؛ لأنها تُعطي شبهات، وقد يشك المرء ممن يدمن النظر أو يعتني بها، قد يشك في دينه.

والثاني: فليحذر منها من جهة الشهوات؛ لأنها سبيل أيضًا إلى تغيير تدين العبد، قد يحتاج بعض الناس لأسباب شرعية أن ينظر بعضها مما فيه مصلحة للدين، لكن العامة - عامة الناس - لا يناسبهم ذلك، ولهذا الحذر من هذه القنوات الفضائية من جهالة، ومن نظر فيها فليميز، وإذا وجد نفسه أنها تتأثر ولا تُميز، بل يُصدِّق ما جاء فيها، أو تُستثار النفوس بما فيها، فإنه يحذر على دينه من ذلك، وعلى ألا يقع في الأهواء.

المسألة لم تعد تقتصر على علم أو بحوث شرعية، أو اختلافات، أو أقوال راجح ومرجوح في الشريعة، أصبحت المسألة تُثار النفوس فيها لأجل عدم الوئام، لأجل الكراهية، تنمية الكراهية، تنمية الفُرقة في النفوس؛ حتى يحدث في النفوس ما يحدث، وتُشعر الناس بأنك أنت إذا فهمت، فأنت الناقد، أنت البصير، أنت الفاهم، حتى يكون عندك قوة في رد الحق بمقتضى الرأي ومقتضى العقل، وهذا مذموم مطلقًا.

لذلك ينبغي التنبه إلى هذا، وقد أبلغني بعض الأخوة أن من الناس من أدام النظر في مثل هذه القنوات الفضائية، وهذا مذموم، من جهة كثرة الشبهات الواردة فيها، ومن جهة تسلط الشهوات وأصحاب الشهوات على هذه القنوات، والله ﷻ يقول: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] وهذا ظاهر بيِّن.

أما الوسيلة أو السبب السادس: فهو كثرة العبادة، من أسباب الثبات

على الدين أن يعلم الله ﷻ منك أنك معظم له، محب لقربه وللتقرب منه ﷻ، وخاصة عند زمن الاضطراب والفتن، كثرة العبادة من أعظم الوسائل، العبادة أعظمها بتوحيد الله ﷻ وتعظيم طاعة رسوله ﷺ بمداومة الصلاة فرضها ونفلها، قراءة القرآن، الذكر، ننشغل بكلام الخلق عن كلام الخالق! هجر كثير من الناس القرآن!

الإمام أحمد رحمه الله كان مع كثرة ما عليه من أمور، وهو العالم الجليل الذي أمور الناس وسؤالهم والتعليم. . . إلى آخره منصبة في ساحته كان لا يمر عليه اليوم إلا وينشر المصحف، يقرأ فيه، ولو كان حافظًا؛ لأن النظر في المصحف له شأنه.

كثرة الصلاة، إذا أردت أن تقيس نفسك من جهة هل ما أنت فيه - مثلًا - ما يخوض الناس فيه، أو ما تريد أنت وما تخوض فيه وما أقبلت عليه، هل فيه تعظيم لأمر الله، أم أنه من الأهواء؟ فانظر شأن الصلاة والقرآن عندك، إذا كانت هذه الأمور تجد معها أنسًا في الصلاة وأنسًا في قراءة القرآن، فيُرجى أن تكون على خير، أما إذا كانت قسوة على القلوب، فاحذر وحاذر؛ لأن الله ﷻ يعاقب، ومن عقوبته قسوة القلب، وهذا خطر عظيم مع إنه ميزان مهم.

العبادة من أعظم أسباب الثبات على الدين، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٧٠] قال في أولها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] أقبل على ربك، واسأله الثبات، اسأله البصيرة في أوقات الإجابة وفي آخر الليل، نبينا ﷺ الذي تكفل له ربه بالحق، وهو الذي يهدي إلى الحق، وبه يقضي ﷺ هذا ماذا كان يقول في دعائه في ليله؟ يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[(١)]. الاغترار بالنفس، وعدم العبادة، وعدم اللجوء إلى الله ﷻ، هذه من أسباب الوقوع في الأهواء، والشيطان يأتي العبد من هذه الجهة.

ختامًا: أسباب الثبات على الدين كثيرة متنوعة، لكن يجمعها ما ذكرنا من الاعتصام بالكتاب والسنة، ولزوم الجماعة، وأخذ العلم عن أهله المتحققين به، والبعد عن الأهواء، والنظر في المآلات، والاعتبار بالعلل الغائية للأشياء، ولزوم كف اللسان، ولزوم العبادة، والحذر مما يلقيه أعداء الإسلام إلينا في وسائلهم المختلفة عبر نَقَلةٍ إما قاصدين أو غير قاصدين.

كما إني أُنبه إلى أن المسألة عظيمة اليوم، والواجب تحري العلم بدليله، وتحري الحكم في المسائل، والنظر فيها بدليلها الشرعي، وفق القواعد الشرعية؛ لأن الشريعة جاءت بتحقيق المصالح ودرء المفاسد، جاءت بالحفاظ على أهل الإسلام وعلى بيضتهم، ولو ارتكبت بعض المفاسد، فإن ارتكاب بعض المفاسد الصغرى للحفاظ على المطالب الكبرى هذا أمر

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠)، ولفظه عند النسائي في الكبرى (١٣٢٤).

مطلوب في الشرع، والقواعد - بل والنصوص - تقتضيه.

مما يهم طالب العلم النظر في وقت الاختلاف، النظر في القواعد الفقهية؛ لأن القواعد الفقهية فيها رؤية لتعليلات الأحكام، ومقاصد الشريعة، ومن نظر في الشريعة بدون معرفة المقاصد وعلل الأحكام والقواعد الشرعية الفقهية التي نص عليها أهل العلم، فإنه قد لا يدرك الصواب في ما ينظر فيه من الأحكام.

أختم بهذا، وأسأل الله ﷻ لي ولكم التوفيق والسداد، وأن يجعلنا وإياكم ممن مَن عليهم بالثبات على الدين، وأشكر في الختام أخي الشيخ عبد الله بن سليمان المهنا على تقدمته وعلى عنايته بالأسئلة، وعلى جهده الدائم معنا في الوزارة فيما فيه النفع العام. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.



فهرس الموضوعات